حقيقة القرآن

إبراهيم أبو عواد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ القرآنَ الكريم هو كتابُ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، وهو كلامُه المقدَّس الْمُنْزَل على محمد ﷺ بواسطة جِبريل _ عليه السلام _ الْمُتعبَّد بتلاوته الْمُعجِز ، الذي لا يمكن الإتيان بِمِثْلِه ، المنقول بالتواتر ، أي منقول من طبقة إلى طبقة لا يمكن اجتماعهم على الكذب ، المحفوظ بِحِفْظ الله ، فلا يمكن تغيير حَرْف مِنه ، والْمَبدوء بِسُورة الفاتحة ، والمختوم بِسُورة الناس .

وهذا الخصائص العظيمة التي لم تجتمع لِغَيره من الكتب السَّماوية أو الأرضية ، تجعله فوق مستوى النَّقْد والطعن والتشكيك . وهذا ليس من باب الاستعلاء بالباطل أو التعصب الأعمى. بل إبراز لِعَظَمة القرآن الكريم ، الذي هيَّأ اللهُ له ظُروفَ الحِفْظ والانتشار والبقاء عبر الأزمنة المتعاقبة رَغْمَ كثرة الأعداء .

وقد قال النبيُّ ﷺ : ((إنَّ هذا القُرآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ ، فاقْبَلُوا مِن مَأْدُبَتِهِ ما استطعتُم ، إنَّ هذا القُرآنَ حَبْلُ اللهِ ، والنُّورُ الْمُبِين ، والشِّفاءُ النافع ، عِصْمةٌ لِمَن تمسَّكَ بِه ، ونجاةٌ لِمَن تَبِعَه، لا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم، ولا تَنقضي عَجائِبُه))[رواه الحاكم في المستدرَك ، وصحَّحه] .

لقدْ شَبَّهَ القُرآنَ بِصَنيع صَنَعه اللهُ تعالى ، فِيه الخيرُ والنَّفعُ العميم ، ثُمَّ دعا الناسَ إليه رَفْعاً لِشَأنهم، وتكريماً لهم . فَمَن قَبِلَ هذه الدَّعوةَ الإلهية الكريمة فهو آمِنٌ ولهُ البُشرى في الدَّارَيْن ، ومَن رَفَضَها ، فقد أهلكَ نَفْسَه في الدُّنيا ، وقادَها إلى العذاب الأبديِّ في الآخِرة .

والقُرآنُ كاملٌ لا نقصَ فيه ، ومعصومٌ لا خطأ فيه . يُرشد الحائرين إلى اليقين ، ويهدي الضائعين إلى بَر الأمان ، ولا تنقضي عَجائِبُه .

ولا بد من التأدب في حضرة القرآن الكريم ، والإنصات إليه بتمعن في حال سماعه ، وقراءته بخشوع وتدبر . وقد جاء مُصدِّقاً للأنبياء السابقين والكُتب السماوية السابقة . أعلى مَنارَ الحق عبر تقديم الْحُجَج الدامغة ، وفضحَ الباطلَ وأهلَه عَبْر دَحْضِ عقائدهم الواهية .

وقد عَجِزَ فُصحاءُ العربِ وفُحولُ الشُّعراءِ أن يَأتوا بِمِثْلِه أو بِسُورةٍ مِنه معَ أنه نزل بِلُغتهم . وهذا التحدي مستمر حتى القيامة بلا انقطاع . مِمَّا يدل على رِفْعة القرآن ، وأن نُورَه دائمٌ ما دَامت السَّماواتُ والأرضُ .

ولم يَجِئ القرآنُ لِيُوضَع على الرُّفوف . بَل جاءَ لِيَصير واقعاً عملياً عبر تطبيق أحكامه كاملةً بدون انتقاص أو انتقاء . فاللهُ قد خلقَ العِبادَ ، ويَعلمُ ما يُصلِحهم وما يُفسِدهم . فينبغي التمسكُ به وعدمُ هَجْرِه . فَمَن تَرَكَه قُصِم ، ومَن تَمسَّكَ بِهِ هُدِيَ إلى السَّعادة الأبدية .

واللهُ تعالى لم يَتْرُك قضيةَ حِفْظ القُرآن للمُسلمين . لقد تَوَلَّى اللهُ حِفْظَهُ بِنَفْسِه ، فقال سُبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحِجْر : ٩] . وهنا تتجلى الحِكمةُ الإلهيةُ ، فالقُرآنُ الكريم هو آخِرُ الكتب السماوية نُزولاً ، ولا كِتابَ بَعْدَه . وإذا حُرِّفَ فإن الباطلَ سيستمر حتى يَومِ القِيامة ، ويَغرق الإنسُ والجِنُّ في الكُفر، وهكذا يَضيعُ دِينُ اللهِ إلى الأبد ، فَلَن يأتِيَ نبيٌّ بَعْدَ مُحمَّد ﷺ ، ولَن يَجِيءَ كِتابٌ سماويٌّ بَعْدَ القُرآنِ الكريم . لذلك اقتضت الحِكمةُ الإلهيةُ أن يَكون القُرآنُ مَحفوظاً بشكل كامل ، لأنهُ سَيَقود الإنسَ والجِنَّ إلى طريق الخير حتى قِيامِ الساعة .

إن هذه المقدمةَ تعبيرٌ مُوجَز عن الأفكار المركزية في هذا الكتاب . وقد حرصتُ على أن يَكون هذا الكتاب مادةً معرفية شاملة ومُتكامِلة ومُتوازِنة دُون زيادة أو نُقصان. وقد اعتمدتُ _ لاختيار عناوين فِهْرِس هذا الكتاب _ على فِهْرِس الموضوعات في تفسير القرآن الكريم الصادر عن دار الرشيد (دمشق _ بيروت) .

لقد حَاولتُ جاهداً إخراجَ هذا الكتاب بدون أي خطأ ، لكنَّ الإنسانَ كُتلةٌ من الأخطاء والتناقضات . والمعْصومُ مَن عَصَمه اللهُ تعالى ، والكَمالُ للهِ وَحْدَه . وإنْ وَجَدْتَ في هذا الكتاب خَيراً فَمِن اللهِ وَحْدَه ، وإن وَجدتَ غَيْرَ ذلك فَمِنْ نَفْسي والشيطانِ . وعُذْري أني قد حاولتُ . وشرفُ المحاولةِ يَكْفيني. وأدعو اللهَ أن يَرْزقني الإخلاصَ في القَول والعمل ، وأن يكون هذا الكتاب حُجَّةً لي لا حُجَّةً عليَّ .

واللهُ وَليُّ التوفيق .

إبراهيم أبو عواد

١
تِلاوةُ القُرآن

إنَّ تِلاوةَ القُرآن الكريم تُورِث في النَّفْس المؤمنة الإيمانَ العميق ، والطمأنينةَ الْمُفعَمة بالتأمل . فهي تنقذ الإنسانَ من دوائر الشك والقلق والحزن لتزرعه في عالم الإيمان والمحبة ، فيتحول الفردُ إلى عنصر فاعل في محيطه ، فيصير المجتمعُ خليةَ نحل دؤوب ، وتدور عجلةُ التنمية والإبداع حقيقةً لا شِعاراً مُفرَغاً من معناه .

ولا يُمكن فَهْمُ القُرآن إلا بتِلاوته حَقَّ التِّلاوة، وإقامةِ مَعانيه ومَبانيه بشكل كامل ، وتطبيقِ أحكامه كاملةً ، بَعيداً عن المِزاجية أو الانتقائية أو الاجتزاء أو البحث عن مصالح شخصية .

قال اللهُ تعالى : ﴿ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١][1].

قِيل : هُم المسلمون ، والكِتابُ هو القُرآن . وقِيل : هُم مُؤمِنو أهل الكِتاب (اليهود والنصارى). وهؤلاء يَقرؤون الكتابَ كما أُنزِلَ بلا زِيادة ولا نُقصان ، يُراعُونَ ألفاظَه بِدِقَّة ، ويتفكرون في معانيه بتَعَمُّق ، ويُحِلُّونَ حَلالَه ، ويُحرِّمون حَرامَه ، ويَعملون بمُحْكَمِه ، ويُؤمنون بمُتَشَابِهِهِ . إنهم يتَّبعونه حقَّ اتِّباعه ، ولا يُحرِّفونه ، ولا يَتأوَّلون الآياتِ على غَيْرِ التأويل الصحيح، ولا يُغيِّرون وَصْفَ النبيِّ محمد ﷺ الثابتَ في التَّوراة والإنجيل .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قَوْل الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : ﴿ الذين آتيناهم الكتابَ يتلونه حَقَّ تِلاوته ﴾ [البقرة : ١٢١]. قال : ((يُحِلُّون حَلالَه ، ويُحرِّمون حَرامَه ، و لا يُحرِّفونه عَن مَواضِعِه))[2].

إن " حق التلاوة " لا يعني إقامة حروف الكتاب وإضاعة حدوده . فالقول والفعل يجب أن يتلازما . ويجب أن يتحول الكلامُ الإلهيُّ إلى واقع ملموس في حياة الإنسان . وهذا لا يتأتى إلا

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٣٩): ((اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قَوْلَين: أحدهما أنها نزلت في الذين آمَنوا من اليهود ، قاله ابن عباس. والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبيِّ ﷺ ، قاله عِكْرِمة وقتادة. وفي الكتاب ، قَوْلان : أحدهما أنه القرآن ، قاله قتادة ، والثاني أنه التوراة ، قاله مُقاتِل. قَوْلُه تعالى : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ ، أي يَعْمَلون به حقَّ عَمَلِه ، قاله مُجاهِد)) اهـ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٩٢) برقم (٣٠٥٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بتطبيق الشريعة في الحياة، وذلك عبر تحليلِ الحلال ، وتحريمِ الحرام ، والحفاظِ على كلام الله تعالى ، ووَضْعِه في سِياقه بلا زيادة أو نقصان . والمقصودُ بالتحليل والتحريم هو فِعْل الحلال واجتناب الحرام.

ومِن " حق التِّلاوة " أن يتوقف القارئُ عند آيةِ الرَّحمة ، ويسأل اللهَ أن يَرْحَمَه ، وأن يتوقف عِندَ آية العذاب ، ويَتعوَّذ بالله مِنَ العذاب . فعن حُذَيفة _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((صَلَّيْتُ معَ النبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلةٍ ، فَمَا مَرَّ بآيةِ رَحمةٍ إلا وَقَفَ عِندَها وسَأل ، ولا مَرَّ بآيةِ عَذابٍ إلا وَقَفَ عِندَها وتَعَوَّذَ))[3].

وقال النووي في التِّبيان في آداب حَمَلة القُرآن (ص ٣٧) : ((ويُستحَب إذا مَرَّ بآيةِ عذابٍ أن يستعيذ بالله مِنَ الشَّر ومن العذاب ، أو يقول : اللهمَّ إني أسألك العافيةَ ، أو أسألك الْمُعافاةَ مِن كُل مكروه ، أو نَحْو ذلك ، وإذا مَرَّ بآيةِ تَنْزيهٍ لله تعالى نَزَّهَ)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٣٦) أن حُذَيفةَ _ رضي اللهُ عنه _ قالَ : ((صَلَّيْتُ معَ النبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلةٍ ، فافتتحَ البقرةَ ، فَقُلْتُ : يَركعُ عِندَ المائة ، ثُمَّ مضى ، فقلتُ : يُصلِّي بها في ركعةً ، فمضى ، فقلتُ : يَركعُ بِها ، ثُمَّ افتتحَ النِّساءَ فقرأها ، ثُمَّ افتتحَ آلَ عِمْران، فقرأها، يَقرأُ مُتَرَسِّلاً، إذا مَرَّ بآيةٍ فِيها تسبيحٌ سَبَّحَ ، وإذا مَرَّ بِسُؤالٍ سألَ ، وإذا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ)) .

وقَوْلُ حُذَيفة _ رضي اللهُ عنه _ إنما هُوَ في نفْسه (حديث نفْس) ، ولوْ نطقَ بِه لَبَطُلَت صلاتُه . وفي الحديثِ تَبْرز صِفةُ قِراءة النبيِّ ﷺ فهو يَقرأ بتمهُّل يُعطي لكلِّ حَرْفٍ حَقَّه ، يُوضِّح الحروفَ ، ويُشْبِع الحركاتِ ، ويُوصِل المعاني للسامع . والجديرُ بالذِّكر أن سُورة النِّساء في ذلك الوقت كانت مُقَدَّمةً على سُورةِ آلِ عِمران . وترتيبُ سُورِ القُرآنِ أمرٌ توقيفيٌّ مِنَ اللهِ تعالى .

وقال النووي في التِّبيان (ص ٣٧) : ((قال أصحابنا (يعني الشافعية) رحمهم اللهُ تعالى : ويُسْتَحَبُّ هذا السؤالُ والاستعاذة والتسبيح لكل قارئ ، سَواءٌ كان في الصلاة أو خارجاً منها . قالوا : ويُستحَبُّ ذلك في صلاة الإمام والمنفرِد والمأموم ، لأنه دعاء ، فاسْتَوَوا فيه كالتأمين عَقِبَ الفاتحة ، وهذا الذي ذكرناه من استحباب السؤال والاستعاذة ، هو مذهب الشافعي _ رضي اللهُ عنه_ وجماهير العلماء رحمهم اللهُ. قال أبو حنيفة _ رحمه الله تعالى _: ولا يُسْتَحَبُّ ذلك ، بَل يُكْرَه في الصلاة ، والصواب قَوْل الجماهير لِمَا قَدَّمْناه)) اهـ .

---

(٣) رواه ابنُ حِبَّان في صحيحه (٦/ ٣٣٨) برقم (٢٦٠٤) .

وفي صحيح مسلم (١/ ٧٤) عَن تميمٍ الدَّارِيِّ أن النبيَّ ﷺ قالَ : ((الدِّينُ النَّصيحةُ)) ، قُلنا: لِمَن ؟ ، قال : ((للهِ ، وَلِكِتابِهِ ، ولِرَسُولِهِ ، ولأئمةِ المسلمينَ وعَامَّتِهِم)) .

إن الدِّينَ الإسلامِيَّ قائِمٌ على النَّصيحة ، فهي أساسُه المتين . وفي الحديثِ تتَّضح خمسةُ أنواع للنَّصيحة :

أ_ النَّصيحة للهِ تعالى . واللهُ غنيٌّ عن النَّصيحة ولا يَحتاجُها ، وإنما المسلمُ يَنْصَح نَفْسَه . والنَّصيحةُ للهِ تعني تَوحيدَ اللهِ ، والإخلاصَ في أداء العِبادات ، وَوَصْفَ اللهِ بِصِفاتِ الكمال ، وتَنْزِيهَهُ عن صِفات النَّقْص ، والتزامَ أوامره ، واجتنابَ نواهيه .

ب_ النَّصيحةُ للقُرآن . وهي قراءتُه بكل تدبُّر وخُشوع ، وتعظيمه، وإقامة حُروفِه على الوَجْه الأمثل ، والتفكر في معانيه ، والدفاع عنه ، وتعليمه ، وتحويله إلى واقع عملي ملموس .

ج_ النَّصيحةُ للرسول ﷺ . والمعنى : الإيمانُ بِهِ ، وتصديقُه، وتعظيمُه، ونشرُ سُنَّتِهِ والدفاع عنها ، والتَّخلقُ بأخلاقه ﷺ .

د_ النَّصيحةُ لأئمةِ المسلمين. إرشادُهم إلى الحق بأسلوب طَيِّب ، والدُّعاءُ لهم بالهداية والتوفيق إلى الخير ، وتركُ الخروج عليهم ، وتذكيرُهم بمصالح المسلمين .

هـ_ النَّصيحةُ لِعَامَّةِ المسلمين . توجيهُهُم إلى طريق الخير، واحترامُ كبيرهم ، والعَطْفُ على صَغيرهم ، ومساعدتهم ، ومحبتهم ، وعدم كُرههم أو احتقارهم .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٣٨و٣٩) : ((قالوا (أي العلماء) : أمَّا النصيحةُ لله تعالى ، فمعناها مُنصرِف إلى الإيمان بِه ، ونفي الشريك عنه ، وترك الإلحاد في صفاته ، ووصْفه بصفات الكمال والجلال كُلِّها ، وتَنْزيهه سُبحانه وتعالى مِن جميع النقائص ، والقيام بطاعته واجتناب معصيته ، والحب فيه ، والبُغض فيه ، ومُوالاة مَن أطاعه، ومُعاداة مَن عصاه ، وجهاد من كَفَر بِه، والاعتراف بِنِعمته، وشُكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور،والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة ، والحث عليها، والتلطف في جمع الناس أو مَن أمكن منهم عليها. قال الخطابي رحمه الله: وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نُصْحِه نفْسَه ، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن نُصح الناصح ، وأمَّا النصيحة لِكِتابه سُبحانه وتعالى، فالإيمان بأن كلامَ اللهِ تعالى وتنْزيلَه لا يُشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يَقْدِر على مِثْلِه أحد من الخلق ، ثم تعظيمه ، وتلاوته حَقَّ تلاوته ، وتحسينها ، والخشوع عندها وإقامة حروفه في التِّلاوة ، والذَّب عنه لتأويل الْمُحَرِّفين وتعَرُّضِ الطاعنين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه ، وتفهُّم عُلومه وأمثاله ، والاعتبار بمواعظه ،

والتفكر في عجائبه ، والعمل بِمُحْكَمِه ، والتسليم لِمُتشابِهِه، والبحث عن عُمومه وخُصوصه، وناسخه ومنسوخه، ونشر عُلومه والدُّعاء إليه ، وإلى ما ذكرناه مِن نصيحته . وأمَّا النصيحةُ لرسول الله ﷺ ، فتصديقه على الرِّسالة، والإيمان بجميع ما جاء به ، وطاعته في أمْرِه ونَهْيِه ، ونُصرته حيَّاً ومَيْتاً ، ومُعاداة مَن عاداه، ومُوالاة مَن وَالاه ، وإعظام حقِّه ، وتَوقيره ، وإحياء طريقته وسُنَّته، وبث دعوته ، ونشر شريعته ، ونفْي التُّهمة عنها، واستثارة عُلومها ، والتَّفقه في معانيها ، والدُّعاء إليها ، والتلطف في تعلُّمها وتعليمها، وإعظامها ، وإجلالها ، والتَّأدُّب عِندَ قراءتها ، والإمساك عن الكلام فِيها بغَير عِلْمٍ ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بَيْته وأصحابه ، ومُجانَبة مَن ابتدعَ في سُنَّته ، أوتعرَّضَ لأحد من أصحابه ، ونَحْو ذلك . وأمَّا النَّصيحةُ لأئمة المسلمين ، فَمُعَاونتهم على الحق ، وطاعتهم فيه ، وأمرهم به ، وتنبيهم ، وتذكيرهم برِفْق ولُطْف ، وإعلامهم بما غَفِلوا عنه ولم يَبْلُغْهم مِن حقوق المسلمين ، وترك الخروج عليهم ، وتألُّف قلوب الناس لطاعتهم ، قال الخطابي رحمه الله : ومِن النصيحة لهم الصلاة خَلْفَهم ، والجهاد معهم ، وأداء الصدقات إليهم ، وترك الخروج بالسَّيف عليهم ، إذا ظَهَرَ مِنهم حَيْفٌ أو سُوء عِشرة ، وأن لا يُغْرَوا بالثناء الكاذب عليهم ، وأن يُدعَى لهم بالصلاح ، وهذا كله على أن المراد بأئمة المسلمين الخلفاءُ وغَيْرُهم ، مِمَّن يقوم بأمور المسملين من أصحاب الوِلايات ، وهذا هو المشهور ، وحكاه أيضاً الخطابي ، ثم قال : وقد يَتأوَّل ذلك على الأئمة الذين هُم عُلماء الدِّين ، وأن مِن نصيحتهم قبولَ ما رَوَوْهُ ، وتقليدَهم في الأحكام، وإحسان الظن بهم، وأمَّا نصيحةُ عامَّة المسلمين ، وهُم مَن عَدا وُلاة الأمر ، فإرشادُهم لمصالحهم في آخرتهم ودُنياهم ، وكف الأذى عنهم ، فَيُعَلِّمهم ما يَجهلونه مِن دِينهم ، ويُعينهم عليه بالقَول والفِعل ، وسَتْر عَوراتهم ، وسَد خَلاتهم _ باللام الْمُشَدَّدة _(ثغراتهم) ، ودَفْع المضار عنهم ، وجَلْب المنافع لهم ، وأمرهم بالمعروف ، ونَهْيهم عن الْمُنكَر بِرِفْق وإخلاص، والشَّفقة عليهم، وتَوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم ، وتخوُّلهم بالموعظة الحسنة، وترك غِشِّهم وحَسَدِهم، وأن يُحِبَّ لهم ما يُحِبُّ لنفْسه من الخير ، ويَكره لهم ما يَكره لنفْسه من المكروه ، والذَّب عن أموالهم وأعراضهم ، وغَير ذلك من أحوالهم بالقَول والفِعل، وحَثُّهم على التَّخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط هِممهم إلى الطاعات ، وقد كان في السلف _ رضي اللهُ عنهم _ مَن تَبلغ به النصيحة إلى الإضرار بِدُنياه ، والله أعلمُ)) اهـ .

فعلى المسلم أن يَلتزم بالنُّصح بأسلوب طَيِّب ، ولا يُبالي بالعَقَبات في طريقه ، كالسُّخرية والاستهزاء ، أو عدم استجابة المنصوح ، أو مُعاداة الناس . ومَن قَبِلَ النصيحةَ أمِنَ الفضيحةَ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرونَ وأنتم تُتلى عَلَيْكُم آياتُ اللهِ وفِيكُم رَسُولُهُ ﴾ [آل عِمران : ١٠١] .

إنكارٌ واستبعاد . كيفَ تكفرون أيها المؤمنون وآياتُ اللهِ تَنْزِل على النبيِّ ﷺ ، وهو يَتلوها عَليكم ، والنبيُّ ﷺ معكم وبين أظهُرِكم وهو على قَيْد الحياة ، لم يَمُتْ ولم يَغِبْ . وبعبارة أخرى : كيفَ تكفرون أيها المؤمنون والْحُجَّتان الواضحتان معكم وفِيكم ، القُرآنُ والنبيُّ ﷺ . وقد مضى النبيُّ ﷺ إلى لقاء الله تعالى ، وبَقِيَ القُرآنُ بين المسلمين إلى يَوْم القِيامة رحمةً مِن اللهِ وفَضْلاً .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٤) : ((يعني أن الكفر بعيد مِنكم وحاشاكم مِنه ، فإن آياتِ الله تَنْزل على رَسوله ليلاً ونهاراً ، وهو يَتلوها عليكم ، ويُبلِّغها إليكم)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((كان الأوسُ يتحدثون إذ ذَكروا أمرَ الجاهلية ، فَغَضِبوا حتى كان بَيْنَهم حربٌ ، فأخذوا السِّلاحَ ، ومشى بَعْضُهم إلى بَعْض ، فَنَزلت : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرونَ وأنتم تُتلى عَلَيْكُم آياتُ اللهِ ﴾ إلى قَوْلِه : ﴿ فأنقَذَكُم مِنها ﴾))(4).

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٣) أن النبيَّ ﷺ قال : ((وأنا تاركٌ فِيكُم ثَقَلَيْن ، أوَّلُهما كتابُ اللهِ ، فيه الهدى والنُّور ، فَخُذوا بكتاب الله ، واسْتَمْسِكوا بِهِ ، وأهلُ بَيْتي ، أُذَكِّرُكم اللهَ في أهل بَيتي ، أُذكِّركم اللهَ في أهل بَيتي ، أُذكِّركم اللهَ في أهل بَيتي)) .

إن القُرآنَ وآلَ البَيت مُقترِنان . وهذان الثَّقَلان سُمِّيا بهذا الاسم بسبب عِظَمِ قَدْرِهما ، وشَرَفِهما ، وشأنِهما الجليل ، ولأنَّ الأخذَ بهما والعملَ بهما ثقيل .

والقُرآنُ الكريم هو كلامُ اللهِ تعالى، ومَصْدرُ الأحكام الشرعية. وأهلُ البَيت هُم أُسرةُ النبيِّ ﷺ الذي ينتمي إليهم . وهُم مَن حُرِّمَت عليهم الزكاةُ والصَّدقةُ مِن أقربائه . والحديثُ يُوصِي بهم ، ويحضُّ على احترامهم. والتِّكرارُ ثلاثاً للتأكيد على حُقوقِهم ومكانتهم الرَّفيعة. وأهلُ البَيت عامٌّ

---

(٤) رواه الطبرانيُّ في الكبير (١٢/ ١٢٧) . وفي سنده إبراهيم بن أبي الليث . قال عنه ابنُ سعد في الطبقات الكبرى (٧/ ٣٦٠) : ((يُضعَّف في الحديث)) اهـ . وقال ابن حجر في لسان الميزان (١/ ٩٣) : ((متروك الحديث)) اهـ . وقال ابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين (١/ ٤٧) : ((وقال أبو علي صالح بن محمد الأسدي : كان إبراهيم بن أبي الليث يكذب عشرين سنة)) اهـ .

أُريدَ بِهِ خاص، وهُم العُلماء العامِلون. أمَّا الْجُهَّالُ والفاسقون مِن آل البَيت، فالحديثُ لا يَشْمَلُهُم. وأهلُ البَيت أوَّلاً وأخيراً هُم بَشَرٌ غَير مَعصومين ، فِيهِم الصالح ، وفِيهِم الفاسد .

وفي فيض القدير (٢/ ١٧٤) : ((قال الفخر الرازي : جَعَلَ اللهُ تعالى أهلَ بَيْتِهِ مُساوين له (يعني للنبيِّ ﷺ) في خمسة أشياء : في المحبة ، وتحريم الصدقة ، والطهارة ، والسلام ، والصلاة ، ولم يَقَعْ ذلك لِغَيْرِهِم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لَيسوا سَواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناءَ الليل وهُم يَسجدون ﴾ [آل عِمران : ١١٣] .

إنَّ هناك فِئةً مِن أهل الكتاب، يُؤمنون باللهِ تعالى ولا يُشرِكون به ، وهُم سائرون على الصراط المستقيم (طريق الأنبياء) ، ولا يَنْحَرِفون عنه . وهذه الفِئةُ المؤمِنة يَقومون الليلَ ويَتلون القُرآنَ في صلواتهم . وقد أشادَ بِهم القُرآنُ ، وأعطاهم حَقَّهم ، وخَلَّدَ ذِكْرَهم إلى الأبد . وهنا تَبْرُز منهجيةُ الإنصاف في القُرآن بِلا مُجامَلات أو محسوبيات .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٠) : ((يَتْلُونَ القُرآنَ في تَهَجُّدِهم . عَبَّرَ عَنهُ بالتِّلاوة في ساعات الليل معَ السُّجود ، لِيَكونَ أبْيَنَ وأبلغَ في المدح . وقِيل : المراد صلاة العِشاء ، لأن أهل الكتاب لَيُصَلُّونها)) اهـ .

إنَّ أهلَ الكتاب والأمَّةَ المحمَّدية ليسوا سَواء ، فلا يمكن المساواة بينهم ، لأن الإيمان والكفر ضِدَّان لا يجتمعان . فالأمةُ المحمدية هي الحاملة للشريعة السماوية المحفوظة ، وإذا ذهبت فإن الله تعالى لن يُعبَد في الأرض ، لذلك هي مستمرة وثابتة حتى يوم القيامة رغم حالات الضعف التي تمر فيها بين الحين والآخر .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : أَخَّر رسولُ الله ﷺ صلاةَ العِشاء ، ثم خرج إلى المسجد والناس ينتظرون الصلاة ، فقال : ((أمَا إنه ليس من أهل الأديان أحَدٌ يَذكر اللهَ هذه الساعة غَيْرُكم)) ، ثم نزلت عليه : ﴿ ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب أُمَّةٌ قائمة يتلون آياتِ الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ [5].

(٥) رواه ابن حبان في صحيحه (٤/ ٣٩٧) برقم (١٥٣٠) . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٤١و٤٤٢) : ((في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أن النبيَّ ﷺ احتبسَ عن صلاة العشاء لَيْلةً حتى ذهب ثُلُثُ الليل ، ثم جاء فبشَّرهم ، فقال : " إنه لا يُصلِّي هذه الصلاةَ أحَدٌ من أهل الكتاب " ،

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : لَمَّا أسْلَمَ عبد الله بن سلام ، وثَعْلَبة بن شُعْبة ، وأسد بن عُبَيد ، ومَن أسلمَ مِن يهود ، فآمَنوا وصَدَّقوا ورَغِبوا في الإسلام ، قالت أحبارُ يهودٍ أهلُ الكفر : ما آمَنَ بمحمد ولا تَبِعَه إلا شِرارُنا ، ولَوْ كانوا مِن خِيارنا ما تَرَكوا دِينَ آبائهم ، فأنزل اللهُ _عَزَّ وجَلَّ_في ذلك مِن قَوْلِهم:﴿ليسوا سواءً مِن أهل الكتاب﴾ إلى قَوْله: ﴿ مِنَ الصالحين ﴾ (6).

وأهلُ الكتاب مُتفاوِتون ، ولَيْسوا في إطار واحد، ففيهم المؤمن والكافر، والبَر والفاجر. فَمِن أهل الكتاب من هو مُتمسِّك بالشريعة الإلهية ، يُطبِّق التعاليم الدينية ، ولا ينحرف عنها . وهذه الفئةُ تتلو آيات الله تعالى ، وتقوم الليلَ ، وتُكْثِر التَّهجدَ . و﴿ ليسوا سواءً ﴾ جُملة مُسْتَأنَفَة لتوضيح الصِّفات الطَّيبة لمؤمني أهل الكتاب . ولا شَكَّ أن الإشادة بمؤمني أهل الكتاب ، وذِكْر محاسنهم ، وتخليد فضائلهم ، مِن شأنه تشجيع الآخرين على اعتناق الإسلام الذي يَرْفَع الناسَ .

والتفاوُتُ سُنَّةٌ إلهية ثابتة. فالناس مختلفون في قدراتهم العقلية، وإمكانياتهم الجسمية، ومستواهم المادي . وأهلُ الكتاب يَجري عليهم ما يَجري على الآخرين ، فلا يمكن وضعهم في سَلَّة واحدة. ففيهم المؤمن والكافر، والصالح والفاسد. والقرآنُ الكريم مُنصِفٌ في أحكامه ، فهو يُبرِز مكانةَ أهل الخير ويُشيد بهم ، ويُخلِّد أفعالهم الطَّيبة ، ويَذكر أهلَ الشَّر ويَذُمُّهم ويَفضح باطلَهم . وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٩٧) : ((ليس فريقا أهلِ الكتاب أهل الإيمان منهم والكفر سواء ، يعني بذلك : أنهم غير متساوين ، يقول : لَيسوا متعادلين ولكنهم مُتفاوِتون في الصلاح والفساد ، والخير والشر)) اهـ .

والمؤمنون إذا سَمِعوا كلامَ الله تعالى خَشَعُوا، وازدادوا إيماناً، وارتفع مستوى يقينهم ، وسَمَت أخلاقُهم . وقد قال اللهُ تعالى عَنهم : ﴿ وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُم إيماناً ﴾ [الأنفال : ٢] (7).

فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن مسعود . والثاني أنه لَمَّا أسلمَ ابنُ سلام في جماعة من اليهود، قال أحبارُهم: ما آمَنَ بمحمد إلا أشرارُنا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس ومُقاتِل)) اهـ .

(٦) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٨٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٥٠) : ((رجاله ثقات)).

(٧) هذه الآية دليل على أن الإيمان يزداد وينقص . يزداد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي. ((كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك)) [تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٠)] .

أي : زادتهم تصديقاً ويقيناً وخَشيةً لله تعالى ، فانشرحت صدورُهم ، وصَغُرَت مصائبُ الدنيا في عيونهم ، وارتفعت درجاتهم الإيمانية ، وازدادوا تَعَلُّقاً بالآخرة . وهذه الآية ميزان دقيق ، وعلى المرء أن يَعْرِض نفْسَه عليها ، فإذا ازداد إيماناً حينما يسمع آياتِ الله فهو على خير عظيم ، لأن قلبه مُفعَم بالإيمان، أمَّا إذا لم تُؤثِّر فيه آياتُ الله ففي قلبه مرض ، وعليه أن يُراجع أمره لكي يُصَفِّيَ قلبَه من الشوائب .

وعلى الجهة المقابلة نجد أن المشركين حينما يسمعون الآياتِ الإلهية فإن مزاجَهم يتعكر ، ويظهر عليهم الغضب والعُبوس والقلق وعدم الراحة ، لأن قلوبهم سوداء مفعمة بالظلمات تتضايق من نور الإيمان الباهر . وكما قال الشاعر :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

وقال اللهُ تعالى في وَصْفِ أهل الضلال : ﴿ وإذا تُتلَى عَلَيْهِم آياتُنا قالوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾ [الأنفال : ٣١] .

فإذا سمعوا الآياتِ الربانية الباهرة فإنهم يزعمون أن بإمكانهم الإتيان بكلام مُشابِه ، وذلك تنقيصاً منهم لكلام الله تعالى ، ومحاولةً لطمس نوره والاستخفاف به . وبالطبع فهم عاجزون تماماً عن الإتيان بِمِثْلِه ، ولوْ كانوا صادقين لقَدَّموا شيئاً يُشبِه القرآنَ أو يتفوق عليه . فهم يعتمدون منهجيةَ الطعن والتنقيص لإحداث شرخ في المجتمع الإيماني وتشكيك الناس بعقائدهم، مؤمنين بقاعدة " خير وسيلة للدفاع الهجوم " . ولو كانوا صادقين في دعواهم لَقَدَّموا البراهين الملموسة وأثبتوا أن القرآن كلامٌ بشري بالْحُجَج والأدلة، لكنهم عجزوا عن فعل ذلك. مِمَّا يُشير إلى اتِّباع أهوائهم في غياب تام لقواعد المنهج العِلمي . ومِن صفات الكافرين أنهم يُطْلِقون الأحكامَ بدون أدلة واقعية ملموسة . فهم يتحركون بدافع الهوى والحقد لا بدافع مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة. وهذا ليس غريباً ، فَهُم لا يملكون الأهليةَ العِلمية للجِدال والحِوار والْمُناظَرة. لذلك نرى أن اتهام القرآن الكريم بأنه أساطير الأولين لا تقوم له قائمة لأنه بدون دليل . وكما قال الشاعر :

والدعاوى إنْ لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعياءُ

قال الطبري في تفسيره (٦/ ٢٢٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وإذا تُتلَى على هؤلاء الذين كفروا آياتُ كتابِ الله الواضحة ...﴿ قالوا ﴾ جَهلاً مِنهم وعِناداً للحق وهم يَعلمون أنهم كاذبون

في قِيلهم : ﴿ لو نشاء لقُلنا مثلَ هذا ﴾ الذي تُلِيَ علينا ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ . يعني : أنهم يقولون : ما هذا القرآن الذي يُتلَى عليهم إلا أساطير الأولين ... سطَّره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم !)) اهـ .

والمشكلةُ الحقيقية أن الكافرين يَضحكون على أنفسهم ويَخدعونها . والإنسانُ قَد يَخدع غَيْرَه لتحقيق مكاسب مُعيَّنة ، أمَّا أن يَخدع نفْسَه فهذه هي الكارثة الكبرى . فاتِّهامُ القرآن بأنه أساطير الأولين كتبوه من أخبار الأمم الغابرة يفتقد إلى المنطق والعقلانية . فلو كان القرآنُ كلاماً بشرياً لَمَا عَجِزَ العربُ (وهُم أهل الفَصاحة والبَلاغة) عن الإتيان بِمِثْلِه . لماذا عَجِزَ الشعراءُ والخطباءُ عن تأليف كتابٍ كالقرآن الكريم ؟! . كما أن مُحَمَّداً ﷺ معروف للجميع بأنه الصادق الأمين ، فمن غير المعقول أن يتحرى الصدقَ مع الناس طيلة حياته ثم يكذب على الله تعالى. أضِفْ إلى هذا أن محمداً ﷺ كان أُمِّياً لا يَقرأ ولا يَكتب، ولم يُعرَف بأنه كان طالباً للعِلْم ، أو دارساً للتاريخ واللغاتِ القديمة ، أو مُطَّلعاً على تراث الحضارات السابقة ، فمن أين أتى بكل المعلومات الدقيقة في القرآن الكريم ؟!. إن هذا يدل _بلا شك _ على أن القرآن مصدره أعلى من مستوى البشر . ولوْ كان القرآن من تأليف إنسان فلماذا لم يُعَرِّفْنا هذا المؤلِّف بكتابه ، أو يقول إن محمداً قد أخذه منه ؟! . معَ العِلْم أن كُلَّ مُؤلِّف يَهتمُّ بتعريف الناس بِكُتبه ، والدعوة إلى قراءتها .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وإذا قَرأتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وبَيْنَ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ حِجَاباً مَستوراً ﴾ [الإسراء: ٤٥](8).

إن اللهَ تعالى جَعَلَ بين قراءة القرآن وبين الكافرين حاجزاً يَمنعهم من فَهْم القرآن ومعرفةِ أحكامه والانتفاع به ، عُقوبةً لهم على كُفرهم . والجاهلُ عَدُوُّ نفْسِه . فإذا قَرأ النبيُّ ﷺ القُرآنَ على المشركين، لم يَفقهوا شَيئاً مِنهُ، لأنَّ هناكَ حِجاباً ساتراً بَيْنَ النبيِّ ﷺ وبَيْنَهم . وهذا الحِجابُ

(٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٠ و٤١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ حِجَاباً مَستوراً ﴾ فِيه ثلاثة أقوال: أحدها أن الحِجاب هو الأَكِنَّة على قُلوبهم، قاله قتادة. والثاني أنه حِجاب يَستره فلا تَرَوْنَهُ . وقِيل : إنها نزلت في قوم كانوا يُؤذُون رسولَ الله ﷺ إذا قرأ القرآنَ ، قال الكلبي : وهُم أبو سُفيان والنَّضْر بن الحارث وأبو جهل وأم جميل امرأة أبي لهب ، فَحَجَبَ اللهُ رَسولَه عن أبصارهم عند قراءة القرآن،فكانوا يَأتونه ويَمُرُّون بِه ولا يَرَوْنَه.والثالث أنه مَنْعُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إيَّاهم عَن أذاه،حَكاه الزَّجاج.

المانع هو الأكِنَّة على قُلوبهم. وقلوبُ الكافرين ممتلئةٌ بالآثام والرِّجْس والأوساخ . ولا يُمكن لأحدٍ أن يَفهمَ القُرآنَ إلا إذا كانَ قلبُه نقِيًّاً وصافياً ، ويَخلو مِن الشوائب. والنُّورُ الإلهيُّ لا يَهبط في القلوب القذرة ، وإنما يَهبط في القلوب النظيفة. و " مستور " بمعنى ساتر . فالفاعلُ هُنا في لفظ المفعول . مِثْل : مشؤوم ومَيْمون ، والمعنى : شائم ويامن .

وقال الشَّوْكاني في فتح القدير (٣/ ٣٣١) : ((جَعَلْنا بَيْنَكَ يا مُحَمَّد وبين المشركين الذين لا يُؤمنون بالآخرة حِجاباً : أي إنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك ، كَمَن بَيْنَكَ وبَيْنَه حِجاب ، يَمُرُّونَ بِكَ ، ولا يَرَوْنَكَ ، ذَكَرَ معناه الزَّجاجُ وغَيْرُه)) اهـ .

إن اللهَ تعالى أرادَ حمايةَ رَسُولِه ﷺ مِن الكافرين عِندما يَقرأ القُرآنَ . وأيضاً ، إن اللهَ تعالى جعل بين قراءة القُرآن وعقولِ الكافرين حاجزاً، فلا يَفهمون القُرآنَ،ولا يَنتفعون به. لقد نَزَّهَ اللهُ القُرآنَ أن يَنْزِل في قلوب الكافرين ، فَهُم لَيسوا أهْلاً لِتَلَقِّي النُّور الإلهيّ ، ولا يستحقون شَرَفَ معرفة الله تعالى. وقال المناوي في فيض القدير(٦/ ٤٢٧): ((سَمِعَ الشِّبْلِيُّ قارئاً يَقرأ : ﴿ وإذا قَرأتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وبَيْنَ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ حِجَاباً مَستوراً ﴾. قال:أتَدْرُونَ ما هذا الحِجاب؟ هذا حِجابُ الغَيرة ، ولا أحَدَ أغْيَرُ مِنَ اللهِ ، يعني أنه سُبحانه لم يَجعل الكفارَ أهْلاً لمعرفته)) اهـ.

وعلى المرءِ أن يَنْشُر كلامَه المفيدَ في القلوب الصافية ، ويضع التعاليمَ الشريفة في البيئة النَّقية لكي تَحصل الاستفادة . وبعبارة أخرى ، عَلَيْه أن يَضع البذورَ في التُّربة الصالحة . وإذا لم يَفعل ذلك ، فقدْ أتعبَ نَفْسَه ، وأضاعَ وَقْتَه .

وقد وَرَدَ في إنجيل مَتَّى[٧: ٦] أن السَّيد المسيح ﷺ قال: ((لا تُعطُوا ما هُوَ مُقدَّسٌ للكلاب،ولا تَطرَحُوا جَواهِرَكُم أمامَ الخنازير ، لكي لا تَدوسَها بأرجُلِها وتَنقلبَ علَيكم فتُمَزِّقكم)).

وقال الإمامُ الشَّافعِيُّ ــ رَحِمَهُ اللهُ تعالى ــ :

أأنثرُ دُرَّاً بَيْنَ سَارِحةِ النَّعَمِ	وأنظِمُ مَنثوراً لِراعيةِ الغَنَمْ
لَعَمْري لَئِن ضُيِّعْتُ في شَرِّ بَلْدةٍ	فلستُ مُضِيعاً فيهمُ غُرَرَ الكَلِمْ
لَئِن سَهَّلَ اللهُ العزيزُ بِلُطْفِهِ	وصَادَفْتُ أهْلاً للعُلومِ وللحِكَمْ
بَثَثْتُ مُفيداً واستَفَدْتُ وِدَادَهُم	وإلا فمكنونٌ لَديَّ ومُكْتَتَمْ
ومَنْ مَنَحَ الجهَّالَ عِلماً أضاعهُ	ومَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبين فقدْ ظَلَمْ

وسبب هذه الأبيات أن الإمام الشافعيَّ _ رحمه اللهُ تعالى _ لَمَّا دخلَ مِصْرَ ، أتاه أصحابُ الإمام مالك _ رحمه اللهُ تعالى _ ، وأقْبَلوا عَلَيه ، فلمَّا رَأَوْهُ يُخالِف مالكاً ، تنكَّروا له ، وجَفَوْهُ . انظر تاريخ الإسلام (١/ ١٥٦٩) ، وحِلْية الأولياء (٩/ ١٥٣) .

أمَّا معاني الكلمات فهي كالتالي : الدُّر: دُرَر العِلْم . النَّعَم: الإبل . نثر المنظوم : الشِّعر . غُرَر الكَلِم : الحِكَم الرفيعة . المستوجبين : الذين يستحقون التَّعلم .

وعن أسماءَ بِنْتِ أبي بَكْرٍ _ رضي الله عنها _ قالت : لَمَّا نزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [الْمَسَد : ١] . أقبلت العَوراءُ أُمُّ جميل بِنتُ حَرْب ، ولها وَلْوَلَة ، وفي يَدِها فِهْر (حَجَر) ، وهي تقول : مُذَمَّما أبَيْنا... ودِينَه قَلَيْنا ... وأمْرَهُ عَصَيْنا . والنبيُّ ﷺ جالس في المسجد ، ومَعَهُ أبو بكر، فلمَّا رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، قد أَقَبلتْ وأنا أخاف أن تَراك ، فقال رسول الله ﷺ : ((إنها لن تراني)) ، وقرأ قُرآناً ، فاعتصمَ بِه كما قال ، وقرأ : ﴿ وإذا قَرأتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وبَيْنَ الذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ حِجَاباً مَستوراً ﴾ . فوقفتْ على أبي بكر ، ولم ترَ رسولَ الله ﷺ، فقالت : يا أبا بكر ، إني أُخْبِرْتُ أن صاحبك هَجاني ، فقال : لا ورَبِّ هذا البَيتِ ما هَجاكِ ، فوَلَّتْ وَهِيَ تقول : قَد عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أني بِنْتُ سَيِّدِها [9].

إن أُم جميل (زوجة أبي لهب) لَعَنَهُما اللهُ تعالى ، قد اعتبرتْ سورةَ المسدِ هِجاءً لها ، وأن هذا الهِجاء أَلَّفَهُ محمد ﷺ . فقرَّرت أن تعتدي على النبيِّ ﷺ بالقَوْل والفِعْل . أمَّا اعتداؤها القَوْليُّ ، فَقَوْلُها : مُذَمَّما أبَيْنا ، يعني أنها ترفض مُذَمَّماً ، وهي تقصد مُحَمَّداً ﷺ ، إذ إنها قامت بِعَكْس اسمه الشريف. وقد حمى اللهُ تعالى اسْمَ محمد مِنَ الذَّم والقَدْح ، وصرفَ كلامَ المشركين إلى اسم مُذَمَّم . وقَوْلُها : دِينَه قَلَيْنا ، يعني أنها ترفض الإسلام . وقَوْلُها : أمرَهُ عَصَيْنا ، يعني أنها ترفض كلامَه وتعاليمَه السَّمحة. أمَّا الدَّليل على محاولة اعتدائها بالفِعْل، فهو حَمْلُها لحجرٍ من أجل رَمْي النبيِّ ﷺ به وإلحاق الأذى به ، وقدْ أعمى اللهُ بصرَها وبصيرتها ، فلم تُشاهد النبيَّ ﷺ معَ أنه أمامَها . فما كانَ مِنها إلا أنها تحدَّثت معَ أبي بَكْر حَوْلَ قضية هِجائها _ كما تَعتقد _ ، فنفى أبو بَكْر ذلك ، وقدْ كانَ صادقاً ، لأن الهِجاءَ هو الشَّتْم والذَّم شِعْراً ، والقُرآنُ هو كلامُ اللهِ ، ولَيْسَ شِعْراً ولا نَثْراً . والنبيُّ ﷺ لَيْسَ شاعراً . فَوَلَّتْ وقدْ أَخَذَتْها العِزَّةُ بالإثم ، وأصابَتْها لَوْثةُ الْحَمِيَّة الجاهلية

(٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٣) برقم (٣٣٧٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبيُّ .

، وغَرِقَت في الفَخْر الجاهليِّ الكاذب . وهذه الأمراضُ الاجتماعية تتجلى في افتخارها بأنها ابنةُ سَيِّد قُرَيش (حَرْب بن أُمَيَّة).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا على قُلوبِهِم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْراً وإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهِم نُفُوراً ﴾[الإسراء : ٤٦] .

لقد جَعَلَ اللهُ على قُلوب الكافرين أغطيةً تَمنعهم من فَهْم القُرآن، واستيعابِ معانيه . فَقُلوبُهم غارقة في الظلام ، لا يَصِلُ إليها نُورُ القُرآنِ. والأكِنَّة جَمْع كِنَان، وهو الغِطاء. فالكافرون يَسمعون القُرآنَ لكنهم لا يَفهمونه. ومَثَلُهم كَمَثَلِ البهائم تَسمع النِّداءَ، لكنها لا تَفْهَم معناه . وهذا مُنتَهى الخِذلان . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٣٦) : ((﴿ أن يَفْقَهُوهُ ﴾ أي: لِئلا يَفقهوه ، أو كَرَاهِيَةَ أن يَفقهوه ، أي أن يَفهموا ما فيه من الأوامر والنواهي والْحِكَم والمعاني، وهذا رَدٌّ على القَدَرِيَّة (نُفاة القَدَر))) اهـ .

وفي آذانِهِم صَمَمٌ وثِقَلٌ يَمنعهم من معرفة القُرآن والانتفاعِ بِه . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٠) : ((ولَمَّا كانَ القُرآنُ مُعجِزاً مِن حيث اللفظ والمعنى ، أثبتَ لِمُنْكِرِيه ما يَمنع عن فهم المعنى وإدراكِ اللفظ)) اهـ .

وإذا وَحَّدَ النبيُّ ﷺ اللهَ تعالى في تِلاوة القُرآن ، وقالَ: لا إلهَ إلا اللهُ ، انزعجَ الكافرون أشدَّ الانزعاج ، وتضايَقوا بشكل واضح ، لأن المشركين كانوا يُحِبُّون أن تُذكَر آلهتُهم كما يُذكَر اللهُ تعالى . فإذا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ غَيْرَ مَشفوعٍ بِهِ آلِهَتُهُم، أعْرَضوا عن النبيِّ ﷺ ، وهَربوا من استماع التوحيد .

وقال ابنُ القَيِّم في رَوضة الْمُحِبِّين (ص ٣٠٥) : ((ومِن غَيْرَتِه سُبحانه وتعالى غَيْرَتُهُ على توحيدِه ودِينِه وكلامِه أن يحظى بِهِ مَن لَيس مِن أهله ، بَل حَالَ بَيْنَهم وبَيْنَه غَيْرةً عَلَيه ، قال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَعَلْنا على قُلوبِهِم أكِنَّةً أن يَفْقَهُوهُ وفي آذانِهِم وَقْراً ﴾)) اهـ .

وقال السُّيوطيُّ في الدُّر المنثور (٥/ ٢٩٨) : ((وأخرجَ ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن ابن زَيد ــ رضي الله عنه ــ في قَوْلِه : ﴿ وإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهِم نُفُوراً ﴾ ، قال : بُغضاً لِمَا تتكلم بِه لئلا يَسمعوه ، كما كان قَومُ نُوحٍ يجعلون أصابعهم في آذانهم لِئلا يَسمعوا ما يَأمُرُهم بِه من الاستغفار والتَّوبة)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : ﴿ وإذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ في القُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا على أدبارِهِم نُفُوراً ﴾ ، قال : ((الشَّياطين))[10].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عَلَيْهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الذينَ كَفروا للذينَ آمَنُوا أيُّ الفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وأحسنُ نَدِيَّاً ﴾ [مريم : ٧٣] .

إذا تُتلَى على الكفارِ آياتُ اللهِ واضحةَ الألفاظِ والمعاني ، وظاهرةَ الْحُجَّةِ ، وبَيِّنةَ الإعجازِ . فإنهم يُعرِضون عَنها لِعَجْزِهم عن مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، ويَفتخرون على المؤمنين بما لهم من الحظوظ الدُّنيويةِ ، والمكاسبِ المادية ، ويَعتبرون أن سُلْطتهم ونفوذَهم وأموالَهم هي دليلٌ واضح على صِحَّة دِينِهم الوثنيِّ . وقد كان المؤمنون يُعانون مِنَ الفَقْر وضِيقِ العَيش ، عَيْشُهم شديدُ الخشونة، وثيابُهم رَثَّة، في حِينَ أن المشركين كانوا يلبسون أفخرَ أنواع الثِّياب،ويُرجِّلون شُعورَهم، ويَدهنون رُؤوسَهم. فقالوا للمؤمنين : أيُّ الفَريقَيْن أفضلُ مَنْزِلاً ومَسْكَناً وأحسنُ مَجْلِساً ؟ . وهُم يَقصدون أنهم أفضل من المؤمنين لأن الدُّنيا في أيديهم ، أمَّا المؤمنون فَيُعانون مِن قَسوة العَيش . لقد اعتمدَ المشركون على الدُّنيا الفانية لإظهار أنفسهم أعظمَ شأناً ، وأعزَّ مَجلِساً ، وأكرمَ مَنْزِلاً . وَوَفْقَ تفكيرهم ، فإن اللهَ تعالى مَنَحَهم الدُّنيا لِحُبِّه لهم ، وكرامتهم عِندَه . وهذا مِعيارٌ باطل ، وقياسٌ ساقط ، لأن الدُّنيا للجميع ، أمَّا الآخرةُ فهي للمؤمنين فقط . وقد اغترَّ الكافرون بِحِلْمِ اللهِ عَلَيهم ، وإمهالِ اللهِ لَهُم ، وطُولِ أمَلِهِم ، وثناءِ الجاهلين عَلَيهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٠): ((والمعنى أنهم لَمَّا سَمِعوا الآياتِ الواضحات وعَجِزوا عن مُعارضتها والدَّخْلِ عليها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حُظوظ الدنيا ، والاستدلال بزيادة حَظِّهم فيها على فَضْلهم ، وحُسنِ حالهم عند الله تعالى ، لِقُصور نظرهم على الحال ، وعِلْمِهم بظاهر من الحياة الدنيا)) اهـ.

وقال ابنُ الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٥٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وأحسنُ نَدِيَّاً ﴾ ، والنَّدِيُّ والنَّادي مجلس القَوم ومُجتمَعهم ، وقال الفرَّاء : النَّدِيُّ والنَّادي لُغتان ، ومعنى الكلام : أنحنُ خَيرٌ أم أنتم ، فافتخَروا عليهم بالمساكن والمجالس)) اهـ .

---

(١٠) رواه الطبرانيُّ في الكبير (١٢/ ١٧٥). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٩) : ((وفيه رَوْحُ ابن الْمُسَيِّب . قال ابنُ مَعين : صُوَيلح ، وضعَّفه غَيْرُه ، وقال ابن حِبَّان : لا تَحِلُّ الرواية عنه ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

وقال الحافظ في الفَتْح (٨/ ٤٢٨) : ((وقِيل: أُخِذَ مِنَ النَّدى، وهو الكَرَم لأن الكُرَماء يجتمعون فِيه، ثم أُطْلِق على كُلّ مَجلِس)) اهـ .

إن الدُّنيا يأخذها مَن يَعمل ، سواءٌ كان مسلماً أم كافراً . أمَّا الآخِرةُ فلا يأخذها إلا المسلم . وهذا يشير إلى اختلاف الموازين بين الدنيا والآخرة . ولو كانت الدنيا ذات مكانة عند الله تعالى لأعطاها لأنبيائه _ عليهم الصلاة والسلام _ وحَرَم الكافرين منها ، لكن الواقع غير ذلك . مِمَّا يُشير إلى أن محبة الله للعبد تتجلى في هدايته للإسلام لا إعطائه متاع الدنيا الزائل . ولوْ كانت الدنيا ذات قِيمة لَمَا رَأيتَ الكافرين يتنعَّمون فِيها بالطُّول والعَرْض ، في حين أن الأنبياء كانوا يَرْعَوْنَ الغنمَ ، وهُم سَادة البشرية .

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ٣٤٥) : ((فقد كان آدَمُ _ عليه السلام _ حَرَّاثاً، ونوحٌ وزكريا نَجَّارَيْن ، وإدريسُ خَيَّاطاً ، وابراهيمُ ولُوطٌ زِرَاعَيْن ، وصالِحٌ تاجراً ، وكان سليمانُ يَعمل الْخُوصَ (ورق النخيل) ، وداودُ يَصنع الدِّرْعَ ويأكل مِن ثَمَنِه ، وكان مُوسى وشُعَيْبٌ ومُحَمَّدٌ رُعاةً _ صلواتُ اللهِ عَلَيهم أجمعين _)) اهـ .

وعن سَهْلِ بن سعد _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((لو كانت الدنيا تَعدِل عِندَ الله جَناحَ بَعوضةٍ ، ما سقى كافراً مِنها شَربةَ ماء))(11).

إذن ، فإن النعيم الدنيويَّ لا يَدلُّ على حُبِّ الله للعبد أو بُغضِه ، لأن الدنيا تُعطَى للمسلم والكافر على السَّواء . فلا يَصِحُّ اعتماد المال والسُّلطة والجاه والأولاد ورغد العَيش مقياساً على صلاح العبد أو فساده ، لأن التقوى هي المِحَك الحقيقي ، ومَحَلُّها القلب ، وهذا أمرٌ باطني لا يعلمه إلا اللهُ تعالى .

وقد دَخَلَ عُمَرُ بن الخطاب_ رضي اللهُ عنه _ على النبيِّ ﷺ ، فرأى أثرَ الحصير في جَنْبِه الشريف ، فبكى ، فقال ﷺ : ((ما يُبكِيك ؟)) ، فقال : يا رسولَ الله، إنَّ كِسْرى وقَيْصَرَ فِيما هُما فِيه وأنتَ رسولُ الله ؟ ، فقال : ((أمَا تَرْضَى أن تَكونَ لَهُمُ الدُّنيا ولنا الآخرة ؟))(12).

وهذا هُوَ المنهجُ الإسلاميُّ الثابت في كُل زمان ومكان . وهذا لا يَعني أن يَنام المسلمُ في بَيْته ، ويَترك الدُّنيا للكافرين والعُصاة ، بَل عَلَيه أن يُسيطر على الدُّنيا ، ويتمسَّك بها بأسنانه

---

(١١) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٥٦٠) ، وقال : ((حديث صحيح غريب من هذا الوجه)) .

(١٢) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٦٦)برقم(٤٦٢٩).ومسلم(٢/ ١١٠٥)برقم (١٤٧٩).

وأظافره ، لِكَي يُحَوِّلَها إلى واحة للإيمان والخير ، ومزرعةٍ للآخِرة . والدُّنيا جِسْرٌ للعُبور إلى الآخِرة . ولا بُدَّ للإنسان أن يُسيطر على الجِسْر إذا أرادَ النجاةَ . والفَرْقُ الجوهري بين المؤمن والكافر في فلسفة التعامل مع الدُّنيا هو أن المؤمن تكون الدُّنيا في يده ، أمَّا الكافرُ فَتَكون الدُّنيا في قلبه.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ في وُجوهِ الذينَ كَفروا الْمُنكَرَ ﴾ [الحج: ٧٢] .

إذا تُتلَى على الكافرين آياتُ اللهِ الباهرة والواضحة والشاملة للحُجَج والأدلة والبراهين ، تَظهر الكراهةُ والعُبوسُ والغضبُ على وُجوههم بسبب إنكار قُلوبهم لهذه الآيات ، ورَفْضهم لها ، وعَجْزِهم عن دَحْضها ومُعارَضتها ، وخُضوعِهم لعقائد الآباء المتوارَثة ، وتقليدِهم الأعمى لهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٨) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وإذا تُتلَى على مُشركي قُرَيش العابدين مِن دُونِ الله ما لم يُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً ﴿ آياتُنا ﴾ ، يعني : آياتِ القرآن ﴿ بَيِّناتٍ ﴾ ، يقول : واضحاتٌ حُجَجُها وأدِلَّتُها فِيما أُنزلت فِيه ، ﴿ تَعْرِفُ في وُجوهِ الذينَ كَفروا الْمُنكَرَ ﴾ يقول : تتبَيَّن في وُجوههم ما يُنكِره أهلُ الإيمان بالله ، مِن تَغَيُّرها لِسَماعهم بالقرآن)) اهـ .

وهؤلاء الكافرون غارقون في إنكار الحق، ويحاولون جاهدين طَمْسَ معالم النُّور ، لكنَّ الشمس لا يمكن تغطيتها بغِربال. وقد وَرِثوا عن آباءهم الخرافاتِ ، وهم متمسكون بها على غَير بصيرة ، ويُنافحون عنها بكل قوة . وهُم يعتقدون أن التسليم للحق الإلهيِّ الذي جاء به النبيُّ ﷺ يَنسف تاريخهم ، ويُلغي وجودهم ، لذلك يُقاومون نُورَ الحقيقة بِشَتَّى السُّبُل .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٤٠) : ((الإنكار لِفَرْطِ نكيرهم للحق ، وغَيْظِهم لأباطيل أخذوها تقليداً ، وهذا مُنتَهى الجهالة)) اهـ .

والمشركون حين يسمعون الآياتِ الإلهية الباهرة ذات الْحُجَج الساطعة التي لا يمكن قَهْرُها ، فإن علامات الاضطراب والكآبة وعدم الراحة تظهر على وجوههم بسبب كُرههم لِظُهور الحق ، وغَيْظِهم الناتج عن جَهلهم، وعدم قُدرتهم على مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يَخِرُّوا عَلَيْها صُمَّاً وعُمياناً ﴾ [الفُرقان : ٧٣] .

هذه صِفةٌ مِن صِفات المؤمنين . فالمؤمنون إذا سَمِعوا القُرآنَ ، فَهِموا ألفاظَه ، وتَدَبَّروا معانيه ، وأدْرَكوا المواعِظَ والعِبَرَ، وذَكَروا اليومَ الآخِرَ ، وما فِيه من النَّعيم والعذاب . إنهم يَفهمون القُرآنَ بعقولهم وقلوبهم ، ويَظهر تأثيرُه على حَوَاسِّهم ، ويَرَوْنَ الحقَّ فِيه فيتَّبعونه . إنهم في غاية اليقظة

والتركيز ، وهُم بَعيدون كُلَّ البُعْد عن الغَفْلة والأوهام . فالمؤمنُ سَميعٌ بَصير ، يَسمع ويَفهم ، ويرى ببصره وبصيرته ، ويمشي في طريق الحق بلا انحراف ، بِعَكْس الكافر ، فالكافرُ إذا سَمِعَ كلامَ اللهِ تعالى لا يتأثَّر ولا يَتغيَّر سُلوكُه ، بَلْ يَزداد كُفراً وجَهلاً وطُغياناً .

وفي تفسير ابن كثير (٣ / ٤٣٩) : ((قال ابن أبي حاتم : حَدَّثنا أُسَيدُ بنُ عاصم ، حَدَّثنا عبدُ الله بن حُمران ، حَدَّثنا ابن عَوْن ، قال : سألتُ الشَّعْبِيَّ ، قُلتُ : الرَّجلُ يَرى القَوْمَ سُجوداً ، ولم يَسمع ما سَجدوا ، أيسجدُ مَعَهم ؟ ، قال : فتلا هذه الآية . يعني أنه لا يَسجد معهم ، لأنه لم يَتدبَّر أمْرَ السُّجود ، ولا يَنبغي للمؤمن أن يَكون إمَّعة ، بل يَكون على بصيرة مِن أمره ويقين واضح بَيِّن)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٩) : ((﴿ لم يَخِرُّوا عَلَيْها صُمّاً وعُمياناً ﴾ ، لَم يُقيموا عليها غَير واعين لها ، ولا مُتبصِّرين بما فِيها ، كَمَن لا يَسمع ولا يُبصِر ، بَل أكَبُّوا عَلَيها سامعين بآذان واعية ، مُبصِرين بِعُيون راعية)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأُمِرْتُ أن أكونَ مِنَ المسلمينَ (٩١) وأن أتْلُوَ القُرآنَ ﴾ [النَّمْل] .

لقدْ أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ أن يَكون من الْمُوَحِّدين الذينَ أخْلَصوا دِينَهُم للهِ تعالى ، وانقادوا لأمْرِه ، واسْتَسْلَموا لِحُكْمِه ، وأن يَتْلُوَ القُرآنَ . يَعني يُبَلِّغُه للناس ، ويُوصِل كلامَ اللهِ إلَيهم ، لِكَي يَعْرِفُوا عَظَمَةَ خالقهم، ويُدرِكوا حقائقَ الإيمان ، ويُمَيِّزوا بين الحلال والحرام ، فَيَفوزوا بالدَّارَيْن .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦/ ٣٠٦) : ((﴿ وأن أتْلُوَ القُرآنَ ﴾ ، أي أُواظِب على تلاوته لتنكشف لي حقائقُه الرائعة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً ، أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدَّعوة وتثنية الإرشاد ، فَيَكون ذلك تنبيهاً على كِفايته في الهداية والإرشاد ، مِن غَير حاجة إلى إظهار مُعجِزة أخرى)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ اتْلُ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكتابِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

أمرٌ إلهيٌّ للنبيِّ ﷺ بأن يَتْلُوَ القُرآنَ معَ معرفةِ ألفاظه، وتَدَبُّرِ معانيه ، وتطبيقِ أحكامه ، واتِّباعِه بشكلٍ كاملٍ . وهذا الأمرُ لَيس خاصّاً بالنبيِّ ﷺ وَحْدَه، بَل أيضاً يَشمل أُمَّتَه . ولا شَكَّ أن القُرآنَ هُوَ الوَحْيُ السماويُّ الكامل والمعصوم ، فِيه خَلاص الإنس والجن في الدُّنيا والآخِرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٨) : ((﴿ اتْلُ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِنَ الكتابِ ﴾ تَقَرُّباً إلى الله تعالى بقراءته ، وتحفُّظاً لألفاظه ، واستكشافاً لمعانيه ، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له به بالتكرار، ما لم ينكشف له أوَّل ما قَرع سَمْعَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلّى مُسْتَكْبِراً كأنْ لَم يَسْمَعْها كأنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أليم ﴾ [لُقمان : ٧] .

هذا صِفةُ الكافر . إذا تُتلى عَلَيه آياتُ اللهِ تعالى ، أعرضَ عَنها بكل غُرور واستكبار ، وهَرَبَ مِنها ، فهو يتأذَّى بِسماع القُرآن ، لذلك لا يَعبأ بِه . وبالتالي ، لا يحصل على أيَّةِ فائدة مِن سماعه . لذلك فهو يتشاغل بالأشياء التافهة كأنه لم يَسْمَعْ آياتِ اللهِ بسبب صَمَم في أُذُنَيه ، وما بِهِ صَمَم . كأنَّ في أُذُنَيه ثِقَلاً يَمنعه من سَماع القُرآن وفَهْمِه. ولا شَكَّ أن العذاب الشديد يَنتظره . وذِكْرُ البِشارة على سَبيل التَّهكم والسُّخرية بِه . وهذا الكافر لم يَفْهَم الحِكمةَ الإلهية، ولم يُدرِك معنى الآياتِ، لذلك أعرضَ عَنها غَيْرَ مُبالٍ بِها لأنها لا تعني له أيَّ شيء، واستكبرَ عن الحق ، ولم يَسْعَ إلى التَّعلم ، أو الحِوار ، أو الْمُناقَشة ، أو السؤال ، أو مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة . وفي تفسير الجلالَيْن (ص ٥٤٠): ((وهو النَّضْرُ بنُ الحارث، كان يأتي الحِيرة يَتَّجر ، فيشتري كُتبَ أخبار الأعاجم ، ويُحدِّث بها أهلَ مكة ، ويقول : إن مُحمَّداً يُحدِّثكم أحاديثَ عاد وثمود ، وأنا أُحَدِّثُكم أحاديثَ فارس والرُّوم ، فَيَسْتَمْلِحون حَديثَه ، ويَتركون استماعَ القُرآن)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ الذينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وأقاموا الصلاةَ وأنفَقوا مِمَّا رَزَقْناهُم سِرَّاً وعلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارةً لَن تَبُورَ ﴾ [فاطِر : ٢٩] .

إن الذينَ يَقرؤون القُرآنَ بكل خُشوع وتدبُّر ، ويستمرون على تِلاوته ، ويُؤمنون به ، ويَعملون بما فِيه، وأقاموا الصلاةَ بِحُدودها في أوقاتها، وأخرَجوا الزَّكاةَ والصدقاتِ في الخفاء والعلانية ، يَرْجُون ثواباً مِن عِندِ الله تعالى ، وهذا الثوابُ واقعٌ لا مَحالة . وهذه التِّجارةُ معَ الله تعالى تجارةٌ رابحة لا تَخْسَر . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ١٥٢) : ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ لَن تَبُورَ ﴾ أي: لن تَكْسُد ولن تَهْلِك بالْخُسران ، أصْلاً صِفة لتجارة جِيءَ بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الرِّبح والْخُسران ، لأنه اشتراء باقٍ بِفَانٍ)) اهـ .

وقد وردَ في الحديث المرفوع أن القُرآنَ يَقول لصاحبه يَوْمَ القِيامة : ((وإنَّ كُلَّ تاجرٍ مِن وَراءِ تجارته ، وإنَّكَ اليَومَ مِن وَراءِ كُلِّ تجارةٍ))(13).

---

(١٣) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٣٤٨) برقم (٢٣٠٠٠) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٣٠) : ((ورجاله رجال الصحيح)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ [الصَّافَّات : ٣] [14].

أقسمَ اللهُ تعالى بالملائكة الأبرار التي تتلو القُرآنَ . وهذا تشريفٌ إلهيٌّ لهم ، وإشادةٌ بمكانتهم السَّامية ، وفضائلهم العظيمة . التاليات ذِكْراً عِظيماً مُقدَّساً مِن آياتِ اللهِ وكُتُبِه الْمُنْزَلة على الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _، معَ التَّسبيحِ والتَّقديسِ والتَّمجيد. وعن ابن مسعود _ رضي اللهُ عنه _ : _ في قَوْلِه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ فالتَّالِيَاتِ ذِكْراً ﴾ ، قال : ((الملائكة))[15].

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٥٧) : ((الملائكة تقرأ كِتابَ الله تعالى ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومُجاهِد ، وابن جُبَير ، والسُّدي . وقِيل : المراد جِبريل وَحْدَه ، فَذُكر بلفظ الجمع لأنه كبيرُ الملائكة ، فلا يَخلو مِن جنود وأتباع . وقال قتادة : المراد كُلُّ مَن تلا ذِكْرَ الله تعالى وكُتُبَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العَلَق : ١] .

هذه الآيةُ هِيَ أوَّلُ ما نَزَلَ مِنَ القُرآن . وهي دَعوةٌ إلهية كريمة إلى القراءة والكتابة والتَّعلم والتَّعليم . وهذه القضايا هي جَوهر الدِّين الإسلاميِّ الحنيف . واللهُ تعالى يَأمر رَسُولَه مُحمَّداً ﷺ أن يَقرأ القُرآنَ (الوَحْيَ الإلهيَّ الْمُقَدَّس) مُبْتَدِئاً بِاسْمِ اللهِ تعالى الذي خَلَقَ الأشياءَ ، وأتقنَ صِناعةَ المخلوقات ، ومُستعيناً بِه . والمقصودُ ذِكْرُ التَّسْمِيةِ في بداية كُلِّ سُورة . وفي زاد المسير (٩/ ١٧٥): ((وقال المفسِّرون: المعنى: اذْكُر اسْمَه مُسْتَفْتِحَاً به قِراءتَك ، وإنما قال تعالى : ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ ، لأن الكفار كانوا يَعلمون أنه الخالق دُونَ أصنامهم)) .

وعن عائشة_رضي الله عنها_قالت:((أوَّلُ سُورةٍ نَزلتْ:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾))[16].

والمقصودُ هو سُورة العَلَق التي تبدأ بهذه الآية .

---

(١٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٥) : ((وفي " التاليات ذِكْراً " ثلاثة أقوال: أحدها أنها الملائكة ، تقرأ كُتبَ الله تعالى ، قاله ابن مسعود والحسن والجمهور. والثاني أنهم الرُّسُل، رواه الضَّحاك عن ابن عباس . والثالث ما يُتلَى في القُرآن مِن أخبار الأمم ، قاله قتادة)) اهـ .

(١٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٦) برقم (٣٦٠٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٤٠)برقم (٢٨٧٣). وقال الذهبي : ((على شرط مسلم)) .

وتِلاوةُ القرآن أمرٌ عظيم ينبغي التعامل معه باحترام وأدب ، لذلك كانت الاستعاذة بالغة الأهمية عند التِّلاوة ، لكي يستحضر الفردُ معاني الالتجاء إلى الله ، القادر على حماية العبد من الشيطان . والاستعاذةُ باللهِ تعني الاستجارةَ بِه واللجوءَ إليه .

قال اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قَرأتَ القُرآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم ﴾ [النَّحْل : ٩٨] .

مِنَ السُّنة أن يَستعيذ المسلمُ باللهِ من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن ، وذلكَ لمنع الشَّيطان من إفساد القراءة بالوَسْوسة والتَّشويش وتشتيت الذِّهن . والشَّيطانُ يسعى بكل قُوَّته إلى منع العبد من فهم القرآن والعملِ به. والخطابُ شاملٌ للنبيِّ ﷺ وأُمَّتِه معَ أن الْمُخَاطَبَ هُوَ النبيُّ ﷺ . فالنبيُّ ﷺ هو الْمُبلِّغ عن الخالق تعالى، وهو الذي يَقود مسيرةَ الدَّعوة.((وإنما الفائدة في مُواجَهة النبيِّ ﷺ بالخطاب أنه هو الداعي إلى الله تعالى ، والْمُبَيِّن عنه معنى ما أراد ، فَقَدَّمَ اسْمَه في الخطاب ليكون سلوكُ الأمر في شرائع الدِّين على حَسَبَ ما يَنهجه ويُبيِّنه لهم)) [17].

وقال البَغوي في تفسيره (١/ ٤٢) : ((والاستعاذة سُنَّةٌ عِند قراءة القرآن . وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة)) اهـ .

وعن جُبَير بن مُطْعِم ــ رضي اللهُ عنه ــ أن النبيَّ ﷺ كان إذا افتتحَ الصلاةَ قال : ((اللهُ أكبر كبيراً ، والحمدُ لله كثيراً ، وسُبحان اللهِ بُكْرةً وأصيلاً ــ ثلاث مرات ــ . اللهمَّ إني أعوذُ بِكَ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ، مِن هَمْزِهِ ونَفْثِهِ ونَفْخِهِ))[18].

والاستعاذةُ باللهِ من الشيطان الرجيم (المطرود من رحمة الله تعالى) لها فوائدُ جَمَّة . والمسلمُ يَلجأ في كل أوقاته إلى خالقه العظيم لِكَي يَحْمِيَه مِن كُل سُوء ، ويَدفع عَنه كُلَّ مَكروه .

وقال ابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص ٤٩) : ((وحُكِيَ عن بعض السلف أنه قال لتلميذه: ما تصنع بالشيطان إذا سَوَّلَ لكَ الخطايا ؟ ، قال : أُجاهده . قال : فإن عاد ؟ ، قال : أُجاهده . قال : فإن عاد ؟ ، قال : أُجاهده . قال : هذا يَطول ، أرأيتَ إن مَررتَ بغنم ، فَنَبحك

---

(١٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٢٠٤) .

(١٨) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٦٠) برقم (٨٥٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هَمْزُه : المؤتة . نَفْثُه : الشِّعر . نَفْخُه : الكِبْر . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ١٢١) : ((وقال ابن ماجة : المؤتةُ يعني الجنون ، والنَّفْثُ : نَفْخُ الرَّجل مِن فِيه مِن غَير أن يَخرج رِيقُه ، والكِبْر : التِّيه)).

كلبُها ، أو مَنَعك من العبور ، ما تصنع ؟ ، قال : أُكابده وأَرُدُّه جُهدي ، قال : هذا يَطول عليك ، ولكن اسْتَعِنْ بصاحب الغنم يَكُفَّه عَنك)) اهـ .

وهذه القصةُ تُوضِّح فائدةَ الاستعاذة .

ولا تخفَى ضَرورةُ الإنصات في حالة تِلاوة القُرآن ، وتدبُّر معانيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه. وهذا لا يتأتى إلا بالإنصات العميق ، وتشرُّب معاني الآيات القرآنية ، والتفكر في عَظَمة الخالق تعالى وكلامِه المجيد، وكيفيةِ تطبيق الفِكْر القُرآنِيِّ على أرض الواقع لصلاح الفرد والجماعة. وإذا تُلِيَت آياتُ القُرآن الكريم ، فلا بُدَّ من الاستماع إلَيها بِتَدَبُّر وخُشوع تعظيماً للقُرآن ، بِعَكْس المشركين الذين لا يَحترمون القُرآنَ ، ويَتَعمَّدون التشويشَ عليه . قال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قُرِئَ القُرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأنصِتُوا لَعلكم تُرْحَمون ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] (19).

لقد أمرَهم اللهُ تعالى بالاستماع للقُرآن والإنصات له ، من أجل فَهم ألفاظِه ومعانيه ، ومعرفةِ حِكَمِه البليغة وأحكامه الشرعية التي جاءت لتحقيق مصالح الناس . والآيةُ عامةٌ لا تخصُّ قراءةَ القُرآن في الصلاة فَحَسْب ، بَل هي تَشمل قراءةَ القرآن في كل الحالات .

وفي الآية بيانٌ لضرورة الاستماع للقرآن بعمق وتفكُّر تعظيماً له ، ومن أجل فهم آياته . وهذا الأمرُ هو طريق الفَوز برحمة الله ورِضْوانه. ولا يمكن استيعابُ الآيات القرآنية ، واستنباطُ الأحكام الشرعية ، ورَبْطُها بالواقع العملي ، إلا من خلال التعمق في فهم الآيات عبر الاستماع شديد

---

(١٩) في الآية تفريقٌ لغوي بين الاستماع والإنصات. ((ولا شك أن الاستماع أخص من الإنصات ، لأن الاستماع الإصغاء ، والإنصات السُّكوت ، ولا يلزم من السكوت الإصغاء)) [فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٨٣)]. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣١٢): ((اختلفوا في نزولها على = =خمسة أقوال. أحدها أن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة ، فقرأ أصحابُه وراءه رافعين أصواتَهم، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس. والثاني أن المشركين كانوا يأتون رسولَ الله ﷺ إذا صلى ، فيقول بعضُهم لبعض : لا تَسمعوا لهذا القرآن والْغَوا فِيه ، فَنَزلت هذه الآية، قاله سعيد بن الْمُسَيِّب. والثالث أن فتى من الأنصار كان كلما قرأ النبيُّ ﷺ شيئاً قرأ هُوَ ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله الزُّهري. والرابع أنهم كانوا يتكلمون في صلاتهم أوَّل ما فُرِضت ، فيجيء الرَّجلُ ، فيقول لصاحبه: كم صَلَّيتم ؟، فيقول : كذا وكذا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله قتادة . والخامس أنها نزلت تأمر بالإنصات للإمام في الْخُطْبة يَوْمَ الْجُمُعة ، رُوِيَ عن عائشة وسعيد بن جُبَير وعطاء ومجاهد وعمرو بن دينار)) اهـ .

التركيز . كما أن فهم النصوص القرآنية هو الخطوة الأولى لتطبيقها واقعاً عملياً . فالقرآنُ لم يَجِئْ لِيُقْرَأ في المساجد أو في الصلوات فَحَسْب ، بل أيضاً لِيُصبح مُطبَّقاً في حياة الفرد والجماعة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٦) : ((نَزلت في الصلاة ، كانوا يتكلمون فِيها ، فأُمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له ، وظاهر اللفظ يقتضي وُجوبَهما (يعني الاستماع والإنصات) حيث يُقْرَأ القرآن مُطْلَقاً ، وعامة العلماء على استحبابهما خارجَ الصلاة . واحتجَّ بِه مَن لا يرى وجوبَ القراءة على المأموم ، وهو ضعيف)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٠٣) : ((وإذا قَرَأَ فأنصِتوا)) .

وهذا الحديثُ استدلَّ بِهِ مَن أسقطَ قراءةَ الفاتحة عن المأموم في الصلاة الجهرية كالمالكية . وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٢٤٢) : ((وهو حديث صحيح أخرجه مسلم من حديث أبي موسى الأشعريِّ ، ولا دلالة فيه لإمكان الجمع بين الأمرَيْن ، فَيَنْصِت فِيما عدا الفاتحة ، أو يَنْصِت إذا قَرأ الإمامُ ، ويَقرأ إذا سَكَتَ . وعلى هذا فيتعيَّن على الإمام السكوتُ في الجهرية لِيَقرأ المأمومُ ، لئلا يُوقِعَه في ارتكاب النَّهْي ، حيث لا يَنْصِت إذا قَرأ الإمامُ)) اهـ .

وقد كان الناسُ يقرؤون القُرآنَ معَ النبيِّ ﷺ فيتضايق كثيراً ، لأن ذلك يُؤثِّر على التركيز ، وتدبُّر معاني الآيات . فعلى المستمِع للقرآن أن يُركِّز في الاستماع ، ويَبتعد كلياً عن القراءة ، وإنما يَحصر تفكيره في معاني القُرآن. فعن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ : أن رسول الله ﷺ انصرفَ مِن صلاةٍ جَهَرَ فيها بالقراءة، فقال : ((هل قَرأ مَعِي أحدٌ مِنكم آنِفاً ؟))، قال رَجل : نَعَم ، يا رسول الله، قال: ((إني أقول: ما لِي أُنازَعُ القرآن)). قال : فانتهى الناسُ عن القراءة معَ رسول الله ﷺ ، فيما جَهر فيه رسولُ الله ﷺ مِن القراءة في الصلاة ، حين سَمِعُوا ذلك مِن رسول الله ﷺ [20].

فينبغي تجذير الفهم السليم لمعاني القُرآن عَبْرَ الاستماع ، فيكون جَوْفُ المسلم ماصَّاً للأفكار كالإسفنج الذي يمتص الماءَ. وهذا لا يتحقق إلا إذا فُتح البصرُ والبصيرةُ أمام قداسة الكلام الإلهيِّ. وكُلُّ كلامٍ يَدُلُّ على قائله ، فالكلامُ صِفة الْمُتكلِّم . وكُلما تعمَّقْنا في فهم القرآن الكريم أدْرَكْنا عَظَمَةَ الله تعالى ، وهذا يزيد الخشوعَ والتأمل والتفكر . وعلى المسلم أن يَقرأ القُرآنَ

---

(٢٠) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٠١) برقم (٧٩٩٤)، وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧٢) : ((وصحَّحه أبو حاتم الرازي)) ، والترمذي (٢/ ١١٨) برقم (٣١٢) وحسَّنه ، وابن حبان في صحيحه (٥/ ١٥٧) برقم (١٨٤٩) .

ببصره وبصيرته وقَلْبه ، ولا يَقرأ القُرآنَ كالجريدة. فالقرآنُ هو كلام الله تعالى ، ولا بُدَّ من قراءته بتركيز شديد . وعليه كذلك في حالة الاستماع ، أن يُجاهد نفْسَه للوصول إلى أعلى درجات الحضور الذِّهني ، والاستيعابِ بقلب حَي مُفعَم بالحيوية والنشاط .

وقد تحدَّث القرآنُ عن استماع الجِنِّ للقُرآن لِمَا رَأَوا فِيه مِن القداسة والجلال . مِمَّا يشير _ بلا شك _ إلى أن القرآن يُؤثِّر في كل المخلوقات على اختلاف جِنْسِها. وإن لم يَشعر المخلوقُ بتأثير القُرآن ، فالمشكلة في المخلوق لا القُرآن .

قال اللهُ تعالى: ﴿ وإذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالوا أنصِتُوا ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

إن الجِنَّ قد استمَعوا إلى القرآن، وأُصيبوا بالدَّهشة لجلالِه وإعجازِه، وآمَنوا بِهِ بعد أن تدبَّروه. وفي هذه الآية توبيخٌ شديد لمشركي قُريش المتمسِّكين بالكفر والنبيُّ ﷺ بين ظَهرانيهم ، في حين أن الجن يستمعون القرآنَ بأدب وخشوع ويؤمنون به . وهذا مديحٌ إلهيٌّ للجِنِّ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٥) : ((أمَلْناهم إلَيك ، والنَّفَرُ دُون العشرة)) اهـ .

أمَّا سببُ نزول الآية ، فعن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((هبطوا على النبيِّ ﷺ وهو يقرأ بِبَطْنِ نَخلة ، فلمَّا سَمِعوه قالوا : أنصِتوا ، قالوا : صَه . وكانوا تسعة ، أحدُهم زَوْبَعة))[21].

إنَّ الجِنَّ هبطوا على النبيِّ ﷺ وهو يقرأ القرآنَ في منطقة " بَطْن نخلة " بالحِجاز ، وهي مَوْضع بين مكة والطائف . فلمَّا سَمِعُوه انبهَروا بسبب جلال الكلام الإلهيِّ وعُلُوِّ شأنه، فأمَرُوا بَعْضَهم بالإنصات كَي يَزدادوا استيعاباً للقرآن،ومعرفةً بأحكامه.وقد ذَكَرَ الصحابيُّ عددَهم واسمَ أحدهم.

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((انطلقَ النبيُّ ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامِدين إلى سُوق عُكاظ ، وقد حِيل بَيْنَ الشياطين وبَيْنَ خَبَرِ السماء ، وأُرْسِلَتْ عَلَيهم الشُّهبُ، فَرَجعت الشياطينُ إلى قَومهم، فقالوا : ما لكم ؟، فقالوا : حِيل بَيْنَنا وبين خَبر السماء ، وأُرسلت عَلَينا

---

(٢١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٩٥) برقم (٣٧٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . وقال ابن منظور في لسان العرب (٨/ ١٤٠) : ((وزَوْبَعةُ اسم شيطان مارد ، أو رئيس مِن رُؤساء الجِن ، ومنه سُمِّيَ الإعصارُ زَوْبَعة ، ويُقال : أُمُّ زَوْبَعة)) اهـ .

الشُّهب،قالوا: ما حَالَ بَيْنَكم وبين خَبرِ السماء إلا شَيءٌ حَدَث،فاضْرِبوا مَشارقَ الأرضِ ومغارِبَها، فانظروا ما هذا الذي حالَ بَيْنَكم وبين خبرِ السماء ، فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تِهامة إلى النبيِّ ﷺ وهو بِنَخْلة ، عامِدين إلى سوق عُكاظ ، وهو يُصلِّي بأصحابه صلاةَ الفَجْر ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استمَعوا له ، فقالوا : هذا واللهِ الذي حَالَ بَيْنَكم وبَيْنَ خَبرِ السماء)) (22).

إن الشياطين قد حُجبوا عن خبر السماء ، فلم يعودوا يطَّلعون عليه ، أي إنهم لم يَعودوا يعرفون ماذا يحدث في الملأ الأعلى ، وأُرسلت عليهم الشُّهب الحارقة تطاردهم في كل مكان . مِمَّا جعلهم يعتقدون أن هناك حَدَثاً عظيماً قد حصل بسبب هذا التغير المفاجئ بالنسبة لهم . فبدأوا رحلةَ البحث عن سبب حَجْبهم عن خبر السماء .

وحينما سَمِعوا النبيَّ ﷺ يقرأ القرآنَ العظيم استمَعوا له بتدبُّر وانبهار ، لأنه كلامٌ جديد على مسامعهم لا يُشبِه كلامَ العرب أهلِ الفصاحة والبيان ، فكلامُ الله أعلى وأَجَلُّ ، فأدرَكوا حينئذٍ سبب الْحَيْلولة بينهم وبين خبر السماء ، فعادوا إلى قومهم مؤمنين يُبشِّرونهم بهذا الكلام الإلهيِّ المقدَّس . فقد أدرَكوا أن هذا الكلام العظيم لا يمكن أن يكون من تأليف إِنس ولا جِن ، لأن اللغة القرآنية لا يرقى لمستواها مخلوقٌ، مهما علا كَعْبُه في مجال الفَصاحة والبَيان والبَلاغة . ولا شَكَّ أن كلام الله الخالق ، يختلف عن كلام الإنسان المخلوق .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ١٧٠) : ((قال الإمام أبو عبد الله المازريُّ : ظاهر الحديث أنهم آمَنوا عند سماع القرآن ، ولا بُدَّ لِمَن آمنَ عند سماعه أن يَعلم حقيقةَ

---

(٢٢) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٧) برقم (٧٣٩) ، ومسلم (١/ ٣٣١) برقم (٤٤٩) . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٧٥) : ((ولكن لا يلزم من عدم ذِكْر اجتماعه بهم حين استمَعوا أن لا يكون اجتمع بهم بعد ذلك .. وفي الحديث إثبات وجود الشياطين والجن ، وأنهما لمسمًّى واحد ، وإنما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان ، فلا يقال لمن آمن منهم إنه شيطان . وفيه أن الصلاة في الجماعة شُرعت قبل الهِجرة ، وفيه مشروعيتها في السَّفر ، والجهر بالقراءة في صلاة الصبح ، وأن الاعتبار بما قضى اللهُ للعبد من حُسن الخاتمة ، لا بما يظهر منه من الشر ولو بَلَغَ ما بَلَغ ، لأن هؤلاء الذين بادَروا إلى الإيمان بِمُجرَّد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتَّوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث مِن جِهتها ، ومعَ ذلك فَغَلَبَ عليهم ما قُضِيَ لهم من السعادة بِحُسن الخاتمة)) اهـ .

الإعجاز وشُروطَ الْمُعجِزة ، وبعد ذلك يقع له العِلم بصِدق الرسول ، فيكون الجنُّ عَلِموا ذلك مِن كتب الرُّسُل المتقدِّمين قَبْلَهم على أنه هو النبيُّ الصادق الْمُبَشَّر بِه . واتفق العلماء على أن الجن يُعذَّبون في الآخرة على المعاصي. قال اللهُ تعالى: ﴿ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجْمَعِين ﴾ [هُود : ١١٩]. واختلَفوا في أن مُؤمنهم ومُطيعهم هل يَدخل الجنة وينعم بها ثواباً ومجازاة له على طاعته أم لا يدخلون ، بل يكون ثوابُهم أن يَنجوا من النار ، ثم يُقال : كُونوا تراباً كالبهائم ، وهذا مذهب بن أبي سُلَيم وجماعة ، والصحيح أنهم يَدخلونها وينعمون فيها بالأكل والشُّرب وغيرهما، وهذا قَول الحسن البصري ، والضَّحاك ، ومالك بن أنس ، وابن أبي ليلى ، وغَيْرِهم)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٣٢) : عن ابن مسعود _ رضي الله عنه_ قال : .. كُنَّا معَ رسول الله ﷺ ذَاتَ لَيْلةٍ فَفَقَدْناه ، فالْتَمَسْناه في الأودية والشِّعاب، فقُلنا : اسْتُطِير _ أي طَارتْ بِه الجن _ أو اغْتِيل ، قالَ : فَبِتْنا بِشَرِّ لَيْلةٍ بَاتَ بها قَوم ، فلمَّا أصبحنا إذا هو جاء مِن قِبَل حِراء ، فَقُلنا : يا رسولَ الله فقدناكَ فطلبناكَ فلم نَجِدْكَ ، فبِتنا بِشَرِّ لَيلةٍ باتَ بها قوم ، فقال : ((أتاني داعي الجِنِّ ، فذهبتُ مَعَهُ ، فقرأتُ عَلَيهم القرآنَ)) . قال : فانطلق بِنا فأرانا آثارَهم ، وآثارَ نِيرانهم ، وسألوه الزَّادَ ، فقال : ((لَكُم كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمِ اللهِ عَلَيه يَقعُ في أيديكم ، أوْفَرُ مَا يَكونُ لحماً ، وكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكم)) ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((فلا تَسْتَنْجُوا بِهِما ، فإنهما طعامُ إخوانكم)) .

وقالَ بعضُ العلماء إن العَظْمَ الذي ذُكِرَ اسمُ الله عَلَيه هو طعامُ الجِنِّ المؤمن لا الكافر . والحديثُ يُوضِّح أن الاسْتِنجاء بالعَظْم والرَّوْث لا يَجوز ، لأنهما طَعامُ الجِن . العَظْمُ لهم ، والرَّوْثُ لِدَوابِّهم .

إن النَّبِيَّ ﷺ أُرسِل إلى الإنس والجِن ، فليس غريباً أن يقرأ القرآنَ على الجن ، فهم مُكَلَّفون من الناحية الشرعية ، وفيهم المؤمن والكافر تماماً كالإنس . كما أن هناك إشارة دقيقة إلى الْجُهد النبويِّ الجليل في الدَّعوة ، وعدمِ التقصير في ذلك ، فهو _ ﷺ _ لم يُعرِض عن داعي الجن حينما أتاه ، بل ذهب معه بلا مَوكب أو حُراس شخصيين ليقرأ القرآنَ ، ويُبلِّغ الرسالةَ السماوية على أكمل وَجْه . والنبيُّ ﷺ مُنَزَّه عن التقصير، إذ إن وظيفته الأساسية هي الدعوة إلى الله تعالى ، فهو سَيِّد الدُّعاة ، والقُدوة العُليا في كل زمان ومكان .

٢

وَصْفُ القُرآنِ ووُجوبُ الإيمانِ بِهِ

الكلامُ صِفةُ الْمُتكلِّم ، والقُرآنُ هُوَ كلامُ اللهِ . وكلامُ اللهِ صِفَةٌ قَديمة للهِ قائمة بذاته ، وغَير مخلوقة . إذن ، فلا يُمكن مُقارنة كلام اللهِ الخالق معَ كلام المخلوقين . والقُرآنُ الكريم له وَصْفٌ واضح مُمَيَّز ، وهذا الوَصْفُ يُرشد الناسَ إلى الإيمان بالقُرآن ، ويأخذ بأيديهم إلى بَر الأمان ، ويُكْسِبهم الطمأنينةَ الرُّوحية ، والاتِّزانَ العاطفيَّ ، والراحةَ المادية ، والسَّعادةَ في الدَّارَيْن .

قال اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ الكتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً للمُتَّقين ﴾ [البقرة : ٢].

كُلُّ مؤلفٍ يَعتذر في بداية كتابه عن الخطأ والسَّهْو ، ويَطلب مِن القُرَّاء أن يَلتمِسوا له العُذْرَ . أمَّا اللهُ العظيم مُنْزِل القُرآن ، فَكَلامُه لا شَكَّ فِيه ولا خطأ ، ولا شيء فيه يَدعو إلى الاعتذار .

هذا القُرآنُ العظيمُ ذُو المكانة الرفيعة التي لا يُمكن الوصولُ إلَيها، لا شَكَّ فِيه ، كاملٌ غَيْرُ ناقص، واضحٌ غَيْرُ غامض، صادقٌ غَير كاذب ، مَعصومٌ لا خطأ فِيه. وهذا ليس غريباً ، فالقُرآنُ هو الوَحْيُ السَّماويُّ الخالدُ ، لا شَكَّ أنه مِن عِندِ اللهِ تعالى بسبب إعجازه ذي الجوانب المتعدِّدة ، الذي أفحمَ فُحولَ الشُّعراء ، وسادةَ الخطباءِ ، وأساطينَ الفَصاحةِ والبَلاغة . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٩٥) : ((﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، معناه أنه لِوُضوحه وسُطوع بُرهانه ، بحيث لا يَرتاب العاقلُ بَعْدَ النظر الصحيح في كَوْنه وَحْياً بالغاً حَدَّ الإعجاز ، لا أنَّ أحداً لا يَرتاب فيه)) اهـ .

والقُرآنُ إرشادٌ وبيانٌ للذينَ يتَّقون اللهَ تعالى ، يَفْعَلون الطاعاتِ ، ويَبتعدون عن المعاصي، ويَفتحون قلوبَهم للكلام الإلهيِّ. وهذا الالتزامُ الدِّينيُّ وقايةٌ بَيْنَهم وبَيْنَ العذاب الإلهيِّ . والقُرآنُ يَهدي المتَّقين إلى الحق والنُّور والهدى، أمَّا غَيْرُ المتَّقين فلا يَهديهم القُرآنُ ، ولا يَستفيدون مِنه ، لأنَّ قُلوبَهم مُلَوَّثة لا تستحق أن تنالَ شَرَفَ الهِداية . وسُمِّيَ القُرآنُ كِتاباً بسبب اجتماع بَعْضِه إلى بَعْض . ولا يَنبغي لأحدٍ أن يَشُكَّ في القُرآن بسبب إتقانه وإحكامه وإعجازه وتَحَدِّيه لِفُصَحاء العرب الذينَ عَجِزوا عن الإتيان بِمِثْلِه. فهو الكتابُ الكاملُ المعصوم ، الذي لا يَستطيع أيُّ مؤلفٍ _ مهما علا كَعْبُه _ تَقليدَه أو التَّفوق عَلَيه . ولا شَكَّ أن القُرآنَ هُدىً لِمَن لجأ إلَيه واعتصمَ بِه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ذَلِكَ ﴾ فِيه قَوْلان : أحدهما أنه بمعنى هذا . وهو قول ابن عباس ومجاهد وعِكرمة والكِسائي وأبي عُبَيدة والأخفش... والثاني أنه إشارة الى غائب . ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه أراد به ما تقدَّم إنزالُه عَلَيه مِن القرآن

، والثاني أنه أراد به ما وَعَده أن يُوحِيَه إلَيه ... والثالث أنه أراد بذلك ما وَعَدَ بِه أهلَ الكُتب السالفة ، لأنهم وُعدوا بنبيٍّ وكتابٍ)) اهـ .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((إنَّ أمْرَ مُحَمَّدٍ كان بَيِّناً لِمَن رَآه . والذي لا إلهَ غَيْرُه ، ما آمنَ مُؤمنٌ أفضلَ مِن إيمانٍ بِغَيْبٍ)) ، ثم قَرأ : ﴿ الم (١) ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هدىً للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [سورة البقرة][23].

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ أنزَلْنا إلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يَكْفُرُ بِها إلا الفاسقون ﴾ [البقرة : ٩٩][24].

لقد أنزلَ اللهُ على رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ آياتٍ واضحات تدلُّ على أن مَصْدَرَها سماويٌّ لا أرضيٌّ ، وتشتمل على الأحكام الشرعية ، وقضايا الحلال والحرام ، والحدود ، وانحرافاتِ أهل الكتاب، وأخبارُ الأمم الغابرة ، وأحوالِ النَّفْسِ البشرية ، وحالاتِ الدُّنيا المتقلِّبة ، وأهوالِ اليومِ الآخِر ، وتفاصيلِ الحياة والموت وما بَعْد الموت . وما يَكفر بهذه الآياتُ العظيمة إلا الخارجون عن الشَّريعة الإلهية، الْمُتمرِّدون على أوامر اللهِ تعالى. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٩) : ((والفِسْقُ إذا اسْتُعْمِل في نوعٍ من المعاصي دَلَّ على عِظَمِه ، كأنه متجاوز عن حَدِّه)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٥) : ((أي أنزَلْنا إلَيك يا محمد علاماتٍ واضحاتٍ دالاتٍ على نُبُوَّتك ، وتلك الآيات ما حَواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود ، ومَكنون سرائر أخبارهم ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عمَّا تضمَّنته كُتُبُهم التي لم يكن يَعْلمها إلا أحبارُهم وعلماؤُهم ، وما حرَّفه أوائلُهم وأواخرُهم وبدَّلوه من أحكامهم التي كانت في التَّوراة ، فأطلعها اللهُ في كتابه الذي أنزله على نَبِيِّه محمد ﷺ ، فكان في ذلك من أمره الآيات البَيِّنات لِمَن أنصفَ نفْسَه ، ولم يَدْعُهُ إلى إهلاكها الحسدُ والبَغْيُ ، إذْ كان في فِطرة كل ذِي فِطرة صحيحة تصديقُ مَن أتى بِمِثْل الذي أتى بِه محمد ﷺ مِن الآيات البَيِّنات التي وُصفت من غير تَعَلُّم تعلَّمه مِن بَشَر ، ولا أخْذِ شيء مِنه عَن آدميٍّ)) اهـ .

---

(٢٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٦) برقم (٣٠٣٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٤)قال السُّيوطي في الدُّر المنثور(١/ ٢٣٢):[ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال:((قال ابْنُ صُورِيَا(مِن كِبار أحبار اليهود) للنبيِّ ﷺ : يا محمد، ما جِئْتَنا بشيء نعرفه. ما أنزلَ اللهُ عَلَيْكَ مِن آيةٍ بَيِّنة، فأنزل اللهُ في ذلك:﴿ولقدْ أنزَلْنا إلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وما يَكْفُرُ بِها إلا الفاسقون ﴾].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُولوا آمَنَّا باللهِ وما أُنزِلَ إِلَيْنا ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

إن أهلَ الكِتاب اعتقَدوا واهمين أنهم على الحق ، وأن المؤمنين على الباطل . لذلك طَلَبوا من المؤمنين أن يُصبحوا يَهوداً أو نصارى لكي يَهتدوا _ على حَدِّ زَعْمِهم _. قال اللهُ تعالى: ﴿ وقالوا كُونوا هُوداً أو نصارى تَهتدوا ﴾[البقرة : ١٣٥] . وقد أرشدَ اللهُ المؤمنين إلى أن يَقولوا لليهودِ والنصارى رَدّاً عَلَيهم ، وإفحاماً لهم ، وإرغاماً لأنوفهم: آمَنَّا باللهِ وما أُنزِل إلَينا. يعني : صَدَّقْنا باللهِ الذي لا إلهَ غَيْرُه ، وصَدَّقْنا بالقُرآن (الوَحْي الإلهيِّ الذي أُنزِل على النبيِّ ﷺ) . ولا شَكَّ أن هذا الإيمان يستلزم الإيمانَ بجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ وجميعِ الكُتبِ السماوية .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٦١٨) : ((فأضافَ الخِطابَ بالتَّنْزيل إلَيهم ، إذْ كانوا مُتَّبعيه ومأمورين مَنْهِيِّين بِه ، فكان _ وإنْ كان تنْزيلاً إلى رسول الله ﷺ_ بمعنى التَّنْزيل إلَيهم ، للذي لهم فِيه من المعاني التي وُصِفَت)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٠٢) : عن ابن عباس قال : ((كان رسولُ الله ﷺ يَقرأ في رَكْعَتَي الفجر : ﴿ قُولوا آمَنَّا باللهِ وما أُنزِلَ إِلَيْنا ﴾ ،والتي في آلِ عِمْران: ﴿ تعالَوْا إلى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكم ﴾[آل عِمران : ٦٤])) .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٣٠) عن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ قال: كانَ أهلُ الكتاب يَقرؤون التَّوراةَ بالعِبرانية ، ويُفسِّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((لا تُصدِّقوا أهلَ الكتاب ، ولا تُكذِّبوهم ، وقُولوا : ﴿ آمَنَّا باللَّهِ وما أُنزِلَ إِلَيْنا ﴾ _ الآية _)) .

إن اليهودَ كانوا يَقرؤون التَّوراةَ بِلُغتهم، ويُوضِّحون ما فِيها باللغة العربية للمسلمين . وهذا الأمرُ شديد الخطورة، لأن اليهودَ أهلُ حِقْدٍ ومَكْرٍ وخُبث، ولَيسوا أهْلاً للثِّقة ، فَرُبَّما يَدُسُّون السُّمَّ في الدَّسم ، ويَنقلون للمسلمين أفكاراً دينية مُحرَّفة ، ولا شَكَّ أن اليهودَ لَدَيهم خِبرة عريضة في تحريف كلامِ اللهِ ، والتلاعب بِه ، ولَوْي أعناق النُّصوص ، وإدخال المصالح الشخصية في النُّصوص الدِّينية . لذلك ينبغي عدم اعتماد أقوالهم وتفسيراتهم ، لأن الدليل إذا تطرَّقَ إلَيه الاحتمالُ ، سَقَطَ بِه الاستدلالُ . فإذا صَدَّقهم المسلمُ فَرُبَّما صدَّق بالباطل ، وإذا كَذَّبهم فَرُبَّما كَذَّبَ بالحق . وعندئذٍ يَقع المسلمُ في الضلال والحرَج. والمسلمُ يَبني دِينه على اليقين الذي لا يتسلَّل إلَيه الشَّك ، ولا تَطرأ عَلَيه الاحتمالاتُ وأنصافُ الحلول . واليقينُ هو اعتمادُ القُرآن ، وهذا يتضمَّن الإيمانَ بما أُنزِلَ على الرُّسُل السابقين _ عليهم الصلاة والسلام _ بلا استثناء . وما

وافقَ القُرآنَ كانَ حقَّاً وصِدْقاً ، وما خالفَ القُرآنَ كان باطلاً وكَذِباً . والحديثُ يُشير إلى ضرورة الابتعاد عن المشكلات والقضايا الصَّعبة ، وعدم الخوض فِيها بالظن والاحتمال . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٣٥) : ((فالمراد بأهل الكتاب اليهود ، لكنَّ الْحُكْمَ عام فيتناول النصارى)) اهـ .

وبشكل عام ، إن أخبار أهل الكتاب (اليهود والنصارى) لها ثلاث حالات : الأولى _ إذا وافقتْ أخبارُهم القُرآنَ، فهي أخبار صحيحة نُصَدِّق بِها. والثانية_ إذا عارَضتْ أخبارُهم القُرآنَ ، فهي أخبار باطلة نُكذِّب بِها . والثالثة _ إذا كانت أخبارُهم مِمَّا سَكَتَ عنه القُرآنُ ، فهي أخبارٌ نتوقَّف عِندَها ، ولا نَحكم عليها ، ولا نُصدِّقها ولا نُكذِّبها . وتَجوز رِوايتُها . ففي صحيح البخاري (٣/ ١٢٧٥) عن عبد الله بن عمرو _ رضي اللهُ عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((بَلِّغوا عَنِّي وَلَوْ آية ، وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيل ولا حَرَجَ ، ومَن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَهُ مِنَ النار)).

فعلى المسلم أن يَنشر الإسلامَ في كُل زمان ومكان ، ويُبلِّغ آياتِ القُرآن الكريم ، ويَنشر السُّنةَ النبوية الشريفة . فالدَّعوةُ إلى الإسلام لَيست وظيفةً حُكوميةً أو شهادةً جامعية ، إنَّ الدعوةَ منهجُ حياة لكل مسلم ، وكلَّ مسلم يجب أن يَكون داعيةً بأسلوب لطيف ، وحَسَبَ إمكانياته .

والحديثُ يدل على جَواز ذِكْر أخبار بني إسرائيل ﷺ بلا أسانيد بسبب المدة الزمنية الطويلة التي تَفصل المسلمين عن بَني إسرائيل ﷺ. فيجوز الحديث عَن قَصص بني إسرائيل وأمورِهم العجيبة كَنُزول النار من السماء لتأكل القُربانَ ولوْ كان بلا سَند . ولا إِثْمَ على المسلمين في التحديث بهذا الأمر وغَيْرِه بِشَرْط عدم الكذب . فلا يَجوز الكذبُ على أيِّ شخص ، مُسلِماً كانَ أَم كافراً .

أمَّا حديثُ النبيِّ ﷺ فلا بُدَّ من الأسانيد ، لأن الكَذِبَ عَلَيه بشكل مُتعمِّد يُؤدي إلى الهلاك الحتميِّ، ودُخولِ النار. فالنبيُّ مُشَرِّعٌ بأمرِ اللهِ تعالى، والكذبُ عَلَيه يعني تلويثَ الشَّريعة وتشويهَها، والإساءةَ إليها عن طريق إدخال الأكاذيب إلى الدِّين الإسلاميِّ الحق.وهذا يُشَوِّهُ صُورةَ الإسلامِ، ويُؤدي إلى إفساد المسلمين، وتَنفيرِ الناس مِنَ الإسلام.

وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٩٨و٤٩٩) : ((" وَحَدِّثوا عَن بَني إسرائيل ولا حَرَج " أي لا ضِيق عليكم في الحديث عنهم ، لأنه كان تقدَّم منه ﷺ الزَّجْر عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم ، ثم حصل التوسع في ذلك ، وكأن النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية والقواعد الدينية ، خَشيةَ الفِتنة ، ثم لَمَّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك لِمَا في سماع الأخبار التي كانت

في زمانهم من الاعتبار . وقِيل : معنى قَوْله " لا حَرَج " لا تَضيق صدورُكم بما تسمعونه عنهم من الأعاجيب، فإن ذلك وقع لهم كثيراً. وقِيل : لا حَرَجَ في أن لا تُحدِّثوا عنهم ، لأن قَوْلَه أولاً " حَدِّثوا " صِيغة أمر تقتضي الوجوب ، فأشار إلى عدم الوجوب ، وأن الأمر فيه للإباحة بِقَوْله : " ولا حَرَجَ " أي في ترك التحديث عنهم. وقِيل: المراد رفع الحرج عن حاكي ذلك لِمَا في أخبارهم من الألفاظ الشنيعة نَحْوَ قَوْلِهم : اذهبْ أنتَ وربُّكَ فَقَاتِلا ، وقَوْلِهم : اجعلْ لنا إلهاً . وقِيل : المراد ببني إسرائيل أولاد إسرائيل نفْسِه ، وهُم أولاد يعقوب ، والمراد : حَدِّثوا عنهم بقصتهم مع أخيهم يُوسُف، وهذا أبعد الأوجه . وقال مالك : المراد جواز التحدث عنهم بِما كان من أمر حسن ، أمَّا مَا عُلِمَ كَذِبُه فلا . وقِيل : المعنى حَدِّثوا عنهم بِمِثْل ما ورد في القرآن والحديث الصحيح. وقِيل: المراد جواز التحدث عنهم بأيِّ صورة وَقَعت من انقطاع أو بلاغ لِتَعذُّر الاتصال في التحدث عنهم بِخِلاف الأحكام الإسلامية ، فإن الأصل في التحدث بها الاتصال ولا يتعذر ذلك لِقُرْب العهد . وقال الشافعيُّ : مِنَ المعلوم أن النبيَّ ﷺ لا يُجيز التحدثَ بالكذب ، فالمعنى : حَدِّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كَذِبَه ، وأمَّا ما تُجَوِّزونه فلا حَرَجَ علَيكم في التحدث به عنهم ، وهو نظير قَوْلِه : " إذا حَدَّثكم أهلُ الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم "، ولم يُرِد الإِذْنَ ولا المنعَ مِنَ التَّحدث بما يُقطَع بِصِدْقه . ... وقد اتفق العلماء على تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ ، وأنه من الكبائر ، حتى بالغَ الشيخُ أبو محمد الجويني فحكم بكفر من وقع منه ذلك ، وكلام القاضي أبي بكر بن العربي يَميل إليه . وجَهِلَ مَن قال مِنَ الكَرَّامية وبعض الْمُتزهِّدة إن الكذب على النبيِّ ﷺ يجوز فيما يتعلق بتقوية أمر الدِّين ، وطريقةِ أهل السُّنة ، والترغيبِ والترهيب . واعتلُّوا بأن الوعيد ورد في حق مَن كَذَبَ عَلَيه لا في الكذب له ، وهو اعتلال باطل ، لأن المراد بالوعيد مَن نَقل عنه الكذبَ سَواءٌ كان له أو عَلَيه ، والدِّينُ بِحَمد الله كامل غير محتاج إلى تقويته بالكذب)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ بأنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتابَ بالحقِّ ﴾ [البقرة : ١٧٦] [25].

لقد نزَّلَ اللهُ القُرآنَ بالصِّدْق الواضح والْحُجَّةِ السَّاطعة . و﴿ ذَلِكَ ﴾ تعني ذلك الأمر وهو العذاب . واسمُ الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق (ما تقدَّم من الوعيد بالعذاب) . وسِياقُ

---

(٢٥)قال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ١٧٧): ((وفي" الكتاب" قَوْلان: أحدهما أنه التَّوراة، والثاني: القرآن. وفي "الحق" قَولان، أحدهما أنه العَدْل، قاله ابن عباس ، والثاني أنه ضِدُّ الباطل ، قاله مُقاتِل)).

الآية يتحدَّث عن اليهود . حيث إنهم رَفضوا أوامرَ اللهِ تعالى ، وكَتموا صِفَةَ النبيِّ محمد ﷺ في التَّوراة حِرْصاً مِنهم على الرِّئاسة والشُّهرة والنفوذ والأموال . لقد قدَّموا مصالِحَهم الشخصيةَ على الإيمانِ باللهِ ورسولِه ﷺ . فاستحقوا العذابَ الشديد . وذلك العذاب بسبب أن الله نزَّلَ القُرآنَ بالحق فكَذَّبوه ، واختلَفوا فِيه ، وكَفروا بِه .

وقال ابنُ كثير في تفسيره (١/ ٢٨٠) : ((أي إنما استحقوا هذا العذابَ الشديد ، لأن الله تعالى أنزلَ على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قَبْلَه كُتُبَه بتحقيق الحق وإبطال الباطل ، وهؤلاء اتخذوا آياتِ الله هُزُواً ، فكتابهم أمَرَهم بإظهار العِلْم ونشْرِه ، فخالفوه وكذَّبوه . وهذا الرسول الخاتَم يَدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، ويَنهاهم عن الْمُنكَر ، وهُم يُكذِّبونه ويُخالفونه ويَجحدونه، ويَكتمون صِفَتَه ، فاستهزؤوا بآيات الله الْمُنْزَلة على رُسُلِه ، فلهذا استحقوا العذابَ والنَّكال)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُم كَثيراً مِمَّا كُنتم تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعفو عَن كَثيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِين ﴾ [المائدة : ١٥] .

الخِطابُ الإلهيُّ مُوَجَّه لأهل الكتاب (اليهود والنصارى). فقد جاءهم النبيُّ محمد ﷺ ليُوضِّح كثيراً من الأمور التي أخفاها أهل الكتاب وحرَّفوها وتلاعبوا بها (مثل : آية الرَّجْم ، وقصة أصحاب السَّبْت الذين مُسِخوا قِرَدةً) ، ويتجاوز النبيُّ ﷺ عن كثير من باطلهم وتحريفهم للكتاب لعدم وجود فائدة في بيانه، ولو بَيَّنَه لَفَضَحَهم . والمنهجُ النبويُّ قائمٌ على النَّقْل والعقل ومُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، ولا يَقوم على الشتائم والفضائح .

وإظهارُ ما أخفاه أهلُ الكتاب دليلٌ باهر على نُبُوَّة محمدﷺ ، لأنه أُمِّيٌّ لم يَقرأ التوراةَ والإنجيل. إذن ، هذه المعلومات التي أظهرَها النبيُّ ﷺ ليس لها أيُّ مَصْدَرٍ إلا الوَحْيَ السماويَّ الْمُوَجِّه لسلوك النبيِّ ﷺ وتعاملاتِه .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ١١٥) : ((﴿ ويعفو عن كثير ﴾، أي يَتركه ولا يُبَيِّنه ، وإنما يُبَيِّن ما فيه حُجَّةٌ على نُبُوَّته ، وللدَّلالةِ على صِدْقه ، وشَهادةٌ بِرِسالته ، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أنه قال : ((مَن كَفَر بالرَّجْم فقد كفر بالرحمن ، وذلك قَوْل الله :﴿ يا أهلَ الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّن لكم كثيراً مِمَّا كنتم تُخفون من الكتاب ويعفو

عن كثير ﴾ ، فكان مِمَّا أَخْفَوا الرَّجمُ)) [26].

وعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذَكروا له أن رَجلاً مِنهم وامرأةً زَنَيا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((ما تجدون في التَّوراة في شأن الرَّجْم ؟)) ، فقالوا : نفضحهم ويُجْلَدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، إنَّ فيها الرَّجْمَ ، فأتَوا بالتوراة فنشروها ، فوضعَ أحدُهم يَدَهُ على آية الرَّجْم ، فقرأ ما قَبْلَها وما بَعْدَها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفعْ يَدَك ، فرفعَ يَدَهُ فإذا فيها آيةُ الرَّجْم ، فقالوا : صدقَ يا محمد ، فيها آيةُ الرَّجْم . فأمرَ بهما رسول الله ﷺ فرُجِما [27].

وهكذا نرى ضِعاف النفوس يُحاولون إخفاءَ النصوص الدينية والتحايلَ عليها من أجل تحقيق مصالح شخصية ، وبسطِ السيطرة والنفوذ على الأتباع الجهال الذين لا يملكون حصيلةً عِلمية ، وهؤلاء العوام العُميان يَتْبعون كلَّ ناعق دون إعمال عقولهم، فَدِينهم مبنيٌّ على التقليد الأعمى.

وتظهرُ مسألةُ الرَّجْم في هذا السياق لتعكس طبيعةَ تفكير أهل الكتاب العائشين في الأوهام والعقائد المتضارِبة ، والخاضعين لسُلطة رِجال الدِّين وعِلْيةِ القوم في تفسير النصوص والتلاعب بها حَسَبَ الأهواء والمنافعِ الذاتية . حيث يتم تمييعُ النصوص الدينية وإعادةُ تأويلها أو إخفاؤها لتتناسب مع الظروف ، فتصبح البيئةُ المحيطةُ هي الحاكمةَ على النص الديني ، وليس العكس .

إن أهل الكتاب أَخْضَعُوا كلامَ اللهِ لأهواء البشر، وآراءِ النُّخبة الدينية المحصورة في الضغوطات السياسية والاجتماعية . فتكرَّسَ التحريفُ في التوراة والإنجيل ، وصار كلامُ الإنسان ــ

---

(٢٦) رواه ابن حِبَّان في صحيحه(١٠/ ٢٧٦) برقم(٤٤٣٠).ورواه الحاكم في المستدرك(٤/ ٤٠٠) برقم (٨٠٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ./ ملاحظة : الكفرُ لا يكون إلا بإنكار نصٍّ قَطعيِّ الوُرود (القرآن الكريم والحديث المتواتر) وقَطعيِّ الدلالة .

(٢٧) رواه البخاري(٣/١٣٣٠) برقم(٣٤٣٦) واللفظ له، ومسلم(٣/ ١٣٢٦)برقم(١٦٩٩). وقال الحافظ في الفتح (١٢/ ١٦٨) : ((قال الباجي: يُحْتَمَل أن يكون عَلِمَ بالوَحْي أن حُكْم الرَّجْم فيها ثابت على ما شُرِع لم يَلْحَقْه تبديل. ويُحتمَل أن يكون عَلِمَ ذلك بإخبار عبد الله بن سلام وغَيْرِه ممن أسلم منهم على وجه حصل له به العِلْمُ بصحة نقْلهم. ويُحتمَل أن يكون إنما سألهم عن ذلك لِيَعْلَم ما عِندَهم فيه ، ثم يتعلم صِحَّةَ ذلك مِن قِبَل الله تعالى)) اهـ .

عند أهل الكتاب _ هو الحاكمَ على كلام الله تعالى. وهذا مُنْتَهى الضلال والكفر . وهذا الانحرافُ ناتج عن ضغط المصالح الشخصية .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البَراء بن عَازِب _ رضي الله عنه _ قال : مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحمَّماً _ أي مُسْوَدَّ الوَجْه _ مجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قالوا : نعم . فدعا رَجلاً من عُلمائهم فقال : ((أَنشُدُكَ باللهِ الذي أَنزل التوراةَ على موسى ، أهكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قال : لا، ولَوْلا أنكَ نَشَدْتني بهذا لم أُخْبِرْكَ . نجده الرَّجْم، ولكنه كَثُرَ في أشرافنا ، فَكُنَّا إذا أخَذْنا الشريفَ تركناه ، وإذا أخَذْنا الضعيفَ أَقمنا عليه الحدَّ . قُلنا : تعالَوْا فلنجتمعْ على شيء نُقيمه على الشريف والوضيع ، فَجَعَلْنا التحميمَ والْجَلْدَ مَكانَ الرَّجْم .

وهذا الحديثُ يُشير إلى الأيدي العابثة بالنصوص الشرعية ، خُضوعاً لاعتباراتٍ دينية أو سياسية أو اجتماعية . فتصبح فلسفةُ تغيير الأحكام الإلهية شريعةً جديدة عند أهل الكتاب نزولاً عند ضغط الأهواء والمنفعةِ الدنيوية القاصرة . وهكذا ندرك الأساس الفكري لتحريف التوراة والإنجيل، والذي يتمحور حول التلاعب بالعامة عبر خداعهم، وتثبيت خُضوعهم للسُّلطة الدينية المشوَّشة ، والسُّلطةِ السياسية المتحالِفة مع طبقة رجال الدِّين ، لضمان استمرارية حاكمية الطغاة دون تغيير . وبالطبع ، فإن الشعب هو مَن يَدفع الثمن .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يَهدي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السلامِ ﴾[المائدة : ١٦] .

إنَّ اللهَ تعالى يَهدي بالقُرآن العظيم مَن اتَّبعَ رِضا اللهِ ، وحَرِصَ على طاعته، واجتنابِ مَعصيته. يَهديهِ سُبُلَ السلام، أي طُرُقَ النجاة والسلامة الموصِلة إلى جَنَّةِ الدُّنيا وجَنَّةِ الآخِرة . والسُّبُلُ جَمْعُ سَبيل . ومَن سارَ في طُرق السلامة ، أَمِنَ مِنَ الخوف والشُّكوك والقلق . وللعربِ طُرُقٌ معروفة بالأمن والأمان ، وطُرُقٌ معروفة بالخوف مِثل : وادي السِّباع . كما قالَ الشاعر :

مَرَرْتُ على وادي السِّباعِ ولا أرى   كَوادي السِّباعِ حينَ يُظلِمُ واديا

وقال ابنُ الجوزي في زاد المسير(٢/ ٣١٧): ((قال ابن عباس: سُبُل السلام دِين الإسلام. وقال السُّدي : السلام هو الله وسُبُلُه دِينُه الذي شَرَعَه. قال الزَّجاج: وجائز أن يكون سُبُلُ السلام

طريقَ السلامة التي مَن سَلَكَها سَلِمَ في دِينه ، وجائزٌ أن يكون السلامُ اسْمَ اللهِ _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، فيكون المعنى : طُرُقَ اللهِ _ عَزَّ وَجَلَّ)) اهـ .

وعِبارةُ " سُبُل السلام " عِبارةٌ شَريفةٌ ثابتةٌ في القُرآن والسُّنة معاً ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يُورِدُها في دُعائه . حيث كانَ ﷺ يَقول : ((واهْدِنا سُبُلَ السلام))[28].

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٤٨].

إن اللهَ تعالى قد أَنزلَ القُرآنَ على مُحمَّد ﷺ بالعَدْل والصِّدْق الذي لا شَكَّ فِيه . وهذا القرآنُ يُصدِّق الكُتبَ السَّماويةَ التي سَبَقَتْهُ ، كما أنه هو الحاكمُ والحفيظُ والرَّقيبُ والأمينُ والشَّاهدُ عَلَيها، لأنه المحفوظ من التغيير والتبديل. فالقُرآنُ هُوَ المرجعيةُ العُليا ، وهُوَ الْحَكَمُ الحاكِمُ الذي يَحْكُمُ ولا يُحْكَمُ عَلَيه، والنبيُّ محمد ﷺ مُؤْتَمَن على القُرآن. وما وَافقَ القُرآنَ كانَ حقَّاً ، ومَا خَالَفَهُ كانَ باطلاً . وبِفَضْلِ القُرآنِ الكريم ،كانت الشريعةُ المحمَّديةُ الإسلاميةُ ناسخةً لِمَا قَبْلَها .

وصدقَ الشاعرُ حِين يقول :

إنَّ الكِتابَ مُهَيْمِنٌ لِنَبِيِّنا   والحقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو الألبابِ

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٠٦) : ((﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ ، يقول : أنزَلْنا الكتابَ الذي أنزَلْناه إلَيك يا مُحَمَّد ، مُصَدِّقاً للكُتب قَبْلَه ، وشَهيداً عَلَيها أنها حَق مِن عِندِ الله ، أميناً عَلَيها ، حَافظاً لها)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزلَ اللهُ ﴾[المائدة : ٤٩] .

إنَّ اللهَ تعالى أمرَ رَسُولَه محمداً ﷺ أن يَحكم بِحُكْمِ اللهِ الذي أنزَلَهُ في القُرآن . فالقُرآنُ هو الدستور الذي يَخضع له كُلُّ الناس ، وهو المرجعيةُ العُليا للأحكام والشَّرائع والقوانين ، وهذه المرجعيةُ لا تخصُّ المسلمين وَحْدَهم ، بَل تخصُّ الإنسَ والجِنَّ أجمعين . وإذا احتكمَ أهلُ الكتاب إلى المسلمين ، فيجب الْحُكْمُ بَيْنَهم بالإسلام ، ولَيس اليهودية ولا النصرانية.

---

(٢٨) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٣٩٧) برقم (٩٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٧٤و٣٧٥) : ((سبب نزولها أن جماعة من اليهود مِنهم : كَعْبُ بنُ أُسَيْد ، وعبدُ الله بنُ صُورِيَا ، وشأس بن قيس ، قال بَعْضُهم لبعض: اذهبوا بِنا إلى محمد لعلَّنا نَفْتِنُه عن دِينه ، فأتَوه ، فقالوا : يا محمد ، قد عَرَفْتَ أنَّا أحبارُ اليهودِ وأشرافُهم ، وأنَّا إن تَبِعْناك اتَّبعكَ اليهودُ ، وإنَّ بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمٍ خُصومةً ، فَنُحاكِمُهم إلَيك ، فتقضي لنا عَلَيهم ، ونحن نؤمن بِكَ ، فأبى ذلك رسولُ الله ﷺ . ونزلت هذه الآية ، هذا قَول ابن عباس . وذكَر مُقاتِل أن جماعة مِن بَني النَّضير ، قالوا له : هَل لكَ أن تَحكم لنا على أصحابنا أهلِ قُرَيظة في أمر الدِّماء كما كُنَّا عَلَيه مِن قَبْل ، ونُبايِعُك ، فَنَزلت هذه الآيةُ)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((آيتانِ مَنسوختانِ مِن سُورةِ المائدة : ﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ [المائدة : ٤٢] . فأنزلَ اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وأنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أنزلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم ﴾ [المائدة : ٤٩])) [29].

قال اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ وإن لَم تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] [30].

هذا تشريفٌ إلهيٌّ لِمُحَمَّد ﷺ ، فقد خاطَبَه اللهُ تعالى باسْمِ الرَّسول، ولم يُخاطِبْهُ باسْمِه الْمُجرَّد. وقد أمَرَه سُبحانه وتعالى بأن يُبَلِّغَ ما أُنزِلَ إلَيه مِنَ الوَحْيِ السَّماويِّ بلا زِيادة ولا نُقصان . وقد امتثلَ النبيُّ ﷺ لهذا الأمر الإلهيِّ ، وحَمَلَ الدَّعوة بكل إخلاص ، وبَلَّغَ رسالةَ السماء على أحْسَنِ وَجْهٍ بلا كَسَلٍ ولا تقصير ولا تَذَمُّر ولا خَوْف ولا مُجامَلات ، فلم يَعْبَأْ بِمُخالَفة مَن خالَفَه ،

---

(٢٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤١) برقم (٣٢١٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٣٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٩٦): ((ذَكر المفسِّرون أن هذه الآية نزلت على أسباب. روى الحسن أن النبيَّ ﷺ قال: لَمَّا بَعَثني اللهُ بِرِسالته ضِقْتُ بِها ذَرْعاً، وعَرفتُ أنَّ مِنَ الناس مَن يُكذِّبني وكان رسولُ الله ﷺ يَهابُ قُرَيشاً واليهودَ والنصارى ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد : لَمَّا نزلت: ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ ، قال : " يا رَبِّ كَيْفَ أصنعُ إنما أنا وَحْدي يَجتمع عليَّ الناسُ ؟"،فأنزل اللهُ: ﴿ وإن لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ ، وقال مُقاتِل : لَمَّا دعا اليهودَ وأكثرَ عَلَيهم جَعلوا يستهزئون به، فسكت عنهم ، فَحُرِّضَ بهذه الآية، وقال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُحرَس ، فَيُرسِل معه أبو طالب كُلَّ يَوْمٍ رِجالاً مِن بني هاشم يَحرسونه حتى نزلت عَلَيه هذه الآية ، فقال : " يا عَمَّاه ، إن الله قد عَصَمني مِنَ الجِنِّ والإنس ")) اهـ .

ولم يهتمَّ بِمُعاداة مَن عاداه ، ولم يَقْلَقْ بشأن الأخطار التي تُهدِّد حياتَه . وقد كانَ النبيُّ ﷺ في مُواجَهة ثلاث قِوى عظيمة : قُرَيش واليهود والنصارى . لقد قامَ النبيُّ ﷺ بِمُهِمَّة الدَّعوة أتَمَّ القِيام ، ولم يَخْشَ في الحقِّ لَوْمةَ لائم. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٢٨) : ((أي : لا تُرَاقِبَنَّ أحَداً ، ولا تَتْرُكَنَّ شيئاً مِمَّا أُنزِلَ إلَيكَ تخوُّفاً مِن أن يَنالك مَكروهٌ . بَلِّغ الجميعَ مُجاهِراً به)) اهـ .

وفي مُسْنَد الْحُمَيدي (٢/ ٣٩٠) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((أتَتْني رِسالةٌ مِن رَبِّي ، فَضِقْتُ بها ذَرْعاً ، وخِفْتُ أن يُكَذِّبَني قَوْمي ، فَقِيلَ لي : لَتَفْعَلَنَّ ، أو لَنَفْعَلَنَّ كذا وكذا)) (31).

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٨٦) : عن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : ((مَن حَدَّثك أن مُحَمَّداً ﷺ كَتَمَ شيئاً مِمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ، واللهُ يقول: ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ ﴾ _ الآية _)) .

وَلَوْ كانَ النبيُّ ﷺ كاتِماً شَيئاً مِنَ الوَحْي لَكَتَمَ آياتِ العِتاب وأخفاها عن الناس، فقد عَاتَبَهُ اللهُ تعالى ، وأخبرَه بأنهُ ارتكبَ أموراً خِلافَ الأَوْلَى .

وعن عائشةَ _ رضي اللهُ عنها _ قالت: ((وَلَوْ كان محمداً ﷺ كَاتِماً شَيئاً مِمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هذه الآية : ﴿ وإذْ تَقولُ للذي أنعمَ اللهُ عَلَيْهِ وأنعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللهَ وتُخفِي في نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ وتَخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تَخشاه ﴾ [الأحزاب : ٣٧])) (32).

و ((عن هارون بن عنترة عن أبيه قال : كُنَّا عِندَ ابْنِ عباس ، فجاء رَجلٌ فقال له : إنَّ ناساً يأتونا فَيُخبِرونا أنَّ عِندَكم شيئاً لم يُبْدِهِ رسولُ الله ﷺ للناس ، فقال ابن عباس : " ألَم تَعْلَمْ أنَّ اللهَ تعالى قال : ﴿ يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ ﴾ ، واللهِ ما وَرَّثَنا رسولُ الله ﷺ سَوْداءَ في بَيضاء " . وهذا إسناد جَيِّد)) (33).

إن هناك عقيدةً شائعةً عند الشِّيعة الروافض أنَّ النبيَّ ﷺ خَصَّ آلَ بَيْتِه بِعُلومٍ وأسرار ، لَم يَكْشِفْها للناس . وهذه العقيدةُ الباطلة تَطعن في النبيِّ ﷺ ، وتعني أنهُ خانَ الرِّسالةَ ، ولم يُبَلِّغْها للناسِ كاملةً . ولا يخفَى أنَّ ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ مِن رُؤوس آل البَيت ، وقد أكَّدَ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُوَرِّثْهُم شَيئاً مَكتوباً (سَوداء في بَيضاء) ، ولم يَخُصَّهم بشيء دون المسلمين .

---

(٣١) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٠٤) : ((وأصْلُه في السُّنَن ، وصحَّحه ابنُ حِبَّان والحاكم)) .

(٣٢) متفق عليه . مسلم (١/ ١٥٩) برقم (١٧٧) ، والبخاري (٦/ ٢٦٩٩) برقم (٦٩٨٤) .

(٣٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٠٦) .

وفي صحيح البخاري (١/ ٥٣) : عن أبي جُحَيفة قال : قلتُ لعليٍّ : هَل عِندَكُم كتاب ؟ ، قال : ((لا ، إلا كتابُ الله ، أو فَهْمٌ أُعطيه رَجلٌ مُسلِم ، أو ما في هذه الصَّحيفة)). قال : قلتُ : فما في هذه الصَّحيفة ؟ ، قال : ((العَقْلُ (يعني الدِّيَة)، وفَكاكُ الأسير ، ولا يُقتَل مسلم بكافر)).

والمقصودُ نفْيُ الاختصاصِ ، وأنَّ النبيَّ ﷺ لم يَخُصَّ عَلِيَّاً وآلَ البَيتِ بأشياء خاصة ، وهذه الأحكامُ في الصحيفة لَيست مخصوصةً بهم .

وقَوْلُ عليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ يَدحض عقيدةَ الشِّيعة الروافض الذين يَعتقدون أن النبيَّ ﷺ أوصَى إلى عليٍّ ـ رضي اللهُ عنه ـ بِعُلومٍ دِينيةٍ خاصَّةٍ ، وشرائع سِرِّيةٍ ، وأنهُ ﷺ خَصَّ آلَ بَيْتِهِ بقواعدِ الدِّين وجواهرِ الشَّريعة دون سائر المسلمين . وهذه الخرافاتُ هِيَ طَعْنٌ في النَّبيِّ ﷺ ، واتهامٌ لَهُ بِخِيانةِ أُمَّتِه ، والغَدْرِ بِها ، وحاشاهُ .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٧٣٧) قال الزُّهريُّ : ((مِنَ اللهِ الرِّسالةُ ، وعلى رسول الله ﷺ البلاغُ ، وَعَلَينا التَّسليمُ)) .

وقد شَهِدَت الأُمَّةُ المحمَّدية الإسلامية لِنَبِيِّها ﷺ بأنه بَلَّغَ الرِّسالةَ ، وأدَّى الأمانةَ ، في أعظم المواقف (حَجَّة الوَداع) ، وقد كان هناكَ عشراتُ الآلاف مِن الصَّحابة ـ رضي اللهُ عنهم ـ.

ففي صحيح مسلم (٢/ ٨٨٦) أن النبيَّ ﷺ قالَ لأصحابه : ((وأنتم تُسألون عَنِّي ، فما أنتم قائلون ؟)) ، قالوا : نشهدُ أنكَ قَد بَلَّغْتَ ، وأدَّيْتَ ، ونَصَحْتَ ، فقال بإصبعه السَّبابةِ يَرْفَعُها إلى السماء ، ويَنْكُتُها إلى الناس ، ((اللهمَّ اشْهَدْ ، اللهمَّ اشْهَدْ ، ـ ثلاث مرات ـ)) .

إنَّ التبليغَ هو أساسُ الدَّعوة الإسلامية ، والركيزةُ الثابتة في الرِّسالة المحمَّدية. والدَّعوةُ المحمَّديةُ الإسلاميةُ لَيست رَصيداً بنكياً شخصياً لا شأن للناس به ، أو مزرعةً شخصية ضمن قالب أرستقراطي . إنها تبليغ عبر إيصال الألفاظ والمعاني إلى الناس أينما وُجِدوا لإقامة الْحُجَّة عليهم . وهكذا يَكون نشرُ الدِّين الإسلاميِّ عملاً جماعياً ، يؤدي فِيه كُلُّ مُسلم دَوْرَه المرسوم له بدقة بقيادة النبيِّ ﷺ .

وإن غابَ التبليغُ سَقط معنى الرسالة ، وزالت شرعيةُ الدِّين مِن جُذورها ، لأنَّ الإسلامَ دَعوة كَونية للإنس والجِنِّ ، تَقوم على التبليغ ، وإيصالِ رِسالةِ السماء إلى الجميع . لذلكَ قال اللهُ تعالى: ﴿ وإن لَم تَفْعَلْ فما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ ﴾ .

إنَّ النبيَّ ﷺ إذا لَم يُوصِل الوَحْيَ الإلهيَّ كاملاً إلى الناس ، فما بَلَّغَ رسالةَ السماء . وإذا كَتَمَ آيةً مِمَّا أنزلهُ اللهُ علَيه فقد خانَ الرِّسالةَ الإلهية ولم يُبَلِّغْها . وإذا تَرَكَ تبليغَ البَعْض ، كانَ كَمَن لَم يُبَلِّغْ أصْلاً . وحاشاهُ ﷺ أن يَفعل ذلك ، فهو النبيُّ الصادقُ الأمينُ المعصومُ .

قال الشاطبي في الاعتصام (١/ ١٣٣) : ((والتبليغ كما لا يتقيَّد بكيفية معلومة لأنه من قبيل المعقول ، المعنى : فَيَصِحُّ بأي شيء أمكنَ مِنَ الحفظ والتلقين والكتابة ، وغَيْرِها)) اهـ .

وقد قامَ النبيُّ ﷺ بأداء أمانة التبليغ على أكمل وجه، وبأسلوب طَيِّب واضح ، يجذب الناس ، ويُقَرِّبهم إلى الله تعالى ، بعيداً عن الغِلْظة ، وقَسوةِ القلب ، وصُعوبةِ الأسلوب ، وخُشونةِ الكلام . فمنهجُ النُّبُوَّةِ طريق مستقيم في التعامل مع النَّفْس البشرية المختلفة حَسَبَ طبيعة الشخص ، وظروفِ البيئة .

ووَفْقَ هذه القاعدة النَّفسية الراسخة قام المنهجُ النبويُّ بتأسيس المجال الدَّعوي بشكل يتناسب مع اختلاف العقول ، وتباينِ القدرات ، وتغيراتِ العواطف ، واتجاهاتِ النَّزعات الإنسانية . ومن هذا المنطلق جاءت الدعوة المحمدية الإسلامية مُلبِّيةً لكل حاجات البشر ، ووفَّرت أرضيةً صلبة يقف عليها الجيل المؤمن الْمُضْطَلِع بإعمار الأرض لصالح خَير البشرية ، وليس إعمارها لصالح عِلْية القَوم ضد مصلحة الطبقات المتدنية في المجتمع .

وهذا يعكس الأمانة المتناهية في مجال تبليغ الدعوة دون زيادة أو نقصان ، وعدم كتمان الشرع. فالمنهجُ النبويُّ الواضح هو منهج إنساني عالمي لم يأتِ لقبيلة النبيِّ ﷺ، أو للعرب وَحْدَهم. وإنما جاء لخلاص الإنس والجِنِّ معاً . فلم يُحوِّل النبيُّ ﷺ دَعْوَتَه إلى حزبٍ هاشميٍّ تعصُّباً للقبيلة ، أو تكتُّلٍ عربي تعصُّباً للقومية ، أو مُنتدَى لِعِلْية القَوم تعصُّباً للسُّلطة ، أو شركةٍ للأغنياء تعصُّباً للمال . فالدعوة الإسلامية شُمولية في منهجها ، وواضحة في أسلوبها ، وترمي إلى استئصال الفقر والضعفِ والجهلِ والأخلاقِ الذميمة ، لكي يتحول المجتمع إلى طبقة واحدة متماسكة ، تتمتع بالقوة الروحية والمادية ، مع اختلاف وظيفة كل فرد حَسَبَ قدراته، وبذلك يُوضَع الرَّجلُ المناسب في المكان المناسب ، ويتحرك المجتمع إلى الأمام .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٢٨) : ((قال ابن عباس : المعنى بَلِّغْ جَميعَ ما أُنزِلَ إلَيك من رَبِّك، فإنْ كَتَمْتَ شيئاً مِنه فما بَلَّغْتَ رِسالَتَه. وهذا تأديبٌ للنبيِّ ﷺ، وتأديبٌ لِحَمَلةِ العِلْمِ مِن أُمَّتِه ألا يَكْتُموا شَيئاً مِن أمرِ شَريعته ، وقد عَلِمَ اللهُ تعالى مِن أمرِ نَبِيِّه أنه لا يَكتمُ شيئاً مِن وَحْيِه)).

أمَّا قَوْلُ اللهِ تعالى : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ ، يَحْفظك ويَمْنعك من الناس . والآيةُ دليلٌ واضح على نُبُوَّة محمد ﷺ ، فَمَن مَنَحَهُ اللهُ العِصْمَةَ ، لا يُمكِن أن يَترك شيئاً مِن أوامر الله تعالى . وفي الآيةِ حِمايةٌ ما بَعْدَها حماية ، وتثبيت لشخصية النبيِّ محمد ﷺ بأن تَفرَّغ للنُّبُوَّة ولوازمِ الدَّعوة واستحقاقاتها ، ولا تَشْغَلْ بالك بأمْنِك الشخصي ، وحمايتك من أعداء الدَّعوة ، لأن الله تعالى قد تعهَّد بِعِصْمتك من الناس ، وتكفَّل بتوفير الأمن لكَ ، فلن يصلوا إليك مُطْلقاً . وهذا يَجعل جُهْدَ النبيِّ ﷺ مُرَكَّزاً على التطبيقات العملية للدَّعوة الإسلامية قَولاً وفِعلاً . وقدْ كانَ النبيُّ ﷺ قبل نُزول هذه الآية ، يَحميه الصحابةُ ويَحرسونه مِن اليهود والكفار الطامحين إلى قَتْلِه ، وإنهاءِ دَعْوته .

وقال ابن كثير في نفسيره (٢/ ١٠٦) : ((﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾ أي : بَلِّغْ أنتَ رسالتي، وأنا حافِظُك ، وناصرُك ، ومُؤيِّدُك على أعدائك ، ومُظَفِّرُك بهم ، فلا تَخَفْ ، ولا تَحْزَنْ، فلن يَصِلَ أحدٌ مِنهم إلَيكَ بِسُوء يُؤذيك)) اهـ .

ولا بُدَّ للنبيِّ القائد العالميِّ مِن حماية لكي يُفوِّت الفرصة على أعداء الحق الطامحين إلى وأد نور الدعوة الإيمانية، وتثبيتِ عُبودية البشر للبشر. وجاءت الحمايةُ الرَّبانية مَيْزةً كُبرى للنبيِّ ﷺ ، فلم يَسْتَعِنْ بِحُراس شخصيين ، أو جهاز مُخابَرات، أو سيارات مُصفَّحة ، لأن الحماية الإلهية أعظم من
كل التدابير المادية القاصرة .

وعن عائشةَ_ رضي اللهُ عنها_ قالت : كانَ النبيُّ ﷺ يُحْرَسُ حتى نَزلت هذه الآية : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناسِ ﴾، فأخرجَ النبيُّ ﷺ رَأسَه مِنَ القُبَّة ، فقالَ لهم : ((أيُّها الناسُ ، انصَرِفوا ، فقد عَصَمَني اللهُ)) [34].

هذا الحديثُ يُشير إلى صِدْقِ النبيِّ ﷺ ، وأنهُ مَبعوثٌ مِن عِندِ الله تعالى، لأنه لَوْ كانَ كاذباً لَمَا تخلَّى عَن الحراسة والحماية . بَل اعتمدَ على الأسباب المادية فقط ، وما غامرَ بِحَياته، وعرَّضَ نفْسَه للأخطارِ . وفي الحديثِ تَبْرُز أهميةُ الأخذ بالأسبابِ ، والاحتراس من العدو ، وتوفير الحراسة والحماية ، وعدم الإهمال في المواقف الحسَّاسة .

---

(٣٤) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢١) وصححه ، ووافقه الذهبي . ورواه الترمذي في سننه (٥/ ٢٥١) برقم (٣٠٤٦) بسند حسَّنه الحافظ في الفتح (٦/ ٨٢) .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كثيراً مِنهُم ما أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغياناً وكُفراً ﴾[المائدة: ٦٨].

اللامُ للقَسَم . والقَسَمُ لتأكيد مضمون الآية . والآيةُ تُبَيِّن شِدَّةَ شَكيمتهم ، وإصرارَهم على العِناد والْمُكابَرة ، وأن تبليغَهم آياتِ اللهِ تعالى لا يَنفعُهم ، بَل يَزيدُهم كُفراً وَضَلالاً .

وأُقْسِمُ : لَيَزيدَنَّ كثيراً مِنَ اليهود والنصارى القُرآنُ تكذيباً وكُفراً إلى كُفرهم . حيث إنهم كُلما سَمِعوا القُرآنَ كَفروا بِه ، فَيَزدادون كُفراً على كُفرهم . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٥) : ((كما يزداد المريضُ مَرضاً مِن تناول الغذاء الصالح للأصِحَّاء)) اهـ . والطغيانُ هُوَ الغُلُوُّ في الكفرِ . والمرادُ بالكثير هُم عُلماؤُهم ورؤساؤُهم الرافضون للحق ، أو الذينَ لَم يُسْلِمُوا مِنهم ، وأصَرُّوا على العِنادِ والتكذيب . والجديرُ بالذِّكر أن إضافة زيادة الطغيان والكفر إلى القرآن بطريق التَّسبيب . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٠٤) : ((أي يكون ما آتاكَ اللهُ يا محمد مِن النِّعمة نِقْمةً في حق أعدائك مِن اليهود وأشباهِهِم،فكما يَزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعِلْماً نافعاً ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأُمَّتك طُغياناً ، وهو الْمُبالَغة والْمُجاوَزة للحَدِّ في الأشياء ، وكُفراً أي تكذيباً)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأُوحيَ إِلَيَّ هذا القرآنُ لأُنذِرَكم بِهِ ومَن بَلَغ ﴾ [الأنعام : ١٩] [35].

إنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ تعالى الْمُعْجِزُ بِلَفظِه ونَظْمِه وإخبارِه عن الماضي والحاضر والمستقبَل . وقد أخبرَ بأشياء فكانت كما قالَ بلا زِيادة ولا نُقصان. وهذا الكتابُ العظيمُ هُوَ وَحْيٌ سماويٌّ أنزله اللهُ على النبيِّ ﷺ لِيُنذِرَ أهلَ مكة ، ومَن بَلَغَهُ القُرآنُ الكريم في كُل زمانٍ ومكان . وكُلُّ مَن بَلَغَهُ

---

(٣٥) قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٢٦) : ((وأخرج ابنُ أبي حاتم في كتاب الرَّد على الْجَهْمِيَّة عن عبد الله بن داود الْخُرَيبِيِّ ...قال:"ما في القرآن آيةٌ أشدُّ على أصحاب جَهْم مِن هذه الآية: ﴿ لأنذِرَكم بِهِ ومَن بَلَغ ﴾ ، فَمَن بَلَغَهُ القرآنُ ، فكأنما سَمِعَهُ مِنَ اللهِ تعالى)) اهـ . والْجَهْمِيَّة فِرْقة ضالة تُنسَب إلى جَهْم بن صَفوان . قال الْمُطَرِّزي في الْمُغرِب (١/ ١٧١و١٧٢): ((وهي فِرْقة شايعتْه على مذهبه وهو القول بأن الجنة والنار تَفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط دون الإقرار ودون سائر الطاعات ، وأنه لا فِعْلَ لأحدٍ على الحقيقة إلا لله تعالى ، وأنَّ العِباد فيما يُنسَب إليهم من الأفعال ، كالشجرة تُحرِّكها الريح ، فالإنسان عِندَه لا يَقدر على شيء ، إنما هو مُجْبَرٌ في أفعاله لا قُدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، وإنما يَخْلُقُ اللهُ تعالى الأفعالَ فِيه على حَسَبِ ما يَخلُق في الجمادات ، وتُنسَب إليه مجازاً كما تُنسَب إليها)) اهـ .

القُرآنُ فكأنما رَأى النبيَّ ﷺ وسَمِعَ مِنهُ . وهذا دليلٌ واضح على أن أحكامَ القُرآن صالحةٌ لجميع الناس في كُل زمان ومكان . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٨) : ((وفِيه دليلٌ على أن أحكام القرآن تَعُمُّ الموجودين وَقْتَ نُزوله ، ومَن بَعْدَهم ، وأنه لا يُؤاخَذ بِها مَن لَم تَبْلُغْه)) اهـ .

إنَّ القُرآنَ نذيرٌ لِكُلِّ الناس بلا تمييز ، يُخوِّفهم مِن العذاب الإلهيِّ في حال الكُفرِ ، وشاهِدٌ بِصِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ ، لأنهُ لم يَأتِ أحدٌ بِمِثْلِه قَطُّ ، ولَن يَأتِيَ أحدٌ بِمِثْلِه أبَداً ، وفِيه خبر ما كان وما هو كائن وما سَيَكون . وإذا لم يَعْرِف الشخصُ اللغةَ العربية ، وبَلَغَهُ القُرآنُ بِلُغته ، فهو له نذيرٌ . وقد ذُكر الإنذار في الآية ولَم تُذكَر البِشارةُ ، مِن أجل تخويف الناس ، وإعلامِهم بأن الأمر شديد الخطورة ، وهو جِدٌّ كُلُّه لا مكان فِيه للهَزْل ، لأنه يتعلق بالمصير الإنساني. إنهُ امتحانٌ مصيريٌّ واحدٌ، والنتيجةُ واحدةٌ وثابتة ، لا يُمكن مُراجعتُها ، ولا يُمكن إعادةُ الامتحان ، ولا تُوجد فِيه فرصةٌ للتَّعويض. فإمَّا الخلودُ في النار في حال الكُفر، أو الخلود في الجنَّة في حال الإيمان . والكافرون السائرون في طريق العِناد والْمُكابَرة لا يُناسِبُهم إلا الإنذار والتخويف وبث الرُّعب في قلوبهم .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٢) : ((وقال الرَّبيع بن أنس : حَقٌّ على مَن اتَّبعَ رسولَ الله ﷺ أن يَدعوَ كالذي دعا رسولُ الله ﷺ ، وأن يُنذِر بالذي أنذرَ)) اهـ .

وعن أنسٍ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((كَتَبَ رسولُ الله إلى كِسْرى وقَيْصَر ، وإلى كُلِّ جَبَّارٍ يَدعوهم إلى الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ ، وذلك لَمَّا نَزلت عَلَيْهِ هذه الآيةُ : ﴿ وأُوحيَ إِلَيَّ هذا القرآنُ لأُنذِرَكم بِهِ ومَن بَلَغ ﴾))[36].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

إن النبيَّ ﷺ لا يَأتي بشيء مِن عِندِه ، ولا يُؤلِّف كلاماً ثم يَنْسُبُهُ إلى الله تعالى . إنهُ يَتَّبع الوَحْيَ السماويَّ بلا زِيادة ولا نُقصان ، ولا شَيْءَ غَيْرُ الوَحْي . فما جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ فهو وَحْيٌ إلهيٌّ

---

(٣٦) رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٥٠) برقم (١٥٤٠) . وفي سنده خُلَيد بن دَعْلَج . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٣/ ١٣٦) : ((قال أحمد وابن معين : ضعيف . وقال ابن معين في رواية الدوري : ليس بشيء . وقال النَّسائي : ليس بثقة . وقال أبو حاتم : صالح ليس بالمتين في الحديث ، حَدَّثَ عن قتادة أحاديث مُنكَرة)) اهـ .

، وهذا أمرٌ متوافق معَ العقل معَ قِيامِ الأدلة وظُهورِ الْحُجَج الباهرة . والنبيُّ ﷺ عَبْدٌ يُنفِّذ أمْرَ سَيِّدِه اللهِ كاملاً غَير مَنقوص ، وبِلا نِقاش أو اعتراض .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٩٧) : ((يقول : قُل لهم : ما أتَّبِعُ فِيما أقول لكم، وأدعوكم إلَيه إلا وَحْيَ الله ، الذي يُوحيه إليَّ ، وتنْزيلَه الذي يُنَزِّله عليَّ ، فأمضي لِوَحْيِه ، وأئتمرُ لأمره ، وقد أتيتُكم بالْحُجَجِ القاطعةِ مِنَ اللهِ عُذْرَكم على صِحَّة قَوْلي في ذلك ، وليس الذي أقول من ذلك بِمُنكرٍ في عقولكم ، ولا مستحيلٍ كَوْنَه ، بَل ذلك معَ وجود البُرهان على حقيقته ، هو الحِكْمة البالغة ، فما وَجْهُ إنكارِكم ذلك ؟. وذلك تنبيهٌ مِنَ الله تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه ﷺ على مَوْضِع حُجَّته على مُنكِري نُبُوَّته مِن مُشْرِكي قَوْمِه)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال: لَمَّا أخرجَ [النبيُّ ﷺ] أهلَ المسجد ، وترك عَلِيّاً ، قال الناسُ في ذلك، فَبَلَغَ النبيَّ ﷺ فقالَ : ((ما أنا أخْرَجْتُكُم مِن قِبَلِ نفْسي ، ولا أنا تَرَكْتُه ، ولكنَّ اللهَ أخرَجَكُم وتَرَكَه ، إنما أنا عَبْدٌ مأمور ، ما أُمِرْتُ بِهِ فَعَلْتُ : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾))[37] .

وقد تمسَّكَ بهذه الآية مَن يُنكِر اجتهادَ الأنبياء ــ علَيهم الصلاة والسلام ــ مُعتمِداً على ظاهرِ الآية أن النبيَّ ﷺ لا يَقول بشيء إلا إذا كانَ فِيه وَحْيٌ . والصوابُ أن الأنبياء يجوز مِنهم الاجتهادُ والقِياس ، والقِياسُ أحد أدلة الشَّرْع . وهذه القضيةُ معروفة عند العلماء . وقد قالَ النبيُّ ﷺ : ((ألا إنِّي أُوتيتُ القُرآنَ ومِثْلَهُ مَعَهُ))[38].

إنَّ القُرآنَ والسُّنةَ كِلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ . والفَرق بينهما أن القُرآنَ مِنَ اللهِ لَفْظاً ومعنىً ، أمَّا السُّنةُ فمعناها مِنَ اللهِ ، ولَفْظُها مِنَ النبيِّ ﷺ ، ولا تُتلَى كما يُتلَى القُرآنُ الكريم .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٧٢) أن الخطابي قال : ((يحتمل وجهين مِنَ التأويل : أحدهما ــ أن معناه أنه أُوتِيَ مِنَ الوحي الباطن غَيْرِ الْمَتْلُوِّ مِثْلَ ما أُعْطِيَ مِنَ الظاهر المتلوِّ . والثاني ــ أنه أُوتِيَ الكتابَ وَحياً يُتلَى ، وأُوتيَ مِنَ البَيانِ مِثْلَهُ ، أي أُذِنَ له أن يُبَيِّنَ ما في الكتاب ، فَيَعُمَّ

---

(٣٧) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٤٧) برقم (١٢٧٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٥٠): ((فِيه جماعة اختُلِف فِيهم)) اهـ .

(٣٨) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٣٠) . وصحَّحه الشَّوكاني في نَيل الأوطار (٨/ ١٨٢) .

ويَخُصَّ ، ويَزيد عَلَيه ، ويُشَرِّع ما لَيس له في الكتاب ذِكْرٌ ، فيكون في وجوب العمل بِه ، ولُزومِ قُبوله ، كالظاهر المتلوِّ مِنَ القرآن)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحقُّ ﴾ [الأنعام : ٦٦] .

كَذَّبَتْ قُرَيْشٌ (قَوْمُ النبيِّ ﷺ) بالقُرآن ، وهو الصِّدْقُ الواضحُ ، والواقعُ بلا شَكٍّ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٦٠) : ((في هاء ﴿ بِهِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنها كِناية عن القرآن ، والثاني : عَن تصريف الآيات ، والثالث : عن العذاب)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وهذا كِتابٌ أنزَلْناهُ مُبارَكٌ فاتَّبِعُوهُ واتَّقوا لعلكم تُرْحَمون ﴾[الأنعام : ١٥٥] .

هذا القُرآنُ الذي أنزَلَه اللهُ على النبيِّ محمد ﷺ عظيمُ الشأن ، وكثير البَركة، ذُو مكانةٍ رَفيعة ، يَشتمل على المنافع الدِّينية والدُّنيوية. فاتَّخذوه إماماً أيها الناسُ، وكُونوا تحت رايته، أحِلُّوا حَلالَهُ ، وحَرِّموا حَرامَهُ ، واعملوا بما فِيه ، لكي يَرحمكم اللهُ تعالى ، ويُنجِّيكم مِن عذابه الشديد . وقدْ قَدَّمَ اللهُ تعالى صِفةَ الإنزال : ﴿ أنزَلْناهُ ﴾ لأن إنكارَ الكافرين وجُحودَهم مُتعلِّقان بِها .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٧) : ((فِيه الدَّعوة إلى اتِّباع القُرآن . يُرَغِّبُ سُبحانه عِبادَه في كِتابه ، ويأمُرُهم بتدبُّرِه ، والعملِ بِه ، والدَّعوةِ إلَيه . وَوَصَفَهُ بالبَرَكة لِمَن اتَّبعه ، وعَمِلَ به في الدنيا والاخرة ، لأنه حَبْلُ اللهِ المتينُ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ مِن رَبِّكُم وهُدىً ورَحْمةٌ ﴾[الأنعام : ١٥٧] .

فقد جاءكم القُرآنُ العظيم بِلُغتكم العربيةِ ، حُجَّةٌ عَلَيكم قَطَعَتْ جَميعَ أعذاركم ، وبيانٌ لطريق الحق ، وتوضيحٌ للحلال والحرام ، ورحمةٌ لِمَن آمنَ بِهِ ، واتَّخذه دُستوراً ومِنهاجَ حياةٍ ، وطَبَّقه على أرض الواقع . وقد زالَ العُذْرُ بمجيء النبيِّ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٥): ((قال ابن عباس: ﴿ فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ ﴾ أي : حُجَّةٌ ، وهو النبيُّ (ﷺ) والقُرآنُ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿كِتابٌ أُنزِلَ إلَيْكَ فلا يَكُن في صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذِكرى للمُؤمنين ﴾ [الأعراف : ٢] .

لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ على النبيِّ ﷺ لهدايةِ الإنس والجن . وهذا الكتابُ حقٌّ لا باطلَ فِيه ، وصِدْقٌ لا كَذِبَ فِيه ، ويقينٌ لا شَكَّ فِيه ، فلا تَشُكَّ يا محمد في أنه مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ تعالى ، ولا تتحرَّج في إبلاغِه، والإنذارِ بِه ، ولا يَكُن في صَدرك ضِيقٌ مِن تبليغه للناس خَوفاً مِن كُفرهم

وتكذيبهم وعداوتهم ، أو خوفاً مِن التقصير في القِيام بِحَقِّه . فإن اللهَ تعالى لَن يَتْرُكَكَ ، ولَن يَتخلى عَنكَ ، فهو ناصِرُكَ ومُؤيِّدُكَ . فلا تتضايَقْ إذا كفروا بِكَ ، فإنما عَلَيْكَ البلاغُ . واللهُ هو الهادي .

وتوجيهُ النَّهْيِ إلى النبيِّ ﷺ للمُبالَغة والتشديد ، وإظهاراً لِعَظَمة الأمر . ومعَ أن الخطاب للنبيِّ ﷺ، إلا أن المقصودَ أُمَّتُه ، والمعنى : لا يَشُكَّ أحدٌ مِنكم في كَوْنِ القُرآنِ وَحْياً سماوياً . والإيمانُ بأن القُرآن مِن عِند الله يَجعل النبيَّ ﷺ لا يُبالي بالصِّعاب والمشاق في سَبيل الدَّعوة ، وهكذا يُقْدِمُ على الإنذار بالقُرآن بقلبٍ ثابتٍ، ويقينٍ راسخٍ ، لإيمانه بأنهُ الوَحْيُ الإلهيُّ الحقُّ .

وبَعْدَ أن نفى اللهُ الشَّكَّ عَن القُرآن (الوَحْي الإلهيِّ المعصوم)، وثَبَّتَ اليقينَ في قلب النبيِّ ﷺ، أمرَه أن يُنذِرَ بالقُرآن ((لأنَّ انتفاءَ الشَّكِّ في كَوْنه مُنْزَلاً مِن عند الله ، أو انتفاء الخوف مِن قَوْمِه ، يُقَوِّيه على الإنذار ، ويُشَجِّعُه ، لأنَّ الْمُتَيَقِّنَ يُقْدِمُ على بَصيرةٍ ، ويُباشِرُ بِقُوَّةِ نفْسٍ)) (39) .

﴿ وذِكرى للمُؤمنين ﴾ . تَذكرةٌ مُبارَكةٌ للمُؤمنين تُطَهِّر القلوبَ مِنَ الشَّك ، وتُثَبِّت الإيمانَ فِيها ، ومَوْعِظةٌ لهم ، يَأخذونَ الدُّروسَ والعِبَرَ مِنَ أحكامِ القُرآنِ وقَصَصِه . وخُصَّ المؤمنون بالذِّكر لأنهم وَحْدَهم الْمُنتَفِعون بالقُرآن . أمَّا الكفارُ فلا يَستفيدون مِنَ القُرآن شَيئاً . وهذا يدل على تخصيص الإنذار بالكفار .

وقال اللهُ تعالى:﴿ اتَّبعوا ما أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكم ولا تتَّبعوا مِن دُونِهِ أولياءَ قليلاً ما تَذَكَّرُون ﴾ [الأعراف : ٣].

اتَّبعوا أيها الناسُ القُرآنَ الْمُنَزَّلَ إلَيكم مِنَ رَبِّكُم ، والذي جاءَ بِهِ النبيُّ ﷺ ، فِيه الهدى والنُّور والسعادة والرَّشاد ، اعْمَلُوا بما فِيه ، وتمسَّكوا بِه ، ولا تَعبدوا معَ اللهِ إلهاً غَيْرَهُ ، فاللهُ هو الإلهُ الحقُّ لا شَريك له ، ولا تتَّبعوا شيئاً غَيْرَ القُرآنِ الذي أنزَلَه اللهُ تعالى لإنقاذكم من العذاب ، وهِدايتكم إلى طريق الجنة ، قليلاً ما تتَّعظون وتَرْجِعون إلى الحق. ولا شَكَّ أن اتِّباع القُرآن يعني اتِّباعَ السُّنة ، فالقُرآنُ والسُّنةُ كِلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ يجب اتِّباعُهما .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٦٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ اتَّبعوا ما أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكم ﴾ . إن قِيل : كيف خاطبه بالإفراد في الآية الأُولى ، ثم جَمَعَ بِقَوْلِه : ﴿ اتَّبعوا ﴾ فَعْنهُ ثلاثة أجوبة : أحدها أنه لَمَّا عَلِمَ أن الخطاب له ولأُمَّته حَسُنَ الجمعُ لذلك المعنى. والثاني أن الخِطاب

---

(٣٩) فتح القدير للشَّوكاني (٢/ ٢٧٣) .

الأول خاص له ، والثاني مَحمول على الإنذار ، والإنذار في طريق القَوْل ، فكأنه قال : لِتَقول لهم مُنذِراً : ﴿ اتَّبعوا ما أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكم ﴾ ، ذكرهما ابنُ الأنباري . والثالث أن الخطاب الثاني للمُشركين ، ذَكَره جماعةٌ من المفسِّرين . قال : والذي أُنزِلَ إلَيهِم القرآنُ ، وقال الزَّجاج : الذي أُنزِلَ القُرآنُ وما أتى عن النبيِّ ﷺ ، لأنه مِمَّا أُنزِلَ عَلَيه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ جِئناهُم بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ على عِلْمٍ هُدىً ورحمةً لِقَوْمٍ يُؤمنون ﴾ [الأعراف : ٥٢].

لم يَتْرُك اللهُ للمُشركين عُذراً ولا حُجَّةً ، فقد جاءَهُم النبيُّ ﷺ بالقُرآنِ مِن عِندِ اللهِ تعالى . وهذا الكتابُ السَّماويُّ العظيمُ واضحٌ لا لَبْسَ فِيه، أحكامُه حقٌّ لا باطل، بَيَّنه اللهُ بأخبارِ الأُمم ، والوعدِ والوعيدِ ، وإحقاق الحق ، وإبطالِ الباطل، وبيانِ الحلال والحرام، حتى يَعْرِفَه مَن تأمَّلَ فِيه ، وتَدَبَّرَ آياتِه، وتَفَكَّرَ في مَعانيه، لَم يَقَعْ فِيه سَهْوٌ ولا خطأ، وقد جَعَلَه اللهُ هادياً للمُؤمنين ورحمةً لهم ، يَهديهم إلى الراحة الدُّنيوية والسَّعادةِ الأبَديةِ يَوْمَ القِيامة ، ويَرحمهم فَيُخرجُهم من الظلمات إلى النُّور ، ويُبعِدُهم عن طريق النار ، ويَقُودهم إلى طريق الجنة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤): ((﴿ ولقدْ جِئناهُم بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ ﴾، بَيَّنا مَعانيه مِنَ العقائد والأحكام والمواعظ مُفَصَّلةً ﴿ على عِلْمٍ ﴾ عالِمين بِوَجْهِ تفصيلِه حتى جاء حكيماً)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٠٩) : ((وفي قَوْلِه : ﴿ على عِلْم ﴾ قَوْلان : أحدهما على عِلْمٍ مِنَّا بِما فَصَّلْناه ، والثاني : على عِلْمٍ مِنَّا بِما يُصْلِحُكم مِمَّا أنزَلْناه فِيه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا لَم تأتِهم بآيةٍ قالوا لَوْلا اجْتَبَيْتَها قُل إنَّما أتَّبِعُ ما يُوحَى إلَيَّ مِن رَبِّي هذا بصائرُ مِن رَبِّكُم وهُدىً ورحمةٌ لِقَوْمٍ يُؤمنون ﴾ [الأعراف : ٢٠٣] .

وإذا لَم تَأْتِ يا محمد هؤلاء المشركين بآيةٍ كما طَلَبوا ، قالوا: لَوْلا اخْتَرَعْتَها ، وجِئتَ بها مِن عِندِ نفْسِك . وكلامُهم هذا في سِياق السُّخرية والاستهزاء . وكان المشركون إذا لم يَنْزِل الوَحْيُ على النبيِّ ﷺ ، قالوا له هذه العِبارة تَهَكُّماً وسُخريةً. وقد كانَ المشركون يَسألون الآياتِ تَعَنُّتاً ومُكابَرة ، فإذا لم يَنْزِل الوَحْي اتَّهموا النبيَّ ﷺ ، وسَخِروا منه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣١١و٣١٢) : ((وفي معنى الكلام قَوْلان : أحدهما إذا لم تأتِهم بآيةٍ سألوها تَعَنُّتاً ، قاله ابن السَّائب. والثاني: إذا لَم تأتِهم بآيةٍ لإبطاء الوَحْي ، قاله مُقاتِل. وفي قَوْلِه : ﴿ لَوْلا اجْتَبَيْتَها ﴾ قَوْلان : أحدهما : هَلا افْتَعَلْتَها مِن تِلقاء نفْسِك ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدي وابن زيد والفرَّاء والزَّجاج وابن قُتَيبة ... وَحُكِيَ عن الفرَّاء أنه قال :

العربُ تقول : اجْتَبَيْتَ الكلامَ واخْتَلَقْتَه وارْتَجَلْتَه، إذا افْتَعَلْتَه مِن قِبَلِ نفْسِك ، والثاني: هلا طَلَبْتَها لنا قَبْلَ مَسألتك ، ذَكَره الماوردي ، والأول أصح)) اهـ .

والنبيُّ ﷺ لا يَأتي بالآياتِ مِن عِندِه ، فهو لا يَمْلِكُ مِن أمْرِه شيئاً ، وإنما يَتَّبع الوَحْيَ الإلهيَّ ، فإن جاءت آيةٌ مِن عِند الله قَبِلَها وخَضَعَ لها ، وأبْلَغها للناس . وإن لم تَجِئ لم يَسْأَلْها إلا إذا أَذِنَ اللهُ له . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٥) : ((لَسْتُ بِمُخْتَلِقٍ للآيات ، أو لَسْتُ بِمُقْتَرِحٍ لها)) .

وقد وضَّح اللهُ أن القُرآنَ أعظمُ الْمُعجِزات ، وأكبرُ الآيات ، وأصدقُ الْحُجَج . إنهُ الْمُعْجِزةُ العُظمى التي تُغني عن باقي الْمُعجِزات . وإذا طَلَعَت الشمسُ اخْتَفَت النجومُ . والقُرآنُ بصائرُ للقلوب ، وعلاماتُ هِدايةٍ ، ونُورٌ يَكشف طريقَ الحق . وبالقُرآنِ يُبصَر الحقُّ ، ويُعْرَف الطريقُ المستقيم، وتتَّضح أحوالُ الدُّنيا والآخِرة ، ويُصبِح الأعمى بَصيراً . والقُرآنُ هِدايةٌ ورَحمةٌ للمُؤمنين، حيث إنهم وَحْدَهم يَنتفعون بِه، ويَستفيدون مِن أحكامِه ، لأنهم فَتَحوا قُلوبَهم له ، فأضاءَ أبصارَهم وبصائرَهم . في زاد المسير (٣/ ٣١٢) : ((قال أبو عُبَيدة: البصائر بمعنى الْحُجَج، والبُرهان، والبيان ، وَاحِدَتُها بَصيرة . وقال الزَّجاج : معنى البصائر ظُهورُ الشيءِ وبَيانُه)) اهـ .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (٤/ ٦١): ((﴿ هذا بصائرُ مِن رَبِّكُم ﴾ فِيه تشبيهٌ بليغ . وأصله " هذا كالبصائر "، حُذِفَت أداةُ التشبيه وَوَجْهُ الشَّبَه ، فهو بليغ . ويرى بعض العلماء أنه مِن قَبيلِ الْمَجاز الْمُرْسَل ، حيث أُطْلِقَ الْمُسَبِّب على السبب، لأن القرآنَ لَمَّا كان سبباً لتنوير العقول ، أُطْلِقَ عَلَيه لفظُ البصيرة)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُل يا أيُّها الناسُ قَدْ جاءَكُمُ الحقُّ مِن رَبِّكُم ﴾[يُونُس : ١٠٨] .

أيها الناسُ ، قد أتاكم النبيُّ محمد ﷺ بالقُرآنُ مِن عِندِ اللهِ تعالى ، فِيه الهدى والنُّور ، والْحُجَج الساطعة ، والبَيِّنات الواضحة ، والأدلة الدَّامغة. وفِيه بيانُ كُلِّ ما تحتاجون إلَيه مِن أُمور دُنياكم ودِينكم . ولم يَبْقَ للناسِ عُذْرٌ ولا حُجَّةٌ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١٨١) : ((وهو القرآن العظيم المشتمِل على مَحاسن الأحكام ، التي مِن جُملتها ما مَرَّ آنِفاً مِن أصول الدِّين ، واطَّلعتم على ما في تضاعيفه من البَيِّنات والهدى ، ولم يَبْقَ لكم عُذْرٌ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أفَمَن كانَ على بَيِّنةٍ مِن رَبِّهِ ويَتلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إماماً ورَحمةً ﴾ [هُود : ١٧] .

إنَّ النبيَّ ﷺ على بَيِّنةٍ مِنَ اللهِ تعالى ، أي حُجَّة وبُرهان مِنَ الله يَقُوده إلى طريق الحق ، وهو القُرآن الْمُعْجِز . والمؤمنون على بَيِّنةٍ مِنَ اللهِ ، لأنهم اتَّبعوا القُرآنَ والسُّنةَ . والنبيُّ ﷺ والمؤمنون يَسيرون على الصراط المستقيم ، ويَنظرون إلى النَّعيم في الآخِرة ، ولا يُمكن مقارنتُهم بالذين يُريدون الدُّنيا فقط ، وهُم الكُفار . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٠٥) : ((والمعنى : أفَمَن كان على بَيِّنةٍ مِن رَبِّهِ في اتِّباع النبيِّ ﷺ والإيمانِ بالله،كَغَيْرِهِ مِمَّن يُريد الحياةَ الدنيا وزينتَها)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٥) : ((في المراد بالبَيِّنة أربعة أقوال: أحدها أنها الدِّين قاله أبو صالح عن ابن عباس.والثاني أنها رسول الله ﷺ ، قاله الضَّحاك . والثالث : القُرآن ، قاله ابن زَيد . والرابع : البَيان ، قاله مُقاتِل. وفي المشار إليه بِ" مَن" قَولان: أحدهما أنه رسول الله ﷺ قاله ابن عباس والجمهور . والثاني أنهم المسلمون ، وهو يَخرج على قَول الضَّحاك)) اهـ .

﴿ ويَتلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [40]. إنَّ جِبريلَ ــ عليه السلام ــ شَاهِدٌ مِنَ اللهِ تعالى، يُؤيِّد النبيَّ ﷺ بالوَحْي الإلهيِّ ، ويَشهد له بالحق والصِّدْق . وعن محمد بن عليِّ بن أبي طالب ، قال : قُلتُ لعليِّ بن أبي طالب : إن الناسَ يَزْعُمون في قَوْلِ الله ــ جَلَّ ذِكْرُه ــ : ﴿ ويَتلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أنكَ أنتَ التالي ، فقال : ((وَدِدْتُ أني أنا هُوَ ، ولكنه لسانُ محمد ﷺ))[41].

---

(٤٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٥و٨٦) : ((وفي المراد بالشاهد ثمانية أقوال : أحدها أنه جِبريل ، قاله ابن عباس وسعيد بن جُبَير ومجاهد وعِكْرِمة وإبراهيم .. والثاني أنه لسان رسول الله ﷺ ، الذي كان يتلو القرآن ، قاله عليُّ بن أبي طالب والحسن وقتادة .. والثالث أنه علي بن أبي طالب ، ويَتلوه بمعنى : يَتَّبعه ، رواه جماعة عن عليِّ بن أبي طالب ، وبه قال محمد بن عليٍّ ، وزيد بن عليٍّ . والرابع أنه رسول الله ﷺ هو شاهد من الله تعالى ، قاله الحسين بن علي عليه السلام . والخامس أنه مَلَكٌ يَحفظه ويُسدِّده ، قاله مجاهد . والسادس أنه الإنجيل يَتلو القرآنَ بالتصديق ، وإن كان قد أُنزِلَ= =قَبْلَه ، لأن النبيَّ ﷺ بَشَّرت به التوراةُ ، قاله الفرَّاء . والسابع أنه القرآن ونَظْمُه وإعجازُه، قاله الحسين ابن الفضل . والثامن أنه صُورة رسولِ الله ﷺ ووجهُه ومَخايِلُه، لأنَّ كُلَّ عاقل نظر إليه عَلِمَ أنه رسول الله ﷺ . وفي هاء ﴿ مِنْهُ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها أنها ترجع إلى الله تعالى ، والثاني إلى النبيِّ ﷺ، والثالث إلى البَيِّنة)) .

(٤١) رواه الطبراني في الأوسط (٧/ ٥٣) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٨) : ((فيه خُلَيد ابن دَعْلَج ، وهو متروك)) اهـ .

﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إماماً ورَحمةً ﴾ . إن صِفَةَ النبيِّ محمد ﷺ موجودة في التَّوراة (كتاب موسى ﷺ). واللهُ تعالى قد أنزلَ التَّوراةَ إلى بني إسرائيل إماماً لهم يَهديهم إلى الحق ، ورحمةً بِهِم ، والإيمانُ بالتَّوراة سَيُؤدِّي _ لا مَحالة _ إلى الإيمان بالقُرآن . وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ١٧): ((﴿ وَمِن قَبْلِهِ ﴾ أي مِن قَبْلِ الإنجيل ﴿كِتابُ مُوسى ﴾ رُفِعَ بالابتداء . قال أبو إسحاق الزَّجاج : والمعنى : ويَتلوه مِن قَبْلِه كتابُ موسى ، لأن النبيَّ ﷺ مَوصوف في كتاب مُوسى)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِن أنباءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إلَيْكَ ﴾[يُوسُف : ١٠٢] .

الآيةُ تتحدَّث عن قِصَّة النبيِّ يُوسُف ﷺ . وهذه القصةُ مِنَ الأمور الغَيْبِيَّة، لم يُشاهِدْها النبيُّ ﷺ ولم يَقرأ عنها لأنه أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولم يُعرَف عَنه ﷺ أنه كان طالباً للعِلْم ، أو أنه تتلمذ على أيدي العُلماء أو الْمُعلِّمين. إذن ، مِن أيْنَ جاءَ بِها النبيُّ ﷺ . إنهُ الوَحْيُ الإلهيُّ . فقد أعْلَمَ اللهُ رَسُولَه محمداً ﷺ بهذه القصة التي حدثت في الماضي البعيد، من أجل إظهارِ صِدْق دَعوته ، وتثبيتِ قَلْبِه ، ورَفْعِ معنوياته ، وحَثِّه على الصبر على الشدائد ، ومُواجَهةِ المصائب بكل عزيمة وإصرار ، كما صبرَ الأنبياءُ السابقون على الشدائد ، وواجَهوا المصائب ، وصَمدوا أمامَها. وإخبارُ النبيِّ ﷺ بهذه القِصة بِكلامٍ مُعْجِزٍ دليلٌ واضح على صِحَّة نُبُوَّته .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٨٣) : ((قال الزَّجاج : ويجوز أن يكون ﴿ ذَلِكَ ﴾ بمعنى الذي ، و﴿ نُوحِيهِ إلَيْكَ ﴾ خَبَرُه : أي الذي مِن أنباء الغَيب نُوحيه إلَيك . والمعنى : الإخبار مِنَ الله تعالى لرسوله ﷺ بأن هذا الذي قَصَّه عَلَيه مِن أمر يُوسُف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبةً عن رسول الله ﷺ ، فأوحاه اللهُ إلَيه ، وأعْلَمَه بِه ، ولم يكن عِندَه قَبْلَ الوَحْي شيءٌ مِن ذلك ، وفِيه تعريضٌ بكفار قُرَيش ، لأنهم كانوا مُكذِّبين له ﷺ بما جاءَ بِه ، جُحوداً وعِناداً وحسداً، معَ كَوْنِهم يَعلمون حقيقةَ الحال)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما تَسألُهُم عَلَيْهِ مِن أجْرٍ إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ للعالَمين ﴾[يُوسُف : ١٠٤] .

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَطلب مِنَ الناس أجراً مُقابِل تبليغ الدَّعوة كما يَفعل حَمَلَةُ الأخبار ، فهو يَدعو إلى الخير والرَّشاد وَفْقَ مِنهاج الوَحْي الإلهيِّ ابتغاءَ وَجْهِ اللهِ تعالى ، وإنقاذاً للناس من النار الأبدية . لا يَطلب مالاً، ولا يَسعى إلى نَيْلِ المناصب الرفيعة، ولا يُريد الحصول على الجاه والنُّفوذ والسِّيادة على حساب الدَّعوة ، ولا يَهدِف إلى تحقيق مصالح شخصية مِن أيِّ نوعٍ كانت . وما هذا القُرآنُ إلا مَوْعِظةٌ إلهيَّةٌ للإنسِ والجِن من أجل إصلاحهم، ومَنْجِهم السعادة في الدارَيْن، ولم

يَطلب النبيُّ ﷺ أجراً على تِلاوته وتفسيره. وَلَوْ طَلَبَ النبيُّ ﷺ أجراً على الدَّعوة لَثَقُلَ الأمرُ على الناس،ورُبَّما صارَ طلبُ الأجرِ مانعاً مِنَ الإيمان واتِّباعِ النبيِّﷺ. وقد أراحَ اللهُ عُقولَ الناسِ مِنَ التفكير في هذه الأعباء المادية ، لِكَي يُرَكِّزوا في عَظَمَةِ الوَحْي ، ويُؤمنوا برسالة السماء دون ضُغوط أو مُنغِّصات . والآيةُ تَوبيخٌ للكفار ، وتَقريعٌ لهم ، وإقامةٌ للحُجَّةِ عَلَيهم .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٥٦١) : ((يُريد : إنَّا أزَحْنا العِلَّةَ في التكذيب ، حيث بَعثناكَ مُبَلِّغاً بلا أجْرٍ ، غَيْرَ أنه لا يؤمن إلا مَن شاء اللهُ سُبحانه وإن حَرِصَ النبيُّ ﷺ على ذلك)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿والذي أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحقُّ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُؤمنون﴾[الرَّعْد: ١] .

إن القُرآنَ قد أُنزِلَ إلى النبيِّ ﷺ مِنَ اللهِ تعالى ، كَي يَتمسَّكَ به النبيُّ ﷺ ، ويَعملَ بما فِيه ، ويُبَلِّغَه للناس كاملاً. ولم يَأْتِ بِهِ النبيُّ ﷺ مِن عِندِ نفْسِه كما يَزعُم المشركون . والقُرآنُ كُلُّهُ حَقٌّ . إنَّهُ الحقُّ الكامل المعصوم ، لا ثغرة فِيه ولا خطأ . لكنَّ أكثر الناس لا يُؤمنون بهذا الحق الباهر ، لعَجْزِهم عن النظر والتأمل والتَّفكر ، وغيابِ الهداية الرَّبانية . وفي أحيان كثيرة ، يُنكِر الإنسانُ وُجودَ الشمس ، لأن لَدَيه مشكلة في عَيْنَيْه . وإنكارُ الشيء لا يَستلزم عَدَمَ وُجوده .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٥٥) : ((أي : معَ هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يُؤمِن أكثرُهم لِمَا فِيهم مِنَ الشِّقاق والعِناد والنِّفاق)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٠٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ والذي أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحقُّ ﴾ يعني القرآنَ وغَيْرَه مِنَ الوَحْي . ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يُؤمنون ﴾ قال ابن عباس : يعني أهل مكة)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ كَذلكَ أرسلناكَ في أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذي أوْحَيْنا إلَيْكَ وهُم يَكْفُرُونَ بالرَّحمن ﴾[الرَّعْد : ٣٠] .

كما أرسلَ اللهُ الأنبياءَ إلى الأُمم السابقة ، كذلكَ أرسلَ مُحمَّداً ﷺ في هذه الأُمَّة ، كَي يَتْلُوَ عَلَيهم القُرآنَ لإخراجهم مِنَ الظلمات إلى النُّور . وهذه الأُمَّةُ قد سَبَقَتْها أُممٌ كثيرةٌ أُرْسِلَ إلَيهم الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _، فلَيس عجيباً أن يُرسَل محمد ﷺ خَاتَم الأنبياء إلى هذه الأُمَّة خاتمة الأُمم . وقد شَبَّهَ اللهُ إرسالَ محمد ﷺ بإرسالِ مَن قَبْلَه ، لأنَّ كُلَّ الأنبياءِ سائرون وَفْقَ منهاجٍ إلهيٍّ واحد ، دِينهم واحد ، وكُلُّهُم يَدٌ واحدة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٧٧) : ((يَقول تعالى : وكما أرسلناكَ يا محمد في هذه الأُمَّة ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذي أوْحَيْنا إلَيْكَ ﴾ ، أي : تُبَلِّغَهم رِسالةَ اللهِ إلَيهم، كذلك أرْسَلْنا في الأُمم

الماضية الكافرة بالله ، وقد كُذِّبَ الرُّسُلُ مِن قَبْلِك ، بِهِم أُسْوَة. وكما أوْقَعْنا بأسَنا ونِقْمَتَنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء مِن حُلول النِّقَم بِهم ، فإن تكذيبَهم لك أشد مِن تكذيب غَيْرِك مِنَ الْمُرْسَلين)) .

﴿ وهُم يَكْفُرُونَ بالرَّحمن ﴾ [42]. يَجحدون وَحدانيةَ اللهِ تعالى ، ولا يَعترفون بِها ، ويُنكِرون اسْمَه الْمُقَدَّس " الرحمن " . إنهم يَكفرون بالذي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شيء ، وأعطاهم الأموالَ والأولادَ والسِّيادةَ والأمنَ والأمانَ والطعامَ والشرابَ . لقد أحاطهم بالنِّعَمِ التي لا تُحصَى ، فكفروا بالنِّعَم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٩) : ((وحالهم أنهم يَكفرون بالبليغِ الرحمة ، الذي أحاطت بهم نِعْمَتُه ، وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُه ، فلم يَشكروا نِعَمَه ، وخصوصاً ما أنعمَ عليهم بإرسالك إلَيهم ، وإنزالِ القرآن الذي هو مَناط المنافع الدِّينية والدنيوية عَلَيهم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾ [الفُرقان : ٦٠] .

أي إنهم لا يؤمنون بالرحمن تعالى ، ولا يَعرفونه ، ولا يُقِرُّون به . والاستفهامُ للإنكار، يعني أنهم يرفضون السجود للرحمن . وهذا الطغيان نابع من قسوة قلوبهم ، وعنادهم العبثي ، وجحودهم المركَّب . وهذا التكبرُ على الحق وعدم الرضوخ له من شأنه تدمير النَّفْس البشرية ، وحَشْرها في دائرة التمرد والعصيان ، مِمَّا سَيَعود عليها بالخسارة والحرمان وفقدان القيمة الإنسانية المؤمنة . وفي الدر المنثور (٦/ ٢٦٨) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قَوْله :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ، قال : قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة)) اهـ .

---

(٤٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٩): ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال، أحدها أن النبيَّ ﷺ لَمَّا قال لكفار قُرَيش : "اسجدوا للرحمن"،قالوا: وما الرحمن ؟، فَنَزلت هذه الآية.وقِيل لهم: إن الرحمن الذي أنكرتم هو ربي ، هذا قول الضَّحاك عن ابن عباس . والثاني أنهم لَمَّا أرادوا كتاب الصُّلح يوم الحُدَيبية، كَتب عليٌّ _عليه السلام_ بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سُهَيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن إلا مُسَيلمة، فَنَزلت هذه الآية، قاله قتادة وابن جُرَيج ومُقاتِل. والثالث أن رسول الله ﷺ كان يوماً في الحِجْر يَدعو، وأبو جهل يستمع إلَيه،وهو يقول: "يا رحمن". فَوَلَّى مُدْبِراً إلى المشركين فقال: إن محمداً كان يَنهانا عن عِبادة الآلهة، وهو يَدعو إلهَين، فَنَزلت هذه الآية، ذَكَره عليُّ بن أحمد النيسابوري)).

وهُم يَقصدون مُسَيْلمة الكذاب .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٢) : ((والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنُّت في كُفرهم ، فإنه قد وُجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن)) اهـ .

فعلى سبيل المثال ، يقول الشاعر :

عَجِلْتُم عَلَيْنا إذا عَجِلْنا عَلَيْكُم   وما يَشَأ الرحمنُ يَعْقِد وَيُطْلِق

فاسمُ الرَّحمن مذكور في بعض أشعار الجاهلية ، مِمَّا يُشير إلى أن هذا الاسم معروفٌ لديهم وليس غريباً عنهم . ولكنَّ العناد يُسبِّب غشاوةً على البصر والبصيرة ، فَيَحول دون تقبُّل الحق واتِّباعه. وفي تفسير القرطبي (١ / ١٢٧) : ((قال ابن العربي: إنما جهلوا الصِّفةَ دون الموصوف، واستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن ؟ ، ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ . قال ابن الحصار : وكأنه _ رحمه الله _ لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿ وَهُم يَكفرون بالرَّحمن ﴾))[43].

وفي قصة صُلح الْحُدَيبية يتَّضح عِنادُ المشركين وجَهْلُهم بأسماء الله تعالى وصِفاته. فهُم يُنكِرون تسمية الله بالرحمن . ففي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤): قال الزُّهريُّ في حديثه: فجاء سُهَيل ابن عمرو، فقال: هَاتِ اكتبْ بَيْنَنا وبَيْنَكم كِتاباً ، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتبَ ، فقال النبيُّ ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم)). قال سُهَيل: أمَّا الرحمن ، فواللهِ ما أدري ما هُوَ ، ولكنْ اكتبْ : باسْمِكَ اللهُمَّ ، كَما كُنتَ تكتب .

---

(٤٣) قال القرطبي في تفسيره (١/ ١٢٧): ((وذهب الجمهور من الناس إلى أن الرحمن مُشْتَق من الرحمة، مبني على الْمُبالَغة . ومعناه : ذو الرحمة الذي لا نظير له فِيها ، فلذلك لا يُثَنَّى " الرحمن" ولا يُجمَع)) اهـ . قلتُ : وفي مُستدرَك الحاكم (٤/ ١٧٤) وصحَّحه الذهبي : أن النبيَّ ﷺ قال : ((قال اللهُ_ عز وجل _ : أنا الله ، وأنا الرحمن ، خَلقتُ الرَّحِم ، وشَقَقتُ لها مِن اسمي ، فَمَن وَصَلها وَصَلْتُه ، وَمَن قَطَعَها قَطعتُه)) . وفي تفسير القرطبي (١/ ١٢٧) أن ابن الحصار قال : ((وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمُخالَفة والشِّقاق ، وإنكار العرب له لجهلهم بالله ، وبما وَجب له)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ أوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ [الرَّعْد : ٣١][44].

هذا مديحٌ إلهيٌّ للقُرآن العظيم ، وتعظيمٌ لِشَأنه. أي : لَوْ كانَ هناكَ كتابٌ زُعْزِعَتْ بِهِ الجبالُ ، ونُقِلَت مِن أماكنها ، أوْ انشقَّت بِه الأرضُ ، أوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى في قبورهم ، لكانَ هذا الكتابُ هُوَ القُرآنَ وَحْدَه ، فهو الْحُجَّةُ الباهرةُ ، والبُرهانُ المضيءُ ، والْمُعجِزةُ العُليا ، والمرجعيةُ السماويةُ المعصومة . إنَّهُ الكتابُ الْمُعْجِز الذي خاطَبَ القلوبَ والنُّفوسَ، وخَضَعَ له الإنسُ والجِن ، وعَجِزُوا أن يَأتوا بِمِثْلِه أو بِسُورةٍ مِنه. وقد يَكون معنى الآية : وَلَوْ أن قُرآناً وَقَعَ بِهِ تسييرُ الجبال وتقطيعُ الأرض وتكليمُ الموتى، لَمَا آمَنوا بِهِ، لأن قُلوبَهم مُغلَقة أمام الإيمان، وأرواحَهم محجوبة عن اللهِ تعالى.وهؤلاء الكافرون لَدَيهم مَوقف مُسبَق مِنَ الإيمان، فَهُم يَرفضونه في كُلِّ الحالات.وهُم يَطلبون الآياتِ تَعَنُّتاً وعِناداً وسُخريةً،ولَيس بَحثاً عن الحق والإيمان،أو للتحقق مِن صِدْق النبيِّ ﷺ. إنهم أكثرُ الناس معرفةً بِصِدْق النبيِّ ﷺ ، فقدْ وُلِدَ فِيهم، وعاشَ بَيْنَهم ومَعَهم ، ولكنَّ الكُفْرَ عِنادٌ .

والجديرُ بالذِّكر أن جواب " لَوْ " حُذِفَ للإيجاز والاختصار ، وحَذْف الجواب أبْلَغُ في المعنى مِن ذِكْرِه. والتقديرُ فِيه: وَلَوْ أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ أوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى لكانَ هذا القُرآن، أوْ لَمَا آمَنوا. وقال العُكبري في اللباب(١/ ٤٢١):((ولأنَّ الموعودَ أو الْمُتَوَعَّدَ إذا لم يُذكَر له جواب ذَهَبَ وهَمُّه إلى أبلغ غايات الثواب والعقاب فيكون أبلغَ في الطاعة والانزجار)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٩): ((وَلَوْ أن كتاباً زُعْزِعَت بِه الجبالُ عَن مَقارِّها. ﴿ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ ﴾ ، تصدَّعت مِن خَشيةِ الله عِندَ قراءته ، أو شُقِّقت، فَجُعلت أنهاراً وعيوناً. ﴿ أوْ

(٤٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٣٠) : ((سبب نزولها أن مُشركي قُرَيش قالوا للنبيِّ ﷺ : لَوْ وَسَّعْتَ لنا أودية مكة بالقُرآن ، وسَيَّرْتَ جِبالَها فاحترثناها ، وأحْيَيْتَ مَن ماتَ مِنَّا ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه العَوفي عن ابن عباس . وقال الزُّبَير بن العَوَّام: قالت قُرَيش لرسول الله ﷺ : ادْعُ الله أن يُسَيِّرَ عَنَّا هذه الجِبالَ ويُفَجِّرَ لنا الأرضَ أنهاراً فَنَزرع، أو يُحْيِيَ لنا مَوتانا فَنُكَلِّمَهم ، أو يُصَيِّرَ هذه الصخرةَ ذهباً فَتُغنينا عَن رحلة الشتاء والصيف ، فقد كان للأنبياء آياتٌ ، فَنَزلت هذه الآية)) اهـ .

كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾ فَتَسمع فَتَقرؤه، أو فَتَسمع وتُجيب عند قراءته ، لكان هذا القرآن ، لأنه الغاية في الإعجاز ، والنهاية في التذكير والإنذار ، أو لَمَا آمَنوا به)) اهـ .

وقد يُطلَق اسمُ القُرآن على الكُتُب السماوية السابقة. ففي صحيح البخاري(٣/ ١٢٥٦): عن أبي هُرَيرة_رضي اللهُ عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال: ((خُفِّفَ على دَاود _عليه السلام_ القرآنُ ، فكان يأمرُ بِدَوَابِّهِ فتُسرَج ، فَيَقرأ القُرآنَ قَبْلَ أن تُسرَج دَوَابُّه)) [45].

وعن ابن عباس_ رضي اللهُ عنهما_ قال: ((قالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كَانَ كَما تَقولُ، فأرِنَا أشياخَنا الأُوَلَ مِنَ الموتى ، نُكَلِّمُهم ، وافْتَحْ لنا هذه الجبالَ جِبالَ مكة ، التي قَد ضَمَّتْنا ، فَنَزلت: ﴿ وَلَوْ أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجبالُ أوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرضُ أوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ﴾))[46].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيَّاً ﴾[الرَّعْد : ٣٧].

كما أرسلَ اللهُ الأنبياءَ إلى أقوامهم قَبْلَ محمد ﷺ ، وأنزلَ عَلَيهم الكُتبَ السماوية ، كذلكَ أنزلَ القُرآنَ باللغة العربية ، لِيُصبحَ دُستوراً للناس ، وحاكماً عَلَيهم ، وحَكَماً فيما بَيْنَهم ، يُخرِجَ الناسَ مِن الظلمات إلى النُّور ، ويَفصل بين الحق والباطل . ونُسِبَ إلى العرب ، لأنه نزلَ بِلُغتهم . وقد تشرَّفَ النبيُّ ﷺ بِحَمْلِه ، وفاقَ الأولين والآخِرين بسببه .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٧٧) : ((أي : وكما أنزَلْنا عَلَيْكَ القرآنَ ، فأنكرَه بعضُ الأحزاب ، كذلكَ أنزَلْناهُ حُكْماً عربياً ، وإنما وَصَفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ ، وهو عربيٌّ ، فَكَذَّبَ الأحزابُ بهذا الْحُكْم أيضاً . وقِيل : نَظْمُ الآية : وكما أنزَلْنا الكُتبَ على الرُّسُلِ بِلُغاتهم ، كذلك أنزَلْنا إلَيكَ القرآنَ حُكماً عربياً ، أي بلسان العرب ، ويريد بالْحُكْم ما فيه من الأحكام. وقِيل : أراد بالْحُكم العربيِّ القُرآنَ كُلَّه ، لأنه يَفْصِل بين الحق والباطل ، ويَحْكُم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ هذا بَلاغٌ للناسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾[إبراهيم : ٥٢].

---

(٤٥) (خُفِّف) : سُهِّل . (القُرآن) : قراءة الكتاب الْمُنْزَل عليه . فلفظ القرآن في اللغة العربية مصدر قرأ . قال اللهُ_ عز وجل _: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴾[القيامة : ١٨]. (فتُسرَج) : يُوضَع عليها السُّرُج، وهو ما يُوضَع على ظَهْر الفَرَس تحت الراكب .

(٤٦) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ١٠٩) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٦) : ((فِيه قابوس ابن أبي ظَبيان ، وهو ضعيف ، وقد وُثِّق)) اهـ .

هذا القُرآنُ بَلاغٌ كافٍ للإنس والجن ، أقامَ اللهُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَيهم ، وأزالَ عُذْرَهم ، بِما فِيه من المواعظ الرفيعة ، والتذكيرِ البليغ ، والأخلاقِ الفاضلة ، وَلِيُنذَروا بهذا البلاغ ، ويُخَوَّفوا عِقابَ اللهِ وغضبَه . وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ٢٨٩) : ((إشارة إلى القرآن والوعيد الذي تَضَمَّنه. والمعنى : هذا بلاغ للناس ، وَهُوَ لِيُنذَروا بِه ، وَلِيَذَّكر أُولوا الألباب)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحِجْر : ٩] (47).

لقد نَزَّلَ اللهُ القُرآنَ وحَفِظَهُ مِن أن يُزاد فِيه، أوْ يُنقَص مِنه . وقد رَدَّ اللهُ على الكافرين الذينَ أنكَروا كَوْنَ القُرآن وَحْياً سماوياً ، وسَخِروا مِنَ النبيِّ ﷺ . واللهُ تعالى لم يَتْرُك قضيةَ حِفْظ القُرآن للمُسلمين . لقد تَوَلَّى اللهُ حِفْظَهُ بِنَفْسِه ، وهنا تتجلى الحِكمةُ الإلهيةُ ، فالقُرآنُ الكريم هو آخِرُ الكتب السماوية نُزولاً ، ولا كِتابَ بَعْدَه . وإذا حُرِّفَ فإن الباطلَ سيستمر حتى يَومِ القِيامة ، ويَغرق الإنسُ والجِنُّ في الكُفر، وهكذا يَضيعُ دِينُ اللهِ إلى الأبد ، فَلَن يأتِيَ نبيٌّ بَعْدَ مُحمَّد ﷺ ، ولَن يَجِيءَ كِتابٌ سماويٌّ بَعْدَ القُرآنِ الكريم . لذلك اقتضت الحِكمةُ الإلهيةُ أن يَكون القُرآنُ مَحفوظاً بشكل كامل ، لأنهُ سَيَقود الإنسَ والجِنَّ إلى طريق الخير حتى قِيامِ الساعة . ولا شَكَّ أن الذِّكْرَ يَشمل الشريعةَ كُلَّها : قُرآناً وسُنَّةً . وكما أن اللهَ تعالى قد تكفَّل بِحِفظ القُرآن ، فقدْ تكفَّلَ بحِفظ السُّنة لأنها تفسيرٌ للقُرآن ، وذلك بأن هيَّأ لها عُلماء مُخلِصين مَيَّزوا الصحيحَ مِنَ الضعيف ، وحَرَسُوا الشريعةَ بالأحاديث الصحيحة ، وأبادُوا الأحاديث المكذوبة ، وفضحوا أصحابَها. وقد تميَّزت الأُمَّةُ المحمَّدية عَن باقي الأُمم بالأسانيد وعُلومِها، فهي تَمْلِك إسناداً مُتَّصلاً إلى رَسُولِها ﷺ ، وآلِ بَيْتِه ، وصحابَتِه والتابعين ، والعُلماء جميعاً. وهذه الْمَيِّزةُ غَير مَوجودة عند باقي الأُمَم . بَل إن هذه الأُمَّةَ قَد رَوَت الشِّعْرَ بالأسانيد . وعلى الأُمَّةِ المحمَّدية أن تَفخر بهذا أمامَ باقي الأُمَم .

(٤٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٨٤): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ . مِن عادة الملوك إذا فَعلوا شيئاً قال أحدُهم: نحن فَعَلْنا ، يُريد نَفْسَه وأتْبَاعَه ، ثُمَّ صارَ هذا عادة للمَلِك في خِطابه وإن انفردَ بفِعل الشيء ، فَخُوطِبَت العربُ بِما تَعْقِل مِن كلامها . ﴿ الذِّكْرَ ﴾ القُرآن في قَوْل جميع المفسِّرين.وفي هاء ﴿ لَهُ ﴾ قَوْلان: أحدهما أنها ترجع إلى الذِّكْر، قاله الأكثرون. قال قتادة: أنزلَه اللهُ ثُمَّ حَفِظَه ، فلا يستطيع إبليسُ أن يَزيد فِيه باطلاً ولا يُنقِص مِنه حقاً . والثاني أنها ترجع إلى النبيِّ ﷺ فالمعنى: وإنا له لحافظون من الشياطين والأعداء لِقَولهم إنك لمجنون، هذا قول ابن السائب ومقاتل)).

وفي صحيح مسلم (١/ ١٢) أن عبد الله بن المبارك قال : ((الإسناد مِنَ الدِّين ، وَلَوْلا الإسناد ، لقالَ مَن شاءَ ما شاءَ)) .

ولا يخفَى أن اليهود لا يَملِكون إسناداً مُتَّصلاً إلى النبيِّ موسى ﷺ، وتَوْراتُهم الْمُحَرَّفة بلا سند. والنصارى لا يَملِكون إسناداً مُتَّصلاً إلى النبيِّ عِيسى ﷺ ، وإنجيلُهم الْمُحَرَّف بلا سند .

وقد قال أحد كبار المستشرقين (مَرْجُلْيوث) [48]:((على المسلمين أن يَفخروا بِعِلْم الحديث)).

وقد حاولتْ قُوى عُظمى مِن أعداء الإسلام أن يُبَدِّلوا القُرآنَ ، ويَتلاعَبوا بآياتِهِ ، ويَزيدوا عَلَيه ، ويُنقِصوا مِنه ، لكنهم فَشِلُوا ، ورَدَّ اللهُ كَيْدَهم في نُحورِهم . وحَسْبُكَ أن تَعرف أن كثيراً مِن أطفالِ المسلمين يَحفَظون القُرآنَ كاملاً ، في حِينَ أن كِبار عُلماء اليهود والنصارى لا يَحفَظون سِوى مقاطع قصيرة مُنتقاة مِنَ التَّوراة والإنجيل.وفي هذا دلالةٌ عظيمة، واللبيبُ مِنَ الإشارة يَفهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٦٢) : ((﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ رَدٌّ لإنكارهم واستهزائهم ، ولذلك أكَّده مِن وُجوه ، وقرَّره بِقَوْله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، أي : مِن التحريف والزيادة والنقص ، بأن جَعَلْناه مُعجِزاً مُبايناً لكلام البشر ، بحيث لا يخفَى تغييرُ نَظْمِه على أهل اللسان ، أو نَفى تطرُّق الخلَل إليه في الدَّوام بِضَمان الحِفظ له ، كما نفَى أن يُطعَن فيه بأنه الْمُنَزِّلُ له . وقِيل : الضمير في ﴿ لَهُ ﴾ للنبيِّ ﷺ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وأنزَلْنا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم ولعلهم يتفكرون ﴾[النَّحْل : ٤٤].

لقد أنزلَ اللهُ إلى محمد ﷺ القُرآنَ ، كَي يُوضِّح للناسِ أحكامَ القُرآنِ وكلماتِه ومَعانيه ، وما فِيه مِن الوعيد والوعيد وتحليل الحلال وتحريم الحرام ، من أجل أن يُعمِل الناسُ عُقولَهم ، ويَعتبِروا، فيتَّعظوا ، فيفوزوا بالدَّارَيْن . ولا شَكَّ أن النبيَّ ﷺ يُبَيِّن مُرادَ اللهِ ولا يَكتُمه. وبعِبارة أخرى ، إن السُّنةَ تُفَسِّر القُرآنَ . وقَوْلُ النبيِّ ﷺ وفِعْلُه ، كِلاهما تشريع . وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكْراً لأنه مَوعِظة

(٤٨) ديفيد صمويل مرجليوث(١٨٥٨م ــ١٩٤٠).مستشرق بريطاني حاقد على الإسلام. عَمِلَ قِسَّاً في كنيسة إنجلترا لفترة قصيرة . كانَ أستاذاً للعربية في جامعة أكسفورد (١٨٨٩م ــ ١٩٣٧م) . أثارَ قضية الانتحال في الشِّعر الجاهليِّ . وقد قَلَّدَه الكاتب المصري طه حسين (١٨٨٩ــ ١٩٧٣م) .

وتنبيه . وفي الإسلام لا تُوجَد أسرار ولا تُوجَد سُلطة كَهنوتية . فالأحكامُ ظاهرةٌ ، وتعاليمُ الشريعة واضحةٌ ، ومَن سعى في طلبها بشكل صحيح ، وفَّقه اللهُ لذلك .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٥٣) : ((﴿ لِتُبَيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إلَيْهِم ﴾ ، أي : مِن رَبِّهم لِعِلْمِكَ بمعنى ما أَنزل اللهُ ، وحِرْصِكَ عَلَيه ، واتِّباعِكَ له ، وَلِعِلْمِنا بأنكَ أفضلُ الخلائق وسَيِّدُ وَلَدِ آدمَ ، فَتُفَصِّلُ لهم ما أُجْمِلَ ، وتُبَيِّنُ لهم ما أُشْكِل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتابَ إلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اخْتَلَفوا فِيهِ وهُدىً ورحمةً لِقَوْمٍ يُؤمنون ﴾ [النَّحْل : ٦٤].

ما أنزلَ اللهُ على محمد ﷺ القُرآنَ إلا لِيُوضِّح للناسِ ما اختلَفوا فِيهِ مِن دِين الله ، كالتوحيدِ والبَعْث وغَيْرِهما ، فَيُبَيِّن لهم الأحكامَ الشرعية ، ويُظهِر الحقَّ ، ويَدحض الباطلَ ، وبذلك تُقام الْحُجَّةُ على الناس،وتَنقطع أعذارُهم. والقُرآنُ لم يَنْزِلْ إلا بَياناً للناس، وهِدايةً للمؤمنين،ورَحمةً بهم.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٠٦) : ((﴿ الذي اخْتَلَفوا فِيهِ ﴾ مِنَ التوحيدِ ، والقَدَرِ ، وأحوالِ الْمَعاد ، وأحكامِ الأفعال)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدىً ورحمةً وبُشرَى للمُسلمين ﴾ [النَّحْل : ٨٩].

نَزَّلَ اللهُ على محمد ﷺ القُرآنَ بَياناً توضيحيَّاً يشتمل على أحكام الحلال والحرام ، وما يَحتاج إليه الناسُ في أمور دِينهم ودُنياهم وآخِرتهم ، وهُدىً مِنَ الضلال ، ورحمةً بالمسلمين، وبِشارةً لهم ، لأنهم آمَنوا بِوَحدانيةِ اللهِ تعالى، وأطاعوه ، وبالتالي فَهُم سائرون إلى الجنة (النعيم الأبديّ) . وهذه أعظمُ بِشارة. وقد بُيِّنَ في القُرآن كُلُّ ما يَحتاج إلَيه الناسُ على سبيل الإجمال أو التفصيل . والقُرآنُ حُجَّةٌ على الناس ، والناسُ لَيسوا حُجَّةً على القُرآن . وفي تفسير ابن كثير (٢/ ٧٦٨): ((فإن القرآن اشتملَ على كُلِّ عِلْمٍ نافع مِن خَبَرِ ما سبق، وعِلْمِ ما سيأتي ، وكُلِّ حلال وحرام ، وما الناس إليه مُحتاجون في أمر دُنياهم ودِينهم ومَعاشهم ومَعادِهم)) اهـ .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : ((مَن أرادَ العِلْمَ فَلْيُثَوِّر القُرآنَ ، فإنَّ فِيهِ عِلْمَ الأوَّلين والآخِرين)) (49).

مَن أرادَ العِلْمَ والتَّعلمَ ومعرفةَ الحلال والحرام ، وأحوالِ الدُّنيا والآخِرة ، فليقرأ القُرآنَ ، ويُفكِّر في كلماته ومَعانيه ، ويَسأل العُلماءَ عَن تفسيره ، فإنَّ فِيهِ كُلَّ العُلومِ والمعارفِ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للتي هِيَ أقْوَمُ ويُبَشِّرُ المؤمنينَ الذينَ يَعْمَلونَ الصالحاتِ أنَّ لَهُم أجراً كبيراً ﴾[الإسراء : ٩] .

إن هذا القُرآنَ الذي أنزلَه اللهُ على النبيِّ ﷺ يُرشِد إلى الطريق المستقيم ، ويُنقِذ المؤمنين بِه ، ويَقُودهم إلى الحق والسعادة في الدَّارَيْن . إنَّهُ يَهديهم إلى الطريقة التي هِيَ أصْوَبُ وأفضل ، وهي توحيد اللهِ تعالى ، ويُبَشِّر المؤمنين الذين أطاعوا اللهَ تعالى ، بأنَّ لهم الجنةَ جزاءً لهم على حُسن صَنيعهم في الدُّنيا . وقال النسفي في تفسيره (٢/ ٢٨٠) : ((﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للتي هِيَ أقْوَمُ ﴾ للحالة التي هي أقْوَمُ الحالات، وأسَدُّها، وهي توحيدُ الله، والإيمانُ بِرُسُلِه، والعملُ بطاعته ، أو للمِلَّة ، أو للطريقة)) اهـ .

وعن أبي وائل قال : ((كان عبد الله بن مسعود كثيراً ما يَتلو هذه الآيةَ : ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهدي للتي هِيَ أقْوَمُ ويُبَشِّرُ المؤمنينَ ﴾))(50).

وقال اللهُ تعالى: ﴿ كذلكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أنباءِ ما قَدْ سَبَقَ وقدْ آتيناكَ مِن لَدُنَّا ذِكْراً ﴾[طه : ٩٩] (51).

يَقول اللهُ لِرَسُولِه محمد ﷺ: كما قَصَصْنا عَلَيكَ خبرَ موسى ﷺ وفِرْعَوْن، كذلكَ نَقُصُّ أخبارَ الأمم التي وَقَعت في الماضي، ولم تُشاهِدْها ، ولم تَقرأ عَنها ، ولم يُخْبِرْكَ أحدٌ بِها ، لِيَكون ذلك رَفْعاً لمعنوياتك ، ودَليلاً على صِدْقِك ، وهذه الأخبارُ حَقٌّ وصِدْقٌ لأنَّ مَصْدَرَها الوَحْيُ الإلهيُّ لا كَلامُ الناس وخيالُ القصَّاصين. والذِّكْرُ هُوَ القُرآنُ الكامل المعصوم، والْمُعجِزةُ العُظمى ، سُمِّيَ

---

(٤٩) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٣٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٤٢) : ((رواه الطبراني بأسانيد ، ورجال أحدها رجال الصحيح)) اهـ .

(٥٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٢) برقم (٣٣٧٣) وصحَّحه ، وسكت عنه الذهبي .

(٥١) في البحر المحيط(٦/ ٢٧٨): ((امتنَّ تعالى عليه بإيتائه الذِّكْر الْمُشْتَمِل على القَصَص والأخبار، الدَّال على مُعجِزاتٍ أُوتيها عَلَيه السلام)) اهـ . نقلاً عن صَفوة التفاسير للصابوني (٨/ ٧١).

ذِكْراً لِمَا فِيه مِن المواعظ الحسنة ومُوجِبات التذكر والاعتبار . أنزلَه اللهُ على محمد ﷺ لِكَي يتَّعظ بِهِ الناسُ ، ويأخذوا العِبَرَ والدروسَ ، فيفوزوا في الدُّنيا والآخِرةِ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٢٢):((﴿ وقدْ آتيناكَ مِن لَدُنَّا ﴾ أي: مِن عِندِنا ﴿ ذِكْراً ﴾ ، وهو القرآن العظيم الذي لا يَأتيه الباطلُ مِن بَيْنِ يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه ، تَنْزيل من حكيم حميد ، الذي لَم يُعْطَ نبيٌّ من الأنبياء مُنذ بُعثوا إلى أن خُتموا بمحمد ﷺ كِتاباً مِثْلَه، ولا أكمل مِنه ، ولا أجْمَع لِخَبر ما سَبَقَ ، وخبر ما هو كائن ، وحُكم الفَصْل بين الناس ، مِنْهُ)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ مَن أعرضَ عَنْهُ فإنهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القِيامةِ وِزْراً ﴾[طه : ١٠٠].

مَن كَفَرَ بالقُرآنِ ، ووَلَّى عنه ، وطَلَبَ الهدى في كتابِ غَيْرِه ، فإنه يأتي يَوْمَ القيامة حاملاً ذَنْباً عظيماً ، وإثْماً كبيراً بسبب إعراضه عن القُرآن . وهذا الحِمْلُ الثقيلُ يَقُوده إلى جهنم .

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ٧٦٦) : ((وَمَن أعرضَ عنه فقد هَلَكَ وشَقِيَ . يُريد بالوِزْر : العُقوبة الثقيلة الباهظة ، سَمَّاها وِزْراً تشبيهاً في ثِقَلِها على الْمَعَاقِبِ وصعوبة احتمالها ، بالحِمْلِ الذي يَفْدَحُ الحاملَ (يعني يُثْقِلُه) ، وينقض ظَهْرَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنزَلْناهُ أفأنتم لَهُ مُنكِرُون ﴾[الأنبياء : ٥٠].

هذا القُرآنُ الذي أنزلَه اللهُ على محمد ﷺ كِتابٌ عظيمُ الشأن ، رَفيعُ الْمَنْزلة ، ذِكْرٌ لِمَن تَذَكَّرَ به ، ومَوعظةٌ لِمَن اتَّعظَ بِه، كثيرُ البَرَكة والخير والنَّفْع، لا يَأتيه الباطلُ مِن بَين يَدَيه، ولا مِن خَلْفِه. أعجزَ فُصحاءَ العربِ ، وَهُوَ بِلُغتهم ، ولم يَصْمُدْ أمامَه شيء ، ولم يَستطع إنسيٌّ ولا جِنِّيٌّ أن يَأتِيَ بِمِثْلِه أو بِسُورةٍ مِنه . أفَتُنكِرونه وهو في غاية الوضوح والإعجاز ؟ . وهذا استفهامُ توبيخٍ وتَعيير .

((قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ ، والخطاب لأهل مكة ، فإنهم مِن أهل اللسان ، يُدرِكون مزايا الكلام ولطائفَه، ويَفهمون مِن بَلاغة القرآن ما لا يُدرِكه غَيْرُهم معَ أن فيه شَرَفَهم وصِيتَهم ، فلوْ أنكرَه غَيْرُهم لكان لهم مُناصَبَتُه وعَداؤُه))[52].

وقال اللهُ تعالى:﴿ تبارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ للعالَمينَ نذيراً ﴾[الفُرقان : ١].

تقدَّسَ اللهُ وتعالى وتَنَزَّهَ، الذي نَزَّلَ القُرآنَ الذي يَفْرُقُ بين الحق والباطل، على عَبْدِه محمدﷺ، لِيَكون للإنس والجِن نذيراً ، يُخوِّفهم مِن عذاب الله إن كَفروا. و﴿ عَبْدِهِ ﴾ مَدْحٌ وتعظيمٌ

---

(٥٢) البحر المحيط (٦/ ٣١٢) . نقلاً عن صَفوة التفاسير (٩/ ١٣) .

للنبيِّﷺ، لأن اللهَ أضافَه إلى عُبوديته، ونَسَبَه إلى ذَاته العَلِيَّةِ [53]. والنبيُّ ﷺ هُوَ خَاتَمُ الأنبياء، ورِسالته عامَّة. ففي صحيح البخاري (١/ ١٢٨) أن النبيَّ ﷺ قال: ((وكانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِه خَاصَّةً ، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عَامَّةً)) . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤١١) : ((" نَزَّلَ " فِعْل مِنَ التَّكرر والتَّكثر ... لأن الكتب المتقدِّمة كانت تَنْزِل جُملةً واحدة ، والقرآنُ نُـزِّلَ مُنَجَّماً مُفَرَّقاً مُفَصَّلاً ، آياتٍ بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسُوَراً بعد سُوَر ، وهذا أشدُّ وأبلغُ ، وأشدُّ اعتناءً بِمَن أُنزِلَ عَلَيه)).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ آياتُ الكتابِ الْمُبين ﴾[الشُّعراء : ٢].

هذه آياتُ القُرآنِ البَيِّنِ الواضحِ ، إعجازُه ظاهِرٌ لا يخفَى ، وصِحَّتُه واضحة لا يُشَكِّك فيها إلا أعمى ، وَضَّحَ أحكامَ الحلالِ والحرام ، وبيَّن الشرائعَ والتعاليم ، وأظهرَ أحوالَ الدنيا والآخرة. وقد أنزَلهُ اللهُ على محمد ﷺ ، ولم يَأتِ بِهِ مِن عِنده . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٦/ ٢٣٣) : ((والمراد بالكتاب القُرآن ، وبالْمُبين الظاهر إعجازُه ، على أنه مَن أبانَ ، بمعنى بانَ، أو الْمُبين للأحكام الشرعية ، وما يتعلق بها ، أو الفاصل بين الحق والباطل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العالَمين ﴾[الشُّعراء : ١٩٢].

إنَّ هذا القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ ، أنزلَه اللهُ على النبيِّ محمد ﷺ . واللهُ هُوَ رَبُّ العالَمين ، يَعرِف ما يُصلِحُ الناسَ، وما يُفسِدُهم. وقال أبو السُّعود في تفسيره(٦/ ٢٦٣): ((وَوَصْفُهُ تعالى بِرُبوبيَّة العالَمين ، للإيذان بأن تَنْزيله مِن أحكام تَرْبيته تعالى ، ورأفتِه للكُل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطينُ (٢١٠) وَمَا يَنبغي لَهُم وَمَا يَستطيعون (٢١١) إنهم عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولون (٢١٢) ﴾ [الشُّعراء] .

ما تَنَزَّلَت بالقُرآنِ الشياطينُ . فهو وَحْيٌ إلهيٌّ نَزَلَ به جِبريلُ (الرُّوح الأمين) . وهذا رَدٌّ بَليغ على الكافرين الذين زَعَموا أن القُرآنَ يُشبِه ما تُلقيه الشياطين على الكُهَّان . وهناك فرقٌ واضح بين القُرآنِ وبين كلام الكُهَّان ، والعربُ يَعرِفون هذه الحقيقةَ لأنهم أهلُ البيان والفصاحة والبلاغة.

إنَّ القُرآنَ العظيمَ نَزَلَ بِهِ الرُّوح الأمين على قلب النبيِّ ﷺ ، ولا علاقة للشياطين بِه ، لا مِن قريب ولا بعيد. وهذا رَدٌّ على الكافرين الذين زَعموا أنَّ القُرآنَ يُشبِه الكلامَ الذي تُلقيه الشياطين

(٥٣) قال ابن القَيِّم في رَوضة المحبين (١/ ٢٦٩) : ((قال الشاعر : لَمَّا انتَسَبْتُ إلَيكَ صِرْتُ مُعَظَّماً ... وَعَلَوْتُ قَدْراً دُونَ مَن لَم يُنْسَب . وكُل ما نُسِبَ إلى المحبوب فهو محبوب)) اهـ .

على الكُهَّان ، وأنَّ الشياطين يُلقون القُرآنَ على لسان النبيِّ ﷺ . وهذا الكتابُ محفوظٌ مِنَ شياطين الإنس والجن على السواء ، لأنَّهُ آخِرُ الكُتب السماوية ، وإذا أصابته الزيادة أو النُّقصان فإن الإنس والجن يَكونون قد دَخلوا في متاهة الكُفر والضلال ، ولا فُرصة لنجاتهم . لذلك ، فقد تكفَّل اللهُ بِحفظ القُرآن بنفسه رحمةً بِخَلْقه ، وحمايةً لهم من الضلال . فلا يُوجد كتاب سماويٌّ بعد القُرآن ، ولا يُوجد نبيٌّ بعد محمد ﷺ . وقال ابنُ الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٤٧) : ((سبب نزولها أن قُرَيشاً قالت: إنما تجيء بالقرآن الشياطينُ ، فَتُلقيه على لسان محمد ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) اهـ . وقد قَدَّمَ القُرآنُ ثلاثةَ أدلة لِنَفْي علاقة الشياطين بالقُرآن :

أ ـ ﴿ ومَا يَنبغي لَهُم ﴾ . وما ينبغي للشياطين أن يَنْزِلوا بالقُرآن على النبيِّ ﷺ ، ولا يَصِحُّ مِنهم . فلَيس هذا الأمر من اهتمامهم ، لأنَّ مِن طِباعهم الفسادَ والإفسادَ ، والقُرآنُ هُدىً ورحمة ، وبالتالي هناك فرق هائل وواضح بين القُرآنِ والشياطين . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٤) : ((لأن مِن سَجاياهم الفسادَ وإضلالَ العباد . وهذا (القُرآن) فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن الْمُنكر ، ونور ، وهُدى ، وبرهان عظيم ، فَبَيْنَه وبين الشياطين مُنافاة عظيمة)) اهـ .

ب ـ ﴿ وَمَا يَستطيعون ﴾ . إن الشياطين لا يَقْدِرُون أن يَتَنَزَّلوا بالقُرآن ، لأنهم لا يَصِلُون إلى مكان استماعه في السماء . وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٦٤) : ((أي : وَلَو انبغى لهم ما استطاعوا ذلك ... ثُمَّ بَيَّنَ أنه لَو انبغى لهم واستطاعوا حَمْلَه وتأدِيَتَه ، لَمَا وَصَلوا إلى ذلك ، لأنهم بِمَعْزِل عن استماع القرآن حَالَ نُزوله ، لأن السماء مُلِئَت حَرساً شديداً وشُهُباً في مُدَّة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يَخْلُص أحدٌ من الشياطين إلى استماع حرف واحد مِنه ، لئلا يَشتبه الأمرُ ، وهذا مِن رحمة الله بعباده وحِفْظِه لِشَرعه ، وتأييدِه لِكِتابه ولرسوله)) اهـ .

ج ـ ﴿ إنهم عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولون ﴾ . إن الشياطين مَعزولون عن سَمْعِ القُرآن في مكانه الذي بالسماء ، فكيفَ يَتَنَزَّلون بِالقُرآن وهُم لَم يَصِلوا إلَيه ؟ . إنهم مَحجوبون مَرجومون بالشُّهُب [54]. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٤) : ((ونفوسُهم خَبيثة ظُلمانية شريرة بالذات ، لا تَقبل ذلك ، والقُرآنُ مشتمل على حقائق ومُغَيَّبات ، لا يمكن تَلَقِّيها إلا من الملائكة)) اهـ .

---

(٥٤) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٧٢) : ((وقد جاءت أشعارُ العرب باستغراب رَمْيِها وإنكاره ، إذ لَم يَعهدوه قبل الْمَبْعَث (مَبْعَث النبيِّ ﷺ) ، وكان ذلك أحد دلائل نُبُوَّته ﷺ)) اهـ .

إنَّ القُرآنَ كِتابُ الله تعالى ، ما تَنَزَّلت به الشياطين . فهم مخلوقات شريرة هدفها الإفساد وإضلال الناس . أمَّا القرآن فكتابٌ سماويٌّ يأمر بالمعروف وينهى عن الْمُنكَر . وهؤلاء الشياطين معزولون عن السمع ، فلم يَسمعوا حرفاً واحداً مِنَ القُرآن حَالَ نُزوله ، لئلا يُصبح القرآنُ مَوْضِعَ شَكٍّ وشُبهة . وهذا مِن تجليات الرحمة الإلهية . فقد حفظ اللهُ كتابَه من ألاعيب الخلق ، وصانَ شريعته الغرَّاء مِنَ الدَّنَس والشُّبهات .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ آياتُ القُرآنِ وَكِتابٍ مُبين ﴾[النَّمْل : ١].

هذه آياتُ القُرآن، وآياتُ كِتابٍ مُبين.وتبرز في هذا السِّياق صَفتان للقُرآن،قُرآن وكتاب،لأنه يَظهر بالكتابة ويَظهر بالقراءة.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٨): ((الإشارة إلى آيِ السُّورة. والكِتاب الْمُبين إمَّا اللوحُ المحفوظ، وإبانتُه أنه خُطَّ فيه ما هو كائن فهو يُبِينه للناظرين فيه ... أو القرآن، وإبانتُه لِمَا أُودِع فِيه مِنَ الحِكَم والأحكام أو لِصِحَّته بإعجازه ... وتنكيرُه للتعظيم)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ وَصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ لعلهم يتذكَّرون ﴾[القَصَص : ٥١].

لقد فَصَّلَ اللهُ لِقُرَيشٍ القُرآنَ ، وبَيَّنه لهم ، مِن أجل أن يتذكَّروا ويتَّعظوا . لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضاً، وبَعَثَ رَسولاً بعد رسول ، وبيَّن أخبار الأمم السابقة الذين هَلَكوا بسبب كُفرهم ، ورَبَطَ الدُّنيا بالآخِرة ، فصارت الآخرةُ مُشاهَدَةً في الدُّنيا ، فأُقيمت الْحُجَّةُ على الناس ، وعَلَيهم أخذ الدُّروس والعِبَر ، فيتَّعظون ويُؤمنون . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهلُ مَن اتَّعظَ بنفْسه . ودائماً يَكون الاتِّعاظ بالآخرين بلا تَكلفة ، بعكس الاتِّعاظ بالذات ، فإنه باهظ الثمن .

وفي تفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٢) : ((وقال أهل المعاني : وَالَيْنا وتَابَعْنا، وأنزَلْنا القُرآنَ تَبِعَ بعضُه بعضاً: وَعداً ووعيداً، وقَصَصاً، وعِبَراً، ونصائح ، ومواعظ ، إرادةَ أن يَتذكروا فَيُفلِحوا)) .

وعن رِفاعة القُرَظِيِّ _ رضي اللهُ عنه_ قال: ((نزلت هذه الآية في عَشْرةِ رَهْط ، أنا أحدهم : ﴿ ولقدْ وَصَّلْنا لَهُمُ القَوْلَ لعلهم يتذكَّرون ﴾))[55].

ورِفاعة القُرَظِيُّ صحابيٌّ جليل ، كان يَهودياً مِن بني قُرَيظة ، وهو خال السيدة صفية أُم المؤمنين[56]. وهو يرى _ وَفْقَ هذا الحديث _ أن الآية نزلت في اليهود .

---

(٥٥) رواه الطبراني في الكبير (٥/ ٥٣) برقم (٤٥٦٣) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢) : ((رواه الطبراني بإسنادين أحدهما مُتَّصل ، ورجاله ثقات، وهو هذا . والآخر منقطع الإسناد)) اهـ. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٥٥) : أخرجه الطبراني وابنُ مَرْدَوَيْه بسند جيِّد .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾[القَصَص : ٨٥] [57].

إن اللهَ الذي أنزلَ عليكَ القُرآنَ يا محمد ، وفَرَضَ عليكَ تلاوتَه والعملَ بِه وتبليغَه ، لَرَادُّكَ إلى مكة منصوراً مُظفَّراً ، وكانَ قد اشتاقَ إلَيها ، أو لَرَادُّكَ إلى يوم القيامة ، فيسألكَ عن القُرآن وماذا عَمِلْتَ بِه .

والْمَعَادُ هو يوم القيامة، حيث العودة لكي يُحاسَب المرءُ على أفعاله ، ويحصل الفردُ على نتيجة الامتحان الدُّنيويِّ، ويقف على مستواه الدقيق ، إمَّا فائزاً أو خاسراً . وفي هذا اليوم العظيم تظهر الإنجازات البشرية والإخفاقات على حَدٍّ سواء .

والدنيا ليست هي نهاية المطاف ومنتهى الأحلام ، فما بَعْدَها أجمل منها أو أسوأ منها . فالموتُ هو البداية الحقيقية للحياة، بل إن الموت هو الحياة بعَيْنها، وإذا لم ينتبه المرءُ إلى هذه المبدأ السامي ، فإن الأوهام ستجرفه . وهنا يظهر الفرق بين الفناء (الدنيا) والبقاء (الآخرة) . ولوْ كانت الدنيا ذَهَباً ، والآخرةُ حديداً ، لاختارَ العُقلاءُ الحديدَ الباقي على الذهب الفاني .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٦٨) : ((أي إنَّ الذي أوجبَ عليك تبليغ القرآن لرادكَ إليه ، ومُعيدكَ يوم القيامة ، وسائلكَ عن أداء ما فرض عليكَ . هذا أحد الأقوال ، وهو مُتَّجه حَسَن)) [58]. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨) : ((يُقال : بَيْني وبَيْنَكَ الْمَعاد : أي يوم القيامة ، لأن الناس يَعودون فيه أحياء)) اهـ .

---

(٥٦) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٠) ، وأُسد الغابة (١/ ٣٦٧) .

(٥٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٢٤٩) : ((قال مقاتل : خرج رسولُ الله ﷺ مِنَ الغار لَيلاً، فمضى مِن وَجهه إلى المدينة ، فسار في غير الطريق مخافةَ الطلب ، فلمَّا أَمِنَ رجع إلى الطريق ، فَنَزل الْجُحْفَةَ بين مكة والمدينة ، فعرف الطريقَ إلى مكة ، فاشتاق إليها ، وذَكَرَ مَوْلِدَه ، فأتاه جِبريلُ فقال: أتشتاق إلى بلدك ومَوْلِدك ؟، قال : "نعم" ، قال : فإن الله تعالى يقول: ﴿ إنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾ . فَنَزلت هذه الآية بالْجُحفة)) اهـ .

(٥٨) قال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٦٨) : ((قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة . وقال مجاهد وعكرمة والزُّهري والحسن : إن المعنى : لرادك إلى يوم القيامة ، وهو اختيار الزَّجاج)) اهـ . وفي صحيح البخاري (٤/ ١٧٩٠) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَاد ﴾ ، قال : ((إلى مكة)) . اهـ. وفي رواية أن ابن عباس قال : ((إلى الموت)) [ذكرها الحافظ في الفتح (٨/ ٥١٠) ،

وتتجلى القدرةُ الإلهية غير المحدودة يومَ الْمَعاد ، حيث يعود الناسُ أحياء بعد أن جمع اللهُ تعالى عظامَهم ، وأخرجهم من قبورهم ، وأحضرهم جميعاً بلا استثناء ، دون وجود أية فرصة للهرب أو الغياب أو الاختباء . وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٧) أن النبيَّ ﷺ كان يدعو : ((وأَصْلِحْ لي آخرتي التي فيها مَعادي)) .

وهذا المعنى العظيم يشير إلى أهمية الدار الآخرة باعتبارها الباقية ، حيث يعود الإنسانُ إليها ليستقر فيها إلى الأبد . فيجيء الدعاءُ النبويُّ لِيُنبِّه على أهمية إصلاحها بالطاعات في الدنيا ، لكي يكون الْمَعادُ راحةً أبدية لا شقاءً دائماً .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيمِ ﴾[لُقمان : ٢] .

هذه آياتُ القُرآنِ الْمُحْكَمِ الْمُعْجِزِ، والحاكمِ على غَيْرِه ، والحكيم بياناً وتفصيلاً ، بما يتضمَّنه من أحكام الحلال والحرام . قد أحْكَمَه اللهُ تعالى ، ووضَّحه لعباده . واسمُ الإشارة ﴿ تِلْكَ ﴾ يدل على عَظَمَةِ القُرآنِ وعُلُوِّهِ على ما سِواه.وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/٦١٠):((و﴿الحكيمِ ﴾ الْمُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ، قاله أبو عُبَيدة وغَيْرُه . وقِيل : الحكيم معناه الحاكم فهو فعيل بمعنى فاعل ... وقِيل : الحكيم بمعنى المحكوم فِيه فهو فعيل بمعنى مفعول : أي حُكْم الله فِيه بالعدل والإحسان ، قاله الحسن وغَيْرُه . وقِيل : الحكيم، ذو الحِكمة لاشتماله عليها)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿كِتابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّروا آياتِهِ وَلِيَتذكَّرَ أُولُو الألبابِ﴾[ص : ٢٩].

أنزلَ اللهُ على النبيِّ محمد ﷺ كتاباً عَظيمَ الشأن ، رَفِيعَ الْمَنْزِلة ،كثيرَ الخير والبَرَكة ، يشتمل على المنافعِ الدُّنيوية والدِّينية ، وخَيراتِ الدُّنيا والآخِرة ، وهو القُرآن الكريم ، لِيَتفكَّروا في آياتِهِ ، وَيَفهموا ما فِيها مِنَ الْحُجَجِ الباهرة ، والأحكامِ الجليلة ، والشرائعِ العظيمة، والأسرارِ العجيبة ، والمواعظِ المؤثِّرة ، والإرشادات المهمة ، وَلِيَتَّعِظَ أصحابُ العقول السليمة . وهنا تبرز أهميةُ العمل بالقُرآنِ وعدم الاكتفاء بقراءته وتفسيره ، فلا بُدَّ مِن تحويل الآياتِ القُرآنية إلى واقع ملموس . فَمَن عَمِلَ بالقُرآنِ فقد قَرَأه حتى لَوْ لَم يَقْرَأْه ، ومَن لَم يَعمل بالقُرآن فلم يَقْرَأْه حتى لَوْ قَرَأه .

وقال : ((أخرجها ابن أبي حاتم ، وإسناده لا بأس به))]. وروى أبو يعلى في مُسنده (٢/ ٣٧٠) أن أبا سعيد الْخُدْرِيَّ قال في تفسير الآية : ((مَعادُهُ آخِرَتُه)) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٢) : ((رجاله ثقات)) .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣) : ((قال الحسن البصري : واللهِ ما تَدَبُّرُه بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدَهم لَيَقول : قرأتُ القرآنَ كُلَّه ، ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل . رواه ابن أبي حاتم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تَنْزيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليمِ ﴾[غافِر : ٢].

إن القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ العزيزِ في مُلْكِه القاهرِ لأعدائه، العليمِ بِخَلْقِه وأفعالِهم . لا يُمكن تَحَدِّيه، ولا تخفَى عليه خافية .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٨٢) : ((لعل تخصيص الوصفَيْن لِمَا في القُرآن من الإعجاز والْحُكْم الدال على القُدرة الكاملة والحِكمةِ البالغة)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تَنْزيلٌ مِنَ الرحمنِ الرحيمِ ﴾ [فُصِّلَت : ٢] .

هذا القُرآنُ تَنْزيلٌ مِنَ اللهِ الرحمن الرحيم ، أنزلَه على النبيِّ محمد ﷺ ، رَحمةً بالمؤمنين . والقُرآنُ هو الرحمة الدائمة التي لا تنقطع ، والنِّعمة الباقية التي لا تَزول. وقد تفضَّل اللهُ على الناس بأن أنزلَ عليهم كلامَه الْمُقَدَّس ، وشرَّفهم بِه .

وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١٥/ ٤): ((وإنما خَصَّ هذين الاسْمَيْن﴿ الرحمنِ الرحيمِ ﴾ إشارة إلى أن نُزوله مِن أكبر النِّعَم ، ولا شَكَّ أن القرآن نِعمة باقية إلى يوم القيامة)) اهـ .

في الحديث أن عبد الله بن مسعود ـ رضي اللهُ عنه ـ كان يَسجد في الآية الأُولى من ﴿ حم (١) تَنْزيلٌ مِنَ الرحمنِ الرحيمِ (٢) ﴾ [59].

وقال اللهُ تعالى : ﴿كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عربياً لِقَوْمٍ يَعْلمون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٣].

إنَّ القُرآنَ كتابٌ سماويٌّ عَظيمُ الشأن ، بُيِّنَت ألفاظُه ومعانيه ، وأُحْكِمَت أحكامُه ، وذلك ببيان الحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والوعد والوعيد ، والثواب والعِقاب . فَصَّله اللهُ باللغة العربية بكل وُضوح ، فلا لَبْس فِيه ولا غُموض . ألفاظُه نقيةٌ واضحة ، ومَعانيه مُفَصَّلةٌ غير مُعقَّدة. ولَن يَعرف عَظَمَةَ القُرآنِ وإعجازَه إلا مَن كانَ عالِماً باللغة العربية، أمَّا الجاهلُ بهذه اللغة الشريفة، فسيقرأ القُرآنَ بعيون مَيْتة، ولَن يستفيد شيئاً مِنه، ولَن يقف على أسراره ومعانيه ومظاهر إعجازه.

---

(٥٩) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ١٤٧) برقم (٨٧٣٧) . وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ٥٧٥) : ((رجاله ثقات)) اهـ . وانظرْ شرح معاني الآثار للطحاوي (١/ ٣٦٠) .

لقد نزل القُرآنُ باللغة العربية مُتَحَدِّياً العربَ أهلَ الفصاحة والبلاغة ، ولكي يَعلموا أن البشر لا يَقدرون على الإتيان بِمِثْلِه، وهذا يَعني أن مَصْدَرَه سماويٌّ لا أرضيٌّ. ولوْ كانَ بغَير العربية لَمَا عُرفت أهميتُه وعَظَمَتُه. وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٨١و٨٢): ((و﴿ فُصِّلَتْ ﴾ معناه : بُيِّنَت آياتُه ، أي فُسِّرَت معانيه، فَفُصِلَ بين حلاله وحرامه ، ووعده ووعيده . وقِيل : فُصِّلَت في التَّنْزيل، أي نزل نُجوماً، ولم يَنْزِل مرة واحدة . وقِيل: فُصِّلَت بالمواقف وأنواع أواخر الآيِ، ولم يكن يرجع إلى قافية ونحوها كالسَّجْع والشِّعْر. وقَوْلُه تعالى: ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلمون ﴾ ، قالت فِرقة : يَعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل،فكأن القرآن فُصِّلت آياتُه لهؤلاء إذْ هُم أهل الانتفاع بِها فَخُصُّوا بالذِّكْر تشريفاً، وقالت فِرقة : يَعلمون مُتعلِّق في المعنى بِقَوْله : ﴿ عربياً ﴾ أي : لِقَوْمٍ يَعلمون ألفاظَه ، ويتحققون أنها لَم يخرج شيء منها عن كلام العرب ، وكان الآيُ على هذا التأويل رَادَّةً على مَن زَعم أن في كتاب الله ما ليس في كلام العرب . والتأويل الأول أبْيَنُ وأشرفُ معنىً ، وبُيِّنَ أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب ، إمَّا مِن أصل لُغتها ، وإمَّا مِمَّا عَرَّبَتْهُ مِن لغة غَيرها)) اهـ .

وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٧/ ٣٠٩) : ((وأخرج ابن إسحق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن محمد بن كعب القُرَظِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : حُدِّثْتُ أن عُتبةَ ابن ربيعة ، وكان أشدَّ قُرَيشٍ حِلْماً ، قال ذَاتَ يَوم _ وهو جالس في نادي قُرَيش ورسولُ الله ﷺ جالس وَحْدَه في المسجد_: يا مَعْشَرَ قُرَيش ، ألا أقومُ إلى هذا فَأُكَلِّمُهُ ، فَأَعْرِضْ عَلَيهِ أموراً لعله أن يَقبلَ مِنها بَعْضَها ويَكُفَّ عَنَّا ؟، قالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقام عُتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ . فَذَكَرَ الحديث فِيما قال له عُتبة ، وفِيما عَرَضَ عَلَيهِ مِنَ المال والْمُلْكِ وغَيْرِ ذلك ، حتى إذا فَرَغَ عُتبة قال رسولُ الله ﷺ : " أفَرَغْتَ يا أبا الوليد ؟ " ، قال : نعم ، قال : " فاستمِعْ مِنِّي " ، قال : أفعلُ ، فقال رسول الله ﷺ : " بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم (١) تَنْزيلٌ مِنَ الرحمنِ الرحيمِ (٢) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عربياً لِقَوْمٍ يَعْلمون (٣) ﴾ . فلمَّا سَمِعَها عُتبة ، أنصتَ لها ، وألقى يَدَيهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعتمِداً عليهما ، يَستمع مِنه حتى انتهى رسولُ الله ﷺ إلى السَّجدة ، فسجد فيها ، ثُمَّ قال : " سَمِعْتَ يا أبا الوليد ؟ " قال : سَمِعْتُ ، قال : " أنتَ وذاك " ، فقام عُتبةُ إلى أصحابه ، فقال بَعْضُهم لبعض : نحلف باللهِ ، لقد جاءكم أبو الوليد بِغَيْر الوجه الذي ذهب بِه ، فلمَّا جَلس إلَيهم ، قالوا : ما وَراءَكَ يا أبا الوليد ؟ ، قال : واللهِ إنِّي قَد سَمِعْتُ قَولاً ، ما سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ قَط ، واللهِ ما هُوَ بالشِّعْرِ ، ولا بالسِّحْرِ ، ولا بالكِهانة ، واللهِ لِيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الذي سَمِعْتُ نَبأ)) اهـ .

إنَّ قُرَيشاً تسعى جاهدةً لإيقاف النُّور الإلهيِّ ، وإنهاءِ الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية ، وقدْ رَحَّبت بِعَرْضِ عُتبة بن ربيعة الذي تقدَّم به ، وهو الذهاب إلى النبيِّ ﷺ ، ومحاولة إقناعه بترك الدعوة . وترحيبُ قُرَيش إنما كانَ لمعرفتهم بأن عُتبة مِنَ الزُّعماء أصحاب المكانة ، والأخلاقِ الرفيعة ، ولَديه من الْمُؤهِّلات العقلية والأخلاقية ما يُمكِّنه من مُحاوَرة النبيِّ ﷺ وإقناعه _ وَفْقَ تفكيرهم القاصر_. وقد عَرَضَ عُتبةُ على النبيِّ ﷺ أشياء دُنيوية إغرائية كالمال والْمُلْك وغَيْرِهما. وقد استمعَ له النبيُّ ﷺ حتى النهاية ، وَلَم يُقاطِعْهُ ، وهذا يُشير إلى أدب الحوار وعدم مُقاطَعة الخصم . فلمَّا انتهى عُتبة مِن كلامه ، جاءَ الوقتُ لكي يتكلم النبيُّ ﷺ ، وما كانَ مِنه إلا أن قَرأ علَيه أكثرَ مِن نِصْفِ سُورة فُصِّلَت . وقد أثَّرت هذه الآياتُ العظيمة في عُتبة ، فعادَ بِغَير الوجه الذي ذَهَبَ به ، وهذا يُشير إلى أن التأثر ظاهر على وجهه ، بحيث لاحظه الجميعُ دون عَناء . وقَد شَهِدَ للقُرآن بِتَفَوُّقِه ، وأنه لا يُشبِه كلامَ البشر ، وأن هذا القُرآن سَيَكون له شأنٌ عظيم . وقد صَدَقَ تَوَقُّعُه .

شَهِدَ الأنامُ بِفَضْلِهِ حتى العِدى والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ

وقال اللهُ تعالى : ﴿ بشيراً ونذيراً فأعرضَ أكثرُهُم فَهُم لا يَسْمَعون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤] .

لقد مَدَحَ اللهُ القُرآنَ ، ووصفه بأنهُ قُرآن عربِيٌّ بشير ونذير، يُبَشِّر المؤمنين بنعيم الجنة ، ويُنذِر الكافرين بعذاب النار ، فاستكبرَ أكثرُ قُرَيش عَن الاستماع للقُرآن بهدوء وتركيز ، ولم يتفكروا بمعانيه ، ولم يَعْرِفوا حُجَجَه وبراهينَه. إنهم لا يَسمعونه سَماعَ تفكرٍ وتأمُّلٍ كي يَنتفعوا بِه ، وذلك بسبب استكبارهم ، وإعراضهم ، وجبروتهم . وهُم لا يَفهمون مِنه شَيئاً معَ أنه جاءَ بِلُغتهم بكل وضوح ، وهُم أهلُ البيان والفصاحة . وهذا تَوبيخٌ لِقُرَيش ، وفَضْحٌ لعِنادهم وتكبُّرهم .

لقد أعرضَ أكثرُ أهل مكة عن القُرآن معَ أنهم عُلماء باللغة لا جُهَّال، ولكنهم لم يتفكروا في حقيقة القُرآن بسبب إعراضهم وجحودهم ، وهذا مَنَعَهم من معرفة حُجَجِ القُرآن وبراهينه . لذلك اكْتَفَوا بالتشويش على الدعوة ، وتكذيبِ القُرآن ، واتهامِ النبيِّ ﷺ بالكذب والسِّحر والكِهانة والشِّعر، دون مُناقَشة الآيات، أو مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، أو تقديم أدلة عِلْمية على عدم صِحَّة القُرآن. وهذا هُوَ أسلوب العاجزِ الضعيف في كُل زمانٍ ومكان ، حيث الجعجعة بلا طَحْن.

وقال الباقلاني في إعجاز القُرآن (١/ ١٢) : ((ثُمَّ أخبرَ عن جُحودهم وقِلةِ قُبولهم بِقَوْله تعالى : ﴿ فأعرضَ أكثرُهُم فهُم لا يَسْمَعون ﴾ ، ولَوْلا أنه حُجَّة لَم يَضُرَّهم الإعراض عنه ، وليس لقائل أن يقول: قد يكون حُجَّةً ولكن يحتاج في كَوْنه حُجَّةً إلى دلالة أخرى، كما أن الرسولَ حُجَّةٌ ولكنه يحتاج إلى دَلالة على صَدْقِه وصِحَّة نُبُوَّته ، وذلك أنه إنما احْتُجَّ عَلَيهم بنفس هذا التَّنْزيل ، ولم يَذكر حُجَّةً غَيْرَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ مما تَدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ومِن بَيْنِنا وبَيْنِكَ حِجابٌ فاعملْ إننا عاملون ﴾ [فُصِّلَتْ : ٥] (60).

إنَّ مُشرِكي قُرَيش إذا دعاهم النبيُّ ﷺ إلى الإيمان ، تَذَرَّعوا بِحُجَجٍ واهية ، قالوا إن قُلوبَهم في أغطيةٍ تَحجبهم عن الدَّعوة ، وفي آذانِهم ثِقَلٌ يَمنعهم مِن سَماع النبيِّ ﷺ ، استثقالاً للدعوة ، وكراهيةً للحق. فكلامُ النبيِّ ﷺ لا يَدخل أسماعَهم، وقلوبُهم مَحجوبة عَن استيعابه. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٩٥١) : ((أي : نحن في ترك القبول منك بِمَنْزلة مَن لا يَفقه ولا يَسمع)) اهـ .

ويبرز في الآية وجهٌ مِن وجوه البيان ، وهو الاستعارة التصريحية ﴿ وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ مما تَدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ﴾ ، وهذه تمثيلات لامتناع قلوبهم عن قبول الإيمان ، وكأنها في أغطية تَمنعها من التواصل مع العالَم الخارجي . وقال الصابوني في صَفوة التفاسير (١٥/ ١٨) : ((ليس هناك على الحقيقة شيء مِمَّا قالوه ، وإنما أخرَجوا هذا الكلام مَخرج الدَّلالة على استثقالهم ما يَسمعونه مِن قَوارع القرآن ، وجوامعِ البيان ، فكأنهم مِن شدة الكراهية له قد صُمَّت أسماعُهم عن فَهْمِه ، وقلوبهم عن عِلْمِه)) اهـ .

﴿ ومِن بَيْنِنا وبَيْنِكَ حِجابٌ ﴾ . يقولون إنَّ بَيْنَهم وبَيْنَ النبيِّ ﷺ حاجزاً مانعاً ، يَحجبهم عن التواصل ، فلا يَصِلُ إلَيهم شيء مِن كلام النبيِّ ﷺ . وهذا الحِجابُ هو اختلاف الدِّين، لأن دِينهم عبادة الأصنام ، أمَّا دِينُ النبيِّ ﷺ فهو الإسلام القائم على التوحيد . وقال الطبري في تفسيره

---

(٦٠) في الدُّر المنثور (٧/ ٣١٢) : ((عن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في قَوْله : ﴿ وقالوا قلوبُنا في أكِنَّةٍ ﴾، الآية. قال: أقبلت قُريش إلى النبيِّ ﷺ ، فقال لهم : " ما يمنعكم من الإسلام فَتَسُودوا العرب ؟ " ، فقالوا : يا محمد ما نَفقه ما تَقول ولا نَسمعه ، وإن على قُلوبنا لَغُلْفاً. وأخذ أبو جهل ثَوباً ، فَمَدَّهُ فيما بَيْنَه وبَيْنَ رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، قلوبنا في أكِنَّة مِمَّا تَدعونا إليه ، وفي آذاننا وَقْر ، ومِن بَيْنِنا وبَيْنِكَ حِجاب)) .

(١١/ ٨٥):((يقولون: ومِن بَيْنِنا وبَيْنِكَ يا محمد ساتر، لا نجتمع مِن أجله نحن وأنت،فيرى بعضُنا بعضاً ، وذلك الحِجاب هو اختلافهم في الدِّين ، لأن دِينَهم كان عبادةَ الأوثان ، ودِينَ محمد ﷺ عبادةُ الله وَحْدَهُ لا شريك له ، وذلك هو الحِجاب الذي زَعموا أنه بَيْنَهم وبَيْنَ نبيِّ الله)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٩٧):((وقِيل: إن أبا جهل استغشى على رأسه ثَوباً وقال : يا محمد بَيْنَنا وبَيْنَكَ حِجاب، استهزاءً مِنه، حكاه النَّقاش وذَكَره القُشَيري. فالحِجاب هُنا الثوب)).

﴿ فاعملْ إننا عاملون ﴾ . اعْمَلْ يا محمد على دِينك وما تَعتقده حقاً، وهو توحيد الله تعالى، ونحن نَعمل على دِيننا وما نَعتقده حقاً ، وهو عبادة الأصنام . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٩٧) : ((أي : اعملْ في هلاكنا فإنا عاملون في هلاكك ، قاله الكلبي . وقال مُقاتل : اعملْ لإلهك الذي أرسلك ، فإنا نَعمل لآلهتنا التي نعبدها . وقِيل : اعمل بما يَقتضيه دينُكَ فإنا عاملون بما يقتضيه دينُنا . ويُحتمَل رابعاً : فاعملْ لآخرتك فإنَّا نعملْ لِدُنيانا ، ذَكَره الماوردي)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ كفروا بالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُم وإنَّهُ لَكِتابٌ عزيزٌ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤١].

إنَّ الذينَ كفروا بالقُرآنِ. وخبرُ " إنَّ " محذوف ، لِتَهويل الأمر وتعظيم العقوبة التي تنتظر الكافرين بالقُرآن ، وكأن اللهَ تعالى يَقول : إن الذين كَفروا بالقُرآن مُعذَّبون أشدَّ العذاب ، ولا يمكن تصوُّره . وسُمِّيَ القُرآنُ ذِكْراً لأن فِيه ذِكْرَ الأحكام الدِّينية والدُّنيوية . وإنَّهُ لَكِتابٌ أعَزَّه اللهُ وعَظَّمه ، محفوظ من التحريف ، مَنيعٌ من الشيطان والباطلِ ، وغالبٌ بالْحُجَّةِ الساطعة ، لا يَأتيه الباطل ، ولا يَأتي أحدٌ بِمِثْلِه ، بسبب إعجازِه الباهر ، ومَصْدَرِه السماويِّ.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٦٢): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَكِتابٌ عزيزٌ ﴾ فِيه أربعة أقوال : أحدها : مَنيع مِنَ الشيطان لا يجد إليه سبيلاً، قاله السُّدي . والثاني : كريم على الله ، قاله ابن السائب . والثالث : مَنيع مِنَ الباطل ، قاله مقاتل. والرابع: يمتنع على الناس أن يقولوا مِثْلَه ، حكاه الماوردي)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لا يَأتِيهِ الباطلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ﴾[فُصِّلَتْ: ٤٢].

إنَّ القُرآنَ هو الكتابُ الكامل المعصوم ، لا طريق للباطل إلَيه مِن أي جهة ، لا أحدَ يستطيع زيادة حرف فيه ، ولا إنقاص حرف ، لا يَأتيه التكذيبُ ولا الشيطانُ ولا التبديل ، لأنه كلامُ اللهِ

الحكيمِ في أقواله وأفعاله ، الحميدِ إلى خَلْقِه ، حيث إنهم يَحمدونه لِنِعَمِه العظيمة ، وفَضْلِه الكثير ، فاللهُ يُنفِق على عباده مُذْ خَلقهم ، ولا يخشى الفَقْرَ ، ولا تَنفَد خزائنُه .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٦٢) : ((وفي قَوْلِه : ﴿ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : بَيْنَ يَدَي تَنْزيله وبَعْدَ نزوله. والثاني أنه ليس قَبْلَه كتاب يُبطِله ، ولا يأتي بَعْدَه كتاب يُبطِله. والثالث: لا يأتيه الباطل في إخباره عمَّا تقدَّم، ولا في إخباره عمَّا تأخَّر)) اهـ.

وعن عُقبة بن عامر الْجُهَنِيِّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : إنَّ رسول الله ﷺ تلا : ﴿ إنَّ الذينَ كفروا بالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُم وإنَّهُ لَكِتابٌ عزيزٌ (٤١) لا يَأتِيهِ الباطلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ (٤٢) ﴾ . فقال رسولُ الله ﷺ : ((إنكم لَن تَرْجِعُوا إلى الله بِشَيْءٍ أحبَّ إلَيه مِن شَيء خَرج مِنه)) ، يعني : القرآن [61].

إن القُرآنَ كلامُ الله ، أنزلَه على النبيِّ محمد ﷺ الذي قامَ بقراءته على الناس وتفسيره . وهذا معنى أن القُرآن خَرَجَ مِنَ اللهِ تعالى ، وليس المعنى انفصال جزء عن الله تعالى. وكلامُ الله صِفةٌ قديمة قائمة بذات اللهِ ، وصِفاتُ اللهِ قديمة لا تُوصَف بالْحُدوث .

وقال ابنُ جَماعة في إيضاح الدليل (١/ ٢٣٠) : ((وبتقدير ثُبوته ، فمعناه أنه وُجد مِنهُ ، بأنه تكلم بِه ، وأنزله على نَبِيِّه ، وأفهمَه عِبادَه ، أي : مِنهُ ظَهر ، كما تقول : خَرج لي مِن كلامك كذا وكذا ، فيكون معناه ما ذكرنا، لا أن معناه الخروج الذي هو انفصال شيء من شيء بِمُفارَقته له ، واستبداله بحيِّز آخَر، فإن ذلك على الله مُحال ، فإن كلامه صِفة أزلية قائمة بذاته ، لَم يَزَلْ مَوصوفاً بها ، ولَيس ذلك كخروج كلامنا ، والله أعلم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أعجمِيًّا لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدىً وَشِفاءٌ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمىً أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾[فُصِّلَتْ : ٤٤] .

لَوْ جَعَلَ اللهُ القُرآنَ أعجمياً لقالت قُرَيشٌ (قَوْمُ النبيِّ ﷺ) تَعَنُّتاً وعِناداً : هَلا نَزَلَ بلغة العرب كَي نَفهمه ونعرف ما فِيه ، فنحن عربٌ لا نعرف إلا اللغةَ العربية. والاستفهامُ في الآية: ﴿ أأعْجَمِيٌّ وعربِيٌّ ﴾ للإنكار ، يعني : لَقالوا أكلامٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ . والأعجميُّ هُوَ الذي لا يُفهَم

(٦١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٧٩) برقم (٣٦٥١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

كلامُه. وفي الآيةِ دليلٌ على أن القُرآن عربيٌّ ، وإذا نُقِلَ إلى لُغةٍ أخرى لم يَعُدْ قُرآناً ، وفقدَ إعجازَه.

ولوْ كان القُرآنُ بغَير العربية ، لَكان المشركون معذورين في كُفرهم بِه ، لأنه _ عِندئذٍ _ سَيَكون كلاماً غَير مفهوم ، ولا معنى له بالنِّسبة إلَيهم ، ولا يَعْرِفون ألفاظَه ومَعانيه . أمَّا نُزوله بِلُغتهم فقد قَطَعَ عُذْرَهم ، ولا حُجَّةَ لهم . وبِما أنهم عاجزون عن مُجاراته أو الإتيان بِمِثْلِه وهو بِلُغتهم ، وهُم أهل الفصاحة والبلاغة، فهذا دليلٌ واضحٌ على أن القُرآنَ لَيس مِن عِندِ محمد الأُمِّيِّ، وإنما مِن عِند الله تعالى . واللهُ وَحْدَهُ هو الذي أعلنَ أن القُرآنَ كلامُه . ولوْ كانَ القُرآن مِن تأليف أي مخلوق،فلماذا لَم يَظهر هذا المخلوقُ ويُخبِرنا بأن القُرآن مِن تأليفه، وأنَّ مُحمَّداً قد أخذه مِنه؟.

والمشركون سيخترعون أعذاراً واهية لعدم إيمانهم مهما كانت لُغة القُرآن ، وسَوْفَ يَجدون تبريراتٍ لِكُفرهم وجُحودهم ، وهذا هو العِناد والتَّعَنُّت والاستكبار في أسوأ صُوَرِه . فالقُرآن الذي هُوَ بِلُغتهم قالوا عنه إنَّهُ أساطير الأوَّلين، ومِن تأليف محمد ﷺ. ولوْ نزلَ بغَير اللغة العربية لَطَعنوا فِيه لأنه لَيس بِلُغتهم . إن الكُفرَ _ عِندَهم _ مسألةُ مَبدأ ، ومَوْقِفٌ مُسْبَق وثابت ، سواءٌ نزلَ القُرآنُ أَم لَم يَنْزِل ، وسواءٌ كانَ بالعربية أَم بغَيْرِها ، وسواءٌ ظَهرت الْمُعجِزاتُ أَم لَم تَظهر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٩) : ((والأعجميُّ : الذي لا يُفصِح سَواءٌ كان مِنَ العَرَبِ أو مِنَ العَجَم . والأعجم ضِد الفصيح : وهو الذي لا يُبَيِّن كَلامَه ، ويُقال للحيوان غير الناطق أعْجَم)) اهـ .

وهذه الآية توضِّح أهمية الدعوة باللغة التي يفهمها الناس لكي يَستوعبوا الأحكامَ والشرائعَ ، ويَقفوا على معنى الكلام ودلالاته ، ويقوموا بتطبيق الأحكام على أرض الواقع . أمَّا الدعوة باللغة التي لا يُتقنها الناس فهي مَضيعة للوقت ، بسبب انعدام وسيلة الحوار والتخاطب ، وغياب معنى استقبال الكلام وإرساله . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرآناً أعجمياً ﴾ أي بلغة غير العرب ، ﴿ لقالوا لَوْلا فُصِّلَتْ آياتُه ﴾ أي بُيِّنت بلغتنا ، فإننا عرب لا نفهم الأعجمية ، فبيَّن أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز ، إذْ هُم أعلم الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونَثْراً ، وإذا عَجِزُوا عن مُعارضته كان من أدل الدليل على أنه مِن عِندِ الله ، ولو كان بلسان العَجَم لقالوا : لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان)) اهـ .

﴿ قُلْ هُوَ للذينَ آمَنوا هُدىً وَشِفاءٌ ﴾. إنَّ القُرآنَ هُدىً للمؤمنين مِنَ الضلالة ، يُرْشِدُهم إلى طريق الحق، ويَشفيهم مِنَ الجهل والأمراض والشُّبهات .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣١) : ((أي : قُل يا محمد ، هذا القرآن لِمَن آمنَ بِه ، هُدىً لقلبه ، وشفاءٌ لِمَا في الصدور مِنَ الشُّكوك والرِّيَب)) اهـ .

﴿ والذينَ لا يُؤمنونَ في آذانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِم عَمىً ﴾ . أمَّا الكافرون ، ففي آذانِهم صَمَمٌ وثِقَلٌ ، يَستمعون القُرآنَ ، فلا يَفهمون ما فيه، فيزدادون كُفراً وضَلالاً وتعاسة ، بسبب عِنادهم وتكبُّرهم، والقُرآنُ عَليهم عَمىً ، لأنهم لا يَرَوْنَ فِيه المواعظَ الجليلة ، والحِكَمَ البليغة ، والْحُجَجَ الباهرة . لقد عَمِيَتْ قُلوبُهم عن القُرآن ، وصَمُّوا عَن استماعه ، فلا يَنتفعون مِنه بشيء . وهذا يدل على أن اللهَ تعالى يَهدي أقواماً بأن يَفتح قلوبَهم وحَوَاسَّهم للقُرآن ، ويُضِلُّ آخرين بأن يُغلِق قلوبَهم أمام القُرآن ، ويُعمي أبصارَهم ، ويَسُدُّ آذانَهم. وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٣٢٠) : ((أي صَمَم عن سماع القرآن ، ولهذا تَوَاصَوا باللغو فيه)) اهـ .

وإذا لم يَشعر الإنسانُ بِعَظَمةِ القُرآن وإعجازِه ، ولم يَذُقْ حلاوةَ القُرآن ، ففي قلبِه أوساخٌ لا بُدَّ من إزالتها . إذْ إن نُور القُرآن لا يَهبط في قلبٍ قذرٍ . فعلى الإنسان أن يُنَظِّفَ قَلْبَه قبل استماع القُرآن كَي يَشعر بكلامِ اللهِ تعالى. وكما أن نُور الشمس لا يَدخل إلى الغرفة إلا إذا فَتح الإنسانُ النافذةَ ، فكذلك نور القُرآن لا يَدخل إلى حياة الإنسان إلا إذا فَتح قَلْبَه . وفي حاشية زاده على البيضاوي (٣/ ٢٦٥) : ((إنَّ القُرآنَ لِوُضوح آياته ، وسُطوع براهينه ، هادٍ إلى الحق ، ومُزيل للرِّيَب والشك ، وشفاء مِن داء الجهل والكفر والارتياب . وَمَن ارتابَ فيه ولم يُؤمن به ، فارتيابه إنما نشأ عَن توغُّله في اتِّباع الشهوات ، وتقاعده عن تفقُّد ما يُسعده ويُنجِّيه)) اهـ .

﴿ أُولئكَ يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيدٍ ﴾ . إنَّ الكافرين لا يَسمعون الحقَّ ، كأنهم يُنادَوْنَ مِن مكانٍ بعيد ، فلا يَفهمون معنى النِّداء ولا الْمُراد مِنه ، وهذا يُشير إلى المسافة الهائلة التي تَفصل قُلوبَهم عن الحق، لذلك لا يَنتفعون بشيء من المواعظ والأحكام . وإذا سَمِعُوا النِّداءَ فإنهم لا يَفهمون مِنهُ شَيئاً ، كالبهائم ، تَسمع النداءَ لكنها لا تَفهم معناه .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٨) : ((اختلف أهل التأويل في معناه فقال بعضهم : معنى ذلك : تشبيه الله جَلَّ ثناؤه لِعَمى قُلوبهم عن فَهم ما أُنزِل في القرآن مِن حُجَجِه ومواعظه ببعيدِ فَهْمٍ ، سامع صوت من بعيد ، نُودِيَ فلم يَفهم ما نُودِيَ)) اهـ. وهذا معنى مجازيٌّ. وهناك معنى آخر على الحقيقة . قال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٩٧) : ((وأن معناه أنهم يوم القيامة

يُنَادَوْنَ بِكُفرهم وقَبيحِ أعمالهم مِن بُعْد ، حتى يَسمع ذلك أهل الموقِف، لِيُفْضَحوا على رؤوس الخلائق، ويكون أعظم لتوبيخهم ، وهذا تأويل الضَّحاك)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أرأيْتُمْ إن كانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أضلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعيدٍ ﴾[فُصِّلَتْ: ٥٢].

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين : أخبروني إن كان هذا القُرآنُ مِن عِندِ الله ، ثُمَّ كَذَّبْتُم به عِناداً، ورَفضتموه ، ولم تَعملوا بما فِيه، لا أحد أضل مِنكم لِفَرْطِ شِقاقكم ، وشِدَّةِ عداوتكم ، ومُخالفتكم التَّامة للحق. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١١٩) : ((﴿ مَنْ أضلُّ مِمَّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعيدٍ ﴾ أي: مَن أضلُّ مِنكم . فوضعَ الموصول مَوْضِعَ الضمير ، شَرْحاً لحالهم ، وتعليلاً لمزيد ضلالهم)).

وقال اللهُ تعالى:﴿كذلكَ يُوحي إلَيْكَ وإلى الذينَ مِن قَبْلِكَ اللهُ العزيزُ الحكيمُ ﴾[الشُّورى : ٣].

إنَّ الوَحْيَ ليس بِدعةً ، ولَيس اختراعاً بشرياً . والنبيُّ محمد ﷺ لم يَأتِ بشيء مِن عِنده ، ولَيس استثناء في منهج الأنبياء. لقد أكملَ النبيُّ محمد ﷺ ما قامَ به الأنبياءُ السابقون _ عليهم الصلاة والسلام _ ، وأكملَ بُنيانَ النُّبُوَّة ، وكانَ اللبنةَ الأخيرة في هذا البُنيان . وكما أنزلَ اللهُ القُرآنَ على النبيِّ محمد ﷺ،كذلكَ أنزلَ الكُتبَ السماويةَ على الأنبياء السابقين_عليهم الصلاة والسلام_. فالأمرُ ليس غريباً ، ولا يَتعارض معَ العقل ، ولا يَتناقض مع حركة التاريخ الإنساني . واللهُ هُوَ مُنْزِلُ الكُتب السماوية رَحمةً بعباده ، وإنقاذاً لهم من العذاب ، وهو سُبحانه العزيزُ في انتقامه من أعدائه ، والحكيمُ في أقواله وأفعاله. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٧٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ كذلكَ يُوحي إلَيْكَ ﴾ فِيه أربعة أقوال : أحدها أنه كما أوحيتُ " حم عسق " إلى كل نبيٍّ ، كذلك نُوحيها إلَيك ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : كذلك نُوحي إلَيك أخبارَ الغَيب كَما أوْحَيْنا إلى مَن قَبْلَك ، رواه عطاء عن ابن عباس . والثالث أن " حم عسق " نَزلت في أمر العذاب ، فقِيل: كذلك نُوحي إلَيكَ أن العذاب نازل بِمَن كَذَّبك كما أوْحَيْنا ذلك إلى مَن كان قَبْلَك ، قاله مقاتل . والرابع أن المعنى هكذا نُوحي إلَيكَ ، قاله ابن جرير)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿وكذلك أوحَيْنا إلَيْكَ قُرْآناً عربياً لِتُنذرَ أُمَّ القُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾[الشُّورى:٧].

كما أوحَى اللهُ إلى الأنبياء_علَيهم الصلاة والسلام_، أوحَى إلى النبيِّ محمد ﷺ قُرآناً عربياً مُعْجِزاً وواضحاً لا لَبْسَ فِيه، لِيُنذِرَ أهلَ مكة ، وسائرَ الناس . يُنذِرُهم عذابَ الله تعالى في حال

كُفرهم ، وتكذيبهم ، وعِنادهم، ورفضهم الدعوة. وقد جاءَ القُرآنُ بالعربية لكي يَفهمه العربُ ، ويَعرفوا ما فِيه مِنَ الْحُجَجِ والمواعظ والأحكام .

وقال الفخرُ الرازي في التفسير الكبير (٢٧/ ١٤٧): ((وأُمُّ القُرى أصْلُ القُرى ، وهي مكة، وسُمِّيت بهذا الاسم إجلالاً لها ، لأنَّ فيها البَيْتَ ومَقامَ إبراهيمَ (ﷺ)، والعربُ تُسمِّي أصْلَ كُلِّ شيء أُمَّه ، حتى يُقال : هذه القصيدة مِن أُمهات قصائد فُلان)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ ﴾[الشُّورى : ١٧].

اللهُ أنزَلَ القُرآنَ وسائرَ الكُتب السماوية بالصِّدْق والحق في الأحكام والأوامر والنواهي ، والعَدْل والإنصاف. والشرائعُ السماوية جاءت لتحقيق العَدْل وترسيخ الحق . وبالشرائع تُوزَن الأمور ، وتُوضَع في نِصابها الصحيح ، ويتحقق العَدْل والمساواة بين الناس . ويُسمَّى العَدْلُ مِيزاناً ، لأن الميزانَ آلةُ الإنصاف والعَدْل . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٢٨٠) : ((والمِيزان ، فِيه قَولان: أحدهما أنه العدل ، قاله ابن عباس وقتادة والجمهور . والثاني أنه الذي يُوزَن بِه ، حُكِيَ عن مجاهد . ومعنى إنزاله : إلهامُ الخلق أن يَعملوا بِه ، وأمرُ الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ إيَّاهم بالإنصاف . وسُمِّيَ العَدْلُ مِيزاناً ، لأن الميزان آلة الإنصاف والتَّسوية بين الخلق)) اهـ . وعن عبد الله ابن عمر _رضي الله عنهما_أنه كان واقفاً بعرفات، فنظرَ إلى الشمس حِينَ تَدَلَّتْ مِثْلَ التُّرْسِ للغروب، فبكى ، واشتدَّ بكاؤه ، وتلا قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ اللهُ الذي أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانَ وما يُدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ ﴾ إلى ﴿ القويُّ العزيزُ ﴾ . فقال له عَبْدُه : يا أبا عبد الرحمن ، قد وَقفتُ مَعَكَ مِراراً ، لَم تَصْنَعْ هذا ، فقال : ذَكَرْتُ رسولَ الله ﷺ وهو واقف بمكاني هذا فقال : ((أيها الناسُ ، لَم يَبْقَ مِن دُنياكم هَذهِ فيما مضى ، إلا كما بَقِيَ مِن يَوْمِكم هذا فِيما مضى مِنه))[62].

(٦٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٨١) برقم (٣٦٥٦) وصحَّحه . وفي سنده كَثير بن زَيد . قال عنه الذهبي عَقِبَ الحديث : ((ضعَّفه النَّسائيُّ ، ومشَّاه غَيْرُه)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢٥) : ((وثَّقه ابن حِبَّان وابن مَعين في رواية ، وقال أبو زُرعة : صَدوق فيه لِين ، وضعَّفه النَّسائي ، وقال محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي : ثقة)) اهـ .

وهذا يدل على أنَّ ما بَقِيَ مِن عُمُر الدنيا مُدَّةٌ قصيرة، وأنَّ يوم القيامة بِكُلِّ أهواله قد اقترب. ويوم القيامة يَعني الحساب والجزاء ، فإمَّا الخلودُ في الجنة ، أو الخلود في النار . ولا أحد يَعرف نهايتَه ومَصيرَه . وهذا الأمر يَدعو إلى البُكاء والخوف والرَّجاء .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَكَذلكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً مِن أمْرِنا ﴾ [الشُّورى : ٥٢] .

كما أوحَى اللهُ تعالى إلى رُسُلِه _ عليهم الصلاة والسلام _ ، أوحَى إلى النبيِّ محمد ﷺ هذا القُرآنَ وَحْياً ورحمةً مِن أمرِ الله تعالى . والقُرآنُ يَهدي الناسَ ، ويُخرِجهم من الظلمات إلى النُّور ، لذلك فهو حياةُ القلوب،وحياةٌ مِن مَوت الكفر، يهتدي بِه الناسُ فَيَخرجون من الموت إلى الحياة.

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٣٧) : ((وَسَمَّاهُ رُوحاً ، لأن القلوب تحيا به . وقِيل : جِبريل . والمعنى : أرسلناه إلَيكَ بالوَحْي)) اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٤٩): ((وكان مالك بن دينار يقول : يا أهل القرآن ، ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ ، فإن القرآن ربيع القلوب، كما أن الغَيث ربيع الأرض)) اهـ .

إنَّ الوَحْيَ جاء لانتشال أرواح الناس من المستنقع العميق . جاء لجعل الناس يكتشفون إنسانيتهم المدفونة تحت وَحْلِ الشُّبهات الصادمة ، والشهواتِ الغريزية الضاغطة . والفرد لا يمكنه أن يصبح عنصراً صالحاً في مجتمعه الجزئي ، ومجتمعه الكَوْني الكُلِّي، إلا إذا اكتشفَ رُوحَه ، وأطلقَ سراحَها خارجَ أسوار الانهيار الأخلاقي ، وقام بتحريرها مِن قُيود عالَم الأشباح. وبذلك تَقدر على الانطلاق نحو خالقها تعالى. وفي ذات الوقت لا يمكن للإنسان أن يُحرِّر رُوحَه مِن قُيودها، ويتحرر مِن سَطوة العناصر السلبية ، إلا إذا سارَ في طَرِيق الوَحْي المعصوم الذي يجعل الأرض تلتقي مع السماء، مِمَّا يجعل الفرد كائناً حراً في تفكيره العقلاني ، ومُتحرِّراً من أوهام الدنيا الفانية. وفي الحِكَم العَطائية لابن عطاء الله السكندري (نقلاً عن إيقاظ الهمم في شرح الحِكَم لابن عجيبة ، ص ٥) : ((كيف يَشرق قَلْبٌ صُوَرُ الأكوان منطبعة في مرآته ؟ . أم كيف يرحل إلى الله وهو مُكبَّل بشهواته ؟ أم كيف يَطمع أن يدخل حَضرة الله ولم يتطهر مِن جَنابة غَفَلاته ؟)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أفَنَضْرِبُ عَنكم الذِّكرَ صَفْحاً أن كُنتم قَوْماً مُسرِفين ﴾[الزُّخرُف: ٥][63].

---

(٦٣) في زاد المسير(٧/ ٣٠٣):((وفي المراد بالذِّكر قَوْلان: أحدهما أنه ذِكْر العذاب،فالمعنى : أفنمسكُ عن عذابكم ونترككم على كُفركم، وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد والسُّدي . والثاني أنه القرآن ، فالمعنى : أفنمسكُ عن إنزال القرآن من أجل أنكم لا تؤمنون به ، وهو معنى قول قتادة وابن زيد)) .

وهذا استفهام إنكاري . والمعنى : أنترك تذكيرَكم ودعوتكم من أجل أنكم مُسرِفون غارقون في الكفر ؟ . فهذا لن يَحدث . فاللهُ تعالى خلقَ الناسَ ، وهو أعْلمُ بِهم مِن أنفسهم ، ويَعلم ما يُصلحهم وما يُفسدهم ، ويَعرف _ سُبحانه _ نقاطَ قُوَّتهم ونقاطَ ضَعْفهم . وهُوَ _ سُبحانه _ يُعاملهم بما هو أهْلُه ، إنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولو عَامَلَهم بما يستحقون لأهلَكَهم .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٩٧٠) : ((أفنمسك عن إنزال القرآن ونتركه من أجل أنكم لا تؤمنون به ؟)) اهـ .

وهذه الآيةُ تشير إلى سَعة الرحمة الإلهية ، فإن الله تعالى لم يترك العبادَ كالبهائم بدون وَحْي سماويٍّ ، بل ذَكَّرهم وأرشدهم ، ولم يَقطع تذكيرهم وهدايتهم ، وأقام عليهم الْحُجَّة . فاللهُ تعالى يريد إنقاذَ عباده من النار ، فأرسل لهم الرُّسلَ ، وأنزل عليهم كلامَه المقدَّس هدايةً وتعليماً لهم ، وفتح لهم كل الطرقات الموصلة إلى النعيم الأبديِّ ، والنجاة من النار .

وَلَوْ أرسل اللهُ الناسَ كُلَّهم إلى النار بدون إقامة الْحُجَّة لَمَا تجرَّأ أحدٌ على الاعتراض ، لكنه _ سُبحانه _ رحيمٌ بعباده يمنحهم الفرصةَ تِلْوَ الفرصة رأفةً بهم ومساعدةً لهم، فطاعةُ العباد لا تَنفعه ، ومعاصيهم لا تَضُرُّه .

والآيةُ تشير كذلك إلى عِناد العرب في الجاهلية، وقَسْوة طباعهم ، وإعراضهم عن الحق مع أن تذكيرهم متواصل ، وإرشادهم لا ينقطع . وهذا يدل على خشونة صفاتهم ، وقلوبهم الصخرية ، وحياتهم الغارقة في الشهوانية الاستهلاكية ، والأساطيرِ الوثنية الحاجبة لِنُور الحقيقة .

وفي تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٦) : ((وقال قَتادة في قوله تعالى : ﴿ أفنضربُ عنكم الذِّكرَ صَفْحاً ﴾ : " واللهِ لَوْ أن هذا القرآن رُفع حين رَدَّته أوائل هذه الأُمَّة لَهَلكوا ، ولكنَّ اللهَ تعالى عادَ بعائدته ورحمته فكرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة ، أو ما شاء الله من ذلك " . وقول قتادة لطيف المعنى جداً ، وحاصله أنه يقول في معناه : إنه _ تعالى _ من لُطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير وإلى الذِّكر الحكيم وهو القرآن ، وإن كانوا مُسرِفين مُعرِضين عنه ، بل أمر به ليهتديَ بِه مَن قَدَّرَ هدايتَه ، وتقوم الْحُجَّةُ على مَن كَتب شَقاوتَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿فاسْتَمْسِكْ بالذي أُوحِيَ إلَيْكَ إنَّكَ على صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾[الزُّخرُف: ٤٣].

يأمرُ اللهُ رَسولَه محمداً ﷺ أن يتمسَّك بالقُرآن، ويَعمل بِه، وإنْ كَذَّبَ بِهِ الكافرون . والنبيُّ ﷺ على الحق الواضح ، يَسير على الطريق المستقيم الموصل إلى الجنة . ومهمةُ النبيِّ ﷺ تنحصر في الدَّعوة ، أمَّا هدايةُ الناس فهي بيد اللهِ مالِكِ قُلوبِهم .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ٤٨) : ((﴿ فاسْتَمْسِكْ بالذي أُوحِيَ إليْكَ ﴾ مِنَ الآيات والشرائع، سواءٌ عَجَّلْنا لكَ الموعودَ أو أخَّرْناه إلى يوم الآخِرة. وقُرِئَ " أَوْحَى" على البناء للفاعل، وهو اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ . ﴿ إنَّكَ على صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ تعليل للاستمساك أو للأمر به)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فإنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لعلهم يتذكرون ﴾[الدُّخَان : ٥٨].

لقد سَهَّلَ اللهُ قراءةَ القُرآنِ ، فأنزلَه بالعربيةِ لغةِ النبيِّ ﷺ وقَوْمِه ، واضحاً لا غُموضَ فِيه ، لعلهم يَفهمونه ويتَّعظون . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٨٢٤) : ((أي : إنما أنزلْنا القُرآنَ بِلُغتك ، كي يَفهمه قَوْمُك ، فيتذكروا ، ويَعتبروا ، ويعملوا بما فِيه ، أو سَهَّلْناه بلغتك عَلَيْكَ وعلى مَن يَقرأه ، لعلهم يتذكرون)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وهذا كتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عربِيَّاً لِيُنذِرَ الذينَ ظَلَموا وبُشرى للمُحسنين ﴾ [الأحقاف : ١٢].

هذا القُرآنُ يُصَدِّقُ الكُتبَ السماويةَ السابقة ويَشهد لها، وقد نَزَلَ باللغة العربية الفُصحى واضحاً لا لَبْسَ فِيه ، لِيُخَوِّفَ الكافرين من عذاب النار ، ويُبَشِّرَ المؤمنين بنعيم الجنة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٦٤) : ((﴿ وهذا كتابٌ ﴾ يعني القرآن . ﴿ مُصَدِّقٌ ﴾ يعني للتوراة ولِمَا قَبْلَه من الكتب. وقيل: مُصَدِّقٌ للنبيِّ ﷺ . ﴿ لِساناً عربِيَّاً ﴾ منصوب على الحال أي : مُصَدِّقٌ لِمَا قَبْلَه عربياً ، و﴿ لِساناً ﴾ تَوطئة للحال ، أي : تأكيداً ، كَقَولهم جاءني زَيْدٌ رَجُلاً صالحاً ، فتذكر رَجلاً تَوكيداً)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قالوا يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مُستقيمٍ ﴾[الأحقاف : ٣٠] .

هذه الآيةُ تكشف دَوْرَ الجِنِّ في الدَّعوة الإسلامية . فَبَعْدَ استماع طائفة منهم للقُرآن ، وانبهارهم بإعجازه ، وانصرافهم مِن عِند رسول الله ﷺ ، أخذوا يَدْعُونَ قَوْمَهم إلى الإيمان، وذلك بِذِكْرِ محاسن القُرآن الكريم . فقالوا: يا قَوْمَنا مِنَ الجِنِّ إنَّا سَمِعْنا كِتاباً ، وهو القُرآن ، أُنزِلَ مِن بَعْدِ التَّوراة التي جاء بها النبيُّ موسى ﷺ ، يُصَدِّقُ الكُتبَ السماوية التي قَبْلَه ، ويَهدي إلى الصواب وصِحَّةِ الاعتقاد، ويُرشِد إلى طريقٍ مستقيم ، وهو الإسلام. وأخبارُ القُرآنِ صِدْقٌ، وأوامرُه عَدْلٌ . ولَم يَذكروا النبيَّ عِيسى ﷺ لأنهم لَم يَسْمَعوا به أوْ لأنهم كانوا يَهوداً.والجديرُ بالذِّكْر أن محمداً ﷺ هو النبيُّ الوحيد الذي أُرْسِلَ إلى الجِنِّ والإنس ، وهذا الأمر لَيس غريباً . فمحمدٌ ﷺ هو النبيُّ الخاتَم . وقال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٢٠٩): ((ولَم يَذكروا عِيسى، لأن عيسى عليه

السلام أُنزِلَ عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات ، وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالْمُتمِّم لشريعة التوراة ، فالعُمدة هو التَّوراة، فلهذا قالوا أُنزِلَ مِن بعد موسى))[64].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وآمَنُوا بما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ [مُحَمَّد : ٢] .

هذه الآيةُ في سِياق مَدْح المؤمنين، وإصلاح حالهم في الدُّنيا، ومَنْحهم الجنة في الآخرة. والمعنى: وصدَّقوا بالقُرآنِ الذي أنزلَه اللهُ على محمد ﷺ، ولم يُخالفوه في شيء. وهذا شَرْطٌ في صِحَّة الإيمان. وقد ذُكر اسم " محمد " تعظيماً لمكانة النبيِّ ﷺ ، وتَنويهاً بِفَضْله ، وإعلاءً لِشَأنه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٨) : ((﴿ وآمَنُوا بما نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ﴾ تخصيص لِلْمُنَزَّلِ عَلَيه مِمَّا يَجب الإيمانُ بِه ، تعظيماً له ، وإشعاراً بأن الإيمان لا يتمُّ دُونه ، وأنه الأصل فيه)) اهـ.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾[مُحَمَّد : ٢٤][65].

يَأمرُ اللهُ تعالى بالتَّفكر في القُرآنِ ، ومعرفةِ أحكامه ، ودراسةِ حُجَجِه ، والوقوفِ على إعجازِ آياته ، والعملِ بما فِيه. والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أفلا يَتفهَّمون القُرآنَ ، فينتفعون بمواعظه ، أَم أغلقَ اللهُ قلوبَهم بأقفال، فلا يَفهمون آياتِ اللهِ تعالى ، ولا يُدرِكون ما فِيها من الأحكام والعِبَر. والأقفالُ في هذا السِّياق تُشير إلى أن القلوب مُغْلَقة بإحكامٍ ، وتخلو من الإيمان ، لا يَخرج مِنها الكفرُ ، ولا يَدخل إلَيها الإيمان . وقد تكون ﴿ أَم ﴾ بمعنى " بَل " . أي : بَل على قلوبٍ أقفالُها،

---

(٦٤) لذلك قال وَرَقة بن نَوفل ــ وكان امرءاً قد تنصَّرَ في الجاهلية ــ للنبيِّ ﷺ حِينَ عَرَضَتْهُ عليه خديجة ــ رضي اللهُ عنها ــ بعد نزول الوَحْي عليه : ((هذا الناموسُ الذي أنزلَ اللهُ على موسى)) [متفق عليه . البخاري (٣/ ١٢٤١) ، ومسلم (١/ ١٣٩)] . والناموسُ هُوَ أَمينُ الوَحْي جِبريل عليه السلام . والشاهدُ أن وَرَقة ــ معَ أنه كان نصرانياً ويَكتب الإنجيلَ ــ لَم يَذكر النبيَّ عِيسى ﷺ ، وإنما اكتفى بِذِكْرِ النبيِّ مُوسى ﷺ .

(٦٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٤٠٨) : ((وذِكْرُ الأقفال استعارة. والمراد أن القلب يكون كالبيت الْمُقْفَل لا يَصِلُ إليه الهدى.قال مجاهد:الرَّان أيسرُ مِنَ الطَّبْع،والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشدُّ ذلك كُلِّه.وقال خالد بن مَعْدان:ما مِن آدميٍّ إلا وله أربع أعين: عَينان في رأسه لدنياه وما يُصلِحه مِن مَعيشته ، وعينان في قلبه لِدِينه ، وما وَعد اللهُ من الغَيب ، فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خَيراً أبصرتْ عَيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد به غَيْرَ ذلك طَمس عليهما، فذلك قَوْلُه : ﴿ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾)) .

فلا يصل إلَيها شيء مِن معاني القُرآن . وفي الآية استعارةٌ تصريحية ، فقد شَبَّهَ قلوبَهم بالأبواب الْمُقْفَلة ، حيث لا تَنفتح للوَعْظِ والإرشادِ. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٤) : ((﴿ أَم ﴾ مُنقَطِعة . ومعنى الهمزة فيها التقرير . وتنكير القلوب لأن المراد قلوب بعض منهم ، أو للإشعار بأنها لإبهام أمرها في القساوة أو لِفَرْط جهالتها ونُكْرِها، كأنها مُبْهَمة مَنكورة ، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أقفال مناسبة لها مختصة بها لا تُجانس الأقفالَ المعهودة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) : عن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ خلق الخلقَ ، حتى إذا فَرَغَ مِنهم ، قامت الرَّحِمُ فقالت : هذا مَقامُ العائذِ مِنَ القطيعة ، قال : نعم ، أمَا تَرْضَيْنَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ ، وأقطعَ مَن قَطَعك ؟ ، قالت : بلى . قال : فذاكَ لَكِ .ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شِئتم :﴿ فَهَل عَسَيْتُم إن تَوَلَّيْتُم أن تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكُم (٢٢) أُولئكَ الذينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فأصَمَّهُم وأعمَى أبصارَهُم (٢٣) أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها (٢٤) ﴾))[66].

لقد استجارت الرَّحِمُ باللهِ ولَجَأت إلَيه . وهذا يدل على أهمية وَصْلِها ، وعظيمِ حقِّها ، ورِفعةِ شأنها . كما يدل على حُرمة قَطْعها ، وتغليظِ عُقوبة هذا الفِعْل .

وفي الدُّر المنثور (٧/ ٥٠١) : ((أخرج إسحق بن رَاهَوَيْه وابن جرير وابن المنذر وابن مَرْدَوَيه عن عُروة ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : تلا رسولُ الله ﷺ : " ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَم على قُلوبٍ أقفالُها ﴾ "، فقال شابٌّ مِن أهل اليمن : بَل عَلَيها أقفالُها حتى يَكون اللهُ يَفْتَحُها أو يُفَرِّجُها، فقال النبيُّ ﷺ : " صَدَقْتَ". فما زال الشاب في نفْسِ عُمر رضي اللهُ عنه حتى وَلِيَ فاستعان به)).

لقد أحسنَ قَوْلاً هذا الشابُّ اليمنيُّ ، فكلُّ القلوبِ مُغلَقة ، إلا إذا فَتَحَها اللهُ تعالى ، فاللهُ الهادي والْمُوَفِّقُ ، ولَيس الإيمانُ بذكاء الإنسان أو مهاراته ، وإنما هو بهداية الله ، أوَّلاً وأخيراً . ولقد أدركَ عُمر ــ رضي اللهُ عنه ــ أن هذا الشاب يمتاز بالتَّقوى والفِطنة ، ولا بُدَّ مِنَ الاستفادة

(٦٦) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١١٢) : ((قال القاضي عِياض : الرَّحِمُ التي تُوصَل وتُقطَع وتُبَرُّ، إنما هي معنى من المعاني، ليست بجسم ، وإنما هي قَرابة ونَسَب تجمعه رَحِمُ والدة، ويتَّصل بعضُه ببعض ، فَسُمِّيَ ذلك الاتصال رَحِماً . والمعنى لا يتأتى مِنه القيام ولا الكلام ، فيكون ذِكْرُ قِيامها هنا وتَعَلُّقها ضَرْبَ مَثَلٍ وحُسنَ استعارة ، على عادة العرب في استعمال ذلك)) اهـ .

مِنه ، لذلك عندما صارَ عُمر أميراً للمؤمنين استعانَ بِه . وهذا يدل على أهمية احتضان المواهب الشابة ، وتوظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين . وصدقَ القائلُ :

إذا لَم يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ للفَتى   فأوَّلُ ما يَجني عَلَيْهِ اجتهادُه

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾[القمر : ١٧] .

لقد سَهَّلَ اللهُ قراءةَ القُرآنِ ، ويسَّره للحفظ والفهم والتطبيق الواقعي دون تعقيدات ، وفصَّله بالأحكام الجليلة والمواعظ النافعة ، لِمَن أرادَ المعرفةَ والاعتبارَ والنجاةَ في الدَّارَيْن . ومعنى: ﴿ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ﴾ فَهَل مِن مُتَّعظٍ به . وألفاظُ القُرآنِ سهلة ، ومعانيه واضحة . وهو مَقْرُوءٌ في الكُتب ، ومحفوظٌ في الصدور ، ومُنتشرٌ بسهولة على الألسنة ، يَحفظه الصغير والكبير . وقد جاءَ القُرآنُ للعالِم والجاهل على السَّواء . جاءَ للفيلسوف وراعي الغنم بلا تفرقة . وهنا تَكمن عَظَمةُ القُرآنِ . ولَوْلا تيسيرُ اللهِ للقرآنِ لَمَا استطاعَ مخلوقٌ أن يَقرأ كلامَ اللهِ تعالى . والآيةُ تَدعو إلى قراءة القُرآنِ بأحكامِ التجويد ، وتعلُّم تفسيره ، والعملِ به . والجديرُ بالذِّكْرِ أن القُرآنَ هو الكتابُ الوَحيد الذي يُحفَظ كاملاً عَن ظَهْرِ قَلْبٍ . وكثيرٌ مِنَ الأطفال يَحفظونه كاملاً ، فما بالك بالعلماء ؟. وهذا لا نجده عند اليهود والنصارى ولا غَيْرِهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١١٨) : ((﴿ ولقدْ يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ ﴾ ، أي سَهَّلْناه للحفظ ، وأعَنَّا عَلَيه مَن أراد حِفْظَه، فهل مِن طالب لحفظه فَيُعان عليه...وقال سعيد بن جُبَير: ليس مِن كُتب الله كتاب يُقرَأ كُلُّه ظاهراً إلا القرآن . وقال غَيْرُه: ولَم يكن هذا لبني إسرائيل ولَم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظَراً، غَير موسى وهارون ويُوشَع بن نُون وعُزَير ـصلوات اللهُ عليهمـ ومِن أجل ذلك افْتَتَنُوا بِعُزَير لَمَّا كَتب لهم التوراةَ عن ظَهْرِ قلبه حِين أُحرقت ... فَيَسَّرَ اللهُ تعالى على هذه الأُمَّة حِفْظَ كتابه ، لِيَذْكُروا ما فِيه ، أي يَفْتَعِلوا الذِّكْرَ . والافتعال هو أن يَنْجَعَ فِيهم ذلك ، حتى يَصير كالذات وكالتركيب فِيهم)) اهـ .

وفي الحديث القُدْسِيِّ الذي رواه مسلم(٤/ ٢١٩٧): أن الله تعالى قال للنبيِّ ﷺ: ((وأَنزلتُ عَلَيْكَ كِتاباً لا يَغْسِلُهُ الماءُ ، تَقْرَؤُهُ نائماً ويَقظان)) .

والمعنى : إنَّ القُرآنَ محفوظٌ في السُّطور والصدور على مَرِّ الأزمنة ، لا يمكن إزالته أو استئصاله أو التلاعب به ، وقراءته مُيَسَّرةٌ وسهلة في كل الأوضاع . وهو محفوظٌ في حالَتَي النَّوْم

واليَقظة ، ويُقرَأ في سهولةٍ ويُسْرٍ . وكانت كُتبُ القُدماء لا يَحفظونها ، فإذا غُسِلَ الكتابُ زَالتْ كلماتُه .

وقال ابنُ الأثير في النهاية في غريب الأثَر (٣/ ٦٨٠) : ((أرادَ أنه لا يُمْحَى أبداً ، بَل هو مَحْفوظ فِي صُدُور الذين أُوتُوا العِلْم ، لا يأتيهِ الباطلُ مِن بَيْنِ يَديه ولا مِن خَلْفه . وكانت الكُتُب الْمُنَزَّلة لا تُجْمَع حِفْظاً ، وإنَّما يُعْتَمد في حِفْظها على الصُّحف ، بِخِلاف القرآن ، فإن حُفَّاظَه أضْعافٌ مُضَاعَفَة لصُحُفِه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرآنٌ كريم ﴾ [الواقعة : ٧٧] .

ذَكَرَ اللهُ الْمُقْسَمَ عَلَيهِ . والمعنى : أُقْسِمُ بمواقع النجوم إنَّ هذا القُرآنَ قُرآنٌ كريم . كرَّمه اللهُ تعالى ، وعَظَّمه ، ولا شَكَّ أنَّهُ عظيم لأنه كلامُ اللهِ ، أنزلَه على النبيِّ محمد ﷺ ، ولَيس سِحراً ولا كِهانةً ولا شِعراً . فِيه الهدى والنُّور . منافعُه لا تَنقضي ، لأنه يَشتمل على أحوال الدُّنيا، وشُؤونِ الآخِرة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٩٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرآنٌ كريم ﴾ قِيل : إن الهاء تعود على القرآن ، أي إن القرآن لَقَسَمٌ عظيم ، قاله ابن عباس وغَيْرُه . وقِيل : ما أقسمَ اللهُ بِهِ عَظيم . ﴿ إِنَّهُ لَقُرآنٌ كريم ﴾ ذِكْرُ الْمُقْسَمِ عَلَيهِ ، أي : أُقْسِمُ بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بِسِحر ، ولا كِهانة ، وليس بِمُفْتَرَى . بَل هو قرآن كريم مَحمود ، جَعله اللهُ تعالى مُعجِزةً لِنَبِيِّه ﷺ ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلامُ ربهم ، وشِفاءُ صدورهم . كريم على أهل السماء ، لأنه تَنْزيلُ رَبِّهم وَوَحْيُه . وقِيل : ﴿ كريم ﴾ أي : غير مخلوق . وقِيل : ﴿ كريم ﴾ لِمَا فيه مِن كريم الأخلاق ومعاني الأمور . وقِيل : لأنه يُكَرِّم حافظَه ويُعَظِّم قارئَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ في كِتابٍ مَكْنُون ﴾ [الواقعة : ٧٨] .

إن القُرآنِ في كتابٍ مَحفوظٍ ومُعَظَّمٍ ومَصُونٍ عِند اللهِ تعالى. وهذا الكتاب هو اللوحُ المحفوظ، لا يَمَسُّه الغبارُ ولا الترابُ ، ولا تَصِلُ إلَيه الشياطين .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ١٥٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ في كِتابٍ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنه اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس . والثاني أنه الْمُصْحَف الذي بأيدينا ، قاله مجاهد وقتادة. وفي المكنون ، قَولان : أحدهما مستور عن الخلق ، قاله مقاتل ، وهذا على القَول الأول ، والثاني مَصُون ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرون ﴾ [الواقعة : ٧٩].

المقصودُ في الآية هو الكتاب المكنون (الكتاب الذي في السماء) ، وليس القرآن الكريم . فالقرآنُ يَمَسُّه المؤمنُ الطاهر والكافرُ النجس . أمَّا الكتاب المكنون فلا يَمَسُّه إلا الْمُطَهَّرون ، وهُم الملائكة الذينَ طهَّرهم اللهُ مِنَ الشِّرْك ، والذنوبِ ، والنَّجاساتِ . وقِيل : المقصود بالكتاب الْمُصْحَف الذي بأيدينا.فعن حَكيم بن حِزام ـ رضي اللهُ عنه ـ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَهُ وَالياً إلى اليَمن ، قال : ((لا تَمَسَّ القُرآنَ إلا وأنتَ طاهر))[67].

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٩٣) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرون ﴾ اخْتُلِفَ في معنى﴿لا يَمَسُّهُ﴾ ،هل هو حقيقة في الْمَسِّ بالجارحة أو معنى؟،وكذلك اخْتُلِف في﴿ الْمُطَهَّرون ﴾ مَن هُم ؟ ، فقال أنس و سعيد بن جُبَير : لا يَمَسُّ ذلك الكتاب إلا الْمُطَهَّرون مِنَ الذُّنوب ، وهُم الملائكة ، وكذا قال أبو العالية و ابن زَيد : إنهم الذين طُهِّروا مِنَ الذنوب كالرُّسل من الملائكة ، والرُّسلِ مِن بني آدم ، فَجِبريلُ النازل بِه مُطَهَّر ، والرُّسل الذين يَجيئهم بذلك مُطَهَّرون)) اهـ .

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال : كُنَّا مع سَلْمان ـ رضي اللهُ عنه ـ فانطلقَ إلى حاجةٍ ، فَتَوارى عَنَّا ، ثُمَّ خرجَ إلينا ، ولَيْسَ بَيْنَنا وبَيْنَهُ ماء . قال : فَقُلْنا له : يا أبا عبد الله ، لَوْ تَوَضَّأْتَ فسألناكَ عن أشياءَ مِنَ القرآن، قال: فقال: ((سَلُوا، فإني لَسْتُ أَمَسُّهُ))، فقال: ((إنَّما يَمَسُّهُ الْمُطَهَّرون . ثُمَّ تلا: ﴿ إنَّهُ لَقُرآنٌ كريم ﴾ [الواقعة : ٧٧] . ﴿ لا يَمَسُّهُ إلا المطَهَّرون ﴾ [الواقعة : ٧٩]))[68].

وَوَفْقَ هذا الحديث يتَّضح أن سلمان الفارسيَّ ـ رضي الله عنه ـ يعتقد أن المقصود في الآية هو القرآن الكريم ، لذا رَفض أن يَمَسَّه وهو على غَير وضوء . وهذا ما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين الذي يَرَوْنَ أن القرآن الكريم لا يَجوز مَسُّه مِن قِبَل غَير الْمُطَهَّرين، ومَن لَم يلتزم بذلك ، فقد خالفَ الشريعةَ . ومن خلال النصوص الشرعية تتَّضح أهمية الطهارة والتطهر على جميع الأصعدة ، لِمَا في ذلك مِن تهيئة الفرد للاضطلاع بمسؤولياته الجسيمة، باعتباره حامل أمانة الدِّين ، وخليفة الله في الأرض. فالمنهج الشرعيُّ واضحٌ في مساره ، حيث يُحاط الإنسان بسياج الطهارة

---

(٦٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٥٥٢) برقم (٦٠٥١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٦٨) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والتطهر ، لكي يظل دائماً على اتصال مع خالقه تعالى، وهو في أبهى حُلَّة مُشتمِلة على نقاء العبودية ، وصِدْقِ التَّوجه إلى الله تعالى .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِن رَبِّ العالَمين ﴾ [الواقعة : ٨٠] .

هذا القُرآنُ مُنَزَّلٌ مِن عِند اللهِ تعالى . أنزلَه اللهُ على رسوله محمد ﷺ ، وهو الحق الواضح ، ليس سِحراً ولا كِهانةً ولا شِعراً .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٤) : ((أي : القُرآن مُنَزَّل مِن عِندِ رَبِّ العالَمين . سُمِّيَ الْمُنَزَّلُ تَنْزِيلاً على اتِّساع اللغة ، كما يقال للمَقْدُور : قَدَر ، وللمخلوق : خَلْق)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أفَبِهذا الحديثِ أنتم مُدْهِنُون ﴾ [الواقعة : ٨١] .

أفبهذا القُرآنِ أنتم يا أهلَ مكة تُكَذِّبون وتَكفرون .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٩٥) : ((والْمُدْهِنُ الذي ظاهره خِلاف باطنه ، كأنه شُبِّهَ بالدُّهْن في سُهوله ظاهره ... وقال المؤرخ : الْمُدْهِنُ المنافق أو الكافر ، الذي يُلَيِّنُ جانبَه لِيُخفِيَ كُفْرَه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنا هذا القُرآنَ عَلى جَبلٍ لَرَأيْتَهُ خاشعاً مُتصدِّعاً مِن خَشْيةِ الله ﴾ [الْحَشْر : ٢١] .

إنَّ القرآنَ العظيم لو أُنزِل على جبل ـ رغم قسوته وضخامة حجمه ـ لاهتزَّ وتصدَّع وصار ذليلاً خاضعاً لكلام الله تعالى لِمَا فِيه مِنَ الحِكَمِ البليغة ، والفصاحةِ العُظمى ، والبيانِ الجليل ، والبشارةِ الكبرى، والإنذارِ الْمُخيف ، وخَوْفاً من عدم القيام بحق القرآن المتمثل في فهمه وتعظيمه وتطبيقه.

وعلى المرء أن يستوعب هذا المعنى العظيم من أجل تعميق كتاب الله في قلبه فهماً وحفظاً، ويسعى ـ قَدْرَ الْمُستطاع ـ إلى جعل الآيات القرآنية واقعاً عملياً لا حِبراً على الورق فَحَسْب ، فالقرآن لَم يَجِئْ لِيُوضَع على الرُّفوف .

والآيةُ مَوعظةٌ للإنسان، وذَمٌّ لِقَسوة قلبه وغَفلته ، وتَوبيخٌ له، فهو يُعرِض عن القُرآن ، ولا يتأثر بِه معَ أنه يمتلك عَقلاً وقَلباً، في حِينَ أن الجبلَ العظيم القاسي لَوْ جَعَلَ اللهُ فِيهِ تمييزاً ، وأنزلَ عَلَيهِ القُرآنَ ، لتأثَّرَ بِهِ، وخشعَ وتصدَّعَ. والإنسانُ أَوْلَى بالتأثر والتأمل والتفكر مِنَ الجبل . إذن ، فلا عُذْرَ لأحدٍ في ترك قراءة القُرآنِ ، والتفكرِ في آياته .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٥١) : ((يقول ـ جَلَّ ثناؤه ـ : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وهو حجر لرأيته يا محمد خاشعاً ، يقول : مُتذلِّلاً مُتصدِّعاً مِن خَشية الله على قساوته حَذَراً

مِن أن لا يُؤَدِّيَ حَقَّ الله المفترَض عليه في تعظيم القرآن ، وقد أُنزل على ابن آدم ، وهو بِحَقِّهِ مُسْتَخِفٌّ ، وعَنه عمَّا فيه مِنَ العِبَر والذِّكْر مُعرِض ، كأنْ لَم يَسمعها كأن في أذنيه وَقْراً)) اه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٣٩) : ((يقول تعالى مُعَظِّماً لأمر القرآن، ومُبَيِّناً عُلُوَّ قَدْرِه، وأنه ينبغي أن تَخشع له القلوبُ ، وتتصدع عند سماعه ، لِمَا فِيه مِنَ الوعد الحق والوعيد الأكيد . ﴿ لَوْ أَنزَلْنا هذا القُرآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشعاً مُتصدِّعاً مِن خَشْيةِ الله ﴾ ، أي : فإذا كان الجبل في غِلْظته وقَساوته لَوْ فَهِمَ هذا القرآنَ ، فَتَدَبَّرَ ما فِيه لَخَشَعَ وتَصَدَّعَ مِن خَوْفِ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فكيف يَليق بكم يا أيها البشر أن لا تَلينَ قلوبُكم وتخشع وتتصدع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمرَه وتَدَبَّرْتُم كِتابَه ؟!)) اه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ والنُّورِ الذي أنزَلْنا ﴾[التَّغابُن : ٨] .

فَصَدِّقوا أيها المشركون باللهِ تعالى ورسولِه محمد ﷺ ، والقُرآنِ الذي أنزلَه اللهُ على رسوله ﷺ. فهو النُّورُ الواضح الذي يُنقذ الناسَ مِن ظُلماتِ الجهل والكفر ، ويُزيلُ ظَلامَ الشُّبهاتِ ، كما تُزيل الشمسُ ظَلامَ الليل . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٢٥٢) : ((يعني القرآن ، لأنه يُبَيِّنُ حقيقةَ كُلِّ شيء فَيُهْتَدَى بِه)) اه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَتَذْكِرةٌ للمُتَّقين ﴾ [الحاقَّة : ٤٨] .

إنَّ هذا القُرآنَ عِظَةٌ للمؤمنين الذينَ يَخْشَوْنَ اللهَ، ويَقومون بأداء الفرائضِ، واجتنابِ المعاصي. ونَفْعُ القُرآنِ خاصٌّ بالْمُتَّقين ، أمَّا غَيْرُهم فلا يَنتفعون به .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٠١) : ((أي : إن القرآن لَتَذكرة لأهل التقوى لأنهم الْمُنتَفِعون بِه)) اه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَحَسْرَةٌ على الكافرين ﴾ [الحاقَّة : ٥٠].

إنَّ التكذيبَ بالقُرآنِ ندامةٌ وحسرةٌ على الكافرين يَوْمَ القِيامة ، وذلك عِندما يَرَوْنَ ثوابَ المؤمنين بالقُرآنِ . والكافرون يَوْمَ القِيامة يَندمون أشدَّ الندم ، لأنهم لم يُؤمنوا بِه . وقِيل : هي حَسْرتهم في الدُّنيا لأنهم عَجزوا عن الإتيانِ بِمِثْلِه أو بِسُورةٍ مِنه .

وقال الحكيم الترمذي في الأمثال (١/ ٧٢) : ((فإذا رأى الكافر ما يَصنع القرآنُ بأهله من الثناء عليهم بين يَدَي الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ونظر إلى كرامة الله على أهل القرآن ، صار ذلك كُلُّه حَسرةً عَلَيهِ ، وتَقَطَّع قَلْبُه حسراتٍ)) اه .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَحَقُّ اليقينِ ﴾ [الحاقَّة : ٥١] .

إنَّ القُرآنَ هو الخبرُ الصادقُ والنبأُ اليقينيُّ،أنزلَه اللهُ على النبيِّ محمد ﷺ، لا شَكٌّ فِيه ولا شُبهةٌ.

وقال الحكيم الترمذي في الأمثال (١/ ٧٢) : ((أي هذا القرآن مِن حق اليقين ، أي كما أعطيتكم مِن نور المعرفة ، فاستقرَّت قلوبُكم ، وأيقنتْ بِرُبوبيتي وبوحدانيتي ، فاطمأنَّت نفوسُكم بي وآمنتْ ، كان مِن حق ذلك اليقين علينا أن أُنزلَ كلامي إلَيكم لِتَسكن به تلك الصدور التي استقرَّ اليقينُ في تلك القلوب فِيها، ويُجاوره بأحسن الْمُجاوَرة ، فهذا حَقُّه ، ويُساكنه في مُسْتَقَرِّه، فاليقينُ في القلب ، وكلامي في الصدور ، وهو ساحة اليقين ، فذلك حق اليقين)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فقالوا إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً ﴾ [الجِن : ١].

يَأمرُ اللهُ رَسولَه محمداً ﷺ أن يُخبِر قَوْمَه أن الجِنَّ استمعوا القُرآنَ ، فتأثَّروا بِعَظَمته ، وإعجازِه، وفصاحته ، وحُسْنِ نَظْمِه ، وبلاغةِ أسلوبه، ومواعظِه الجليلة ، فآمَنوا بِه .

وهذا تَوبيخٌ لِمُشركي العرب ، حيث إن القُرآن نزل بِلُغتهم ، فلم يتأثروا بِه ، وكذَّبوه ، في حِينَ أن الجِنَّ استمعوا القُرآنَ بِكُلِّ تركيزٍ، وأدْرَكوا أنه ليس كلام بشر ، بسبب تفوُّقه ، وعَظَمته ، فصدَّقوا بِه ، وآمَنوا.

وَلَم يَعلم النبيُّ ﷺ أن الجِنَّ قد استمعوا القُرآنَ قبل إخبار الوَحْي بذلك. والنبيُّ ﷺ لَم يَرَهم، وهذا واضحٌ في قَوْلِه تعالى : ﴿ استمعَ ﴾ ، وقَوْلِه تعالى: ﴿ وإذْ صَرَفْنا إلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ ﴾ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٣١) عن ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال : ((ما قرأ رسولُ الله ﷺ على الجِنِّ وما رَآهُم)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٧) : ((﴿ أَنَّهُ استمعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ ﴾ ، والنَّفَرُ ما بين الثلاثة إلى العشرة ، و﴿ الجِنِّ ﴾ أجسام عاقلة خَفِيَّة يَغلب عليهم النارية أو الهوائية. وقِيل: نوع من الأرواح المجرَّدة . وقِيل : نفوس بشرية مُفارِقة عن أبدانها. وفيه دلالة على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ، ولم يقرأ عليهم ، وإنما اتَّفق حضورُهم في بعض أوقات قراءته ، فسمعوها ، فأخبر اللهُ به رسولَه ، ﴿ فقالوا ﴾ لَمَّا رجعوا إلى قومهم : ﴿ إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً ﴾ كِتاباً ﴿ عَجَباً ﴾ بَديعاً مُبايِناً لكلام الناس في حُسْنِ نَظْمِه ، ودِقَّةِ معناه . وهو مَصْدَر وُصف به للمُبالَغة)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : ((انطلقَ النبيُّ ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامِدين إلى سُوق عُكاظ ، وقد حِيلَ بَيْنَ الشياطين وبَيْنَ خَبَرِ السماء ، وأُرْسِلَتْ عَلَيهم الشُّهبُ، فَرَجعت الشياطينُ إلى قَومهم، فقالوا : ما لكم ؟، فقالوا : حِيل بَيْنَنا وبين خَبر السماء ، وأُرسلت عَلَينا الشُّهب،قالوا: ما حَالَ بَيْنَكم وبين خَبرِ السماء إلا شَيءٌ حَدَث،فاضْرِبوا مَشارقَ الأرضِ ومغارِبَها، فانظروا ما هذا الذي حالَ بَيْنَكم وبين خبرِ السماء ، فانصرف أولئك الذين توجَّهوا نحو تِهامة إلى النبيِّ ﷺ وهو بِنَخْلة ، عامِدين إلى سوق عُكاظ ، وهو يُصلِّي بأصحابه صلاةَ الفَجْر ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استمَعوا له ، فقالوا : هذا واللهِ الذي حَالَ بَيْنَكم وبَيْنَ خَبرِ السماء ، فهنالك حِينَ رَجعوا إلى قَومهم ، فَقالوا : يَا قَوْمَنا ﴿ إنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهدي إلى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَداً (٢) ﴾ .فأنزلَ اللهُ على نَبِيِّه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ ﴾، وإنَّما أُوحِيَ إلَيهِ قَوْلُ الجِنِّ))[69].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ يَهدي إلى الرُّشْدِ فآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَداً ﴾ [الجن : ٢] .

تقول الجِنُّ إن القُرآنَ يَدل على التوحيد والحق والنجاح ، فَصَدَّقْناه ، ولَن نتَّخذ شَريكاً للهِ بَعْدَ اليَوم، فقد تبيَّن لهم الحقُّ الباهر ، واتَّضحت الْحُجَّةُ الساطعة ، وظَهَرَ الدليلُ اليقينيُّ . وهذا يُشير إلى أنهم كانوا مُشرِكين. وفي الآيةِ مَدْحٌ للجنِّ وذَمٌّ لِمُشرِكي العرب . فالجِنُّ أدْرَكت عَظَمةَ القُرآن بِمُجرَّد سَماعها له ، فآمنت باللهِ وَحْدَه ، أمَّا مُشرِكو العرب فلم يَقتنعوا بِعَظَمةِ القُرآن معَ أنه بِلُغتهم ، وتُلِيَ علَيهم مَرَّاتٍ عديدة، فظَلُّوا قائمين على شِرْكِهم . وفَرْقٌ شاسع بين الجِن والإنس . ولا شَكَّ أن القُرآن لا تَنقضي عجائبُه ، ولا تَزول مواعظُه ، ولا يَبْلَى بكثرة التِّلاوة والتفسير .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ يَهدي إلى الرُّشْدِ ﴾ أي إلى مَراشِد الأمور. وقِيل : إلى معرفة الله تعالى . و﴿ يَهدي ﴾ في مَوْضِع الصِّفة ، أي هادياً . ﴿ فآمَنَّا بِهِ ﴾ أي: فاهتدينا بِه ، وصَدَّقْنا أنه مِن عِند الله . ﴿ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَداً ﴾ أي : لا نَرجع إلى إبليس ولا نُطيعه ، لأنه الذي كان بَعَثَهم لِيَأتوه بالخبر ، ثُمَّ رُمِيَ الجِنُّ بالشُّهُب . وقِيل : لا نتَّخذ معَ الله إلهاً آخر ، لأنه الْمُتفرِّد بالرُّبوبية . وفي هذا تعجيب المؤمنين بذهاب مُشركي قُرَيش عمَّا أدركته الجنُّ بِتَدَبُّرها القُرآن)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتِيلاً ﴾[الْمُزَّمِّل : ٤] .

---

(٦٩) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٧) برقم (٧٣٩) ، ومسلم (١/ ٣٣١) برقم (٤٤٩) .

يَأمرُ اللهُ رسولَه محمداً ﷺ أن يَقرأ القُرآنَ بِهُدوء وتمهُّل وتركيز ، من أجل فَهم القُرآنِ والوقوفِ على ألفاظه ومعانيه ومواعظه وأخباره ، والعملِ بِه . فعلى المرء ألا يَعْجَلَ بقراءة القُرآن، بَل يَقْرَؤُه بِرَوِيَّةٍ معَ فهم مَعانيه ، ويُعطي لكل حرف حقَّه مِنَ النُّطق والبيان معَ إشباع الحركات، معَ أهمية تحسين الصوت بالقراءة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٣٦): ((أي : لا تَعْجَلْ بقراءة القرآن ، بل اقرأه في مهل وبيان معَ تدبُّر المعاني . وقال الضَّحاك : اقرأه حَرفاً حرفاً . وقال مجاهد: أحب الناس في القراءة إلى الله أعقلهم عنه . والترتيل التنضيد والتنسيق وحُسن النظام)) اهـ .

وقد كانت قراءةُ النبيِّ ﷺ للقُرآنِ كما أمرَه اللهُ تعالى . ففي صحيح البخاري (٤/ ١٩٢٥) أنَّ أنسَ بن مالك ــ رضي اللهُ عنه ــ سُئِلَ عن قراءة النبيِّ ﷺ ، فقال : ((كانت مَدَّاً)) ، ثُمَّ قرأ : ((﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرحيمِ ﴾ ، يَمُدُّ بِبِسْمِ الله ، وَيَمُدُّ بالرحمن ، وَيَمُدُّ بالرحيم)) .

وهذا يدل على عِناية النبيِّ ﷺ بقراءة القُرآنِ ، وإعطاء الألفاظ حقَّها ، وتفهُّم معانيها . وقد استدلَّ بالحديث القائلون باستحباب الجهر بالبسملة في الصلاة ، وقالوا إنَّ طريقةَ نُطق أنس تُشير إلى أنه قد سمع ذلك مِنَ النبيِّ ﷺ ، أي إن النبيَّ قد جَهَرَ بالبسملة . وحَمَلوا الحديثَ على العُموم (داخلَ الصلاة وخارجَها) ، لأنهم اعتبروا أن أنساً قَد أخبرَ عن مُطلَق قراءة النبيِّ ﷺ .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ٩١) : ((لا يَلْزَم مِن وَصْفِه بأنه كان إذا قَرأ البسملةَ يَمُدُّ فيها أن يكون قرأ البسملة في أول الفاتحة في كل ركعة، ولأنه إنما وَرد بصورة المثال فلا تتعيَّن البسملةُ. والعِلْمُ عِند الله تعالى)) .

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال:((يُقال لصاحب القرآنِ: اقرأْ وارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَما كُنتَ تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ مَنْزلتك عِندَ آخرِ آيةٍ تَقرأ بها))(70).

إن الجزاءَ وَفْقَ الأعمال . فصاحبُ القُرآنِ الحريصُ على قراءته بتدبُّر وتفسيره ، يَجد جزاءَ عمله يَوْمَ القِيامة ، حيث يُقال له : اقرأْ واصعدْ في درجات الجنة ، فإن درجته في الجنة عند آخرِ آيةٍ يَقْرَؤُها . وبالتالي ، فإن قراءته للقُرآن تُحدِّد مُستواه في الجنة .

---

(٧٠) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ١٧٧) برقم (٢٩١٤) . وقال : ((حسن صحيح)) .

وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٢٨) : ((قال الخطابي : جاء في الأثرِ أن عدد آيِ القرآن على قَدْرِ دَرج الجنة [71]، فيُقال للقارىء : ارْقَ في الدَّرج على قَدْرِ ما كُنتَ تقرأ مِن آيِ القرآن ، فَمَن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة في الآخرة ، ومَن قرأ جُزءاً مِنه كان رُقِيُّه في الدَّرَج على قَدْرِ ذلك ، فيكون مُنتهى الثواب عند منتهى القراءة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٥٤٥) : عن أبي هريرة ـــ رضي اللهُ عنه ـــ أنه سَمع رسول الله ﷺ يقول : ((ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ مَا أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ ، يَتَغَنَّى بالقُرآن ، يَجهر بِه)) .

يعني : يُحسِّن صَوْتَه بالقُرآن .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٧٩) : ((وقال الشافعي ومُوافِقوه : معناه تحزين القراءة وترقيقها)) اهـ .

وعن أبي هريرة ـــ رضي اللهُ عنه ـــ أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((زَيِّنُوا القُرآنَ بأصواتِكم))[72].

وهذا يدل على استحباب التَّرتيل ، وتحسين الصوت بالقراءة . وعمليةُ التَّزيين تَكون بإتقان الحِفظ ، وتحسينِ التِّلاوة ، وعدم التلعثم . وهذا يدل على أهمية الصوت الحسَن في قراءة القُرآن . فالصَّوْتُ الحسَنُ يَبعث الخشوعَ في القلب، مما يُؤدي إلى التفكر في معاني الآيات والتعمق في فَهمها.

وعن البراء بن عازب ـــ رضي اللهُ عنه ـــ قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((حَسِّنوا القُرآنَ بأصواتِكم ، فإنَّ الصَّوْتَ الحسَنَ يَزيدُ القُرآنَ حُسناً))[73].

وقال المناوي في فَيض القدير (٤/ ٦٨) : ((قال التوربشتي : هذا إذا لَم يُخرجه التَّغني عن التجويد ، ولَم يَصْرِفْه عن مُراعاة النَّظْم في الكلمات والحروف ، فإن انتهى إلى ذلك ، عاد الاستحباب كراهةً ، وأمَّا ما أحدثه الْمُتكلِّفون بمعرفة الأوزان والموسيقى ، فيأخذون في كلام الله

---

(٧١) وفي شُعَب الإيمان للبَيهقي (٢/ ٣٤٧) : ((عن عائشة ـــ رضي اللهُ عنها ـــ قالت : قال رسول الله ﷺ : " عَدَدُ دَرَجِ الجنة عَدَدُ آيِ القُرآن ، فَمَن دَخل الجنةَ من أهل القرآن فَلَيْسَ فَوْقَه دَرجة " . قال الحاكم : هذا إسناد صحيح ، ولَم يُكتَب هذا المتن إلا بهذا الإسناد ، وهو من الشواذ)) .

(٧٢) رواه ابنُ حِبَّان في صحيحه(٣/ ٢٧)برقم (٧٥٠).وقال العراقي في تخريج الإحياء (٢٢٨/١): ((أخرجه أبو داود والنَّسائي وابن ماجة وابن حِبَّان والحاكم وصحَّحه من حديث البراء بن عازب)).

(٧٣) رواه الدارمي في سُننه (٢/ ٥٦٥) برقم (٣٥٠١) .

مَأخذهم في التشبيب والغَزَل ، فإنه مِن أسوأ البِدَع ، فيجب على السامع النكير ، وعلى التالي التعزير ، وأخذَ جمعٌ من الصوفية مِنه نَدْب السَّماع مِن حُسن الصوت . وتُعُقِّب بأنه قياس فاسد وتشبيه للشيء بما ليس مِثْلَه ، وكيف يُشَبَّه ما أمرَ اللهُ به بِما نَهى عنه ؟!)) اهـ .

وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٧٣٧): عن أبي هريرة_ رضي اللهُ عنه_ قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَن لَم يَتَغَنَّ بِالقُرآن)) .

وهذا يُشير إلى ضرورة تحسين الصَّوت بقراءة القُرآن ، الأمر الذي يُدخل القُرآنَ إلى القلب. ومَن كان صَوْتُه قَبيحاً ، فليحاولْ قَدْرَ الْمُستطاع تَحسينَ صَوْتِه ، وتَجويدَ أدائه .

وقال المناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٨٧) : (((لَيْسَ مِنَّا) أي مِنَ العاملين بِسُنَّتنا الجارين على طريقتنا (مَن لَم يَتَغَنَّ بالقُرآن) يعني لَم يُحسِّن صوتَه به ، لأن التطريب بِه أوْقَع في النفوس وأدعَى للاستماع والإصغاء ، وهي كالحلاوة التي تُجعَل في الدواء لتنفيذه إلى أمكنة الداء)) اهـ.

وعن أبي موسى _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال له : ((يا أبا موسى ، لقد أُوتِيتَ مِزْماراً مِن مَزامير آلِ دَاود))[74].

والمِزمارُ هو الصَّوتُ الحسَنُ. وقد كان النبيُّ داودُ ﷺ حَسَنَ الصَّوت، وهو الْمُنتهَى في ذلك. وقد كان أبو موسى _ رضي اللهُ عنه _ حَسَنَ الصَّوت في قراءة القرآن ، لذلك شَبَّهَ النبيُّ ﷺ صَوْتَه بصوت النبيِّ داود ﷺ . وهذه فضيلة لأبي موسى _ رضي اللهُ عنه _ .

وروى الطبريُّ في تفسيره (١٠/ ٥٦٩) عن وَهْبِ بن مُنَبِّه اليمانيِّ أنه قال عن النبيِّ داودﷺ : ((كان إذا قَرأ الزَّبُورَ فيما يَذكرون تَدنو له الوحوش ، حتى يأخذ بأعناقِها ، وإنها لَمُصِيخةٌ (يعني مُستَمِعة مُنصِتة) ، تسمع لصوته . وما صَنعت الشياطينُ المزاميرَ والبرابطَ والصُّنُوجَ (وهي آلات موسيقية) ، إلا على أصناف صَوْتِه ، وكان شديدَ الاجتهاد ، دائبَ العبادة)) اهـ .

وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٨٠) : ((قال القاضي : أجمع العلماء على استحباب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها . قال أبو عُبَيد : والأحاديث الواردة في ذلك محمولة على التحزين والتشويق . قال : واختلفوا في القراءة بالألحان ، فكرهها مالك والجمهور لخروجها عمَّا جاء القرآن له من الخشوع والتفهم ، وأباحهما أبو حنيفة وجماعة من السلف للأحاديث ، ولأن ذلك سبب للرِّقة، وإثارة الْخَشية ، وإقبال النفوس على استماعه . قلتُ : قال الشافعي في

---

(٧٤) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٩٢٥) برقم (٤٧٦١) ، ومسلم (١/٥٤٦) برقم (٧٩٣).

مَوضع: أكره القراءة بالألحان ، وقال في مَوضع : لا أكرهها ، قال أصحابنا (يعني الشافعية) : ليس له فيها خِلاف ، وإنما هو اختلاف حالَيْن ، فحيث كَرهها أراد إذا مَطَّطَ وأخرج الكلام عن مَوضعه بزيادة أو نقص ، أو مَد غير ممدود وإدغام ما لا يجوز إدغامه ، ونحو ذلك ، وحيث أباحها أراد إذا لم يكن فيها تغيُّر لموضوع الكلام ، والله أعْلَم)) اهـ .

وعن ابن عمر ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : ((لَقد عِشْنا بُرْهةً مِن دَهْرِنا ، وإنَّ أحَدَنا يُؤتَى الإيمانَ قَبْلَ القرآن ، وتُنَزَّلُ السُّورةُ على محمد ﷺ ، فيتعلم حَلالَها وحَرامها ، وما ينبغي أن يُوقَفَ عِندَه فيها ، كَما تَعلَّمون أنتم القرآنَ ، ثُمَّ قال : لقد رَأيتُ رِجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآنَ ، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خَاتِمته ، ما يدري ما أمْرُه و لا زَاجِرُه ، ولا ما ينبغي أن يُوقَفَ عِندَه مِنهُ ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَل (رَديء التَّمر)))[75].

إنَّ الصحابة ـ رضي اللهُ عنهم ـ كانوا يَقرؤون القُرآنَ بتمهُّل وعِناية فائقة ، معَ التفكر في معاني الآيات ، لأنَّ الإيمانَ مُستقر في قلوبهم قبل القُرآن . لذلك كانوا يَتعلمون أحكامَ الحلال والحرام مِنَ القُرآن ، وكانوا وقَّافين عِند حُدود اللهِ تعالى . وقد ظَهَرَ فِيما بعد أشخاص يَقرؤون القُرآنَ كالشِّعر ، أو كالجريدة ـ في عَصْرِنا ـ ، يَقرؤون القُرآنَ كاملاً بلا فَهْمٍ ولا تدبُّر ، فلا يَستفيدون مِنهُ شَيئاً ، ألسنتهم تتحرك بالقراءة ، وقلوبُهم غائبة عَن الوَعْي .

وهنا تبرز أهميةُ حضور القلب ، والتفكرِ في ألفاظِ الآيات ومَعانيها . فعِندما تمرُّ الآياتُ التي فِيها ذِكْرُ اللهِ ، يَستشعر القلبُ المؤمنُ عَظَمَةَ اللهِ تعالى . وعندما تمرُّ آياتُ الوَعْد والوَعيد ، يَظهر في القلب الرجاءُ والخوف ، الرَّجاء بالعَفْوِ والمغفرة ، والخوف من الذنوب والآثام . وعندما تمرُّ الأمثالُ وقَصَصُ الأمم الغابرة ، تبرز أهميةُ أخذ العِبْرة والعِظَة . وعندئذٍ يُشرِق القلبُ بالإيمان ، ويَذوق الإنسانُ حَلاوةَ القُرآنِ .

أمَّا الإسراعُ بالقراءة بِلا تفكُّر ، وإلقاء الكلمات كما يُلقَى التَّمْر الرديء ، فإشارةٌ واضحة إلى غياب القلب ، وانعدام الخشوع . فلا بُدَّ مِنَ الوقوف عِند أحكام القُرآن ، ومعرفة ألفاظه ومَعانيه ، وتحريك القلوب بِه .

---

(٧٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٩١) برقم (١٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ولا يَنبغي أن يَكون هَدف القارئ أن يُنهيَ قراءةَ السُّورة بأسرع وقت ممكن ، أو أن يُفكِّر في آخر السُّورة ، ومتى يصل إلَيها . ولا يَنبغي أن يَكون هدفُه الإكثارَ مِن عدد مرَّات خَتْمِ القُرآن بلا تدبُّر ولا تفكير .

وفي الحديث : جاءَ رَجلٌ إلى ابن مسعود ، فقال : قَرأتُ الْمُفَصَّلَ الليلةَ في رَكعة ، فقال : ((هَذّاً كَهَذِّ الشِّعْرِ))(76).

هذا الرَّجلُ قَرأ القُرآنَ بسرعة ، وبلا تفكُّر . لقد أسرعَ فِيه كما يُسرِع في الشِّعر . والْهَذُّ هو السُّرعة. والْمُفَصَّلُ مِن سُورة ق إلى آخِرِ القُرآن،وسُمِّيَ مُفَصَّلاً لكثرة الفَصْل بين سُوَرِه بالبسملة.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٠٥) : ((وهو شِدَّة الإسراع والإفراط في العَجَلة ، ففِيه النهي عن الْهَذِّ ، والحثُّ على الترتيل والتدبر ، وبه قال جمهور العلماء . قال القاضي : وأباحت طائفة قليلة الْهَذَّ . قَوْلُه : " كَهَذِّ الشِّعْرِ " معناه في تحفظه وروايته لا في إسناده وتَرَنُّمه ، لأنه يُرَتَّل في الإنشاد والتَّرَنُّم في العادة)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فاقْرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ ﴾[الْمُزَّمِّل : ٢٠](77) .

فاقرؤوا في الصلاةِ بالليل مِنَ القُرآن على قَدْرِ استطاعتكم ، ووَفْقَ ما تُطيقون . اقرؤوا في صلاة الليل ما خَفَّ علَيكم وسَهُلَ دون تحديد عدد الآيات ووقت الصلاة . وعبَّر عن الصلاة بالقراءة ، لأنَّ القراءة أحد أجزاء الصلاة. والآيةُ تخفيفٌ عن المؤمنين ، فقد كان قيامُ الليلِ فَرْضاً علَيهم ، فأسقطَه اللهُ عنهم رحمةً بِهم ، وبَقِيَ فَرْضاً على النبيِّ ﷺ وَحْدَه .

---

(٧٦) متفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٩) برقم (٧٤٢) ، ومسلم (١/ ٥٦٣) برقم (٨٢٢) . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٠٧) : ((قال العلماء : أوَّلُ القُرآنِ السَّبْعُ الطِّوالُ ، ثُمَّ ذَواتِ المِئِين ، وهو ما كان في السورة منها مائة آية ونَحْوُها ، ثُمَّ المثاني ، ثُمَّ الْمُفَصَّل . وقد سبق بيان الخلاف في أول الْمُفَصَّل ، فقِيل مِنَ القتال (سُورة محمد) ، وقِيل : مِنَ الْحُجُرات. وقِيل : مِن ق)).

(٧٧) استدل أصحاب أبي حنيفة بِقَوله تعالى : ﴿ فاقْرؤوا ما تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ ﴾ على أنه لا تجب قراءة الفاتحة في الصلاة ، واستدلوا كذلك بِقَول النبيِّ ﷺ في حديث الْمُسيء صلاتَه : ((ثُمَّ اقرأْ ما تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرآن)) [مُتَّفق عليه . البخاري (١/ ٢٦٣) ، ومسلم (١/ ٢٩٨)] . وقد رَدَّ علَيهم جُمهور العلماء ، وأجابوهم بِقَول النبيِّ ﷺ : ((لا صَلاةَ لِمَن لَم يَقرأ بفاتحة الكتاب)) [مُتَّفق عليه. البخاري (١/ ٢٦٣) ، ومسلم (١/ ٢٩٥)] .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٤٩) : ((قال القُشَيري أبو نصر : والمشهور أن نَسْخَ قيام الليل كان في حق الأُمَّة ، وبَقِيَت الفريضةُ في حق النبيِّ ﷺ . وقِيل : نُسِخَ التقدير بمقدار ، وبَقِيَ أصل الوجوب ... وعلى هذا فقد قال قَوم : لا بُدَّ من صلاة الليل ، ولكن فُوِّضَ قَدْرُه الى اختيار الْمُصَلِّي . وعلى هذا فقد قال قَوم : فَرْضُ قيام الليل بالقليل باقٍ ، وهو مذهب الحسن ، وقال قَوم : نُسِخَ بالكُلِّية ، فلا تَجب صلاة الليل أصلاً ، وهو مذهب الشافعي)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو ــ رضي اللهُ عنه ــ عن رسول الله ﷺ أنه قال : ((مَن قَامَ بِعَشْرِ آياتٍ لَم يُكتَب مِنَ الغافلين، ومَن قامَ بمئةِ آيةٍ كُتب مِنَ القانتين ، ومَن قام بألفِ آيةٍ كُتب مِنَ الْمُقَنْطِرين (يعني أُعْطِيَ قِنطاراً مِنَ الأجر)))[78].

وفي الحديثِ تَشبيهُ غَير المحسوس بالمحسوس . فإنَّ القِنطارَ وَزْنٌ ، أمَّا هذه فَدَرجة . والحديث يُشير إلى أهمية قِيام الليل بما تيسَّر مِنَ القُرآن الكريم ، وتتحدَّد درجةُ المؤمن وَفْقَ عدد الآيات التي يَقْرَؤُها.

وفي صحيح مسلم (١/ ٥١٢) أن سعد بن هشام قال : فَقلتُ يا أُمَّ المؤمنين أنبئيني عن خُلُقِ رسول الله ﷺ ، قالت : ((ألستَ تقرأ القرآن ؟)) ، قلتُ : بلى . قالت : ((فإنَّ خُلُقَ نبيِّ اللهِ ﷺ كان القرآن)) ، قال : فَهَمَمْتُ أن أقوم ولا أسألَ أحَداً عن شيء حتى أموت ، ثُمَّ بدا لي فقلتُ : أنبئيني عن قِيام رسول الله ﷺ ، فقالت : ((ألستَ تقرأ : ﴿ يا أيُّها الْمُزَّمِّلُ ﴾ ؟ ، قلتُ : بلى ، قالت : ((فإنَّ اللهَ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ افترضَ قِيامَ الليل في أوَّلِ هذه السورة، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حَوْلاً ، وأمسكَ اللهُ خَاتِمَتَها اثني عَشَرَ شَهراً في السماء ، حتى أنزلَ اللهُ في آخِرِ هذه السورة التخفيفَ ، فصارَ قِيامُ الليل تطوُّعاً بَعْدَ فَريضةٍ)) .

لقد كانَ النبيُّ ﷺ يَقرأ القُرآنَ ، ويَعرف أحكامه ، ويَعمل بها ، يَقف عِند حُدود القُرآن ولا يَتجاوزها ، وهذا معنى أنَّ خُلُقَه كان القُرآن . وكان قِيامُ الليلِ فَرْضاً على النبيِّ ﷺ والمسلمين ، فقاموا سَنَةً امتثالاً لأمر اللهِ تعالى، ثُمَّ خفَّف اللهُ عَنهم رَحمةً بِهم، وجعلَ قِيامَ الليل فَرْضاً على النبيِّ ﷺ وَحْدَه . وهذا يُشير إلى عَظَمةِ النبيِّ ﷺ ، ورباطةِ جأشه ، وشِدَّةِ بأسه ، وقوةِ تحمُّله .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٢٦) : ((قَوْلُها : " فإنَّ خُلُقَ نبيِّ الله ﷺ

---

(٧٨) رواه ابن حبان في صحيحه (٦/ ٣١٠) برقم (٢٥٧٢) .

كان القرآن " معناه : العمل به ، والوقوف عند حدوده ، والتأدب بآدابه ، والاعتبار بأمثاله وقَصَصه ، وتدبُّره ، وحُسن تلاوته . قَوْلُها : " فصار قيام الليل تطوُّعاً بعد فريضة " هذا ظاهره أنه صار تطوُّعاً في حق رسول الله ﷺ والأُمَّة . فأمَّا الأُمَّةُ فهو تطوُّع في حَقِّهم بالإجماع . وأمَّا النبيُّ ﷺ فاختلفوا في نَسْخِه في حقِّه ، والأصح عندنا نَسْخُه. وأمَّا ما حكاه القاضي عِياض من بعض السلف أنه يَجب على الأُمَّة مِن قيام الليل ما يَقع عليه الاسم ولوْ قَدْر حَلْب شاةٍ ، فَغَلَط ، ومردود بإجماع مَن قَبْلَه معَ النصوص الصحيحة أنه لا واجب إلا الصلوات الخمس)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القِيامة : ١٦] .

كان النبيُّ ﷺ يُحرِّك لِسانَه بالقرآن قبل فراغ جِبريل _ عليه السلام _ مِن قراءة الوَحْي ، حِرصاً على حِفْظِه ، وخَوفاً مِن أن يتفلَّت مِنه ، فأعلَمه اللهُ تعالى أن القُرآن محفوظٌ في قلبه ، ولَن يَنساه . فلا داعي لتحريك اللسان ، ولا معنى للخوف مِن نِسيان القُرآن .

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ١٣٢١) : ((كان رسول الله ﷺ إذا لُقِّنَ الوَحْيَ نازَعَ جِبريلَ القِراءةَ ، ولَم يَصْبِر إلى أن يُتِمَّها مُسارَعةً إلى الحفظ ، وخَوفاً مِن أن يتفلَّت مِنه ، فَأُمِرَ بأن يَسْتَنْصِتَ له مُلْقِياً إليه بقلبه وسمعه حتى يُقضَى إليه وَحْيُه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ [القِيامة : ١٧] .

لقد تكفَّل اللهُ تعالى بجمع القُرآنِ في قلب النبيِّ ﷺ وتثبيته فِيه ، وإثباتِ قراءته في لسانه ، وذلك حتى يَفهمه النبيُّ ﷺ بشكل كامل، فيكون واضحاً لا لَبْسَ فِيه ، ولا يَذهب من ألفاظه ومَعانيه شيءٌ . ومعنى الآية : جَمْعُه في صدرك ثُمَّ تَقرؤه على الناس دون أن تنسى منه شيئاً . ولا شَكَّ أن تكفُّل الله تعالى بهذا الأمر يَجعل النبيَّ ﷺ مُطْمَئناً ، ومُرتاح البال ، ولا يَشعر بالقلق . وهذا السياق يدل على شِدَّة حِرْص النبيِّ ﷺ على قراءة القُرآن وحِفْظِه وفَهْمِه .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٤٠) : ((﴿ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُه : إنَّ عَلَينا جَمْعَ هذا القرآن في صدرك يا محمد حتى نُثَبِّتَه فِيه . ﴿ وقُرْآنَهُ ﴾ يَقول : وقُرْآنَه ، حتى تقرؤه بعد أن جمعناه في صدرك)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فإذا قَرَأْناهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القِيامة : ١٨] [79].

(٧٩) في زاد المسير (٨/ ٤٢٢) : ((قال ابن عباس : ﴿ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي : اعْمَلْ بِه . وقال قتادة : فاتَّبع حلالَه وحرامَه)) اهـ .

إذا قرأ جبريلُ القُرآنَ عَلَيكَ يا محمد ، فاستمِعْ له وأنصِتْ ، ثم اقْرَأْهُ كما سَمِعْتَهُ دون زيادة أو نقصان . وبعِبارة أخرى : اتبَعْ يا محمد قراءةَ جِبريل كما هِيَ . والآيةُ تُوضِّح أن كلمة " القُرآن " قد تأتي بمعنى القراءة ، وهذا معروفٌ في اللغة العربية ، لأنَّ القُرآنَ هو مَصْدَر " قَرَأَ " . وفي تفسير القرطبي (١٩/ ٩٥) : ((قال عامر الشَّعبي : إنما كان يَعْجَلُ بِذِكْرِه إذا نَزَلَ علَيه مِن حُبِّه له ، وحلاوته في لسانه، فَنُهِيَ عن ذلك حتى يَجتمع، لأن بعضه مرتبط ببعض)) اهـ.وقال أبو السُّعود في تفسيره (٩/ ٦٧) : ((وإسناد القراءة إلى نُون العَظَمَةِ ، للمُبالَغة في إيجاب التَّأنِّي)) اهـ .

و﴿ قَرَأناهُ ﴾ بلفظ الجمع لتعظيم اللهِ وتَفخيم أمْرِه . ونِسْبةُ فِعْل القراءة إلى اللهِ تعالى معَ أن القارئ هو جِبريل ــ عليه السلام ــ ، إنما هي نِسبة الفِعْل إلى الآمِرِ بالفِعْل ، وهو اللهُ تعالى ، حيث أمرَ جِبريلَ ــ علَيه السلام ــ أن يَقرأ على النبيِّ ﷺ . وهذا دليلٌ على إضافة ما أمرَ اللهُ به إلى الله.

ونقل الحافظ في الفتح (١٣/ ٥٠٠) عن ابن بطال أنه قال : ((وقَوْلُه: ﴿ فإذا قَرَأناهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ، فِيه إضافة الفِعْل إلى الله تعالى ، والفاعلُ له مَن يأمره بِفِعْلِه ، فإنَّ القارئ لكلامه تعالى على النبيِّ ﷺ هو جِبريل ، ففِيه بيان لِكُلِّ ما أُشْكِل مِن كُلِّ فِعْلٍ يُنسَب إلى الله تعالى مِمَّا لا يَليق به فِعْلُه ، مِنَ المجيء والنُّزول ، ونَحْوِ ذلك)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بيانَهُ ﴾ [القِيامة : ١٩] [80].

بَعْدَ حِفْظِ النبيِّ ﷺ للقُرآنِ وتِلاوتِه ، تجيء مرحلة تفسير مَعانيه وتوضيح أحكامه، وبيان حلاله وحرامه . وقد كانَ النبيُّ ﷺ بعد التَّنبيه الإلهيِّ ، يَستمع إلى قراءة جِبريل ــ عَلَيه السلام ــ بكل تركيز ، ثُمَّ يَذهب لِيَقرأه على الناس . والآيةُ دليلٌ على جواز تأخير البيان عن وقت الخِطاب .

(٨٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٤٢٢): ((﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ ﴾ فيه أربعة أقوال : أحدها نُبَيِّنه بلسانك فتقرؤه كما أقرأكَ جِبريلُ. وكان إذا أتاه جِبريلُ أطرقَ ، فإذا ذهب قرأه ، كما وعده الله، قاله ابن عباس. والثاني إنَّ عَلَينا أن نَجزيَ به يوم القيامة بِما فِيه مِن وَعْد ووَعيد ، قاله الحسن .= =والثالث : إنَّ عَلَينا بيانَ ما فيه من الأحكام والحلال والحرام ، قاله قتادة . والرابع : عَلَينا أن نُنَزِّله قُرآناً عربياً فيه بيان للناس ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٩٦): ((أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام، قاله قتادة. وقِيل : ثُمَّ إنَّ عَلَينا بيانَ ما فِيه مِنَ الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقِيل : أي إنَّ عَلَينا أن نُبَيِّنه بلسانك)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ في قَوْلِه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ، قال : كان رسولُ الله ﷺ إذا نَزَلَ جبريلُ بالوَحْي ، وكان مِمَّا يُحَرِّكُ بِهِ لسانَه وشَفَتَيْهِ ، فَيَشْتَدُّ عَلَيهِ ، وكان يُعْرَفُ مِنهُ . فأنزلَ اللهُ الآيةَ التي في : ﴿ لا أُقْسِمُ بيوم القيامة (١) ﴾ ، ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ . قال : عَلَينا أن نَجْمَعَه في صدرك ، وقرآنه . ﴿ فإذا قَرَأناهُ فاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ﴾ ، فإذا أنزلناه فاستمِعْ . ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (١٩) ﴾ عَلَينا أن نُبَيِّنه بلسانك . قال : فكانَ إذا أتاه جِبريلُ أطرقَ ، فإذا ذهبَ قرأه كما وعد اللهُ [81].

كان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يُحرِّك شَفتيه ، وكان هذا شأنَه وعادتَه إذا نزل الوَحْي . وهو يَفعل ذلك حِرصاً على حِفْظِ القُرآن، وخَوفاً مِن تفلُّته.وكانَ الوَحْي شَديداً على النبيِّ ﷺ،لذلك كان ﷺ يعاني الشِّدةَ والمشقةَ . فكلامُ اللهِ لَيْسَ شَيئاً بسيطاً أو هَيِّناً. وكانت الشِّدةُ تحصل للنبيِّ ﷺ عند نزول الوَحْي بسبب عَظَمةِ كلام الله ، وكَي يَستقرَّ هذا الكلامُ العظيم في قلبه ﷺ ، ويَستوعبه بشكل كامل . ولا شَكَّ أن الكلام العظيم لا بُدَّ له مِن مُقدِّمات من أجل تعظيمه والاهتمام بِه .

والجديرُ بالذِّكر أن أثرَ هذه الشِّدة التي يُسبِّبها مجيءُ الوَحْي ، كانت تَظهر على وجه النبيِّ ﷺ وجسدِه الشريف ، وهي ظاهرة للعِيان . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ١٦٦): ((سَبَبُ الشِّدةِ هَيْبةُ الْمَلَكِ ، وما جاء به ، وثِقَلُ الوَحْي)) اهـ .

---

(٨١) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٨٧٧) برقم (٤٦٤٥) ، ومسلم (١/ ٣٣٠) برقم (٤٤٨).
قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٧٧) : ((هذا تعليم من الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ لرسوله ﷺ في كيفية تلقِّيه الوَحْي مِنَ الْمَلَك ، فإنه كان يُبادر إلى أخذه ، ويُسابِق الْمَلَكَ في قراءته ، فأمره اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ إذا جاءه الْمَلَكُ بالوَحْي أن يستمع له ، وتكفَّل اللهُ له أن يَجمعه في صدره ، وأن يُيَسِّره لأدائه على الوجه الذي ألقاه عليه ، وأن يُبَيِّنَه له ، ويُفَسِّرَه ، ويُوَضِّحه . فالحالة الأولى : جَمْعُه في صَدْره ، والثانية : تِلاوته ، والثالثة : تفسيره وإيضاح معناه)) اهـ .

وبعد ذلك ، صارَ النبيُّ ﷺ يَستمِع لقراءة جبريل _ عليه السلام _ ويُنصِت . فكانَ إذا أتاه جبريلُ _ عَلَيه السلام _ أطرقَ ، يعني : سَكَتَ ، وأرخَى عينيه يَنظر إلى الأرض مُنصِتاً مُتفهِّماً ، لا يُقاطِعُ الوَحْيَ ولا يُنازِعُه .

وفي الحديث أن الحارث بن هشام _ رضي اللهُ عنه _ سأل رسولَ الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوَحْي ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : ((أحياناً يأتيني مِثْلَ صَلْصَلةِ الجرسِ ، وهو أشَدُّه عَلَيَّ ، فَيُفْصِمُ عَنِّي ، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال ، وأحياناً يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجلاً ، فَيُكَلِّمُني ، فَأعِي ما يَقول))[82]. قالت عائشةُ _ رضي اللهُ عنها _: ولقد رَأيتُه يَنْزِلُ عَلَيهِ الوَحْيُ في اليوم الشديد البَرْد ، فَيُفْصِمُ عَنهُ ، وإنَّ جَبينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً .

أحياناً يَكون صَوْتُ الْمَلَكِ بالوَحْي مِثْلَ وَقْع الحديد إذا حُرِّكَ ، وهذه أشدُّ حالةٍ ، فَيُقلِع عن النبيِّ ﷺ ، ويَكون النبيُّ ﷺ قد استوعبَ الوَحْيَ كاملاً ، حِفْظاً وفَهْماً ، واستقرَّ في قلبه ، وأحياناً يتمثل الْمَلَكُ على شكل رَجل ، فَيُكلِّم النبيَّ ﷺ وَجهاً لِوَجْهٍ ، ويَفهم النبيُّ ﷺ كلامَه .

وقد ذَكَرَت السيدة عائشة _ رضي اللهُ عنها _ أنها كانت ترى النبيَّ ﷺ في اليوم البارد جداً ، _ بعد أن يَنْزِل عليه الوَحْيُ _ يَسيلُ العَرَقُ مِن جَبينه بكثرة . وهذا دليلٌ على شِدَّة الوَحْي ، والحِمْلِ الثقيل على كاهل النبيِّ ﷺ . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٨٨) : ((وأمَّا الصَّلْصَلةُ... وهي الصوت الْمُتدارِك. قال الخطابي: معناه أنه صوت مُتدارِك يَسمعه ولا يُثبِته أوَّل ما يَقرع سَمْعَه ، حتى يَفهمه مِن بَعْدِ ذلك . قال العلماء : والحكمة في ذلك أن يتفرغ سَمْعُه ﷺ ، ولا يبقى فيه ، ولا في قلبه مكان لغير صوت الْمَلَك)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرآنَ تَنْزيلاً ﴾[الإنسان: ٢٣] .

لقد نَزَّلَ اللهُ القُرآنَ على النبيِّ ﷺ مُتفرِّقاً ، فصَّله آيةً بعد آية ، ولم يَنْزِل جُملةً واحدة لِحكمة إلهية . والقُرآنُ كلامُ اللهِ ، ولم يَأْتِ بِهِ النبيُّ ﷺ مِن عِند نفْسه كما يَزعم المشركون ، ولَيس سِحْراً ولا شِعراً ولا كِهانةً . وتكرير الضمير يَحمل معنى التأكيد، واختصاص الله بالتَّنْزيل. وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٣): ((ما افْتَرَيْتَهُ، ولا جِئْتَ بِه مِن عِندِك ، ولا مِن تِلقاء نفْسك ، كما يَدَّعيه المشركون . ووجه اتصال هذه الآية بما قَبْل أنه سُبحانه لَمَّا ذَكَرَ أصنافَ الوعد والوعيد ، بيَّن أن هذا الكتاب يتضمَّن ما بالناس حاجة إليه ، فليس بِسِحر ، ولا كِهانة ، ولا شِعْر ، وأنه حق)) .

---

(٨٢) متفق عليه . البخاري (١/ ٤) برقم (٢) ، ومسلم (٤/ ١٨١٦) برقم (٢٣٣٣) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ كَلا إنها تَذكرةٌ ﴾ [عَبَسَ : ١١] .

﴿ كَلا ﴾ كلمة رَدْع . واللهُ يُنبِّه رسولَه محمداً ﷺ ، لَيْسَ الأمرُ كما فعلتَ يا محمد ، أي : لا تَفْعَلْ ذلك مَرَّةً ثانية . وكان النبيُّ ﷺ قد أقبلَ على الكافر الشريف طمعاً في إسلامه ، وأعرضَ عن المؤمن الفقير . وقد عَاتَبَهُ اللهُ على هذا الفِعْل ، وحذَّره مِنَ العودة إلَيه .

والآيةُ تُشير إلى ضرورة المساواة بين الناس في تبليغ العِلْم، الشريف والوضيع ، الغني والفقير ، القوي والضعيف . فالقُرآنُ مَوْعِظةٌ وعِبْرةٌ وتَبْصِرةٌ للخَلْق كُلِّهم بلا تمييز ، يجب الاتِّعاظُ بِه ، والعمل وَفْقَ أحكامه . وقد عُلِّلَ الرَّدْعُ بإظهار عُلُوِّ رُتبة القُرآن ، وأنه جاءَ لكل الناس ، يُخرِجهم مِنَ الظلمات إلى النُّور، ويَجعل قُلوبَهم نقيةً صافية ، مُتعلِّقةً باليوم الآخِر ، والنعيمِ الأبَديِّ .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت: أُنزلت ﴿ عَبَسَ وتولَّى ﴾ في ابْنِ أُمِّ مَكتوم الأعمى ، فقالت : أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرْشِدْني ، قالت : وعِندَ رسولِ الله ﷺ مِن عُظماء المشركين ، قالت : فجعل رسولُ الله ﷺ يُعْرِض عنه ، ويُقبِل على الآخَر، ويقول : ((أترى بما أقول بأساً ؟)) ، فيقول : لا . ففي هذا أُنزلت ﴿ عَبَسَ وتولَّى ﴾ (83).

ونحن نلاحظ من سياق القصة أن النبيَّ ﷺ كان حريصاً على إسلام عظماء المشركين لأن في ذلك إسلام أقوامهم . ولم يُعرِض النبيُّ ﷺ عن ابن أم مكتوم لحاجة شخصية أو تكبُّر أو إهانة له ، ولكنه حَرِصَ على إسلام سادة المشركين بُغية اتِّباع أقوامهم لهم في اعتناق الإسلام . ولا يخفَى أن الناس يَتْبعون زُعماءَهم الدِّينيين والسياسيين في كل زمان ومكان .

ولو كان ابن أم مكتوم يرى المشهد أمامَه لكان ذلك سُوء أدب منه ، إذ يَقطع كلامَ النبيِّ ﷺ وهو يتحدث في سبيل الدعوة . لكنَّ ابْنَ أُم مكتوم معذور بسبب عماه ، وعدم تمكنه من الرؤية ، فلم يَقْدِر على تحديد أبعاد المشهد وملابساته . وقد عاتب اللهُ النبيَّ ﷺ ، لأنه ارتكب خِلافَ الأَوْلَى ، إذ انصبَّ تركيزُه على عُظماء المشركين ، ولم يُعِر انتباهاً لابن أم مكتوم الأعمى ، وهذا الأمر فِيه رَفْعٌ لمعنويات الضُّعفاء والفقراء من المؤمنين ، ولئلا تَنكسر قلوبُهم . والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ تعالى لَم يَقُلْ : عَبَسْتَ وتَوَلَّيْتَ ، وذلك تعظيماً للنبيِّ ﷺ ، ورَفْعاً لِشأنه ، وتَنويهاً بمكانته (84).

---

(٨٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٥٨) برقم (٣٨٩٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٨٤) قال القرطبي في تفسيره (١٩/ ١٨٤) : ((أقبلَ ابْنُ أم مكتوم والنبيُّ ﷺ مشتغل بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الله تعالى وقد قَوِيَ طمعه في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام مَن وراءهم مِن

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ ﴾ [عَبَسَ : ١٢] .

يُعطي اللهُ الحريةَ لعباده ، وهُم يتحمَّلون مسؤوليةَ اختيارهم في الدُّنيا والآخِرة . فَمَن شاءَ مِن عِباد الله اتَّعظ بالقُرآنِ ، واستفادَ مِن أحكامه وتَوجيهاته .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٤٤٥) : ((يَقول : فَمَن شاءَ مَن عِباد الله ذَكَرَه : يَقول : ذَكَرَ تَنْزيلَ اللهِ وَوَحْيَه. والهاء في قَوْلِه: ﴿ إنها ﴾ للسُّورة. وفي قَوْلِه: ﴿ ذَكَرَهُ ﴾ للتَّنْزيل والوَحْي)).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ في صُحُفٍ مُكرَّمَةٍ ﴾ [عَبَسَ : ١٣].

يُوضِّح اللهُ عَظَمَةَ القُرآنِ وجلالةَ قَدْرِه ، فهو في كُتُبٍ مُعظَّمَةٍ مُوقَّرَةٍ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٩) : ((وفِيها قَولان : أحدهما أنها اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل . والثاني : كُتب الأنبياء . ذَكَره الثعلبي)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ مَرفوعةٍ مُطَهَّرَة ﴾ [عَبَسَ : ١٤] .

هذه الصُّحُفُ التي يُوجد فِيها القُرآنُ ، مُكرَّمةٌ، عاليةُ القَدْر عِند الله ، مُنَزَّهةٌ عَن التلاعب ، سواءٌ بالنقص أم الزيادة ، مُطَهَّرةٌ مِنَ الشوائب والدَّنَس ، لا يصل إلَيها الكفار والشياطين . وإذا كان المقصود بالصُّحُف اللوح المحفوظ ، فَتَكون مرفوعة في السماء . وإذا كان المقصود بالصُّحُف كُتب الأنبياء ، فهي رَفيعة القَدْر . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٢٦) : ((وفي معنى الْمُطَهَّرة أربعة أقوال : أحدها مُطَهَّرة مِن أن تَنْزِل على المشركين ، قاله الحسن . والثاني : مُطَهَّرة مِنَ الشِّرْك والكفر ، قاله مُقاتل. والثالث لأنه لا يَمَسُّها إلا الْمُطَهَّرون ، قاله الفرَّاء ، والرابع : مُطَهَّرة مِنَ الدَّنَس ، قاله يحيى بن سلام)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ بأيدي سَفَرَةٍ ﴾ [عَبَسَ : ١٥] .

الصُّحُفُ الْمُكرَّمةُ بأيدي الملائكة الذين جعلهم اللهُ سُفراءَ بَيْنَهُ وبَيْنَ رُسُلِه _ عليهم الصلاة والسلام _.وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٩/ ٢٩): ((فيهم قولان : أحدهما أنهم الملائكة ،

قومهم، فجاء ابن أم مكتوم، وهو أعمى، فقال: يا رسول الله، عَلِّمْني مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، وجعل يُناديه ويُكثر النداء، ولا يدري أنه مشتغل بغَيره، حتى ظَهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ لِقَطْعِه كلامه . وقال في نفْسه : " يقول هؤلاء : إنما أتباعه العُميان والسِّفْلة والعبيد " ، فعبس ، وأعرض عنه، فَنَزلت الآية. قال الثوري : فكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابْنَ أم مكتوم يَبْسُطُ له رِداءه ويقول : " مَرحباً بِمَن عاتبني فيه ربِّي" ويقول: " هل مِن حاجة ؟ ".واستخلفه على المدينة مرَّتين في غَزوتين غزاهما)) .

قاله الجمهور.والثاني: أصحاب محمد ﷺ ، قاله وَهْب بن مُنَبِّه.وفي معنى:﴿ سَفَرَةٍ ﴾ ثلاثة أقوال:أحدها أنهم الكَتَبة، قاله ابن عباس ومجاهد وأبو عُبَيدة وابن قُتَيبة والزَّجاج. قال الزَّجاج : واحدهم سافر ...وإنما قِيل للكتاب سِفْر وللكاتب سافر، لأن معناه أنه يُبَيِّن الشيء ويُوضِّحه. يقال: أسفرَ الصُّبْحُ إذا أضاءَ ، وسَفَرَت المرأةُ إذا كَشَفَت النِّقابَ عن وَجْهها ...والثاني أنهم القُرَّاء ، قاله قتادة)).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عَبَسَ : ١٦] .

هؤلاء الملائكةُ الأطهار، كِرامٌ على الله تعالى، مُنَزَّهون عن الشهوات والمعاصي، إنهم أتقياء مُطيعون لربِّهم لا يَعصونه، صادقون في إيمانهم. خَلْقُهم كريم، وأخلاقُهم طاهرة. وينبغي لحامل القُرآن أن يَقتديَ بهؤلاء الملائكة الأطهار، ويتشبَّه بهم .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ٥٤١) : ((أي كِرام على ربهم ، كذا قال الكلبي.وقال الحسن : كرام عن المعاصي فهم يرفعون أنفسهم عنها، وقِيل: يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته أو قضى حاجته . وقِيل : يُؤْثرون منافع غَيرهم على منافعهم. وقِيل: يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم. والبَرَرة جمع بار مثل كفرة وكافر)) .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : قال رسولُ الله ﷺ : ((الماهرُ بالقُرآنِ معَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ ، والذي يَقرأ القُرآنَ ، ويَتَتَعْتَعُ فيه ، وهو عَلَيهِ شاق ، له أجران))[85].

إن الشخص الذي يُتقِن قراءةَ القُرآنِ بأحكام التَّجويد مع الملائكةِ ، أمَّا الشخصُ الذي يُلاقي صعوبةً في قراءة القُرآن ، ويُكابِد المشقةَ من أجل القراءة الصحيحة ، ويتتعتع فِيه ، أي يتردد في تلاوته لضعف حِفْظه، فلهُ أجران : أجرُ التِّلاوة ، وأجرُ التَّعب والمشقة . والأجرُ على قَدْرِ المشقة . والماهرُ بالقُرآن قد وصل إلى رُتبة عُليا لا يَصل إلَيها أحدٌ ، أمَّا الشخصُ الضعيف في القراءة فهو في رُتبة أقل بكثير مِن الماهر ، معَ أنَّ له أجرَيْن ، وعَلَيهِ أن يُحسِّن مُستواه في القراءة .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٨٤و٨٥) : ((والماهر : الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يَشُقُّ عليه القراءة بِجَودة حِفْظه وإتقانه. قال القاضي: يُحتمَل أن يَكون معنى كَوْنه معَ الملائكة أنَّ له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقاً للملائكة السَّفَرة لاتِّصافه بِصِفَتهم مِن حَمْلِ كِتاب الله تعالى . قال : ويُحتمَل أن يُراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مَسْلَكهم)) اهـ .

---

(٨٥) متفق عليه . واللفظ لمسلم (١/ ٥٤٩) برقم (٧٩٨) . والبخاري (١٨٨٢/٤)برقم(٤٦٥٣).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجيمٍ ﴾ [التَّكوير : ٢٥] .

وما هذا القُرآنُ بِقَول شيطانٍ مَلعونٍ، ولكنه كلامُ اللهِ تعالى أنزلَه على النبيِّ ﷺ ، ولَيس بِسِحْرٍ ولا كِهانة . ولا يَقْدِرُ الشَّيطانُ على حَمْلِ القُرآن ولا يُريده . فالقُرآنُ هو الحق الواضح ، أمَّا الشَّيطان فهو الباطل الواضح . ومُحال أن يَجتمع الحق والباطل معاً . وفي زاد المسير (٩/ ٤٤) : ((قال مُقاتِل : وذلك أن كفار مكة قالوا : إنما يجيءِ به الشيطان فَيُلقيه على لسان محمد)) اهـ . وقال ابن القَيِّم في التِّبيان(١/ ٧٥): ((لَيس تعليم الشيطان ، ولا يَقْدِر عَلَيه ، ولا يَحْسُن مِنه)).

وقال اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجيدٌ ﴾ [البُرُوج : ٢١] .

يُكذِّبُ اللهُ المشركين القائلين إن القُرآن شِعْرٌ وكِهانة وسِحْر . بَل هُو قُرآنٌ عظيمُ القَدْر ، رَفيعُ الْمَنْزِلة ،كثيرُ الخير ، فَريدٌ في نَظْمِه ومَعانيه ، مُشتمِلٌ على أحكام الدُّنيا ، وأحوالِ الآخِرة ، وهو أعظمُ الكُتب السماوية على الإطلاق ، مَحفوظ من التغيير والتلاعب إلى يوم القِيامة .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/٢٦٠): ((أي مُتناهٍ في الشَّرف والكرم والبركة ، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدِّين والدنيا، لا كما زعم المشركون . وقيل (مجيد) : أي غير مخلوق)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ في لَوْحٍ مَحفوظ ﴾ [البُرُوج : ٢٢].

إنَّ القُرآنَ مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ الموجود في السماء ، ومَحفوظٌ مِنَ الزيادة والنقص .

وقال ابن القَيِّم في التِّبيان (١/ ٥٧) : ((﴿ في لَوْحٍ مَحفوظ ﴾ ... وفِيه إشارة إلى أن الشياطين لا يُمكنهم التَّنَزُّل بِه ، لأن مَحَلَّه محفوظ أن يَصلوا إليه، وهو في نفْسه محفوظ أن يَقْدِر الشيطانُ على الزيادة فيه والنقصان ، فوصفه سُبحانه بأنه محفوظ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ رَسولٌ مِنَ اللهِ يَتلو صُحُفاً مُطَهَّرةً ﴾ [البَيِّنة : ٢] .

إنَّ محمداً ﷺ رسولُ اللهِ ، يَقرأ صُحُفاً مُنَزَّهةً عن الباطل والشُّكوك والشُّبهات والضلالة . وهذا النبيُّ الأميُّ الذي يَقرأ القُرآنَ عَن ظَهْرِ قَلْبٍ ، هو البَيِّنةُ الواضحة ، والْحُجَّةُ الباهرة ، والآيةُ العُظمى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٩٥) : ((ثُمَّ فَسَّرَ البَيِّنةَ بِقَوْلِه : ﴿ رَسولٌ مِنَ اللهِ يَتلو صُحُفاً مُطَهَّرةً ﴾ يعني مُحمَّداً ﷺ وما يَتلوه مِنَ القرآن العظيم الذي هو مُكْتَتَب في الملأ الأعلى

في صُحُفٍ مُطَهَّرة ... قال قتادة : ﴿ رَسولٌ مِنَ اللهِ يَتلو صُحُفاً مُطَهَّرةً ﴾ يَذكر القُرآنَ بأحسن الذِّكْر ويُثني عَلَيهِ بأحسن الثَّناء)) اهـ .

وعن أُبَيٍّ بن كَعْب ـ رضي اللهُ عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ : ((إن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمَرَني أن أقرأ عليك)) ، قال : فقرأ عليَّ : ((﴿ لم يَكُن الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ والمشركينَ مُنفَكِّينَ حتى تأتِيَهُمُ البَيِّنةُ (١) رَسولٌ مِنَ اللهِ يَتلو صُحُفاً مُطَهَّرةً (٢) فِيها كُتبٌ قَيِّمةٌ (٣) وما تَفَرَّقَ الذينَ أُوتوا الكِتابَ إلا مِن بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ البَيِّنةُ (٤) ﴾، إن الدِّينَ عِندَ اللهِ الحنيفيةُ غَيْرُ الْمُشرِكة ولا اليهودية، ولا النصرانية ، ومَن يَفعل خَيراً فلن يُكْفَرَهُ)) [86].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ فِيها كُتبٌ قَيِّمةٌ ﴾ [البَيِّنة : ٣] .

في الصُّحُفِ الْمُطَهَّرةِ كُتُبٌ إلهيةٌ عادلةٌ ومُحْكَمَةٌ ناطقةٌ بالحق ، لا خطأ فِيها ولا تناقض . والمقصودُ بالكتبِ الآياتُ والأحكامُ المكتوبة فيها .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٩٦) : ((﴿ فِيها ﴾ أي : في الصُّحُفِ ﴿كُتبٌ قَيِّمةٌ ﴾ أي : عادلة مستقيمة تُبَيِّن الحقَّ من الباطل ، وهي الآيات . قال مُقاتِل : وإنما قِيل لها : كُتب ، لِمَا جَمَعَتْ مِن أُمورٍ شَتَّى)) اهـ .

*

(٨٦) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٣٢)، والحاكم في المستدرَك (٥٧٩/٢) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

٣

حقيقةُ القُرآنِ وتصديقُه للكُتبِ السابقة

إنَّ القُرآنَ هُوَ كلامُ اللهِ تعالى ، وهو الدستورُ السماويُّ الذي جاءَ لإنقاذ الإنس والجن من العذاب . وهذه الكلماتُ لَيست شِعاراً خالياً مِنَ المعنى ، ولَيست إيماناً أعمى . وإنما هي حقيقةٌ راسخة ومُسلَّمة قائمة على الأدلةِ الواضحة ، والْحُجَجِ الظاهرة ، والبراهين الساطعة .

وبما أن القُرآنَ هو آخِرُ الكُتب السماوية، والكِتابُ السماويُّ الوحيدُ الذي تكفَّل اللهُ بِحِفْظِه، فلَيسَ غريباً أن يُصَدِّقها، ويُدافع عنها، فهو الحافظُ لها، والحاكمُ عَلَيها . وكلُّ الكُتبِ السَّماوية مَصْدَرُها واحد ، وهي حَقٌّ وصِدْق ، والحقُّ لا يُعارِض الحقَّ . لكنَّ التحريفَ الذي أصابَ التَّوراةَ والإنجيلَ ، خلطَ الحقَّ بالباطل ، وهذا هو سبب التَّشويش على عقائد أهل الكتاب .

قال اللهُ تعالى : ﴿ والذينَ يُؤمنونَ بما أُنزِلَ إلَيْكَ وما أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخِرةِ هُمْ يُوقِنون ﴾ [البقرة : ٤] (87).

هُم مُؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ــ رضي اللهُ عنه ــ ، فقد جَمَعوا بين الإيمان بما أَنزلَ اللهُ على محمد ﷺ وما أَنزلَه على الأنبياء قَبْلَه .

والذينَ يُصَدِّقون بالقُرآنِ الذي أنزلَه اللهُ على النبيِّ ﷺ ، ويُصدِّقون بالكُتبِ السماوية السابقة التي أنزلَها اللهُ على الأنبياء ــ عَلَيهم الصلاة والسلام ــ. يُصدِّقون بِكُلِّ الكُتب السماوية بلا استثناء ، ويُصدِّقون بالبعث والجنة والنار ، ولا يَشُكُّون باليوم الآخِر .

ولَيْسَ كما فعل اليهودُ والنصارى ، فاليهودُ آمَنوا بالتوراة ــ حَسَبَ زَعْمهم ــ ، وكفروا بالإنجيل والقُرآن، والنصارى آمَنوا ــ حَسَبَ زَعْمهم ــ بالتوراة (العَهْد القديم) والإنجيل (العَهْد الجديد) ، واعتبروهما " الكتاب الْمُقدَّس " ، وكفروا بالقُرآن .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦٣) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وبالآخِرةِ ﴾ أي بالدار الآخِرة . سُمِّيَت الدُّنيا دُنيا لِدُنُوِّها مِنَ الآخِرة، وَسُمِّيت الآخِرةُ آخِرة ، لِتَأخُّرها وكَوْنها بعد الدنيا)) اهـ.

---

(٨٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٢٦) : ((اختلَفوا فِيمن نَزلت على قَوْلَين : أحدهما أنها نَزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، واختاره مُقاتل . والثاني أنها نَزلت في العرب الذي آمَنوا بالنبيِّ ، وما أُنزِلَ مِن قَبْلِه ، رواه صالح عن ابن عباس)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٢٧) : ((وهنا مسألة : إنْ قالَ قائل : كيف يمكن الإيمان بجميعها معَ تنافي أحكامها ؟ . قِيل له : فِيه جوابان : أحدهما : أن الإيمان بأن جميعها نَزَلَ مِن عِند الله ، وهو قول مَن أسقطَ التَّعَبُّدَ بما تقدَّم مِنَ الشرائع . الثاني : أن الإيمان بما لَم يُنْسَخْ مِنها ، وهذا قَول مَن أوجبَ التزامَ الشرائع المتقدِّمة)) اهـ .

وعن أبي مُوسى _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((ثلاثةٌ يُؤْتَـوْنَ أجْرَهُم مَرَّتَيْن)) . وذَكَرَ مِنهم : ((ومُؤمِنُ أهلِ الكتاب الذي كان مُؤمناً ، ثُمَّ آمَنَ بالنبيِّ ﷺ ، فَلَهُ أجران))(88).

إنَّ مُؤمن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) قد استحقَّ الأجْرَيْن، لأنه جَمَعَ بين الحق السابق والحق اللاحق . أي إنَّهُ آمنَ بِنَبِيِّه الذي أرسلَه اللهُ قَبْلَ محمد ﷺ ، ثُمَّ آمنَ بالنبيِّ محمد ﷺ ، فله أجران : أجرُ إيمانِه الأوَّلِ ، وأجرُ إيمانِه الثاني . ولا تناقض بينهما لأنَّ الأنبياء دِينهم واحد .

وعن أبي ذَر _ رضي اللهُ عنه _ قال : قلتُ : يا رسول الله ، كم الأنبياءُ ؟ قال : ((مئة ألف وعشرون ألفاً)) ، قلتُ : يا رسول الله ، كَم الرُّسُلُ مِن ذلك ؟ ، قال : ((ثلاث مئة وثلاثة عشر جَمَّاً غفيراً)) ، قال : قلتُ : يا رسول الله ، مَن كان أوَّلُهم ؟ ، قال : ((آدم))، قلتُ : يا رسول الله، أنبيٌّ مُرسَل ؟، قال: ((نعم، خلقه اللهُ بيده ، ونفخ فِيه مِن رُوحه وكَلَّمه قِبَلاً _ يعني عِياناً_))، ثم قال : ((يا أبا ذَر ، أربعةٌ سُرْيانِيُّون : آدم ، وشِيث ، وأَخْنُوخ وهو إدريس ، وهو أوَّلُ مَن خَطَّ بالقلم ، ونُوح . وأربعةٌ مِنَ العَرب : هُود ، وشُعَيب ، وصالح ، ونَبِيُّكَ محمد ﷺ)) ، قلتُ : يا رسول الله ، كَم كِتاباً أنزلـه اللهُ ؟ ، قال : ((مِئةُ كِتاب وأربعةُ كُتب ، أُنزِلَ على شِيثٍ خمسون صحيفة ، وأُنزِلَ على أَخْنُوخَ ثلاثون صحيفة ، وأُنزِلَ على إبراهيمَ عَشْرُ صَحائف ، وأُنزِلَ على مُوسى قَبْلَ التوراة عَشْرُ صحائف ، وأُنزِلَ التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبُور والقُرآن)) ، قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما كانت صحيفةُ إبراهيم ؟ ، قال : ((كانت أمثالاً كُلَّها : أيها الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى المغرور ، إنِّي لَم أَبْعَثْكَ لِتَجمعَ الدُّنيا بَعْضَها على بعض ، ولكني بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعوةَ المظلوم ، فإنِّي لا أَرُدُّها وَلَوْ كانت مِن كافر ، وعلى العاقل ما لَم يكن مغلوباً على عقله، أن تكون له ساعات : ساعةٌ يُناجي فيها رَبَّه، وساعةٌ يُحاسِبُ فيها نَفْسَه ، وساعةٌ يتفكرُ فِيها في صُنعِ الله ، وساعةٌ يَخلو فيها لحاجته مِنَ الْمَطْعَمِ والْمَشْرَبِ، وعلى العاقل أن لا يَكون ظاعناً _ يعني مُسافراً_ إلا لثلاث : تَزَوُّدٌ لِمَعاد ، أو مُؤنةٌ لِمَعاش ، أو لذةٌ في غَيْرِ مُحَرَّمٍ ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً

(٨٨)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٣/ ١٠٩٦) برقم (٢٨٤٩). ومسلم (١/ ١٣٤) برقم (١٥٤).

بِزَمانه، مُقبِلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ، وَمَن حَسَبَ كَلامَه مِن عَمَلِه قَلَّ كَلامُه إلا فِيما يَعنيه))، قلت: يا رسول الله ، فما كانت صُحُفُ مُوسى ؟ ، قال : ((كانت عِبَراً كُلَّها : عَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالموت ثُمَّ هُوَ يَفرح ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالنار ثُمَّ هُوَ يَضحك ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ـ يعني يَتْعَب ـ ، عَجِبْتُ لِمَن رأى الدنيا وتَقَلُّبَها بأهلها ثُمَّ اطمأنَّ إلَيها ، وعَجِبْتُ لِمَن أيقنَ بالحساب غداً ثُمَّ لا يَعمل)) (89) .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ ولَمَّا جَاءَهُم كِتابٌ مِن عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم وكانوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ على الذين كفروا فلمَّا جاءهم ما عَرَفوا كَفروا بِهِ فلعنةُ اللهِ على الكافرين ﴾ [البقرة : ٨٩] .

لَمَّا جاءَ اليهودَ القرآنُ الذي يُصَدِّق التَّوراةَ التي أنزلَها اللهُ على موسى ﷺ ، وكانوا قَبْلَ ذلك يَسْتَنْصِرُون على مُشركي العرب بنبيِّ آخِرِ الزَّمان (محمد ﷺ) . ولكنهم ـ حِينَ ظُهوره ـ كَفروا به خَوفاً على الزَّعامة والرِّياسة ، وحَسَداً مِن عِندِ أنفسهم ، لأنه خَرَجَ مِنَ العَرب ، ولَم يَخرج مِن بَني إسرائيل . وهذه الآيةُ تُشير إلى عِنادهم وتكبُّرهم، وأنَّ كُفْرَهم كانَ مُستنِداً إلى معرفة وعِلْم ، ولم يَكونوا جُهَّالاً أو ساذَجين ، وقد أُقِيمَت الْحُجَّةُ عَلَيهم ، والكفرُ عِناد .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٤٥٤) : ((البيان الواضح أنهم تعمَّدوا الكفرَ بمحمد ﷺ بعد قِيام الْحُجَّةِ بِنُبُوَّتِه عَلَيهم ، وقَطَعَ اللهُ عُذْرَهم بأنه رسولُه إلَيهم)) اهـ .

كانوا يَعْلَمون أن محمداً ﷺ نبيُّ آخِرِ الزمان، وقد اقتربَ وَقْتُ خُروجه. ولَيس هذا غريباً ، فَوَصْفُ النبيِّ ﷺ مَوجود عِندَهم في التوراة . وقد حَلَّت عَلَيهم لعنةُ اللهِ بسبب كُفرهم ، ولَحِقَهم الخزيُ والعارُ في الدُّنيا والآخِرة (90) .

و((أخرجَ ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وأبو نُعَيم والبَيهقي كلاهما في الدلائل مِن طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري : حَدَّثني أشياخ مِنَّا قالوا: لَم يكن أحدٌ من العرب أعلمَ بشأن رسول الله ﷺ مِنَّا ، كان مَعَنا يهود، وكانوا أهلَ كتاب ، وكُنَّا أصحابَ وَثن ، وكُنَّا إذا بَلَغْنا مِنهم ما يَكرهون قالوا: إنَّ نَبِيَّاً يُبعَث الآنَ، قد أظلَّ زمانُه، نتَّبعه فنقتلكم معه قَتْلَ عَادٍ وإرَم ، فلمَّا بَعث اللهُ

---

(٨٩)رواه ابن حبان في صحيحه(٢/ ٧٦) برقم(٣٦١).وحسَّنه الشَّوكاني في إرشاد الثِّقات(١/ ٥) .

(٩٠) قال الثعالبي في تفسيره (١/ ٨٨) : ((ورُوِيَ أن قُرَيظة والنَّضير وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت كانوا يَستفتحون على سائر العرب . وبسبب خُروج النبيِّ الْمُنتظَر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسُكناهم بِه ، فإنهم كانوا عَلِموا صُقْعَ الْمَبْعَث ـ يعني ناحيتَه ـ)) اهـ .

رَسولَه اتَّبعناه وكفروا بِه ، فَفِينا _ واللهِ_ وفيهم أنزلَ اللهُ : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾))[91].

إنَّ العامل الاجتماعي (العصبية القومية) الذي يتضمَّن اتِّباعَ الهوى والحسد ، كان له أثر مُدمِّر في رفض الإيمان ، واعتناق الباطل دِيناً . وهذه العوامل النفسية من شأنها تأسيس المبادئ المنحرفة عن قيمة الوعي الإنساني، وبذلك ينحرف الإنسان عن المنهج القويم ، ويغوص في سراديب الأوهام ضمن فوضى عبثية تنقله عبر عوالم التشويش ، فيغرق في بحور الشكوك المظلمة ، فلا يرى أي طوق نجاة هنا أو هناك . وأهل الكتاب غارقون في الانحراف المنهجي عن الحق ، فكتبهم الدينية متضاربة وذات صِبغة بشرية عائشة في عوالم الخيالات والوهم الأيديولوجي . واعتماداً على منهجية التشويش في كتبهم اختفى المنهج العِلْمي في البحث عن الحقيقة ، فظهرت العقائد الزائغة ، والاختلاط المريع بين الألوهية والبشرية، والفكر المنحرف المتعلق بالمفاهيم العَقَدية الأسطورية كاللاهوت (الطبيعة الإلهية) ، والناسوت (الطبيعة البشرية) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأنزلَ الفُرقانَ ﴾ [آل عِمران : ٤][92].

لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ ، وهو الفارقُ بين الحق والباطل ، فأحلَّ فيه الحلالَ ، وحرَّم فِيه الحرامَ ، ووَضَعَ فِيه الشرائعَ والحدود والأحكام . وقد تقدَّم ذِكْرُ القُرآنِ في قَوْلِه تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ بالحقِّ ﴾ [آل عِمران : ٣] . وما تكرار ذِكْر القرآن إلا تَشريفٌ له ، وتعظيمٌ لشأنه ، وإظهارٌ لِفَضْله . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٥٩): ((وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل، والغَيِّ والرَّشاد، بِما يَذكره اللهُ تعالى مِنَ الْحُجَج والبَيِّنات، والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات، ويُبيِّنه، ويُوضِّحه ، ويُفسِّره ، ويُقرِّره ، ويُرشد إِلَيه ، ويُنبِّه عليه من ذلك)).

وقد أقْسَمَت السيدةُ عائشة _ رضي اللهُ عنها _ في إحدى المسائل ، فقالت : ((والذي أنزلَ الفُرقانَ على محمد))[93].

---

(٩١) الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ٢١٥ و٢١٦) . وانظر سيرة ابن إسحاق (١/ ٦٢).

(٩٢) ذهب كثير من المفسِّرين إلى أن المقصود بالفُرقان جميع الكتب السَّماوية . قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤) : ((يُريد بِه جِنْسَ الكُتُبِ الإلهية ، فإنها فارقة بين الحق والباطل)) اهـ . وانظر تفسير الجلالَين (١/ ٦٢) ، والوجيز للواحدي (١/ ١٩٨) ، وتفسير النَّسفي (١/ ١٤١) .

(٩٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢٤٠) برقم (٢٦٠٧٦) .

وقال اللهُ تعالى:﴿ لقدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولاً مِن أنفُسِهِم يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ﴾ [آل عِمران : ١٦٤][94].

لقد أنعمَ اللهُ على المؤمنين ، وتفضَّلَ عَلَيهم، إذْ أرسلَ إلَيهم محمداً ﷺ رَسولاً مِن جِنْسِهم ، واحداً مِنهم يَعرِفون نَسَبَه وصِدْقَه وأمانتَه ، وعربياً مِثْلَهم يَفتخرون بانتسابه إلَيهم ، يَتلو عَلَيهم القُرآنَ بعدما كانوا مُشرِكين ، يَعبدون الأصنامَ، ولا يُؤمنون باليوم الآخِر ، ولا يَعْرِفون كلامَ اللهِ ، ولَيس لهم علاقة بشريعة السماء .

إذن ، المِنَّةُ الأُولَى هي إرسال نبيٍّ إنْسِيٍّ وعربيٍّ. فَكَوْنُه مِنَ الإنس يَعني أن هناك أُلفة ستحصل بينه وبين المؤمنين . ولوْ كانَ مَلَكاً أو مِنَ الجِن ، لَمَا حَصَلَ الأُنسُ والأُلفة والمودة الاجتماعية لاختلاف الجِنْس . وَكَوْنُه عربياً معناه أنهم سَيَفهمون كلامَه ، ولا يَحتاجون إلى مُتَرْجِم . والمِنَّةُ الثانية هي قراءة القُرآن عَلَيهم ، وإخراجهم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ، ومِن الجهل إلى العِلْم ، ومِن الشَّك إلى اليقين ، ومِن التخلف إلى الحضارة . وقد خُصَّ المؤمنون بالذِّكْر معَ أنَّ النبيَّ ﷺ أُرسلَ إلى الإنسِ والجن ، لأنَّ المؤمنين هُم الْمُنتفعِون بِرسالته ودَعوته . أمَّا الكافرون فلن يَستفيدوا مِنَ القُرآن شَيئاً، ولَن يَعرِفوا قِيمتَه وإعجازَه، لأنَّ الأعمى لا يَقْدِرُ أن يرى نُورَ الشمس، والناسُ أعداءُ ما يَجهلون ، والْحُكْمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره ، وكما قال الشاعر :

ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ ... يَجِدْ مُرَّاً بِهِ الماءَ الزُّلالا

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١١١) : ((﴿ لقدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ ﴾ ، أنعمَ على مَن آمَنَ معَ الرسول ﷺ مِن قَوْمه ، وتخصيصهم معَ أن نِعمة البعثة عامة لزيادة انتفاعهم بِها ... ﴿ إذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولاً مِن أنفُسِهِم ﴾ مِن نَسَبِهم أو مِن جِنْسِهم ، عربياً مِثْلَهم ، لِيَفهموا كلامَه بسهولة

(٩٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩٤) : ((وفي وَجْهِ الامتنان عَلَيهم بِكَوْنِه مِن أنفسهم أربعة أقوال : أحدها لِكَونه معروف النَّسَب فِيهم ، قاله ابن عباس وقتادة. والثاني : لِكَونهم قَد خَبَروا أمْرَه وعَلِموا صِدْقه ، قاله الزَّجاج . والثالث : لِيَسْهُل عَلَيهم التعلم مِنه لموافقة لسانه للسانهم ، قاله أبو سليمان الدمشقي . والرابع : لأنَّ شَرَفَهم يتمُّ بِظُهور نبيٍّ مِنهم ، قاله الماوردي . وهل هذه الآية خاصة أم عامة ، فِيه قَولان : أحدهما أنها خاصة للعرب ، رُوِيَ عن عائشة والجمهور . والثاني أنها عامة لسائر المؤمنين ، فَيَكون المعنى أنه ليس بِمَلَكٍ ولا مِن غَير بني آدم ، وهذا اختيار الزَّجاج)) اهـ .

ويَكونوا واقفين على حاله في الصدق والأمانة مُفتخِرين بِه ، وقُرِئَ " مِن أنفَسِهِم " أي مِن أشرفهم لأنه عليه الصلاة والسلام كان مِن أشرف قبائل العرب وبُطونها. ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِم آياتِهِ ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جُهَّالا لَم يَسمعوا الوَحْيَ)) اهـ .

قال اللهُ تعالى : ﴿ أفلا يَتدبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ كانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجدوا فِيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ [النِّساء : ٨٢] .

يأمرُ اللهُ بتدبُّر القُرآنِ ، والتَّفكر في ألفاظه ومَعانيه ، ومعرفة أحكامه . والقرآنُ هو كلام الله، لا يمكن الوقوف على عَظَمته إلا بِفَهم مَعانيه والغوص في دلالات آياته. ولو كان القرآنُ من تأليف بَشر كما يَزعم الكافرون لَوَجدوا فيه تناقضاتٍ شديدة ، وخليطاً من الحق والباطل ، وأخباراً مُتضارِبة ، وتفاوُتاً في المستوى البياني ، حيث الألفاظ القوية والألفاظ الركيكة ، والمعاني المؤثِّرة والمعاني غير المؤثِّرة . ولا يَخفَى أن عَقْلَ الإنسانِ قاصرٌ ومحدودٌ ، ومَن كانَ بهذه الصِّفة لا يُمكنه أن يَأتِيَ بكلامٍ كاملٍ ومَعصوم ، لأنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه . ومَن عَرَضَتْ له شُبهة ، أو ظَنَّ وجود تناقض في القُرآن ، فالمشكلةُ في ذلك الشخص ، ولَيس في القُرآن . وهذا الشخصُ عَلَيهِ أن يَعرف أن القُرآنَ لا يُفسَّر بالمِزاج والآراء الشخصية والأهواء والخيالات ، وعَلَيهِ أن يَسأل العُلماءَ حَوْلَ الشُّبهة التي وَقَعَ فِيها ، ولا يُعَوِّل على عَقْلِه المحدود . والعلماءُ لَدَيهم القُدرة على إزالة الأوهام ، وتنقيةِ الأذهان ، وبعثِ اليقين في القلوب . وهكذا يَرتاح الشخصُ من الشُّكوك والوساوس، ويَنشرح صَدْرُه ، ويَستنير قَلْبُه . وكما قِيل: شِفاءُ العِيِّ السُّؤالُ. والعِيُّ هو الجهل. وعلى الإنسان أن يَطلب العِلْمَ لكي يَبنيَ إيمانَه على اليقين الذي لا يتزعزع . وبالتأكيد، إنَّ العِلْمَ هو الشِّفاء من الوساوس والشُّبهات والشُّكوك.

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المرءُ يُولَدُ عَالِماً ... ولَيْسَ أخو عِلْمٍ كَمَن هُوَ جَاهِلُ
وإنَّ كَبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغيرٌ إذا الْتَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَحافِلُ

والآيةُ ﴿ أفلا يَتدبَّرونَ القُرآنَ ﴾ تَحمل معنى الإنكار والتَّوبيخ للكافرين الذين لا يتفكرون في القُرآن ، ولا يتأمَّلون آياته . ولوْ نَظروا في القُرآن بِعُيون حيَّةٍ وقلوبٍ مفتوحة ، لأدْرَكوا الإعجازَ الإلهيَّ في هذا القُرآن . ومَن تفكَّرَ في القُرآن بإخلاصٍ وعِلْمٍ ، لا بُدَّ أن يَفهم الآياتِ، ويَعرف الأدلةَ القُرآنية ، والْحُجَجَ الرَّبانية ، ويُدرِك أنَّ البشر لا يَقْدِرون أن يَأتوا بِمِثْلِ القُرآن الكريم .

وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ٢٣٦) : ((والتفكر تصرُّف القلب بالنظر في الدلائل ، وهذا يَرُدُّ قَوْلَ مَن زَعم من الروافض أن القرآن لا يُفهَم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ والإمامِ المعصوم ، ويدل على صحة القياس ، وعلى بُطلان التقليد)) اهـ .

والقُرآنُ_ لأنه مِن عِند الله_ مُنَزَّهٌ عن الخطأ والتفاوُت والتناقض والكذب . كما أن كلام البشر إذا طال سيضعف مستواه اللغوي والفكري ، أمَّا القرآنُ فليس فيه إلا البلاغة والبيان ، سواءٌ كانت السورة طويلة أم قصيرة . وكلُّ آياتِ القرآن ، يُصَدِّق بعضُها بعضاً ، ولا يَهدم بعضُها بعضاً . كما أن القرآن خالٍ من الاختلاف والتعارض [95].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ٧٤١) : ((ولا يَدخل في هذا ، اختلاف مقادير الآيات والسُّوَر ، لأن المراد اختلاف التناقض والتفاوُت وعدم الْمُطابَقة للواقع ، وهذا شأن كلام البشر، لا سِيَّما إذا طال ، وتعرَّضَ قائلُه للإخبار بالغَيب ، فإنه لا يوجد منه صحيحاً مُطابِقاً للواقع إلا القليل النادر)) اهـ .

والقُرآنُ تختلف سُوَرُه وآياتُه في مقدارها والمواضيعِ التي تتحدث عنها ، والأحكامِ الواردة ، وهذا كلُّه لا علاقة له بالتناقض . إنما هو دليل إعجاز القرآن وتلاؤمه مع كل زمان ومكان رغم ما فيهما مِن مُتغيِّرات وأحوالٍ مُستجدَّة ، واختلافِ طبائع الناس وأجناسهم وبيئاتهم . والقرآنُ الذي قَدَّم الحلولَ النافعة للبشرية لأكثر من أربعة عشر قرناً ، قادرٌ أن يُقدِّم الحلولَ حتى يوم القيامة . فهو الكتابُ الإلهيُّ الكامل المعصوم المحفوظ الخالي من التناقض والأخطاء. وإذا اعتمده المسلمون دستوراً حياتياً واقعياً فإن حياتهم ستتغير للأفضل كما تغيرت حياة أسلافهم ، ولن تَصْلُحَ هذه الأُمَّةُ إلا بما صَلُحَ بِه أوَّلُها .

---

(٩٥) قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٥) : ((﴿ أفلا يَتدبَّرونَ القُرآنَ ﴾ يتأملون في معانيه ، ويتبصَّرون ما فِيه . وأصلُ التَّدَبُّر النظر في أدبار الشيء . ﴿ وَلَوْ كانَ مِن عِندِ غَيْرِ اللهِ ﴾ أي: وَلَوْ كان مِن كلام البشر كما تزعم الكفار ﴿ لَوَجدوا فِيهِ اختلافاً كثيراً ﴾ مِن تناقض المعنى ، وتفاوُتِ النَّظْم ، وكان بَعْضُه فصيحاً ، وبَعْضُه رَكيكاً ، وبَعْضُه يَصعب مُعارَضَتُه ، وبَعْضُه يَسْهُل ، ومُطابَقة بعض أخباره المستقبِلة للواقع دون بَعض ، ومُوافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض ، على ما دَلَّ عليه الاستقراء لِنُقصان القوة البشرية ، ولعلَّ ذِكْرَه ها هنا للتنبيه على أن اختلاف ما سَبق من الأحكام ، ليس لتناقض في الحُكم ، بل لاختلاف الأحوال في الحِْكَم والمصالح)) اهـ .

وقد قال النبيُّ ﷺ : ((... وإنما نَزَلَ كتابُ الله يُصَدِّق بَعْضُه بَعْضاً ، فلا تُكذِّبوا بَعْضَه بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُم مِنهُ فَقُولوا ، وما جَهِلْتُم فَكِلُوهُ إلى عَالِمِه)) [96].

وفي صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٣) : أن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال : هَجَّرْتُ ـ أي بَكَّرْتُ ـ إلى رسول الله ﷺ يوماً. قال: فسمع أصوات رَجُلَيْن اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرَف في وجهه الغضب،فقال: ((إنما هَلَكَ مَن كان قَبْلَكم باختلافهم في الكتاب)).

وهذا الاختلاف المحذور هو الاختلاف في الأصول التي لا تَقبل النقاش ، ولا تقبل الاجتهادَ بسبب كَوْنها ثوابت غير مطروحة للحوار ، ويشمل الحظرُ الاختلاف المؤدي إلى الفِتَن وتشكيكِ الناس بدِينهم ، وتأجيجِ العداوات بينهم. أمَّا الاختلاف في تفسير بعض الآيات ظَنِّية الدلالة فهذا لا يدخل في باب الاختلاف في الكتاب. فالأفهامُ تتفاوت ، ولا بد أن تختلف ، ولكن الاختلاف يكون في استنتاج الفروع من الأصول ، ولا يكون الاختلاف على الأصول .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) : ((وأما الاختلاف في استنباط فروع الدِّين منه ـ أي من القرآن ـ ، ومُناظَرة أهل العِلْم في ذلك على سبيل الفائدة ، وإظهار الحق واختلافهم في ذلك فليس مَنهِيَّاً عنه ، بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة . وقد أجمعَ المسلمون على هذا مِن عَهْدِ الصحابة إلى الآن ، والله أعلم)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلنا عَلَيْكَ كِتاباً في قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بأيديهِم لَقَالَ الذينَ كَفروا إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبين ﴾ [الأنعام : ٧] [97].

إنَّ الكافرين لَدَيهم موقف مُسبق من الإيمان ، فَهُم يَرفضونه جُملةً وتفصيلاً ، سواءٌ ظَهرت الآياتُ أم لَم تَظهَر . ومهما كانت الظروف ، هُم مُتمسِّكون بالكُفر ، وسَوْفَ يَخترعون حُجُجَاً واهيةً لعدم إيمانهم . إنهم غارقون في الجحود والعِناد والعِصيان والاستكبار .

---

(٩٦) رواه أحمد في مسنده مرفوعاً (٢/ ١٨٥) ، وحسَّنه العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٢٨٥) .

(٩٧) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٧) : ((سبب نزولها أنَّ مُشركي مكة قالوا : يا محمد واللهِ لَن نؤمن لكَ حتى تأتيَنا بكتابٍ مِن عِند الله ، وَمَعَهُ أربعة من الملائكة ، يَشهدون أنه مِن عِند الله ، وأنكَ رسولُه ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب)) اهـ .

وَلَوْ نَزَّلَ اللهُ على النبيِّ ﷺ كلاماً مَكتوباً في صَحيفة ورقية (قِرْطاس) كما اقترحَ الكافرون ، فَشَاهَدوه بأُمِّ أعينهم ، ولَمَسوه بأيديهم ، يَعني أنهم أدْرَكُوه بِحَاسَّتَي البصر واللمس ، لكي يَزول الشَّك والإشكال، ويتأكَّدوا أنه كلامُ اللهِ ، لَعَاندوا ، وواصَلوا ضلالَهم ، وتابَعوا كُفرهم ، وقالوا: إنَّ محمداً قد سَحَرَنا وخَدَعَنا ، وهذا سِحْرٌ واضحٌ وليس بحقيقة . وخُصَّ اللمسُ باليد، لأن اللمسَ أقوى دليل على العِلْم ، وأكثر بُعداً عن السِّحْر ، لأنَّ السِّحْرَ يُتَخَيَّل في المرئيِّ لا الملموس .

إنهم سَيَرفضون الدليلَ المادي المحسوس الذي رَأَوْه بأعينهم ولَمسوه بأيديهم تعنُّتاً وعِناداً، فكيفَ سيتعاملون معَ الوَحْيِ الذي يَنْزِل على النبيِّ ﷺ والوَحْيُ لا يُرى ولا يُلمَس ؟! .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٦١) : ((المعنى : وَلَوْ نَزَّلْنا يا محمد بِمَرأى مِنهم _ كما زَعموا وطَلبوا _ كلاماً مكتوباً في قِرطاس . وعن ابن عباس : كِتابا مُعلَّقاً بين السماء والأرض ، وهذا يُبَيِّنُ لكَ أنَّ التَّنْزيل على وَجْهَيْن أحدهما : على معنى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتابَ ﴾ بمعنى نُزول الْمَلَكِ بِه ، والآخَرُ : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً في قِرْطاسٍ ﴾ يُمْسِكُه اللهُ بين السماء والأرض ، وقال : ﴿ نَزَّلْنا ﴾ على الْمُبَالَغة بِطُول مُكْثِ الكتاب بين السماء والأرض)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ في قَوْله تعالى :_ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً في قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بأيديهم ﴾ ، قال : ((مَسُّوهُ ونظَروا إِلَيْهِ ، لَم يُؤمنوا به)) (98) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ حتى إذا جاؤوكَ يُجادِلُونَكَ يَقولُ الذينَ كَفروا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين (٢٥) وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ وإن يُهْلِكُونَ إلا أنفُسَهُم وما يَشْعُرون (٢٦) ﴾ [الأنعام].

لقد غَرِقَ المشركون في الجحود والتكذيب ، وبَلَغوا مِنَ الكُفر والعِناد والوقاحة أنهم جاؤوا النبيَّ ﷺ يُجادِلُونه بالباطل ، ويُخاصِمونه في الدِّين ، مُحاوِلين إقامة الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . ولم يَكتفوا بالكُفر ، بَل تهجَّموا على القُرآن ، ووصفوه بأنه خُرافات مَنقولة مِن كُتب السابقين . والمشركون لَم يُقدِّموا دليلاً واحداً على أن القُرآنَ كَذِبٌ ، وإنما اكْتَفَوا بالطعن فيه بدافع العِناد والْمُكابَرة والجهل والأهواء . والجاهلُ عَدُوُّ نفْسِه . وحُجَّتُهم الواهيةُ هي الشَّتائم ، وإلقاءُ التُّهم بلا دَليل ، وهذه حُجَّةُ الضعيف العاجز في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ . لقد اتَّهموا القُرآنَ بأنه أكاذيب مَنقولة مِن كُتب الأُمم السابقة ، لكنهم لَم يُقدِّموا دَليلاً واحداً على ذلك . فَمَثلاً ، لَم يَأتوا بالكتب السابقة لِكَي تَحْدُث المقارَنة بين القُرآن وبَيْنَها . ولوْ كانوا صادقين في دَعواهم ، لأحْضَروا كُتبَ الأُمم الماضية

(٩٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٤) برقم (٣٢٢٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

، ووضَّحوا أوْجُهَ التَّشابُه بَيْنَها وبين آياتِ القُرآن ، ونشروا ذلك بين الناس ، لِكَي يَعرِفوا أن القُرآنَ لَيْسَ وَحْياً ، وإنما كلام بشر تَمَّ نَقْلُه مِن كُتب الأقدمين . لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ . وهذا يُشير بوضوح إلى أنهم عاجزون عن مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة ، وخاضعون للعِناد والتَّعنت والتكبُّر، ويتَّبعون أهواءَهم بِغَيْر عِلْمٍ .

والدَّعاوى إنْ لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعياءُ

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٧١) : ((﴿ يَقولُ الذينَ كَفروا ﴾ يَعني قُرَيشاً . قال ابن عباس : قالوا للنَّضْر بن الحارث : ما يقول محمد ؟ قال : أرى تحريك شفتيه ، وما يقول إلا أساطير الأولين مِثْلَ ما أُحدِّثكم عن القرون الماضية . وكان النَّضْرُ صاحبَ قَصص وأسفار، سَمِعَ أقاصيص في ديار العَجَم مِثْلَ : قِصَّة رُستم وإسفنديار ، فكان يُحدِّثهم)) اهـ .

﴿ يَقولُ الذينَ كَفروا إنْ هذا إلا أساطيرُ الأوَّلين ﴾ [99]. يعني : سَطَّرَهُ الأوَّلون وَكَتبوه من أخبار الأمم . والمشكلةُ الحقيقية أن الكافرين يَضحكون على أنفسهم ويَخدعونها . والإنسانُ قَد يَخدع غَيْرَه لتحقيق مكاسب معيَّنة، أمَّا أن يَخدع نفْسَه فهذه هي الكارثة الكبرى . فاتِّهامُ القرآن بأنه أساطير الأولين، كُتِبَ من أخبار الأمم الغابرة يفتقد إلى المنطق والعقلانية. فَلَوْ كان القرآنُ كلاماً بشرياً لَمَا عَجِزَ العرب (وهُم أهل الفصاحة والبلاغة والشِّعر) عن الإتيان بِمِثْلِه. فلماذا عَجِزَ الشعراءُ والخطباءُ عن تأليف كتابٍ كالقرآن ؟!. كما أن محمَّداً ﷺ معروف للجميع بأنه

---

(٩٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩و٢٠) : ((وفِيها قَولان : أحدهما أنها مَا سُطِّرَ مِن أخبارهم وأحاديثهم.روى أبو صالح عن ابن عباس قال: أساطير الأولين: كَذِبُهم وأحاديثُهم في دَهْرِهم ... وقال ابن قُتَيبة : أساطير الأولين أخبارُهم ، وما سُطِّرَ مِنها ، أي ما كُتِبَ . والقول الثاني أن معنى أساطير الأولين التُّرَّهات . قال أبو عُبَيدة : واحد الأساطير أُسطورة وإسطارة ... قال ابن الأنباري : الترهات عند العرب طرق غامضة ومسالك مُشكِلة)) اهـ. وقال الزركشي في البرهان (١/ ١٥٧): ((قالوا : وحَيْثُما جاء في القرآن " أساطير الأولين " فقائلها النَّضْر بن الحارث بن كَلَدة ، وإنما كان يَقولها لأنه دَخل بلادَ فارس وتعلَّمَ الأخبارَ ثُمَّ جاء ، وكان يقول : أنا أُحدِّثكم أحسنَ مِمَّا يُحدِّثكم محمد، وإنما يُحدِّثكم أساطيرَ الأولين. وفيه نزل: ﴿ وَمَن قالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ ما أَنزلَ اللهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقتله النبيُّ ﷺ صَبْراً يَوْمَ بَدْر)) اهـ . قلتُ : كُل شخص يُوثَق حتى يُقتَل فقد قُتل صَبْراً .

الصادق الأمين، فمن غير المعقول أن يتحرى الصدقَ مع الناس طيلة حياته ثم يكذب على الله تعالى. أضف إلى هذا أن محمداً ﷺ كان أُمِّياً لا يَقرأ ولا يَكتب، ولم يُعرَف بأنه كان طالباً للعِلْم، أو دارساً للتاريخ واللغاتِ القديمة، أو مُطَّلعاً على تراث الحضارات السابقة ، فمن أين أتى بكل المعلومات الدقيقة في القرآن الكريم ؟!. إن هذا يدل بلا شك على أن مَصْدَرَ القرآن أعلى من مستوى البشر . وَلَوْ كان القرآن من تأليف إنسان فلماذا لم يُعرِّفْنا هذا المؤلِّف بكتابه ، أو يقول إن محمداً قد أخذه منه ؟!. مع العِلْم أن كُلَّ مُؤلِّف يَهْتَمُّ بتعريف الناس بِكُتبه ، والدعوة إلى قراءتها .

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ وإِن يُهْلِكُونَ إلا أنفُسَهُم وما يَشْعُرون ﴾ (100).

إنَّ المشركين يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباع النبيِّ ﷺ ويُبعِدونهم عنه ، ويَتباعدون هُم عَنه . وبذلك يَكونون قد مَنَعوا الناسَ مِنَ الإيمان بالنبيِّ ﷺ ومَنَعوا أنفسَهم ، فلم يَستفيدوا مِن الدعوة ، ولَم يَتركوا الناسَ يَستفيدون مِنها .

وما يُهلِكون بهذا الفِعْل القبيح إلا أنفسَهم ، حيث يُعرِّضونها للغضب الإلهيِّ ، وما يَشعرون بهذه المصيبة (إصرارهم على الكفر) التي وَقَعوا فِيها ، والتي سَتَقودُهم إلى العذاب الأبديِّ . إنهم غافلون تماماً عن مصيرهم الكارثي .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٣) : ((في معنى ﴿ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ قَولان (أحدهما) أن المراد أنهم يَنْهَوْنَ الناسَ عن اتِّباعِ الحق وتصديقِ الرسول والانقيادِ للقرآن . ﴿ ويَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي ويَبْعُدون هُم عنه ، فَيَجمعون بين الفِعْلَين القبيحَيْن ، لا يَنتفعون ، ولا يَدَعون أحداً ينتفع . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ يَرُدُّونَ الناسَ عن محمد ﷺ أن يُؤمنوا به . وقال محمد بن الحنفية : كان كفار قُرَيش لا يَأتون النبيَّ ﷺ ، ويَنْهَوْنَ عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد ، وهذا القول أظْهَر ، واللهُ أعْلَم ، وهو اختيار ابن جرير)) اهـ .

---

(١٠٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١) : ((وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ (الأولَى) قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ فِيه قَولان : أحدهما : يَنْهَوْنَ عن أذاه ، والثاني : عن اتِّباعه . والقَول الثاني أنها ترجع إلى القرآن ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . ﴿ ويَنْأَوْنَ ﴾ بمعنى يَبْعُدون، وفي هاء ﴿ عَنْهُ ﴾ قَولان أحدهما أنها راجعة إلى النبيِّ ﷺ ، والثاني إلى القرآن)) اهـ .

والقَولُ الثاني هو أن الآية نزلت في أبي طالب ، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : في قَوْل الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾، قال: ((نَزلت في أبي طالب، كان يَنهَى المشركين أن يُؤذوا رسولَ الله ﷺ ، ويَتباعَد عمَّا جاءَ به))(101).

وأبو طالب (عَم النبيِّ ﷺ) لَم يُسْلِم ، وهذا الأمرُ ثابت . ففي الحديث الصحيح أنه لَمَّا حَضرت أبا طالب الوفاةُ ، جاءه رسولُ الله ﷺ ، فَوَجَدَ عِندَهُ أبا جَهْل بن هشام وعبد الله بن أُمَيَّة ابن المغيرة . قال رسول الله ﷺ لأبي طالب : ((يَا عَم ، قُل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لكَ بها عند الله)) . فقال أبو جهل وعبد الله بن أُمَيَّة : يا أبا طالب ، أترغبُ عَن مِلَّةِ عبد المطلب ، فلم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عَلَيْهِ ، ويَعُودان بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخِرَ مَا كَلَّمهم ، هو على مِلَّةِ عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله (102).

والمعنى أن أبا طالب قد اقتربت دلائل وفاته ، ولم يَصِلْ إلى مرحلة الْمُعايَنة والنَّـزْع ، ففي هذه المرحلة لا يَنفع الإيمان ولا معنى له . قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوبةُ للذينَ يَعْمَلونَ السَّيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ الموْتُ قالَ إنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النِّساء : ١٨] .

والجديرُ بالذِّكر أن عبارة " حتى قال أبو طالب آخِرَ مَا كَلَّمهم ، هو على مِلَّةِ عبد المطلب " ، تحمل ضمير الغَيبة " هُوَ " ، وليس " أنا " ، وذلك اسْتِقْباحاً من الراوي لهذه العبارة ، فلم يُرِدْ أن يَنقلها بلسان الْمُتكلِّم . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ٢١٤) : ((فهذا من أحسن الآداب والتصرفات، وهو أنَّ مَن حكى قَوْلَ غَيْرِه القبيح ، أتى به بضمير الغَيبة ، لِقُبح صُورة لفظه الواقع)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُل لا أسألُكُم عَلَيْهِ أجْراً إنْ هُوَ إلا ذِكرى للعالَمين ﴾[الأنعام : ٩٠].

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَأخذ أجراً على دَعوته ، ولا يَطْلب مالاً مِنَ الناس مُقابِل تبليغه للقُرآنِ ، ولا يُريد مِنهم شَيئاً ، كما أنه ﷺ لا يُوَظِّف دَعْوَتَه للحصول على المنافع الدُّنيوية ، والمناصب الرفيعة ، والسيادةِ على القبائل.

---

(١٠١) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٥) برقم (٣٢٢٨) ، وصحَّحه الذهبي .

(١٠٢) متفق عليه . البخاري (١/ ٤٥٧) برقم (١٢٩٤) ، ومسلم (١/ ٥٤) برقم (٢٤) .

إِنَّهُ رسولُ اللهِ يُبَلِّغ كلامَ اللهِ إلى عباده بلا زيادة ولا نقصان، وعملُ النبيِّ ﷺ إنما هُوَ لِوَجْهِ اللهِ تعالى ، يَقوم بِه بكل إخلاص وإتقان. والقُرآنُ مَوعظةٌ للإنس والجن ، وتَذكيرٌ لهم ، وليس مشروعاً مادياً ، أو صَفقة تجارية ، أو وَجاهة عشائرية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٠٨) : ((أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إيَّاكم هذا القرآن أجراً ، أي أُجرة ، ولا أُريد منكم شَيئاً . ﴿ إِنْ هُوَ إلا ذِكرى للعالَمين ﴾ ، أي يتذكرون به فيرشدون من العمى إلى الهدى ، ومن الغَي إلى الرَّشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ أفغَيْـرَ اللهِ أبتغي حَكَماً وَهُوَ الذي أنزلَ إلَيْكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً والذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالحقِّ فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرين ﴾[الأنعام : ١١٤][103].

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين: أفغيرَ اللهِ أطلبُ حاكماً وقاضياً، يَحكمُ بَيْني وبَيْنَكم ، وهو الذي أنزلَ إلَيكم القُرآنَ الْمُعجِز مُبَيَّناً فيه الْحُكْم ، حيث اتَّضح الحقُّ والباطل ، وظَهر الحلالُ والحرام ، وبانَ الهدى والضلال.وعلماءُ اليهود والنصارى يَعْلَمون أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ وأنَّ محمداً رسول الله، وذلك بما عِندَهم من العِلْم ، حيث إنَّ وَصْفَ محمد ﷺ موجود في التوراة والإنجيل ، فلا تَكُونَنَّ يا محمد مِنَ الشَّاكين في حقيقة القُرآن الذي هُوَ كلامُ اللهِ المعصومُ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ٦٣) : ((والمعنى : أفغيرَ اللهِ أطلبُ لكم حاكِماً ، وهو الذي كفاكم مُؤنةَ المسألة في الآيات بما أنزله إلَيكم مِن الكتاب الْمُفصَّل، أي الْمُبَيَّن . ثُمَّ قِيل : الْحَكَم أبلغُ مِنَ الحاكم ، إذْ لا يستحق التسمية بِحَكَم إلا مَن يَحكم بالحق ، لأنها صِفةُ تعظيمٍ في مدح ، والحاكمُ صِفة جارية على الفِعل ، فقد يُسمَّى بها مَن يَحكم بِغَير الحق)) اهـ .

---

(١٠٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/ ١١٠):((سبب نزولها أن مُشركي قُرَيش قالوا للنبيِّ ﷺ: اجْعَلْ بَيْننا وبَيْنَك حَكَماً ، إنْ شِئتَ مِن أحبار اليهود وإن شِئتَ مِن أحبار النصارى لِيُخبرنا عَنكَ بما في كتابهم مِن أمرك ، فَنَزلت هذه الآية ، ذَكَره الماوردي ... ﴿ والذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ ﴾ فِيهم قَولان: أحدهما علماء أهل الكتابَيْن ، قاله الجمهور. والثاني رؤساء أصحاب النبيِّ ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأشباههم ، قاله عطاء)) اهـ .

﴿ فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرين ﴾ . الخطابُ الإلهيُّ للنبيِّ ﷺ، حيث نهاهُ اللهُ عن الشَّك ، وهذا من باب التَّهييج . وقد يَكون المقصودُ أُمَّته ، لأنَّ النبيَّ معصوم مِن الشك . والمرادُ بهذه الآية إعلام الكُفار بأنَّه حَق ، وتقرير هذا المعنى في نفوسهم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٤) : ((﴿ فلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرين ﴾ في أنهم يَعْلَمون ، أو في أنَّه مُنَزَّلٌ ، لِجُحود أكثرهم وكُفرهم بِه ، فيكون من باب التهييج ، كَقَوله تعالى : ﴿ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشرِكين ﴾ ، أو خِطاب الرسول ﷺ لِخطاب أُمَّته . وقِيل : الخِطاب لكل أحد على معنى أن الأدلة لَمَّا تعاضَدَتْ على صِحَّته ، فلا يَنبغي لأحد أن يَمتريَ فيه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ فَمِنْهُم مَن يَقولُ أيُّكُم زادَتْهُ هَذِهِ إيماناً فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٤].

إذا أنزلَ اللهُ سُورةً مِن سُوَرِ القُرآنِ على رسوله محمد ﷺ ، فَمِنَ المنافقين مَن يَقول استهزاءً وسُخريةً : أيُّكم زادَتْهُ هذه السُّورةَ تَصديقاً باللهِ وآياتِه . والمنافقون إنما يُخاطِبُون إخوانَهم لِيُثَبِّتوهم على النِّفاق، أو يُخاطبون ضُعفاءَ المؤمنين لكي يُخرِجوهم من الإيمان إلى الكفر . وقد فَضَحَهم اللهُ، وكَشَفَ باطلَهم .

ويأتي الرَّدُّ الإلهيُّ الواضح : فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم يَقيناً وتَصديقاً وثباتاً وخَشيةً، ويَفرحون بِنُزول القُرآن، لأنه يَشتمل على المنافع الدينية والدُّنيوية ، وهو مَصْدَرُ سعادتهم في الدُّنيا والآخِرة . كما أنَّ زِيادةَ التكليف دليلُ التشريف .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٠) : ((﴿ فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيماناً ﴾ بِزيادة العِلْم الحاصل مِن تدبُّر السُّورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم . ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون ﴾ بِنُزولها ، لأنها سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن الآية : ﴿ فأمَّا الذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيماناً ﴾ دليلٌ واضح على أن الإيمان يَزيد ويَنقُص . وما جازَ عليه الزيادة ، جازَ عَلَيهِ النُّقصان .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ فزادَتْهُم رِجْساً إلى رِجْسِهِم وماتوا وَهُم كافرون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٥].

يُوَاصِلُ القُرآنُ صَعْقَ المنافقين وإفحامَهم وفَضْحَهم . فكما أن السُّورة مِنَ القُرآن تَزيد المؤمنين إيماناً ، فكذلك تَزيد المنافقين شَكّاً إلى شَكِّهم .

وأمَّا الذينَ في قلوبهم شَكٌّ وريبةٌ ونِفاق ، فزادَتْهُم شَكَّاً إلى شَكِّهم ، وكُفراً إلى كُفرهم ، وإثماً إلى إثمهم ، وكُلما نَزلتْ سُورةٌ كَفروا بِها ، وكلما كَفَروا بِسُورةٍ ازدادَ كُفْرُهم ، وسيطرَ الكُفرُ على قلوبهم ، إلى أن يَموتوا عَلَيْهِ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١١٣): ((﴿ وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ ﴾ أي: كُفْرٌ وسُوءُ عَقيدة، ﴿ فزادَتْهُم رِجْساً إلى رِجْسِهِم ﴾ أي: كُفراً بها(بالسُّورة) مَضموماً إلى الكفر بِغَيرها ، وعقائد باطلة ، وأخلاقاً ذميمة كذلك)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥١٨) : ((وفي المراد بالرِّجْس ثلاثة أقوال : أحدها الشَّك ، قاله ابن عباس. والثاني : الإثم ، قاله مُقاتِل . والثالث : الكفر ، لأنهم كُلما كَفروا بِسُورةٍ زَادَ كُفْرُهم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ نظرَ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُم مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم بأنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهون ﴾ [التَّوْبة : ١٢٧] .

لقد فَضَحَ اللهُ المنافقين . فإذا أُنزِلَت سُورةٌ مِنَ القُرآن ، فإن قلوبهم تضطرب وتشمئز رافضةً لنور الحق، فهم ينظرون إلى بعضهم البعض مُتلفِّتين من أجل الهروب من حقيقة القُرآن ، والفِرار من مجلس النبيِّ ﷺ ، فلا يريدون الاستماع إلى القرآن الكريم ، لذلك يَفِرُّونَ مِنه وينصرفون عنه ، لأن الخفافيش لا تطيق ضوءَ النهار.وَلَو استقر الإيمانُ في قلوبهم لاحتضنت كلامَ الله تعالى وتَدَبَّرَتْه، ولكنَّ القرآنَ لا يمكن أن يستقر في قلب نجس غير نظيف . فالأزهارُ لا تنبت في المزابل . لقد صَرَفَ اللهُ قلوبهم عن الإيمان والخير والهدى بسبب خُبثهم . لقد خَذَلهم اللهُ بسبب أفعالهم الدنيئة ، وأغلقَ أمامَهم بابَ الهداية ، فَهُم قَوم لا يَفهمون آياتِ اللهِ ، ولا يَتدبَّرونها .

والآيةُ تَكشف تصرُّفاتِ المنافقين المستندة إلى الخداع والرياء ، وتَفضح مخططاتهم الشريرة التي لا يَحكمها وازعٌ دِيني ولا دافعٌ أخلاقي ، لأن أمانيهم محصورة في الحياة الدنيا دون التفكر في الحساب بعد الموت . فالتخندقُ في المصلحة الذاتية الآنية الزائلة يجعلهم لا ينظرون إلى ما وراء الأحداث بعينٍ إيمانية ، وهذا أدى إلى وجود البصر في اصطياد الأزمات مع غياب تام للبصيرة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨١) : ((﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سُورةٌ نظرَ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ ﴾ تغمَّزوا بالعُيون إنكاراً لها وسُخريةً ، أو غَيظاً لِمَا فيها مِن عُيوبهم . ﴿ هَلْ يَراكُم مِن أَحَدٍ ﴾ أي: يقولون : هَل يراكم أحد إن قُمتم مِن حضرة الرسول ﷺ ، فإن لَم يَرَهم أحد قاموا ، وإن يَرَهم أحد

أقاموا . ﴿ ثُمَّ انصَرَفوا ﴾ عن حضرته مخافة الفضيحة . ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم ﴾ عن الإيمان وهو يَحتمل الإخبار (عَنهم) والدعاء (عليهم) . ﴿ بأنهم ﴾ بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لا يَفْقَهون ﴾ لِسُوء فَهمهم أو لعدم تدبُّرهم)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٧٢) : ((أخبرَ اللهُ ــ سُبحانه وتعالى ــ في هذه الآية أنه صارفُ القلوبِ ومُصَرِّفُها وقَالِبُها ومُقَلِّبُها ، رَدَّاً على القَدَرِيةِ في اعتقادهم أن قلوبَ الخلق بأيديهم ، وجوارحَهم بِحُكْمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ، ويَحكمون بإرادتهم واختيارهم)) اهـ . وعن أبي العالية قال : كنتُ أطوفُ معَ ابن عباس بالبَيت ، فكان يأخذ بِيَدِي ، فَيُعَلِّمُني لَحْنَ الكلام ، فقال : ((يا أبا العالية، لا تَقُلْ: انصَرَفْتُم مِنَ الصلاة ، ولكنْ قُل : قَضَيْتُم الصلاةَ ، فإنَّ اللهَ تعالى يَقول : ﴿ انصَرَفوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم ﴾)) [104].

واللحْنُ هو الخطأُ في الكلام . ومن الواضح أن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ يَرفض كلمةَ الانصراف في هذا السياق ، مُحْتَجَّاً بالآية الكريمة ، ويَرى استخدام كلمة القضاء . وفي لسان العرب (١٣/ ٣٧٩) : ((قال أَبو عُبَيْد : وإنما سَمَّاهُ لَحْناً ، لأَنَّه إِذا بَصَّره بالصواب ، فقد بَصَّره اللَّحْن)) اهـ. وعن أُبَيِّ بن كَعْب أنهم جَمعوا القُرآنَ في المصاحف في خلافة أبي بكر ــ رحمه الله ــ وكان رِجالٌ يَكتبون، ويُمْلِي عليهم أُبَيٌّ، فلمَّا انتهَوْا إلى هذه الآيةِ مِن سُورة براءة : ﴿ ثُمَّ انصَرَفوا صَرَفَ اللهُ قُلوبَهُم بأنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهون ﴾ ، فظنوا أن هذا آخِرُ ما نزل من القرآن ، فقال لهم أُبَيُّ ابن كعب : ((إنَّ رسول الله ﷺ أَقْرَأني بَعْدَها آيتَيْن ، ...)) [105].

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفترى مِن دُونِ اللهِ ولكنْ تصديقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وتفصيلَ الكتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ العالَمين ﴾ [يُونُس : ٣٧] [106].

إنَّ القُرآنَ كتابُ اللهِ الْمُعْجِزُ ، المشتمِلُ على الْحُجَجِ الباهرة ، والبراهين الساطعة ، والأدلة الواضحة ، ولا يَقْدِرُ الإنسُ والجنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِه ، بسبب فصاحته ، وبلاغته،وإخباره بالأمور الغَيبية، وتقديمه للحلول الواقعية التي تُنقِذ الإنسانَ والمجتمعَ من المشكلات الوجودية والأزمات

---

(١٠٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٦٨) برقم (٣٢٩٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠٥) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٤): ((رواه عبد الله بن أحمد ، وفيه محمد بن جابر الأنصاري وهو ضعيف)) اهـ .

(١٠٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٣٢): ((قَوْله تعالى: ﴿ وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفتَرى مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، قال الزَّجاج : هذا جوابُ قَوْلِهم : ﴿ ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أوْ بَدِّلْهُ ﴾[يُونُس : ١٥])).

الحضارية. لذلك مِن غَير المعقول أن يَكون هذا القُرآنُ كلامَ بَشَرٍ، فقد عَجزَ فُصحاءُ العربِ_ وقد نَزَلَ بِلُغتهم _ أن يَأتوا بِمِثْلِه أو بِسُورةٍ مِنه . وهذا دليلٌ واضح على أن القُرآنَ كلامُ اللهِ ، ولا يُشبِه كلامَ البشر. وإذا كانَ العربُ عاجزين عن تحدِّي القُرآنِ، وهو بِلُغتهم، فَغَيْرُهم أكثرُ عَجْزاً .

والقُرآنُ كلامُ اللهِ ، أنزلَهُ على النبيِّ محمد ﷺ ، ولَيْسَ بِشِعْرٍ ولا كِهانةٍ ولا سِحْرٍ ، وهذا تكذيبٌ للمُشركين ، وإفحامٌ لهم . وما كانَ هذا القُرآنُ لِيَخْتَلِقَهُ أحدٌ مِن دُونِ الله ، لأنَّ القُرآنَ فوق قُدرة الإنس والجن وإمكانياتهم العقلية واللغوية.وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٥٤٩): ((هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بِمِثْلِه، ولا بِعَشْر سُوَر ، ولا بِسُورة مِن مِثْلِه ، لأنه بِفَصاحته ، وبلاغته ، ووَجازته ، وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا تكون إلا من عند الله الذي لا يُشْبِهُه شيء في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامُه لا يُشبِه كلامَ المخلوقين ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفترى مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، أي : مِثْلُ هذا القرآن لا يَكون إلا مِن عِندِ الله ، ولا يُشبِه هذا كلامَ البشر)) اهـ .

﴿ ولكنْ تصديقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ . إنَّ القُرآنَ يُصَدِّقُ الكُتبَ السماويةَ التي قَبْلَهُ كالتَّوراة والإنجيل وغَيْرِهما ، وهو الحاكمُ عَلَيها، والكاشفُ لِمَا أصابها من التحريف والتغيير. وهذا التَّصديقُ بحدِّ ذاته مُعجِزةٌ ، ويدل على صِدْقِ النبيِّ ﷺ . إذْ إنَّ مُوافَقة القُرآنِ لِمَا في الكُتب السابقة دليلٌ على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ لا كلامُ محمد ﷺ ، فالنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولم يَطَّلع على الكتب السابقة ، ولم يَدرس الأديانَ وتاريخَ الأمم ، ولم يتَّصل بعلماء اليهود والنصارى ، فَمِن أينَ جاءَ بهذه المعلومات الدقيقة في القُرآن ؟ . إنَّهُ الوَحْيُ السماويُّ الكاملُ والمعصوم .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٣٢): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ ولكنْ تصديقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أنه تصديق الكتب المتقدِّمة ، قاله ابن عباس . فعلى هذا إنما قال الذي لأنَّه يُريد الوَحْيَ. والثاني: ما بين يديه مِن البَعث والنُّشور، ذَكَره الزَّجاج. والثالث: تصديق النبيِّ ﷺ الذي بَيْنَ يَدَي القرآن، لأنهم شاهَدوا النبيَّ ﷺ،وعرفوه قبل سماعهم القرآن، ذَكَره ابن الأنباري)).

﴿ وتفصيلَ الكتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَبِّ العالَمين ﴾ . والمعنى : ما بُيِّنَ في القُرآن من العقائد والشرائع والأحكام والحدود والفرائض والحلال والحرام، لا شَكَّ في القُرآن أنَّهُ وَحْيٌ مِن عِندِ الله.

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٤٩٨) : ((﴿ وتفصيلَ الكتابِ ﴾ يعني : تفصيل المكتوب من الوعد لِمَن آمَنَ، والوعيد لِمَن عصى. ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شَكَّ في نزوله مِن عِندِ رَبِّ العالَمين)).

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ٣٩) : ((أخرجَ ابنُ أبي شَيبة والدَّارمي والتِّرمذي وضعَّفه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مَرْدَوَيْه والبَيهقي في شُعب الإيمان عن عليٍّ قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : " سَتُكونُ فِتَنٌ " ، قلت : وما الْمَخْرَجُ مِنها ؟ ، قال : " كتاب الله ، فيه نبأُ ما قَبْلَكم ، وخَبَرُ ما بَعْدَكم ، وحُكْمُ ما بَيْنَكم ، هُوَ الفَصْلُ ، وليس بالْهَزْلِ ، وهو حَبْلُ اللهِ الْمَتينُ ، وَهُوَ ذِكْرُه الحكيمُ ، وهو الصِّراطُ المستقيم)) .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبوا بما لَم يُحيطوا بِعِلْمِهِ ولَمَّا يَأتِهِم تأويلُهُ ﴾ [يُونُس : ٣٩] .

لقد كَذَّبَ المشركون بالقُرآنِ أوَّلَ ما سَمعوه ، فلم يَعرِفوا دلالاتِ ألفاظه ، ولَم يتفكَّروا في مَعانيه . لقد سارَعوا إلى تكذيبه بدافع الأهواء الشخصية ، والتقليد الأعمى ، والحفاظِ على دِين الآباء الهالكين . وَلَوْ كانوا حريصين على معرفة الحق ، لَسَألوا عن ألفاظِ القُرآن ، ودَرَسوا مَعانيه ، وبَعْدَ ذلك يُقرِّرون الدخولَ في الإسلام أو البقاء على الكفر . لكنَّ الجاهلَ عَدُوُّ نفْسِه ، والناسَ أعداءُ ما يَجْهَلون . وقد كانت الْمُسارَعةُ في تكذيب القُرآن دليلاً على جَهْلِهِم ، وعجزهم عن إعمال عُقولهم ، وعدم قُدرتهم على مُقارَعة الْحُجَّة بالْحُجَّة .

وصدقَ القائلُ :

لن يَسمعَ الأحمقُ مِن واعظٍ	في رَفْعِهِ الصَّوْتَ وفي هَمْسِهِ
لن تَبْلُغَ الأعداءُ مِن جَاهلٍ	ما يَبْلُغُ الجاهلُ مِن نَفْسِهِ
والْحُمْقُ دَاءٌ مَا لَهُ حِيلةٌ	تُرجَى كَبُعْدِ النَّجْمِ في لَمْسِهِ

﴿ ولَمَّا يَأتِهِم تأويلُهُ ﴾ . لَم يَعْلَم المشركون ما تَؤول إلَيه عاقبةُ أمرهم ، ولم تأتهم عاقبة الكُفر والتكذيب ، وهذه العاقبةُ هي العذاب . أوْ : لَم يَقفوا على تفسير الآياتِ ، أوْ : لَم يَعرفوا تأويلَ الأخبار الغَيبية في القُرآن ، حتى يَظهر لهم أنَّه صِدْقٌ أو كذب .

والمعنى العام : إنَّ تكذيبهم بالقُرآن جاءَ مُتسرِّعاً بلا نظرٍ ولا بصيرة ، وقد كَفروا قبل أن يَعلموا حقيقةَ القُرآن. وهذا يعني أنهم اتَّخذوا القرارَ قبل دراسة الآيات، وتدبُّر مَعانيها ، وتأويل ما

فِيها مِنَ الأخبار والأحكام . وهذه عادة الْجُهَّال والْمُعانِدِين في كل زمان ومكان ، حيث إنهم يُسارِعون إلى الإنكار والجحود قبل النظر والتأمل والدراسة .

قال ابن الجوزي في زاد المسير(٤/ ٣٣) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبوا بما لَم يُحيطوا بِعِلْمِهِ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أن المعنى : بما لَم يُحيطوا بِعِلْمِ ما فِيه مِن ذِكْر الجنة والنار والبعث والجزاء ، والثاني : بما لَم يَحيطوا بِعِلْمِ التكذيب به ، لأنهم شَاكُّون فِيه . وفي قَوْلِه : ﴿ ولَمَّا يَأتِهِم تأويلُهُ ﴾ قَولان : أحدهما تصديق ما وُعِدوا بِه مِنَ الوعيد ، والتأويل ما يَؤول إليه الأمر . والثاني : ولَم يَكُنْ مَعَهُم عِلْمُ تأويلِه ، قاله الزَّجاج . قِيل لِسُفيان بن عُيَينة : يقول الناسُ : كُلُّ إنسانٍ عَدُوُّ ما جَهِلَ ، فقال : هذا في كتاب الله ، قِيل : أين ؟ ، فقال : ﴿ بَلْ كَذَّبوا بما لَم يُحيطوا بِعِلْمِهِ ﴾)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ كِتابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ بِإذْنِ رَبِّهِم إلى صِراطِ العزيزِ الحميدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

إنَّ القُرآنَ أنزلَهُ اللهُ على النبيِّ ﷺ لِيُخرِجَ الناسَ مِن ظُلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلْمِ والإيمان ، بتوفيق اللهِ لهم ورَحمته بِهم ، إلى طريقِ اللهِ القاهرِ الغالب الذي لا يُغلَب ، المحمودِ في أقواله وأفعاله. وفي الآيةِ تَبْرز حقيقتان لا بُدَّ مِن ذِكْرِهما : الأُولى ـ تَنكير لفظة ﴿كِتابٌ ﴾ لتعظيمِ شأن القُرآنِ ، وتفخيمِ أمْرِه ، ورَفْعِ مكانته . والثانية هي أن الإنسان لا يَحصل على الهداية بذكائه ومهاراته الشخصية ، بَل يَحصل عَلَيها بإذن اللهِ وتَوفيقه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٨٧) : ((﴿كِتابٌ أنزَلْناهُ إلَيْكَ ﴾ أي : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها ، عَرَبِهم وعَجَمِهم . ﴿ لِتُخْرِجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ ﴾ أي : إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لِتُخرِجَ الناسَ مِمَّا هُم فيه مِنَ الضلال والغَي إلى الهدى والرُّشد ... وقَوْلُه : ﴿ بِإذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي : هُوَ الهادي لِمَن قَدَّرَ له الهدايةَ على يَدَي رسوله المبعوث عن أمره ، يَهديهم ﴿ إلى صِراطِ العزيزِ ﴾ أي العزيز الذين لا يُمانَع ولا يُغالَب ، بَل هُوَ القاهر لِكُلِّ مَا سِواه. ﴿ الحميدِ ﴾ أي : المحمودِ في جميع أفعاله ، وأقواله ، وشَرْعِه ، وأمْرِه ، ونَهْيِه، الصادقِ في خَبَرِه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ المثاني والقُرآنَ العظيمَ ﴾ [الحِجْر : ٨٧].

لقد أنزلَ اللهُ على النبيِّ ﷺ سُورةَ الفاتحة (السَّبْع المثاني) وسائرَ القُرآنِ. وامتنَّ على رسوله ﷺ بِسُورة الفاتحة ، وخصَّها بالذِّكْر لإظهار عَظَمتها وفضيلتها ، ولِكَوْنها تشتمل على أصول

الإسلام، فقد وُضعت في كَفَّة وسائرُ القُرآن في كَفَّة . كما امتنَّ اللهُ على رسوله بجميع القُرآنِ العظيمِ. وسُمِّيَت سُورة الفاتحة " مثاني" لأنها تُثَنَّى ، يعني تُكرَّر في كل صلاة ، حيث إنها تُقرَأ في كل ركعة .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٦٢٣) أن النبيَّ ﷺ قال عن أعظمِ سُورةٍ في القُرآن :((﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ هِيَ السَّبْعُ المثاني ، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه)) .

والسَّبْعُ المثاني هي سُورة الفاتحة ، حيث إنَّ عددَ آياتِها سَبْعُ آيات ، تُثَنَّى قراءتها (تُكرَّر) في كل ركعة .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٣ ـ ٤١٥) : ((وفي المراد بالسَّبْع المثاني أربعة أقوال : أحدها أنها فاتحة الكتاب ، قاله عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن مسعود في رواية وابن عباس في رواية الأكثرين عنه وأبو هريرة والحسن وسعيد بن جُبَير في رواية ومجاهد في رواية وعطاء وقتادة في آخرين ، فعلى هذا إنما سُمِّيت بالسَّبْع لأنها سبع آيات. وفي تسميتها بالمثاني سبعة أقوال : أحدها لأن الله استثناها لأُمَّة محمد ﷺ ، فلم يُعطِها أُمَّةً قَبْلَهم ، رواه سعيد بن جُبَير عن ابن عباس. والثاني لأنها تُثَنَّى في كل ركعة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس، قال ابن الأنباري : والمعنى : آتيناكَ السَّبْع الآيات التي تُثَنَّى في كُل ركعة ، وإنما دَخلت " مِنَ " للتوكيد ... وقال ابن قُتَيبة : سُمِّيَت " الحمدُ " مثاني ، لأنها تُثَنَّى في كل صلاة . والثالث لأنها ما أُثْنِيَ بِهِ على الله تعالى ، لأن فيها حَمْدَ الله وتوحيدَه وذِكْرَ مملكته ، ذَكَره الزَّجاج. والرابع لأن فيها الرحمن الرحيم مَرَّتين ، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي عن بعض اللغويين ، وهذا على قَول مَن يَرى التَّسمية منها . والخامس لأنها مَقسومة بَيْنَ الله تعالى وبين عَبْده [107]، ... والسادس لأنها نزلت

(١٠٧) في صحيح مسلم (١/ ٢٩٦) : عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ : ((مَن صَلَّى صَلاةً لَم يَقرأ فيها بأُمِّ القرآن ، فهي خِداجٌ ثلاثاً (يعني نُقصان) غَيْرُ تَمام)) ، فَقِيل لأبي هريرة : إنَّا نكون وَراءَ الإمام، فقال : اقرأ بها في نفْسِك ، فإني سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((قال اللهُ تعالى : قَسَمْتُ الصلاةَ بَيْني وبَيْنَ عَبدي نِصْفَيْن ، وَلِعَبدي ما سَأل، فإذا قال العبدُ: ﴿ الحمد لله رب العالَمين ﴾ ، قال اللهُ تعالى: حَمِدَني عَبدي، وإذا قال: ﴿ الرحمنِ الرحيم ﴾ ، قال اللهُ تعالى : أثنَى عليَّ عَبدي ، وإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ، قال : مَجَّدَني عَبدي ، (وقال مَرَّةً : فَوَّضَ إليَّ عَبدي) ، فإذا قال: ﴿ إيَّاك نعبد وإياك

مَرَّتين ، ذَكَره الحسين ابن الفضل ، والسابع لأنَّ كلماتِها مُثَنَّاة ، مِثْل : الرحمن الرحيم ، إيَّاك إيَّاك ، الصراط صراط ، عليهم عليهم ، ذَكَره بعض المفسِّرين . ومِن أعظمِ فضائلها أنَّ الله تعالى جَعَلها في حَيِّز ، والقرآنَ كُلَّه في حَيِّز ، وامتنَّ عَلَيهِ بها ، وامتنَّ عَلَيهِ بِالقرآن كُلِّه ...)) اهـ. وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : ــ ﴿ ولقدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ المثاني ﴾ ، قال : ((فاتحة الكتاب))[108]. ووَفْقَ هذا التفسير ، يَكون سببُ تسمية سورة الفاتحة بالمثاني ، لأنها تُثَنَّى ، أي تُكرَّر في كل صلاة . وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال : ((أُوتِيَ رَسولُ الله ﷺ سَبْعاً مِنَ المثاني والطُّوَل ، وأُوتِيَ مُوسى سِتّاً)) [109]. وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : في قَوْله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ: ﴿ ولقدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ المثاني والقُرآنَ العظيمَ ﴾ ، قال : ((البقرة ، وآلُ عِمران ، والنِّساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، وسُورةُ الكهف))[110]. وهذه السُّوَرُ هي السَّبْعُ الطُّوَل ، لِطُولها على سائر سُوَرِ القُرآن . وَوَفْقَ هذا التفسير يَكون سببُ تسمية هذه السُّوَر بالمثاني ، لأن العِبَرَ والأحكامَ والحدودَ ثُنِّيَتْ فِيها ، يعني كُرِّرَت . وقِيل : السَّبْعُ المثاني هي أقسام القُرآن : الأمر ، والنَّهْي ، والبِشارة ، والإنذار ، وضَرْبُ الأمثال، وتعداد النِّعَم ، وأخبارُ الأُمَم ، قاله زياد بن أبي مريم [انظر زاد المسير ٤/٤١٤].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٤و٤١٥) : ((... المثاني القرآن كُلُّه ، قاله طاووس والضَّحاك وأبو مالك ، فعلى هذا في تسمية القرآن بالمثاني أربعة أقوال : أحدها لأن بعض الآيات يَتلو بعضاً فَتُثَنَّى الآخِرة على الأُولَى ، ولها مقاطع تَفْصِلُ الآيةَ بعد الآية حتى تنقضيَ السورةُ ، قاله أبو عُبَيدة . والثاني أنه سُمِّيَ بالمثاني لِمَا يَتردَّد فيه مِنَ الثَّناء على الله ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ والثالث : لِمَا يَتردَّد فيه مِن ذِكْر الجنة والنار والثواب والعقاب ، والرابع : لأن الأقاصيص والأخبار والمواعظ والآداب ثُنِّيَتْ فيه ، ذَكَرَهُنَّ ابنُ الأنباري . وقال ابنُ قُتَيبة : قد يكون المثاني سُوَرَ القرآنِ كُلِّه قِصارها وطِوالها ، وإنما سُمِّيَ " مثاني " لأن الأنباء والقَصَص تُثَنَّى فِيه ، فعلى هذا

نستعين ﴾ ، قال : هذا بَيْني وبَيْنَ عَبدي ، وَلِعَبدي ما سَأل، فإذا قال: ﴿ اهدنا الصراطَ المستقيم صِراطَ الذين أنعمتَ عَلَيهم غَيْرِ المغضوبِ عَلَيهم ولا الضَّالِّين ﴾ ، قال : هذا لِعَبدي ، وَلِعَبدي ما سَأل)) .

(١٠٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٨٢) برقم (٣٠١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٠٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨٦) برقم (٣٣٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨٦) برقم (٣٣٥٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

القول ، المراد بالسَّبْع سَبْعةُ أسباع القرآن ، ويكون في الكلام إضمار تقديره ، وهي القرآن العظيم ، فأمَّا قَوْلُه في المثاني ، ففي " مِنَ " قَولان : أحدهما أنها للتَّبعيض ، فيكون المعنى : آتيناك سَبعاً مِن جُملةِ الآيات التي يُثنَى بِها على الله تعالى وآتيناكَ القرآنَ ، والثاني أنها للصِّفة فَيَكون السَّبْعُ هِيَ المثاني)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بالحقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنوا وهُدىً وبُشرى للمُسلمين ﴾[النَّحْل : ١٠٢].

قُلْ يا مُحمَّد للمشركين الذين يَعتقدون أن القُرآنَ كلامُ بَشَرٍ : نَزَّلَ القُرآنَ جِبريلُ مِنَ اللهِ بالصِّدْقِ والعَدْل لِيُثَبِّتَ اللهُ المؤمنين بِما فِيه مِنَ الْحُجَج والآيات،وتقويةً لإيمانهم، فتترسَّخ عقائدُهم، وتطمئِن قلوبُهم، وهُدىً مِنَ الضَّلال، وبِشارةً للمسلمين الذين اسْتَسْلَموا للهِ وانصاعوا لأوامره . وكما أنَّ القُرآنَ هو التَّثبيت والهِداية والبِشارة للمُسلمين ، فَعَكْسُ هذه الصفات تَكون لِغَير المسلمين . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٠) : ((﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ ﴾ يعني جبريل _ عليه الصلاة والسلام _ . وإضافةُ الرُّوحِ إلى القُدُس، وهو الطُّهْر ، كَقَولهم : حاتم الجود ... و﴿ نَزَّلَهُ ﴾ تنبيه على أنَّ إنزالَه مُدَرَّجاً على حَسَبِ المصالح بما يقتضي التبديل)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿ولقدْ صَرَّفْنا في هذا القُرآنِ لِيَذَّكَّروا وما يَزيدُهُم إلا نُفُوراً﴾[الإسراء : ٤١].

لقد بَيَّنَ اللهُ في القُرآن للمُشركين العِبَرَ والْحُجَجَ والمواعظَ والأمثالَ والترغيبَ والترهيبَ والوَعْدَ والوعيدَ ، لِيَتَّعِظوا ويتفكَّروا ، ويَعْرِفوا قُبْحَ الكُفر وسُوءَ عاقبته ، ويُدرِكوا عَظَمَةَ الإيمانِ والنعيمَ الذي وَراءَه ، وما يَزيدهم هذا البَيانُ الإلهيُّ إلا هُروباً من الحق ، وابتعاداً عن الإيمان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٧و٣٨) : ((معنى التصريف هاهنا التَّبيين ، وذلك أنه

إنما يُصَرِّفُ القَوْلَ لِيُبَيِّنَ ... والتَّذكر الاتِّعاظ والتَّدبُّر ، وما يَزيدهم تصريفُنا وتذكيرُنا إلا نُفوراً . قال ابن عباس : يَنْفِرُون مِنَ الحق ، ويتَّبعون الباطلَ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنينَ ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَسَاراً ﴾ [الإسراء : ٨٢].

إنَّ القُرآنَ شِفاءٌ للقلوب، يُطَهِّرُها مِن الجهل والشَّك والنِّفاق والكفر، فهو دَواءُ كُلِّ مُؤمنٍ من الأمراض المعنوية ، وأيضاً هو دواء لكثيرٍ من الأمراض المادية وذلك بالرُّقية والتَّعوُّذ ، ورحمةٌ للمُؤمنين ، يَقرؤونه ويَعملون به ، فيحصلون على جنَّةِ الدُّنيا وجَنَّةِ الآخِرة معاً. ولا يَزيد القُرآنُ

المشركين إلا ضَلالاً وهلاكاً ، بسبب كُفرهم بِه ، وعدمِ انتفاعهم بمواعظه وأحكامه ، فكُلما نَزلت آيةٌ كَفروا بِها ، فازدادوا كُفراً إلى كُفرهم ، وضلالاً إلى ضلالهم .

وقال ابنُ الجوزي في زاد المسير (٥/ ٧٩) : ((﴿ مِنَ ﴾ هاهنا لبيان الجِنْس ، فجميعُ القرآن شِفاء ، وفي هذا الشِّفاء ثلاثة أقوال : أحدها شِفاء مِنَ الضلال لِمَا فيه من الهدى ، والثاني : شِفاء مِنَ السَّقَم لِمَا فيه من البركة ، والثالث : شِفاء مِنَ البَيان للفرائض والأحكام)) اهـ .

إنَّ القُرآنَ كُلَّهُ شِفاء . ومَن بَحَثَ عن شِفائه في القُرآن وَجَدَه وصار سليماً مُعافَى ، ومَن لَم يَسْتَشْفِ بالقُرآنِ فسيظل مريضاً طِيلة حياته . والقُرآنُ هو الشِّفاءُ الأكيد للأرواح والأبدان ، ولا يحتاج إلى تجريب أو دليل . كما قالَ الشاعر :

وليْسَ يَصِحُّ في الأَذْهانِ شَيْءٌ إذَا احتاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ

وعن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ قال : نَزَلْنا مَنْزِلاً ، فأتَتْنا امرأةٌ ، فقالت : إنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَليمٌ لُدِغَ ، فهل فِيكم مِن رَاقٍ ؟ ، فقام مَعَها رَجلٌ مِنَّا ما كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقيةً ، فَرَقاه بفاتحةِ الكتاب فَبَرَأَ ، فأعْطَوْهُ غَنَماً ، وسَقَوْنا لَبناً ، فَقُلنا : أكنتَ تُحسنُ رُقيةً ؟ ، فقال : ما رَقَيْتُهُ إلا بفاتحة الكتاب . قال : فقلتُ : لا تُحرِّكوها حتى نأتِيَ النبيَّ ﷺ ، فأتَيْنا النبيَّ ﷺ ، فَذَكَرْنا له ذلك ، فقال : ((ما كان يُدريه أنها رُقية ؟ ، اقْسِمُوا ، واضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُم))[111] .

لقد لُدِغَ سَيِّدُ الْحَيِّ (شيخ العشيرة) ، فراحَ قَوْمُه يَبحثون له عن علاج . وكلمة " سليم" إنما هي للتَّفاؤل بسلامته . وجاءت امرأةٌ تَبحث عَن رَاقٍ يَقرأ على سَيِّدِ الْحَيِّ ، فقامَ رَجُلٌ غير مَشهور بهذا الأمر ، ولم يَظُن أصحابُه أنَّه يُحسِن الرُّقيةَ . فقرأ على اللديغ سُورةَ الفاتحة على نِيَّة الشِّفاء ، فَشَفاه اللهُ تعالى . ولم يُحرِّكوا الغنمَ (أُجرة الرُّقية) حتى يَسألوا النبيَّ ﷺ عَن حُكْمِ هذه الحالة . فأعلَمَهم النبيُّ ﷺ بِجَوازِ الرُّقية ، وجَوازِ أخذ الأجرة عَلَيها .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ١٨٨): ((قَوْلُه ﷺ :"ما أدراك أنها رُقية ؟" فيه التصريح بأنها رُقية ، فَيُسْتَحَب أن يُقرَأ بها على اللديغ والمريض ، وسائر أصحاب الأسقام والعاهات . قَوْلُه ﷺ : " خُذوا مِنهم واضْرِبوا لي بسهم معكم " هذا تصريح بجواز أخذ الأجرة على الرُّقية بالفاتحة والذِّكْر ، وأنها حلال لا كراهة فيها ، وكذا الأجرة على تعليم القرآن ، وهذا مذهب الشافعي ومالك وأحمد وإسحاق وأبي ثَور ، وآخرين مِنَ السَّلف ومَن بَعْدَهم ، ومنعها أبو

---

(١١١) متفق عليه.واللفظ لمسلم(٤/ ١٧٢٧)برقم(٢٢٠١).والبخاري(٤/ ١٩١٣)برقم(٤٧٢١).

حنيفة في تعليم القرآن ، وأجازها في الرُّقية . وأمَّا قَوْلُه ﷺ : " واضربوا لي بسهم معكم " ، وفي الرواية الأخرى : " اقسموا واضربوا لي بسهم معكم " فهذه القِسمة من باب المروءات والتبرعات ومُواساة الأصحاب والرِّفاق ، وإلا ، فجميع الشِّياه مِلْكٌ للراقي مختصة به ، لا حق للباقين فيها عند التنازع ، فقاسَمَهم تبرُّعاً وجُوداً ومُروءة . وأمَّا قَوْلُه ﷺ : " واضربوا لي بسهم " ، فإنما قاله تطييباً لقلوبهم ، ومُبالَغةً في تعريفهم أنه حلال لا شُبهة فيه)) اهـ .

وفي الحديث أنَّ أُوَيْسَاً القَرَنِيَّ قرأ : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ ورحمةٌ للمُؤمنينَ ولا يَزيدُ الظالمينَ إلا خَسَاراً ﴾ ، فقال : ((لَم يُجالِسْ هذا القرآنَ أحدٌ إلا قامَ عَنهُ بزِيادةٍ أو نقصان، فقضاءُ اللهِ الذي قَضى شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ، ولا يَزيد الظالمين إلا خساراً)) (112).

والقُرآنُ حُجَّةٌ للإنسان أو عَلَيهِ ، إمَّا أن يَقوده إلى الجنة ، وإمَّا أن يَقوده إلى النار. وكما قِيل :

وَرُبَّ تالٍ تَلا القُرآنَ مُجتهِداً بَيْنَ الخلائقِ والقرآنُ يَلْعَنُهُ

وقال اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] (113).

لَو اجتمعَ الإنسُ والجِنُّ وتعاوَنوا معاً ، من أجل تأليفِ كتاب كالقُرآنِ الْمُعْجِز الموصوفِ بالفَصاحة والبلاغة ، وجَزالة اللفظ ، وكمال المعنى ، وكشف الأمور الغَيبيَّة ، لَفَشِلوا في ذلك ، ولوْ كان بعضُهم لبعض عَوْناً ونصيراً ، لأنَّ القُرآنَ فوق قُدرات المخلوقين . واللهُ تعالى لَم يَقُل: لا يَأتون بِهِ ، وإنما قال : ﴿ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ ، وهذا أقوى في التعبير ، لأنه يَعني أنهم عاجزون عَن الوصول إلى أيِّ صِفة مِن صِفات القُرآن ، ولا يَستطيعون الوصول إلى أيِّ وَجْه مِن وُجوه إعجاز القُرآن. ومَن كانَ عاجزاً عن الإتيان بالجزء ، فهو أكثر عَجزاً عَن الإتيان بالكُلِّ . إنهم عاجزون عن الاقتراب مِنَ مُستوى القُرآن ، فكيفَ يَصِلُون إلى مُستواه ؟ .

---

(١١٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٧) برقم (٣٣٨٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١١٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٨٤) : ((قال المفسِّرون : هذا تكذيب للنَّضْر بن الحارث حين قال : لَوْ شِئنا لَقُلنا مِثْلَ هذا ، والْمِثْلُ الذي طُلب مِنهم كلام له نَظْم كَنَظْم القرآن ، في أعلى طبقات البلاغة)) اهـ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٥) : ((﴿ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وفِيهم العرب العَرباء ، وأرباب البَيان،وأهل التحقيق... ﴿ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾ ولوْ تظاهَروا على الإتيان بِه . ولعلَّه لَم يَذكر الملائكة لأنَّ إتيانَهم بِمِثْلِه لا يُخرجه عَن كَونه مُعجِزاً ، ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه)) اهـ . وقال السُّيوطي في لُباب النُّقول (١/ ١٣٥) : ((أخرجَ ابنُ إسحاق وابنُ جرير من طريق سعيد أو عِكْرِمة عن ابن عباس قال : " أتى النبيَّ ﷺ ابنُ مِشْكَم في عَامَّةٍ مِنَ اليهود ــ سَمَّاهم ــ،فقالوا: كيف نتَّبعك وقد تركتَ قِبْلَتنا [114]، وإنَّ هذا الذي جِئْتَ بِه لا نَراهُ مُتناسِقاً كما

---

(١١٤) عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: ((أول ما نُسخ من القرآن فيما ذُكر لنا شأن القِبلة، قال الله : ﴿ ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثمَّ وجهُ الله ﴾ [البقرة: ١١٥]. فاستقبل رسولُ الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس ، وترك البيتَ العتيق ، فقال الله تعالى : ﴿ سيقول السُّفهاءُ من الناس ما ولاهم عن قِبلتهم التي كانوا عليها ﴾ [البقرة : ١٤٢]. يَعْنُون بيت المقدس ، فَنَسَخَتْهَا، وصَرَفه الله إلى البيت العتيق ، فقال الله تعالى :﴿ ومِن حيثُ خرجتَ فَوَلِّ وجهكَ شَطْرَ المسجد الحرام وحيثُ ما كنتم فَوَلُّوا وجوهَكم شَطْرَه ﴾ [البقرة : ١٥٠])) [رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٤) برقم (٣٠٦٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .]. وحادثةُ تحويل القِبلة ثابتةٌ في القرآن الكريم بحيث إن منكرها يَكْفر لتكذيبه كلام الله تعالى ، أي تكذيب نَص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة . فقد تم تحويل القِبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام لحِكَم إلهية عديدة وجليلة . منها أن اللهَ تعالى أراد تحقيق رغبة نبيِّه ﷺ في التوجه إلى البيت الحرام . واللهُ تعالى قادر على جعل البيت الحرام القِبلة الأولى دون عملية تحويل ، لكنه أراد الربط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام بحيث لا ينفصلان في عقيدة المؤمن ، كما أن حادثة تحويل القِبلة كانت اختباراً حقيقياً لعقائد الناس ، بحيث أظهرت الثابتين على الإسلام، وأظهرت أصحاب العقيدة المضطربة الضعيفة ، وأبرزت ما في قلوب أعداء الأمة الذين يريدون أية حادثة لكي يُزعزعوا عقائد المؤمنين ، ويُشكِّكوا فيها ، في محاولة يائسة منهم لصرف الناس عن الإسلام . = =ولا يَخفى أن الامتحان هو الكاشف عن عقائد الناس ، وسلوكهم ، وصمودهم أو انهيارهم . قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٤٤): ((أعلم اللهُ تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام إلى الكعبة : ﴿ ما ولاهم ﴾ . وسيقول بمعنى قال. جعل المستقبَلَ موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول . وخَصَّ بِقَوله : ﴿ من الناس ﴾ لأن السَّفَه يكون في جمادات وحيوانات . والمراد من السفهاء جميع من قال: ﴿ ما ولاهم ﴾ ، والسفهاء جمع. واحده سفيه ، وهو الخفيف العقل)) اهـ . والردُّ القرآني يجيء

تناسقُ التَّوراةِ، فأنزِلْ عَلَينا كتاباً نَعْرِفُه وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ، فأنزل اللهُ : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ﴾ _ الآية _ ")) اهـ .

إنَّ اليهودَ يُجادِلون بالباطل ، فقد جَعلوا سببَ كُفرهم أنَّ النبيَّ ﷺ تركَ التَّوَجُّهَ في صلاته إلى بَيْتِ المقدس ، وصارَ يتوجَّه إلى الكعبة ، وهذه حُجَّةٌ داحضة ، لأنَّ اليهودَ لَم يُؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أثناءَ تَوَجُّهه إلى بيت المقدس ، وأيضاً بَيت المقدس قِبْلةُ المؤمنين لا قِبلة اليهود الكافرين . أمَّا زَعْمُ اليهود أن القُرآن يَفتقد إلى التناسق ، فهذا زَعْمٌ باطل ، لأنَّ العربَ أهلُ الفصاحة والبلاغة والشِّعر اعترَفوا بتناسق القُرآن وعَظَمَتِه، ولم يَقْدِروا على الإتيان بِمِثْلِه وهو بِلُغتهم، وذلك بسبب إعجازه. وكُلُّ الكُتب السماوية مُتناسِقة ، والتَّوراةُ كِتابُ اللهِ الذي أنزلَه على مُوسى ﷺ مُتناسِق ، أمَّا الكتاب الذي بين اليهود فهو التَّوراة الْمُحرَّفة ، وهي كلامٌ بشريٌّ غير مُتناسِق . ولوْ كانَ اليهودُ حريصين على التَّوراة لَمَا حرَّفوها ، ولَمَا كَفروا بالقُرآن . إذ إنَّ كُلَّ الكُتب السماوية مَصْدرها واحد . ولوْ كانوا صادقين في انتسابهم إلى مُوسى ﷺ لَمَا كَفروا بمحمد ﷺ ، لأنَّ دِينَ الأنبياء واحدٌ ، وهو الإسلام (الدِّين الوحيد المقبول عِند اللهِ) . ﴿ إنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسْلامُ ﴾ [آل عِمران : ١٩]. أمَّا قَوْلُ اليهود: " فأنزِلْ عَلَينا كتاباً نَعْرِفُه وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ". فهذه دَعوى عريضة، ومُجرَّد كلام . فَمَن يَعْلَم حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلَم ، والجاهلُ لا يَحكم على العالِم . واليهودُ كَفروا بالتَّوراةِ (الأصلية) والإنجيلِ والقُرآنِ . وقد كان عُلماءُ اليهود يَعْرِفون الحقَّ. وفي كُتبهم وَصْفُ النبيِّ محمد ﷺ الذي كانوا يَعْرِفُونه حقَّ المعرفة ، ويتوقَّعون ظُهورَه في أيِّ وَقْت. فلماذا كَفروا بالقُرآنِ ومحمدٍ ﷺ الموجود في التَّوراة ؟. أمَّا قَوْلُهم : " وإلا جِئناكَ بِمِثْلِ ما تَأتي بِه ". فالقُرآنُ هُوَ الْمُعجِزة الخالدة التي تَحَدَّتْ فُصحاءَ العرب، ولوْ كان اليهودُ صادقين لألَّفوا كتاباً مِثْلَ

حاسماً لكل المسائل ، وقاطعاً لكيد أعداء الإسلام ، وفاضحاً لهم . إذ إن ترك المنحرفين ينشرون باطلَهم دون إيقافهم عند حَدِّهم من شأنه تدمير المجتمع الإنساني ، وسيادة الفسقة والكافرين على الناس، وقيادتهم للأمور الحياتية، وهذا سيؤدي إلى اجتثاث الخير ، وتفشِّي الشر . فالقرآنُ يُؤسِّس منهجَ الرد على المخالِفين ، وفضح انحرافهم ، وإقامة الْحُجَّة عليهم ، ورد كيدهم في نحورهم .والمراد بالسفهاء هم اليهود. [قال الحافظ في الفتح (٨/ ١٧١) : ((واختلف في المراد بالسفهاء. فقال البراء ... وابن عباس ومجاهد : هم اليهود . وأخرج ذلك الطبري عنهم بأسانيد صحيحة))].

القُرآنِ أو يتفوَّق على القُرآن، وهذا لم يَحْدُث، لأنهم بَيَّاعو كلامٍ. وكما قِيل : أسمعُ جَعْجَعةً (صَوْت الرَّحى) ، ولا أرى طَحْناً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وبالحقِّ أنزَلْناهُ وبِالحقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥].

أنزلَ اللهُ القُرآنَ بالدِّينِ القويم والأمرِ الثابت ، فَفِيه العدلُ والخير والأخلاق الحميدة ، وبذلكَ نزلَ على محمد ﷺ ، مَحفوظاً من الزيادة والنقصان . والقُرآنُ حَق ، ونزولُه حق ، وآياتُه حَق.

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٩٤) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وبالحقِّ أنزَلْناهُ وبِالحقِّ نَزَلَ ﴾ ، هذا مُتَّصل بما سَبق مِن ذِكْر الْمُعجزات ... ووجهُ التكرير في قَوله : ﴿ وبِالحقِّ نَزَلَ ﴾ يجوز أن يكون معنى الأول: أوْجَبْنا إنزالَه بالحق ، ومعنى الثاني : ونَزَلَ وفِيه الحق ، كَقَوله : خَرج بثيابه أي وعَلَيه ثيابُه . وقِيل : الباء في ﴿ وبِالحقِّ ﴾ الأوَّل ، بمعنى " مع " أي : معَ الحق ، كَقَولك : رَكِبَ الأمير بِسَيفه ، أي معَ سَيفه . ﴿ وبِالحقِّ نَزَلَ ﴾ أي : محمد ﷺ ، أي : نَزَلَ عَلَيهِ ، كما تقول : نزلتُ بِزَيد ، وقِيل : يَجوز أن يكون المعنى : وبالحقِّ قَدَّرْنا أن يَنْزِل ، وكذلكَ نَزَلَ)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى:﴿وقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأهُ على الناسِ على مُكْثٍ ونَزَّلْناهُ تَنْزيلاً﴾[الإسراء: ١٠٦].

أحكمَ اللهُ القُرآنَ وبَيَّنه ، ووضَّح آياتِه ، فلا لَبْسَ فِيه ولا غموض ، وفَرَقَ بين الحق والباطل. وأنزلَ اللهُ القُرآنَ مُفرَّقاً مُنَجَّماً ، ولم يَنْزِلْ مَرَّةً واحدة . نَزَلَ مِنَ اللوحِ المحفوظ إلى السماء الدُّنيا ثُمَّ نَزَلَ مُفرَّقاً حَسَبَ الوقائعِ إلى النبيِّ ﷺ في عشرين سَنة ، لِيَتْلُوَهُ على الناس على مَهَلٍ بِترتيل وتَثَبُّت وتوضيح الألفاظ وإظهار المعاني، وهذا أسهل للفهم والحفظ. ﴿ ونَزَّلْناهُ تَنْزيلاً ﴾ أي: شَيئاً بعد شيء . ولوْ نَزَلَ القُرآنُ مَرَّةً واحدةً لَهَرَبَ الناسُ بسبب ثِقَلِ الآياتِ وكثرةِ الأحكام .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٩٦): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وقُرْآناً فَرَقْناهُ ﴾. قرأ عليٌّ عليه السلام وسعد بن أبي وقاص وأُبَي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وأبو رَزين ومجاهد والشَّعبي وقتادة والأعرج وأبو رجاء وابن مُحَيْصِن " فَرَّقْناه " بالتشديد ، وقرأ الجمهور بالتخفيف _ يعني: ﴿ فَرَقْناهُ ﴾ _ . فأمَّا قراءة التخفيف ففي معناها ثلاثة أقوال : أحدها : بَيَّنا حَلالَه وحَرامَه ، رواه الضَّحاك عن ابن عباس ، والثاني : فَرَقْنا فِيه بين الحق والباطل ، قاله الحسن . والثالث : أحْكَمْناه وفَصَلْناه ... وأمَّا المشدَّدة فمعناها أنه أُنزِلَ مُتفرِّقاً ، وَلَم يَنْزِلْ جُملةً واحدةً)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال: ((نَزَلَ القُرآنُ جُملةً إلى السَّماء الدنيا ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذلك في عِشرين سنة . وقال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿ ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾ [الفُرْقان : ٣٣] . قال : ﴿ وقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأهُ على الناسِ على مُكْثٍ ونَزَّلْناهُ تَنْزيلاً ﴾))(115).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عَبْدِهِ الكِتابَ ولم يَجْعَل لَهُ عِوَجاً ﴾ [الكَهْف: ١].

أثنى اللهُ على نفْسِه ، فلهُ التعظيمُ الكامل ، والتَّمجيدُ الْمُطْلَق ، والثناء التام، حيث إنَّهُ أنعمَ على محمد ﷺ وخَصَّه بالنُّبُوَّة والرِّسالة ، وشَرَّفَه بإنزال القُرآنِ عَلَيْهِ ، فكانَ القُرآنُ نِعمةً عَلَيهِ وعلى جميع الناس . وسَمَّى اللهُ محمداً ﴿ عَبْدِهِ ﴾ ، ولوْ كانَ للنبيِّ ﷺ اسمٌ أشرف مِنه لَسَمَّاهُ اللهُ بِه. والعِبادةُ أشرف الخِصال،والتَّسَمِّي بِها أعظم المنازل، وأعلى الحالات،والفخرُ الحقيقي بالعبودية للهِ، وأشرفُ الأسماء ما أضافه اللهُ تعالى إلى ذاته العَلِيَّة،وأعظم الصفات هُوَ الاسم الذي يَدُلُّ على اللهِ. وهذا يتحقق في كلمة ﴿ عَبْدِهِ ﴾ . كما قال القائلُ :

يا قَوْمُ قَلْبي عِندَ زَهراء ... يَعْرِفُهُ السامعُ والرائي
لا تَدْعُني إلا بِيَا عَبْدَها ... فإنَّهُ أشرفُ أسْمائي

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٤) : ((﴿ الحمدُ للهِ الذي أنزلَ على عَبْدِهِ الكِتابَ ﴾ ، يعني القرآن . رَتَّبَ استحقاقَ الحمد على إنزاله ، تنبيهاً على أنَّه أعظم نَعمائه ، وذلك لأنه الهادي إلى ما فيه كَمال العباد ، والدَّاعي إلى ما به يَنتظم صلاحُ المعاش والمعاد)) اهـ .

﴿ ولم يَجْعَل لَهُ عِوَجاً ﴾ . لَم يَجعل اللهُ في القُرآنِ انحرافاً ولا اختلافاً كاختلال اللفظ أو تنافُر المعنى ، بَل جَعله كاملاً مَعصوماً مستقيماً مُعتدِلاً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قَيِّماً لِيُنذِرَ بأساً شديداً مِن لَدُنْهُ ويُبَشِّرَ المؤمنينَ الذينَ يَعْمَلونَ الصالحاتِ أنَّ لَهُم أجْراً حَسَناً ﴾ [الكَهْف : ٢].

إنَّ القُرآنَ مستقيم ، لا عَيْب فِيه ولا تناقض . والكلامُ فِيه تقديم وتأخير . والمعنى : أنزلَ اللهُ على عبده القُرآنَ قَيِّماً (مستقيماً لا إفراط فِيه ولا تفريط) ولم يَجعل له عِوَجاً ، لِيُنذِرَ بهذا القُرآن الكافرين عُقوبةً عاجلة في الدُّنيا وعذاباً أبَدِيَّاً في الآخِرة مِن عِند الله تعالى ، ويُبَشِّرَ المؤمنين الذينَ

(١١٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٩) برقم (٣٣٩٠) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَعملون الطاعات، أنَّ لهم الجنةَ خالدين فِيها. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧٥): ((﴿ قَيِّماً ﴾ مُستقيماً مُعتدِلاً، لا إفراط فِيه ولا تفريط، أو ﴿ قَيِّماً ﴾ بمصالح العباد ، فيكون وَصْفاً له بالتكميل ، بعد وَصْفه بالكمال ، أو على الكتب السابقة يَشهد بصِحَّتها)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فإنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقينَ وتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدَّاً ﴾ [مريم : ٩٧].

لقد يَسَّرَ اللهُ القُرآنَ باللسان العربيِّ الفَصيح (لِسان محمد ﷺ) لِيَسْهُلَ فَهْمُه وحِفْظُه ، وجعله سَهلاً وواضحاً لكلِّ مَن تفكَّر في ألفاظه ، وتَدَبَّرَ مَعانيه ، وذلكَ لِكَي يُبشِّرَ النبيُّ ﷺ المؤمنين الذينَ اتَّقَوْا عذابَ اللهِ بأداء الطاعات واجتناب المعاصي ، بنعيمِ الجنة الأبديِّ ، ويُنذِرَ بالقُرآنِ قَوماً شديدي الخصومةِ والجِدالِ بالباطل ، وهُم كُفار مكة .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٥٨) : ((﴿ وتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً ﴾ شِدَاداً في الْخُصُومة . جمع (الأَلَد) . وقال الحسن : صُمَّاً في الحق . قال مجاهد : (الأَلَد) : الظالم الذي لا يستقيم . قال أبو عبيدة : (الألد) الذي لا يَقبل الحق ويَدَّعي الباطل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما أنزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ٢][116].

لَم يُنْزِلِ اللهُ القُرآنَ على النبيِّ ﷺ لِيُدَمِّرَ حياتَه ، ويَقودَه إلى التعب والشقاء والهلاك . فالقُرآنُ مَصْدَرُ الرحمة ، وأساس السعادة . وقد كانَ المشركون يَنظرون إلى اجتهاد النبيِّ ﷺ في العبادة ، وشِدَّةِ صَبْرِه ، وقُوَّةِ احتماله ، فيعتقدون أن القُرآنَ هو سبب تعب محمد وشقائه . وقد كَذَّبهم اللهُ تعالى . فالقُرآنُ نَزَلَ على محمد ﷺ لِيَسْعَد ، ويحصل هُوَ وأُمَّتُه على سعادة الدنيا ونعيمِ الآخِرة .

وعن عليٍّ ــ رضي اللهُ عنه ــ قال: ((كانَ النبيُّ ﷺ يُرَاوِحُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ ، يَقوم على كُلِّ رِجْلٍ ، حتى نزلت : ﴿ ما أنزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ﴾))[117].

---

(١١٦) في زاد المسير (٥/ ٢٦٨و٢٦٩) ثلاثة أقوال في سبب نزولها : ((أحدها أنَّ رسول الله ﷺ كان يُرَاوِحُ بين قَدَمَيه، يقوم على رِجل، حتى نزلت هذه الآية . قاله عليٌّ عليه السلام . والثاني أن رسول الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ عَلَيهِ القرآنُ صَلَّى هو وأصحابُه فأطال القِيام، فقالت قُرَيش : ما أنزلَ اللهُ هذا القرآنَ على محمد إلا لِيَشْقَى،فَنَزلت هذه الآية،قاله الضَّحاك. والثالث أنَّ أبا جَهْل، والنَّضْرَ بن الحارث، والْمُطْعِمَ بن عَدِيٍّ، قالوا لرسول الله ﷺ : إنَّكَ لَتشقى بِتَرْكِ دِيننا ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مُقاتِل)) .

(١١٧) رواه البزّار في مسنده (٣/ ١٣٦) . وحسَّنه السُّيوطيُّ في الدُّر المنثور (٥/ ٥٤٩) .

لقد رَفَعَ القُرآنُ قَدْرَ محمد ﷺ ، وجعله قائداً للبشرية ، وجعلَ المؤمنين سادةَ الناس في الدُّنيا والآخِرة. والقُرآنُ هُوَ مَنبع المعرفةِ والعِلْم،ومَن آتاهُ اللهُ العِلْمَ فقد أرادَ بِهِ خَيراً. وقد قالَ النبيُّ ﷺ: ((مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين))(118). وهذا يُشير إلى فضيلة العِلْم ، وأهميةِ التَّفقُّه في الدِّين ، وضرورة طلب العِلْم (منبع التَّقوى).وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩): ((والمعنى : ما أنزلنا عليك القرآن لِتَتعب بِفَرْطِ تأسُّفك على كُفر قُرَيش إذْ ما عليك إلا أن تُبلِّغ ، أو بكثرة الرياضة وكثرة التَّهجد والقيام على ساق.والشقاء شائع بمعنى التعب...وقِيل: رَد وتكذيب للكفرة فإنهم لَمَّا رَأَوْا كثرةَ عِبادته قالوا : إنك لَتشقى بِترك دِيننا ، وإن القرآن أُنزِلَ عليك لِتَشقى بِه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إلا تَذْكرةً لِمَن يَخشَى ﴾ [طه : ٣].

لَم يُنْزِل اللهُ القُرآنَ إلا مَوعظةً لأصحاب القلوب الحيَّةِ ، الذين يتأثَّرون بالآياتِ ، ويَخْشَوْنَ ربَّهم ، ويَخافون عِقابَه وعذابَه ، وهؤلاء هُم المؤمنون .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٩١) : ((وقال قتادة : ﴿ ما أنزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى ﴾. لا واللهِ ما جعله شَقاء ، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلا إلى الجنة . ﴿ إلا تَذْكرةً لِمَن يَخشَى ﴾ . إنَّ اللهَ أنزلَ كِتابَه، وبعثَ رَسولَه رحمةً ، رَحِمَ بِها عبادَه ، ليتذكر ذاكر ، وينتفع رَجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذِكْر أنزل اللهُ فِيه حَلالَه وحَرامَه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ تَنْزيلاً مِمَّن خَلَقَ الأرضَ والسماواتِ العُلى ﴾ [طه : ٤] .

هذا القُرآنُ الذي جاءَ بِهِ محمد ﷺ ، أنزلَه اللهُ الذي خلقَ الأرضَ والسماواتِ العالية .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٩١) : ((أي : هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تَنْزيل مِن رَبِّكَ رَبِّ كُلِّ شيء ومَليكِه ، القادرِ على ما يشاء ، الذي خلق الأرضَ بانخفاضها وكثافتها ، وخلق السمواتِ العُلى في ارتفاعها ولطافتها)) اهـ .

وعن ابن مسعود ــ رضي اللهُ عنهــ أنَّه قال : ((ما بَيْنَ السماءِ الدُّنيا والتي تَلِيها مَسيرةُ خمس مئة عام ، وما بَيْنَ كُلِّ سماء مسيرة خمس مائة عام ، وما بين السماء السابعة والكرسيِّ مسيرة خمس مئة عام ، وما بين الكرسيِّ والماء مسيرة خمس مئة عام ، والعَرْش على الماء ، واللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ على العَرْش ، يَعلم ما أنتم عَلَيْهِ))(119).

---

(١١٨) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٩) برقم (٧١) ، ومسلم (٢/ ٧١٨) برقم (١٠٣٧) .

(١١٩)رواه الطبراني في الكبير(٩/ ٢٠٢).وقال الهيثمي في المجمع(١/ ٢٦١):((رجاله رجال الصحيح)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْناهُ قُرآناً عربياً وصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الوَعيدِ لعلهم يَتَّقونَ أوْ يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً ﴾ [طه : ١١٣] .

أنزلَ اللهُ القُرآنَ باللغةِ العربيةِ الفُصحَى لِيَسْهُلَ فَهْمُه وحِفْظُه ، وبَيَّنَ ما فِيه مِن الإنذار والتَّخويف والعذاب والنعيم ، وعِقاب الأُمم الكافرة ، وكرَّر آياتِ الوَعيد، لعلهم يَخافون اللهَ فَيُطيعونه، ويَبتعدون عَن المعاصي ، أوْ يُحْدِث لهم القُرآنُ عِظَةً وعِبْرةً ، فيأخذون الدُّروس من عذاب الأُمم الكافرة ، ولا يُكرِّرون أفعالَهم ، بَل يتركون الكُفرَ ، ويَعتنقون الإسلام (الخلاص الأبديَّ) . والعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيْره ، والجاهلُ مَن اتَّعظَ بنفْسه .

وقال القرطبي في تفسيره(١١/ ٢٢٢): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وكذلكَ ﴾ أي : كما بَيَّنا لكَ في هذه السُّورة مِنَ البيان فكذلك جَعلناه ﴿ قُرآناً عربياً ﴾، أي لغة العرب.﴿ وصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الوَعيدِ﴾ أي : بَيَّنا ما فِيه مِنَ التَّخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لعلهم يَتَّقونَ ﴾ أي : يخافون اللهَ فيجتنبون مَعاصيه ويَحذرون عِقابه . ﴿ أوْ يُحْدِثُ لَهُم ذِكْراً ﴾ أي : موعظة . وقال قتادة : حَذَراً وَوَرَعاً . وقِيل : شَرَفاً ، فالذِّكْر هاهنا بمعنى الشَّرْف ، كَقَوْلِه : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزُّخرُف : ٤٤] . وقِيل : أي لِيَتَذَكَّروا العذابَ الذي تُوُعِّدوا به)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ مِن قَبْلِ أن يُقضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[طه : ١١٤].

إنَّ اللهَ تعالى يُعلِّم رَسولَه محمداً ﷺ كَيْفَ يتلقَّى الوَحْيَ . وقد كانَ النبيُّ ﷺ يَقرأ القُرآنَ أثناءَ قراءة جِبريل ــ عليه السلام ــ ، من شِدَّة حِرْصِه على حِفْظِ القُرآن ، وخَوفاً مِن نِسيانه ، فنهاهُ اللهُ عن الاستعجال ، وأعْلَمَهُ بضرورة الإنصات حتى يَنتهيَ جِبريلُ ــ عليه السلام ــ مِن القراءة . فإذا فَرَغَ جِبريلُ ــ عليه السلام ــ من قراءة القُرآن على النبيِّ ﷺ ، فعندئذٍ يَقرؤه النبيُّ ﷺ ، وهكذا يَزول التعارُض والْمُقاطَعة ، ويترسَّخ فَهْمُ القُرآنِ وحِفْظُه في قلب النبيِّ ﷺ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٢٥و٣٢٦) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ ﴾ في سبب نزولها قَوْلان : أحدهما أنَّ جِبريلَ كان يأتي النبيَّ ﷺ بالسُّورةِ الآيِ فيتلوها عليه، فلا يَفْرُغ جِبريلُ مِن آخِرِها حتى يتكلم رسولُ الله ﷺ بأوَّلها مخافة أن يَنساها ، فَنَزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أن رَجلاً لَطَمَ امرأتَه فجاءت إلى رسول الله ﷺ تطلب القِصاص فجعل رسولُ الله ﷺ بينهما القِصاصَ ، فَنَزلت هذه الآية ، فوقف رسولُ الله ﷺ حتى نَزل قَوْلُه تعالى :

﴿ الرجالُ قَوَّامون على النساء ﴾[النساء: ٣٤]، قاله الحسن البصري ... . قَوْلُه تعالى : ﴿ مِن قَبْلِ أن يُقضَى إلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ . وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال : أحدها : لا تَعْجَلْ بِتِلاوته قبل أن يَفْرُغ جِبريلُ مِن تِلاوته تخاف نِسيانَه ، هذا على القَول الأول. والثاني: لا تُقْرِئْ أصحابَكَ حتى نُبَيِّنَ لك مُعَايَنةً ، قاله مجاهد وقتادة. والثالث: لا تسأل إنزالَه قَبْلَ أن يأتيَك الوَحْيُ، ذَكَره الماوردي)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلْ قالوا أضغاثُ أحلامٍ بَلِ افتراهُ بَلْ هُوَ شاعرٌ فَلْيَأتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ [الأنبياء : ٥] .

يَكشفُ اللهُ عِنادَ الكافرين وتناقضَهم وَضَلالَهم. فَهُم في حَيْرةٍ مِن أمرهم ، تائهون بلا بوصلة، ضائعون في متاهة أهوائهم وأفكارِهم الْمُتضارِبة . أذهانُهم مُشتَّتةٌ ، ولَيْسَ لهم رأي واحد . فقد قالوا عن القُرآن إنَّهُ أخلاطُ أحلامٍ كالتي تأتي في المنام ، وأباطيلُ وهمية لا حقيقة لها . ولم يستقروا على هذا الرأي، وانتقلوا إلى رأي آخَر، وهو أن القُرآنَ كلامٌ مُخْتَلَق جاءَ بِهِ محمد مِن تِلقاء نفْسه، وأيضاً عارَضُوا أنفسَهم ، وانتقَلوا إلى رأي جديد ، وهو أنَّ محمداً شاعرٌ ، والقُرآنَ شِعْرٌ يُخيَّل للسامع أنَّهُ كلامٌ حقيقيٌّ ، وإنَّما هو خيالات لا حقيقة لها .

لقد كَذَّبوا أنفسَهم بأنفسهم، واحتاروا في أمرِ القُرآنِ، فاضطَرَبَت أقوالُهم الواهية، وتعارَضت أفكارُهم الباطلةُ. وحتَّى الكُفْر لم يتَّفقوا عَلَيه. لقد اعتَبروا القُرآنَ تخاليطَ أحلامٍ، ومُفْتَرَى، وشِعْراً . ولا رابطَ منطقياً بين هذه الأشياء ، ولَم يَعترِفوا بأنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ أنزلَه على النبيِّ ﷺ .

وزَعْمُ الكافرين بأنَّ القُرآنَ أضغاثُ أحلامٍ، كلام ساقط ، لأنَّ الأحلام الْمُختلِطة في المنام خليط من الخيالات والأوهام والكوابيس ولا رَابط بينها . أمَّا القُرآنُ فهو كلامٌ واضح يَشتمل على الْحُجَجِ المنطقية التي تُخاطِب العقلَ ، ويُقدِّم البراهينَ المتماسكة التي تُصيب كَبِدَ الحقيقة .

وَزَعْمُ الكافرين أن القُرآنَ مِن تأليف محمد ، كلامٌ لا وَزْنَ له ، فالنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولم يُعرَف أنَّه كان طالبَ عِلْمٍ . والنبيُّ ﷺ معروف في الجاهلية بِصِدْقِه وأمانته ، حتَّى لُقِّبَ بالصادق الأمين ، ولا يُعقَل أن يَترك الكذبَ على الناس ، ثُمَّ يَذهب لِيَكذبَ على اللهِ تعالى .

وزَعْمُ الكافرين أنَّ محمداً شاعرٌ وأنَّ القُرآنَ شِعْرٌ ، كلامٌ واهٍ . إذْ إنَّ محمداً ﷺ لا يَعْرِف أوزان الشِّعر ، ولَم يُؤلِّف بَيْتَ شِعْرٍ واحداً في حياته كُلِّها . ونَظْمُ القُرآن يختلف تماماً عن نَظْمِ الشِّعر ، والعربُ هُم أهلُ الفصاحة والبيان ، وفِيهم نَبَغَ الشُّعراء الفُحول. فلماذا عَجِزوا جَميعاً عن تأليف كتاب كالقُرآنِ ما دامَ شِعْراً _ حَسَبَ زَعْمهم _ ؟! .

وقال ابنُ كثير في تفسيره (٣/ ٢٣٢) : ((هذا إخبار عَن تَعَنُّتِ الكفار ، وإلحادِهم ، واختلافِهم فِيما يَصِفون بِهِ القُرآنَ ، وحَيْرَتِهم فِيه ، وضَلالِهم عنه . فتارةً يَجعلونه سِحراً ، وتارةً يَجعلونه شِعراً ، وتارةً يَجعلونه أضغاثَ أحلام ، وتارةً يَجعلونه مُفْتَرَى)) اهـ .

﴿فَلْيَأْتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ . يُمَثِّلُ الكافرون دَوْرَ الحريص على الآياتِ والإيمان . فقالوا عِناداً وتَعَنُّتاً : فَلْيَجِئْنا محمد إن كان صادقاً بِمُعْجِزةٍ مِثْل : ناقة صالح ، وعصا مُوسى . وهذا الأمرُ يُشير إلى معرفتهم بالرُّسُل السابقين وآياتِهم الباهرة . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الْمُعْجِزةَ هي أمرٌ خارقٌ للعادة ، يَأتي بها نبيٌّ مُرْسَلٌ ، كَي يُقام الدليلُ على صِدْق رِسالته . وسُمِّيت الْمُعجِزة بهذا الاسم لأنها تُعْجِزُ العقلَ عن تفسيرها. وتَكون الْمُعجِزةُ فوق قُدرات البشر في المجال الذي يُتقنونه ، ويَشتهرون به . فقد كانَ السِّحرُ مشهوراً في زمن موسى ﷺ فكانت مُعجِزته هي العَصا ، حيث تحوَّلت إلى حيَّةٍ تَسعى . وكانَ الطبُّ مَشهوراً في زمن عيسى ﷺ ، فكانت مُعجِزَتُه إبراءَ الأَكْمَه (الأعمى) والأبرص وإحياء الموتى . وكلُّ ذلك بإذن اللهِ تعالى. وكانَ العربُ مشهورين بالفصاحة والبلاغة والشِّعر والخطابة ، فكانت مُعجِزة محمد ﷺ هي القُرآن .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٩) : ((﴿فَلْيَأْتِنا بآيةٍ كما أُرْسِلَ الأوَّلون ﴾ ، أي : كما أُرْسِلَ موسى بالعَصا وغَيْرِها مِن الآيات ، ومِثْل ناقة صالح ، وكانوا عالِمين بأنَّ القُرآنَ ليس بِسِحْر ولا رؤيا ، ولكن قالوا : يَنبغي أن يأتِيَ بآية نقترحها ، ولم يكن لهم الاقتراح بَعدما رَأَوا آيةً واحدة، وأيضاً إذا لَم يُؤمنوا بآية هي مِن جِنْسِ مَا هُم أعلم الناس به ، ولا مجال للشُّبهة فيها . فكيف يُؤمنون بآية غَيْرِها ؟ ، ولو أَبْرَأَ (محمد ﷺ) الأكمهَ والأبرصَ ، لقالوا : هذا من باب الطب ، وليس ذلك مِن صناعتنا ، وإنما كان سؤالُهم تَعَنُّتاً ، إذ كان اللهُ أعطاهم من الآيات ما فيه كِفاية ، وبَيَّنَ اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ أنهم لَوْ كانوا يُؤمنون لأعطاهم ما سَألوه ، لِقَوْله _ عَزَّ وَجَلَّ _: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِم خَيْراً لأسْمَعَهُم وَلَوْ أسْمَعَهُم لَتَوَلَّوا وهُم مُعرِضون ﴾ [الأنفال : ٢٣])) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ لقدْ أنزَلْنا إلَيْكُم كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُم أفلا تَعْقِلُون ﴾ [الأنبياء : ١٠].

لقد أنزلَ اللهُ إلى العربِ كتاباً سماوياً بِلُغتهم ، وهو القُرآن العظيمُ . فِيه شَرَفُهم وصِيتُهم . فكيف لا يُقدِّرون هذه النِّعمة الكُبرى ؟! . و﴿ أفلا تَعْقِلُون ﴾ للتَّوبيخ والتَّقريع ، والمعنى : أفلا تعقلون ما فضَّلكم اللهُ بِه على باقي الأُمَم فتُؤمنون ؟. وقال ابن كثير في تفسيره(٣/ ٢٣٥) عَن معنى الذِّكْر في الآية: ((قال ابن عباس: شرفكم، وقال مجاهد: حديثكم، وقال الحسن: دِينكم)) .

ولا تعارض بين هذه الأقوال، فالقُرآنُ هو الشَّرفُ العظيم ، وفِيه أحكامُ الشريعة ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والثواب والعِقاب، والأمر بالمعروف والنَّهْي عن الْمُنكر ، ومكارم الأخلاق ، والمواعظ الْمُؤثِّرة ، ومحاسن الأعمال . والقُرآنُ شَرَفٌ للنبيِّ ﷺ ، فهو مُعجِزتُه الخالدة ، وشرفٌ للمُؤمنين بِه ، سَواءٌ كانوا مِن الإنس أو الجن .

وفي صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) أن النبيَّ ﷺ قال : ((والقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أوْ عَلَيْكَ)) .

والمعنى : إذا قَرأه الفردُ بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ ، وعَمِلَ بما فيه ، فهو حُجَّةٌ له ، وقائدُه إلى الجنة ، وإِن أعرضَ عنه ، فسيكون قائدَه إلى العذاب . ومَن امتثلَ أوامرَ القُرآن، واجتنبَ نَواهيه ، ثبَّته اللهُ في الدُّنيا والقَبْر والآخِرة ، ومَن أعرضَ عن آياتِ القُرآن ، فقد سارَ في طريق الهلاك الأبديِّ .

وقال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٧) : ((ألا وإِنَّ الْحُجَّةَ على مَن عَلِمَه فأغفَلَه أوْكد منها على مَن قَصَّر عَنه وجَهِلَه ، ومَن أُوتِيَ عِلْمَ القرآن فلم يَنتفع ، وزَجَرَتْهُ نَواهيه فلم يَرْتَدِع ، وارتكب مِن المأثم قبيحاً ، ومن الجرائم فُضُوحاً ، كان القُرآنُ حُجَّةً عَلَيْهِ وخَصماً لَدَيه)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾[الْحَج : ١٦] .

إنَّ القُرآنَ واضحٌ لكلِّ مَن تفكَّرَ فِيه بعقلانية وإنصاف . وآياتُه تشتمل على الألفاظ الراقية ، والمعاني السَّامِيَة ، والْحُجَج الباهرة ، والبراهين المنطقية .

وقال ابنُ كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٣): ((﴿ وكذلكَ أنزَلْناهُ ﴾ أي القرآن﴿ آياتٍ بَيِّناتٍ ﴾ أي : واضحات في لَفْظها ومَعناها ، حُجَّة مِنَ الله على الناس)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سُورةٌ أنزَلْناها وفَرَضْناها وأنزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لعلكم تَذَكَّرون ﴾ [النُّور : ١] .

المقصود سُورة النُّور ، وهي مَدَنية . فقد أنزلَها اللهُ وأنزلَ جميعَ السُّوَر . وقد خُصَّت هذه السُّورة بالذِّكْر لأهميتها وضرورة الاعتناء بها ، وكَوْنِها تشتمل على أحكام السَّتْر والعَفاف والتحصين الأخلاقي خصوصاً للنساء. ولا يخفَى أنَّ كُلَّ سُوَرِ القُرآن بالغة الأهمية ، وقد بيَّن اللهُ فيها الفرائضَ وأحكامَ الحلال والحرام ، وأمرَ المسلمين بتطبيق أحكامها وحدودها .

وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ١٤٢): ((﴿ وفَرَضْناها ﴾ قُرِئَ بتخفيف الرَّاء، أي فَرَضْنا عليكم، وعلى مَن بَعْدَكم ما فِيها من الأحكام، وبالتشديد (يعني" فَرَّضْناها ") : أي أنزَلْنا فيها فرائض مختلفة)) اهـ .

والسُورةُ هي الْمَنْزِلةُ الشريفةُ والمكانةُ الرفيعةُ . لذلك سُمِّيَت السُورة مِنَ القُرآن سُورة . ومِنهُ قَوْل النابغة الذُّبياني للمَلِكِ النُّعمان بن الْمُنذِر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَعطاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤و٥) : ((قال الزَّجاج : مَن قَرأ بالتَّشديد (يعني فَرَّضْناها) فعلى وجهين : أحدهما على معنى التكثير ، أي إننا فَرَّضْنا فيها فُروضاً ، والثاني على معنى : بَيَّنا وفَصَّلْنا ما فيها من الحلال والحرام ، ومَن قَرأ بالتخفيف (يعني فَرَضْناها) ، فمعناه ألزمناكم العملَ بما فُرِض فيها . وقال غَيْرُه : مَن شَدَّدَ أراد فَصَّلْنا فرائضَها ، ومَن خَفَّفَ فمعناه فَرَضْنا ما فِيها)) اهـ .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٤٣٤) : عَن عُروة أنَّ عائشة ــ رضي اللهُ عنها ــ قالت : ((نزلَ الوَحْيُ على رسول الله ﷺ ، فقرأ عَلَينا : ﴿ سُورةٌ أنزَلْناها وفَرَضْناها ﴾)) .

﴿ وأنزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لعلكم تَذَكَّرون ﴾ . لقد أنزلَ اللهُ في هذه السُورة آياتٍ واضحاتٍ ودلالاتٍ مُفسَّراتٍ من أجل التَّذكُّر والاتِّعاظ وتجنُّب الْمُحَرَّمات. وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٣٣) : ((أي : دلائل واضحات لعلكم تَذَكَّرون لِكَي تَتَّعظوا)) اهـ . والتكريرُ الواضح في لَفْظَتي ﴿ أنزَلْناها ﴾ و﴿ أنزَلْنا ﴾ ، يدل على شِدَّة العناية بهذه السُورة ، لِمَا اشتملت عَلَيهِ من أحكام الحلال والحرام والحدود .

وعن المِسْوَر بن مَخْرَمة أنَّهُ سَمِعَ عُمر بن الخطاب ــ رضي اللهُ عنه ــ يقول : ((تَعَلَّموا سُورةَ البقرة، وسُورةَ النِّساء، وسُورةَ المائدة ، وسُورةَ الحج ، وسُورةَ النُور ، فإنَّ فِيهِنَّ الفرائضَ))[120].

وعن شَقيق قال:خَطَبَ ابنُ عباس وَهُوَ على الْمَوْسِم،فافتتحَ سُورةَ النُورِ، فَجَعَلَ يَقرأ، وَيُفَسِّرُ ، فجعلتُ أقول: مَا رَأيتُ ولا سَمِعْتُ كَلامَ رَجُلٍ مِثْلِه ، لَو سَمِعَتْهُ فَارسُ والرُّومُ لأسلمتْ))[121].

وهذا يُشير إلى قوة أسلوب ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ وتأثيره البالغ في النُّفوس ، وهذا لَيس بغريب ، فابنُ عباس ابنُ عَمِّ النبيِّ ﷺ وحَبْرُ الأُمَّة وتُرجمان القُرآن . وسُورةُ النُّور تشتمل على

(١٢٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٢٩) برقم (٣٤٩٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٢١) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٦١٨) برقم (٦٢٩٠) . وسكت عنه الذهبي .

أحكام العفاف الخاصة بالنِّساء ، وهكذا تتجلى أهميةُ هذه السُّورة في تحصين المرأة أخلاقياً ، وإحاطتها بِسُور مِن العِفَّة والطهارة ، ولا شَكَّ أن المرأة الصالحة هي قلب المجتمع النابض .

وقال المناوي في فَيض القدير (٤/ ٣٢٨) : ((ـ في سُورة النُّور ـ أبلغُ زَاجر للنساء، إذْ فيها قِصَّة الإفك (قصة اتهام السيدة عائشة ـ زُوراً وبُهتاناً ـ بالزِّنا) ، وتحريم إظهار الزِّينة ، وغَير ذلك مِمَّا هو مُختص بهنَّ ولائق بحالهنَّ)) اهـ .

وعن عائشة ـ رضي اللهُ عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : ((لا تُنْزِلُوهُنَّ الغُرَفَ ، ولا تُعلِّموهُنَّ الكِتابةَ ـ يعني النساء ـ ، وعَلِّمُوهُنَّ المِغْزَلَ ، وسُورةَ النُّور))[122].

وهذا الحديثُ المكذوب إهانةٌ للنساء ، ويُخالِفَ القواعدَ الأساسية للإسلام ، وقد تَمَّ إقحام سُورة النُّور في هذا السِّياق بسبب اشتمالها على أحكام العفاف والسَّتْر الخاصة بالنِّساء ، وهذا الإقحامُ لا معنى له في هذا السياق .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ أنزَلْنا إلَيْكُم آياتٍ مُبَيِّناتٍ ومَثَلاً مِنَ الذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ومَوْعِظةً للمُتَّقين ﴾[النُّور : ٣٤] .

لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ، فِيه آيات واضحات ، فُسِّرَت فِيها الأحكامُ والحدودُ والآدابُ ، وهذه الآياتُ تُخرِج الناسَ مِن ظلمات الجهل والكفر إلى نُور العِلْم والإيمان. ﴿ ومَثَلاً مِنَ الذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ ، يعني : خَبَراً مِنَ الأُمم السابقة التي كَفَرَت فَعُذِّبَت ، وعِبْرةً ومَوْعِظةً لِمَن اتَّقى اللهَ وخافَ عذابَه . وتخصيص المتَّقين لأنهم الْمُنتفِعون بالقُرآن . وتتَّضح في الآية ضرورةُ أخذِ العِبْرة من الأمم السابقة ، وعدم تكرار أخطائها وخطاياها ، لئلا يتكرَّر العذابُ والعقوبةُ . وهذا تَخويفٌ وَرَدْعٌ . والآيةُ تُوضِّح ثلاث صفات أساسية للقُرآن : الصِّفةُ الأُولَى أنَّهُ آياتٌ واضحات مُفسَّرات لِمَن تَدَبَّرَها وتفكَّرَ فِيها بقلبٍ نقيٍّ ومعرفةٍ لُغوية ، والصِّفةُ الثانية أنَّهُ يَحمل أخبار الأُمم الماضية

---

(١٢٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٣٠) وصحَّحه ، وقال الذهبي : ((بَل مَوضوع)) اهـ . قلتُ : في سنده عبد الوَهَّاب بن الضَّحاك . وقال ابن الجوزي في العِلَل المتناهية (٢/ ٦٥٢) : ((قال أبو حاتم الرازي : كان يَكذب ، وقال العُقَيلي : متروك الحديث)) اهـ . وقال الذهبي في الكاشف (١/ ٦٧٤) : ((قال أبو داود : يَضع الحديث)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٦٦) : ((رواه الطبراني في الأوسط ، وفِيه محمد بن إبراهيم الشامي ، قال الدارقطني : كذاب)) اهـ .

لأخذ العِبْرة من سُلوكها ، وعدم تكرار آثامها لئلا تتكرَّر العُقوبة ، والصِّفة الثالثة أنَّهُ تَذكير ومَوعظة للمُتَّقين الذينَ يتجنَّبون كُلَّ ما يُعرِّضهم لغضب اللهِ تعالى .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٤٢) : ((والصِّفة الثانية كَوْنُه مَثَلاً مِنَ الذين خَلَوا مِن قَبْلِ هؤلاء: أي مَثَلاً كائناً مِن جهة أمثال الذين مَضَوا مِن القَصص العجيبة والأمثال المضروبة لهم، في الكتب السابقة، فإن العَجَب من قصة عائشة _ رضي اللهُ عنها _ هُوَ كالعجب من قصة يُوسُف (النَّجار) ومريم ، وما أُتِّهما بِه ، ثُمَّ تَبَيُّن بُطلانه وبراءتهما _ سلام اللهُ عَلَيهما)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ كفروا إنْ هذا إلا إفْكٌ افتراهُ وأعانهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فقدْ جاؤوا ظُلْماً وزُوراً ﴾ [الفُرقان : ٤].

يَفضحُ اللهُ جَهْلَ المشركين ، ويُبيِّن قِلَّةَ عقولهم . فقد قالوا عن القُرآن إنَّهُ كَذِبٌ اختلَقَهُ محمد مِن تِلقاء نفْسه ، وساعده على الاختلاق قَوْمٌ مِنَ اليهود ، حيث إنهم يُخبِرون محمداً بأخبار الأمم ، وهو يُعبِّر عن مقالتهم بِلُغته. فقد جاؤوا بِقَوْلٍ باطل معَ عِلْمهم بكذبهم وبُطلان قَوْلِهم . وقد نسبوا إلى النبيِّ ﷺ ما هُوَ مِنهُ بريء ، وهذا هُوَ الزُّور . والمشركون لم يُقدِّموا دليلاً على هذه التُّهمة الباطلة. وكلامُهم غير منطقي نهائياً ، فكيفَ يتلقَّى محمد العربيُّ مِنَ العَجميِّ كلاماً عربياً فصيحاً أعجزَ شعراءَ العرب وفُصحاءَهم ؟ .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٦١) : ((﴿ وأعانهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ ، أي : اليهود ، وعَدَّاس ، ويَسار ، وأبو فُكَيْهة الرُّومي . قاله النَّضْر بن الحارث)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُملَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأصيلاً ﴾ [الفُرْقان : ٥][123] .

(١٢٣) قال الطبري في تفسيره (٩/ ٣٦٥) : ((ذُكر أنَّ هذه الآية نَزلت في النَّضْر بن الحارث ، وأنَّه المعنيُّ بِقوله : ﴿ وقالوا أساطيرُ الأوَّلينَ ﴾ ... عن ابن عباس قال: كان النَّضْرُ بن الحارث بن كَلَدة ابن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار قُصَي، مِن شياطين قُرَيش،وكان يُؤذي رسولَ الله ﷺ، ويَنْصُب له العداوة، وكان قد قَدِمَ الحِيرة، تعلَّمَ بها أحاديث ملوك فارس، وأحاديث رُستم و أسفنديار، فكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً فذكَّر بالله وحدَّث قَوْمَه ما أصاب مَن قَبْلَهم مِن الأمم مِن نِقمة الله ، خَلَفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: أنا والله يا مَعْشَرَ قُرَيش أحسن حديثاً منه،فَهَلُمُّوا فأنا أُحَدِّثكم أحسن مِن حديثه، ثُم يُحَدِّثهم عن ملوك فارس ورُستم و أسفنديار، ثم يقول: ما محمد أحسن حديثاً مِنِّي)).

وقال المشركون عَن القُرآن إِنَّهُ أحاديثُ الأَوَّلين ، وما سَطَّروه مِن الأخبار ، استنسخها محمد من كُتب الأوَّلين ، وطلبَ أن تُكتَب له ، لأنَّهُ كانَ أُمِّياً لا يَقرأ ولا يَكتب ، فهي تُلقَى عَلَيهِ لِيَحفظها أوَّلَ النهار وآخِرَه . وهذا كلام يَفتقد إلى الْحُجَّةِ والبُرهان والمنطق ، فمعروفٌ لدى القاصي والداني أن النبيَّ ﷺ لَيس له علاقة بالكتابة منذ ولادته حتى وفاته،ولم يُعرَف عنه هذا الأمر.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤١٢) : ((وقد نشأ بين أظْهُرِهم مِن أوَّل مَولده إلى أن بعثه الله نَحواً من أربعين سنة ، وهُم يعرفون مَدْخَلَه ومَخْرَجَه وصِدْقَه ونزاهتَه وبِرَّه وأمانته ، وبُعْدَه عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم كانوا يُسمّونه في صِغَره وإلى أن بُعث الأمين ، لِمَا يَعلمون مِن صِدقه وبِرِّه ، فلمَّا أكرمه اللهُ بما أكرمه به ، نَصَبوا له العداوة ، ورَمَوْه بهذه الأقوال التي يَعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فِيما يَقذفونه به ، فتارةً مِن إفكهم يقولون: ساحر، وتارةً يقولون : شاعر ، وتارةً يَقولون : مجنون ، وتارةً يقولون : كذاب)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ أنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السِّرَّ في السماواتِ والأرضِ إِنَّهُ كانَ غَفوراً رَحيماً ﴾ [الفُرقان : ٦] .

لَيس القُرآنُ أساطيرَ الأوَّلين ، ولم يَأتِ بِهِ النبيُّ ﷺ مِن تِلقاء نفْسه . إِنَّهُ كتابٌ سماويٌّ ، أنزلَه اللهُ الذي يَعْلَم كُلَّ شيء ، ولا يخفَى عَلَيه شيء في السماوات والأرض ، فلا يحتاج إلى مُعلِّم ولا يَحتاج إلى مُساعِد ، ولأنه كتابٌ سماويٌّ عَجِزَ أهلُ الأرضِ عن الإتيان بِمِثْلِه ، أو بِسُورةٍ مِنه . لقد أعجزَ القُرآنُ فُصحاءَ العرب وهو بِلُغتهم ، لِمَا تضمَّنه من ألفاظ عظيمة ، ومعانٍ جليلة ، وأخبار صادقة في الماضي والحاضر والمستقبل ، وأشياء مكنونة لا يَعْلَمها إلا عالِم الأسرار وخفايا الأمور . ولا شَكَّ أن الذي يَعْلَم السِّرَّ والغَيْبَ، يَعْلَم الجهر أيضاً ، ولا يَغيب عنه شيء . واللهُ غفور رَحيم ، يَقبل العائدين إلَيه، وهو يُمهِل ولا يُهمِل ، يُعطي الإنسانَ الفُرصةَ تِلْوَ الفُرصة من أجل تصحيح مساره ، رحمةً بِه ، وليس عَجزاً أو خَوفاً . وهذه دَعوة للتَّوبة والرجوع إلى اللهِ تعالى ، فهو سُبحانه أكبر من كُل الذنوب ، ورَحْمَتُه واسعة ، وكَرَمُه عظيم . فهؤلاء المشركون الذين كفروا باللهِ ، وطَعَنوا في القُرآن ، وكَذَّبوا محمداً ﷺ ، يَدعوهم اللهُ إلى التَّوبة والمغفرة والرحمة ، وإذا رَجَعوا إِلَيه لَن يَطردهم ، وهذا قمةُ الكَرَم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧) : ((وذِكْرُ ﴿ السِّرَّ ﴾ دون الجهر ، لأنه مَن عَلِمَ السِّرَّ ، فهو في الجهر أعْلَم . وَلَوْ كان القرآن مأخوذاً من أهل الكتاب وغَيْرِهم لَمَا زاد عليهما ، وقد جاء بِفُنون تَخرج عنها ، فليس مأخوذاً منها . وأيضاً ، ولوْ كان مأخوذاً من هؤلاء ، لتمكَّن المشركون

منه أيضاً كما تمكَّن محمد ﷺ ، فهلا عارضوه ، فَبَطُلَ اعتراضُهم مِن كُلِّ وَجْه . ﴿ إِنَّهُ كانَ غَفوراً رَحيماً ﴾ ، يُريد : غفوراً لأوليائه ، رحيماً بهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإِنَّهُ لَفي زُبُرِ الأوَّلين ﴾ [الشُّعراء : ١٩٦] .

إنَّ ذِكْرَ القُرآنِ موجود في كُتب الأنبياء_ عليهم الصلاة والسلام _ ، وقِيل : ذِكْر محمد ﷺ ووَصْفه. والزُّبُر الكُتُب، والواحد زَبُور. وقال الشَّوْكاني في فتح القدير(٤/ ١٦٨) : ((أي إنَّ هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع، في كُتب الأوَّلين من الأنبياء)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ١٤٤) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وإِنَّهُ لَفي زُبُرِ الأوَّلين ﴾ ، وقرأ الاعمش " زُبْر" بتسكين الباء ، وفي هاء الكِناية قَولان : أحدهما أنها ترجع إلى القرآن ، والمعنى : وإنَّ ذِكْرَ القرآن وخَبَرَه ، هذا قول الأكثرين . والثاني أنها تَعود إلى رسول الله ﷺ ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْناهُ على بَعْضِ الأعْجَمين (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ما كانوا بِهِ مُؤمنين (١٩٩) ﴾ [الشُّعراء] .

لَوْ نَزَّلَ اللهُ هذا القُرآنَ العربيَّ الْمُعْجِزَ بفصاحته وبلاغته ، على رَجُلٍ أعجميٍّ لا يَعرف شيئاً عن اللغة العربية، لَقَالت قُرَيش : ما نَفهم هذا ، وكَفَرَت بِه عِناداً واستكباراً ، وترفَّعت عن اتِّباع هذا الأعجمي . وقال السُّيوطي في الدُّر المنثور (٦/ ٣٢٣) : ((وأخرجَ عبد بن حُمَيد ، وابن أبي حاتم ، عن قَتادة : في قَوْلِه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْناهُ على بَعْضِ الأعْجَمين ﴾ ، قال : يقول : لَوْ نَزَّلْنا هذا القرآنَ على بعض الأعجمين ، لكانت العربُ أشرَّ الناس فيه ، لا يَفهمونه ، ولا يَدرون ما هُوَ)) .

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ما كانوا بِهِ مُؤمنين ﴾ . لَوْ قَرأ الأعجميُّ (الذي لا يُحسِن العربيةَ) القُرآنَ على كفار قُرَيش قراءةً صحيحة خارقة للعادة،وهذا يَعني انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز القُرآن، ما كانوا بِه مُؤمنين بسبب عِنادهم ، وعدم فهمهم وترفُّعهم أن يتَّبعوا رَجلاً أعجميًّا . وهذا يدل على قَسوة قلوبهم ، وشِدَّة كُفرهم ، وفَرْط عِنادهم ، وقُوَّةِ شَكيمتهم .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٤٧٦) : ((لَم يَكونوا لِيُؤمنوا به لِمَا قَد جرى لهم في سابق عِلمي من الشقاء . وهذا تَسْليةٌ مِنَ الله نَبِيَّه محمداً ﷺ عن قومه ، لئلا يَشتدَّ وَجْدُه بإدبارهم عنه ، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن ، لأنه كان ﷺ شَديداً حِرْصُه على قبولهم مِنه ، والدخول فِيما دعاهم إليه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿كذلكَ سَلَكْناهُ في قُلوبِ المجرمين ﴾ [الشُّعراء : ٢٠٠] .

لقد أدخلَ اللهُ التكذيبَ في قلوب كفار مكة عُقوبةً لهم ، ومَنَعَهم مِن الإيمان لأنهم لَيسوا أهلاً للهداية ، ولا يَستحقون نَيْلَ الرحمة الإلهية ، وقد طَرَدَهم اللهُ بسبب كُفرهم وعِنادهم وتبجُّحهم معَ وضوح أدلة الإيمان أمام عيونهم ، وظُهور الْحُجَج والبراهين بما لا يَدَع مجالاً للشَّك والتكذيب . وقِيل : لقد أدخلَ اللهُ القُرآنَ في قلوب المجرمين ، فَعَرَفوا ألفاظَه ، وفَهِموا مَعانيه .

وقال البَيضاوي في تفسيره(١/ ٢٥٣): ((﴿ كذلكَ سَلَكْناهُ ﴾ أدْخَلْناه ﴿ في قُلوبِ المجرمين ﴾

والضمير للكفر المدلول عليه بِقَوْله: ﴿ ما كانوا بِهِ مُؤمنين ﴾ فتدل الآية على أنه بِخَلق الله . وقِيل: للقرآن ، أي أدْخَلْناه فيها (في قلوبهم) فَعَرَفوا معانيه وإعجازَه ، ثُمَّ لَم يُؤمنوا بِه عِناداً)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لا يُؤمنونَ بِهِ حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ ﴾ [الشُّعراء : ٢٠١].

وهؤلاء المشركون لا يُؤمنون بالقُرآن ، ولا يتأثرون بالعِبَر والمواعظ ، ويستمرون على كُفرهم وعِنادهم حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ الذي يُجبِرهم على الإيمان ، وذلك عِند الموت . وفي هذه الحالة لا يَنفع الإيمان ولا فائدة مِنه ، لأنَّه في مرحلة الاضطرار لا الاختيار . لقد مَنَعَهم اللهُ من الإيمان بما كَسَبَت أيديهم ، وهذه أشد عقوبة . وقد صَبَّ اللهُ عَلَيهم الخزي والعار جزاءَ كُفرهم وعِنادهم .

وقالَ الطبري في تفسيره (٩/ ٤٧٦) : ((يَقول : فَعَلْنا ذلك بهم لِئلا يُصَدِّقوا بهذا القرآن ، حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ في عاجل الدنيا ، كما رَأت ذلك الأممُ التي قَصَّ اللهُ قَصَصَهم في هذه السُّورة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ على بَني إسرائيلَ أكثرَ الذي هُم فِيهِ يَختلِفُون ﴾ [النَّمْل : ٧٦].

إنَّ هذا القُرآنَ يُبيِّن لبني إسرائيل أكثرَ الأمور التي اختلَفوا فِيها ، ويُوضِّح لهم طريقَ الحق لكي يَسلكوه . وذلك بسبب اشتماله على الهدى والحق ، وخُلُوِّهِ من التناقض والتحريف والكذب .

وقد انحرفَ اليهودُ والنصارى عن طريق الحق ، بسبب تحريفهم للتوراة والإنجيل، وانقسَموا إلى طوائف متناحرة ، يَطعن بَعضُهم على بعض، ويُكفِّر بَعضُهم بَعضاً . ولو آمَنُوا بالقرآن الكريم لوَجدوا الراحةَ ، وأزالوا كافةَ اختلافاتهم ، وتوحَّدوا على الصراط المستقيم. ومن أبرز اختلافاتهم،

اختلافُهم حول عيسى ﷺ . فقد افترى عليه اليهودُ فاعتَبروه ابْنَ زنا ، وغالى النصارى في تعظيمه فاعتَبروه إلهاً . وجاءَ القُرآنُ بالقَوْل الوَسَط العَدْل ، وهو أنه عبدُ الله ورسولُه .

وذَكَرَ البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧٧) بعض اختلافاتهم، فقال: ((كالتشبيه ، والتَّنْزيه ، وأحوال الجنة والنار ، وعُزَيْر ، والمسيح)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما كُنتَ تَرجو أن يُلقَى إلَيْكَ الكتابُ إلا رحمةً مِن رَبِّكَ فلا تَكُونَنَّ ظَهيراً للكافرين ﴾ [القَصَص : ٨٦] .

ما كانَ محمد يَرجو أن يَنْزِلَ عَلَيهِ القُرآنُ ، ولم يَكُن يَطْمَع بالنُّبُوَّة ، ولم يَكُن يَعْلَم أنَّ اللهَ سيختاره ، ويُرْسِله إلى الإنس والجن كُلِّهم . لكنَّ اللهَ رَحِمَه فاختاره للنُّبُوَّة وأنزلَ عَلَيه الوَحْيَ ، ورَحِمَ الخلقَ بأن أرسلَ إلَيهم أعظمَ رُسُلِه . فلا تَكُن يا محمد نصيراً للكافرين ومُساعِداً لهم على الكفر والضلال ، بَلْ خَالِفْهم وواجِهْهم ، ولا تُجامِلْهم ، ولا تَستجِبْ لباطلهم . وقد ذَكَّرَ اللهُ محمداً ﷺ بِنعمة النُّبوَّة التي لا تُكتسَب بالذكاء وقوة الشخصية والمهارات الذاتية ، وإنَّما هِيَ فضلٌ مِنَ اللهِ ، وتكليفٌ وتشريفٌ في آنٍ معاً . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الاستثناء مُنقطِع في قَوْلِه تعالى : ﴿ إلا رحمةً مِن رَبِّكَ ﴾ ، والمعنى : لكنَّ رَبَّكَ رَحِمَكَ فأنزلَ عَلَيكَ الوَحْيَ ، وجعلكَ رَسُولاً .

وفي صَفوة التفاسير (١١/ ٥١) : ((قال المفسِّرون : دعا المشركون الرسولَ إلى دِين آبائه ، فأُمِرَبالتَّحرُّز مِنهم ، وأن يَصدع بالحق ، والخطاب بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أُمَّته ، لئلا يُظاهِروا الكفارَ ، ولا يُوافِقوهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْنا إلَيْكَ الكتابَ فالذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ يُؤمنونَ بِهِ وَمِنْ هَؤلاءِ مَن يُؤمِنُ بِهِ وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا الكافرون ﴾ [العَنْكبوت : ٤٧] .

كما أنزلَ اللهُ الكُتُبَ على الأنبياء قبل محمد ﷺ ، أنزلَ القُرآنَ عَلَيه ، والأمرُ لَيس بِدْعةً ولا غريباً . ومُؤمنو أهل الكتاب كعبد اللهِ بن سلام (الذي كانَ مِن كِبار أحبار اليهود) يُؤمنون بالقُرآنِ لِعِلْمِهم بِصِدْقِه، إذْ إنهم قَرَؤُوا كُتُبَهم ، وعَرَفوا ما فِيها مِن خَبر القُرآنِ وَوَصْفِ محمدﷺ.

ومِن أهل مكة أيضاً مَن يُؤمن بالقُرآن ، وهُم الذين أسْلَموا . وما يُنكِر آياتِ اللهِ بعد ظُهورها وقِيام الْحُجَّة إلا الكافرون مِن المشركين وأهلِ الكتاب ، الذين يُصِرُّون على الكفر والتكذيب بعد وُضوح الْحُجَّة والبُرهان، ويُحاولون طَمْسَ نُور الشمس أو تغطيتها بِغِربال . وإصرارُهم على الكفر يَمنعهم من التفكر في القُرآن ، والوقوف على إعجازه الباهر .

وقالَ الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٩٤) : ((﴿ فالذينَ آتَيناهُمُ الكتابَ يُؤمنونَ بِهِ ﴾ ،

يعني مُؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . وخَصَّهم بإيتائهم الكتاب لِكَوْنهم العاملين بِه ، وكأنَّ غَيْرَهم لَم يُؤْتَوْه لعدم عَملهم بما فيه، وجَحْدِهم لصفات رسول الله ﷺ المذكورة فيه)) اهـ. وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٤٩) : ((﴿ وما يَجْحَدُ بآياتِنا إلا الكافرون ﴾ ، وذلك أنَّ اليهود عَرَفوا أنَّ محمداً نبيٌّ ، والقرآنَ حَق ، فَجَحدوا . قال قتادة : الجحود إنما يكون بعد المعرفة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَم يَكْفِهِم أنَّا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتابَ يُتلَى عَلَيْهِم ﴾ [العَنْكبوت : ٥١] .

أوَ لَم يَكْفِ المشركين مِنَ الآيات هذا القُرآن الْمُعجز الذي تَحَدَّى فُصحاءَ العربِ وأعْجَزَهُم. فلم يَقدروا على الإتيان بِمِثْلِه ولا بِسُورةٍ مِنه . والاستفهام للتَّوبيخ . والقُرآنُ أعظمُ آيةٍ ، وأكبرُ مُعجِزة ، فكيفَ يَطلبون آيةً وأمامَهم أكبرُ الآياتِ؟ ، وهي تدل بشكل واضح على نُبُوَّة محمدﷺ. ولوْ جاءَ النبيُّ ﷺ بعصا مُوسى أو آياتِ عِيسى أو ناقة صالح ، لاتَّهموا النبيَّ ﷺ بالسِّحْر والخداع.

إنَّ القُرآنَ كتابٌ سماويٌّ باللغة العربية جاءَ بِهِ محمد الأُمِّيُّ الذي لا يَقرأ ولا يَكتب ، وَلَم يَقْدِر أهل الفصاحة والبلاغة والبيان على تَحَدِّيه وهو بنفْس لُغتهم. ولا يخفَى أنَّ الشمس إذا طَلَعت ، لا أحد يَبحث عن النُّجوم ، لأنَّ نُور الشمس يُغطِّي على كُل شيء . والقُرآنُ هُوَ أعظمُ مُعجِزة على الإطلاق،وأعلى مِن كُلِّ مُعجِزات الأنبياء السابقين. وهذا يدل على عَظَمةِ القُرآنِ وتفوُّقه على كُلِّ الكتب السماوية التي سَبَقَتْهُ ، ويدل على تفوُّق محمد ﷺ على كُلِّ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _. وكما قالَ الشاعر في مدح النبيِّ محمد ﷺ :

أخوكَ عِيسى دَعا مَيْتاً فقامَ لَهُ   وأنتَ أحْيَيْتَ أجيالاً مِنَ الرِّمَمِ

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٤): ((... قال تعالى مُبَيِّناً كَثْرةَ جَهْلِهم وسَخافةَ عقلهم حيث طلبوا آيات تَدُلُّهم على صِدْق محمد ﷺ فِيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل مِن بَين يَدَيه ، ولا مِن خَلْفه ، الذي هو أعظم مِن كُلِّ مُعجِزة ، إِذْ عَجزت الفصحاءُ والبلغاءُ عَن مُعارَضته ، بل عَن مُعارَضة عَشْر سُوَرٍ مِن مِثْلِه ، بَل عَن مُعارَضة سُورة مِنه . فقال تعالى : ﴿ أوَلَم يَكْفِهِم أنَّا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتابَ يُتلَى عَلَيْهِم ﴾ أي : أوَ لَم يَكْفِهم آية أنَّا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قَبْلَهم، ونبأ ما بَعْدَهم، وحُكْم ما بَيْنَهم ، وأنتَ رَجل أُمِّيٌّ ، لا تقرأ ولا تكتب، ولَم تُخالِط أحداً من أهل الكتاب، فَجِئْتهم بأخبار ما في الصُّحُف الأُولَى ، ببيان الصواب مِمَّا اختلَفوا فِيه ، وبالحق الواضح البَيِّن الْجَلِيِّ)) اهـ .

وعن أبي هريرة ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((مَا مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعْطِيَ ما مِثْلُه ، آمَنَ عَلَيهِ البشر ، وإنما كان الذي أُوتِيته وَحياً أوحاه اللهُ إِلَيَّ ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً يَوْمَ القِيامة))[124].

لقد أجرَى اللهُ على يَدِ كُلِّ نبيٍّ مِنَ الْمُعْجِزات ما يدل على صِدْقِه،لأنَّ الْمُعجِزة خارقة للعادة. وقد آمَنَ الناسُ عِندَ مُشاهَدة آياتِ اللهِ (الْمُعجِزات) . وقد انتهتْ مُعجِزاتُ الأنبياء بِمَوْتهم . وصار الناسُ يتحدَّثون بالأمر كجزء من الماضي. أمَّا الْمُعجِزة الكبرى للنبيِّ محمد ﷺ فهي القُرآن ، (معَ العِلْم أنَّ مُعجِزات النبيِّ محمد ﷺ كثيرة) . والقُرآنُ كلامُ اللهِ أوحاه إلى رسوله محمد ﷺ . وهذه الْمُعجِزة الخالدة مستمرة حتى يَوْم القِيامة بلا انقطاع ، ولَم تَخْتَفِ بِمَوْتِ النبيِّ ﷺ ، فهي مَوجودة ، وستظل موجودة إلى الأبَد . ولا يُمكن مُقارَنة القُرآن معَ عصا موسى أو ناقة صالح ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ . لقد ذَهبت مُعجِزاتُ الأنبياء ، ولم يُشاهِدْها إلا مَن حَضَرَها . أمَّا مُعجِزة القُرآن فباقية ما بَقِيَ الليلُ والنهارُ ، والقُرآنُ يشتمل على المنافع الدِّينية والدُّنيوية ، والمواعظ ، والعِبَر ، والأخبار الصادقة المتعلقة بالماضي والحاضر والمستقبَل . لذلك ، فإِنَّ نَفْعَ القُرآن عامٌّ للإنس والجن في كل زمانٍ ومكانٍ. وقال ابن كثير في فضائل القُرآن (١/١٥): ((وفي هذا الحديث فضيلة عظيمة للقرآن المجيد على كل مُعجِزة أُعطيها نبيٌّ من الأنبياء، وعلى كل كتاب أنزله. وذلك أن معنى الحديث : ما مِن نبيٍّ إلا أُعْطِيَ ـ أي مِنَ الْمُعجِزات ـ ما آمنَ عَلَيهِ البشرُ ، أي : ما كان دليلاً على تصديقه فيما جاءهم به ، واتَّبعه مَن اتَّبعه مِنَ البشر ، ثُمَّ لَمَّا مات الأنبياء لم تَبْقَ لهم مُعجِزة بَعْدَهم إلا ما يَحكيه أتباعهم عمَّا شاهدوه في زمانهم . وأمَّا الرسول الخاتَم للرسالة محمد ﷺ ، فإنما كان مُعظَم ما آتاه اللهُ وَحياً مِنه إلَيه ، مَنقولاً إلى الناس بالتواتُر . ففي كُل حين هو كما أُنزِل ، فلهذا قال : " فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً ". وكذلك وَقَع، فإنَّ أتباعه أكثر من أتباع الأنبياء لِعُموم رسالته ، ودوامها إلى قيام الساعة ، واستمرار مُعجِزته)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ١٨٨) عن الحديث : ((اخْتُلِف فيه على أقوال: أحدها أنَّ كُلَّ نبيٍّ أُعْطِيَ مِنَ الْمُعْجِزات ما كان مِثْلُه لِمَن كان قَبْلَه من الأنبياء ، فآمنَ به البشر ، وأمَّا مُعجِزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يُعْطَ أحد مِثْلَه ، فلهذا قال : أنا أكثرهم تابعاً. والثاني: معناه أنَّ الذي أُوتِيته لا يتطرق إليه تخييل بِسِحْر وشُبهة ، بِخِلاف مُعجِزة

(١٢٤) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٩٠٥) برقم (٤٦٩٦) ، ومسلم (١/ ١٣٤) برقم (١٥٢) .

غَيري ، فإنه قد يُخيِّل الساحرُ بشيءٍ مِمَّا يُقارِب صُورتَها ، كَما خَيَّلت السَّحرةُ في صورة عصا موسى ﷺ . والخيال قد يَرُوج على بعض العوام ، والفرق بين الْمُعجِزة والسِّحْر والتخييل ، يحتاج إلى فكر ونظر، وقد يُخطِىء الناظر فيعتقدهما سواء. والثالث: معناه أنَّ مُعجِزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، وَلَم يُشاهِدْها إلا مَن حَضَرها بِحَضرتهم ، ومُعجِزةُ نَبِيِّنا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة معَ خَرْق العادة في أُسلوبه وبلاغته ، وإخباره بالْمُغَيَّبات ، وعَجْز الجن والإنس عن أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه مُجتمعين أو مُتفرِّقين في جميع الأعصار معَ اعتنائهم بِمُعارَضته ، فلم يَقْدِروا وهُم أفصح القرون ، معَ غَير ذلك مِن وجوه إعجازه المعروفة ، واللهُ أعْلَم . وقَوْلُه ﷺ : " فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعاً " عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة ، فإنَّه أُخبرَ _ عليه السلام _ بهذا في زمن قِلَّة المسلمين ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ تعالى ، وفتحَ على المسلمين البلادَ ، وبارك فيهم ، حتى انتهى الأمر ، واتَّسعَ الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة ، ولله الحمدُ على هذه النِّعمة ، وسائرِ نِعَمِه التي لا تُحصَى ، واللهُ أعْلَم)) اهـ .

وقال السُّيوطي في لُباب النُّقول (١/ ١٦٦) : [أخرجَ ابنُ جرير وابن أبي حاتم و الدارمي في مسنده من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جَعْدَة ، قال : جاء أُناس من المسلمين بِكُتب قد كَتبوا بها بعضَ ما سَمِعوه مِنَ اليهود ، فقال النبيُّ ﷺ : ((كَفى بِقَوْمٍ ضَلالةً أن يَرْغَبوا عمَّا جاءَ بِهِ نَبِيُّهم إلَيهم ، إلى ما جاءَ بِهِ غَيْرُه إلى غَيْرِهم)) ، فَنَزلتْ : ﴿ أوَلَم يَكْفِهِم أنَّا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتابَ يُتلَى عَلَيْهِم ﴾] .

والمعنى أنَّ على المسلمين الاستغناءَ بالقُرآنِ عَمَّا سِواه مِنَ الكُتب سواءٌ كانت سَماويةً أو أرضيةً ، لأنَّ القُرآن هو الكتاب السَّماويُّ المحفوظ ، لا يأتيه الباطل ، فيه خَبر ما كان ، وما هو كائن ، وما سَيَكون . وهذا لا يَنفي أهميةَ القراءة والبحث والثقافة والاطِّلاع على كُتب الآخرين ، بشرط أن يَكون القُرآنُ هو الْحَكَمَ الحاكم ، والمرجعية العُليا ، ولا يتمُّ تحييدُه أو إقصاؤه . وما وافقَ القُرآنَ كان حقَّاً ، وما خَالَفَه كان باطلاً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ أوْرَثْنا الكتابَ الذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ [فاطِر : ٣٢] .

لقد أوحَى اللهُ القُرآنَ إلى النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ حَكَمَ بِتَوريثه الذين اختارهم مِن عِباده ، وهُم عُلماء الأُمَّة المحمَّدية الإسلامية ، وعلى رأسهم الصحابة والتابعون ، وجَعَلَهم حاملين للقُرآن الْمُصَدِّق للكُتب السماوية السابقة . فقد جَعَلَ اللهُ القُرآنَ يَنتهي إلى الذين اختارهم واصطفاهم مِن عِباده ، وَزَكَّاهم على الآخرين ، وشَرَّفهم بحمل رسالة القُرآن .

وقد اختارَ اللهُ الصحابةَ والتابعين وتابعيهم بإحسان ، وفضَّلهم على سائر الناس . والأُمَّةُ المحمَّديةُ اختارها اللهُ وفضَّلها على سائر خَلْقِه، إذ إنها أُمَّةُ الوَسَطِ المنسوبةُ إلى أعظم المخلوقات محمد ﷺ ، والشاهدةُ على باقي الأُمَم . وتَمَّ التعبيرُ بالماضي ﴿ أوْرَثْنا ﴾ لِكَوْنه واقعاً مُحقَّقاً لا شَكَّ فِيه . فاللهُ تعالى لا يقف أمامَ إرادته شيء ، إذا أرادَ شَيئاً ، تَمَّ ذلك الشيء كما أراد دون عوائق .

وقالَ الشَّوكاني في فتح القدير(٤/ ٤٩٥):((﴿ ثُمَّ أوْرَثْنا الكتابَ الذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ المفعول الأول لأورثنا الموصول (﴿ الذينَ ﴾) ، والمفعول الثاني ﴿ الكتابَ ﴾ . وإنما قَدَّمَ المفعولَ الثاني لِقَصْد التشريف والتعظيم للكتاب . والمعنى : ثُمَّ أوْرَثْنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتابَ وهو القُرآن : أي قَضَيْنا وقَدَّرْنا بأن نُورِث العلماءَ مِن أُمَّتك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك . ومعنى اصطفائهم اختيارهم واستخلاصهم . ولا شَكَّ أن علماء هذه الأمة من الصحابة فمن بَعْدَهم قد شَرَّفهم اللهُ على سائر العباد ، وجعلهم أُمَّةً وَسَطاً ، لِيَكونوا شُهداء على الناس ، وأكرَمَهم بِكَونهم أُمَّةَ خَيرِ الأنبياء ، وسَيِّدِ وَلَدِ آدَم)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٨٧و٤٨٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ أوْرَثْنا الكتابَ ﴾ في ﴿ ثُمَّ ﴾ وجهان : أحدهما أنها بمعنى الواو ، والثاني أنها للترتيب . والمعنى : أنزَلْنا الكتبَ المتقدِّمة ثُمَّ أوْرَثْنا الكتابَ الذين اصْطَفَينا، وفيهم قَولان : أحدهما أنهم أُمَّة محمد ﷺ ، قاله ابن عباس . والثاني أنهم الأنبياء وأتباعهم ، قاله الحسن . وفي ﴿ الكتابَ ﴾ قَولان : أحدهما أنه اسم جِنْس ، والمراد به الكُتب التي أنزلَها اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ وهذا يَخرج على القَولين، فإن قُلنا : الذين اصْطُفُوا أُمَّة محمد ، فقد قال ابن عباس : إنَّ اللهَ أورثَ أُمَّةَ محمد ﷺ كُلَّ كتاب أنزَلَه ، وقال ابن جرير الطبري : ومعنى ذلك أوْرَثَهم الإيمانَ بالكُتب كُلِّها، وجميعُ الكتب تأمر باتِّباع القُرآن، فهم مؤمنون بها ، عاملون بِمُقتضاها . واستدلَّ على صِحَّة هذا القَول بأنَّ اللهَ تعالى قال في الآية التي قَبْلَ هذه :

﴿ والذي أوْحَيْنا إلَيْكَ مِنَ الكتابِ هُوَ الحق ﴾ ، وأتْبَعَه بِقَوله : ﴿ ثُمَّ أوْرَثْنا الكتابَ ﴾ فَعَلِمْنا أنهم أُمَّة محمد ، إذ كان معنى الميراث انتقال شيء مِن قَوم إلى قَوم، ولم تكن أُمَّةٌ على عَهْد نَبِيِّنا انتقل إليهم كتاب مِن قَوم كانوا قَبْلَهم غَيْر أُمَّته ، فإن قُلنا : هُم الأنبياء وأتباعهم ، كان المعنى : أوْرَثْنا كُلَّ كتاب أُنزِلَ على نبيٍّ ذلك النبيَّ وأتباعَه . والقول الثاني أن المراد بالكتاب القرآن ، وفي معنى

﴿ أوْرَثْنا ﴾ قَولان ، أحدهما : أَعْطَيْنا ، لأن الميراث عطاء ، قاله مجاهد . والثاني: أخَّرْنا ، ومِنه الميراث ، لأنه تأخَّرَ عن الميْت ، فالمعنى : أخَّرْنا القرآنَ عن الأمم السالفة ، وأعْطَيْناه هذه الأُمَّةَ إكراماً لها ، ذَكَرَه بعضُ أهل المعاني)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ [ص: ١] .

أقسمَ اللهُ بالقُرآن للتَّنبيه على عَظَمته . والقُرآنِ ذي الشَّرفِ الرفيع ، والمكانةِ السَّامية. والقُرآنُ يشتمل على مصالح العباد في الدُّنيا والآخرة ، والترغيب والترهيب ، والبشارة والإنذار ، والوعد والوعيد .

وجوابُ القَسَمِ محذوف ، تقديره : إنَّ القُرآنَ لَمُعْجِز ، وإنَّ محمداً لَصَادق .

وفي تفسير الجلالين (١/ ٥٩٨) : ((﴿ والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ أي البيان أو الشرف . وجواب هذا القَسَم محذوف : أي ما الأمر كما قال كفار مكة مِن تعدُّد الآلهة)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: مرض أبو طالب، فجاءت قُرَيش ، فجاءَ النبيُّ ﷺ ، وعِندَ رأس أبي طالب مجلس رَجل ، فقام أبو جهل كي يَمنعه ذاك ، وشَكَوْهُ إلى أبي طالب ، فقال : يا ابن أخي ، ما تريد مِن قَومك ؟ ، قال : ((يا عَم ، إنما أُريدُ مِنهم كلمةً ، تَذِلُّ لهم بها العربُ ، وتُؤَدَّى إلَيهم بها جِزْيةُ العَجَم)) قال : كلمة واحدة ؟، قال : ((كلمة واحدة)) قال : ما هِيَ ؟ ، قال : ((لا إلهَ إلا الله)) . قال : فقالوا : أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجاب ، قال : ونزلَ فِيهم : ﴿ ص والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (125).

لقد حاولتْ قُرَيشٌ إقصاءَ النبيِّ ﷺ ، وإبعاده عن المسار الحياتي . وهذا يتجلى في محاولة أبي جهل إبعاد النبيِّ ﷺ عن عَمِّه أبي طالب . وهذه الحركةُ لها هدفان : الأول ــ منع تأثير النبيِّ ﷺ في عمِّه ، والثاني ــ تصوير النبيِّ ﷺ كشخص خارج على قانون القبيلة ، لا يستحق الانتماء إلى أشراف قُرَيش ، لأنَّهُ خالَفَهم في العقيدة ، وسفَّه أحلامَهم ، وجَعَلَهم عُرضةً لكلام الناس بسبب كُفرهم وجَهْلهم . وقد شَكَوْهُ إلى أبي طالب ، لمعرفتهم بأنَّهُ عَمُّهُ الذي أحَبَّه ، وربَّاه ، وحَمَاه ، ودافعَ عنه . وهُم يَأملون أن يُؤثِّر في النبيِّ ﷺ بِحُكم القرابة والمودة والتربية .

وكانَ أبو طالب واضحاً في كلامه بلا لف ولا دوران ، عندما قال : ((يا ابن أخي ، ما تريد مِن قَومك ؟)) . وهذه العبارة مباشرة ومنطقية وشديدة الوضوح . فهو يُريد معرفة طبيعة دعوة

---

(١٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦٩) برقم (٣٦١٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

النبيِّ ﷺ وماذا يُريد مِن قَومه . وقد أخبره النبيُّ ﷺ بأنَّهُ يُريد أن يَكفروا بالأصنام الآلِهة ، ويَعبدوا اللهَ وَحْدَه ، وهذا هو التَّوحيد (دَعوة كُلِّ الأنبياء) . وإذا وحَّدوا اللهَ تعالى ، فإنهم سَيَملكون شَرَفَ العروبة ، ويُسيطرون على العرب بكل قبائلهم ، ويُخضِعون العَجَمَ ، ويَأخذون مِنهم الجِزية وهُم أذِلَّة صاغرون ، وخاضعون للحُكم العربِيِّ الإسلاميِّ . وهذه الكلمةُ " لا إلهَ إلا الله " لَيست بسيطةً على الإطلاق ، فهي تقتضي هَدْم التراث الجاهلي الوثني ، والقضاء على مراكز السيطرة والنفوذ التي أسَّسها الطواغيت ، ومُواجَهة عِلْية القَوم في كُلِّ زمان ومكان ، الذين يَخافون على مصالحهم الشخصية ، ويَريدون استعباد الناس لابتزازهم ومص دمائهم .

وكلمةُ التَّوحيد " لا إلهَ إلا الله " هي إعلان حرب على الوهم والخرافات والوثنية واستعباد الناس والتحكم بمصائرهم ، وهي تعني مُواجَهةَ الحكام والطواغيت ، وقلب أنظمة الْحُكْم السياسية والاجتماعية . إنَّها كلمةُ عابرة للزمان والمكان ، تُعيد تشكيل العقل والجسد والإنسان والجماعة وَفْقَ منظور إيمانِيٍّ قائم على عبادة اللهِ وَحْدَه .

وكُفار قُرَيش كانوا يَعلمون مُقتضَى كلمة التَّوحيد ، ولم يَكونوا أغبياء . إنها تَعني زوال عروشهم ، وخسارة نفوذهم ، وفُقدان مصالحهم الشخصية ، وتحرير الناس من الخضوع لِغَير اللهِ ، لذلك رَفَضوا التَّوحيدَ ، حِفاظاً على مصالحهم ، ومكتسباتهم ، ونفوذهم ، وهَيمنتهم على الناس.

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال: نزلَ: ﴿ ص والقُرآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ فِيهم، وفي مجلسهم ذلك، يعني مجلس أبي طالب وأبي جهل، واجتماع قُرَيش إلَيهم، حين نازَعوا رسولَ اللهِ ﷺ (126)((.

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنا بَلْ هُم في شَكٍّ مِن ذِكْري بَل لَمَّا يَذُوقوا عذابِ ﴾ [ص: ٨] .

هذا قَوْلُ المشركين حَكَاه اللهُ عنهم. إنهم غَيْرُ مُقتنعين أنَّ القُرآنَ أُنزِلَ على محمد ﷺ دُونَهم . لقد اسْتَبْعَدوا هذا الأمرَ ، لأنهم يَعتقدون أنَّ فِيهم مِنَ الأشراف والسَّادة مَن يَفوق محمداً في المال والسِّن والرِّئاسة ، فكيفَ يَترك الوَحْيُ كُلَّ هؤلاء الأشراف ويَنْزِل على محمد ؟! . والاستفهام للإنكار. لقد أنكَروا اختصاص محمد ﷺ بالوَحْي مِن بَينهم، واختصاصه بالشَّرف مِن بَين أشرافهم ، وهذا مرجعه إلى الحسد ونظرتهم القاصرة المحصورة في حُطام الدُّنيا الفانية .

---

(١٢٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٧٠) برقم (٣٦١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ١٠٨٠) : ((وهذا الإنكار ترجمة عمَّا كانت تَغلي به صدورُهم من الحسد على ما أُوتيَ مِن شَرف النُّبُوَّة مِن بَيْنِهم)) اهـ .

وصدقَ القائلُ :

كُلُّ العَداوةِ قَد تُرْتجى إماتتها ... إلا عداوةَ مَن عاداكَ مِن حَسَدِ
فإن في القلبِ منها عُقدةً عُقِدتْ ... ولَيس يَفتحُها راقٍ إلى الأبدِ

﴿ بَلْ هُم في شَكٍّ مِن ذِكْري ﴾ . إنَّ المشركين كانوا متأكدين مِن صِدْق محمد ﷺ وأمانته ، ولكنَّ شَكَّهم كان في القُرآن : هَل هُوَ مِن عِند الله أم لا . وهذا الشك نتجَ بسبب إعراضهم عن النَّظر والتأمل في القُرآن، وعدم تفكُّرهم في الأدلة والْحُجَج والبراهين، وغرقهم في التقليد الأعمى. وكُفرهم غير مبني على الدليل واليقين ، وإنما هو شُكوك وأقوال مُتضارِبة وأهواء شخصية ومصالح ذاتية ، بعيدة كل البُعد عن المنهج العِلْمي في البحث والتمحيص والتدقيق وإطلاق الأحكام .

﴿ بَل لَمَّا يَذُوقوا عذابِ ﴾ . لقد أمهلَ اللهُ الكافرين فاغتَرُّوا بهذه الْمُهْلة، وغرَّهم طُولُ الأمل، واللهُ هو الصَّبور ، لَم يُعاجِلْهم بالعُقوبة والعذاب ، ولوْ ذاقوا العذابَ لأيْقَنوا أن القُرآنَ كلامُ اللهِ ، لا شَكَّ فِيه ، وَلَزَالَ حَسَدُهم وشَكُّهم . والمعنى : إنهم لا يُؤمنون بالقُرآنِ حتى يُصيبَهم العذابُ ، فَيُجبِرَهم على التَّصديق . وفي هذه الحالة ، لا يَنفع الإيمانُ ، لأنَّه اضطراريٌّ لا اختياريٌّ .

وقالَ الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٩٩) : ((ثُمَّ اسْتَنْكَروا أن يَخُصَّ اللهُ رَسولَه بِمَزِيَّة النُّبُوَّة دُونَهم فقالوا : ﴿ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنا ﴾ ، والاستفهام للإنكار : أي كيف يكون ذلك ونحن الرؤساء والأشراف . قال الزَّجاج : قالوا : كيف أُنزِلَ على محمد القرآنُ مِن بَيْنِنا ، ونحن أكبرُ سِنّاً وأعظمُ شَرَفاً مِنه ، وهذا مِثْلُ قَوْلِهم : ﴿ لَوْلا نُزِّل هذا القرآن على رَجل من القريتَيْن عظيم ﴾ [الزُّخرُف : ٣١]. فأنكَروا أن يتفضَّلَ اللهُ سُبحانه على مَن يشاء مِن عباده بما شاء ، ولَمَّا ذَكَرَ استنكارَهم لِنُزول القرآن على رسول الله ﷺ دُونَهم ، بَيَّنَ السببَ الذي لأجله تَرَكوا تصديقَ رسول الله ﷺ فِيما جاءَ به ، فقال : ﴿ بَلْ هُم في شَكٍّ مِن ذِكْري ﴾ ، أي : مِنَ القُرآن أو الوَحْي ، لإعراضِهم عن النَّظر الموجِب لتصديقه ، وإهمالِهم للأدلة الدالة على أنه حق مُنْزَل من عند الله . ﴿ بَل لَمَّا يَذُوقوا عذابِ ﴾ ، أي : بَل السبب أنهم لَم يَذوقوا عذابي ، فاغْتَرُّوا بِطُول

الْمُهْلَة ، ولوْ ذاقوا عذابي على ما هُم عليه مِن الشِّرك والشَّك ، لَصَدَّقوا ما جئتَ بِه مِنَ القرآن ، وَلَم يَشُكُّوا فِيه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ﴾ [ص : ٨٨] [127].

هذا تهديدٌ إلهيٌّ للمشركين: وَلَتَعْلَمُنَّ خَبَرَ القُرآنِ، وصِدْقَه ، وحقيقةَ ما فِيه مِنَ الوَعد والوعيد والبَعْث والنُّشور عن قريب . و﴿ بَعْدَ حِين ﴾ بَعْد الموت ، أوْ يَوْم القيامة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٧) : ((قال قتادة : بعد الموت ، وقال عِكْرِمة : يعني يوم القيامة ، ولا مُنافاة بين القَولَين ، فإنَّ مَن مات فقد دَخل في حُكم القيامة ، وقال قتادة : في قَوله تعالى: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ﴾ قال الحسن: يا ابْنَ آدم ، عِندَ الموت يأتيك الخبر اليقين)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ [الزُّمَر : ٢٣] .

اللهُ نَزَّلَ القُرآنَ (أحسنَ الكلام)، يُشبِه بَعضُه بَعضاً في الْحُسْن والفصاحة والبلاغة والبيان والتأثير ، لا تناقض فِيه ولا اختلاف ، ويُصدِّق بَعْضُه بعضاً ، لا اضطراب فِيه ولا تضاد . وسُمِّيَ حديثاً لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يُحدِّث به قَوْمَه . والابتداءُ في الآية بِلَفْظ الجلالة " الله " لتعظيم مُنَزِّل القُرآن سُبحانه. والآيةُ ﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ ﴾ أعظم من عبارة " نَزَّلَ اللهُ أحسنَ الحديث " ، وأشد تأثيراً . ﴿ مَثانِيَ ﴾ . تُثَنَّى وتُكَرَّر المواعظُ والأحكامُ والأخبارُ والوعدُ والوعيدُ بلا مَلَلٍ أو تناقض ، من أجل ترسيخها في الأذهان ، فَيَسْهُل فَهْمُها [128].

(١٢٧) قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٠٣) : ((وسُئل عِكرمة عمَّن حَلَفَ لَيَصْنَعَنَّ كذا إلى حِين. قال : إنَّ مِنَ الحِين ما لا تُدركه كَقَوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين ﴾ ، ومِنهُ ما تُدركه كَقَوله تعالى : ﴿ تُؤتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بإذنِ رَبِّها ﴾ [إبراهيم : ٢٥])) .

(١٢٨) قال ابن كثير في تفسيره(٤/ ٦٦) : ((وقال قتادة : الآية تُشبِه الآية ، والحرف يُشبِه الحرف. وقال الضَّحاك: مثاني ترديد القَول لِيَفهموا عَن ربهم تبارك وتعالى. وقال عكرمة والحسن: ثَنَّى الله فيه القضاء ، زاد الحسن : تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تُشبِهها . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسْلَم : مثاني مُرَدَّد رُدِّدَ موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ في أمكنة

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ١٧٥) : ((قَوْله تعالى : ﴿كِتاباً مُتشابِهاً ﴾ فِيه قَولان: أحدهما أن بَعْضَه يُشْبِه بعضاً في الآيِ والحروف ، فالآية تُشبِه الآيةَ ، والكلمة تُشبِه الكلمة ، والحرف يُشبِه الحرفَ . والثاني أنَّ بَعْضَه يُصدِّق بعضاً ، فَلَيس فيه اختلاف ولا تناقض . وإنما قِيل له : " مثاني" لأنه كُرِّرت فيه القَصَصُ والفرائضُ والحدودُ والثوابُ والعقابُ. فإن قِيل : ما الحكمة في تكرار القَصَص والواحدة قد كانت تكفي ؟ . فالجواب أن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ ، فَيُقْرِئهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم ، وكان يَبعث إلى القبائل المتفرِّقة بالسُّوَر المختلفة ، فلوْ لم تكن الأنباء والقَصَص مُثَنَّاة مُكرَّرة لَوَقعت قصة موسى إلى قوم ، وقصة عيسى إلى قوم ، وقصة نوح إلى قوم ، فأراد الله تعالى أن يُشهِر هذه القَصَصَ في أطراف الأرض ، ويُلقيها إلى كُلِّ سَمْع)) اهـ . وفي الحديث أنَّ الصحابة _ رضي اللهُ عنهم _ قالوا : يا رَسولَ الله، لَوْ حَدَّثْتنا.فأنزلَ اللهُ _عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتشابِهاً ﴾ (129).

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ . هذه صِفة أولياء الله . فإذا قَرَؤُوا آياتِ التَّخويف والتَّرهيب عَلِموا ما فِيها مِن الوعد والوعيد ، وعندئذٍ تقشعرُّ جُلودُهم خَشيةً مِنَ الله ، وَخَوفاً مِن عذابه. وبعبارة أخرى، إذا ذُكِرت آياتُ العذاب ، تُقبَض جُلودُهم وتضطرب خَوفاً مِنَ اللهِ تعالى . وقِيل : المراد مِن الجلود القلوب . وبشكل عام ، لا يمكن للجِلْد أن يَضطرب إلا إذا اضطربَ القلبُ . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٥٢) : ((يُقال : اقْشَعَرَّ الجِلْدُ ، إذا تَقَبَّضَ تَقَبُّضاً شديداً . والمعنى أنهم إذا سَمِعوا بالقرآن وبآيات وَعيده ، أصابتهم خَشية تقشعرُّ مِنها جلودُهم)) اهـ .

كثيرة.وقال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضي الله عنهما :_ مثاني، قال: القُرآن يُشبِه بَعْضُه بعضاً ، ويَرُدُّ بَعْضُه على بعض . وقال بعض العلماء : ويُروَى عن سُفيان بن عُيَينة معنى قَوْله تعالى : ﴿ مُتشابِهاً مَثانِيَ ﴾ أن سِياقات القرآن تارةً تكون في معنى واحد فهذا مِنَ الْمُتشابِه، وتارةً تكون بِذِكْر الشيء وضِدِّه كَذِكْر المؤمنين ثم الكافرين وكَصِفة الجنة ثم صِفة النار وما أشبه هذا، فهذا من المثاني)).

(١٢٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٧٦) برقم (٣٣١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي.

وعن أُم كلثوم بنت العباس عن أبيها قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا اقْشَعَرَّ جِلْدُ العبدِ مِن خَشية اللهِ ، تَحَاتَّتْ عنه خطاياه ، كما تَحَاتُّ عن الشجرة البالية وَرَقُها))(130).

هذا الحديثُ الضعيف ، معناه : إذا اضطربَ جِلْدُ العبد خَوفاً مِنَ اللهِ ، تساقطت ذُنوبُه كما يتساقطُ ورقُ الشجرة الهزيلة . وفي لسان العرب (٢/ ٢٢) : ((والحَتَتُ داء يُصيب الشجر)) .

﴿ ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ . هذه صِفة أخرى لأولياء الله . فإذا ذُكرت آيات الرحمة اسْتَبْشَروا خَيراً ، وسَيْطَرَ عليهم الرَّجاء ، فلانت جُلودُهم وسَكنتْ قُلوبُهم .

وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٦٤) : ((﴿ ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ ، بالرحمة ، وعُموم المغفرة ، والإطلاق للإشعار بأن أصل أمره الرحمة ، وأن رحمته سَبقت غضبَه ، والتَّعدية بِ﴿ إلى ﴾ لتضمن معنى السُّكون والاطمئنان ، وذِكْر القلوب لِتَقَدُّم الْخَشية التي هي مِن عوارضها)) اهـ . والمعنى العام : إنَّ قلوبَهم تقشعر عند الخوف ، وتَلين عند الرجاء .

والآيةُ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ (131)، تُوضِّح صِفة أولياء اللهِ ، إذ إنَّ جُلودَهم تقشعرُّ ، وعيونَهم تبكي ، وقلوبَهم تطمئنُّ إلى ذِكْرِ اللهِ . أمَّا الصراخُ والإغماء وذهاب العقل عند سماع القُرآنِ، فهو صِفة أهل البِدَع، ومِن تزيين الشَّيطان.

---

(١٣٠) رواه البَزَّار في مسنده (٤/ ١٤٨) . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٥٥٧) : ((وفيه أم كلثوم بنت العباس ، وَلَمْ أعرفها ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

(١٣١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٧٦): ((وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدها: تقشعِرُّ من وَعيده وتَلين عِند وَعْده ، قاله السُّدي . والثاني: تقشعِرُّ من الخوف وتَلين من الرجاء. والثالث: تقشعِرُّ الجلودُ لإعظامه وتَلين عند تِلاوته ، ذكرهما الماوردي. وقال بعض أهل المعاني : مفعول الذِّكْر في قَوله: ﴿ إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ محذوف لأنه معلوم ، والمعنى : تطمئِنُّ قلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ الجنةَ والثوابَ ، قال قتادة: هذا نعْت أولياء الله ، تقشعِرُّ جلودُهم ، وتَلينُ قلوبُهم ، وَلَمْ يَنْعَتْهم بذهاب عُقولهم والغَشَيان عليهم ، إنما هذا في أهل البِدَع ، وهذا من الشيطان . وقد روى أبو حازم قال : مَرَّ ابنُ عمر بِرَجُل ساقط من أهل العراق ، فقال : ما شأنه ؟، فقالوا : إنه إذا قُرِئَ عيه القرآن يُصيبه هذا، قال: إنَّا لنخشى اللهَ = =عَزَّ وجلَّ ، وما نَسقط . وقال عامر بن عبد الله بن الزُّبَير : جئتُ أبي ، فقال لي : أين كُنت ؟ ، فقلتُ : وَجدتُ قَوماً ما رأيتُ خيراً منهم قَط ، يَذكرون اللهَ عز وجل ، فَيُرْعَد واحدُهم حتى يُغشَى عليه مِن خشية الله عز وجل ، فقعدتُ معهم ، فقال : لا تقعد معهم بعدها أبداً ، قال : فرآني كأني لم يأخذ

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٦) عن الآية السابقة : ((أي هذه صِفة الأبرار عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار لِمَا يَفهمون من الوعد والوعيد والتخويف والتهديد ، تقشعرُّ منه جلودهم من الْخَشْية والْخَوْف . ﴿ ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وقُلوبُهم إلى ذِكْرِ اللهِ ﴾ لِمَا يَرْجُون ويُؤمِّلون مِن رحمته ولُطفه، فهم مُخالِفون لِغَيرهم مِنَ الفُجَّار مِن وُجوه (أحدها) أن سَماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات القَيْنَات [الإماء الْمُغَنِّيات]. (الثاني) أنهم إذا تُلِيَت عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيَّاً بأدب وخَشية ورجاء ومحبة وفَهْم وعِلْم ...(الثالث)

أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة _ رضي اللهُ عنهم_ عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ ، تقشعِرُّ جُلودُهم ثم تَلين معَ قلوبهم إلى ذِكْر الله ، وَلَم يَكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فِيهم ، بل عِندهم مِنَ الثبات والسُّكون والأدب والْخَشية ما لا يَلحقهم أحد في ذلك ، ولهذا فازوا بالمدح مِنَ الرَّب الأعلى في الدنيا والاخرة)) اهـ .

وقال الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٦/ ٢٧٢) : ((قال العارفون : إذا نظروا إلى عالَم الجلال طاشوا ، وإن لاحَ لهم أثرٌ مِن عالَم الْجَمال عاشوا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُرْآناً عربياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لعلهم يتَّقون ﴾ [الزُّمَر : ٢٨] .

ذلك فِيَّ ، فقال : رأيتُ رسول الله ﷺ يَتلو القرآنَ ، ورأيتُ أبا بكر وعمر يَتْلُوان القرآن ، فلا يُصيبهم هذا مِن خَشية الله تعالى، أفَتُرى أنهم أخشى للهِ من أبي بكر وعمر، قال : فرأيتُ ذلك كذلك. وقال عِكرمة : سُئِلَت أسماء بنت أبي بكر ، هل كان أحد مِنَ السلف يُغشَى عَلَيه مِنَ الخوف ، قالت : لا ، ولكنهم كانوا يَبكون . وقال عبد الله بن عُروة بن الزُّبَير ، قلتُ لجدَّتي أسماء بنت أبي بكر : كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يَفعلون إذا قُرِئ عليهم القرآن ؟ ، قالت : كانوا كما نَعَتَهم اللهُ تعالى تَدمع أعينُهم ، وتقشعرُّ جلودُهم ، فقلتُ لها : إنَّ ناساً اليوم إذا قُرِئ عليهم القرآن خَرَّ أحدُهم مَغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم))اهـ.وقال الأبشيهي في المستطرَف(١/ ٢٢٥): ((قِيل لعائشة _ رضي اللهُ عنها_ إنَّ أقواماً إذا سمعوا القرآنَ صُعِقوا ، فقالت : " القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال".وسُئل ابن سيرين عن أقوام يُصعَقون عند سماع القرآن، فقال: ميعاد ما بَيْنَنا وبينهم أن يجلسوا على حائط، فَيُقْرَأ عليهم القرآن مِن أوَّله إلى آخِره فإن صُعقوا فهو كما قالوا)).

هذا القُرآنِ باللغة العربية الفُصحى ، لَيس فِيه اختلاف ولا تضاد ولا لَبْس . وقد جَعَلَه اللهُ قُرآناً عربياً لِيَفهمه العربُ ، ويَعرِفوا مواعظَه وأحكامَه وإعجازَه ، حتى يَتَّقوا عذابَ اللهِ ، وذلك باتِّباع أوامره ، واجتناب نَواهيه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٨): ((أي: هُوَ قُرآن بلسان عربيٍّ مُبين ، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف ، ولا لَبْس ، بَل هُوَ بَيان ووضوح وبُرهان ، وإنما جَعَلَه اللهُ تعالى كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ لعلهم يتَّقون ﴾ ، أي : يَحذرون ما فِيه مِنَ الوَعيد ، وَيَعملون بِما فِيه مِنَ الوَعْد)) اهـ .

وصدقَ الشاعرُ إذ يَقول :

وَقَد أتاكَ يَقينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ   مِنَ الإلهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكذوبِ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسألون ﴾ [الزُّخرُف : ٤٤] .

إنَّ هذا القُرآنَ الذي أنزَلَه اللهُ على محمد ﷺ شَرَفٌ لَهُ ولِقَومه قُرَيش ، فقد نزلَ بِلُغتهم على رَجُلٍ مِنهم. وهذا مُنتَهى الشَّرف والمجد . وبشكل عام ، إنَّ القُرآنَ شَرَفٌ لِمَن آمَنَ بِهِ وعَمِلَ بِه، سواءٌ كانَ عربياً أم غَير عربيٍّ. وَكَم مِن مُكَرَّم لم يَقبل الكرامةَ. وكلمةُ "الذِّكْر" تدل على الشرف، لأنَّ الشريف يُذكَر . وسَوْفَ يَسألهم اللهُ يَوْمَ القِيامة عن هذا القُرآن وماذا عَمِلوا بِه ، وكَيف قاموا بِحَقِّه. وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٣) : ((ومعناه أنَّه شَرَفٌ لهم مِن حَيث إنَّه أُنزِلَ بِلُغتهم، فَهُم أفهمُ الناس له ، فينبغي أن يَكونوا أقْوَمَ الناس بِه ، وأعْمَلَهم بِمُقتضاه ، وهكذا كان خِيارُهم وصَفوتُهم مِنَ الْخُلَّص من المهاجرين السابقين الأوَّلين ، وَمَن شَابَهَهم وتَابَعَهم . وقِيل: معناه ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾، أي: لَتَذكيرٌ لك ولِقَومك، وتخصيصهم بالذِّكْر لا يَنفي مَن سِواهم)) اهـ.

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : في قَوْله : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قال: ((شَرَفٌ لَكَ وَلِقَوْمِك))[132]. وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٨٩) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ هذا الأمرَ في قُرَيش، لا يُعادِيهم أحدٌ إلا كَبَّهُ اللهُ على وجهه ، مَا أقاموا الدِّينَ)) .

---

(١٣٢) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٢٥٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٣٠): ((رواه الطبراني عن بكر بن سهل عن عبد الله بن صالح ، وقد وُثِّقا ، وفِيهما ضَعْف)) اهـ .

فالخلافةُ وحُكْمُ الناس حَقٌّ لِقُرَيش حَصْرِيَّاً، وَكُلُّ مَن عَاداهُم فهو مقضيٌّ عَلَيه بالهلاك . سَوْفَ يُخزيه اللهُ ويُذِلُّه في الدُّنيا ، ويُلقيه مَنكوساً في النار يَوم القِيامة. وهذا الحديثُ مشروط بأن يُقيموا الدِّينَ . والمعنى : تجب طاعتهم ما داموا يَحْمِلُون الإسلامَ ، ويُطَبِّقون الشريعة . أمَّا إذا لم يُقيموا الدِّينَ ، فلا طاعةَ لهم ، وتجوز مُنازَعتهم . والقاعدة تقول : لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ١١٦) : ((قَوْلُه : " ما أقاموا الدِّين " أي مدة إقامتهم أمور الدين. قِيل : يُحتمَل أن يكون مفهومُه : فإذا لم يُقيموه لا يُسمَع لهم ، وقِيل : يُحتمَل أن لا يُقام عَلَيهم ، وإن كان لا يجوز إبقاؤهم على ذلك ، ذَكَرهما ابن التين ، ثُمَّ قال : وقد أجْمَعوا أنَّه _ أي الخليفة_ إذا دعا إلى كُفر أو بِدعة أنَّه يُقام عَلَيه . واختلفوا إذا غَصَبَ الأموالَ ، وَسَفَكَ الدماء وانتهكَ ، هل يُقام عَلَيه أو لا ، انتهى . وما ادَّعاه مِنَ الإجماع على القِيام فِيما إذا دعا الخليفة إلى البدعة مردود ، إلا إنْ حُمِلَ على بِدعة تُؤدِّي إلى صريح الكفر ، وإلا ، فقد دعا المأمون والمعتصم والواثق إلى بِدعة القَول بخلق القرآن ، وعَاقَبوا العُلماءَ مِن أجلها بالقتل والضرب والحبس وأنواع الإهانة ، وَلَم يَقُل أحدٌ بوجوب الخروج عليهم بسبب ذلك ، ودام الأمر بضع عشرة سنة ، حتى وَلِيَ المتوكِّل الخلافةَ ، فأبطلَ المِحنةَ ، وأمرَ بإظهار السُّنَّة . وما نقله من الاحتمال في قَوْلِه : " ما أقاموا الدِّينَ " خِلاف ما تدل عليه الأخبار الواردة في ذلك ، الدالة على العمل بمفهومه ، أو أنهم إذا لَم يُقيموا الدِّينَ يَخرج الأمرُ عَنهم)) اهـ .

وعن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال: ((الناسُ تَبَعٌ لِقُرَيْش في هذا الشأن ، مُسْلِمُهم تَبَعٌ لِمُسلمهم ، وكافرُهم تَبَعٌ لكافرهم))(133).

يَتَّضح لنا أنَّ قُرَيشاً هي حاكمةُ العرب ، وهي تفرض خُطة عملها ومنهجيتها على الآخرين . فالمسلمون تَبَعٌ لمسلمي قُرَيش ، والكافرون تبع لكفار قريش . وهذا يدل على أنَّ قُرَيشاً بيدها الْحُكْم والقيادة والهيمنة .

ويجب القَول إنَّ التَّقِيَّ هو الشريف ، سواءٌ كان من أُسرةٍ شَريفة أم وَضيعة ، وسواءٌ كان ينتمي إلى قبيلة أم لا. والقُرآنُ شَرَفٌ لِمَن قامَ بِحَقِّه سواءٌ كانَ مِن قُرَيش أم غَيرهم . فالإسلامُ لَيس دِيناً طبقياً إقطاعياً، وإنَّما هُوَ الدِّينُ السماويُّ الوَحيد، وحاملُه هو الشريف في الدُّنيا والآخرة.

---

(١٣٣) رواه البخاري (٣/ ١٢٨٨) برقم (٣٣٠٥) واللفظ له ، وروى مسلم الجزء الأول من الحديث (٣/ ١٤٥١) برقم (١٨١٨) .

والمحور هو التقوى قبل كُلِّ شيء ، وإذا لَم يَخضع النَّسَبُ للتقوى ، فلا أهمية للنَّسَب مُطْلقاً، بل سيكون عبئاً ثقيلاً على صاحبه ، وَوَبالاً عليه . لذلك جاء التوضيح النبويُّ الدقيق في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٤): ((وَمَن بَطَّأ به عَمَلُه ، لَم يُسرِع به نَسبُه)) .

يعني : مَن أخَّره عملُه القبيحُ ، أو إضاعته للعمل الصالح ، لم ينتفع في الآخرة بشرف نَسَبه ، أو مكانته الاجتماعية الرفيعة . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٢٢) : ((معناه من كان عمله ناقصاً لم يُلحقه بمرتبة أصحاب الأعمال ، فينبغي أن لايتَّكل على شرف النسب ، وفضيلة الآباء ، ويُقصِّر في العمل)) اهـ .

وعن أبي هُرَيْرة_ رضي الله عنه_ قال: قامَ رسولُ الله ﷺ حين أَنزل اللهُ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشيرتكَ الأقربين ﴾ [الشُّعراء : ٢١٤] ، قال : ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْش _ أو كلمة نَحْوها _ اشْتَرُوا أنفُسَكم ، لا أُغني عَنكم مِنَ اللهِ شَيئاً، يا بَني عبد مناف، لا أُغني عَنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنكَ من الله شيئاً ، ويا صَفِيَّةُ ، عَمَّةَ رسول الله ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ ، سَلِيني مَا شِئتِ مِن مالي ، لا أُغني عنكِ من الله شيئاً)) [134].

وشراءُ النَّفْسِ يكون بتخليصها من النار ، وذلك باعتناق الإسلام الذي فيه السلامة والنجاة . والنبيُّ ﷺ لا يَملك الجنَّةَ ولا النارَ . فلا يَقْدر على إدخال الناس الجنَّة أو إخراجهم من النار . فلا فائدة من الاتِّكال على قَرابة النبيِّ ﷺ ، لأنه لَيس له من الأمر شيء . وذَكَرَ النبيُّ ﷺ هؤلاء لِشِدَّة قرابتهم. فإذا كان النبيُّ ﷺ لا يُغني عن قَرابته من الله شيئاً ، ولا يَقْدر على إنقاذهم ، فهذا يَعني أنه لا يُغني عن الناس من الله شيئاً . ومَن كان لا يَقدر على مساعدة قَريبه ، فطبعاً لن يُساعدَ البعيدَ عنه . وقد أَحسنَ القائل :

عَلَيْكَ بِتقوى اللهِ في كُلِّ حَـالةٍ ... ولا تَترك التَّقوى اتِّكالاً على النَّسَبِ
فقد رَفع الإسلامُ سَلمانَ فـارس ... وقد وَضع الكفرُ الشريفَ أبا لَهبِ

وقد لَعَنَ النبيُّ ﷺ عِدَّةَ أصناف مِن بَيْنهم : ((والْمُسْتَحِلُّ مِن عِترتي ما حَرَّمَ اللهُ)) [135].

---

(١٣٤) متفق عليه.واللفط للبخاري(٤/ ١٧٨٧)برقم(٤٤٩٣). ومسلم (١/ ١٩٢) برقم (٢٠٦).

(١٣٥) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٩١) برقم (١٠٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يعني : مَن فَعَلَ مِن أقارب النبيِّ ﷺ ما لا يجوز ، وارتكبَ المعاصي ، وانتهكَ حُرماتِ الله تعالى.

وقال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ [آل عِمران : ٦٨] . ولَم يَقُلْ تعالى إنَّ أولى الناس بإبراهيم آلُ بيته أو صحابتُه . فالاتِّباع هو الذي يُعَوَّل عليه ، وكلما كان الإنسان حريصاً على الْمُتابَعة كان قريباً من النبيِّ ﷺ ، وإذا أعرضَ عن الاتِّباع كان بعيداً مطروداً حتى لو كان مِن آل بيته أو من صحابته. فآلُ البيت مَنهجٌ لا نَسَبٌ . وهذا المبدأ يقودنا إلى معانٍ جديدة لآل البيت وَقَفَ عليها المحقِّقون .

فقد قال الحافظ في الفتح (١١/ ١٦٠) : [وقِيل : المراد بالآل جميع الأُمَّة أُمَّة الإجابة ، وقال ابن العربي: مالَ إلى ذلك مالك، واختاره الأزهري، وحكاه أبو الطيب الطبري عن بعض الشافعية، ورجَّحه النووي في شرح مسلم، وقيَّده القاضي حسين والراغب بالأتقياء منهم . وعَلَيْه يُحمَل كلام مَن أَطلق. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إنْ أولياؤه إلا المتقون ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وقوله ﷺ : ((إنَّ أوليائي مِنكُم المتقون))[136]. وفي نوادر أبي العَيناء أنه غَضَّ من بعض الهاشميين ، فقال له : أتَغُضُّ مِنّي وأنتَ تُصلِّي عليَّ في كل صلاة في قَولك: اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ؟! ، فقال : إني أُريد الطيبين الطاهرين، ولستَ منهم]اهـ. وهذا يدل على أن الأتقياء هُم آل البَيْت الحقيقيون ، بغضِّ النظر عن كَوْنهم هاشميين أو غير هاشميين . فالعِبرةُ هي بالتقوى (رابطة الدِّين) ، وليس بالنَّسَب (رابطة الدَّم). وعن عمرو بن العاص قال : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ جِهاراً غَيْرَ سِرٍّ، يقول : ((ألا إنَّ آلَ أبي (يَعني فُلاناً) لَيسوا لي بأولياء ، إنَّما وَلِيِّ اللهُ ، وصالِحُ المؤمنين))[137].

---

(١٣٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٥٨) وصحَّحه، ووافقه الذهبي . والنص الكامل للحديث : عن إسماعيل بن عُبَيد بن رِفاعة عن أبيه عن جَدِّه قال : جَمَعَ رَسولُ الله ﷺ قُرَيْشاً ، فقال : ((مَن غَيْرُكم ؟)) ، قالوا : فِينا ابنُ أختنا ، وفِينا حَليفنا ، وفِينا مَولانا ، فقال : ((حَليفنا مِنَّا ، وابن أختنا مِنَّا ، ومَولانا مِنَّا ، إنَّ أوليائي مِنكُم المتقون)) .

(١٣٧)متفق عليه.واللفظ لمسلم(١/ ١٩٧) برقم (٢١٥). والبخاري (٥/٢٢٣٣) برقم (٥٦٤٤). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٣/ ٨٧) : ((هذه الكِناية بِقَوْله : يَعني فلاناً ، هي مِن

إنَّ النبيَّ ﷺ جَعَلَ التقوى هي معيار القُرب أو البُعد . فالصالِحُ قريبٌ مِنَ النبيِّ ﷺ حتى لَوْ كان نَسَبُه بعيداً ، وغيرُ الصالحِ بعيدٌ عن النبيِّ ﷺ حتى لَوْ كانَ قُرَشِيَّاً هَاشِمِيَّاً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ائْتُوني بِكِتابٍ مِن قَبْلِ هذا ﴾ [الأحقاف : ٤] .

إنَّ المشركين أقاموا دِينهم الوثنيَّ على التقليد الأعمى والأهواءِ الشخصية بلا دليلٍ شَرعيٍّ أو حُجَّةٍ عَقلية . وهذه الآيةُ تُوبِّخ المشركين ، وتَفضح باطلَهم ، وتَكشف عَجْزَهم .

واللهُ يأمرُ محمداً ﷺ أن يتحدى المشركين ، ويقول لهم : ائتوني بكتابٍ سماويٍّ مِن قَبْل القُرآنِ الناطق بالتَّوحيد وإلغاءِ الشِّرْك ، يدل على صِحَّة دِينكم ، ويأمركم بعبادة الأصنام . أحْضِروا لِي كِتاباً سماوياً مِن قَبْل القُرآن فِيه دليل على أن الأصنام شُركاء للهِ . وهذا تَعجيز لهم ، لأنَّ كُلَّ الكُتب السماوية جاءت بالتَّوحيد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/ ١٩): ((﴿ ائْتُوني بِكِتابٍ مِن قَبْلِ هذا ﴾ هذا تَبْكيت لهم، وإظهار لِعَجْزهم وقُصورهم عن الإتيان بذلك . والإشارة بِقَوله : ﴿ هذا ﴾ إلى القرآن ، فإنه قد صَرَّحَ بِبُطلان الشِّرْك ، وأن الله واحد لا شريك له، وأن الساعة حق لا رَيْب فيها، فهل للمُشركين مِن كتاب يُخالِف هذا الكتابَ أو حُجَّة تُنافي هذه الْحُجَّةَ ؟!)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عَلَيْهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الذينَ كفروا للحقِّ لَمَّا جاءَهُم هذا سِحْرٌ مُبين ﴾ [الأحقاف : ٧] .

إذا تُقرَأ على المشركين آياتُ القُرآنِ واضحاتِ الألفاظ ، ظاهراتِ المعاني ، قالوا عن القُرآنِ الحقِّ لَمَّا جاءهم بِهِ النبيُّ ﷺ مِن عِند اللهِ : هذا سِحْرٌ لا شَكَّ فِيه ، ظاهر البُطلان . ومِنَ الْمُلاحَظ أنَّ اتِّهام المشركين للقُرآن بأنَّه سِحْرٌ بِلا دليل ولا نَظَر. فَهُم لم يَدرسوا القُرآنَ ثُمَّ يُطْلِقوا عَلَيهِ حُكْمَهم. وإنما بادَروا إلى الجحود أوَّلَ سماعهم للقُرآن ، واتَّهموه بالسِّحر عِناداً وتكبُّراً وظُلماً . واتِّهامُ القُرآنِ بالسِّحرِ لا تقوم له قائمة ، لأنَّهُ اتِّهامٌ بدافع الهوى والعِناد ، بدون حُجَّةٍ ولا بُرهان . وهذه مَرجعه إلى قرارهم المسبق برفض الإيمان مهما كانت الظروف والبراهين .وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٧٧): ((﴿ قالَ الذينَ كفروا للحقِّ ﴾ لأجله وفي شأنه، والمراد به الآيات ، ووَضْعُه

بعض الرواة ، خَشِيَ أن يُسَمِّيَه فيترتب عليه مَفسدة وفِتنة ، إمَّا في حَقِّ نفْسه ، وإمَّا في حَقِّه وحق غَيره ، فكنَّى عنه)) .

مَوضع ضميرها ، ووَضْعُ ﴿ الذينَ كفروا ﴾ مَوْضِع ضَمير الْمَتْلُوِّ عَلَيهم للتسجيل عليها بالحق ، وعليهم بالكفر والانهماك في الضلالة . ﴿ لَمَّا جاءَهُم ﴾ حِينما جاءهم من غير نَظَر وتأمل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿أَم يَقولونَ افتراهُ قُل إِنِ افْتَرَيْتُهُ فلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيئاً﴾[الأحقاف: ٨].

لقد زَعَمَ المشركون أنَّ محمداً ﷺ اختلقَ القُرآنَ، وأتى بِهِ مِن عِند نفْسه.و﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ ﴾ معناها : بَل أيقولونَ افترى القُرآنَ ، وهذا إنكارٌ تَوبيخيٌّ . ومعلومٌ أنَّ محمداً ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولم يُعرَف عنه أنَّهُ كان يتردد على العلماء . فكيفَ سيأتي بهذا القُرآن الْمُعجِز المشتمل على أخبار الماضي والحاضر والمستقبل ؟! . ومعلومٌ كذلك أنَّ محمداً ﷺ هو الصادق الأمين ، فمن غير المعقول أن يَترك الكذبَ على الناس ويَكذب على اللهِ تعالى . وأيضاً ، آياتُ القُرآن تَدعو إلى تَوحيد اللهِ وتَعظيمه ، ولا تَدعو إلى عبادة محمد ﷺ ، أو تحقيق مصالح شخصية له. وهناكَ آيات تُعاتِب النبيَّ ﷺ وتَكشف بعضَ الأمور الشخصية في حياته ، ولوْ كانَ محمد هو مُؤلِّف القُرآن لأخفى هذه القضايا عن الناس .

﴿ قُل إِنِ افْتَرَيْتُهُ فلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللهِ شَيئاً ﴾ . هذا على سبيل الفَرْض . فإنِ افترى محمد القُرآنَ ، ثُمَّ نَسَبَه إلى اللهِ تعالى ، فلا يَقْدِر المشركون على حمايته من عذاب الله . فكيفَ يُعرِّض نفْسَه للعذابِ الإلهيِّ مِن أجلهم وهُم عاجزون عن حمايته ؟! . ولا يُوجد مخلوق يَستطيع أن يَرُدَّ العقوبةَ الإلهية ، ولا يَقْدِر أحدٌ على حماية نفْسه من غضب اللهِ ، فكيفَ يَحمي الآخرين ؟! . والآيةُ تَحمل تَهديداً أكيداً ووعيداً شديداً . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٧) : ((أي : لَوْ كَذَبْتُ عَلَيهِ وزَعمتُ أنَّهُ أرْسَلَني وليس كذلك ، لَعَاقبني أشدَّ العقوبة ، ولم يَقْدِر أحد مِن أهل الأرض ، لا أنتم ولا غَيْرُكم ، أن يُجيرني منه)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٥٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ ﴾ الميم صِلَة ، التقدير : أيقولون افتراه ، أي تَقَوَّله محمد ، وهو إضراب عن ذِكْر تسميتهم الآيات سِحْراً . ومعنى الهمزة في ﴿ أَم ﴾ الإنكار والتَّعجُّب . كأنه قال : دَعْ هذا ، واسمعْ قَوْلَهم الْمُسْتَنْكَر المقضي منه العجب . وذلك أنَّ محمداً كان لا يَقْدِر عَلَيهِ حتى يَقوله ويَفتريَه على الله ، ولوْ قَدِرَ عَلَيهِ دُون أُمَّة العرب ، لكانت قدرتُه عَلَيهِ مُعجزة لِخَرْقها العادة ، وإذا كانت مُعجزة كان تصديقاً مِنَ الله له ، والْحَكَمُ لا يُصَدِّقُ الكاذبَ ، فلا يَكون مُفْتَرِيَاً ، والضمير للحق ، والمراد به الآيات)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل أرأيْتُم إن كانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن بني إسرائيلَ على مِثْلِهِ فآمَنَ واسْتَكْبَرْتُم ﴾ [الأحقاف : ١٠] .

قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يَزعمون أنَّ القُرآنَ سِحْرٌ : أرأيتُم إن كانَ القُرآنُ مِن عِند اللهِ ، وكفرتُم بِه ، كيف يَكون حالُكم ؟ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٨) : ((أي : ما ظَنُّكم أنَّ اللهَ صَانعٌ بكم إن كان هذا الكتاب الذي جِئتكم بِه قد أُنزِلَ عليَّ لأُبَلِّغَكُموه وقد كفرتُم به وكَذَّبْتُموه)) اهـ . وقد شَهِدَ عبدُ الله بن سلام ، وكانَ مِن كِبار أحبار اليهود ، أنَّ محمداً ﷺ صادق ، ومَذكور في التَّوراة . وهذا الشَّاهِدُ (عبد الله بن سلام) آمَنَ لَمَّا تَبَيَّنَ له الحق ، حيث أدركَ أنَّ القُرآن والتَّوراة لهما مَصْدَر واحد، وهو الوَحْيُ الإلهيُّ. وقِيل: الشاهد هو النبيُّ موسى ﷺ وشهادته ما في التَّوراة مِن وَصْف النبيِّ محمد ﷺ . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ١٣٧) : ((هو عبد الله بن سلام عند الجمهور .ولهذا قِيل:إن هذه الآية مدنية لأن إسلام ابن سلام بالمدينة)) اهـ. أمَّا المشركون فقد كَفروا عِناداً وظُلماً ، واسْتَكْبَروا عن الإيمان .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ٣٧٣) عن " الشَّاهد " : ((وفِيه قَولان : أحدهما أنه عبد الله بن سلام، رواه العَوفي عن ابن عباس، وبِه قال الحسن ومجاهد وقتادة والضَّحاك وابن زيد. والثاني أنه مُوسى بن عِمران _ عليه السلام _ قاله الشَّعْبي ومسروق ، فعلى القَول الأول يَكون ذِكْر الْمِثْل صِلَة ، فيكون المعنى : وشهد شاهد من بني إسرائيل عليه ، أي على أنه مِن عند الله ، فآمنَ الشاهدُ ، وهو ابن سلام ، واستكبرتم يا معشر اليهود . وعلى الثاني يكون المعنى : وشهد موسى على التَّوراة التي هي مِثْلُ القرآن أنها مِن عند الله، كما شَهد محمد على القرآن أنه كلام الله فآمن مَن آمنَ بموسى والتوراة، واستكبرتم أنتم يا معشر العرب أن تؤمنوا بمحمد والقرآن)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٣٨٧) : عن سعد بن أبي وقاص _ رضي اللهُ عنه _ قال : ما سَمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لأحدٍ يمشي على الأرض إنَّهُ مِن أهل الجنة ، إلا لِعَبد الله بن سلام . قال : وفِيه نزلت هذه الآية : ﴿ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِن بني إسرائيلَ على مِثْلِهِ ﴾ .

وهذه فضيلة عُظمى للصحابيِّ الجليل عبد الله بن سلام _ رضي اللهُ عنه _ الذي كانَ مِن كِبار أحبار اليهود ، وقد كانَ عالِماً بالتَّوراة التي فِيها ذِكْر محمد ﷺ ، فأدركَ أن القُرآنَ مِن عِند الله ، لأنَّ التَّوراة والقُرآن كتابان سماويان يَشتملان على التَّوحيد والأخلاق وأنظمة التشريع .

وعن عَوْف بن مالك الأشجعيِّ قال: انطلقَ النبيُّ ﷺ وأنا مَعَهُ حتى دَخَلْنا كنيسةَ اليهود فقال : ((يا مَعْشَرَ اليهود ، أروني اثني عَشر رَجلاً يَشهدون أن لا إلهَ إلا الله ، وأنَّ محمداً رسولُ الله ، يَحُطَّ اللهُ عَن كُلِّ يَهوديٍّ تحت أديم السماء الغضبَ الذي غَضِبَ عَلَيهم)) ، قال : فَأُسْكِتُوا ، ما أجابه مِنهم أحد ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيهم فَلَم يُجِبْهُ مِنهم أحد ، فقال : ((أبيتُم ، فَوَاللهِ لأنا الحاشرُ ، وأنا العاقبُ ، وأنا النبيُّ المصطفَى ، آمنتُم أو كَذَّبْتُم)) ، ثُمَّ انصرفَ وأنا مَعَهُ حتى كِدْنا أن نَخرج، فإذا رَجلٌ مِن خَلْفِنا يقول : كما أنتَ يا محمد ، فقال ذلك الرَّجل : أيُّ رَجُلٍ تَعْلَمُوني فِيكم يا مَعْشَرَ اليهود ؟ ، قالوا : واللهِ ما نَعْلَمُ أنَّهُ كان فِينا رَجُلٌ أعلمُ بكتاب الله مِنكَ ، ولا أفقهُ مِنكَ ، ولا مِن أبيك قَبْلَك ، ولا مِن جَدِّكَ قَبْلَ أبيك ، قال : فإني أَشهدُ له باللهِ أنَّهُ نبيُّ الله ، الذي تجدونه في التَّوراة ، فقالوا : كَذَبْتَ ، ثُمَّ رَدُّوا عَلَيهِ قَوْلَه ، وقالوا فيه شرَّاً . فقال رسول الله ﷺ : ((كَذَبْتُم، لَن يُقْبَلَ قَوْلُكم ، أمَّا آنِفاً فَتُثنون عَلَيه من الخير ما أثنيتُم ، وأمَّا إذا آمنَ فَكَذَّبْتُموه ، وقُلتم فيه ما قُلتم ، فَلَن يُقْبَلَ قَوْلُكم)) ، قال : فَخَرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله ﷺ وأنا وعبد الله بن سلام . وأنزلَ اللهُ تعالى فِيه : ﴿ قُل أرأيْتُم إن كانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُم بِهِ ﴾ (138).

وهؤلاء الاثنا عشر هُم زُعماء اليهود ، سواءٌ كانوا قادةً سياسيين أو دِينيين . وهؤلاء هُم رُؤساء اليهود ، ولوْ أسْلَموا لَتَبِعهم اليهودُ كُلُّهم . ولا يخفَى أن الناس تَبَعٌ للأمراء والعلماء . ولوْ أسلَموا لَكَفَّرَ اللهُ ذُنوبَ اليهود ، وبَدَّلَ سَيِّئاتِهم حسنات . وقد رَفض اليهودُ دَعوةَ النبيِّ ﷺ ، وآثَروا الكُفرَ على الإيمان ، وفضَّلوا حُطامَ الدُّنيا الزائل على نعيم الآخِرة الباقي .

وقد وبَّخهم النبيُّ ﷺ على كُفرهم، وصَدَّقَ نفْسَه بنفْسَه لأنَّ اللهَ مُؤيِّدُه، وذَكَرَ أنَّهُ هو الحاشر: الذي يُحشَر الناسُ خَلْفَه يَوْمَ القيامة ، والعاقبُ : آخِرُ الأنبياء ، والنبيُّ المختار الذي اصطفاه اللهُ وزكَّاه . وهذا رَدٌّ بَليغ على اليهود ، ودَحْضٌ لِكُفرهم . والنبيُّ ﷺ صادقٌ ، سَواءٌ آمنَ بِهِ اليهودُ أم كَفروا . وقد تَبِعَ النبيَّ ﷺ عبدُ الله بن سلام (وكان مِن كِبار أحبار اليهود) ، وقد مَدَحَه اليهودُ لأنَّهُ حَبْرُهم الكبير ، وسَيِّدُهم العظيم . وحِينَ عَلِموا بإسلامه ، كَذَّبوا أنفسَهم بأنفسهم، وانتَقَصُوه، وطَعَنوا فيه عِناداً واستكباراً ، خُضوعاً للأهواء الشخصية ، والمصالح الذاتية . وقد وَبَّخهم النبيُّ ﷺ على تصرُّفهم الدَّنيء الذي يدل على جَهلهم وعِنادهم وتناقضهم . وفي صحيح البخاري(٤/١٦٢٨): عن أنس قال: سمع عبد الله بن سلام بِقُدوم رسول الله ﷺ، وهو في أرضٍ

(١٣٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٤٦٩) برقم (٥٧٥٦) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَخْتَرِفُ _ يعني يَجتني مِن ثمارها _ ، فأتى النبيَّ ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاثٍ لا يَعلمهُنَّ إلا نبيٌّ، فما أوَّلُ شَرَطِ الساعة ؟، وما أوَّلُ طعامِ أهل الجنة ؟، وما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه أو إلى أُمِّه ؟ ، قال : ((أخبَرَني جِبريلُ آنِفاً)) . قال : جِبريل ؟ ، قال : ((نعم)) . قال : ذاكَ عَدُوُّ اليهودِ مِنَ الملائكة ، فقرأ هذه الآية : ((﴿ مَن كان عَدُواً لجبريل فإنه نزَّله على قلبكَ بإذن الله ﴾ . أمَّا أوَّلُ أشراط الساعة ، فنارٌ تَحْشُر الناسَ من المشرق إلى المغرب ، وأمَّا أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حُوت ، وإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجل ماءَ المرأة نَزع الولدَ ، وإذا سَبق ماءُ المرأة نَزعت)) . قال : أشهد أن لا إلهَ إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، يا رسول الله إنَّ اليهودَ قَوْمٌ بُهْتٌ ، وإنهم إنْ يَعلموا بإسلامي قَبل أن تسألهم يَبهتوني ، فجاءت اليهودُ ، فقال النبيُّ ﷺ : ((أيُّ رَجُلٍ عبدُ الله فِيكم)) . قالوا : خَيْرُنا وابنُ خَيْرِنا ، وسَيِّدُنا وابنُ سَيِّدِنا . قال : ((أرأيتُم إن أسلَمَ عبدُ الله ابن سلام ؟)) . فقالوا: أعاذه اللهُ مِن ذلك، فخرجَ عبدُ الله، فقال:أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ الله .

فقالوا : شَرُّنا وابنُ شَرِّنا ، وانتَقَصُوه . قال : فهذا الذي كُنتُ أخافُ يا رسول الله .

وعبد الله بن سلام كان حَبْراً يهودياً باحثاً عن الحق ، وعندما وَجده أعلن إسلامَه فصار صحابياً جليلاً _ رضي الله عنه _ . وها هو يريد سؤال النبيِّ ﷺ عن ثلاث مسائل لا يَعلمها إلا نبيٌّ ، وذلك لكي يتأكد مِن نُبُوَّة محمد ﷺ . وهذا هو أسلوب الباحثين عن الحق ، الساعين بكل إخلاص إلى النُّور الرَّبانيِّ . وقد كان بإمكان عبد الله بن سلام أن يفعل مثل قومه اليهود ، فيتخذ موقفاً مسبقاً من الدعوة المحمَّدية الإسلامية فيُكذِّب النبيَّ ﷺ مباشرةً وبلا مقدِّمات ولا حوار. ولكنه اتخذ الحوارَ والتحقق من أمر محمد ﷺ طريقاً له نحو الحق ، وهذا يدل على رجحان عقله ، وثقته بنفْسه . فالحوارُ هو لغة الأقوياء الواثقين ، والهروبُ منه لغة العاجزين الذين ليس لديهم ما يُقدِّمونه مِن حُجَج وبراهين وأدلة منطقية .

والنبيُّ ﷺ لا يَقْدِر على الإتيان بالأجوبة من تِلقاء نفْسه ، بَل ينتظر الوَحْيَ لإخباره . وقد أخبرَه جِبريلُ _ عليه السلام _ بأجوبة المسائل الثلاث التي سَأل عنها عبد الله بن سلام . واليهودُ يَعتبرون جَبريل عَدُوَّهم مِنَ الملائكة ، وهذا جَهل قبيح مِنهم ، وكفر واضح ، لأنَّ الملائكة يُنفِّذون أوامرَ اللهِ تعالى ، ولا يَفعلون شَيئاً مِن تِلقاء أنفسهم . وقال الحافظ في الفتح (٨/ ١٦٥) : ((قيل : سبب عداوة اليهود لجبريل أنه أُمر باستمرار النُّبُوَّة فِيهم فَنَقلها لِغَيرهم.وقِيل: لِكَونه يَطَّلع على أسرارهم. قلت : وأصحُّ مِنهما ... لِكَوْنه الذي يَنْزِل عليهم بالعذاب)) اهـ .

القضيةُ الأولى : أوَّلُ علامات الساعة هي نارٌ عظيمة تَجمع الناسَ من المشرق إلى المغرب . والأشراطُ هي العلامات التي يَعقبها قِيامُ القِيامة . والثانية : أوَّلُ طعام أهل الجنة هو طَرف كبد الحوت ، وهو أطيبُ جُزء في الكبد . والثالثة : ما يَنْزِعُ الولدَ إلى أبيه أو إلى أُمِّه ؟ . يعني : ما الذي يَجعل الولدَ يُشبِه أباه أو أُمَّه ؟ . إذا علا ماءُ الرَّجل (الْمَنِيُّ) ماءَ المرأة أشبهَ الولدُ أباه وأعمامَه ، وإذا علا ماءُ المرأةِ ماءَ الرَّجل أشبهَ الولدُ أُمَّه وأخوالَه .

وعِندما سَمع عبدُ الله بن سلام هذه الأجوبة تأكَّدَ أنَّ محمداً ﷺ رسول مِنَ الله . وأرادَ أن يَفضح اليهودَ الذين هُم كَذَّابون ومُعانِدون. وقد فَضحوا أنفسَهم بأنفسهم ، إذ إنهم مَدحوا عبد الله بن سلام قبل أن يَعْلَموا بإسلامه ، وحِين عَلِموا بإسلامه طَعنوا فِيه . وهذا مُنتهَى التناقض والجهل المكشوف والعِناد الظاهر والكفر القبيح . وهذا يدل _ بكل وضوح _ على أن اليهودَ قَوْمٌ بُهْتٌ ، وأهلُ غدرٍ وكذب وفُجور . وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٤٣٣) في معنى " قَوْمٌ بُهْتٌ " : ((هو جَمْع بَهُوت، مِن بِنَاء الْمُبالَغة في البَهْت_الكذب الْمُفْتَرَى_)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وقالَ الذينَ كفروا للذينَ آمَنوا لَوْ كانَ خَيراً ما سَبَقُونا إلَيْهِ وإذْ لم يَهتدوا بِهِ فَسَيَقولونَ هذا إفْكٌ قَديمٌ ﴾ [الأحقاف : ١١] (139).

---

(١٣٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ٣٧٥): ((قَوْله تعالى: ﴿ وقالَ الذينَ كفروا للذينَ آمَنوا ﴾ الآية.في سبب نزولها خمسة أقوال:أحدها أنَّ الكفار قالوا: لَوْ كان دِين محمد خَيراً ما سبقنا إليه اليهود، فَنَزلت هذه الآية، قاله مسروق. والثاني أنَّ امرأةً ضعيفة البصر أسلمتْ ، وكان الأشراف مِن قُرَيش يهزؤون بها ، ويقولون: واللهِ لَوْ كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقتنا هذه إليه ، فَنَزلت هذه الآية، قاله أبو الزِّناد. والثالث أنَّ أبا ذَر الغِفاريَّ أسلمَ واستجابَ بِه قَوْمُه إلى الإسلام ، فقالت قُرَيش: لَوْ كان خيراً ما سبقونا إليه،فَنَزلت هذه الآية، قاله أبو المتوكِّل، والرابع أنه لَمَّا اهتدت مُزَينة وجُهَينة وأسلمتْ، قالت أسد وغَطَفان : لَوْ كان خيراً ما سَبَقَنا إليه رِعاء الشَّاء ، يَعْنُون مُزَينة وجُهَينة، فَنَزلت هذه الآية، قاله ابن السائب. والخامس أنَّ اليهود قالوا : لَوْ كان دِينُ محمد خيراً ما سبقتمونا إليه ، لأنه لا عِلْمَ لكم بذلك،ولوْ كان حقاً لدخلنا فِيه، ذَكَره أبو سليمان الدمشقي. وقال : هو قَول مَن يقول: إنَّ الآية نزلت بالمدينة . ومَن قال : هي مكية ، قال : هُوَ قَول المشركين . فقد خَرج في الذين كفروا قَولان: أحدهما أنهم المشركون.والثاني اليهود. وقَوْلُه: ﴿ لَوْ كانَ خَيراً ﴾ أي لَوْ كان دِين محمد خَيراً ما سَبقونا إليه،فَمَن قال:هُم المشركون،قال:أرادوا إنَّا أعزُّ وأفضل.ومن قال: هُم اليهود. قال: أرادوا لأنَّا أعْلَم)).

قال الكافرون في حق المؤمنين : لَوْ كانَ الإيمانُ بالقُرآنِ ونُبُوَّةِ محمدٍ خيراً ما سَبَقَنا إلَيه هؤلاء الضُّعفاء والفقراء ، مِثْل : عَمَّار ، وبلال ، وصُهَيب ، وخَبَّاب ، وابن مسعود ، رضي اللهُ عنهم .

والكافرون كانوا يَعتبرون أنَّ غالبية أتباع النبيِّ ﷺ هُم الفُقراء والضُّعفاء والعبيد والرُّعاة ، وأنهم أرقَى وأعظم مِنَ الجلوس معَ هؤلاء الذين يُمثِّلون قاعَ المجتمع _ حَسَبَ عقلية التَّكبر الجاهلية _. وقد ضَلُّوا طريقَهم حِين اعتقَدوا أن المقاييس المادية الدُّنيوية كالمال والحسَب والنَّسَب ، هي مِعيار الهداية الرَّبانية ، ودليل التوفيق الإلهيِّ ، ومُؤشِّر على رِضا الله . فالدُّنيا ذليلة لا قيمة لها ، ولا تُساوي عِند اللهِ جناحَ بعوضة . والشَّرفُ الحقيقيُّ هو الإيمانُ باللهِ . والمؤمنُ هو الشَّريف سواءٌ كان غنياً أم فقيراً. وهذا التَّكبرُ قد حَجبهم عن الإيمان، فباؤوا بالخزي والذل والعار في الدُّنيا والآخرة . والجزاءُ مِن جِنس العَمل . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٨) عن هؤلاء الكافرين: ((وما ذاكَ إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أنَّ لهم عِند الله وَجاهة ، وله بِهم عِناية ، وقد غلطوا في ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأً بَيِّناً)) اهـ .

﴿ وإذْ لم يَهتدوا بِهِ فَسَيَقولونَ هذا إفْكٌ قَديمٌ ﴾ . وإذْ لَم يَهتدوا بالقُرآن ، فسيقولون هذا كذبٌ قديم . إنَّهم لَمَّا عَجِزوا عن رُؤية نُور القُرآن، وابتَعدوا عن الهدى والطريق المستقيم ، طَعَنوا في القُرآن بلا دليل،واتَّهموه بأنَّه كذبٌ قديم مِنَ الأقدمين، كَقَولهم : أساطير الأوَّلين . وهكذا ظَهر عِنادُهم وجَهْلُهم وغُرورُهم، والناسُ أعداءُ ما يَجهلون. وقال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٦٣) : ((وقِيل لبعضهم : هل في القرآن : مَن جَهِلَ شَيئاً عَاداه ؟ ، فقال : نعم ، قال الله تعالى : ﴿ وإذْ لم يَهتدوا بِهِ فَسَيَقولونَ هذا إفْكٌ قَديمٌ ﴾)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٩٨) : ((أي : كَذبٌ قديم ، أي مَأثور عن الناس الأقدمين ، فَيَنتقصون القرآنَ وأهلَه)) اهـ .

إنَّ الكِبْـرَ يُسيطر على عقول المشركين وسلوكِهم ، فَهُم يَظُنُّون أنفسَهم هُم الأشراف ، والآخرين هُم العبيد والرَّعاع والفُقراء . ولا يتخيَّلون أنَّ اللهَ اختارَ الفُقراء والضُّعفاء للإيمان وتَرَكَهم وهُم السَّادة أصحاب المكانة الاجتماعية الرفيعة . وهذا هو الوهم القاتل في أبشع صُوَره .

وفي صحيح مسلم (١/ ٩٣) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ ، وغَمْطُ الناسِ)) .

إنَّ الكِبْرَ هو رُؤيةُ الحق باطلاً، وإنكارُه تَكَبُّراً وتجبُّراً وترفُّعاً، وعدم القبول به، واحتقارُ الناس.

وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١/ ٣٤٩) : ((هُوَ أن يَجعل ما جَعَله الله حَقاً مِن تَوْحِيده وعبادته باطلاً . وقِيل : هُوَ أن يَتجَبَّر عند الحق فلا يراه حَقاً. وقِيل: هُوَ أن يَتكبَّر عن الحق فلا يَقبلُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [النَّجْم : ٣] .

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يَنطق عَن هَواه ، أي بِهَواه وشَهوته ، ولا يتكلم بالباطل ، ولا يَأتي بشيء مِن تِلقاء نفْسه . وقد زَعم المشركون أنَّ القُرآنَ مِن تأليف محمد ﷺ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٥/ ١٤٩) : ((أي : ما يَصدر نُطْقُه عن الهوى ، لا بالقرآن ولا بِغَيره ... وقال أبو عُبَيدة : إنَّ ﴿ عَنِ ﴾ بمعنى الباء : أي بالهوى. قال قتادة: أي ما يَنْطِقُ بالقراءة عَن هَواه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النَّجْم : ٤].

إنَّ ما يَنْطِقُ بِهِ النبيُّ ﷺ وَحْيٌ مِنَ اللهِ، لا يُنقِص مِنهُ ولا يَزيد. وهذا الوَحْيُ هو القُرآنُ والسُّنَّة، ولا يُقبَل أحدُهما دُون الآخَر. وقد احتجَّ بهذه الآية مَن لا يُجيز للنبيِّ ﷺ أن يَجتهد في الحوادث. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٦٢): ((وليس كما ظَنُّوا، لأنَّ اجتهاد الرأي إذا صَدر عن الوَحْي، جازَ أن يُنسَب إلى الوَحْي))اهـ.وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٥/١٤٩):((﴿ يُوحَى ﴾ صِفة لِوَحْي، تفيد الاستمرار التَّجددي،وتفيد نَفْيَ المجاز: إنْ هُوَ وَحْيٌ، حقيقةً لا لِمُجَرَّد التَّسمية)).

وعن أبي أُمَامة أنَّهُ سَمع رسولَ الله ﷺ يقول : ((لَيَدْخُلَنَّ الجنةَ بِشَفاعةِ رَجُلٍ لَيْسَ بنبيٍّ مِثْلُ الْحَيَّيْنِ أوْ مِثْلُ أحد الحيين رَبيعةَ ومُضَر)) ، فقال رَجل : يا رسول الله، أوَ مَا ربيعةُ مِن مُضَر ؟ ، فقال : ((إنَّما أَقُولُ مَا أُقَوَّلُ))(140).

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يأتي بشيء مِن عِنده ، وإنَّما يَقول كما يُلقِّنه الوَحْيُ ويُعلِّمه بلا زيادة ولا نقصان . وقال المناوي في فَيض القدير (٥/ ٣٥٢) : (((ليدخلن الجنة بشفاعة رَجل) قِيل : إنه أُوَيس القَرَنِيُّ ... فقال رَجل : يا رسول الله وما ربيعة مِن مُضَر ؟، أي ما نِسْبة ربيعة إلى مُضَر ،

(١٤٠) رواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٥٧). وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤١): ((رواه أحمد بإسناد جيِّد)) اهـ . وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٩٣) : ((رواه أحمد والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح، غَير عبد الرحمن بن ميسرة ، وهو ثقة)).

وبينهما في الشرف بَوْن بعيد ، فقال : (إنما أَقُول ما أُقَوَّل) ... أي لُقِّنْتُه وعُلِّمْتُه ، أو أُلْقِيَ على لِساني من الإلهام ، أوْ هُوَ وَحْيٌ حَقيقةً)) اهـ .

وعن عبد الله بن عمرو قال : كُنتُ أكتب كُلَّ شيء أسمعه مِن رسول الله ﷺ ، وأُريد حِفْظَه ، فَنَهَتْني قُرَيْشٌ ، وقالوا : تكتب كُلَّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ يتكلم في الرِّضا والغضب ؟! ، قال : فأمسكتُ فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : ((اكتبْ فوالذي نفْسي بيده ، ما خَرج مِنهُ إلا حَق)) . وأشارَ بيده إلى فِيه _ يعني فمه الشريف _ [141].

وهذا يدل على أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَأتي بشيء مِن عِنده في حال الرِّضا ولا في حال الغضب . وإِنَّما هُوَ وَحْيٌ إلهيٌّ في قلبه ، وعلى لسانه ، فلا يتكلم إلا بالحق ، ولا شيء غَير الحق .

وقالَ النبيُّ ﷺ : ((وما أخْبَرْتُكم أنَّهُ مِن عِندِ اللهِ ، فَهُوَ الذي لا شَكَّ فِيه)) [142].

وهذا يدل على أنَّ الوَحْيَ الإلهيَّ كاملٌ ومَعصوم ، لا زيادة فِيه ولا نُقصان . وعن أبي هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه_ قال : قالوا يا رسول الله ، إنَّكَ تُداعبنا . قال : ((إني لا أقول إلا حقاً))[143].

وهذا يدل على أهمية الْمُلاطَفة والمِزاح باعتدال ، ولَيس في كُلِّ وقت . فهناك أوقات لا يَصلح

فيها إلا الجِد ، وأوقات لا يَصلح فيها إلا المِزاح . كما قال الشاعرُ :

أُهازِلُ حَيْثُ الْهَزْلُ يَحْسُنُ بالفتى   وإِنِّي إذا جَدَّ الرِّجالُ لَذُو جِدِّ

والنبيُّ ﷺ صادقٌ في كُلِّ أحواله لِعِصمته مِنَ الخطأ والزَّلَل ، فلا يَقول في مِزاحه إلا حقَّاً وعَدْلاً وصِدْقاً، وهذا لا يُطيقه الناس لأنهم غَير مَعصومين. وفي فَيض القدير (٣/ ١٤) : ((قال الرَّاغب: المِزاح والْمُدَاعَبة إذا كان على الاقتصاد محمود ، والإفراطُ فيه يُذهب البهاءَ ، ويُجري السُّفهاءَ ، وتَرْكُه يَقبض الْمُؤانسَ ، ويُوحِش الْمُخالِطَ . لكنَّ الاقتصادَ مِنه صعب جداً ، لا يكاد يُوقَف عليه. ولذلك يَخرج عنه أكثر الحكماء ، حيث قِيل : المِزاح مَسْلَبَة للبَهاء ، مَقْطَعة للإخاء)) اهـ .

---

(١٤١) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٨٧) برقم (٣٥٩) وصحَّحه .

(١٤٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٥/ ٤٦٥) برقم (٢١٠٦) .

(١٤٣) رواه الترمذي في سُننه (٤/ ٣٥٧) برقم (١٩٩٠) . وقال : ((حسن صحيح)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَرْني ومَن يُكَذِّبُ بهذا الحديثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ [القَلَم : ٤٤] .

هذا تهديدٌ إلهيٌّ شديدٌ للكافرين . واللهُ يُخاطبُ رسولَه ﷺ : دَعْني يا مُحمَّد والْمُكذِّبين بهذا القُرآن ، سترى ما أنا صانعٌ بِهم . اترُكْني لأكفِيَكَ شَرَّهم ، وأنتقمَ مِنهم ، ولا تُشغِل قَلْبَكَ بهم ، وتَوَكَّلْ عليَّ ، فأنا خالقُهم وأعلمُ بِهم مِن أنفسِهم . وهذا تخفيفٌ عن النبيِّ ﷺ . والحديثُ هُوَ القُرآن، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُحدِّث بِهِ أصحابَه_ رضي اللهُ عنهم _ . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠١) : ((أي : فَدَعْني والْمُكذِّبين بالقُرآن ، وَخَلِّ بَيني وبَيْنَهم)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٠١) : ((وهذا كَقَول القائل لآخَر غَيْرِه يَتوعَّد رَجلاً : دَعْني وإيَّاه)) اهـ . وهذا مُنتهى الوعيد والتهديد .

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ . هذه الآيةُ تُوضِّح كيفيةَ العذاب، وطبيعةَ العقوبة . فاللهُ تعالى سَيُقَرِّبهم من العذاب درجةً درجةً، وذلك بالإمهال ، وإعطائهم الصحة والعافية ، وتكثير أموالِهم وأولادِهم،وإدامةِ النِّعَم عَلَيهم.فكُلما فَعلوا معصيةً مُنِحوا نِعمةً تُنسيهم الاستغفارَ والشُّكرَ، فيزدادون ذُنوباً وآثاماً ، ويَغرقون في المعاصي أكثر فأكثر ، ظَنَّاً مِنهم أن كثرة النِّعَم تدل على رِضا اللهِ عنهم ، وأنهم أفضل من المؤمنين . وهُم لا يَعلمون أنَّ هذه عُقوبة إلهية . وقد أساؤوا التقدير حِينَ اعتبَروا النِّعَمَ المحيطة بهم كرامةً مِنَ اللهِ. إنَّها إهانة لا كرامة . وقد وَقَعوا في الاغترار. وساقهم اللهُ إلى العذاب وهُم غافلون .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢١٩) : ((﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لا يَعْلَمُون ﴾ . معناه سنأخذهم على غَفلة وهُم لا يَعرفون ، فَعُذِّبوا يَوْمَ بَدْر . قال سُفيان الثوري : نُسبِغ عَلَيهم النِّعَمَ ونُنسيهم الشُّكرَ . وقال الحسن : كَم مُسْتَدْرَجٍ بالإحسان إلَيه ، وكَم مَفتونٍ بالثناء عليه ، وكَم مَغرور بالسَّتْر عليه.وقال أبو روق: أي كُلما أحْدَثوا خطيئة جَدَّدْنا لهم نِعمةً، وأنسَيْناهم الاستغفار. وقال ابن عباس : سَنَمْكُر بهم . وقِيل : هو أن نأخذهم قليلاً ولا نُباغِتهم)) اهـ .

وفي شَرح الحِكَم العطائية (١/ ٦٥) : ((خِفْ _ أيها المؤمن _ مِن وجود إحسانه سُبحانه عَلَيك معَ دوام إساءتك معه بترك أوامره ، أن يكون ذلك استدراجاً ، أي تدريجاً لك شيئاً فشيئاً ، حتى يأخذك بَغتة . فإنَّ الخوف مِنَ الاستدراج بالنِّعَم من صفات المؤمنين ، كما أنَّ عدم الخوف

منه معَ الدوام على الإساءة من صفات الكافرين)) اهـ . وعن أبي موسى _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه))[144].

إنَّ اللهَ يُعطي الظالِمَ فُرصاً زمنية عديدة، فيُطيل له في المدة ، ويُمْهِله ولا يُهْمِله ، وإذا أخذه لَم يُطْلِقْه ، لأن أَخْذَه _ سُبحانه وتعالى _ أليم شديد . فإذا رأيتَ ظالماً يزداد تكبراً وغطرسةً ونفوذاً وسطوةً فاعلم أن الله تعالى يَستدرجه . والعاقلُ مَن يَقرأ حركةَ التاريخ جيداً . فالقويُّ لا يظل قوياً حتى النهاية ، والضعيف لن يَبقى ضعيفاً إلى الأبد .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٣٧) : ((معنى يُمْلي : يُمْهِل ويُؤخِّر ويُطيل له في المدة ، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان ، بضم الميم وكسرها وفتحها . ومعنى لم يُفلته لم يُطْلقه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن يَكادُ الذينَ كفروا لَيُزْلِقُونَكَ بأبصارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويَقولونَ إنَّهُ لَمَجنون ﴾ [القَلَم : ٥١] .

كانَ الكفارُ يُرَكِّزون النَّظَرَ في النبيِّ ﷺ حِقْداً عَلَيهِ وكراهيةً له . ويَكادون يَصرعونه بِشِدَّةِ النَّظر إلَيه ، وهذا هو التفسير الراجح . والتفسيرُ الثاني أنهم أرادوا إصابة النبيِّ ﷺ بالعَيْن ، وذلك مِن شِدَّة عداوتهم له ، فكانوا _ إذا قَرأ النبيُّ ﷺ القُرآنَ _ يَنظرون إلَيه نَظَراً شديداً ومُرَكَّزاً من أجل صَرْعِه وإسقاطه. وقد عَصَمَهُ اللهُ مِن كُلِّ شَرٍّ ، وَحَمَاهُ مِن كُلِّ مَكروه. والآيةُ تدل على أنَّ قلوبَهم تَغْلي بالحسد والحِقد والعداوة ، كما تدل _ حَسَبَ التفسير الثاني _ على أنَّ الإصابة بالعَيْن حَق ، وتأثيرها واقع . وكُلُّ شيء بإذنِ اللهِ تعالى .

﴿ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويَقولونَ إنَّهُ لَمَجنون ﴾. كان الكافرون يَكرهون سَماعَ القُرآنَ(الذِّكْر) أشدَّ الكراهة ، فيُرَكِّزون أنظارَهم على النبيِّ ﷺ بُغضاً له ، ويَنسُبونه إلى الجنون بدافع الحِقد والبغضاء ، دون أن يُقدِّموا أيَّ دليلٍ على اتِّهامهم . والآيةُ السابقة دليل على أنَّ نَظَرَ الكافرين للنبيِّ ﷺ لا علاقة له بالعَيْن ، لأنَّ إصابة العَيْن إنَّما تَكون معَ الإعجاب والاستحسان لا معَ البُغض والكراهية . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢٠١): ((وذلك أن الكفار أرادوا أن يُصيبوا رسولَ الله ﷺ بالعَيْن ، فنظر إلَيه قَومٌ مِن قُرَيش ، وقالوا : ما رَأَيْنا مِثْلَه ولا مِثْلَ حُجَجِه . وقِيل : كانت العَينُ في بني أسد ، حتى كانت الناقة والبقرة السمينة ، تمرُّ بأحدهم فَيُعاينها ، ثُمَّ يقول : يا جارية ،

---

(١٤٤) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٧٢٦) برقم (٤٤٠٩)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٣) .

خُذي المِكْتَل _الوعاء _ والدرهم، فأتينا بشيءٍ مِن لحم هذه، فما تَبْرَح حتى تقع بالموت فَتُنْحَر)).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٤٣و٣٤٤) : ((وفي معنى الآية للمُفسِّرين قَولان : أحدهما أن الكفار قَصدوا أن يُصيبوا رسولَ الله ﷺ بالعَين. وكان فيهم رَجل يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل شيئاً ، ثُمَّ يَرفع جانب خِبائه ، فتمر به النَّعَم ، فيقول : لَم أرَ كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً ، حتى يَسقط منها عِدَّة ، فسأل الكفارُ هذا الرَّجلَ أن يُصيب رسولَ الله ﷺ بالعَين ، فَعَصم اللهُ نَبِيَّه، وأنزل هذه الآية، هذا قول الكلبي، وتابعه قَوم من المفسِّرين تلقَّفوا ذلك مِن تفسيره منهم الفرَّاء . والثاني أنهم كانوا يَنظرون إليه بالعداوة نظراً شديداً يَكاد يُزْلِقه مِن شِدَّته ، أي يُلقيه إلى الأرض ، وهذا مُستعمَل في كلام العرب ، يقول القائل : نظر إلِيَّ فُلان نظَراً كاد يَصْرَعُني. وأنشدوا : يَتقارَضون إذا الْتَقَوْا في مَوْطِنٍ ... نظراً يُزيل مَواطنَ الأقدام . أي يَنظر بعضُهم إلى بعض نظراً شديداً بالعداوة ، يَكاد يُزيل الأقدامَ . وإلى هذا ذَهب المحقِّقون ، مِنهم ابن قُتَيبة والزَّجاج)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٤/ ١٧١٩) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((العَيْنُ حَق ، وَلَوْ كانَ شيءٌ سَابقٌ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ)) .

إنَّ الإصابةَ بالعَيْن حَق ، وهي شديدة الضَّرَر ، وأحياناً تَكون قاتلةً . وكلُّ الأشياء بِقَدَرِ اللهِ . والخيرُ والشَّر لا يُوجَدان بشكل استقلالي ، وإنَّما يَحْدُثان بإذنِ اللهِ تعالى . والقَدَرُ لا يَسبقه شيء ، ولكن _ على سبيل الفَرْض _ لَوْ كانَ هناك شيء عظيم القوة والتأثير يَسبق القَدَرَ لكانت العَيْن ، وهذا يدل على شِدَّة خطورتها . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ١٧٤) : ((قَوْلُه ﷺ : " وَلَوْ كان شيءٌ سابقٌ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَينُ " . فِيه إثبات القَدَر ، وهو حق بالنُّصوص وإجماع أهل السُّنَّة ... ومعناه أنَّ الأشياءَ كُلَّها بِقَدَرِ الله تعالى ، ولا تقع إلا على حَسَبِ ما قَدَّرها اللهُ تعالى ، وسَبَقَ بِها عِلْمُه ، فلا يقع ضَرَرُ العَين ، ولا غَيْرُه من الخير والشر إلا بِقَدَرِ الله تعالى . وفيه صِحَّة أمر العَين ، وأنها قوية الضَّرَر ، والله أعْلَم)) اهـ .

وعن جابر _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((العَيْنُ تُدْخِلُ الرَّجلَ القبرَ ، والجمَلَ القِدْرَ)) [145].

والمعنى أنَّ العَيْنَ شيء قاتلٌ ، تَقتل الرَّجلَ فَيُدفَن في قبره ، وتَقتل الجملَ فَيُطبَخ في القِدْر .

وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٠٠) : ((وقد أخرج البَزَّار بسند حسن عن جابر رَفَعَه : " أكثر مَن يموت بعد قضاء الله وقَدَرِه بالنَّفْس " . قال الراوي يعني : بالعَيْن)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْ تقوَّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويل (٤٤) لأخَذْنا مِنهُ باليمين (٤٥) ﴾ [سُورة الحاقة] .

لا يمكن للنبيِّ ﷺ أن يَفتريَ على الله تعالى، فيُغيِّر في الرسالة الإلهية زيادةً أو نقصاناً ، أو يَنسُب كلاماً بشرياً إلى الله تعالى . ولوْ فَعل ذلك _ حاشاه _ لعَرَّض نفْسَه للعقوبة الإلهية ، وسوف يُقضَى عليه . فاللهُ سينتقم منه أشد الانتقام بِسُرعة ، ولَن يُمْهِلَه . وهذا يدل على أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ ، أنزَلَه على محمد ﷺ ، الذي قامَ بِتَبليغه كما هُوَ ، دُون زيادة أو نقصان .

واليمينُ مقامُ القوة الباهرة والبطش الشديد . قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٥) : ((قال ابن قُتَيبة : إنما أقامَ اليمينَ مَقام القوة، لأنَّ قُوَّة كُل شيء في مَيامِنه)) اهـ. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ١١٣٠) : ((يعني النبيَّ ﷺ . لَوْ قال ما لَم يُؤمَر به ، وأتى بشيء مِن قِبَل نفْسِه ﴿ لأخَذْنا مِنهُ باليمين ﴾ ...والمعنى: لأخذناه بالقوة والقدرة))اهـ. وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٤): ((سُمِّيَ الافتراء تَقَوُّلاً، لأنَّه قَولٌ مُتكلِّفٌ. والأقوال الْمُفتراة أقاويل ، تحقيراً لها)) .

وعن يزيد بن عامر السُّوائي أنهم بَيْنا هُم يَطوفون بالطاغية _ صنم كانوا يَعبدونه في الجاهلية_ إذْ سَمعوا مُتكلِّماً يَقول: ﴿ وَلَوْ تقوَّلَ عَلَينا بعضَ الأقاويل(٤٤) لأخَذْنا مِنهُ باليمين (٤٥) ... ﴾، فَفَزِعْنا لذلك ، فَقُلنا : ما هذا الكلام الذي لا نعرفه ؟ ، فَنَظَرْنا فإذا النبيُّ ﷺ مُنطَلِقاً [146].

---

(١٤٥) رواه أبو نُعَيم في حِلية الأولياء (٧/ ٩٠) . وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٧٨٨) : ((نُقل عن ابن عَدِي أنَّه قال : بَلَغني أنه قِيل لِشُعيب _ أحد رواة الحديث _ ينبغي أن تُمسِك عن هذه الرواية)) اهـ. وقد أورَدَ الحديثَ ابنُ كثير في تفسيره (٤/ ٥٢٥) بسندٍ آخر ، وقال : ((وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات)) اهـ .

(١٤٦) رواه الطبرانيُّ في الأوسط (٨/ ٣٧٦) . وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٢) : ((فيه السائب ابن يسار الطائفي ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الذي يَكذب على الله له صفاتٌ واضحة تَفضحه ، فلا يَمكن لشخص مثل محمد ﷺ معروف بالصدق والأمانة في الجاهلية والإسلام أن يقوم بهذا الفعل الدنيء . فما كان له أن يَدَعَ الكذبَ على الناس ويَكذب على الله تعالى . وَلَوْ كان محمد ﷺ كاذباً لوافقَ المشركين ونسبَ كلامَهم الباطل إلى الله تعالى وجنى ثروةً هائلة ، واكتسبَ نفوذاً بين القبائل العربية ، وصار سَيِّداً على المشركين ، يُزيِّن باطلَهم، ويُعادي الحق، ولَمَا تم إعلان الحرب عليه من القريب والبعيد. وبالتالي سيرتاح من المعاناة . لكنَّ شيئاً مِن هذا لَم يَحدث ، مِمَّا يُشير بكل وضوح إلى ثباته على الدعوة الإسلامية الإلهية ، وأن الأمر أكبر من محمد ﷺ نفْسِه . إذ إنَّ الأمرَ الإلهيَّ لا يَعْلوه أمرٌ .

وقد تَنَبَّه هِرَقْلُ إلى صِدْق النبيِّ ﷺ ، فقال عنه : ((لم يَكُن لِيَدَعَ الكذبَ على الناس ، ثُمَّ يَذهبَ فَيَكذبَ على اللهِ)) (147).

وهذه حقيقةٌ واضحة تعتمد على منطق لا لَبْسَ فيه . فالإنسانُ الذي يمتنع عن الكذب على المخلوق ، لا يمكنه أن يَكذب على الخالق . فلا يمكن للصادق في تعامله مع الناس والمشهود له بالأمانة والاستقامة أن يَنسُب كلاماً زائفاً إلى اللهِ تعالى . ولا يخفَى أن ألسنةَ الخلق أقلامُ الحق ، فلا يُعقَل أن يَتَّفق الناسُ كُلُّهم على صِدْق أحدهم ويَكون كاذباً . وكما قال الشاعر :

شَهِدَ الأنامُ بِفَضْلِهِ حتى العِدى والفَضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [الطارق : ١٣].

إنَّ القُرآنَ قَوْلٌ حَقٌّ وحَكَمٌ عَدْلٌ في غاية البيان والبلاغة والفصاحة، يَفصل بين الحق والباطل، وذلك بِتوضيحهما،فَيُعلي الحقَّ، ويَدحض الباطلَ.وقال ابن منظور في لسان العرب(١١/ ٥٢١) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ ، أَي : فاصِل قاطِع . ومِنهُ يُقال : فَصَل بين الْخَصْمَيْن)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما هُوَ بالْهَزْلِ ﴾ [الطارق : ١٤] .

لَيْسَ القُرآنُ باللعبِ ولا الباطل ، فهو جِدٌّ كُلُّه ، جاءَ لهداية الإنس والجن وإنقاذهم من العذاب الأبديِّ ، ولم يَجِئْ للتَّسلية أو مَلْءِ وقت الفراغ . وقال النَّسفي في تفسيره (٤/ ٣٣١)

(١٤٧) متفق عليه . البخاري (٤/ ١٦٥٧) برقم (٤٢٧٨) ، ومسلم (٣/ ١٣٩٣)برقم(١٧٧٣).

عن القُرآن : ((ومِن حَقِّه ، وقد وَصَفَه اللهُ بذلك أن يَكون مَهيباً في الصُّدور ، مُعظَّماً في القلوب، يَرتفع به قارئُه وسامعُه أن يَلُمَّ بِهَزْل ، أو يَتَفَكَّه بِمِزاح)) .

وروى التِّرمذيُّ في سُننه(٥/ ١٧٢) بسندٍ ضعيفٍ عن عليٍّ_ رضي اللهُ عنه_ أنَّهُ سمع النبيَّ ﷺ يقول عَن القُرآن : ((وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ)) .

إنَّ القُرآنَ هو الفاصل بين الحق والباطل ،كُلُّ آياتِه حَقٌّ ثابتٌ لا يَزول ، وجِدٌّ لا يَتغيَّر . لا مِزاحٌ في القُرآن ولا لَعِبٌ . لا يَأتيه الباطلُ مِن بَيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه .

وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٨/ ١٧٦) : ((والْهَزْلُ في الأصل : القَول الْمُعَرَّى عن المعنى الْمَرْضِيّ . واشتقاقه مِن الْهُزال ضِد السِّمَن . والحديث مُقتبَس مِن قَوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وما هُوَ بالْهَزْلِ (١٤) ﴾)) اهـ . وقال المناوي في فَيض القدير (٧/ ١٢) : ((قال الطيبي : مَن ترك العملَ بآية أو بكلمة من القرآن ، مِمَّا يَجب العملُ بِه ، أو تَرك قراءتها مِنَ التَّكبر كَفَرَ ، وَمَن تَرك عَجْزاً أو كسلاً أو ضعفاً معَ اعتقاد تعظيمه ، فلا إثم عليه ، أي بترك القراءة ، ولكنه محروم)) .

*

٤

مُحاجَجة الْمُنكِرين الجاحدين

إنَّ اللهَ قد أقام الْحُجَّةَ على خَلْقه بإنزاله الكتب السماوية على رُسُله الكرام _ عليهم الصلاة والسلام _ . والقرآنُ هو الكتاب الخاتَم الناسخ لِمَا قَبْلَه ، وقد وردت فيه آياتٌ كثيرة في مُحَاجَجة الْمُنكِرين، والرد عليهم، ودَحْضِ باطلهم ، وتفنيدِ شُبهاتهم . وهذه الآيات تخاطب العقلَ بما يَمكن إدراكه . فاللغةُ القرآنية في الرد على المخالِفين لغةٌ راقية تُقَدِّم الدلائلَ الواضحات، ولَيست لغةً فلسفية محصورة في عالَم الأخيلة والافتراضات اللامنطقية ،كما أنَّ المنهج القرآنِيَّ في دَحْض شُبهات الْمُخَالِفين ليس سِباباً وشتائم ، أو صُراخاً ، أو جَعْجعةً بلا طَحْن . إنَّهُ مَنهجٌ إلهيٌّ مُتكاملٌ يَملك الْحُجَّةَ الناصعة ، ومُشتمِلٌ على معرفة النَّفْس البشرية وما يُصلحها وما يُفسدها . فاللهُ مُنْزِلُ القرآن هو خالق الإنسان وأعلم به مِنه، ويَعلم _سُبحانه وتعالى _ طريقةَ تفكير البشر ، وطبيعةَ شهواتهم وشُبهاتهم ووساوسهم. وقد أورد القرآنُ شُبهاتِ الْخُصوم وفَنَّدها ، وقَدَّم الدلائلَ الباهرة على وَحدانيةِ الخالق ، وصِدْقِ الرسالة. وكُلُّ هذا بلغة قرآنية راقية تَعلو، ولا يُعلَى عليها .

وقد تحدَّى اللهُ الْمُرتابين في القرآن، والشَّاكين فيه، أن يَأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه، لكنهم عَجِزوا عن ذلك . وهذا التَّحدي مُستمرٌ حتى يوم القيامة .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ وادْعُوا شُهداءَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾[البقرة : ٢٣] [148].

هذا التَّحدي للمشركين الطاعنين في القرآن الكريم أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه في حُسن النَّظْم ، والفصاحةِ اللغوية ، والبيانِ الباهر ، ويستعينوا على هذا الأمر بأعوانهم وفُصحائهم وآلهتهم من دون الله تعالى . ولوْ كان المشركون الطاعنون في القرآن صادقين في دعواهم لقدَّموا براهينهم التي تَدحض حُجَّةَ القرآن الباهرة . وبما أنهم لم يَفعلوا ولن يَفعلوا ، فهذا مؤشر على عجزهم ،

---

(١٤٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٩) : ((سبب نزولها أن اليهود قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يُشبه الوحيَ ، وإنَّا لفي شَك مِنه ، فَنَزلت هذه الآية ، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس ومقاتل. و " إن " ها هنا ، لِغَير شَك ، لأنَّ الله تعالى عَلِمَ أنهم مُرتابون ، ولكن هذا عادة العرب ، يَقول الرَّجل لابنه : إنْ كُنتَ ابني فأطعني . وقيل : إنها هاهنا ، بمعنى إذْ)) اهـ .

وانكسارهم أمام البُرهان القرآني الساطع ، وما عليهم إلا التسليم بأن مصدر القرآن هو السماء لَوْ كانوا يُريدون الحق بلا أهواء شخصية . ولا يخفى أن العرب هُم أهل الفصاحة والبيان والتبحر في اللغة العربية وأسرارها ، فإن عجزوا عن تحدي القرآن، فَغَيْرُهم _ بالتأكيد_ سيكون أكثر عجزاً . فإذا فشل القويُّ في إتمام عملٍ ما ، فلن ينجح فيه الضعيف .

وقال الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٠) : ((وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابَيْن في شَك _ وهو الرَّيْب _، مِمَّا نَزَّلْنا على عبدنا محمد ﷺ مِنَ النُّور والبرهان وآيات الفُرقان : أنه مِن عندي ، وأني الذي أنزلته إليه ، فلم تؤمنوا به ، ولم تصدِّقوه فيما يقول ، فَأْتُوا بِحُجَّة تَدفع حُجَّته ، لأنكم تعلمون أن حُجَّةَ كُلِّ ذِي نُبُوَّة على صِدْقه في دَعواه النُّبُوَّة : أن يأتيَ بِبُرهان يَعجز عن أن يأتِيَ بِمِثْلِه جَميعُ الخلق، ومِن حُجَّة محمد ﷺ على صِدقه، وبُرهانه على حقيقة نُبُوَّته وأن ما جاء به من عندي ، عجز جميعكم وجميع مَن تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم عن أن تأتوا بسورة مِن مِثْلِه ، وإذا عجزتم عن ذلك وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذَّرابة _ حِدَّة اللسان _ فقد علمتم أن غَيْرَكم عمَّا عجزتم عنه من ذلك أعجز)) اهـ .

﴿ وإن كُنتم في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا على عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . لقد رَفض المشركون الاعترافَ بأنَّ القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ ، وسيطرَ عليهم الشكُّ : هل القُرآن مِن عِند الله أم لا . وعَلِمَ اللهُ أنهم شاكُّون في القُرآن، فَتَحَدَّاهم اللهُ بالْحُجَّة والبُرهان والمنطق: إنْ كُنتم أيها المشركون في شَكٍّ مِنَ القُرآنِ الذي نَزَّلْناه على محمد مُفَرَّقاً ، فأتُوا بِسُورة مُماثِلة لِسُوَرِ القُرآن في البلاغة والفصاحة والبيان . وهذا أمر تعجيزيٌّ . ولأنَّ العبادة أشرف الأوصاف ، سَمَّى اللهُ رَسولَه محمداً ﷺ عبداً. واللهُ أضافَ العبدَ إلى نفْسه، فقال : ﴿ عَبْدِنا ﴾ لِرَفْع ذِكْر محمدﷺ والتَّنويه بِفَضْله ، والإشادة بمكانته الجليلة. وقال القرطبي في تفسيره(١/ ٢٧٤) : ((﴿ على عَبْدِنا ﴾ يعني محمداً ﷺ . والعبد مأخوذ من التَّعَبُّد، وهو التَّذلُّل، فَسُمِّيَ المملوك_ مِن جِنس ما يَفعله_ عَبداً لِتَذَلُّلِهِ لِمَولاه)).

والسُّورةُ قطعة من القُرآن ، لها أوَّل وآخِر ، أقلُّها ثلاث آيات . وسُمِّيت السُّورة بهذا الاسم لِشَرَفِها ومَجْدِها . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٧٢): ((والسُّورة قطعة من القرآن معلومة الأول والآخِر... وقِيل : السُّورة اسم للمَنْزلة الرفيعة. ومِنه سُور البناء لارتفاعه . سُمِّيت سُورة ، لأن القارئ يَنال بقراءتها مَنْزلةً رفيعة ، حتى يَستكمِل المنازلَ باستكماله سُوَر القرآن)) اهـ .

﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . تَحَدَّاهم اللهُ جميعاً أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْل هذا القُرآن حَقَّاً لا باطل فِيه. والتَّحدي عام وشامل . تَحَدَّاهم أن يأتوا بِسُورة مِن مِثْلِه في الفصاحة والبيان وحُسن النَّظْم والإخبار بالغَيبيَّات. وإذا عَجزوا عَن ذلك ، فهذا دليلٌ واضح على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ . وقد عَجِزوا . لقد تَحَدَّى اللهُ أفصحَ الأمم في اللغة العربية أن يأتوا بِسُورة بِلُغتهم تَقْدِر على مُواجَهة القُرآن ، وقد عَجزوا معَ شِدَّة عداوتهم للإسلام ، وكراهتهم للدَّعوة المحمَّدية ، وحِرْصِهم على اجتثاث هذه الدَّعوة بكل الوسائل. والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللهَ تَحَدَّاهم في مكة والمدينة عِدَّةَ مَرَّات ، وفَشِلوا ، وهُم أكثر الناس حِرْصاً على إنهاء أمر الإسلام ، ومُواجَهة النبيِّ ﷺ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١) : ((﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ . يعني : مِن مِثْلِ القرآن، قاله مجاهد وقتادة ، واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي ، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحقِّقين ، ورَجَّحَ ذلك بوجوه مِن أحسنها أنه تحدَّاهم كُلَّهم مُتفرِّقين ومُجتمعين ، سواءٌ في ذلك أُمِّيُّهم وكِتابِيُّهم ، وذلك أكمل من التحدي وأشمل مِن أن يتحدَّى آحادَهم الأُمِّيين مِمَّن لا يَكتب ولا يُعاني شيئاً من العلوم)) اهـ .

﴿ وادْعُوا شُهداءَكُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ . واستعينوا أيها المشركون بأنصاركم وعُلمائكم ، وآلهتكم التي تَعبدونها مِن دُون اللهِ، مِن أجل الإتيان بِسُورة مِن مِثْلِه، إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ محمداً جاء بالقُرآنِ مِن عِنده ، أوْ إن كُنتم صادقين في زَعْمكم أنكم قادرون على مُعارَضة القُرآن . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٠) : ((فِيه قَولان : أحدهما أنَّ معناه : استعينوا ، مِن الْمَعُونة ، قاله السُّدي والفرَّاء . والثاني : استغيثوا ، مِنَ الاستغاثة ... وهذا قول ابن قُتَيبة)) اهـ . وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٧٤) : ((وقال ابنُ كَيْسان : فإنْ قِيل : كيف ذَكَر الشُّهداء ، هاهُنا ، وإنما يكون الشهداء لِيَشهدوا أمراً ، أو لِيُخبِروا بأمر شَهِدوه ، وإنما قِيل لهم : ﴿ فَأتُوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ ، فالجواب أنَّ المعنى : استعينوا بِمَن وجدتموه مِن عُلمائكم، وأحضِروهم لِيُشاهِدوا ما تأتون به ، فيكون الرَّدُّ على الجميع أوْكَدَ في الْحُجَّة عليهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فإن لم تَفعلوا وَلَن تَفْعَلوا فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٤] .

فإنْ لَم تأتوا بِسُورةٍ مِن مِثْلِه ، أنتم وأنصارُكم وآلهتُكم ، فقد ثَبَتَ عَجْزُكم ، واتَّضحَ باطلُكُم، وظَهَرَ الدليلُ أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ . ولَن تَستطيعوا الإتيانَ بِسُورةٍ مِن مِثْلِه أبداً . وهذا يَكشف إعجازَ القُرآنِ الذي لا يَزول ولا يَنتهي ، ويدل على أنَّ القُرآنَ مُعجزةُ النبيِّ ﷺ الخالدة ، وأنَّهم

عاجزون في الماضي والحاضر والمستقبَل . ﴿ وَلَن تَفْعَلوا ﴾ تَنفي المستقبَلَ . وهذه مُعجِزة بحدِّ ذاتها لأنها إخبار بأمرٍ غَيْبِيٍّ . وَلَم يَذكر التاريخُ أنَّ أحداً عَارَضَ القُرآن ، ولوْ حَدَثَ ذلك لانتشرَ الأمرُ، وشاعَ بين الناس ، وتناقلوه جِيلاً بعد جِيل . وفي هذا دليلٌ واضح على صِدْق النبيِّ محمد ﷺ . وكانَ الأمرُ كما أخبرَ اللهُ ، وَلَو استطاعَ المشركون تكذيبَ القُرآن لَمَا قَصَّروا في ذلك . إذن ، إنَّ عَجْزَهم دليلٌ واضح على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ. وهذا التَّحدي المشتمِل على أمرٍ غَيبيٍّ في المستقبَل، لا يَصْدُر إلا عَن عالِمٍ بما يَقول ، قاطعٍ بِما يُخبِر ، عارفٍ بالغُيوب ، مُسيطِرٍ على حركة الزمان والمكان . وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٣٩) : ((﴿ وَلَن تَفْعَلوا ﴾ إثارة لِهِمَمهم ، وتحريك لنفوسهم ، ليكون عجزُهم بعد ذلك أبدعَ ، وهو أيضاً مِنَ الغُيوب التي أخبرَ بها القرآنُ)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١) : ((وَلَن ، لِنَفْي التأبيد في المستقبل ، أي : وَلَن تفعلوا ذلك أبداً . وهذه أيضاً مُعجِزة أخرى ، وهو أنَّهُ أخبرَ خَبَراً جازماً قاطعاً غَير خائف ولا مُشفِق أنَّ هذا القرآن لا يُعارَض بِمِثْلِه أبدَ الآبدين ، وَدَهْر الداهرين ، وكذلك وَقَعَ الأمرُ ، لَم يُعارَض من لَدُنْهُ إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأنَّى يتأتَّى ذلك لأحد، والقرآنُ كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يُشبِه كلامُ الخالق كلامَ المخلوقين ؟! ، وَمَن تَدَبَّرَ القرآنَ ، وَجد فيه مِن وُجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخَفِيَّة ، مِن حيث اللفظ ، ومِن جِهة المعنى)) اهـ .

﴿ فاتَّقُوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ . والمعنى : فإذا عَجِزْتُم عَن مُعارَضة القُرآنِ ، فهذا دليلٌ على أنَّهُ كلامُ اللهِ ، فابتعِدوا عن العِناد والْمُكابَرة ، واتَّقوا النارَ ، وذلك بالإيمان باللهِ وكُتبه ورُسله ، والتزامِ أوامره ، واجتنابِ نواهيه . وَوَصْفُ النارِ لِبَيان عَظَمَتها وشِدَّتها ، والتحذيرِ مِنها . فهي تتَّقد بالناسِ والحجارة ، ولَيس كنار الدُّنيا تتَّقد بالحطب . وهذا يُشير إلى حرارتها الهائلة . وفي تفسير الثعالبي (١/ ٣٩) : ((قال الفخر : وَلَمَّا ظَهر عَجْزُهم عَن الْمُعارَضة صَحَّ عِندَهم صِدْقُ النبيِّ ﷺ ، وإذا صَحَّ ذلك ثُمَّ لَزِموا العِنادَ اسْتَوْجَبوا العِقابَ بالنار. واتِّقاءُ النار يُوجب تركَ العِناد ، فأُقيم قَوْلُه : ﴿ فاتَّقُوا النارَ ﴾ مَقام قَوْلِه : واتركوا العِناد . ووَصْفُ النار بأنها تَتَّقد بالناس والحجارةِ، وذلك يدل على قُوَّتها_ نَجَّانا اللهُ مِنها برحمته الواسعة _، وقَرَنَ اللهُ سُبحانه الناسَ بالحجارة ، لأنهم اتَّخذوها في الدنيا أصناماً يَعبدونها)) اهـ. وعن عبد الله ابن

مسعود _ رضي اللهُ عنه _ قال : ((إنَّ الحِجارةَ التي سَمَّى اللهُ في القرآن : ﴿ وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ ﴾ ، حِجارة مِن كِبريت ، خَلَقَها اللهُ تعالى عِندَه كَيْفَ شاءَ ، أو كما شاء))(149).

وحِجارةُ الكِبريت هي أشدُّ الأشياء حرارةً إذا أُحْمِيَت ، وهُم يُعذَّبون بها .

وقد حاولَ بعضُ الْجُهَّال مُعارَضة القُرآن الكريم ، فافْتُضِح أمرُهم ، وظَهَرَت سخافاتهم ، وصارتْ أخبارهم طرائف يتداولها الناس للسُّخرية بها، والاستهزاء بهم، والضحك عليها وعَلَيهم .

قال ابن الجوزي في صَيد الخاطر (١/ ٤١١) : ((ومِنهم مُسَيلمة ادَّعى النُّبُوَّة وتَسَمَّى رحمن اليمامة ، لأنه كان يقول: الذي يأتيني رحمان. فآمنَ برسول الله ﷺ ، وادَّعى أنَّهُ قد أُشْرِكَ معه ، فالعجب أنَّهُ يُؤمن برسول ، ويقول إنَّه كَذَّاب ، ثُمَّ جاء بقرآن يُضحك الناسَ مِثْلَ قَوْلِه: يا ضفدع بنت ضفدعين ، نُقِّي ما تُنَقِّين ، أعلاكِ في الماء ، وأسفلك في الطين . ومن العجائب : شاة سوداء تحلب لبناً أبيض ، فانهتك سَتْرُه في الفصاحة ، ثُمَّ مَسح بيده على رأس صبيٍّ فذهب شَعْرُه ، وبَصَقَ في بِئر فيبست . وتزوَّجَ سَجَاح التي ادَّعت النُّبُوَّة ، فقالوا : لا بُدَّ لها مِن مَهْر ، فقال : مَهْرُها أني قد أسقطتُ عنكم صَلاة الفَجْر والعَتَمة ، وكانت سَجَاح هذه قد ادَّعت النُّبوة بعد موت رسول الله ﷺ فاستجاب لها جماعة ، فقالت : أعِدُّوا الرِّكاب ، واستعدوا للنِّهاب ، ثم اعبروا على الرباب، فليس دونهم حجاب ، فقاتلوهم . ثُمَّ قصدت اليمامة ، فهابها مُسَيلمة ، فراسلها وأهدى لها ، فحضرت عنده فقالت: اقرأْ عليَّ ما يأتيك به جبريل ، فقال : إنكنَّ معشر النساء ، خُلقتنَّ أفواجاً، وجُعلتنَّ لنا أزواجاً ، نُولجه فِيكُنَّ إيلاجاً، فقالت : صَدقتَ أنتَ نبيٌّ ، فقال لها : قُومي إلى الْمَخْدَع فَقد هُيِّئَ لك المضجَع ، فإن شئت مُستلقاة ، وإن شِئتِ على أربع ، وإن شئت بِثُلثيه ، وإن شئت به أجمع . فقالت : بَل به أجمع ، فهو للشمل أجمع . فافْتُضِحت عند العقلاء من أصحابها ، فقال منهم عُطارد بن حاجب :

أضحتْ نَبِيَّتُنا أُنثى يُطاف بها ... وأصبحت أنبياءُ الناسِ ذُكرانا
فلعنةُ اللهِ رَبِّ الناسِ كُلِّهم ... على سَجَاح ومَن بالإفك أغوانا
أعني مُسَيلمة الكذاب لا سُقِيَتْ ... أصداؤه مَن رُعِيَت حيثما كانا

(١٤٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٨٧) برقم (٣٠٣٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ثُمَّ إنها رجعت عن غَيِّها وأسلمتْ ، وما زالت تُبَيِّن فضائح مُسَيلمة حتى قُتل . ومنهم طُلَيحة بن خُوَيلد خَرج بعد دعوى مُسَيلمة النُّبوة، وتَبِعَه عَوام ... ومِن قُرآنه: والْحَمَام واليَمام و الصُّراد الصُّوَّام ، لَيَبْلُغَنَّ مُلْكُنا العراقَ والشام... وقد تنبَّأ رَجل يُقال له كهمش الكلابي كان يزعم أن الله تعالى أوحى إليه: [يا أيها الجائع، اشرب لبناً تشبع ، ولا تضرب الذي لا ينفع ، فإنه ليس بمقنع] ومنهم هُذَيل بن يعفور من بني سعد بن زهير ، حَكى عنه الأصمعي أنه عارضَ سورة الإخلاص فقال : قل هو الله أحد ، إله كالأسد ، جالس على الرَّصد ، لا يفوته أحد . ومِنهم هُذَيل بن واسع كان يزعم أنه من ولد النابغة الذبياني ، عارضَ سورة الكَوْثر ، فقال له رَجل ما قلت ؟ فقال : إنَّا أعطيناكَ الجوهر ، فصلِّ لربك وجاهِرْ ، فما يَرُدَّنَّكَ إلا كُلُّ فاجر ، فظهر عليه السنوري ، فقتله ، وصلبه على العمود ، فعبر عليه الرَّجل فقال : إنَّا أعطيناك العمود ، فصلِّ لربك مِن قُعود ، بلا رُكوع ولا سجود ، فما أراك تعود)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٣٩) : ((وأمَّا مُسَيلمة ، فَمَن شاهدَه مِن ذَوي البصائر عَلِمَ أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست فصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقُرآنه الذي يُخلَّد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ... وقَوْلُه _ قَبَّحه اللهُ _ : لقد أنعم الله على الْحُبلى ، إذْ أخرج منها نَسَمة تسعى ، مِن بين صِفاق وحَشى . وقَوْلُه _ خَلَّده الله في نار جهنم وقد فعل _ : الفيل، وما أدراك ما الفيل ، له خُرطوم طويل . وقَوْلُه _ أبعده الله عن رحمته _: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً ، واللاقمات لُقماً ، إهالة وسمناً ، إنَّ قُرَيشاً قوم يعتدون ، إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التي يأنف الصبيان أن يَلفظوا بها إلا على وجه السُّخرية والاستهزاء. ولهذا أرغمَ اللهُ أنفَه ، وشربَ يوم حديقة الموت حَتْفَه ، ومَزَّقَ شَمْلَه ، ولعنه صَحْبُه وأهلُه ، وقَدِموا على الصِّديق تائبين ، وجاؤوا في دِين الله راغبين ، فسألهم الصِّديق خليفة الرسول _ صلوات الله وسلامه عليه _ ورَضِيَ عنه ، أن يقرأوا عليه شيئاً مِن قرآن مُسَيلمة _ لعنه اللهُ _ فسألوه أن يُعْفِيَهم من ذلك ، فأبى عليهم إلا أن يَقرأوا شيئاً منه ليسمعه مَن لَم يسمعه من الناس ، فَيَعرفوا فَضْلَ ما هُم عليه من الهدى والعِلْم ، فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلمَّا فَرَغوا قال لهم الصِّديق_ رضي اللهُ عنه_: وَيْحَكم، أين كان يذهب بعقولكم؟...وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مُسَيلمة ، وكان صديقاً له في الجاهلية ، وكان عمرو لَم يُسلم بَعْد ، فقال له مُسَيلمة : وَيْحَكَ يا عمرو ، ماذا أُنزل على صاحبكم ، يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرأون سُورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ والعصر (١) إنَّ الإنسانَ لَفي خُسْر (٢) ﴾ إلى آخر السورة ، ففكَّر مُسَيلمة ساعة ،

ثم قال : وأنا قد أُنزل عليَّ مِثْلُه ، فقال : وما هو ؟ ، فقال : يا وبر يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : واللهِ إنك لَتَعلم أني أعلم أنك تَكذب . فإذا كان هذا مِن مشرك ، في حال شِرْكه ، لَم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصِدْقه ، وحال مُسَيلمة _ لعنه اللهُ وَكَذَّبه _ فكيف بأُولي البصائر والنُّهى وأصحاب العقول السليمة المستقيمة)) اهـ. وقال القرطبي في تفسيره (٦ / ٣١) : ((وحكى النقاش أن أصحاب الكِندي (فَيلسوف العرب) قالوا له : أيها الحكيم ، اعملْ لنا مِثْلَ هذا القرآن ، فقال : نعم !، أعمل مِثْلَ بَعْضِه ، فاحتجبَ أياماً كثيرة ، ثُمَّ خرجَ ، فقال : واللهِ ما أَقْدِر ، ولا يُطيق هذا أحدٌ ، إنِّي فَتحتُ المصحف ، فخرجتْ سُورةُ المائدة ، فنظرتُ ، فإذا هُوَ قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النَّكْث، وحَلَّل تحليلاً عاماً ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبرَ عن قُدرته وحِكمته في سطرَيْن ، ولا يَقْدِر أحد أن يأتِيَ بهذا إلا في أجلاد (مُجلَّدات))) اهـ . والذينَ حاولوا مُعارَضة القُرآن ، جاؤوا بكلمات سخيفة لا رابط بينها ، فصاروا مَثاراً للسُّخرية والاستهزاء . وهؤلاء فَضحوا أنفسَهم بأنفسهم . وهذه الفئة الضالة معروفة بالفُجور والأخلاق الهابطة والسُّمعة السَّيئة . ولا يُوجد فيها أحدٌ معروف بالأمانة والصِّدْق. وقد تَمَادَوا في ضلالهم بسبب إعجاب أتباعهم الْجُهَّال بهم . ومُدَّعُو النُّبُوَّة في كل زمان ومكان ، يَعلمون عِلْمَ اليقين أنهم كاذبون ، وأنهم أرادوا تحصيل مكاسب دُنيوية وأرباح مادية ، وتكريس نفوذهم وهَيمنتهم على الرَّعاع والعوام.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُم آمِنُوا بما أنزلَ اللهُ قالوا نُؤمِنُ بما أُنزِلَ عَلَيْنا ويَكفرونَ بما وَرَاءَهُ وَهُوَ الحقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُم قُلْ فَلِمَ تَقتلونَ أنبياءَ اللهِ مِن قَبْلُ إن كُنتم مُؤمنين ﴾[البقرة : ٩١] .

إذا قِيل لليهود : صَدِّقوا بالقُرآن الذي أنزله اللهُ على محمد ﷺ واتَّبعوه ، قالوا : يَكفينا التصديق بالتَّوراة التي أنزلها اللهُ على موسى ، ولا نُؤمن بِغَير ذلك . ﴿ ويَكفرونَ بما وَرَاءَهُ ﴾ ، أي إنهم يكفرون بما سِوى التَّوراة، ولا يُؤمنون بالإنجيل والقُرآن اللذين أُنزلا بعدها . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ الكُفر بأيِّ كتابٍ سماويٍّ هو كُفر بجميع الكُتب السماوية ، وهذا يَعني أنَّ إيمان اليهود بالتَّوراة مُجرَّد كلام لا وَزْن له ، لأنَّ تكذيب الإنجيل والقُرآن هُوَ تكذيبٌ للتَّوراة ، وكُفْرٌ بموسى ﷺ الذي يَزعم اليهودُ أنهم بِهِ مؤمنون . وهذا يدل على عِناد اليهود وجحودهم ورَفْضهم للوَحْي الإلهيِّ ، وكُفرهم بجميع الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام_. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/

١١٤): ((وفي قَوْله : ﴿ ويَكفرونَ بما وَرَاءَهُ ﴾ قَولان : أحدهما أنه أراد بما سِواه ... قاله الفرَّاء ومقاتل. والثاني : بما بَعْد الذي أُنزل عليهم ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

وكلُّ الكتب السماوية هي وَحْيٌ إلهيٌّ ، وحقٌّ لا شَك فِيه . والقُرآنُ هو الحقُّ الواضح ، يُصَدِّق التَّوراةَ التي يَزعم اليهود أنهم متمسكون بها . وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ٥٨): ((وفِيه رَدٌّ لمقالتهم ، لأنهم إذا كفروا بما يُوافق التوراةَ (وهو القُرآن) ، فقد كفروا بها . و﴿ مُصَدِّقاً ﴾ حال مُؤَكِّدة)) اهـ .

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقتلونَ أنبياءَ اللهِ مِن قَبْلُ إن كُنتم مُؤمنين ﴾ . هذا الرَّدُّ الإلهيُّ قد أفحمَ اليهودَ وكَذَّبهم ، وأقامَ الْحُجَّةَ عليهم ، وفضحَ غُرورَهم وباطلَهم . والآيةُ تَوبيخٌ لليهود وتقريعٌ لهم. فإن كانوا مؤمنين بالتوراة وبموسى ﷺ _على حد زعمهم _ فلماذا قَتلوا الأنبياءَ الذين جاؤوا بتصديق التَّوراة ؟ . وهل أمَرَتْهم التوراةُ بقتل الأنبياء ؟ . وما داموا يَزعمون أنهم متمسِّكون بالتَّوراة ، فقد كان عليهم أن يَعملوا بما فِيها ، ويتَّبعوا محمداً ﷺ ، حيث إنَّ وَصْفَه موجود في التَّوراة . وهذا يُشير بوضوح إلى عِناد اليهود وطُغيانهم وألاعيبهم ، واتِّباعهم لأهوائهم ، وتقديسهم لمصالحهم المادية الضَّيقة . وقد تَمَّ إسناد فِعْل القتل إلى هؤلاء اليهود معَ أنَّ أسلافَهم هُم الذين قاموا بالقتل ، وذلك لأنَّ الأبناءَ رَاضون بجرائم آبائهم ومُلتزمون بها .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣١) : ((رَدٌّ مِنَ الله تعالى عليهم ، في قَوْلهم : إنهم آمنوا بما أُنزل عليهم ، وتكذيب مِنه لهم ، وتوبيخ . المعنى : فكيف قَتلتُم وقد نُهيتم عن ذلك ؟ ، فالخطاب لِمَن حضر محمداً ﷺ ، والمراد أسلافهم ، وإنما تَوَجَّه الخطاب لأبنائهم ، لأنهم كانوا يَتَوَلَّوْنَ أولئك الذين قَتلوا ... فإذا تَوَلَّوْهُم فَهُم بِمَنْزلتهم . وقِيل : لأنهم رَضُوا فِعْلَهم ، فَنُسب ذلك إليهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ جاءَكُم مُوسى بالبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِن بَعْدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ [البقرة : ٩٢] (150).

---

(١٥٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١١٥): ((قَوْله تعالى: ﴿ ولقدْ جاءَكُم مُوسى بالبَيِّناتِ ﴾ فيها قَولان : أحدهما ما في الألواح مِنَ الحلال والحرام ، قاله ابن عباس. والثاني: الآيات التِّسْع ، قاله مقاتل . وفي هاء ﴿ بَعْدِهِ ﴾ قَولان : أحدهما أنها تعود الى موسى ، فمعناه من بعد انطلاقه الى الجبل ، قاله ابن عباس ومقاتل ، والثاني أنها تعود إلى المجيء ، لأنَّ ﴿ جاءَكُم ﴾ يدل على المجيء)) .

لقد جاءكم يا يهود بني إسرائيل النبيُّ موسى ﷺ بالدلائلِ القاطعة ، والْمُعجِزاتِ الواضحة الدالة على صِدْقِه، وصِحَّةِ نُبُوَّته، وتَوحيدِ الله تعالى. وقد سَمَّاها اللهُ بَيِّنات، لوضوحها ، وتَبَيُّنِها للناظرين إلَيها . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ١٧٧) : ((والآيات البَيِّنات هي : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، والعصا ، واليد ، وفَرْق البحر ، وتظليلهم بالغمام ، والْمَن ، والسَّلوى ، والْحَجَر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها)) اهـ . وبعد رؤية كُلِّ الآياتِ الرَّبانية الباهرة، ووضوح البراهين أمامهم، وقِيام الْحُجَّة عليهم ، اتَّخذوا العِجْلَ إلهاً مَعبوداً مِن دون اللهِ، بعد أن فارقَهم النبيُّ موسى ﷺ ، وذهبَ إلى الطُّور لِمُناجاة الله. وقد ظَلموا أنفسَهم بارتكابهم هذه الجريمة ، لأنَّهم عرَّضوها لغضبِ اللهِ وعذابِه الشديد . والشِّرْكُ أسوأ أنواع الظلم ، لأن المشرك اعتنقَ عبادةَ المخلوق ، ورفضَ عبادة الخالق. وعبادتهم للعِجْل دليلٌ على كَذِبهم حين زَعموا الإيمان بالتَّوراة . والآيةُ تَوبيخٌ لهم وفضحٌ لكفرهم ، وقد عَيَّرهم اللهُ باتِّخاذهم العِجْل إلهاً .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ ﴾ تَوبيخ، و﴿ ثُمَّ ﴾ أبلغ من الواو في التقريع ، أي بعد النَّظَر في الآيات والإتيان بها ، اتَّخذتم ، وهذا يدل على أنهم إنما فعلوا ذلك بعد مُهلة من النظر في الآيات ، وذلك أعظم لِجُرْمهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل إن كانت لَكُمُ الدارُ الآخِرةُ عِندَ اللهِ خَالصةً مِن دُونِ الناسِ فَتَمَنَّوُا الموتَ إن كُنتم صادقين ﴾ [البقرة : ٩٤] .

هذه الآية فَضحت اليهودَ وكَشفت عن دواخلهم الممتلئة بحب الدنيا وكراهية الموت . فإن كان جزاءُ اليهود الجنةَ في الآخرة فَلْيَتَمَنَّوا الموتَ ، وملاقاةَ الله لكي يُكافئَهم بالنعيم الأبديِّ ، فيرتاحوا مِن عَناء الدنيا . لكنهم يعلمون أن مصيرهم إلى العذاب فيهربون من الموت _ حَسَبَ نظرتهم القاصرة _ ، ويتشبَّثون بالدنيا بأسنانهم وأظافرهم لِعِلْمهم بما ينتظرهم بعد الموت من العقوبة الشديدة والعذاب الأليم . وفي الشِّفا (١/ ٢٠٧) : ((قال أبو إسحاق الزَّجاج : في هذه الآية أعظم حُجَّة وأظهر دلالة على صِحَّة الرسالة لأنه قال : ﴿ فَتَمَنَّوُا الموتَ ﴾ وأعْلَمَهم أنهم لن يَتَمَنَّوْهُ أبداً ، فلم يَتَمَنَّهُ واحدٌ منهم)) اهـ .

لقد كَشَفَ اللهُ باطِلَهم وغرورَهم ، وفَنَّدَ الدعاوى العريضة التي يتشدَّقون بها . فاليهودُ كانوا يَزعمون أنهم أصحابُ الجنة، ولا يُشاركهم فيها أحد، فَكَذَّبَهم اللهُ بالدليل القاطع ، والبُرهان الساطع، والْحُجَّة الباهرة . فمن يَعتقد أنَّهُ مِن أهل الجنة ، سيشتاق إليها ، ويَكره الدُّنيا الوضيعة ،

ويتمنى الموتَ لكي يَدخل الجنةَ ويرتاح من التعب والشقاء. وفي هذه الحالة ، يَكون الموتُ أحب إليه من الحياة . وبما أن اليهودَ يُقدِّسون متاعَ الدنيا الزائل ، امْتَنعوا عن تَمَنِّي الموت ، وهذا تَصديقٌ مِنهم للنبيِّ ﷺ واعترافٌ ضِمنيٌّ بِصِحَّة نُبُوَّته ، وتكذيبٌ لأنفسهم . وقد فضحوا أنفسَهم بأنفسهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/١١٦):((كانت اليهود تزعم أنَّ الله تعالى لَم يَخْلُق الجنة إلا لإسرائيل وولده ، فَنَزلت هذه الآية . ومِن الدليل على عِلْمهم بأن النبيَّ ﷺ صادق أنهم ما تَمَنَّوا الموتَ)) اهـ . وقال الثعالبي في تفسيره (١/ ٨٩) : ((وقَوْله تعالى : ﴿ قُل إِن كانت لَكُمُ الدارُ الآخِرةُ ﴾ الآية ، أمر لمحمد ﷺ أن يُوَبِّخَهم . والمعنى : إنْ كان لكم نعيمُها وحَظوتها وخَيرها فذلك يقتضي حِرْصَكم على الوصول إليها ، فَتَمَنَّوا الموتَ ، و﴿ الدارُ ﴾ اسم كان ، و﴿ خَالصةً ﴾

خبرها، و﴿ مِن دُونِ الناسِ ﴾ يُحتمَل أن يُراد بالناس محمد ﷺ ومَن تَبِعَه . ويُحتمَل أن يُراد العموم. وهذه آية بَيِّنة أعطاها اللهُ رَسولَه محمداً ﷺ، لأن اليهود قالت: ﴿ نحن أبناءُ الله وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨] ، وشَبَه ذلك مِن القَول ، فأمرَ اللهُ نَبِيَّه أن يَدعوهم إلى تمنِّي الموت ، وأن يُعْلِمَهم أنه مَن تَمَنَّاه مِنهم ماتَ ، فَفَعل)) اهـ . وبالتأكيد ، اليهود لَم يَفعلوا .

وروى أحمد في مسنده (١/ ٢٤٨) عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((... وَلَوْ أنَّ اليهودَ تَمَنَّوا الموتَ لَمَاتوا ، ورَأَوْا مَقاعِدَهم في النار)) .

وفي تفسير ابن كثير (١/ ١٧٨) وصحَّحه ، عن عِكْرِمة في قَوله تعالى: ﴿ فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ قال : قال ابن عباس : ((لو تَمَنَّى يهودٌ الموتَ لَمَاتوا)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أبَداً بما قَدَّمَتْ أيديهِم واللهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ [البقرة : ٩٥]
.

هذا خَبرٌ قاطعٌ مِنَ اللهِ عن اليهود ، ونبأ يقينيٌّ لا يَحتمل الشكَّ . إنَّ اليهودَ لن يَتَمَنَّوا الموتَ أبداً بسبب جرائمهم وذنوبهم وكُفرهم وتحريفهم التَّوراة وقتلهم الأنبياء ، وعِلْمهم بأنَّ هناك عذاباً يَنتظرهم بعد الموت ، فَهُم يُدرِكون أنَّهم كافرون لا نصيب لهم في الجنة . وهذا إخبارٌ بالغَيب المستقبليِّ ، وقدكانَ الأمرُ كما أخبرَ القُرآن ، إذ إنَّ اليهود لَم يَتَمَنَّوا الموتَ ، ولوْ تَمَنَّوْهُ لَنُقل ذلك عنهم ، وتداولته الأجيال ، واكتشفَ الناسُ عدمَ صِدْق القُرآن . وهذا لم يَحْدُث . لقد أخبرَ اللهُ أنهم لَن يَتَمَنَّوْهُ أبداً ، وهذا ما كان ، مِمَّا يدل على صِدْقِ القُرآنِ ، وصِدْقِ النبيِّ ﷺ . وهذا الإخبارُ بالغَيب مِن وُجوه إعجاز القُرآن . ﴿ واللهُ عَليمٌ بالظالمين ﴾ . إنَّ الله يَعلم الكافرين الذين

ظَلموا أنفسَهم بأن أوردوها المهالِك . وهذا تَهديدٌ لهم ، وإلصاق صِفة الظلم بِهِم ، لتظلَّ وصمة عار عليهم في الدُّنيا والآخرة. وذِكْرُ " اليد " دون سائر الأعضاء ، لأنَّ أكثرَ الجرائم تَكون باليد ، فأُضيفت جرائم الإنسان إلى يده ، حتى لَوْ لَم تَكُن لها علاقة بالجريمة .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٣٤) : ((فإن قِيل : فالتَّمني يكون باللسان تارةً ، وبالقلب أخرى ، فمن أين عُلم أنهم لم يَتَمَنَّوْه بقلوبهم ؟ ، قِيل له : نَطق القرآن بذلك بِقَوله: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ ، ولوْ تَمَنَّوْه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم، رَدَّاً على النبيِّ ﷺ ، وإبطالاً لِحُجَّته ، وهذا بَيِّن)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (١/ ١٨٠) : ((و" ما " في قَوله : ﴿ بما قَدَّمَتْ أيديهِم ﴾ موصولة ، والعائد محذوف : أي بما قَدَّمَتْه من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب ، بل غير طامع في دخول الجنة ، فَضلاً عن كَونه قاطعاً بها، فَضلاً عن كَونها خالصةً له مختصة به. وقِيل : إنَّ اللهَ ــ سُبحانه ــ صَرَفَهم عن التَّمنِّي ، ليجعل ذلك آيةً لِنَبِيِّه ﷺ . والمراد بالتمني هنا : هو التلفظ بما يدل عليه ، لا مُجرَّد خطوره بالقلب ومَيل النَّفْس إليه ، فإن ذلك لا يُراد في مقام الْمُحَاجَّة ، ومواطن الخصومة ، ومواقف التحدي . وفي تَرْكِهم للتمني أو صَرْفهم عنه معجزة لرسول الله ﷺ ، فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف ، والتجرؤ على الله ، وعلى أنبيائه ، بالدعاوى الباطلة في غير موطن ، ما قد حكاه عنهم التَّنْزيل ، فلم يتركوا عادتهم هنا ، إلا لِمَا قد تقرَّر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التَّمني ، نزلَ بهم الموتُ ، إمَّا لأمرٍ قد علموه ، أو للصَّرفة من الله ــ عَزَّ وجلَّ ــ . وقد يُقال: ثبت النهيُ عن النبيِّ ﷺ عن تَمَنِّي الموت ، فكيف أمَرَه اللهُ أن يأمرهم بما هو منهيٌّ عنه في شريعته . ويُجاب بأن المراد هنا إلزامهم الْحُجَّة ، وإقامة البرهان على بُطلان دَعواهم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهودياً ولا نصرانياً ولكِنْ كانَ حَنيفاً مُسلِماً وما كانَ مِنَ المشركين ﴾ [آل عِمران : ٦٧] [151].

---

(١٥١)قال ابن حجر في العُجاب(٢/٦٩٠) : ((وقال الطبري : حَدَّثَني إسحاق بن شاهين نا خالد الواسطي عن داود هو ابن أبي هند عن عامر هو الشَّعبي قال:"قالت اليهود: إبراهيم على دِيننا ، وقالت النصارى: إبراهيم على دِيننا ، فأنزل اللهُ : ﴿ ما كانَ إبراهيمُ يَهودياً ولا نصرانياً ﴾ فَبَرَّأه اللهُ منهما)).

لقد كَذَّبَ اللهُ الذين جادلوا بالباطل في شأن إبراهيم ﷺ ، حيث زَعَمَ اليهودُ أنَّهُ كان يهودياً ، وزعمَ النصارى أنَّهُ كان نصرانياً.واليهوديةُ والنصرانيةُ دِينان وَضْعِيَّان لا علاقة لهما بموسى وعيسى _ عليهما الصلاة والسلام _. وأهلُ الكتاب يُحاولون جاهدين إيجاد شرعية لهم ، فَنَسبوا أنفسهم وعقائدهم الباطلة إلى الأنبياء . وكما قال الشاعر :

وَكُلٌّ يَدَّعي وَصْلاً لِلَيْلى وليْلى لا تُقِرُّ لهم بِذَاكا

لقد كان إبراهيم ﷺ مائلاً عن الشِّرْك إلى الإسلام (دِين التَّوحيد)، مُوَحِّداً مُسْتَسْلِماً للهِ ، مُلْتَزِماً بأوامره، مُجْتَنِباً لِنَواهيه. وكانَ مُسلِماً، ولم يكن مُشركاً كاليهود والنصارى وعبدة الأصنام. فاليهودُ زَعموا أنَّ عُزَيراً ابنُ اللهِ ، والنصارى زَعموا أنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ ، وعَبَدة الأصنام (مُشرِكو العرب) زَعموا أنهم على مِلَّة إبراهيم ﷺ . وقد كَذَّبَهم اللهُ جميعاً ، ودَحَضَ أقوالَهم الواهية .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٥١): ((والحنيف: المائل عن الأديان كُلِّها إلى الدِّين المستقيم . وقِيل : الحنيف : الذي يُوحِّد ويَحُجُّ ويُضحِّي ويَخْتِن ، ويَستقبل الكعبة ، وهو أسهل الأديان ، وأحَبُّها إلى الله _ عَزَّ وجلَّ _)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتم تَشْهَدون ﴾[آل عِمران : ٧٠].

هذا تقريعٌ لليهود والنصارى ، وإظهارٌ لِسُوء نِيَّتهم وخُبثهم وكُفرهم المستنِد إلى العِلْم لا الجهل. فهُم يَكفرون بآياتِ الله عِناداً وحِقْداً على المؤمنين وحسداً لهم، معَ عِلْمهم بأنها صِدْق وحق . وهُم يَجدون وَصْفَ محمد ﷺ في التوراة والإنجيل ، ومعَ هذا ، يَكفرون به .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٠٧): ((وإنما هذا مِن عند الله _ عز وجل _ توبيخٌ لأهل الكتابَيْن على كُفرهم بمحمد ﷺ ، وجُحودهم نُبُوَّته ، وهُم يَجدونه في كُتبهم معَ شهادتهم أنَّ ما في كُتبهم حق ، وأنه مِن عِند الله)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالباطلِ وتَكْتُمونَ الحقَّ وأنتم تَعْلَمون ﴾ [آل عِمران : ٧١].

يا أيها اليهودُ والنصارى لِمَ تخلِطون الحقَّ بالباطل بالتحريفِ والتَّزوير . تخلطون الإيمانَ بموسى وعيسى بالكفر بمحمد _ عليهم الصلاة والسلام _ . ومَن كَفَرَ بنبيٍّ فقد كفرَ بجميع الأنبياء ، وكفرَ باللهِ الذي أرْسَلَهم ، وتَكتمون ما في كُتبكم من وَصْف محمد ﷺ ، وأنتم تَعلمون أنَّه حَق .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(١/ ٤٠٥): ((وفي الحق والباطل أربعة أقوال: أحدها أنَّ الحق إقرارهم ببعض أمر النبيِّ ﷺ ، والباطل كتمانهم بعض أمره. والثاني: الحق إيمانهم بالنبيِّ ﷺ غُدْوَةً ، والباطل كُفرهم به عَشِيَّةً، رُوِيا عن ابن عباس. والثالث: الحق التوراة ، والباطل ما كتبوه فيها بأيديهم، قاله الحسن وابن زيد.والرابع: الحق الإسلام، والباطل اليهودية والنصرانية، قاله قتادة)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما كانَ لِبَشَرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقولَ للناسِ كُونوا عِباداً لِي مِن دُونِ اللهِ ولكنْ كُونوا رَبَّانِيِّينَ بما كُنتم تُعلِّمونَ الكِتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُون ﴾ [آل عِمران : ٧٩] .

ما ينبغي لبشرٍ أعطاه اللهُ الكتابَ والْحُكمَ (الفِقْه والعِلْم) والنُّبوَّةَ أن يَطلب مِنَ الناس أن يَعبدوه ، ويتَّخذوه إلهاً مِن دُون اللهِ . فهذا الأمرُ لا يَصِحُّ عَقلاً ، ولا يمكن تَصَوُّرُه ، ولا علاقة له بالخيال ولا الواقع. فالإنسانُ الذي يَحمل كلمةَ اللهِ ، يَدعو الناسَ إلى تَوحيد اللهِ وعدم الإشراك به ، ونشرِ رسالة الإيمان والعِلْم ، ومُحارَبة الكُفر والجهل . ومِن غَير المعقول أن يَجمع الإنسانُ بين النُّبُوَّة ودعاءِ الناس إلى الشِّرْك ، فالضِّدَّانُ لا يَجتمعان . والأنبياءُ هُم سَادة البشرية ، يَمتازون بالتَّقوى والصِّدْق والأمانة والأخلاق الحميدة،واللهُ لا يَختار الكاذبين لحمل رسالة السماء. كما أنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِنَ الذنوب ، فما بالُكَ بالشِّرْك الذي هُوَ أكبر الكبائر ؟! .

وَلَوْ كان محمد ﷺ كاذباً لَدَعا الناسَ إلى عبادته وتقديسه ، واستغلَّ نفوذَه ومكانةَ عشيرته الشريفة ، من أجل تحقيق مكاسب شخصية ، واستعباد الناس ، وتجميع العبيد والجواري ، والحصول على الأموال والمناصب . لكنَّ هذا لَم يَحْدُث . مِمَّا يدل على صِدْقِه في تبليغ رسالة السماء . والآيةُ _ أيضاً _ تردُّ على النصارى الذين اتَّخذوا المسيحَ إلهاً ، معَ أنَّهُ جاءَ بالتَّوحيد ، ولا يُوجد أيُّ نص في الإنجيل يتضمن دَعوة المسيح إلى عبادته . وهذا دليلٌ على أنَّ المسيحَ ﷺ هو عَبدُ اللهِ ورسولُه . والأنبياءُ _ جميعاً _ دِينهم واحد (الإسلام) ، ودَعوتهم واحدة (التَّوحيد) ، بَلَّغوا الرسالةَ الإلهية بلا زيادة أو نقصان ، وعاشوا يَنظرون إلى الآخِرة ، ولَم يَأكلوا الدُّنيا بالدِّين.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٣) : ((﴿ ما كانَ لِبَشَرٍ ﴾ في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أنَّ قَوماً مِن رُؤساء اليهود والنصارى ، قالوا : يا محمد ، أتريد أن نتَّخذك رَبّاً، فقال: معاذ الله ، ما بذلك بَعثني ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس . والثاني أنَّ رَجلاً قال للنبيِّ ﷺ ألا نَسجد لك ؟ ، قال : لا ، فإنَّه لا يَنبغي أن يُسجَد لأحدٍ مِن دُون الله ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله

الحسن البصري. والثالث أنها نزلت في نصارى نَجْران، حيث عَبدوا عيسى، قاله الضَّحاك ومقاتل. وفِيمَن عنى بِ " البشر " قَوْلان : أحدهما _ محمد ﷺ ، والكتاب القرآن ، قاله ابن عباس وعطاء. والثاني _ عيسى ، والكتاب الإنجيل ، قاله الضَّحاك ومقاتل)) اهـ .

وإذا كانَ الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ لا يُعقَل أن يأمروا الناسَ بعبادتهم وتركِ عبادة اللهِ ، وهُم سادة البشرية ، فحريٌّ بالإنسان العادي ألا يَأمر أحداً بعبادته . هذا هو المنطق والعقل السليم . والإسلامُ قائمٌ على قاعدة إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رَبِّ العباد . وإذا زالَ التَّوحيدُ ، فقدَ الوجودُ البشري معناه وشرعيته .

وأهلُ الكتاب _ للأسف_ معتادون على عبادة الأشخاص وتقديسهم ، وتقديم كلام عُلمائهم على نصوص التَّوراة والإنجيل . فعن عَدِيِّ بنِ حاتِم قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ مِن ذَهَب ، فقال : ((يا عَدِيُّ ، اطْرَحْ عَنكَ هذا الوَثَنَ)) ، وسَمِعْتُه يَقرأ في سُورة براءة : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ اللهِ ﴾ ، قال : ((أمَا إنهم لم يَكونوا يَعبدونهم ، ولكنهم كانوا إذا أحَلُّوا لهم شيئاً اسْتَحَلُّوه ، وإذا حَرَّموا عَليهم شيئاً حَرَّموه))[152].

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٠١) : ((فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتَّوبيخ ، بخلاف الرُّسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر اللهُ به ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام ، وإنما يَنْهَوْنَهم عمَّا نهاهم اللهُ عنه ، وبَلَّغتهم إيَّاه رُسُلُه الكرام ، فالرُّسُلُ _ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين _ هُم السُّفراء بين الله وبين خَلْقه في أداء ما حَمَلوه من الرسالة ، وإبلاغ الأمانة ، فقاموا بذلك أتم القيام ، ونصحوا الخلق وبَلَّغوهم الحق)) .

﴿ ولكنْ كُونوا رَبَّانِيِّينَ بما كُنتم تُعلِّمونَ الكِتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُون ﴾ [153]. ولكنْ كُونوا حُكَماء عُلماء مُنتمين إلى شريعة السماء ، ومُنسوبين إلى الرَّبِّ _ سُبحانه وتعالى _ ، بتعليمكم

(١٥٢) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٧٨) برقم (٣٠٩٥)، والبيهقي في سننه الكبرى (١٠/ ١١٦) برقم (٢٠١٣٧) ، والطبراني (١٧/ ٩٢) برقم (٢١٨) .

(١٥٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٣) : ((فأمَّا الرَّبانِيُّون . فَرُوِيَ عن عليٍّ بن أبي طالب _رضي اللهُ عنه _ أنه قال : " هُم الذين يُغَذُّون الناسَ بالحِكمة ، ويُرَبُّونهم عليها " . وقال ابن عباس

الناس كتابَ اللهِ والعمل بأحكامه ، وإقامة حُدوده . ولا شَكَّ أنَّ هدفَ العِلْمَ هُوَ العمل . والمعنى : عَلِّموا الناسَ أحكامَ دِينهم ، وتعاليمَ شريعتهم ، واشرَحوا لهم القضايا الإيمانية والعِلْمية . وجديرٌ بِمَن دَرَسَ القُرآنَ أن يَكون فَقيهاً . والرَّبَّانِيَّةُ قائمة _ أساساً _ على العِلْم والدراسة . وهذا يُشير إلى خطورة فَصْل العمل عن العِلْم . فهاتان القِيمتان الشريفتان مُتلازِمتان ، ومَن فَصَلَهما هَلَكَ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥٦): ((﴿ بما كُنتم تُعلِّمونَ الكِتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُون ﴾ ، بسبب كَوْنِكم مُعَلِّمين الكتابَ ، وبسبب كَوْنكم دارسين له ، فإنَّ فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير ، للاعتقاد والعمل)) اهـ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٢/ ٥٢و٥٣) : ((أي بسبب مُثابرتكم على تعليم الكتاب ، ودراسته أي قراءته ، فإنَّ جَعْلَ خَبَر كان مُضارعاً لإفادة الاستمرار التَّجددي ، وتكرير " بما كنتم " للإيذان باستقلال كُلٍّ من استمرار التعليم واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية ، وتقديم التعليم على الدراسة لزيادة شرفه عليها ، أو لأنَّ الخطاب الأول لِرُؤسائهم ، والثاني لِمَن دُونَهم)) اهـ .

والرَّبَّانِيُّ مَنسوبٌ إلى الرَّبِّ تعالى ، وهُم الذين يُرَبُّون الناسَ على الإيمان والعِلْم ، ويُعلِّمونهم . إذ إنهم العُلماء العاملون ، الذين يَعرفون الحلالَ والحرامَ والأمرَ والنَّهْيَ . والرَّبَّانِيُّ هو الذي يَجمع بين البصر والبصيرة ، لذلك فهو في مرتبة تَفوق مرتبةَ العالِم . ويَكفيه شرفاً أنَّ اللهَ نَسَبَه إلَيه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَأمُرَكُم أن تَتَّخِذوا الملائكةَ والنَّبِيِّينَ أرباباً أيأمُرُكُم بالكُفرِ بَعْدَ إذْ أنتم مُسلِمون ﴾ [آل عِمران : ٨٠] .

والأنبياءُ جاؤوا بمنهج التَّوحيد والأخلاق الحميدةِ ، ولَم يَأمروا الناسَ بالشِّرْك والضلال . إنَّهم لا يَأمرون باتِّخاذ الملائكة والنَّبيين آلهةً مِن دُون اللهِ ، لأنَّ مُهمة الرُّسُل هي الدَّعوة إلى التَّوحيد . ولا يُوجد نبيٌّ دعا الناسَ إلى عبادة غَيْرِ الله. أيأمرُكم النبيُّ ﷺ بالكفر وجُحود وَحدانية اللهِ بعد أن دخلتُم في الإسلام ؟! . وهذا استفهام إنكاري تَعَجُّبي ، والخطابُ للمسلمين .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((معناه : ولا يأمركم الله . وقال ابن جُرَيج وجماعة : ولا يأمركم محمد ﴿ أن تَتَّخِذوا الملائكةَ والنَّبِيِّينَ أرباباً ﴾ كَفِعْل قُرَيش والصابئين حيث قالوا :

وابن جُبَير : هُم الفقهاء الْمُعَلِّمون. وقال قتادة وعطاء: هُم الفقهاء العلماء الحكماء. قاله ابن قُتَيبة : واحدهم رَبَّانِيٌّ ، وهُم العلماء الْمُعلِّمون)) .

الملائكة بنات الله ، واليهود والنصارى حيث قالوا في المسيح وعُزَير ما قالوا . ﴿ أيأمُرُكُم بالكُفرِ بَعْدَ إذْ أنتم مُسلِمون ﴾ ، قاله على طريق التَّعجب والإنكار ، يعني : لا يقول هذا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿كَيْفَ يَهدي اللهُ قَوماً كفروا بَعْدَ إيمانِهم وشَهِدُوا أنَّ الرسولَ حَقٌّ وجاءَهُمُ البَيِّناتُ واللهُ لا يَهدي القَوْمَ الظالمين ﴾ [آل عِمران : ٨٦] (154).

هـذا الاستفهام للتَّعظيم والتعجيب لِكُفْرهم.كيفَ يُرشِد اللهُ إلى الحق قَوماً جَحدوا نُبُوَّةَ محمدﷺ بعد تصديقهم بها وإيمانهم بأنَّ القُرآنَ وَحْيٌ إلهيٌّ ، وبعد أن اعترفوا أنَّ محمداً رسولُ اللهِ إلى خَلْقِه ، واتَّضحت أمامَهم الْمُعجِزاتُ الباهرة والْحُجَجُ الدامغةُ والبراهينُ الْجَلِيَّةُ بِصِحَّة ذلك ؟. لقد أُقيمت الْحُجَّةُ عليهم ، واتَّضحت الدلائلُ على صِدْقِ النبيِّ ﷺ وما جاءَ به ، وكانت الأمورُ واضحةً أمامَهم، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر ، وجَحدوا الحقَّ الواضح . فكيفَ يَستحق هؤلاء الهداية ؟ . والاستفهامُ يحمل معنى الْجَحْد،أي إنَّهم لا يَستحقون الهدايةَ،ولَيسوا أهْلاً لِنَيل هدايةِ اللهِ ورضوانه، إذ إنَّ النُّورَ الإلهيَّ لا يَهبط في قلبٍ قَذرٍ وأعمى . واللهُ لا يَهدي الذينَ ظَلموا أنفسَهم ، وعرَّضوها للعذاب ، بأن اختاروا الكفرَ على الإيمان. وهؤلاء جاءهم الحقُّ وآمَنوا به لمعرفتهم إيَّاه، ثُمَّ جَحدوا بعد المعرفة واليقين والعِلْم ، وهذا مُنتَهى الضلال . والكُفرُ المبنيُّ على العِلْم أسوأ مِن الكُفر المبنيِّ على الجهل . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٦١) : ((استبعاد لأن يَهْدِيَهم اللهُ ، فإن الحائد عن الحق بعدما وَضُحَ له مُنهمِك في الضلال، بعيد عن الرَّشاد . وقِيل : نفْي وإنكار له ، وذلك يقتضي بأن لا تُقبَل توبة المرتد)) اهـ .

((وكان الحسن يقول في قَوْله : ﴿كَيْفَ يَهدي اللهُ قَوماً كفروا بَعْدَ إيمانِهم ﴾ الآية، هُم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. رَأَوْا نَعْتَ محمد ﷺ في كتابهم ، وأقَرُّوا بِه ، وشَهِدوا أنَّه حق ، فلمَّا

---

(١٥٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١٧و٤١٨) : ((في سبب نزولها ثلاثة أقوال: أحدها أنَّ رَجُلاً من الأنصار ارتدَّ فَلَحِقَ بالمشركين، فَنَزلت هذه الآية إلى قَوْله تعالى: ﴿ إلا الذينَ تابوا ﴾، فكتب بها قَوْمُه إليه فرجعَ تائباً فَقَبِلَ النبيُّ ﷺ ذلك منه وخلَّى عنه ، رواه عكرمة عن ابن عباس . وذَكَرَ مجاهد والسُّدي أن اسم ذلك الرَّجل الحارث بن سُوَيد. والثاني أنها نزلت في عشرة رَهْط ارتدوا فيهم الحارث ابن سُوَيد ، فندم فرجع، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل . والثالث أنها في أهل الكتاب عَرَفوا النبيَّ ﷺ ثم كفروا به ، رواه عطية عن ابن عباس ، وقال الحسن : هُم اليهود والنصارى)) .

بُعث مِن غَيْرهم ، حَسَدوا العرب على ذلك ، فأنكَروه ، وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بُعث مِن غَيرهم))[155].

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : كان رَجلٌ من الأنصار ، أسلمَ ثُمَّ ارتدَّ ، فَلَحِقَ بالمشركين ، ثُمَّ نَدِمَ ، فأرسلَ إلى قَومه أن سَلُوا رسولَ الله ﷺ : هَل لي مِن توبة ؟، قال: فَنَزلت : ﴿ كَيْفَ يَهدي اللهُ قَوماً كفروا بَعْدَ إيمانِهِم ﴾ إلى قَوْله : ﴿ إلا الذينَ تابوا مِن بَعْدِ ذلكَ وأصْلَحوا فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيم ﴾ [آل عِمران : ٨٩] . قال : فأرسلَ إليه قَوْمُه ، فأسلمَ [156].

إنَّ الرِّدةَ أفحشُ الكُفر ، وأكبر الكبائر . لكنَّ رحمةَ اللهِ أكبرُ مِن كُلِّ الذنوب مهما كانت . وبابُ التَّوبة مَفتوح للمُرتد كَي يَعود إلى الإسلام ، لأنَّهُ إذا ماتَ على كُفره فهو خالد في النار . والأُمَّةُ مُجْمِعة على قبول تَوبة المرتد . ولا أحد يَعرف بماذا سَيُخْتَم له ، بالإيمان أم الكفر ، وهل هُوَ مِن أهل السعادة أو من أهل الشقاء. واللهُ يُقَلِّبُ القلوبَ كيف شاءَ، ولَن يَثْبُت إلا مَن ثَبَّتَه اللهُ.

وقال السُّهَيلي في الرَّوض الأُنُف (١/ ٢٤٧) : ((وذُكر أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ في الحارث ابن سُوَيد وارتداده : ﴿ كَيْفَ يَهدي اللهُ قَوماً كفروا بَعْدَ إيمانِهِم ﴾ . فَقِيل : إنَّ هذه الآية مَقصورة على سَببها ، مَخصوصة بِمَن سَبَقَ في عِلْمِ الله أنَّه لا يَهديه مِن كُفره ، ولا يَتوب عليه مِن ظُلْمه ، وإلا ، فالتَّوبة مفروضة . وقد تابَ قَوْمٌ بعد ارتدادهم ، فَقُبلت توبتُهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسِه مِن قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوراةُ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ [آل عِمران : ٩٣] .

جميعُ أنواع الطعام كانت حَلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التَّوراة ، إلا ما حَرَّمَ إسرائيل (يعقوب ﷺ) على نفْسِه كلحوم الإبل وألبانِها .

وفي الحديث أنَّ اليهودَ قالوا للنبيِّ ﷺ: فأخبرنا عمَّا حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسه ؟،قال: ((اشتكى
عِرْقَ النَّسا، فلم يجد شيئاً يُلائمه إلا لحومَ الإبل وألبانَها، فلذلك حَرَّمها))، قالوا : صَدَقْتَ [157].

---

(١٥٥) رواه الطبري في تفسيره (٣/ ٣٢٨) . وحسَّنه ابن حجر في العُجاب (٢/ ٧١٢) .

(١٥٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٥٤) برقم (٢٦٢٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(١٥٧) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٩٤) برقم (٣١١٧) . وقال : ((حسن غريب)) .

والنبيُّ يَعقوب ﷺ اشتكى من هذا المرض ، فَنَذَرَ إنْ شُفِيَ مِنهُ أن يُحرِّم على نفْسِه أحبَّ أنواع الأطعمة إلَيه ، وكانت لحومُ الإبل وألبانُها أحبَّ الطعام إلَيه ، فَحَرَّمها على نفْسِه باجتهادٍ مِنهُ ، ولم يَأمره اللهُ بذلك ، والدليل أنَّ اللهَ نَسَبَ فِعْلَ التحريم إلى يَعقوب ﷺ .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٢٢٣) : ((وذلك أن يعقوب _ عليه السلام _ مَرِضَ مَرَضاً شديداً ، فنذرَ لَئِن عافاه اللهُ تعالى لَيُحَرِّمَنَّ أحبَّ الطعام والشراب إلَيه ، وكان أحبُّ الطعام والشراب إليه لحومَ الإبل وألبانَها)) اهـ .

وقال ابن عباس : فجعلَ إنْ شَفاه اللهُ أن لا يأكلَ لحماً فيه عُرُوق ، قال : فَحَرَّمَتْهُ اليهود ، فَنَزلت : ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ إلا ما حَرَّمَ إسرائيلُ على نفْسِه مِن قَبْلِ أن تُنَزَّلَ التَّوراةُ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ ، إنَّ هذا كان قَبْلَ التَّوراة (158).

لقد حَرَّمَتْهُ اليهودُ اتِّباعاً لأبيهم يعقوب ﷺ ، وهذا التَّحريمُ كانَ قبل نزول التَّوراة ، ولم يكن مِنَ اللهِ تعالى . ثُمَّ حُرِّمَ على اليهود أنواع من الأطعمة بسبب ظُلمهم وفسادهم عُقوبةً لهم .

ومعَ أنَّ اليهودَ هُم أعداءُ اللهِ وقتلةُ الأنبياء ، إلا أنَّ اللهَ تعالى أنصَفَهم ، وأخبرَ بأنَّ كُلَّ أنواع الطعام كانت حلالاً لهم ، وهذا يدل على أنَّ سُلوكَهم في تلك المرحلة كان مستقيماً ، وأفعالَهم كانت طَيِّبةً، فلمَّا اقترَفوا الذنوبَ وارتَكَبوا المحرَّمات، حَرَّمَ اللهُ عليهم أنواعاً مِنَ الطعام عُقوبةً لهم.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٢) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ كُلُّ الطعامِ كانَ حِلاً لبني إسرائيلَ ﴾ ، سبب نزولها أن النبيَّ ﷺ قال : أنا على مِلَّة إبراهيم ، فقالت اليهود : كيف وأنتَ تأكل لحومَ الإبل وتشرب ألبانَها ؟ ، فقال : كان ذلك حِلاً لإبراهيم ، فقالوا : كُلُّ شيء نُحَرِّمُه نَحن ، فإنَّه كان مُحرَّماً على نُوح وإبراهيم ، حتى انتهى إلَينا ، فَنَزلت هذه الآية تكذيباً لهم ، قاله أبو روق وابن السائب)) اهـ .

إنَّ مشكلةَ اليهود في هذا السِّياق أنَّهم اتَّبعوا أباهم يعقوب ﷺ في قضية التَّحريم ، ثُمَّ نَسَبَوا التَّحريم إلى اللهِ، وزَعَموا أنَّ هذا التَّحريمَ وَحْيٌ سماويٌّ، وأنَّ الأنبياءَ خاضعون لهذا التَّحريم . وهذا كَذِبٌ على اللهِ وأنبيائه. وقد كَذَّبَهم اللهُ بِالْحُجَّة والبُرهان ، وَرَدَّ عليهم ، فقالَ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بالتَّوراةِ فاتْلُوها إن كُنتم صادقين ﴾ . قُل يا مُحمَّد لهؤلاء اليهود : أحضِروا التَّوراةَ فاتلوها إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ اللهَ حَرَّمَ لحومَ الإبلِ وألبانَها في التَّوراة ، واقرؤوا التَّحريمَ عَلَينا .

---

(١٥٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٢٠) برقم (٣١٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٣٤٨) : ((وإنما ذلك خَبَر من الله عَن كَذِبهم ، لأنهم لا يجيئون بذلك أبداً على صِحَّته ، فأعلمَ اللهُ بكذبهم عَلَيه نَبِيَّه ﷺ ، وجعل إعلامه إيَّاه ذلك حُجَّة له عليهم، لأنَّ ذلك إذْ كان يخفى على كثير من أهل مِلَّتهم ، فمحمد ﷺ وهو أُمِّيٌّ مِن غَير مِلَّتهم ، لَوْلا أنَّ الله أعلَمَه ذلك بِوَحْيٍ مِن عِنده ، كان أحرى أن لا يَعلمه ، فكان ذلك له من أعظم الْحُجَّة عليهم بأنه نبيٌّ للهِ ﷺ إليهم ، لأن ذلك من أخبار أوائلهم ، كان مِن خَفِيِّ عُلومهم ، الذي لا يَعلمه غَير خَاصَّة منهم)) اهـ .

وبالطبع لَم يَجرؤوا على الإتيان بالتَّوراة، لأنهم يَعلمون كَذِبَهم وتلاعبَهم ، وقد فَضَحَهم اللهُ ، وانكشفَ باطلُهم، وأُسْقِط في أيديهم.وقد أمرَ اللهُ محمداً ﷺ أن يُحاجِجَ اليهودَ بكتابهم (التَّوراة)، وأن يَكون هُوَ الْحَكَمَ بينهم . وهذا مُنتَهى الثِّقة باللهِ الذي يَعلم الأسرار. فالنبيُّ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولَم يَدرس التَّوراةَ والإنجيل . وعِندما يُحَاجِج اليهودَ بكتابهم الذي يَعلمون ما فِيه ، فهذا دليلٌ واضحٌ على صِدْقِ القُرآنِ ، وصِحَّةِ نُبُوَّة محمد ﷺ .

ولوْ كان اليهودُ صادقين في زَعْمهم لأحضَروا التَّوراةَ، وأقاموا الْحُجَّةَ على النبيِّ ﷺ، وكشفوا للناسِ خطأ محمد لِيَعرف الناسُ أنَّهُ لَيس نَبِيَّاً ، وتنتهي الدَّعوة الإسلامية . وهذا أكبر أحلام اليهود، ومُنتهَى آمالهم. لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ، وشَهِدوا على أنفسهم بالكذب ، وشَهِدوا للنبيِّ ﷺ بالصِّدْق، سواءٌ اعترَفوا بذلك أم لا .

لقد دَحَضَ اللهُ باطلَهم وأفحمَهم بكلمتَيْن ﴿ فَأْتُوا بالتَّوراةِ ﴾ ، وهاتان الكلمتان تُشيران إلى منهج القُرآن في مُحَاجَجَة الخصوم ، والردِّ عليهم ، فهو منهجٌ راقٍ يَجمع بين الإيمان والعِلْم والْحُجَج والمنطق والبراهين ، بعيداً عن الشتائم والثورةِ العاطفية والشعارات الفارغة والتحايل واللف والدَّوران. وقد فُوجِئوا بهذا الرَّد الْمُوجَز البليغ، وصُعقوا، وسيطرَ عليهم القلق والارتباك ، واختاروا الهروبَ من الموقف، وهذا دائماً أسلوب العاجزين الذي يتساقطون أمام الْحُجَّة الدامغة ، ولا شَكَّ أنَّ الهروبَ مِنَ المواقف الحسَّاسة اعترافٌ بالهزيمة والخسارة .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل يا أهلَ الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سبيلِ اللهِ مَن آمَنَ تَبْغُونها عِوَجاً وأنتم شُهداءُ ﴾[آل عِمران : ٩٩][159].

---

(١٥٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٢٩) : ((قال مُقاتِل : دَعَت اليهودُ حُذَيْفة وعمار ابن ياسر إلى دِينهم، فَنَزلتْ هذه الآية.وفي المراد بأهل الكتاب هاهنا قَوْلان: أحدهما أنهم اليهود والنصارى،

يا مَعْشَرَ اليهود ، لِمَ تَصْرِفُون عَن دِين الله (الإسلام) مَن آمَنَ، برفضكم الدَّعوة الإسلامية ، وتكذيبِ النبيِّ ﷺ ، وتَوَدُّون أن يَكون طريقُ اللهِ المستقيمُ مائلاً ، وذلك بالتلبيس على الناس وخِداعهم ومحاولةِ إقناعهم بوجود عُيوب في الإسلام ، وإخفاءِ وَصْفِ محمد ﷺ في التوراة. وأنتم تَعلَمون أن الإسلام حَق ، وأن مُحمَّداً نبيٌّ ، وَصْفُه مَذكور في التوراة ، وأنتم تَعلَمون هذه الحقيقة ثم ترفضونها.والصَّدُّ هو المنعُ. وقد كانوا يَبذُلون قُصارى جُهْدهم لمنع مَن أرادَ الدخولَ في الإسلام.

وهذه الآيةُ توبيخٌ لأهل الكتاب ، إذ إنهم رَفضوا الإسلامَ وهُم يَعلَمون أنه حق . فكُفرهم كانَ مُستنِداً إلى عِلْم ومعرفة ، ولم يَكونوا جُهلاء . وبالتالي، لا عُذْرٌ لهم ولا حُجَّةٌ. ولم يَكتفوا بكُفرهم، بل _ أيضاً _ أرادوا منعَ الناس من اعتناق الإسلام، وجَعْلهم كُفَّاراً مِثْلَهم. وهكذا يتَّضح أنهم كانوا فاسدين ومُفْسِدين في آنٍ معاً .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٥١٤) : ((هذا تعنيفٌ مِنَ الله تعالى للكَفَرة أهل الكتاب على عِنادِهم للحق ، وكُفْرِهم بآيات الله ، وصَدِّهم عن سبيل الله مَن أراده من أهل الإيمان بِجُهْدهم وطاقتهم، معَ عِلْمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العِلْم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة الْمُرْسَلين_صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين _، وما بَشَّروا بِه ونوَّهوا به ، مِن ذِكْر النبيِّ الأُمِّيِّ الهاشميِّ العربِيِّ الْمَكِّيِّ ، سَيِّدِ وَلَدِ آدم ، وخاتَمِ الأنبياء ، ورسولِ رَبِّ الأرض والسماء)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جاءَكُم رُسُلٌ مِن قَبْلي بالبَيِّناتِ وبالذي قُلْتُم فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُم إن كُنتم صادقين ﴾ [آل عِمران : ١٨٣] (160).

قاله الحسن، والثاني: اليهود،قاله زَيد بن أسْلَم ومُقاتِل.قال ابن عباس: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سبيلِ اللهِ ﴾ الإسلام والحج . وقال قتادة : لِمَ تصدُّون عن نبيِّ الله وعن الإسلام . قال السُّدي : كانوا إذا سُئلوا : هل تجدون محمداً في كُتبكم ؟ ، قالوا : لا . فَصَدُّوا عنه الناس)) اهـ .

(١٦٠) قال ابن حجر في العُجاب (٢/٨٠٨): ((وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي يزيد النُّعمان ابن قيس المرادي عن العلاء بن بدر قال : كانت رُسُلٌ تجيء بالبَيِّنات ، ورَسُلٌ علامةُ نُبُوَّتِهم أن يضع = =أحدُهم لحمَ البقر على يده ، فتجيء نار من السماء فتأكله ، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ جاءَكُم رُسُلٌ مِن قَبْلي بالبَيِّناتِ وبالذي قُلْتُم ﴾ الآية)) .

قُل يا مُحمَّد لليهود تَوبيخاً : قد جاءكم رُسُلٌ مِن قَبلي بالْمُعجِزات الظاهرة ، والدلائلِ القاطعة على صِدْقِ الرِّسالة ، وصِحَّة النُّبُوَّة . ﴿ وبالذي قُلْتُم ﴾ وبنارٍ تأكل القَرابين الْمُتَقَبَّلة . وذلك أنَّ اليهود كانوا يَقولون للنبيِّ ﷺ : لا نُؤمن بِكَ حتى تأتِيَنا بِقُربان تأكله النار ، لأنَّ اللهَ أمرنا بذلك في التَّوراة وأوصانا بِه . فَلِمَ قُمْتُم بتكذيب الأنبياء وقَتْلِهم كزكريا ويَحيى وغَيْرِهما إن كُنتم صادقين أنّكم تتَّبعون الحقَّ وتَحْرِصُون على الإيمان ؟. وهذه الآيةُ تُكَذِّبُهم، وتفضحهم ، وتكشف حقيقتهم،وتُظْهِر أخلاقَهم السَّيئة كالكذب والتَّحايُل والْمُرَاوَغة،وتُقيم عليهم الْحُجَّة، وتُلْزِمُهم بها.

وقال الطبري في تفسيره (٣/ ٥٣٧) : ((وإنما أعلمَ اللهُ عبادَه بهذه الآية أنَّ الذين وَصَفَ صِفَتَهم من اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ لن يَعْدُوا أن يَكونوا في كَذِبهم على الله ، وافترائهم على ربهم ، وتكذيبهم محمداً ﷺ وهُم يَعلمونه صادقاً مُحِقَّاً ، وجحودهم نُبُوَّته ، وهُم يجدونه مكتوباً عندهم في عهد الله تعالى إليهم أنه رسولُه إلى خَلْقه مفروضة طاعته ، إلا كَمَن مضى من أسلافهم الذين كانوا يَقتلون أنبياءَ الله ، بعد قَطْعِ عُذْرِهم بالْحُجَجِ التي أيَّدهم اللهُ بها)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اللهَ تعالى قد أسندَ إلَيهم فِعْلَ القَتْل ﴿ قَتَلْتُمُوهُم ﴾ معَ أنَّ أسلافَهم هُم الذين قاموا بالقَتْل ، وذلك لأنَّ الأبناءَ مُوافِقون لآبائهم ، ومُوالُون لهم ، ورَاضون بجرائمهم .

وقال القرطبي في تفسيره(٤/ ٢٨٧): ((وهذه الآية ـ ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُم إن كُنتم صادقين ﴾ـ هي التي تلاها عامر الشَّعبي ـ رضي اللهُ عنه ـ فاحتجَّ بها على الذي حسَّن قَتْلَ عثمان ـ رضي اللهُ عنه ـ ... وأن الله تعالى سَمَّى اليهودَ قَتَلةً ، لِرِضاهم بِفِعْل أسلافهم ، وإن كان بَيْنَهم نحو من سبعمائة سنة . والقُربان ما يُتقرَّب بِه إلى الله تعالى مِن نُسُك وصدقة وعمل صالح)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وقالتِ اليَهودُ والنَّصارى نَحْنُ أبناءُ اللهِ وَأحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنوبِكُم ﴾ [المائدة : ١٨] .

هذه الآيةُ تَكذيبٌ لأهل الكتاب ، ورَدٌّ إلهيٌّ بليغٌ عليهم ، فقد زعموا أنهم أبناء الله تعالى ، أي إنهم عبادُه الْمُخْلَصون الذين اختارهم وفضَّلهم على الخلق، وأحبابُه وصَفوته مِن بين الناس ، وأنهم مِنَ اللهِ بِمَنْزلة الأبناء مِنَ الآباء ، أي إنَّهم كأبنائه سُبحانه وتعالى في القُرب والمكانة ، وهو كأبيهم في الْحُبِّ والرحمة . وهذا الزَّعْمُ الباطل تهاوى أمام الرَّد القرآنِيِّ . فإن كانوا ـ كما يزعمون ـ فلماذا أعدَّ اللهُ لهم نارَ جهنم خالدين فيها جزاء كفرهم وكذبهم ورفضهم للرسالة المحمَّدية

الإسلامية الْمُصَدِّقة لِمَا قَبْلَها مِن الرسالات السماوية ؟ . وفي الآية معنى لطيفٌ أنَّ الله تعالى لا يُلقِي حبيبَه في النار ، فلوْ كان اليهودُ والنصارى أحباباً لله تعالى لَمَا عَذَّبَهم ، بَل حَمَاهم مِنَ الجحيم، وَمَنَحَهم الجنةَ. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٨):((أي نحن مُنتَسِبون إلى أنبيائه، وهُم بَنُوه ، ولَهُ بِهم عِناية وهو يُحِبُّنا. ونقلوا عن كتابهم أنَّ الله تعالى قال لِعَبْده إسرائيل : أنتَ ابني بِكْري. فَحَمَلوا هذا على غير تأويله ، وحرَّفوه ، وقد رَدَّ عليهم غَيْرُ واحد مِمَّن أسلمَ مِن عُقلائهم. وقالوا : هذا يُطلَق عِندَهم على التشريف والإكرام ، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ، يعني رَبِّي ورَبَّكم . ومعلوم أنهم لَم يَدَّعوا لأنفسهم مِنَ البُنُوَّة ما ادَّعوها في عيسى _ عليه السلام _ وإنما أرادوا من ذلك معزَّتهم لَدَيه ، وحَظَوتهم عِندَه، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه)) اهـ .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٣/ ٤٤) : [أخرج ابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس قال : ((أتى رسولَ الله ﷺ ابنُ أُبَي ، وبحري ابن عمرو ، وشاس بن عَدِيٍّ ، فكلَّمهم وكلَّموه ، ودعاهم إلى الله ، وحذَّرهم نِقمته، فقالوا: ما تُخوِّفنا يا محمد ، نحن واللهِ أبناءُ اللهِ وأحباؤه ، كَقَول النصارى))] ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهودُ والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قُل فَلِمَ يُعذِّبكم بذنوبكم ﴾ .

إنَّ هذا الغرور والاستعلاء والتحدث بكل عنجهية وفَوْقية ، كل هذه الأمور تُعتبَر حواجز مانعة لوصول الحق . فالإنسانُ الصادق في طلب الحق ، ينبغي أن يَطلبه في كل زمانٍ ومكان بأدب واستعداد نَفْسي لتقبُّله . أمَّا اتخاذ موقف استعلائي مسبق ، فسوف يؤدي قطعاً إلى رفض الحق سواءٌ ظَهر أم لَم يَظهر. وهذا هو دَيْدن اليهود في كل العصور الذين يَنظرون إلى أنفسهم على أنهم صَفوةُ الله مِن خَلْقه ، وشَعْبُه المختار ، وأنَّ الآخرين مجرد عبيد ورَعاع وأصحاب مَنْزلة دُونية .

وعن أنسٍ _ رضي اللهُ عنه _ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((واللهِ لا يُلقِي اللهُ حَبيبَه في النار))[161].

إنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبداً حَمَاه مِن كُلِّ سُوء ، ووفَّقه لِفِعل الخيرات حتى يَقبضه طاهراً مُطَهَّراً، ثُمَّ يُدْخِله الجنةَ ، ولا يَجعل النارَ تأكل جسدَه . وهنا تتجلى الرَّحمةُ الإلهيةُ ، ويَظهر الفضلُ الرَّبانيُّ العظيمُ ، فالمؤمنُ لا يَدخل الجنةَ بعبادته وتَقواه وذكائه ، وإنما يَدخلها برحمة اللهِ وفَضْلِه .

---

(١٦١) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ١٩٥) برقم (٧٣٤٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوراةُ فِيها حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وما أُولئكَ بالمؤمنين ﴾ [المائدة : ٤٣].

كَيْفَ يُحَكِّمُكَ اليهودُ يا مُحمَّد ويَرْضَوْنَ بِحُكْمِك ، وعِندَهم التَّوراةُ الكتابُ السماويُّ الذي أنزله اللهُ على موسى ﷺ ، فِيها حُكْمُ اللهِ واضحاً جَلِيّاً (رَجْم الزاني)، ومعَ هذا يَرفضون العملَ به. وهذا تَعجيبٌ له ﷺ [162]. إنَّهُ أمرٌ في غاية العَجَب والغرابة ، لأنَّ اليهود يَتركون حُكْمَ التَّوراة التي يَزعمون الإيمانَ بها، ثُمَّ يُحَكِّمونَ محمداً ﷺ معَ أنهم لا يُؤمنون بِهِ، ولا يَعترفون بالقُرآن الذي هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ . وهذا تَقريعٌ لهم لأنهم يَتحاكمون إلى النبيِّ ﷺ الذي لا يَعترفون بِه ، ويَتركون حُكْمَ التَّوراة التي يَعتقدون صِحَّتَها ويُقدِّسونها . وقد قاموا بهذا الأمر طَلَباً للرُّخصة ، وطَمَعاً مِنهم أن يُوافِقَ حُكْمُ النبيِّ ﷺ تحريفَهم الذي صَنَعوه في التَّوراة . وهنا يتجلى جَهْلُهم، وعِنادُهم ، وكُفْرُهم ، وتَحايلُهم على الشريعة ، وتلاعبُهم بالنصوص الدِّينية . فَهُم لا يَبحثون عن الحق وتطبيقِ الشريعة ، وإنما اختاروا التحكيمَ كوسيلة للالتفاف على الشريعة ، والتحايل على الأحكام الشرعية ، والهروب من أوامرِ الله تعالى .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٠) : ((قال تعالى مُنكِراً عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائغة في تركهم ما يعتقدون صِحَّته من الكتاب الذي بأيديهم ، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً ، ثُمَّ خَرجوا عَن حُكْمه ، وعَدَلوا إلى غَيره مِمَّا يَعتقدون في نفْس الأمر بُطلانَه وعدمَ لزومه لهم)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٢) : ((قَوْله تعالى : ﴿ فِيها حُكْمُ اللهِ ﴾ فيه قَولان : أحدهما : حُكْم الله بالرَّجْم ــ يعني رَجْم الزاني ــ وفيه تَحاكَموا ، قاله الحسن . والثاني : حُكْمه بالقَوَدِ ــ يعني القِصاص ــ وفيه تَحاكَموا ، قاله قتادة)) اهـ .

وهذا يدل على أنَّ هذا الْحُكْمَ الإلهيَّ ثابتٌ في التَّوراة ، لم يُحرَّف ولم يُنسَخ ، لأنَّهُ لَوْ حُرِّفَ أو نُسِخَ ، لا يُسمَّى حُكْمَ اللهِ بسبب تغييره .

﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وما أُولئكَ بالمؤمنين ﴾ . ويَجِيءُ حُكْمُ النبيِّ ﷺ مُوافِقاً لِحُكم التَّوراة ، وهو رَجْم الزاني ، فَيُعْرِض اليهودُ عن حُكم النبيِّ ﷺ ويَرفضونه . وقَبْلَ ذلك ،كانوا قد

---

(١٦٢) قال الفخر الرازي في التفسير الكبير (١١/ ٢٣٦) : ((هذا تعجيبٌ مِنَ الله تعالى لِنَبِيِّه ﷺ بتحكيم اليهود إيَّاه بعد عِلْمهم بما في التوراة مِن حَد الزاني ، ثم تَرْكِهم قبول ذلك الحُكم ، فَعَدَلوا عمَّا يعتقدونه حُكما حَقّاً إلى ما يَعتقدونه باطلاً طلباً للرُّخصة ، فظهرَ بذلك جهلُهم وعِنادُهم)) .

أعْرَضوا عن حُكْم التَّوراة ، ولم يَقبلوا بِه . والْحُكْمُ واضحٌ أمامَهم ، والحقُّ ظاهرٌ. وهؤلاء كافرون لا مؤمنون ، لأنَّهم رَفضوا حُكْمَ اللهِ الذي أنزلَه في التَّوراة ، ونَطَقَ بِه النبيُّ ﷺ . فَدَعْواهم الإيمان باطلة ، لأنَّ الإيمانَ يَقتضي الخضوع للأحكام الإلهيةِ سَواءٌ كانت في الكُتب السماوية ، أَم جاءت على ألسنة الأنبياء _ عليهم الصلاة والسلام _ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٣٦٢): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما : مِن بَعْدِ حُكم الله في التَّوراة ، والثاني : مِن بَعْدِ تحكيمك . قَوله تعالى : ﴿ وما أُولئكَ بالمؤمنين ﴾ فِيه قَولان : أحدهما : لَيسوا بمؤمنين لتحريفهم التوراة ، والثاني : لَيسوا بمؤمنين أنَّ حُكْمَك مِن عند الله ، لِجَحْدِهم نُبُوَّتَك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٥٩] (163).

يا أهلَ الكتاب ، هَل تَكْرهون مِنَّا وتَعيبون عَلَيْنا ، إلا الإيمانَ بالله وكُتُبِه ورُسُلِه ، وأن أكثركم خارجون عن الطريق المستقيم. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٠١) : ((هل لكم عَلَيْنا مَطْعَن أو عَيْب إلا هذا ؟ ، وهذا ليس بعَيْب ولا مَذَمَّة ، فيكون الاستثناء مُنْقَطِعاً)) اهـ .

وهذا يُشير إلى فساد عقائد أهل الكتاب ، وحِقْدِهم على المؤمنين ، وحَسَدِهم لهم ، وَظُلمهم لأنفسهم وللآخرين. وقد أعماهم حُبُّ المالِ وعِشْقُ السُّلطة، فجاءت أحكامُهم جائرةً غَيْرَ مُنصِفة.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثُمَّ لا يُنظَرون ﴾ [الأنعام : ٨] .

يُخبِر اللهُ تعالى عن عِناد المشركين وجَهْلِهم ، فقد اقترحوا _ بكل جحود _ إنزال مَلَكٍ على النبيِّ ﷺ لِيَكون معه نذيراً ومُسانِداً . وهذا مِمَّا يتذرع به المشركون ، حيث يخترعون الأشياءَ من بنات أفكارهم بسبب عجزهم عن مقارعة الْحُجَّة بالْحُجَّة . فينتهجون هذا الأسلوب العقيم الذي يُنبئ عن جهل وعناد وفكرة مسبقة رافضة للإيمان مهما حصل مِن مُعجِزات. لذلك تراهم يبحثون

---

(١٦٣) في زاد المسير لابن الجوزي (٢/ ٣٨٦) : ((أن نفَراً من اليهود أَتَوا رسولَ الله ﷺ فسألوه عَمَّن يُؤمن به من الرُّسل ، فَذَكَرَ جميعَ الأنبياء، فلمَّا ذَكَرَ عيسى جَحدوا نبُوَّته، وقالوا: واللهِ ما نعْلم دِيناً شَرّاً من دِينكم ، فَنَزلتْ هذه الآية والتي بَعْدَها)) اهـ .

عن أمور غير منطقية ، ويحاولون إلباسها ثوب المنطق ومُقارَعة الدليل بالدليل . لكنَّ الرَّدَّ الإلهيَّ لَم يتأخر في دَحْض باطلهم، فلوْ أُنزِل مَلَكٌ لَمَا أطاقوا رؤيته لِعَظَمته وهَيْبته، أو أن العذاب سيأتيهم عاجلاً بلا تأخُّر ، وعندئذ لا يُمهَلون ، ولا يُمنَحون فرصةً للتوبة . ومُفاجأة العذابِ أشدُّ مِن نفْس العذاب . وعُنصر المفاجأة _ دائماً _ قاتل . وهنا تتجلى الرَّحمةُ الإلهيةُ التي وَسِعَتْ كُلَّ شيء حتَّى الكافرين .

وفي زاد المسير (٣/ ٨) : ((قال مُقاتِل : نزلت _ أي الآية _ في النَّضْر بن الحارث وعبد الله ابن أبي أُمَيَّة ونَوْفَل بن خُوَيلد . ولَولا بمعنى هَلا أُنزل عليه مَلَكٌ نُصَدِّقه، وَلَوْ أنزلنا مَلَكاً فعايَنوه ولَم يُؤمنوا لَقُضِيَ الأمر. وفيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المعنى لَمَاتوا ولم يُؤَخَّروا طَرْفَةَ عَيْن لِتَوبةٍ ، قاله ابن عباس . والثاني : لَقَامت الساعة ، قاله عِكرمة ومجاهد . والثالث : لَعُجِّل لهم العذاب، قاله قتادة)) اهـ .

﴿ وقالوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ . اقترحَ المشركون بدافع العِناد والتَّكبُّر أن يُنْزِلَ اللهُ مَلَكاً على محمد ، فَيَرَوْنَهُ ، ويُكلِّمهم، ويَشهد بأنَّ محمداً صادق ، وأنَّ اللهَ أوحَى إلَيه . وهذا نَوْعٌ جديد من أنواع كُفْرِ المشركين ، وجَحْدِهم لِنُبُوَّة محمد ﷺ . وهُم لَم يَطلبوا نُزولَ الْمَلَكِ بحثاً عن الحق والحقيقة أو للتأكد مِن نُبُوَّة محمد ﷺ ، لأنهم كانوا يَعلمون أنَّ محمداً نبيٌّ يُوحَى إلَيه ، وهو الصادق الأمين . ولكنها حِيلة يستخدمونها للتلاعب وتضييع الوقت والتَّهرب من الإيمان .

وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٤٥) : ((طَلَبوا مَلَكاً يَرَوْنَهُ يَشهد له بالرِّسالة)) اهـ .

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأمرُ ثُمَّ لا يُنظَرون ﴾ . لَوْ أنزلَ اللهُ مَلَكاً _ كما طَلب المشركون_ ثُمَّ كَفروا لَتَمَّ إهلاكُهم فوراً ، ولم يُمنحَوا أيَّة فرصة للتَّوبة . وسُنَّةُ اللهِ ثابتة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ، وهي أنَّ كُلَّ مَن طَلب آيةً، وكَفَرَ بعد رُؤيتها ، فإنَّ اللهَ يُهْلِكُه في الحال ،كما فعل بالأمم السابقة. وهنا تتجلى رحمةُ اللهِ بالمشركين الذين أرادوا تدمير أنفسهم بأنفسهم مِن حَيث لا يَشعرون . وهكذا هُم الْجُهَّال في كُل زمان ومكان ، يَسيرون إلى الهاوية بأقدامهم ، ويَطلبون ما فِيه هلاكهم، وكما قِيل : رُبَّ مُتَمَنٍّ حَتْفُه في أُمْنِيَّته، أوْ رُبَّ امرئٍ حَتْفُهُ فِيما تَمَنَّاه. والجبانُ قَد يَلقى حَتْفَه في مَظَنَّةِ النجاة. لقد حَمَاهم اللهُ مِنَ الهلاك الفَوريِّ ، ومَنَحَهم الفُرصةَ تِلْوَ الفرصة . فاللهُ يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ ، ورحمتُه وَسِعَتْ أحبابَه وأعداءَه ، فهو سُبحانه خالقُ الناسِ كُلِّهم . يُريد لهم الهدايةَ ، لا يَستفيدُ مِن إيمان المؤمن ، ولا يتضرَّر مِن كُفر الكافر . الطاعاتُ لا تَنفعه ، والمعاصي لا تَضُرُّه . لكنَّ العاقلَ لا يَغترُّ

برحمة اللهِ لأنَّ عذابَه أليمٌ شديد، وعلى الإنسان أن يَكون بين الرَّجاء والخوف ، يَرجو اللهَ ، ويخاف الذنوبَ التي اقترَفَها .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ١٥١) : ((يقول : وَلَوْ أنزَلْنا مَلَكاً على ما سألوا ، ثُمَّ كفروا، ولَم يُؤمنوا بِي وبرسولي لجاءهم العذاب عاجلاً غير آجِل ، ولَم يُنظَروا فَيُؤَخَّروا بالعقوبة مُراجعة التوبة ، كما فعلتُ بِمَن قَبْلَهم _ من الأمم التي سألت الآياتِ ثم كفرت بعد مجيئها _ مِن تعجيل النِّقمة وترك الإنظار)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِم ما يَلْبِسُون ﴾ [الأنعام : ٩].

لَو استجابَ اللهُ لِطلب المشركين ، وأنزلَ مِنَ السماء مَلَكاً يَشهد أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ ورسولٌ ، لَجَعَلَه في صُورة رَجل كَي يُحاوِرَهم ويُحاوروه ، ويَتعلموا مِنهُ ، ويَنتفعوا بِعِلْمِه . وأيضاً ، إنَّ الناسَ لا يُطيقون رُؤيةَ الْمَلَكِ في صُورته الحقيقية ، فهذا الأمرُ فوق قدرتهم على التَّحمُّل. ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَميل إلى جِنْسِه، ولا يَنسجم معَ غَيْرِ جِنْسِه . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣): ((فإنَّ القوة البشرية لا تَقوى على رؤية الْمَلَك في صُورته ، وإنما رَآهم كذلك الأفراد من الأنبياء _عليهم الصلاة والسلام _ بِقُوَّتهم القُدْسِيَّة)) اهـ .

وَلَوْ أنزلَ اللهُ مَلَكاً بصورته الحقيقية ، لَهَرَبَ الناسُ مِنهُ بسبب عَظَمته وهَيبته ، ولَمَا حصلت فائدةُ التبليغ والدَّعوة والتعلم والتعليم ، وعندئذٍ يَبطُل معنى النُّبُوَّة والرسالة . وَلَوْ أنزلَ اللهُ مَلَكاً على صُورة بَشَرٍ ، لَمَا صَدَّقَ المشركون أنَّهُ مَلَكٌ، وقالوا إنَّكَ بَشَرٌ ، وكَذَّبوه ، واتَّهموه بالسِّحْر وباقي التُّهم الجاهزة، وكفروا بِه. وبالتالي، لا تتحقق المصلحة ، ولا يَنتفع الناسُ برسالة السماء . وفي الحالتَين ، يَبطُل دَوْرُ النبيِّ ، وتَفقد الرسالةُ السماوية معناها . وهكذا يتَّضح أنَّ اختيارَ رَسُولٍ مِنَ البَشَرِ إلى البشر دليلٌ واضح على رحمة اللهِ بعباده ، وحِكْمته الجليلة .

والجديرُ بالذِّكْر أن الملائكة كانوا يَأتون الأنبياءَ في صُورة البَشَر،فَأَتَوا إبراهيم ولوطاً _ عليهما الصلاة والسلام _ في صُورة البشر ، وجاءَ الْمَلَكَان إلى داود ﷺ في صُورة رَجُلَيْن . وكان جِبريلُ _ عليه السلام _ يأتي النبيَّ ﷺ في صُورة دِحْية الكَلبيِّ _ رضي اللهُ عنه _ [164]، وهو صحابيٌّ جَميلُ الوَجْه ، حَسَنُ الصورة .

(١٦٤) في الحديث أنَّ جِبريلَ _ عليه السلام _ أتى النبيَّ ﷺ وعِندَه أم سَلَمة ، فَجعل يُحدِّث ثُمَّ قام ، فقال النبيُّ ﷺ لأم سلمة : ((مَن هذا ؟))، قالت: هذا دِحْية . [مُتَّفق عليه . البخاري (٣/ ١٣٣٠)

﴿ وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِم ما يَلْبِسُون ﴾ [165]. ولَخَلَطْنا عليهم ما يَخْلِطون على أنفسهم، وشَبَّهْنا عليهم ، وحَدَثَ الالتباسُ والشك والإشكال ، فلا يَعرِفون أمَلَكٌ هُوَ أم إنسان .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((وَلَلَبَسْنا جواب محذوف ، أي: وَلَوْ جعلناه رَجلاً لَلَبَسْنا ، أي : لَخَلَطْنا عليهم ما يَخلِطون على أنفسهم ، فيقولون : ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الذينَ أشْرَكوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

قد علَّقوا شِرْكهم على مشيئة الله جهلاً منهم ، وجعلوا الشِّرك إنما تَمَّ بمشيئته تعالى وإرادته وَفْقَ منظورهم الرامي إلى تخليص أنفسهم من أية مسؤولية على اختياراتهم . فنظرتهم العَقَدية متمركزة حول فكرة جَبرية، وأنهم واقعون تحت مشيئة الله التي أجْبَرَتْهم على ارتكاب الذنوب والوقوعِ في الشِّرك ــ وَفْقَ عقيدتهم الباطلةــ ، وأنَّ اللهَ لَوْ أرادَ لَمَنَعَهم مِن الشِّرْك . ولا شَكَّ أن الذي تُقام عليه الْحُجَّةُ ولَيس له حُجَّة ، سَيتذرَّع بِفَهْمه المغلوط حَوْلَ القضاء والقَدَر للتَّنصُّل من مسؤوليته الشخصية ، وإظهارِ نفْسِه كشخصٍ بريء ليس له علاقة بذنوبه التي اقترفَها بكامل قُواه العقلية ، وبكل حُرِّية ، وعن سَبْقِ الإصرار والتَّعمد . وقد تمسَّكوا بمشيئة اللهِ في هذا السياق ، جهلاً وعِناداً ودَفْعاً للاحتجاج عَلَيهم . ومشيئةُ اللهِ شاملةٌ لكلِّ شيء ، وتَعُمُّ كُلَّ شيء ، ولكنْ لا

ومسلم (٤/ ١٩٠٦)] . وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٨) : ((وفيه مَنقبة لأم سَلَمة ــرضي اللهُ عنهاــ،وفيه جَواز رؤية البشر الملائكة ووقوع ذلك، ويَرَوْنَهم على صورة الآدميين= =لأنهم لا يَقدرون على رُؤيتهم على صُوَرهم . وكان النبيُّ ﷺ يَرى جِبريلَ على صُورة دِحْية غالباً ، ورآه مَرَّتين على صُورته الأصلية)) اهـ . وقال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٣٨٥) : ((وروى النَّسائي بإسناد صحيح عن يحيى بن مَعْمَر عن ابن عمر ــرضي الله عنهماــ: كان جِبرائيل يأتي النبيَّﷺ في صورة دِحْية الكلبيِّ)) .

(١٦٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٨) : ((أي : لَشَبَّهْنا عليهم. يُقال : ألبستُ الأمرَ على القوم ألْبَسَه، أي شَبَّهْتُه عليهم وأشْكَلْتُه. والمعنى: لَخَلَطْنا عليهم ما يَخلِطون على أنفسهم حتى يَشُكُّوا، فلا يَدرون أمَلَكٌ هو أم آدميٌّ ، فأضللناهم بما بِه ضَلُّوا قبل أن يُبعَث الْمَلَكُ . وقال الزَّجاج : كانوا يَلْبِسُون على ضَعَفتهم في أمر النبيِّ ﷺ ، فيقولون : إنما هذا بَشَرٌ مِثْلُكم ، فقال تعالى : لَوْ رَأَوا الْمَلَكَ رَجلاً ، لكان يَلحقهم فِيه مِن اللبسِ مِثْلُ ما لَحِقَ ضَعَفَتَهم مِنه)) .

حُجَّةَ لِمَن تمسَّكَ بها وتركَ الأمرَ . فعلى الإنسانِ الالتزام بأوامرِ اللهِ ، ولا يَبحث عن تبرير لآثامه ومَعاصيه . والوقتُ الذي يَأخذه الإنسانُ لتبرير أخطائه وخطاياه ، يَكفي لإصلاحها كُلِّها .

والمشركون قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ﴾ سُخريةً واستهزاءً ولَعِباً ، ولَم يَقولوها تعظيماً للهِ ، وإيماناً بمشيئته التي تَعلو كُلَّ شيء . ولوْ قالوها تعظيماً للهِ وصِفاتِه لَمَا عَابَهم اللهُ وذَمَّهم . وقد فَضَحَ المشركون أنفسَهم بأنفسهم ، ووَقَعوا في التناقض والاضطراب ، فَهُم يَزعمون أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَه ضَالُّون وعلى غَير هُدى ، فلماذا لَم يَقولوا إنَّ المؤمنين تحت مشيئة اللهِ ، ولا ذَنْبَ لهم ، ولا يَتحمَّلون مسؤوليةَ أعمالهم ؟! .

إنَّ المشركين يَجهلون أنَّ الخير والشر، والإيمان والكفر، يكتسبه الإنسان بِمِلْكِ إرادته ، وأن القَدَر لا يُعارض تحمُّلَ الإنسان لمسؤولياته كاملة غير منقوصة. فالله أحاطَ بكل شيء عِلْماً ، لكنه لَم يُجبِرِ الإنسانَ على سلوك طريق مُحدَّد . واللهُ يَعلم أنَّ المشركين سَيَغرقون في الشِّرك لكنه لَم يُجْبِرهم على سلوك هذا الطريق . ولوْ كان هناك إجبارٌ لفقدَ الأنبياءُ شَرعيةَ وجودهم ، وأصبحت الجنةُ والنارُ بلا معنى، ولَم يَعُدْ هناك فائدة ليوم الحساب .

والعقيدة الْجَبْرية تتعارض ـ جُملةً وتفصيلاً ـ مع عقيدة الثواب والعقاب في الآخرة . واللهُ قادرٌ على الْمَنْح والْمَنْع ، لكنَّه سُبحانه أعطى الإنسانَ حُريةَ الاختيار ، والإنسانُ يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره في الدُّنيا والآخرة . وعندما يُطيعُ الإنسانُ اللهَ تعالى ، فهذا مِن فَضْلِ اللهِ وله المِنَّة . وإن عَصَاه ، فقد خَذَلَه اللهُ وله الْحُجَّة .

والآيةُ ﴿ سَيَقُولُ الذينَ أشْرَكوا ﴾ إخبار عن أمرٍ غَيبيٍّ في المستقبَل ، وقد تحقَّق . وهذا دليلٌ على إعجاز القُرآن وصِدْقِ النبيِّ ﷺ .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رَجلاً يقول : الشَّرُّ ليس بقَدَر ، فقال ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : ((بَيْنَنا وبَيْنَ أهلِ القَدَر : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ ... . قال ابن عباس: والعَجْز والكَيْس مِن القَدَر)) [166].

وأهلُ القَدَر هم نُفاة القَدَر ، فهم يُنكرونه . والآية القرآنية توضِّح إيمان المشركين بالقَدَر، ولكنْ من منظور مغلوط. فهم يعتقدون أنَّ القَدَرَ سالبٌ لحريتهم، وأنَّ شِرْكَهم خاضعٌ لمشيئة الله ولا علاقة لهم بالموضوع . وهذا يتنافى مع الإيمان . صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية،

(١٦٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٧) وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

لكنَّ اللهَ أعطى العبدَ القدرةَ على اختيار طريقه، إمَّا الإيمان أو الكفر . والعبدُ يتحمل مسؤوليةَ اختياره الحر .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٤٩) : ((وأمَّا قَوْلُه في الأنعام: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ الآية. فقد تمسَّك بها المعتزلة وقالوا إن فيها رداً على أهل السُّنة . والجواب أن أهل السنة تمسَّكوا بأصل قامت عليه البراهين وهو أن الله خالق كل مخلوق، ويستحيل أن يخلق المخلوق شيئاً . والإرادة شرط في الخلق ، ويستحيل ثبوت المشروط بدون شرطه . فلمَّا عاند المشركون المعقولَ ، وكذَّبوا المنقولَ الذي جاءتهم به الرُّسُل ، وأُلْزِموا الْحُجَّة بذلك ، تمسَّكوا بالمشيئة والقَدَر السابق ، وهي حُجَّة مردودة ، لأن القَدَر لا تبطل به الشريعة ، وجريان الأحكام على العباد بأكسابهم)) اهـ .

قالت المعتزلة _ اعتماداً على قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ _ : قد ذَمَّ اللهُ هؤلاء المشركين الذين جَعَلوا شِرْكَهم خاضعاً لمشيئة اللهِ ، والمعتزلة تريد أن تقول : إنَّ الشِّرْكَ والأفعال السَّيئة لَيْسَت بمشيئة اللهِ ، وإنَّما يَخلقها الإنسانُ بنفْسه . وهذا انحرافٌ عَقَدِيٌّ واضح . فكلُّ شيء خاضع لمشيئة اللهِ. وقد ذَمَّ اللهُ المشركين لأنَّهم لَم يَنظروا في الأدلة الشَّرعية،ولَم يَبحثوا عن الحق ، بل قالوا كلامَهم سُخريةً ولَعِباً وتبريراً لِكُفرهم ، ولوْ قالوا كلامَهم تعظيماً للهِ ، وإظهاراً لِقُدرته ، وتَقديساً لإرادته ، وتَمجيداً لمشيئته ، لَمَا ذَمَّهم اللهُ ، وَوَصَمَهم بالخزي والعار .

ومنهجُ المعتزلة في الاستدلال قائم على ضَرب النصوص ببعضها البعض، وأخذها مُجتزأةً . وهذا منهج مهزوز لا تقوم له قائمة. فالنصوصُ الدينية وَحدة واحدة ينبغي أن تؤخذ معاً ، ولا بد من معرفة القواعد العامة للإسلام ، ورَدِّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم ، وتقديم الجمع والتوفيق بين النصوص الشرعية قبل الذهاب إلى النَّسْخ أو الترجيح . والمشركون قد رَبطوا شِرْكَهم بالمشيئة الإلهية ، وتعلَّقوا بشُبهة وهي أن الله قادر على منعهم من الشِّرك ، ولو شاء لجعلهم وآباءهم غير مشرِكين ، وبما أنه سُبحانه لَم يَفعل ذلك فهذا دليل على شرعية شِرْكهم ورضا الله عنهم . وهذه حُجَّةٌ داحضة عند الله تعالى ، لأنها قائمة على أوهام مُتخيَّلة لا تَمُتُّ للواقع بِصِلة .

صحيحٌ أن كل شيء خاضع للمشيئة الإلهية ، وأيضاً إن الله تعالى قد خَلق الخيرَ والشر ، وأعطى الإنسانَ القدرة على الاختيار بينهما ، وَوَفْقَ الاختيار يتحدد الجزاء (الجنَّة أو النار) ، فأداءُ الإنسان في هذا الامتحان الإلهيِّ يُحدِّد النتيجةَ ، إمَّا النجاح وإمَّا الفشل .

وقد ذَهبت المعتزلةُ إلى أن الإنسان يَخلق أفعالَه ، وهذا منتهى الضلال. فالإنسانُ كائن ضعيفٌ ومخلوق خاضع لخالقه ، والخلقُ صفةٌ لله تعالى ، ومُحالٌ أن يتساوى المصنوع مع الصانع في فِعْل الخلْقِ . وكلُّ ما سِوى اللهِ مخلوقٌ، واللهُ خالقُ كلِّ شيء . ولا يمكن أن يخلق المخلوق شيئاً لأن فاقد الشيء لا يُعطيه. فاللهُ خَلَقَ العبادَ وأكسابَهم ، وصَنع الفاعلَ (العبدَ) وفِعْلَه ، وهو سُبحانه مالِكٌ لهم ولِمَا مَلَّكهم . لكنَّ المشركين لا يَملكون الْحُجَّةَ والمنطقَ الصحيح لذا تمسَّكوا بالقَدَر السابق ، ولا يَخفى أن القضاء والقَدَر لا يَسلبان قُدراتِ الفرد ، ولا يُجرِّدانه من مسؤولياته . كما أن عِلْمَ الله الذي أحاط بكل شيء ليس إجباراً للمرء ، أو دفعه في طريق محدَّد رغمَ أنفه . لكنَّ العاجز دائم البحث عن مُبرِّرات لِعَجْزه وفشله . ومن هنا يتم التعلق بالقضاء والقَدَر والمشيئة الإلهية والإرادة الرَّبانية دون معرفة المعاني الحقيقية لهذه المفاهيم التي حَار الكثيرون في فهمها والوقوف على معانيها بسبب عدم معرفة قواعد الإسلام ومنهجه . وكثيرٌ مِنَ الناس ضَلُّوا طريقَهم بسبب فهمهم المغلوط للقضاء والقَدَر ، وكثيرٌ مِنَ الفِرَق والطوائف شَيَّدت أفكارَها المنحرِفة وفلسفتَها الشاذة على الفهم الْمُشوَّش للقَضاء والقَدَر ، حتى انتهَوا إلى الطعن في صفاتِ اللهِ تعالى .

﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن شَيْءٍ ﴾ . حُجَّة المشركين الواهية هي : إنَّ اللهَ قادرٌ على مَنْعِنا مِنَ الشِّرْك، وبما أنَّهُ لَم يَمْنَعْنا، فهذا دليلٌ على رِضاه بِشِرْكنا. ويُريد المشركون أن يَقولوا : لَوْ شاءَ اللهُ لأرسلَ إلى آبائنا رَسولاً فنهاهم عن الشِّرْك وأمرَهم بالتَّوحيد .

أمَّا قضيةُ التحريم ، فَيَقصدون تحريم البَحيرة والسَّائبة والوَصيلة والحام (167).

والمعنى : لَوْ شاءَ اللهُ ما حَرَّمْنا هذه الأشياءَ . وبما أنَّنا حَرَّمْناها ، فهذا دليلٌ على رِضا اللهِ بِها، وأنَّنا وافَقْنا مُرادَه. ومَقصودهم هُوَ تكذيب النبيِّ ﷺ والتشكيك برسالته، والطعن فيها. إنَّهم لَم

---

(١٦٧) قال الواحدي في الوجيز (١/ ٣٣٨): ((والبَحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن شَقُّوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها. (السَّائبة): هو ما كانوا يُسَيِّبونه لآلهتهم في نذْر يلزمهم إن شُفِيَ مريض، أو قُضيت لهم حاجة . (الوصيلة) : كانت الشاةُ إذا وَلدت أنثى فهي لهم وإن وَلدت ذَكَراً جعلوه لآلهتهم ، وإن وَلدت ذكراً وأنثى قالوا : وَصَلت أخاها فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم . (الحام) إذا نتجت مِن صُلْب الفَحْل عشرة أبطن ، قالوا : قد حَمَى ظَهْرَه فلم يُرْكَب، ولم يُنتفَع بِه ، وَسُيِّب لأصنامهم فلا يُحمَل عليه)) اهـ .

يَعتذروا عن شِرْكهم، وإنما بَحثوا عَن مُسَوِّغ دينيٍّ وأخلاقيٍّ لهذا الشِّرْك . لقد أرادوا شَرْعنةَ شِرْكِهم بالْحُجَّةِ الواهية الْمُتَخَيَّلة في أذهانهم . وهنا تبرز خطورة التمادي في الذنوب وتبريرها ومحاولة إيجاد شرعية لها . كما تبرز أهميةُ القاعدة الدِّينية والأخلاقية : الرُّجوعُ إلى الحق خَيرٌ مِنَ التَّمادي في الباطل .

﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنا ﴾ . كما كَذَّبَ هؤلاء المشركون ، كَذَّبَت الأممُ السابقةُ أنبياءَها ، وواصَلُوا ضلالَهم حتى حَلَّ عليهم العذابُ الإلهيُّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٠) : ((أي بهذه الشُّبهة ضَلَّ مَن ضَلَّ قبل هؤلاء ، وهي حُجَّة داحضة باطلة ، لأنها لَوْ كانت صحيحة لَمَا أذاقهم الله بأسَه ، ودَمَّرَ عليهم)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُم أجْمَعين ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

قُل يا مُحمَّد : فللهِ الحِكمةُ الكاملةُ والْحُجَّةُ التَّامة على الناس بالقُرآن والسُّنةِ ، وكِلاهما وَحْيٌ إلهيٌّ . يَهدي مَن يشاءُ ، وَيُضِلُّ مَن يشاء . ولَهُ سُبحانه الحِكمة في الهداية والإضلال ، ولهُ الْحُجَّة البالغة على خَلْقِه بالوَحْيِ والنُّبُوَّة ، ولَيْسَ لِخَلْقِه الْحُجَّةُ عَلَيه بمشيئته وإرادته . وَلَوْ شاءَ اللهُ لَهَدى الناسَ كُلَّهم إلى الإيمان ، ولكنَّه سُبحانه مَنَحَ الإرادةَ الْحُرَّةَ للإنسان ، وأعطاه القُدرةَ على اختيار الإيمان أو الكُفر ، لِيَتحقَّق معنى التكليف . والإيمانُ والكفرُ خاضعان لمشيئة اللهِ ، وهذا لا يتعارض مع حقيقة أنَّ اللهَ يُحب المؤمنين ، ويُبغِض الكافرين . واللهُ سُبحانه إن هدى الإنسانَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِه ، ويَكون اللهُ قد وفَّقه. وإن هداه إلى الكُفرِ فَبِعَدْلِه، ويَكون اللهُ قد خَذَلَه. واللهُ مُنَزَّهٌ عن الظلم، لا يُسأل عمَّا يَفعل، والإنسانُ يتحمَّل مسؤوليةَ أعماله في الدُّنيا والآخرة. وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٣) : ((﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ البَيِّنة الواضحة التي بَلَغَت غاية المتانة والقوة على الإثبات ، أو بَلَغَ بها صاحبُها صِحَّةَ دَعواه ، وهي مِنَ الْحَجِّ ، بمعنى القَصْد ، كأنها تَقْصِد إثباتَ الْحُكم وتَطْلُبه)). وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١١٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُل فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغةُ ﴾ أي التي تَقطع عُذر المحجوج، وتُزيل الشَّكَّ عمَّن نظر فيها ، فَحُجَّتُه البالغة على هذا تبيينه أنَّه الواحد ، وإرسالُه الرُّسُل والأنبياء ، فَبَيَّنَ التوحيدَ بالنظر في المخلوقات ، وأيَّدَ الرُّسُلَ بالْمُعجِزات ، ولَزِمَ أمرُه كُلَّ مُكلَّف. فأمَّا عِلْمُه وإرادتُه وكلامُه فَغَيْبٌ لا يَطَّلع عليه العبد ، إلا مَن ارتضى مِن رسول، ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لَوْ أراد أن يَفعل ما أُمر به لأمكنه)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الذينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا فإن شَهِدوا فلا تَشْهَدْ مَعَهُم ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ كَذَّبوا بآياتِنا والذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ وَهُم بِرَبِّهِم يَعْدِلُون ﴾ [الأنعام: ١٥٠] .

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين : أحْضِرُوا شُهداءَكم الذين يَشهدون أنَّ اللهَ حَرَّمَ ما حَرَّمْتُموه على أنفسكم . واستدعاءُ الشُّهداءِ مِن أجل فضحِ المشركين ، وإلزامِهم الْحُجَّة ، ودَحْضِ باطلهم، وبالتالي يَزول انحرافُهم ، وينكسر عِنادهم ، وينقطع ضلالُهم .

وفي زاد المسير (٣/ ١٤٦) : ((قال مجاهد : هذه الآية جواب قَوْلهم إنَّ اللهَ حَرَّمَ البَحيرةَ والسائبةَ . قال مقاتل : الذين يَشهدون أنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا الحرث والأنعام)) اهـ .

فإن شَهِدَوا أنَّ اللهَ حرَّم هذا، وشَهِدَ بعضُهم لِبَعض ، وأيَّدوا كلامَ المشركين في قضية التحريم، فلا تُصدِّقهم ولا تَعتمد شَهادتَهم ، لأنَّهم شُهودُ زُور ، كَذَبوا على اللهِ وكَذَبوا على أنفسهم . فلا تَشْهَدْ مَعَهم ، وبَيِّنْ فَسادَ كلامِهم ، واكشِفْ كَذِبهم أمامَ الناس لِيَحذروا مِنهم ، ويتَّضح باطلُهم. والتَّسليمُ بكلامهم مُوافَقة لهم في شهادتهم الباطلة ، كما أنَّ السُّكوت أمام شهادة الزُّور مُشارَكةٌ فِيها ، والسُّكوت في مَوضع البَيانِ بيانٌ . والنبيُّ ﷺ لا يُقِرُّ الباطلَ ، ولا يَصمت أمامَه .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٨٩): ((وخاطبَ بذلك جَلَّ ثناؤه نَبِيَّه ﷺ والمراد به أصحابه والمؤمنون به)) اهـ . وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١١٥) : ((﴿ فلا تَشْهَدْ مَعَهُم ﴾ أي : فلا تُصَدِّقْ أداءَ الشَّهادة ، إلا مِن كتاب ، أو على لسان نبيٍّ ، ولَيس مَعَهم شيء من ذلك)) اهـ .

ولا تَتَّبِعْ يا مُحمَّد أهواءَ الْمُكَذِّبين بآياتِ اللهِ، ولا تُوافِقْهُم على افترائهم على اللهِ ، وتكذيبهم بالوَحْي ، بَل اتَّبِع القُرآنَ الكامل المعصوم الذي أنزلَه اللهُ عليك بالحق والعَدْل والصِّدْق . وكُلُّ مَن كَذَّبَ الآياتِ فهو مُتَّبِعٌ لأهوائه الذاتية ومصلحته الشخصية، وكُلُّ مَن اتَّبعَ الْحُجَّةَ فهو مُصدِّق بها.

وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ٣٥٢) : ((﴿ ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ كَذَّبوا بآياتِنا ﴾ مِن وَضْع الظاهر مَوْضِع الْمُضْمَر ، للدلالة على أنَّ مَن كَذَّبَ بآيات الله فهو مُتَّبع للهوى ، إذْ لَوْ تَبعَ الدليلَ لَم يكن إلا مُصَدِّقاً بالآياتِ ، مُوَحِّداً للهِ)) اهـ .

﴿والذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ وَهُم بِرَبِّهِم يَعْدِلُون ﴾. إنَّ مَن يُكذِّب بآياتِ اللهِ لا يُؤمِن بالآخِرة، والمشركون لا يُؤمنون بالبَعْث والنُّشور ، ولَم يَقف كُفرُهم عِند هذا الحد ، وأيضاً ، إنَّهم يَعبدون الأصنام ويتَّخذونها آلهةً ، ويَجعلون للهِ عَديلاً ونَظيراً .

وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٣٨٩) : ((﴿ والذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرةِ ﴾ يقول : ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذين لا يُؤمنون بالآخرة ، فتُكذِّب بما هُم بِهِ مُكَذِّبون مِن إحياء اللهِ خَلْقَه بعد مماتهم ، ونَشْرِهِ إيَّاهم بعد فَنائهم . ﴿ وَهُم بِرَبِّهِم يَعْدِلُون ﴾ يقول : وهُم مَعَ تكذيبهم بالبَعث بعد الممات، وجُحودهم قيام الساعة بالله ، يَعْدِلُون الأوثانَ والأصنامَ ، فيجعلونها لَهُ عِدْلاً ، ويتَّخذونها له نِدَّاً يَعبدونها مِن دُونه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أن تَقولوا إنَّما أُنزِلَ الكتابُ على طائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنا وإنْ كُنَّا عَن دِراسَتِهِم لَغافِلِين ﴾ [الأنعام : ١٥٦] .

لقد قَطَعَ اللهُ عُذْرَ أهلِ مكة ، فهو سُبحانه أنزلَ عَلَيهم أعظمَ كُتُبِه السماوية ، وهو القُرآن العظيم ، لِئلا يَقولوا : إنَّما أنزلَ اللهُ التَّوراةَ والإنجيلَ على اليهود والنصارى ، ولم يُنْزِلْ عَلَينا كتاباً. ولوْ أنزلَ عَلَينا كتاباً لآمَنَّا بِه واتَّبعناه ، وبما أنَّهُ لَم يُنْزِلْ عَلَينا كتاباً ، فلا ذَنْبَ لنا ولا إثم عَلَينا . والْحُجَّةُ على اليهود والنصارى الذينَ أُنزِلَ عليهم الوَحْيُ الإلهيُّ . والآيةُ لا تَنفي باقي الكتب السماوية كالزَّبُور وصُحف إبراهيم ﷺ ، ولكنَّ العربَ كانوا يَعتبرون اليهودَ والنصارى أكثر الطوائف التي لها كتاب شُهرةً وحُضوراً وسُمعةً .

لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ على قُرَيش، وأزالَ عُذْرَهم، ولم يَترك لهم حُجَّةً يَتذرَّعون بها، ولا يُمكنهم التهرب مِن المسؤولية والاستحقاق المصيري . وقد أُقيمت عليهم الْحُجَّة في الدُّنيا والآخرة ، ولا مَهْرَب منها. والآيةُ دليلٌ واضح على أنَّ المجوس لَيسوا أهلَ كتابٍ.وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٤):((سبب نزولها أنَّ كفار مكة قالوا: قَاتلَ اللهُ اليهودَ والنصارى كيف كَذَّبوا أنبياءهم، فَوَاللهِ لَوْ جاءنا نذير وكتاب ، لَكُنَّا أهدى منهم ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله مقاتل)) اهـ .

﴿ وإنْ كُنَّا عَن دِراسَتِهِم لَغافِلِين ﴾ . لَم يَترك اللهُ لهم عُذْراً يَتذرَّعون به . والمعنى : أنزَلْنا عَلَيكم القُرآنَ لئلا تَقولوا إنَّ الكتاب أُنزِلَ على مَن قَبْلَنا (اليهود والنصارى) بِلُغتهم التي لا نَفهمها. وقد أنزلَ اللهُ عليهم القُرآنَ بِلُغتهم لِيَنقطع عُذْرُهم ، وتُقام الْحُجَّةُ عليهم ، فلا يستطيعون التَّهرب ولا الهروب . وقال الطبري في تفسيره (٥/ ٤٠١) : ((وأمَّا ﴿ وإنْ كُنَّا عَن دِراسَتِهِم لَغافِلِين ﴾ فإنَّه يعني: أن تقولوا : وقَد كُنَّا عن تلاوة الطائفتَيْن الكتابَ الذي أَنزلتَ عليهم غافلين ، لا ندري ما هِيَ ، ولا نَعلم ما يَقرأون وما يقولون وما أُنزِل إليهم في كتابهم ، لأنهم كانوا أهْلَه دُونَنا ، وَلَم نُعْنَ بِه ، ولم نُؤمَر بِما فيه ، ولا هُوَ بِلساننا ، فَيَتَّخذوا ذلك حُجَّةً ، فَقَطَعَ اللهُ بإنزاله القرآن على نَبِيِّه محمد ﷺ حُجَّتَهم تِلْك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوْ تَقولوا لَوْ أنَّا أُنزِلَ عَلَيْنا الكتابُ لَكُنَّا أهدَى مِنهُم فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ مِن رَبِّكُم وهُدىً ورحمةٌ فَمَن أظلمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وصَدَفَ عَنها ﴾ [الأنعام : ١٥٧] .

لقد قَطَعَ اللهُ تَعَلُّلَهم أن يَقولوا : لَوْ أنزلَ اللهُ عَلَينا كتاباً كما أنزلَ على اليهود والنصارى ، لَكُنَّا خَيراً مِنهم لذكائنا وقوةِ حِفْظنا ، فقد كانوا يَحفظون أشعارَهم وأخبارَهم وأنسابَهم ، وهُم أُمِّيون ، لا يَقرأون ولا يَكتبون .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٦٨) : ((لِحِدَّة أذهاننا ، وثقابة أفهامنا ، ولذلك تَلَقَّفْنا فُنوناً مِنَ العِلْم ، كالقَصَص والأشعار والْخُطَب على أنَّا أُمِّيون)).

﴿ فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ مِن رَبِّكُم وهُدىً ورحمةٌ ﴾ .فقد جاءكم كتابٌ سماويٌّ بِلُغتكم، فصاحتُه ظاهرة ، وآياتُه واضحة ، وأحكامُه متماسكة ، وحُجَجُه قاطعة. وهذا القُرآن حُجَّةٌ لكم إنْ عملتُم به ، وحُجَّةٌ عَلَيكم إن لَم تَعملوا به . فِيه أحكام الحلال والحرام . وَهُوَ هُدىً للقلوب المؤمنة بِه ، ورحمةٌ لِمَن اتَّبَعَه . وبمجيء النبيِّ ﷺ زالَ عُذْرُهم ، ولا حُجَّة لهم . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٥): ((﴿ فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ ﴾ أي: ما فِيه البيان، وقَطْع الشُّبهات. قال ابن عباس : ﴿ فقدْ جاءَكُم بَيِّنةٌ ﴾ ، أي حُجَّة ، وَهُوَ النبيُّ والقرآنُ والهدى والبيانُ والرحمةُ والنِّعمة)) اهـ .

﴿ فَمَن أظلمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ ﴾ . المقصود هُم مُشرِكو قُرَيش . فلا أحد أظلم مِنكم إنْ كَذَّبْتُم بالقُرآن الواضح أمامَكم ، والذي تَعْرِفُون آياتِه حَقَّ المعرفة ، والتي هِيَ هُدى ورحمة. وهذا يعني أنهم إذا كَفروا ، فَكُفْرُهم عَن عِلْمٍ لا جَهْلٍ ، فتكون جريمتهم أعظم ، وإثْمُهم أكبر . وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٢٦٣):((والاستفهام في ﴿ فَمَن أظلمُ ﴾ للإنكار : أي إنكار أن يكون أحد أظلم مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ الله ، وصَدَفَ عنها معَ ما يُفيده ذلك مِنَ التَّبكيت لهم)) .

﴿ وصَدَفَ عَنها ﴾ . وأعرضَ عن آياتِ اللهِ بعدما جاءَتْهُ ، فكفرَ بها . لا آمَنَ بها ولا عَمِلَ بها. وأيضاً ، قام بِصَدِّ الناس عن الإيمان بها ، فجمعَ بين الضلال والإضلال ، وهذا مُنتَهى الكُفر والجحود . فلم يَكْتَفِ بِكُفْره ، بَل أيضاً ساهمَ في كُفر الناس ، فَضَلَّ وأضلَّ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٥٨) : ((وقَوْلُه تعالى : ﴿ فَمَن أظلمُ مِمَّن كَذَّبَ بآياتِ اللهِ وصَدَفَ عَنها ﴾ ، أي : لَم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتَّبع ما أُرسِلَ به ، ولا تَرك غَيْرَه ، بَل صَدَفَ عن اتِّباع آيات الله ، أي : صَدَفَ الناسَ وصَدَّهم عن ذلك ، قاله السُّدي. وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿ وصَدَفَ عَنها ﴾ أعرَضَ عنها . وقَوْلُ السُّدي ههنا فيه قوة)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وأشْهَدَهُم على أنفُسِهم ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بلى شَهِدْنا أن تَقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّا كُنَّا عَن هذا غافِلِين ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

أخرجَ اللهُ ذُرِّيةَ آدمَ ﷺ بَعْضَهم مِن ظُهور بَعْض مِثْلَ الذَّر _ ما عدا الذين ليس لهم أولاد بسبب العُقْم أو عدم الزواج أو الموت صغيراً _ ، وأخذَ عَلَيهم العَهْدَ والميثاقَ بأنَّهُ خالقُهم الذي لا شَريك لَهُ، فأقَرُّوا بذلك ، والتزموه . وفي الآية دلالات عميقة . فكلمةُ ﴿ رَبُّكَ ﴾ تشتمل على ضمير الْمُخاطَب . وتَوجيهُ الخطابِ إلى النبيِّ ﷺ تعظيمٌ له وتكريم ، ويدل على أنَّ محمداً ﷺ هُوَ عَبْدُ اللهِ الْمُخلِصُ الْمُخْلَصُ . وأيضاً ، إنَّ اللهَ لَم يَذْكُرْ " ظَهْر آدم " ، لأنَّ جميعَ الناس هُم أبناؤه ، فلا حاجة لِذِكْرِه. وقال الطبري في تفسيره (٦/ ١١٠) : ((يقول تعالى ذِكْرُه لِنَبِيِّه محمد ﷺ : واذكُرْ يا محمد رَبَّكَ إذ استخرجَ وَلَدَ آدمَ من أصلاب آبائهم ، فقرَّرهم بِتَوحيده ، وأشهدَ بَعْضَهم على بعض شَهادتَهم بذلك ، وإقرارَهم به)) اهـ .

وفي صَفوة التفاسير (٤/ ٥٢) : ((للمُفسِّرين في هذه الآية قَولان : أحدهما أنَّ الله لَمَّا خَلَقَ آدمَ ، أخرجَ ذُرِّيته مِن صُلْبه ، وهُم مِثْل الذَّر ، وأخذ عليهم العَهْد بأنه رَبُّهم ، فأقَرُّوا ، وشَهِدوا بذلك . وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ مِن طُرق كثيرة، وقال به جماعة من الصحابة . والثاني أنَّ هذا من باب التمثيل والتخييل، والمعنى أنَّه سُبحانه نَصَبَ لهم الأدلة على رُبوبيته ووَحدانيته ، وشَهِدَت بها عقولُهم وبصائرُهم التي رَكَّبها فيهم ، وجَعَلَها مُمَيِّزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدَهم على أنفسهم ، وقال لهم : ألستُ بربكم ، فقالوا : بلى . وهذا الرأي اختاره الزمخشري وأبو حيان وأبو السُّعود ، والأول أصح)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٤) : ((وفي قَوْلِه: ﴿ وأشْهَدَهُم على أنفُسِهم ﴾ ثلاثة أقوال : أحدها : أشْهَدَهم على أنفسهم بإقرارهم ، قاله مقاتل. والثاني : دَلَّهم بِخَلْقِه على تَوحيده، قاله الزَّجاج. والثالث أنَّه أشهدَ بَعْضَهم على بعض بإقرارهم بذلك ، قاله ابن جرير)) اهـ .

لقد أقَرُّوا بأنَّ اللهَ رَبُّهم،واعترَفوا بذلك بكامل قواهم العقلية، ودُون ضَغط مِن أحد. ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم قالوا بلى ﴾ أنتَ رَبُّنا آمَنَّا وصَدَّقْنا . وَلَوْ قالوا : " نَعَمْ " لَكَفروا ، لأنَّ " نَعَم " تصديق للخَبَر سواءٌ كانَ بالنَّفْي أو الإيجاب ، والإجابةُ بِنَعَمْ في هذا السياق تعني : نَعَمْ أنتَ لَسْتَ رَبَّنا ، وهذا كُفْرٌ واضح . لذلك كانت إجابتُهم بِـ " بلى " ، والمعنى : أنتَ رَبُّنا . ﴿ شَهِدْنا ﴾ بذلك . لقد أقَرُّوا بالرُّبوبية . والجديرُ بالذِّكْر أنَّ ﴿ ألستُ بِرَبِّكُم ﴾ سؤال تقرير .

﴿ أن تَقولوا يَوْمَ القِيامةِ إنَّا كُنَّا عَن هذا غافِلِين ﴾ . لئلا تقولوا يوم القِيامة إنَّا كُنَّا عَن هذا العَهْد الذي يتضمَّن الإقرارَ بالرُّبوبية غافلين لَم يتم تنبيهنا [168].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٨٥) : ((قَوْلُه : ﴿ إنَّا كُنَّا ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّه إشارة إلى الميثاق والإقرار . والثاني أنَّه إشارة إلى معرفة أنه الخالق . قال المفسِّرون : وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أُخذ على جميع الْمُكَلَّفين مِنَ الميثاق ، واحتجاج عليهم ، لئلا يقول الكفار : إنَّا كُنَّا عن هذا الميثاق غافلين لَم نَذْكُرْه ، ونسيانُهم لا يُسقِط الاحتجاجَ بعد أن أخبرَ اللهُ تعالى بذلك على لسان النبيِّ ﷺ الصادق . وإذا ثَبَتَ هذا بِقَول الصادق ، قامَ في النفوس مَقامَ الذِّكْر ، فالاحتجاجُ به قائم)) اهـ .

وفي الحديث أنَّ عُمر بن الخطاب ـ رضي اللهُ عنه ـ سُئل عن هذه الآية: ﴿ وإذْ أخذَ رَبُّكَ مِن بني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم ﴾ ، فقال عمر بن الخطاب : سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : ((إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه بيمينه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلقتُ هؤلاءِ للجنة ، وبعمل أهل الجنة يَعملون ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَه ، فاستخرجَ مِنهُ ذُرِّيةً ، فقال : خَلقتُ هؤلاءِ للنار ، وبعمل أهل النار يَعملون)) . فقال رَجل : يا رسولَ الله ، فَفِيمَ العمل ؟ ، قال : ((إنَّ اللهَ إذا خَلَقَ العبدَ للجنة ، استعمله بعمل أهل الجنة ، حتى يَموتَ على عمل أهل الجنة ، فَيَدخل الجنةَ ، وإذا خَلق العبدَ للنار ، استعمله بعمل أهل النار ، حتى يَموتَ على عمل أهل النار ، فَيَدخل النارَ))[169].

إنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدمَ ﷺ ، فأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى الجنة ، وأخرجَ ذُرِّيةً مصيرها إلى النار . وقد يتبادر إلى الذِّهن أن لا فائدة مِن العبادة والطاعة ما دامَ المصيرُ الإنساني مَحسوماً. وهذا وَهْمٌ، لأنَّ عِلْمَ اللهِ لا علاقة له بالإجبار . ومعَ أنَّ اللهَ يَعلم أهلَ الجنة وأهلَ النارِ قبل أن يَخلق الناسَ والجنةَ والنارَ ، إلا أنَّه سُبحانه لَم يُجبِر أحداً على الطاعة أو المعصية، والإنسانُ اختارَ طريقَه بِمِلْءِ إرادته . لذلك لا معنى للاحتجاج بالقَدَرِ السابق ، لأنَّ القَدَرَ لا يَضُرُّ ولا يَنفع ، واللهَ وَحْدَهُ هو النافع والضار .

---

(١٦٨)في الدُّر المنثور(٣/ ٥٩٩)أنَّ ابن عباس رضي اللهُ عنهما قال: ((مَسَحَ اللهُ ظَهْرَ آدمَ، وَهُوَ بِبَطْن نَعمان ـ وادٍ إلى جَنْب عَرَفة ـ فأخرج منه كُلَّ نَسَمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثُمَّ أخذ عليهم الميثاقَ)).

(١٦٩) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٩٣) برقم (٤٠٠١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ومَن كانَ في عِلْمِ اللهِ مِن أهل الجنة ، فإِنَّ اللهَ يُوَفِّقُه لأداء العبادات والطاعات ، ويُثبِّته على هذا الطريق حتى الموت ، فَيَدخل الجنةَ . ومَن كان في عِلْمِ اللهِ مِن أهل النار لأنَّهُ مُستحِقٌّ لها ، يَخْذُلُه اللهُ ، فيَغرق في المعاصي والآثام حتى يَموت على المعصية ، فَيَدخل النارَ .

والعِبْرةُ بالخواتيم ، ومصيرُ الإنسانِ يتحدَّد وَفْقَ العقيدة التي ماتَ عليها. والحياةُ لا تُحدِّد مصيرَ الإنسان ، وإنما الموتُ هو الذي يُحدِّد مصيرَ الإنسان .

وفي فَيض القدير (٢/ ٣٣١) : ((... الله تعالى سَبَقَ في عِلْمِه الأزليِّ ، سَعيدُ العالَم وشَقِيُّه ، ثُمَّ رَتَّبَ على هذا السَّبْقِ الخاتِمةَ عند الموت بِحَسَبِ صلاح العمل وفساده عندها ، وعلى الخاتمة سعادة الآخرة وشَقاوتها)) .

وعن عليِّ بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((ما مِنكُم مِن أحدٍ إلا وقد كُتب مَقْعَدُه مِنَ الجنة ، ومَقْعَدُه مِنَ النار)). فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَتَّكِل ؟، فقال : ((اعْمَلوا فَكُلٌّ مُيَسَّر)) [170].

فلا ينبغي تركُ العمل ، والاتِّكالُ على القَدَر السابق . فيجب الامتثال للشريعة الإلهية في أوامرها ونواهيها. وكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلق له. فَمَن كان من أهل الجنَّة يسَّره اللهُ لعمل الطاعات فينال السعادةَ ، ومَن كان من أهل النار يسَّره اللهُ للمعاصي فَيَنال التعاسة .

والإيمانُ لا يُكتسَب بعبقرية الإنسان وقدراته الذاتية ، بَل هُوَ فضلٌ ربانيٌّ محض يُعطيه اللهُ لِمَن يَشاء ويَحجبه عمَّن يشاء . ومعَ هذا فالإنسان يتحمَّل مسؤوليةَ اختياره ، لأن الله لَم يُجبِر المؤمنَ على الإيمان ، ولَم يُرغِم الكافرَ على الكفر. فكلٌّ مُيَسَّر لِمَا خُلِق له. فإن هدى اللهُ العبدَ إلى الإيمان فَبِفَضْلِ الله وله المِنَّة . وإن هداه إلى الكفر فَبِعَدْله ، ولله على العبد الْحُجَّة . والأعمال بالخواتيم ، والمؤمنُ لا يَدخل الجنةَ بذكائه وعبادته ، وإنما يَدخلها برحمة الله. وعلى الطائع ألا يَرْكَن إلى طاعته، ويَعتمد على مستواه الشخصي ، لأنَّ القلوب مُتقلِّبة ، واحتمالُ انقلابِ الحال واردٌ بقوة . وعلى العاصي ألا يَقْنَط مِن رحمة الله ويَستسلم للكآبة واليأس ، ويَعتبر ذُنوبَه عَقَبةً في طريق التوبة ، لأنَّ رحمة الله أعظم مِن كُلِّ شيء ، واللهُ أكبرُ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قُل لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم ولا أدراكُم بِهِ فقدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُراً مِن قَبْلِهِ أفلا تَعْقِلُون ﴾ [يُونُس : ١٦] .

---

(١٧٠)متفق عليه واللفظ للبخاري(٤/ ١٨٩٠)برقم(٤٦٦١).ومسلم(٤/ ٢٠٣٩)برقم(٢٦٤٧).

قُل يا مُحمَّد للمُشركين : لَوْ شاءَ اللهُ ما أرْسَلَني إلَيكم بالقُرآن ، وما قَرأتُهُ علَيكم ، ولا أعْلَمَكم بِه . إذن ، فالأمرُ كُلُّه بمشيئةِ اللهِ وعِلْمِه، فهو سُبحانه أرادَ إخراجَ الناس من الضلال رحمةً بهم ، فأرسلَ إلَيهم أعظمَ رُسُلِه ، وأنزلَ عَلَيهم أعظمَ كُتُبِه . وهذا دليلٌ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ ، وأنَّ محمداً ﷺ لا يَملك مِن أمْرِه شَيئاً ، إذ إنَّهُ ﷺ خاضعٌ لمشيئةِ اللهِ تعالى . ولَوْ لَم يُرسِلِ اللهُ محمداً بالقُرآن ، لأرسلَ غَيْرَهُ . فالأنبياءُ خاضعون لأمرِ اللهِ الذي يَفعل ما يَشاء . وفي هذا إبطالٌ لاقتراح المشركين أن يأتِيَ محمد ﷺ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أو يُبَدِّلَه . فالأمرُ لَيْسَ بمشيئة محمد ﷺ ، وإنما بمشيئة اللهِ تعالى . والدليلُ على أنَّ القُرآنَ لَيْسَ مِن تأليف محمد ﷺ أنَّ فُصحاءَ العربِ وشُعراءَهُم الفحول عاجزون عَن مُعارَضة القُرآن ، كما أنَّ محمداً معروفٌ بالصِّدْق والأمانة ، وَلَم تُسَجَّلْ عليه كذبة واحدة في الجاهلية ولا في الإسلام . وقال ابن القَيِّم في التِّبيان (١/ ١١١) : ((... كما قال اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُم ولا أدراكُم بِهِ ﴾ وهذا مِن أبلغ الْحُجَج وأظهرها ، أي : هذا الكلام لَيْسَ مِن قِبَلي ، ولا مِن عِندي ، ولا أقْدِر أن أفتريَه على الله ، ولوْ كان ذلك مَقدوراً لي ، لكانَ مَقدوراً لِمَن هو مِن أهل العِلْم والكتابة ومخالطة الناس والتعلم منهم ، ولكنَّ اللهَ بَعَثَني بِه ، ولوْ شاءَ سُبحانه لَم يُنْزِلْه ، وَلَم يُيَسِّرْه بلساني ، فَلَم يَدَعْني أتلُوه عليكم وأن أُعْلِمَكم بِه البَتَّة ، لا على لساني ، ولا على لسان غَيري ، ولكنه أوْحَاه إلَيَّ ، وأَذِنَ لِي في تِلاوته عليكم وأدراكم بِه ، بعد أن لَم تكونوا دارين بِه ، فلوْ كان كَذِباً وافتراءً كما تقولون ، لأمكنَ غَيري أن يَتْلُوَه عليكم ، وتَدْروا بِه مِن جِهته ، لأنَّ الكذبَ لا يَعجز عنه البشرُ ، وأنتم لَم تَدْروا بهذا ، وَلَم تَسمعوه إلا مِنِّي ، وَلَم تَسمعوه مِن بَشَرٍ غَيري)) اهـ .

﴿ فقدْ لَبِثْتُ فِيكُم عُمُراً مِن قَبْلِهِ أفلا تَعْقِلُون ﴾ . لقد أقامَ محمد ﷺ قبل البِعثة أربعين سنة بين قُرَيش ومَعَهم ، وكانوا يَعْرِفُون عنه كُلَّ شيء ، وكانَ معروفاً بالصادق الأمين . لَم يُعرَف عنه أنَّهُ كانَ طالباً للعِلْم ولا خَطيباً ولا شَاعراً ، ولَم يُحَدِّثْهُم بالأحكام الدِّينية وأخبارِ الأمم السابقة ، ولَم يَذْكُرْ لهم أيَّ شيء عن القُرآن ، ثُمَّ جاءهم بالقُرآن بِدُون مَوعِد مُسْبَق ولا ترتيب ولا تَحضير ، وهذا دليلٌ واضح على أنَّ القُرآن لَيْسَ مِن عِند محمد ﷺ ، وإنما مِن عِند اللهِ تعالى . وَلَوْ كانَ القُرآنُ مِن تأليف محمد ﷺ فلماذا انتظرَ حتى سِنِّ الأربعين ليأتِيَ به ويُعادِيَ قُرَيشاً ويَخوض الحروب ويُعاني المتاعبَ والصِّعابَ وَهُوَ في هذه السِّن ؟. لماذا لَم يَأْتِ بِهِ في مرحلة الشباب ؟! . أفلا يَستعمل المشركون عُقولَهم لِيُدْرِكُوا أنَّ القُرآن مِن عِند اللهِ .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٩) : ((فإنَّهُ إشارة إلى أن القرآن مُعجز خارق للعادة ، فإنَّ مَن عاش بين أظْهُرِهم أربعين سنة لَم يُمارِس فيها عِلْماً ، وَلَم يُشاهِد عَالِماً ، وَلَم يُنشِئ قريضاً ولا خُطبة ، ثُمَّ قرأ عليهم كتاباً بَزَّتْ فصاحتُه فصاحةَ كُلِّ منطق ، وعلا فوق كُلِّ منثور ومنظوم ، واحتوى على قواعد عِلْمَي الأصول والفروع ، وأعربَ عن أقاصيص الأولين وأحاديثِ الآخرين على ما هِيَ عليه ، عُلِمَ أنَّه مَعلوم بِهِ مِنَ اللهِ تعالى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِباً أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ المجرمون ﴾ [يُونُس : ١٧].

لا أحد أظلم ولا أعظم إثماً مِمَّن تَقَوَّلَ على اللهِ ، ونَسَبَ إليه الباطلَ ، قَولاً كانَ أم فِعلاً ، فزعمَ أنَّ للهِ شَريكاً أو ولداً ، أوْ كذَّب بمحمدٍ ﷺ وبالقُرآنِ. إنَّهُ لا يَنجح الكافرون، ولا يَحصلون على السعادة والتوفيقِ في الدُّنيا . وفي الآخرة لا يَنالونَ إلا الخِزْيَ والعارَ . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٤/ ١٣١) : ((أي: لا يَنْجُون مِن مَحذور، ولا يَظْفَرُون بمطلوب. والمراد جِنس المجرمين فيندرج فيه الْمُفتري والْمُكَذِّب اندراجاً أوَّلِيَّاً)) اهـ . وقِيل : الْمُفتري على اللهِ المشركون ، والْمُكَذِّبون بآياتِ اللهِ هُم اليهود والنصارى . والآيةُ وَعيدٌ ، واستفهامٌ بمعنى التقرير .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٦) : ((قِيل : وهذا مِن جُملة رَدِّه ﷺ على المشركين لَمَّا طَلبوا منه أن يَأتِيَ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا القرآن ، أو يُبَدِّلَه ، فَبَيَّنَ لهم أنَّه لَو فَعل ذلك ، لكان من الافتراء على الله ، ولا ظُلم يُماثِل ذلك)) اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٣٩) : ((يقول تعالى: لا أحد أظلم، ولا أعتى، ولا أشد إجراماً ﴿ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِباً ﴾ ، وتَقَوَّلَ على الله ، وزَعَمَ أنَّ اللهَ أرسَلَه ، ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جُرماً ، ولا أعظم ظُلماً من هذا)) اهـ .

إنَّ الإنسانَ إذا قالَ إنَّهُ مُرْسَلٌ مِن عِندِ اللهِ ، فإمَّا أن يَكون صادقاً أو كاذباً ، ولا يُوجد خيار ثالث . واللهُ يُؤيِّد رُسُلَه بالْمُعجِزات ، ويَفضح الذين يَدَّعون _ كذباً وزُوراً _ أنَّهم رُسُلٌ مِنَ اللهِ.

لقد قالَ محمد ﷺ إنَّهُ نبيٌّ ، وقدَّم الدليلَ على صِدْقِه ، حيث أتى بِمُعجِزات خارقة للعادة ، على رأسها القُرآن . كما أنَّ صفات محمد في الجاهلية والإسلام كانت تمتاز بالصفاء والنقاء ، فهو الصادق الأمين ، الذي لَم يُعرَف عَنه الكذب . ولا شَكَّ أنَّ الناسَ في كل مجتمع قادرون على التمييز بين الصادق والكاذب ، والأمين والخائن .

ومُسَيلمةُ الكذَّاب قالَ إنَّهُ نبيٌّ . لكنه لَم يُقدِّم دَليلاً واحداً على كلامه ، فجاءَ بكلامٍ ركيك ، ولم يَقْدِرْ على مُواجَهة القُرآن ، كما أنَّ مُسَيلمة معروفٌ بصفاته السَّيئة ، وأخلاقه الذميمة . وصفاتُه تَفضحه ، وتَكشف باطلَه للناس .

صحيحٌ أنَّ الْمُعجزات دليلٌ على صِدْقِ أيِّ نبيٍّ . لكنَّ الْمُعجِزات لَيستْ كُلَّ الأدلة . فهناك دليلٌ قَد لا يَنتبه إليه الكثيرون ، وهو النظر في وجه الشخص . فالذي يَقول إنَّهُ نبيٌّ ، إمَّا أن يكون صادقاً أميناً كريماً يَدعو إلى الفضيلة ومكارم الأخلاق ، أو يَكون كذاباً خائناً لئيماً يَتلاعب بالكلمات ويَدعو إلى مصلحته المادية. والعاقلُ يَستطيع التمييز بينهما. وقد صَدَقَ حسان بن ثابت ــ رضي اللهُ عنه ــ حِين قال :

لَو لَم تَكُنْ فِيهِ آياتٌ مُبَيِّنةٌ كانت بَديهتُهُ تَأتيكَ بالْخَبَرِ

وعن عبد الله بن سلام ــ رضي اللهُ عنه ــ قال : لَمَّا وَرَدَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ ، انجفلَ الناسُ إلَيه ، وقِيل : قَدِمَ رسولُ الله ﷺ . قال : فَجِئْتُ في الناس لأنظرَ ، فلمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ ، عَرَفْتُ أنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ (171).

لقد ذَهَبَ الناسُ إلى النبيِّ ﷺ مُسْرِعين عِندما عَلِموا بِقُدومه. وذَهَبَ عبد اللهُ بن سلام بدافع الفُضول وحُبِّ المعرفة، وهو يَومئذٍ واحدٌ مِن كبار أحبار اليهود،فلمَّا رأى وَجْهَ النبيِّ ﷺ ، أدركَ ما فِيه مِنَ الْجَمال والصِّدْق والطهارة، فَعَرَفَ أنَّهُ صادق مِن ملامح وَجهه.وَلَوْ كانَ كذاباً لَظَهَرَ ذلك في وجهه وحركاته وسَكَناته ، وافْتُضِحَ أمْرُه . وبالطبع ، لا يَقْدِرُ الإنسانُ أن يَخدع جَميعَ الناس ــ مهما كان ذَكِيَّاً ــ . لذلك ، أدركَ ابْنُ سلام أنَّ محمداً ﷺ صادق قَبْلَ أن يَسمع أيَّةَ كلمة مِنه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَعبدونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنفعُهُم ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بما لا يَعْلَمُ في السماواتِ ولا في الأرضِ سُبحانَهُ وتعالى عَمَّا يُشرِكون ﴾ [يُونُس : ١٨].

يَعبد المشركون الأصنامَ التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع ، ويَنتظرون مِنها الشَّفاعةَ عِندَ اللهِ يَوْمَ القِيامة . وهذا ضلالٌ واضح، لأنَّ الأصنامَ عاجزة عَن نَفْعِ نفْسِها ونَفْعِ المشركين في الدُّنيا، فكيفَ

(١٧١) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ١٤) برقم (٤٢٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

ستنفعهم في الآخرة ؟. ومعلومٌ أن فاقد الشيء لا يُعطيه، ولا يُمكن جَنْيُ العنب مِنَ الشَّوْك . وقِيل : يَتَّخذ المشركون الأصنامَ شُفعاءَ عِندَ اللهِ ، من أجل إصلاح شُؤون دُنياهم ، لأنَّ المشركين لا يُؤمنون بالبَعْث (172) . وقد أنكرَ اللهُ على المشركين الذي آمَنوا بتعدُّد الآلهة دون دليل نقلي أو عقلي .

والإلهُ الحقُّ هو الذي يَنفع ويَضُرُّ ، ويُثيب على الطاعة ، ويُعاقب على المعصية. وعبادتُه تَكون ذات مَعنى ، وهو جَلْبُ مصلحة أو دَفْع مَضَرَّة ، ولا تُوجد عبادة من أجل العبادة. قُل يا مُحمَّد أتُخْبِرُون اللهَ أنَّ لهُ شَريكاً وعِندَه شَفيعاً وهو لا يَعلم بذلك ؟! . وهذا استفهام إنكاري ، وتَقريعٌ لهم ، وتَهَكُّم بِهم . فاللهُ تعالى لَوْ كانَ له شَريك لَعَلِمَ به ، فهو سُبحانه يَعلم كُلَّ شيء ، ولا يَخفَى عَلَيه شيء في السماوات ولا في الأرض . تعالى اللهُ وتَنَزَّهَ عن الشَّريك والنِّد والضِّد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٠): ((﴿ ويَقولونَ هَؤلاءِ ﴾ الأوثان ﴿ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾ تَشفع لنا فِيما يَهُمُّنا مِن أمور الدنيا ، أو في الآخرة إنْ يَكُنْ بَعْث ، وكأنهم كانوا شَاكِّين فيه، وهذا مِن فَرْط جَهالتهم ، حيث تَركوا عبادةَ الْمُوجِد الضَّار النَّافع إلى عبادة ما يُعلَم قَطعاً أنَّهُ لا يَضُرُّ ولا يَنفع ، على تَوَهُّم أنَّه بما يَشفع لهم عِندَه)) اهـ . وفي الدُّر المنثور (٤/ ٣٤٩) : ((أخرج ابنُ أبي حاتم عن عِكْرِمة قال : قال النَّضْر : إذا كانَ يَوْمُ القِيامة شَفعت لِيَ اللاتُ والعُزَّى . فأنزلَ اللهُ: ﴿ فَمَنْ أظلمُ مِمَّنِ افترى على اللهِ كَذِباً أوْ كَذَّبَ بآياتِهِ إنَّهُ لا يُفْلِحُ المجرمون (١٧) ويَعبدونَ مِن دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُم ولا يَنفَعُهُم ويَقولونَ هَؤلاءِ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السماءِ والأرضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأمرَ فَسَيَقولونَ اللهُ فَقُلْ أفلا تَتَّقون ﴾ [يُونُس : ٣١].

هذه حُجَّةُ اللهِ على المشركين ، حيث إنهم يَعترفون بِوَحدانيةِ اللهِ ورُبوبيته . قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين الذين يَخْلِطون عبادةَ اللهِ بعبادة الأصنامِ : مَن الذي يُنَزِّلُ مِنَ السماءِ المطرَ ، فَيُحيي الأرضَ، ويُخرِج منها الزَّرْع (الغذاء) والمعادن والخيرات ، فتأكلون مِن نباتها ، وتستغلون

---

(١٧٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٦): ((وفي قَوْله: ﴿ شُفعاؤُنا عِندَ اللهِ ﴾ قَولان: أحدهما شُفعاؤنا في الآخرة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ومُقاتل . والثاني : شُفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدُّنيا ، لأنهم لا يُقِرُّون بالبَعْثِ ، قاله الحسن)) اهـ .

المعادن لتسهيل حياتكم ؟. ولا يخفَى أنَّ الأرزاق تحصل بأسباب سماوية ومواد أرضية . والرِّزق من السماء هو المطر، والرزقُ من الأرض هو النبات . واللهُ يَرزق بالأسباب ، ويَرزق بدون الأسباب ، ويَرزق ضِدَّ الأسباب . وهنا تتجلى طَلاقةُ القُدرة الإلهية .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٥٨) : ((﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السماءِ والأرضِ ﴾ الغَيث ، والقِطْر . ويُطْلِع لكم شَمْسَها ، ويُغطِش لَيْلَها (يُظْلِمُه) ، ويُخرِج ضُحاها ، وَمِنَ الأرض أقواتَكم وغذاءَكم الذي يُنبِته لكم ، وثمارَ أشجارها)) اهـ .

﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصارَ ﴾ . مَن جعلكم تَسمعون وتُبصِرون ، ولوْ شاءَ لَسَلَبكم نِعمةَ السَّمْع فَصِرْتُم صُمَّاً . ولوْ شاءَ لَسَلَبكم نِعمةَ البصر فَصِرْتُم عُمياناً . والمعنى : مَن يَمْلِكُ خَلْقَها . وتَمَّ تخصيص السَّمْعُ والبَصَرُ بالذِّكْر لأنهما آيتان باهرتان تُشيران إلى قُدرة اللهِ الْمُطْلَقة .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٤١) : ((وَخُصَّ السَّمْعُ والبَصَرُ بالذِّكْر لِمَا فيهما مِن الصَّنْعة العجيبة ، والقُدرة الباهرة العظيمة. أي : مَن يستطيع مِلْكَهما وتَسويتهما على هذه الصِّفة العجيبة والخِلْقة الغريبة ، حتى يَنتفعوا بهما هذا الانتفاع العظيم ، ويُحَصِّلون بهما مِنَ الفوائد ما لا يَدخل تحت حَصْر الحاصرين)) اهـ .

﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ . إنَّ قُدرةَ اللهِ الباهرةَ تتجلى في إخراج النقيض مِنَ النقيض ، والضِّد مِنَ الضِّد . فَيُخْرِج الشيءَ الحيَّ مِنَ الشَّيء الميِّت ، والعكس. فَيُخرِج الإنسانَ (الحي) مِنَ النُّطفة (الميِّتة) ، والنُّطفةَ مِنَ الإنسان . والمعنى أنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُو يُحيي ويُميت ، ولا أحد يَملك هذا الأمر سِواه _ سُبحانه وتعالى _. وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٠٢) : ((﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ أي : النبات مِن الأرض ، والإنسان مِن النُّطفة ، والسُّنبلة مِن الْحَبَّة ، والطَّير مِن البَيضة ، والمؤمن من الكافر)) اهـ . والعكس صحيح.

﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمرَ ﴾ . مَن يُقَدِّر الأمرَ ويَقضيه ، ويُنظِّم أمورَ الكَون ، ويُدَبِّر أمرَ السماءِ والأرضِ والإنسِ والجِنِّ ، ومَن الْمُتَصَرِّف في الحياة والموتِ . والآيةُ تَعميم بعد تخصيص .

وقال الثعالبي في تفسيره (٢/ ١٧٧) : ((وقَوْلُه : ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأمرَ ﴾ الآية. تَدبير الأمر عام في جميع الأشياء ، وذلك استقامة الأمور كُلِّها على إرادته _ عَزَّ وَجَلَّ _ ، ولَيس تدبيرُه سُبحانه بِفِكْرٍ ورَوِيَّة وتغييراتٍ ، تعالى عن ذلك ، بَل عِلْمُه سُبحانه مُحيطٌ كاملٌ دائمٌ)) اهـ .

﴿ فَسَيَقولونَ اللهُ فَقُلْ أفلا تَتَّقون ﴾ . سيقول المشركون_ بلا تردد ودون أيِّ ذِكْرٍ للأصنام_: الذي يَفعل كُلَّ ذلك هُوَ الله ، فَقُلْ يا مُحمَّد : أفلا تَخافون مِنَ اللهِ أن تَعبدوا الأصنامَ فَيَحِلَّ عليكم غَضَبُه وعذابُه الأليم في الدنيا والآخرة . وقِيل : أفلا تتَّقون الشِّرْكَ معَ هذا الإقرار ؟. والاستفهامُ في الآيةِ للإنكار ، والمعنى : تَعلمون أنَّ اللهَ هو الخالق الرازق المسيطِر على كُلِّ شيء ثُمَّ تُشرِكون بِه. ولا يَقدرون على التَّهرب من الإجابة بسبب وضوح ذلك ، ولا مجال للعِناد والتَّكبر.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٨) : ((لأنَّهم خُوطِبوا بما لا يَقْدِرُ عَلَيه إلا الله ، فكان في ذلك دليلُ تَوحيده)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَن يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فأنَّى تُؤفَكُون ﴾ [يُونُس : ٣٤].

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين على جِهة التَّقريع والتقرير : هَل مِن آلهتكم وأصنامكم مَن يُنشِئُ الخلْقَ مِنَ غَيْرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابق . يُحْدِثُ الخلْقَ مِنَ العَدَم ، ثُمَّ يُفنيه بعد إنشائه ، ثُمَّ يَبعثه كما كانَ قَبْلَ إفنائه.وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٤٢): ((وهُم _ أي المشركون _ وإن كانوا لا يعترفون بالْمَعاد، لكنه لَمَّا كان أمراً ظاهراً بَيِّناً ، وقد أقام الأدلة عليه في هذه السُّورة على صورة لا يمكن دفعها عند مَن أنصفَ ولَم يُكابِر ، كان كالْمُسَلَّم عِندَهم ، الذي لا جَحْد له، ولا إنكار فيه)) اهـ .

قُل يا مُحمَّد : اللهُ _ وَحْدَهُ _ يَفعل ذلك ، فكيفَ تنصرفون عن الحق إلى الباطل . وهذا دليلٌ واضح على وَحدانية اللهِ ، وَحُجَّةٌ قاطعة على أنَّ اللهَ لا شَريك له ، وأنَّ الأصنامَ آلهة باطلة صَنعها المشركون بأيديهم ، وكَذَبوا على اللهِ حِينَ زَعموا أنَّ الأصنام شَريكة للهِ وشفيعة عِندَه .

وَمِنَ الْمُلاحَظ أنَّ اللهَ أمرَ النبيَّ ﷺ بالإجابة معَ أنَّ السُّؤال مُوَجَّهٌ للمُشركين ، إمَّا تَعليماً للمُشركين وإرشاداً لهم إلى كيفية الجواب ، أوْ لِوُضوح المعنى فلا يَحتاج إلى اعتراف الخصوم وجوابِهم ، أوْ بسبب مُكابَرة المشركين وعنادهم ، فَهُم لا يُؤمنون بالبَعْث. وبالتالي ، قد يَتهرَّبون من الإجابة الصحيحة التي سَتُصبح حُجَّةً عَلَيهم . فالمشركون إذا صَدَقوا في جوابهم ، فإنَّهم سَيَفضحون أنفسَهم بأنفسهم، ويَكشفون باطلَهم بألسنتهم ، ويَهدمون بأيديهم كُلَّ عقائد الجاهلية. لذلك أمرَ اللهُ النبيَّ ﷺ بأن يُجيب هُوَ كَي يُقرِّرَ الحقيقةَ، ويُثبِّتَ الحقَّ ، ويُلْزِمَهم بالْحُجَّة والبُرهان، ويَكشف عِنادَهم وغُرورَهم واستكبارَهم .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٧) : ((جَعَلَ الإعادةَ كالإبداء في الإلزام بها ، لِظُهور بُرهانها ، وإنْ لَم يُساعَدوا عليها ، ولذلك أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يَنوب عنهم في الجواب)) اهـ .

وصَدَقَ زَيْد بن عمرو بن نُفَيل (الذي كان مُوحِّداً في الجاهلية) حِينَ قال :

أرَبّاً واحداً أَم ألفُ رَبٍّ ... أَدين إذا تقسَّمت الأمورُ

تركتُ اللاتَ والعُزَّى جميعاً ... كذلك يَفعل الرَّجَلُ البصيرُ

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكائِكُم مَن يَهدي إلى الحقِّ قُلِ اللهُ يَهدي للحقِّ أفَمَن يَهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن لا يَهِدِّي إلا أن يُهدَى فما لَكُم كَيْفَ تَحْكُمون ﴾ [يُونُس : ٣٥] .

قُل يا مُحمَّد لهؤلاء المشركين على جهة التَّوبيخ : هَل مِن آلهتكم وأصنامكم مَن يَهدي ضَالاً إلى طريق الحق ، ويُرشد تائهاً إلى طريق الهدى . فإن قالوا : نعم ، فقد كَذَبوا ، لأن الأصنام مكشوفة للجميع ، فهي لا تَهدي ضالاً ، ولا تُرشِد تائهاً . وهذا الأمرُ واضحٌ ، ومُشَاهَدٌ بالعَين المجرَّدة. وإن قالوا: لا. فقد صَدَقوا، وأقاموا الْحُجَّةَ على أنفسهم، وأبْطَلوا عبادةَ الأصنام بإرادتهم. وفي الآية ، يتَّضح الاستدلالُ بالهداية ، بعد أن تَمَّ الاستدلال بالْخَلْق . قُل يا مُحمَّد : اللهُ وَحْدَهُ يَهدي إلى الحق . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٨) : ((أي أنتم تعلمون أنَّ شُركاءكم لا تَقدر على هداية ضَال ، وإنما يَهدي الحيارى والضُّلالَ ويُقلِّب القلوبَ مِنَ الغَيِّ إلى الرُّشْد ، اللهُ الذي لا إلهَ إلا هُوَ)) اهـ .

﴿ أفَمَن يَهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن لا يَهِدِّي إلا أن يُهدَى ﴾ . اللهُ الذي يَهدي إلى الحق أحقُّ بالاتِّباعِ أم الصنم الذي لا يَهتدي بنفْسه ولا يَهدي أحداً ، وإنما يَحتاج مَن يَهديه ؟!. استفهام تقرير وتَوبيخ، فاللهُ أحقُّ أن يُتَّبع . والصنمُ جماد ، لا يُتَصَوَّر أن يَهتديَ ولا أن يُهدَى . ومعنى الهداية بالنسبة للصَّنم هي الانتقال من مكان إلى آخر، فالصنمُ لا يَقْدِر أن يَنتقل بنفْسه ، وإنما هو بحاجة إلى مَن يَحْمِلُه ويَنقله . وقد تكون الهداية بالنسبة للصَّنم مَجازاً ، لأنَّ المشركين اعتَبَروا الأصنامَ آلِهةً قادرة على التصرف واتِّخاذ القرارات ، فَتَمَّ اعتبارُها كالعاقل .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١) : ((وظاهر الكلام يدل على أن الأصنام إنْ هُدِيَتْ اهتدتْ ، وليست كذلك ، لأنها حجارة لا تَهتدي ، إلا أنهم لَمَّا اتَّخذوها آلهةً ، عُبِّرَ عنها كما يُعَبَّر عمَّن يَعْقِل ، وَوُصِفَت صِفَةَ مَن يَعْقِل ، وإن لَم تكن في الحقيقة كذلك ، ولهذا المعنى قال في صِفتها : ﴿ أمَّن ﴾ لأنهم جعلوها كَمَن يَعْقِل)) اهـ .

﴿ فما لَكُم كَيْفَ تَحْكُمون ﴾ . هذا استفهام للتَّوبيخ والتَّعجيب مِن حالهم الأعوج وحالتهم الشاذة . كَيْفَ تَجعلون الصَّنمَ المخلوقَ العاجزَ عن هدايةِ نفْسِه والآخرين نِدَّاً للهِ الخالقِ الهادي الذي لا يُعْجِزُه شيء ؟! . أينَ عقولُكم حِينَ تَزْعُمون أنَّ للهِ شَريكاً ؟! .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٨) : ((أي : فَمَا بالُكم أن يُذهَب بِعُقولكم . كَيْفَ سَوَّيْتُم بَيْنَ اللهِ وبين خَلْقِه ، وعَدَلْتُم هذا بهذا ، وعَبَدْتُم هذا وهذا ، وهَلا أفْرَدْتُم الرَّبَّ جَلَّ جَلالُه المالِك الحاكم الهادي مِنَ الضلالة ، بالعبادة وَحْدَه ، وأخْلَصْتُم إليه الدَّعوةَ والإنابةَ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بِسُورةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادِقِين ﴾ [يُونُس : ٣٨] [173].

أَيَقُولُ المشركون إنَّ محمداً اختلقَ القُرآنَ ، وجاءَ به مِن عِند نفْسه. والاستفهام للإنكار معَ إلزامهم بالْحُجَّة وتقرير ثُبوتها. ومعنى الاستفهام التَّوبيخ والتَّقريع. وهنا يَبْرز التَّحدي الذي يُظهِر بُطلانَ زَعْمِهم : إنْ كانَ الأمر كما تقولون ، فَأْتُوا بِسُورةٍ شَبيهة بالقُرآن في الفصاحة والبلاغة وحُسن البيان والنَّظْم ، وجَمالِ اللفظ ، وقُوة المعنى . والقُرآنُ نَزَلَ بِلُغتهم ، وهُم أهل الفصاحة والشِّعر والْخَطابة ، ويَعرفون أسرارَ اللغة العربية أكثر مِمَّا يَعرفها محمد . واستعينوا أيها المشركون بآلهتكم وأعوانِكم مِنَ الكَهنة والشُّعراء والفُصحاء وَبِمَن أمكَنَكم أن تستعينوا بِه، إن كُنتم صادقين في زَعْمِكم أنَّ محمداً افْتَرَى القُرآنَ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٥٤٩) : ((أي إن ادَّعَيْتُم وافتريتُم وشككتُم في أنَّ هذا مِن عِند الله ، وقُلتم كَذِباً ومَيْناً : إنَّ هذا مِن عِند محمد ، فمحمد بَشَرٌ مِثْلُكم، وقد جاء فِيما زعمتُم بهذا القرآن ، فَأْتُوا أنتم بِسُورةٍ مِثْلِه، أي مِن جِنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل مَن قَدِرْتُم عَلَيْهِ مِن إنسٍ وَجَان ... هذا وقد كانت الفصاحة مِن سَجاياهم ، وأشعارهم ومُعَلَّقاتهم إليها المنتهَى في هذا الباب . ولكنْ جاءهم مِنَ الله ما لا قِبَلَ لأحدٍ بِه، ولهذا آمَنَ مَن آمَنَ مِنهم بما عَرف مِن بلاغة هذا الكلام وحَلاوته وجَزالته وطَلاوته وإفادته وبَراعته ، فكانوا أعلمَ الناس بِه، وأفهمَهم له ، وأتبعَهم له ، وأشَدَّهم له انقياداً ، كما عَرف السَّحَرةُ لِعِلْمهم بفنون السِّحْر أنَّ هذا الذي فَعَلَه موسى _ عليه السلام _ لا يَصدر إلا عَن مُؤيَّد مُسَدَّد مُرْسَل مِنَ الله ، وأنَّ هذا لا

(١٧٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ ﴾ في " أم " قَولان : أحدهما أنها بمعنى الواو ، قاله أبو عبيدة . والثاني : بمعنى بَل ، قاله الزَّجاج)) .

يُستطاع لبشرٍ إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى _ عليه السلام _ بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يُبْرِئ الأكمهَ والأبرصَ ، ويُحيي الموتى بإذن الله ، ومِثْل هذا لا مَدخل للعلاج والدواء فيه ، فَعَرَفَ مَن عَرَفَ مِنهم أنَّهُ عَبْدُ اللهِ ورَسولُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ قالوا اتَّخذَ اللهُ وَلَداً سُبحانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ إنْ عِندَكُم مِن سُلطانٍ بهذا أتقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ [يُونُس : ٦٨] .

قال الكافرون إنَّ اللهَ اتَّخذَ وَلَداً . وهذا مِن أباطيلهم التي اخترعوها دون وَجه حق، ولا دَليل عليها . وقد أَنكرَ اللهُ عليهم ، ونَزَّهَ ذَاتَهُ العَلِيَّةَ عَن كلامهم الباطل ، فهو سُبحانه الغنيُّ عن الزَّوْجةِ والولدِ، الغنيُّ عَن كُلِّ شيء، وكلُّ شيء مُحتاجٌ إِلَيه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧) : ((قال ابن عباس : يعني أهل مكة ، جَعلوا الملائكةَ بَناتِ الله)) اهـ .

والإنسانُ يَحتاج زوجةً ، لكي يَتخلَّص مِنَ الوَحدة ، والكَبْت الجِنسيِّ ، ويُكَوِّن أُسرةً تُحقِّق له الأمن والأمان، والاستقرار العائلي، والراحة الاجتماعية ، والسعادة الوجودية . ويحتاج الإنسانُ ولداً لِيَحمل اسْمَه واسمَ العائلة ، ويُحافظ على النَّسْل والاستمرارية، ويَحمي أُسرته من الانقراض والزوال. وأيضاً يُساعد الولدُ أباه خصوصاً في مرحلة الشَّيخوخة والعَجْز. وكلُّ هذه المعاني مَنْفِيَّةٌ عَن اللهِ سُبحانه. فاللهُ قائمٌ بذاته ، غنيٌّ عَن كُلِّ شيء ، لا يَحتاج إلى أحد . وبالتالي لا معنى لوجود زوجة وولد للهِ الخالقِ العظيم. فالمخلوقُ هُوَ الذي يَحتاج إلى الخالق،والخالقُ لا يَحتاج إلى المخلوق.

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٨٣) : ((الله غَنيٌّ عَن خَلْقه جميعاً ، فلا حاجة به إلى ولد ، لأن الولد إنما يَطلبه مَن يَطلبه لِيَكون عَوناً له في حياته ، وذِكْراً له بعد وفاته ، واللهُ عَن كُلِّ ذلك غنيٌّ ، فلا حاجة به إلى مُعين يُعينه على تدبيره ، ولا يَبيد فيكون به حاجة إلى خَلَفٍ بَعْدَه)) اهـ .

وكيفَ يَكون للهِ ولدٌ، وكلُّ شيء مخلوقٌ وعَبْدٌ للهِ . ومعروفٌ أنَّ الابنَ يَحمل صفاتِ أبيه ، فلا يُعقَل أن يَكون هناك ابْنٌ للهِ ، لأنَّ هذا الابن المزعوم سيكون مَخلوقاً وعَبْداً ، فكيفَ يَكون ابنُ الإلهِ السَّيدِ الخالقِ عَبداً ومَخلوقاً ؟! . إنَّ هذا الابنَ المزعوم لَم يَحمل صِفاتِ أبيه . وإنما حَمَلَ صفاتٍ مُضَادَّةً لصفات أبيه . وهذا يُظهِر بُطلانَ قَول مُشركي العرب: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ،ويُظهِر بُطلانَ قَول النصارى: إنَّ عيسى ابنُ اللهِ، ويُظهِر بُطلانَ قَول اليهود : إنَّ عُزَيراً ابنُ اللهِ . ونلاحظ

أنَّ المشركين وأهل الكتاب يُحاولون جاهدين نِسبةَ المخلوقات إلى اللهِ تعالى ، تَمهيداً لِنسبة أنفسهم إلَيه ، بِوَصْفهم أحبابَه ، وصَفْوَتَه مِن خَلْقِه ، وشَعْبَه المختار ، _ على حَدِّ زَعْمهم _ .

وَلَوْ زَعَمَ أحدُهم أنَّ ابْنَ الإلهِ إلهٌ ، فكيفَ يَكون الابنُ إلهاً وهو مَقضيٌّ عَلَيه بالموت والخضوع لِسُلطة أبيه . فعلى سبيل المثال ، كيف يَكون المسيحُ إلهاً ، وهو يأكل ويَشرب ويُخرِج الفضلاتِ ، وفي نهاية المطاف صُلِب _ حَسَبَ عقيدة النصارى _ ؟ . إنَّ العاجزَ عَن حماية نفْسِه، لَن يَستطيع حمايةَ المؤمنين بِه . والعاجزُ لا يَكون إلهاً . وهذا يُبطِل أُلوهيةَ المسيح التي اخترعها النصارى ، والمسيحُ بريءٌ مِنها . وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٣٢٢) : ((والولد يَقتضي الْمُجانَسة والْمُشابَهة ، واللهُ تعالى لا يُجانِس شَيئاً ، ولا يُشابِه شَيئاً)) اهـ .

﴿ إنْ عِندَكُم مِن سُلطانٍ بهذا ﴾ . لَيس عِندَكم دليلٌ على وُجود ولدٍ للهِ . وَلَوْ كانوا يَملكون الدليلَ لَقَدَّموه أمامَ الناس ، وعارَضوا القُرآنَ ، وبَيَّنوا صِحَّةَ كلامهم . لكنَّ هذا لَم يَحْدُثْ . ودائماً، تَكون حُجَّةُ العاجزِ هِيَ الكذبَ، لأنه أسهل وسيلة. وهذا يدل على جَهْلهم، وأنَّ كلامَهم نابع من الأهواء الشخصية بِلا حُجَّةٍ ولا بُرهان . وكلُّ كلامٍ لا دَليل عَلَيه ، فهو جَهلٌ خالص.

﴿ أتقولونَ على اللهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ . إنكارٌ ، وتهديدٌ ، وتَوبيخٌ على جَهْلهم وكذبهم . كيفَ تقولونَ على اللهِ كلاماً لا دليل عَلَيْهِ ، ولا تَملكون الْحُجَّةَ والبُرهان . والآيةُ دليلٌ واضح على أنَّ كُلَّ كلامٍ لا دليل عَلَيه، فهو أكذوبة وجَهْلٌ خالص ، وأنَّ العقائد تُبْنَى على الدليل القَطعي اليَقيني، ولا تُبْنَى على التقليد والشَّك .

وقال الطبري في تفسيره (٦/ ٥٨٣) : ((ما عِندَكم أيها القوم بما تقولون ، وتَدَّعون مِن أن الملائكةَ بناتُ الله مِن حُجَّة تَحتجُّون بها _ وهي السُّلطان _ . أتقولون على الله قَولاً ، لا تعلمون حقيقته وصِحَّته ، وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه ، جَهلاً مِنكم بما تقولون ، بِغَير حُجَّة ، ولا برهان ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ [هُود : ١٣] .

يُوضِّح اللهُ إعجازَ القُرآنِ ، وعَجْزَ الإنس والجِنِّ عن مُعارَضته . وكلامُ اللهِ الخالق لا يُشبِه كلامَ المخلوقين . والقُرآنُ هو الْمُعجزةُ العُظمى ، وأعظمُ دليلٍ على صِحَّة نُبُوَّة محمد ﷺ .

ولَمَّا عَجِزَ المشركون عَن مُعارَضة القُرآن ، لجأوا إلى الكذب وإلقاء التُّهم بلا دليل . وهذه حُجَّةُ العاجزِ في كل زمان ومكان . وزَعموا أنَّ محمداً قامَ بتأليف القُرآن . والاستفهام في الآية

لِتَوبيخهم . إنْ كُنتم تقولون إنَّ محمداً افترى القُرآنَ ، فَأْتُوا بِعَشْر سُوَرٍ مُخْتَلَقَاتٍ مِن عِندِ أنفسكم ما دَامَ محمد _ حَسَبَ زَعْمكم _ قد اختلقَ القُرآنَ . وهذا أمر تعجيز . ومحمدٌ عربيٌّ ، وأنتُم عَرَبٌ أهلُ الفصاحة والبلاغة وتَعرفون الشِّعْرَ والكِهانةَ والقَصَصَ ، واستعينوا بِمَن شِئتُم مِنَ آلهتكم وأعوانكم . وإنْ كانَ سلاحُ محمد هو تأليف القُرآن _ وَفْقَ قَولكم _ ، فَوَاجِهُوه بنفْسِ سلاحه ونفْسِ لُغته التي هي لغتكم .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ تَحَدِّي اللهِ للمُشركين جاءَ على مراحل . المرحلة الأُولَى _ أن يَأتوا بِمِثْلِ القُرآنِ . فقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجتمعتِ الإنسُ والجِنُّ على أن يَأتوا بِمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾ . المرحلة الثانية _ أن يأتوا بِعَشْرِ سُوَر ، فقال اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فَأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادقين ﴾ . المرحلة الثالثة _ أن يأتوا بِسُورةٍ واحدة ، فقال اللهُ تعالى: ﴿ أَم يَقولونَ افتراهُ قُلْ فأتُوا بِسُورةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِن دُونِ اللهِ إن كُنتم صادِقِين ﴾ . لقد سَهَّلَ اللهُ عليهم الأمر ، وتَحَدَّاهم بِسُورةٍ واحدة . وقد فَشِلُوا ، وأُفْحِمُوا ، وشَهِدوا على أنفسهم بالعَجْز التام .

لقد كانوا شديدي الحرص على إبطال الدَّعوة المحمَّدية الإسلامية . وَلَو استطاعوا مُعارَضة القُرآن لاغتنموا هذه الفرصة ، وما قصَّروا في ذلك ، وذلك من أجل شَرْعنة مشروعهم الوثنيِّ . لكنهم لَم يَقدِروا على ذلك. وإذا كانَ فُصحاءُ العرب عاجزين عن مُعارَضة القُرآن ، وهو بِلُغتهم، فَغَيْرُهم أكثر عَجزاً . وقال القرطبي في تفسيره (١/ ١٠٥) : ((فبلاغةُ القرآن في أعلى طبقات الإحسان ، وأرفع درجات الإيجاز والبيان ، بَل تجاوزتْ حَدَّ الإحسان والإجادة ، إلى حَيِّز الإرباء والزيادة ، هذا رسول الله ﷺ معَ ما أُوتِيَ مِن جَوامع الكَلِم ، واخْتُصَّ بِهِ مِن غرائب الحِكَم ، إذا تأمَّلْتَ قَوْلَه ﷺ في صِفة الجِنان _ وإنْ كان في نهاية الإحسان _ وَجَدْتَهُ مُنْحَطَّاً عن رُتبة القرآن ، ولَكَ في قَوْله _ عليه السلام _ : " فِيها ما لا عَيْنٌ رَأتْ ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، ولا خَطَرَ على قلب بَشَرٍ " [صحيح مسلم (٤/ ٢١٧٥)] ، فأينَ ذلك مِن قَوْله _ عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ وَفِيها ما تَشتهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ [الزُّخْرُف: ٧١]، وقَوْله : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أعْيُنٍ ﴾ [السَّجدة : ١٧] . هذا أعدلُ وَزناً ، وأحسنُ تركيباً ، وأعذبُ لَفظاً ، وأقلُّ حُروفاً)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِلَّمْ يَستجيبوا لَكُم فاعْلَموا أنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ وأنْ لا إلهَ إلا هُوَ فَهَلْ أنتُم مُسلِمون ﴾ [هُود : ١٤] (174).

إنْ لَم يَأْتِ المشركون بِعَشْرِ سُوَرٍ _ وهُم الفُصَحاء البُلَغاء _ ، وفَشِلوا في هذا التَّحدي ، فقد قَامَتْ عَلَيهم الْحُجَّةُ، وكشفوا باطلَهم بأيديهم، فاعْلَموا أيها المشركون أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ سماويٌّ (يَشتمل على أوامر اللهِ ونَواهيه) أُنزِلَ على محمد ﷺ بِعِلْمِ اللهِ وإِذْنِه . وهذا دليلٌ على صِدْقِ القُرآنِ ، وصِحَّةِ نُبُوَّةِ محمد ﷺ ، واعْلَموا أنَّ اللهَ إلهٌ واحدٌ لا شَريك لَهُ ، وهو وَحْدَهُ المعبود بحقٍّ . ﴿ فَهَلْ أنتُم مُسلِمون ﴾ استفهام معناه الأمر ،أي: أَسْلِمُوا. وهذا الاستفهام يَحمل مَعنى قِيام الْحُجَّةِ وزوالِ العُذر .وقد تَكون الآيةُ كُلُّها تَحمل خَطاباً للمؤمنين.قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٢٢٥): ((﴿ فَإِلَّمْ يَستجيبوا لَكُم ﴾ بإتيان ما دَعَوْتُم إلَيه ، وجَمْعُ الضَّمير، إمَّا لتعظيم الرسول ﷺ أوْ لأنَّ المؤمنين كانوا أيضاً يَتَحَدونهم،وكان أمرُ الرسولﷺ مُتَنَاوَلاً لهم ، مِن حَيث إنَّه يجب اتِّباعُه عليهم في كل أمر، إلا ما خَصَّه الدليلُ، وللتنبيه على أنَّ التَّحدي مِمَّا يُوجِب رُسوخَ إيمانهم، وقُرَّةَ يَقينهم، فلا يَغْفُلون عنه ، ولذلك رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَه : ﴿ فاعْلَموا أنَّما أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ مُلْتَبِسَاً بما لا يَعْلَمُه إلا الله ، ولا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِواه . ﴿ وأنْ لا إلهَ إلا هُوَ ﴾ ، واعْلَموا أن لا إلهَ إلا اللهُ ، لأنَّهُ العالِمُ القادرُ بِمَا لا يَعلم ولا يَقْدِر عَلَيْهِ غَيْرُه ، ولِظُهور عَجْز آلهتهم ... وفيه تهديد وإقناط مِن أن يُجيرهم مِن بأس الله آلهتُهم . ﴿ فَهَلْ أنتُم مُسلِمون ﴾ ثابتون على الإسلام راسخون فيه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَبُّ السماواتِ والأرضِ قُلِ اللهُ قُلْ أفاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أولياءَ لا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِم نفْعاً ولا ضَرَّاً قُلْ هَلْ يَسْتوي الأعمى والبصيرُ أم هَلْ تَسْتوي الظُّلماتُ والنُّورُ أَم جَعلوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِم قُلِ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحدُ القَهَّارُ﴾ [الرَّعْد : ١٦].

---

(١٧٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٨٣) : ((فإنْ قِيل : كيف وَحَّدَ القَوْلَ في قَوْلِه : ﴿ قُلْ فَأْتوا ﴾ ثُمَّ جَمَعَ في قَوْلِه : ﴿ فَإِلَّمْ يَستجيبوا لَكُم ﴾ فَعَنه جوابان : أحدهما أنَّ الخِطاب للنبيِّ ﷺ وَحْدَه في الموضِعَيْن ، فيكون الخطاب لَهُ بِقَوْلِه : ﴿ لَكُم ﴾ تعظيماً ، لأنَّ خِطاب الواحد بلفظ الجمع تعظيم، هذا قول المفسِّرين . والثاني أنَّهُ وَحَّدَ في الأول لخطاب النبيِّ ﷺ ، وجَمَعَ في الثاني لِمُخاطَبة النبيِّ ﷺ وأصحابه ، قاله ابن الأنباري)) اهـ .

قُل يا مُحمَّد للمُشركين : مَن رَبُّ السماواتِ والأرضِ مُدَبِّرُ أمرِها والْمُسَيْطِرُ عَلَيها ؟ . وهذا السُّوال لِتَوبيخهم على شِرْكِهم ، والسُّخريةِ بآلهتهم الأصنام . وأجِبْ أنتَ نِيابةً عَنهم ، وتَقريعاً لهم، وقُلْ: اللهُ . وجاءت الإجابةُ مِنَ النبيِّ ﷺ لوضوح الأمر ، فلا حاجة لجواب المشركين ، أوْ لأنَّ المشركين قد يَتهرَّبون مِنَ الجواب خَوفاً مِن اتِّضاحِ باطلهم، وقِيامِ الْحُجَّةِ عليهم، وإلزامِهم بالحق.

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٦٦) : ((قُل يا مُحمَّد : رَبُّها الذي خَلَقَها وأنشأها هُوَ الذي لا تَصْلُح العبادةُ إلا لَهُ ، وَهُوَ الله)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣٢٠) : ((إنَّما جاء السؤالُ والجوابُ مِن جِهة، لأنَّ المشركين لا يُنكِرون أنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيء، فلمَّا لَم يُنْكِروا، كان كأنهم أجابوا)) اهـ .

﴿ قُلْ أفاتَّخَذْتُم مِن دُونِهِ أولياءَ ﴾ . هذا دليلٌ واضح على اعترافهم بأنَّ اللهَ هو الخالق. وبِدُون اعترافهم ، لا يَكون لهذه الآية معنى . والاستفهامُ للإنكار . قُل لهم _ لإلزامهم الْحُجَّة _ : أجعلتُم للهِ شُركاء تَعبدونهم مِن دُونه . والمعنى : معَ اعترافكم بأنَّ اللهَ هُوَ خالقُ السماوات والأرض ، اتَّخَذْتُم الأصنامَ آلِهةً لكم ، تَعبدونها مِن دُون اللهِ .

﴿ لا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِم نفْعاً ولا ضَرَّاً ﴾ . أصنامُ المشركين المعبودةُ مِن دُون الله ، لا تَقْدِر على نَفْع نفْسها ، ولا دَفْع الضَّر عنها ، ولا إلحاق الضَّرر بغَيرها . إنها عاجزةٌ تماماً عَن جَلْب النَّفْع أو دَفْع الضَّرر ، فكيفَ ستجلب النَّفْع للمؤمنين بها أو تَدفع الضَّرر عنهم ؟ . وفاقدُ الشيء لا يُعطيه . وهذا دليلٌ واضح على بُطلان عبادة الأصنام ، وأنها مُجرَّد حجارة خرساء ، ولَيْسَت آلهةً .

وهذه الْحُجَّةُ المركزية تُبطِل _ أيضاً _ عبادةَ النصارى للمسيح، وألوهِيَّته المزعومة. فإذا كانَ المسيحُ إلهاً تَمَّ صَلْبُه _ حَسَبَ عقيدة النصارى _، ولَم يَقْدِر على تخليص نفْسه ، ولَم يَستطع نَفْعَ نفْسِه ولا دَفْعَ الضَّرر عنها ، فكيفَ سيحمي المؤمنين به ويَنفعهم ويُبعِد عنهم الضرر ؟! . وصدقَ القائلُ : إذا صُلب الإلهُ بفِعْل عَبدٍ يَهوديٍّ فما هذا الإلهُ ؟ .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٣٦٦) : ((أفاتَّخذتُم مِن دُون رَبِّ السماوات والأرض أولياء لا تَمْلِك لأنفسها نَفعاً تَجْلِبُه إلى نفْسها ، ولا ضَرَّاً تَدفعه عنها ؟ . وهي إذْ لَم تَمْلِك ذلك لأنفسها فَمِن مِلْكِه لِغَيرها أبعد ، فعبدتُمُوها ، وتركتُم عِبادةَ مَن بِيَده النَّفْع والضَّر والحياة والموت وتدبير الأشياء كُلِّها)) اهـ .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتوي الأعمى والبصيرُ أَم هَلْ تَسْتوي الظُّلماتُ والنُّورُ ﴾ . الاستفهام للتَّوبيخ . هل يَستوي عابدُ الصنمِ الذي لا يَنفع ولا يَضُرُّ ، وعابدُ اللهِ الذي يَنفع ويَضُرُّ ؟! . فالأعمى هو الكافر ، والبصيرُ هو المؤمن. والظلماتُ هِيَ الكُفر ، والنُّور هو الإيمان . وكما أنَّ الأعمى والبصيرَ لا يَستويان ، فكذلك الكافر والمؤمن لا يَستويان . وكما أنَّ الظلمات والنُّور لا يَستويان، فكذلك الكُفْر والإيمان لا يَستويان . والظلماتُ (جَمْع) لأنَّ الباطل له طرقات كثيرة ومُلتوية . أمَّا النُّور (مُفْرَد) لأنَّ طريق الحق واحد لا يَتعدَّد ، لذلك لا توجد كلمة " أنوار " في القُرآن مُطْلَقاً .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٤) : ((﴿ قُلْ هَلْ يَسْتوي الأعمى والبصيرُ ﴾ المشرك الجاهل بحقيقة العبادة والْمُوَحِّد العالِم بذلك . وقِيل : المعبود الغافل عَنكم ، والمعبود الْمُطَّلع على أحوالكم . ﴿ أَم هَلْ تَسْتوي الظُّلماتُ والنُّورُ ﴾ الشِّرْك والتَّوحيد)) اهـ .

﴿ أَم جَعلوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِم ﴾ . وهذه حُجَّةٌ إلهيةٌ عَلَيهم ، وسُخريةٌ بِهم وبآلهتهم (الأصنام) . والمعنى : أجَعَلُوا للهِ شُركاءَ(أصناماً آلهةً) خَلقوا مِثْلَ ما خَلق اللهُ، فالتبسَ الأمرُ عَلَيهم، وتَشَابَهَ خَلْقُ آلهتهم معَ خَلْق الله ؟. والاستفهامُ لإنكار وقوع ذلك ، فاللهُ وَحْدَهُ هو الخالق ، تَفَرَّدَ بالإيجاد والتَّكوين والإحياءِ والإماتة . والمشركون يَعترفون أنَّ اللهَ هُوَ الخالقُ وَحْدَه ، ويَعرفون أيضاً أنَّ الأصنامَ لَم تَخْلُقْ شيئاً ، ومعَ هذا يَعبدون المخلوقَ العاجزَ عَن الْخَلْق ، ويَتركون عِبادةَ اللهِ الخالقِ . وهذا مُنتَهى الضلال والغباء .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٤) : ((﴿ أَم جَعلوا للهِ شُرَكاءَ ﴾ بَل أَجَعَلُوا ، والهمزة للإنكار . وقَوْلُه : ﴿ خَلَقوا كَخَلْقِهِ ﴾ صِفة لِشُركاء داخلة في حُكم الإنكار . ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِم ﴾ ، خَلْقُ اللهِ وخَلْقُهم . والمعنى أنهم مَا اتَّخذوا للهِ شُركاءَ خَالِقين مِثْلَه، حتى يتشابهَ عليهم الْخَلْقُ ، فيقولوا : هؤلاء خَلَقوا كما خَلَقَ اللهُ ، فاستحقوا العبادةَ كما استحقها ، ولكنهم اتَّخذوا شُركاء عاجزين ، لا يَقْدِرُون على ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَلْقُ ، فَضْلاً عَمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الخالقُ)) اهـ .

﴿ قُلِ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحدُ القَهَّارُ ﴾ . إنَّ اللهَ خالقُ كُلِّ شيء ، وكُلَّ ما سِوى اللهِ مَخلوقٌ للهِ وعَبْدٌ لَهُ ، وهو سُبحانه الْمُتفرِّد بالأُلوهية والرُّبوبية ، واحدٌ في ذاته وصِفاته ، لا شَريك له ولا نِد . كُلُّ شيء خاضع لإرادته ومَشيئته . واللهُ خالقُ المشركين وأصنامِهم ، فلا معنى لإشراك المخلوق العاجزِ معَ الخالق العظيم .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٥٨) : ((﴿ قُلِ اللهُ خالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي: قُل لهم يا محمد : (الله خالق كل شيء) فَلَزِمَ لذلك أن يَعبده كُلُّ شيء . والآية رَدٌّ على المشركين والقَدَرية الذين

زَعَموا أنهم خَلَقوا كَما خَلَقَ اللهُ . ﴿ وَهُوَ الواحدُ ﴾ قَبْلَ كُلِّ شيء ﴿ القَهَّارُ ﴾ الغالب لكل شيء ، الذي يَغْلِب في مُراده كُلَّ مُريد . قال القُشَيري أبو نصر : ولا يَبْعُد أن تكون الآية واردة فِيمن لا يعترف بالصانع ، أي سَلْهُم عن خالق السماوات والأرض ، فإنه يَسْهُل تقرير الْحُجَّة فِيه عَلَيهم ويَقْرُب الأمرُ من الضرورة ، فإن عَجْزَ الجمادِ وعَجْزَ كُلِّ مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم ، وإذا تقرَّرَ هذا ، وبانَ أنَّ الصانع هو الله، فكيفَ يَجوز اعتداء الشريك له ؟!، وبَيَّنَ في أثناء الكلام أنَّه لَوْ كانَ للعالَم صانعان لاشتبهَ الْخَلْقُ ، ولَم يَتميَّزْ فِعْلُ هذا عَن فِعْل ذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ أشْرَكوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كذلكَ فَعَلَ الذينَ مِن قَبْلِهِم فَهَلْ على الرُّسُلِ إلا البلاغُ الْمُبِين ﴾ [النَّحْل : ٣٥] .

لقد اغترَّ المشركون بإثمهم ، وَلَم يَعْتَذِروا عَن شِرْكهم ، وإنَّما بَحَثوا عن تبريرٍ لِكُفرهم ، فاحْتَجُّوا بالمشيئةِ والقَدَرِ بِلا عِلْمٍ ولا معرفة . وقالَ المشركون باللهِ الذين يَعبدون الأصنام : إنَّ اللهَ رَاضٍ عَنهم، ورَضِيَ لهم عبادةَ الأصنام . ولوْ كانَ غاضباً عليهم أو مُبْغِضاً لعبادتهم الأصنام لَمَنَعَهم مِن عبادتها . وأيضاً ، رَضِيَ لهم تحريمَ البَحيرة والسَّائبة والوَصيلة والحام لأنَّهُ لَم يَمنعهم من ذلك . وَلَوْ أبغضَ أعمالَهم، لأنزلَ عَلَيهم العقوبةَ ، أوْ لَهَداهم إلى أعمالٍ أخرى . هذه حُجَّة المشركين الواهية القائمة على السُّخرية والاستهزاء، وإبطالِ التَّكليف، ورفضِ النُّبُوَّة .

وَلَو آمنوا بمشيئةِ اللهِ، وخَضَعوا لإرادته لكانوا مُؤمنين ، ولكنهم تَعَلَّقوا بالمشيئةِ سُخريةً واستهزاء وتَبريراً لِشِرْكِهم ، وبَحثاً عن شرعية للكُفر والآثام ، وتكذيباً للنبيِّ ﷺ . وقد تمسَّكوا بالقاعدة: ما شَاءَ اللهُ وَقَعَ ، وما لَم يَشَأ لَم يَقَعْ. وهذه كلمة حق يُراد بها باطل . والآيةُ تَقريعٌ لهم ، وذَمٌّ لهم . فقد اعتمدوا على القضاء والقَدَر _ وَفْقَ منظورهم المنحرِف _، وأبطلوا الأمرَ والنَّهْيَ ، ولَم يُقدِّموا أيَّةَ حُجَّةٍ مُعْتَبَرَة ، وإنَّما اعتمدوا العِنادَ والْمُكابَرَةَ والْمُرَاوَغة . لقد بَحثوا عن شرعية لِكُفرهم ، فألصقوه بمشيئة اللهِ جَهلاً مِنهم وسُخريةً . ومُرادُهم هو الطعن في الرِّسالة النبوية . فَهُم يَزعمون أنَّ اللهَ رَضِيَ لهم هذا الشِّرْكَ ، ولَم يُنْكِرْه عليهم ، ولَم يُعاقِبْهم ، ولَم يَهْدِهم إلى طريق آخر. وكلُّ هذه الأمور _ حَسَبَ تفكيرهم _ دلائل على صِحَّةِ عِبادتهم ، وأنَّهم حَقَّقوا مُرادَ اللهِ ، وأنَّ محمداً مُخالِفٌ لمشيئةِ اللهِ ، ولا معنى لِدَعوته القائمة على التَّوحيد .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٣٠) : ((ومقصودهم بهذا القول الْمُعَلَّق بالمشيئة الطعن في الرسالة : أي لَوْ كان ما قاله الرسول حقاً مِنَ المنع مِن عبادة غَير الله ، والمنع مِن

تحريم ما لَم يُحَرِّمْه الله ، حاكياً ذلك عَن الله ، لَم يَقَعْ مِنَّا ما يُخالف ما أراده مِنَّا ، فإنَّه قد شاءَ ذلك ، وما شاءه كانَ ، وما لَم يَشَأْهُ لَم يَكُنْ ، فلمَّا وَقَعَ مِنَّا العبادة لِغَيره ، وتحريم ما لَم يُحَرِّمْه كان ذلك دليلاً على أنَّ ذلك هُوَ الْمُطابِق لِمُراده والْمُوافق لِمَشيئته ، معَ أنهم في الحقيقة لا يَعترفون بذلك ، ولا يُقِرُّون بِه ، لكنهم قَصدوا ما ذَكَرْنا مِنَ الطعن على الرُّسُل)) اهـ .

﴿ كذلكَ فَعَلَ الذينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ . لقد سارَ مُشركو العرب على خُطى الأمم السابقة التي كَذَّبت الرُّسُلَ ، واخترعت الأعذارَ الواهية ، وحَرَّمَت ما أَحَلَّ اللهُ ، حتى جاءهم العذابُ الأليمُ .

وقال الطبري في تفسيره (٧/ ٥٨٢) : ((يقول تَعالى ذِكْرُه : كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهم مِنَ الأمم الْمُشرِكة الذين اسْتَنَّ هؤلاء سُنَّتَهم ، فقالوا مِثْلَ قَوْلِهم ، وسلكوا سبيلَهم في تكذيب رُسُلِ الله ، واتِّباعِ أفعال آبائهم الضُّلال)) اهـ .

﴿ فَهَلْ على الرُّسُلِ إلا البلاغُ الْمُبِين ﴾ . لقد جاءَ الرُّسُلُ إلى الناس بكلامِ اللهِ ، وحَمَلوا رِسالاتِ السماء إلى الناس بأمانة وإخلاص . أَمَروا بِتَوحيد اللهِ ، ونَهَوا عن الشِّرْك . وهذا تَكذيبٌ للمُشركين الذين زَعَموا أنَّ اللهَ راضٍ عَن شِرْكِهم ، ولَم يُعاقِبْهم بسببه ، ولَم يُنْكِر عَلَيهم . لقد نهاهم اللهُ عن الشِّرْك على لسان رسوله محمد ﷺ، وبَعَثَ رُسُلَه إلى الأمم من أجل عبادة الله وَحْدَه.

وليس على الرُّسُل إلا التَّبليغ ، أمَّا الهداية فَمِنَ اللهِ وَحْدَه .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٩٦) : ((﴿ فَهَلْ على الرُّسُلِ إلا البلاغُ الْمُبِين ﴾ ، إلا الإبلاغ الْمُوضِّح للحق ، وهو لا يُؤثِّر في هُدى مَن شاءَ اللهُ هُداه ، لكنه يُؤدِّي إلَيه على سبيل التَّوَسُّط . وما شاءَ اللهُ وُقوعَه إنما يَجِب وقوعُه ، لا مُطْلَقاً ، بل بأسباب قَدَّرها له ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ البِعثةَ أمرٌ جَرَت بِهِ ألسنةُ الرُّسُل في الأمم كُلِّها سبباً لِهُدى مَن أرادَ اهتداءَه ، وزيادةً لِضَلال مَن أراد ضلالَه ، كالغذاء الصالح ، فإنَّه يَنفع المِزاجَ السَّوِيَّ ويُقَوِّيه ، ويَضُرُّ الْمُنحرِف ويُفنيه)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ نَعْلَمُ أنهم يَقولونَ إنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين ﴾ [النَّحْل : ١٠٣] .

إنَّ اللهَ يَعلم أنَّ المشركين يَقولون _ كَذِباً وجَهلاً _ عن النبيِّ ﷺ : إنَّما يُعلِّمه بَشَرٌ . وهُم يَقصدون أنَّ القُرآنَ كلامٌ بشريٌّ لا علاقة له بالسماء ، وأنَّ النبيَّ ﷺ يأخذ كلامَه مِن آدميٍّ ، ثُمَّ يَنسُبه إلى اللهِ ، ويَفتري على اللهِ الكذبَ . وهدفُهم من هذا الاتِّهام الطعن في القُرآنِ والنُّبُوَّةِ .

أمَّا المقصودُ بهذا البَشَر الذي يُعلِّم النبيَّ ﷺ _ حَسَبَ كلام المشركين _ ، فاختلفَ العلماء في تحديده. قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٠) : ((يَعْنُون جَبْراً الرُّوميَّ غُلامَ عامر بن الحضرميِّ. وقِيل: جَبراً ويَساراً كانا يصنعان السيوف بمكة ، ويقرآن التوراةَ والإنجيلَ ، وكان الرسول ﷺ يمرُّ عليهما ، ويسمع ما يَقرآنه . وقِيل : عائشاً غُلام حُوَيطب بن عبد العُزَّى ، قد أسلمَ ، وكان صاحب كُتُب . وقِيل : سلمان الفارسي)) اهـ .

وعن ابن عباس_رضي الله عنهما_ قال: ((قالوا : إنَّما يُعَلِّمُ مُحمَّداً عَبْدُ ابْنِ الحضرميِّ ، وَهُوَ صَاحبُ الكُتبِ، فقالَ اللهُ: ﴿ لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إلَيْهِ أعْجَمِيٌّ وهذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين ﴾))[175].

وهذه التُّهمة الباطلة التي اخترعها المشركون، لا دليل عليها ، وهي ضِد المنطق والعقلِ ، وهي كِذبة مكشوفة بدافع الهوى والحِقد والعِناد . فكيفَ يَتعلَّمَ النبيُّ ﷺ اللغةَ العربية من شخص أعجميٍّ ، لا علاقة له بالعربية ؟[176]. فلسانُ الشخصُ الذي يَميل إلَيه المشركون (يُلْحِدون إلَيه) أعجميٌّ لا يُحسِن العربيةَ، فكيفَ يُعلِّم محمداً العربيةَ ؟!. والإلحادُ هُوَ الْمَيْلُ عن القَصْد . والقُرآنُ باللغة العربية الفُصحى الذي أعجزَ فُصحاءَ العربِ وخُطَباءَهُم ، وفُحولَ شُعرائهم . فكيفَ يأتي بالقُرآنِ العربيِّ شخصٌ غَيْرُ عربيٍّ ؟!. لا يَقول بهذا عاقلٌ. وسُمِّيَ القُرآنُ لِساناً ، لأنَّ العربَ تقول: اللغةُ لِسان . أو المقصود باللسان البلاغة . وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٧٤) : ((فكيف يَتعلَّمُ مَن جاء بهذا القرآن في فَصاحته وبَلاغته ومَعانيه التامة الشاملة التي هِيَ أكمل من معاني كُلِّ كتاب نَزَلَ على نبيٍّ أُرْسِلَ ، كيف يَتعلم مِن رَجل أعجميٍّ ؟)) اهـ .

---

(١٧٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٨٩) برقم (٣٣٦٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٥٨) : ((أي: كيف يُعلِّمه جَبر وهو أعجمي هذا الكلام الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يُعارِضوا مِنهُ سُورةً واحدة فما فَوْقَها ؟ . وذَكَرَ النَّقاش أنَّ مولى جَبر كان يَضْرِبُه ويقول له: أنتَ تُعَلِّمُ محمداً، فيقول: لا واللهِ، بَل هو يُعَلِّمني ويَهديني. وقال ابن إسحاق: كان النبيُّ ﷺ فيما بَلَغني ، كثيراً ما يَجلِس عند الْمَرْوَة إلى غُلام نصرانِيٍّ ، يُقال له جَبْر عبد بني الحضرميِّ ، وكان يَقرأ الكُتُبَ ، فقال المشركون : واللهِ ما يُعَلِّمُ محمداً ما يأتي بِه إلا جَبْرٌ النصرانِيُّ)) اهـ .

(١٧٦)في زاد المسير(٤/ ٤٩٤):((قال ابنُ قُتَيبة: لا يكاد عَوَامُّ الناس يُفرِّقون بين العَجَميِّ والأعجميِّ والعربِيِّ والأعرابِيِّ . فالأعجمي الذي لا يُفصِح وإن كان نازلاً بالبادية ، والعجميُّ منسوب إلى العَجَم وإن كان فصيحاً . والأعرابي هو البدوي ، والعربي مَنسوب إلى العرب ، وإن لَم يكن بدوياً)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢٠) : ((﴿ وهذا ﴾ وهذا القُرآن، ﴿ لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين ﴾ ذُو بيان وفصاحة. والجملتان مُسْتَأنفتان لإبطال طَعنهم ، وتقريرُه يَحتمِل وجهين ، أحدهما : أنَّ ما سَمعه منه كلام أعجمي ، لا يَفهمه هُوَ ولا أنتم ، والقرآنُ عربِيٌّ تَفهمونه بأدنى تأمُّل، فيكف يكون ما تَلَقَّفه منه ؟. وثانيهما: هَبْ أنَّهُ تعلَّم مِنهُ المعنى باستماع كلامه ، لكن لَم يَتلقَّف منه اللفظَ ، لأنَّ ذلك أعجمي ، وهذا عربِيٌّ ، والقرآنُ كما هُوَ مُعجِز باعتبار المعنى ، فهو مُعجِز مِن حيث اللفظ ، معَ أنَّ العلوم الكثيرة التي في القُرآن لا يمكن تَعَلُّمها إلا بِمُلازَمة مُعَلِّم فائق في تلك العلوم مُدَّة مُتطاوِلة . فكيفَ تَعَلَّمَ جميعَ ذلك مِن غُلامٍ سُوقيٍّ ، سَمِعَ مِنهُ في بعض أوقات مُروره عَلَيه كلماتٍ أعجمية ، لَعَلَّهما لَم يَعْرِفا معناها ؟! . وطَعْنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية عَجْزِهم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُل لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كما يَقولونَ إِذاً لابْتَغَوْا إلى ذِي العَرْشِ سَبيلاً ﴾ [الإسراء : ٤٢] .

قُل يا مُحمَّد للمُشركين الذين صَنعوا الأصنامَ بأيديهم ، ثُمَّ جَعلوها آلهةً مَعبودةً مِن دُون الله : لَوْ كانَ مَعَ اللهِ آلِهةٌ _ كما يَزعم المشركون _ ، لاتَّخذت هذه الآلِهةُ طَريقاً لِمُغالَبةِ اللهِ ومُمانعته من أجل إزالة مُلْكِه _ كما يَفعل مُلوك الدنيا بَعْضُهم ببعض _ . والآيةُ بيانٌ للتمانع. وهذا هو الرَّأي الراجح في تفسير الآية ، ويمكن إعادةُ صياغته كالتالي : لَوْ كان هناك آلهةٌ _ على حَدِّ زَعْم المشركين_ لقامت هذه الآلهة بِمُنافسة الله، ومحاولةِ انتزاع مُلْكِه_كما يَحصل بين ملوك الأرض _. أمَّا الرأي الثاني : لَقَامت هذه الآلهةُ بالسَّعْي لنيل رضا الله لأنها دُونَه . وبما أنها مُحتاجة، إذن ، فهي لَيْسَتْ آلهةً (177).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٨) : ((قوله تعالى : ﴿ إذاً لابْتَغَوْا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ فِيه قَولان: أحدهما لابْتَغَوْا سَبيلاً إلى مُمانعته وإزالةِ مُلْكه ، قاله الحسن وسعيد بن جُبَير .

---

(١٧٧) قال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ١٧٤) : ((والأوَّل هو الأظهَر الأنسَب ، فإنَّه صريح في أنَّ المراد بيان أنَّه يَلْزَم مِمَّا يقولونه مَحذور عظيم ، مِن حَيث لا يَحْتَسِبون . وأمَّا ابتغاء السبيل إليه تعالى بالتقرُّب ، فليس مِمَّا يُخْتَص بهذا التقرير ، ولا هُوَ مِمَّا يُلْزِمهم مِن حيث لا يَشعرون ، بَل هو أمر يعتقدونه رأساً ، أي تَنَزَّهَ بذاته تَنَزُّهاً حقيقاً به)) اهـ .

والثاني : لابْتَغَوْا سَبيلاً إلى رِضاه لأنهم دُونَه ، قاله قتادة)) اهـ .

والآيةُ تَحْمِلُ رَدَّاً بليغاً باهراً مُفْحِماً مُوجَزاً ، يُخاطب عقولَ الناس بِشَتَّى مستوياتهم الفكرية، فهو متوافق مع الفِطْرة السليمة والعقلِ الطبيعي . فلم يُقدِّم القرآنُ رَدَّاً فلسفياً مُعقَّداً ، ولم يَجِئْ بأنواع الشتائم للمشركين . وإنما عَرَضَ الدليلَ الواضح على وحدانية الله وبُطلانِ عقيدة تعدُّد الآلهة . وهذا يُشير إلى عَظَمة القرآن، وقوةِ حُجَّته المضيئة التي لا يمكن مواجهة نورها بأيَّة وسيلة من الوسائل . فالحق يَعلو ، والباطلُ يَذهب أدراجَ الرياح .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٩) : ((يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أنَّ للهِ شَريكاً مِن خَلْقه ، العابدين مَعَه غَيْرَه لِيُقَرِّبهم إليه زُلفى : لَوْ كان الأمرُ كما يقولون وأنَّ معه آلهةً تُعبَد لِتُقَرِّب إلَيه وتَشفع لَدَيه ، لكانَ أولئك المعبودون يَعبدونه ويتقرَّبون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقُربة ، فاعبدوه أنتم وَحْدَه كما يَعبده مَن تَدعونه مِن دُونِه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون وساطة بَيْنَكم وبَيْنَه ، فإنَّه لا يُحِبُّ ذلك ولا يَرضاه ، بَل يَكرهه ويَأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رُسُله وأنبيائه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وقالوا أإذا كُنَّا عِظاماً ورُفاتاً أإنَّا لَمَبْعُوثونَ خَلْقاً جَديداً ﴾ [الإسراء: ٤٩] .

هذه الآيةُ تَكشف لنا طريقةَ تفكير مُشركي قُرَيش الذين لا يُؤمنون باليومِ الآخِر . قالوا مُنكِرين للبَعْث : أإذا كُنَّا عِظاماً بعد الموت وتُراباً في قُبورنا أإنَّا لَمَبعوثون يَوْمَ القِيامة ؟ . وهذا الاستفهام بمعنى الْجَحْد والإنكار والاستبعاد . لقد اسْتَبْعَدوا وُقوعَ البَعْث . وشُبهتهم هي أنَّ الإنسان إذا ماتَ ، تحلَّلت جُثته ، وتفرَّقت أجزاؤُه ، وتناثرتْ عناصرُه ، وصارَ تُراباً في التراب . فكيفَ يُمكن جَمْعُه مِن جديد وبَعْثُه مِن قَبره ؟.وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٣٨): ((قال ابن عباس: الرُّفات الغبار. مجاهد: التراب،والرُّفات ما تَكَسَّرَ وبَلِيَ مِن كُلِّ شيء كالفُتات والْحُطام)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٥٠) : ((﴿ أإنَّا لَمَبْعُوثونَ خَلْقاً جَديداً ﴾ على الإنكار ، والاستبعاد لِمَا بَيْنَ غَضاضةِ الْحَيِّ ويُبُوسةِ الرَّميم مِنَ الْمُباعَدة والْمُنافاة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ كُونوا حِجارةً أوْ حَديداً ﴾ [الإسراء : ٥٠] .

قُلْ يا مُحمَّد للمشركين تَعجيزاً لهم : كونوا حِجارةً أو حديداً في الصلابة والقوة ، لأنهما أقوى من العِظام والرُّفات . والأمرُ لَيس للإلزام ، بَل للتَّعجيز .

والمعنى : لَوْ كُنتم حِجارةً أو حديداً لأماتكم اللهُ ثُمَّ أحياكم ، لأنَّ كُلَّ شيء خاضع لِقُدرة اللهِ الْمُطْلَقةِ ، والأمرُ لا يتعلق بطبيعة المواد . فاللهُ القادرُ لا يُعْجِزُه شيء . لقد آمَنوا باللهِ _ وَفْقَ منظورهم _ ، وكفروا بالبَعْث . وهُم لا يُدْرِكون أنَّ الكُفْرَ بالبَعْثِ كُفْرٌ باللهِ تعالى .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٤) : ((فَإنْ قِيل : كيف قِيل لهم : ﴿ كُونوا حِجارةً أوْ حَديداً ﴾ ، وهُم لا يَقْدِرُون على ذلك ، فعنه جوابان : أحدهما : إنْ قَدِرْتُم على تغيير حالاتكم فكونوا حجارةً أو أشدَّ منها ، فإنَّا نُميتكم ، ونُنَفِّذ أحكامَنا فِيكم ، ومِثْل هذا قَوْلُك للرَّجل: اصعد إلى السماء فإني لاحقك . والثاني : تَصَوَّروا أنفسَكم حجارةً ، أو أصلب منها ، فإنَّا سَنُبيدكم ، قاله الأحوص)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدورِكُم فَسَيَقولونَ مَن يُعيدُنا قُلِ الذي فَطَرَكُم أوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إلَيْكَ رُؤوسَهُم ويَقولونَ متى هُوَ قُلْ عسى أن يَكونَ قَريباً ﴾ [الإسراء : ٥١] .

كُونوا مَا شِئتُم ، حتى لَوْ كُنتُم الموتَ نَفْسَه ، فأنتم مَحْكُومون بالموت والبَعْث . والموتُ هُوَ أعظمُ شيء في نفْسِ الإنسان ، ولا شَكَّ أنَّهُ أكبر مِنَ الحجارة والحديد. والإنسانُ قد تنهار عقيدتُه فَيَجْحَد وجودَ اللهِ ، ولكنْ لا يُمكنه أن يَجحد وُجودَ الموت . وصدق الشاعر إذْ يَقول : وللمَوْتِ خَلْقٌ في النُّفوسِ فَظيعُ . وعن ابن عباس _ رَضِيَ اللهُ عنهما _ في قَوْلِه تعالى : ﴿ أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدورِكُم ﴾ ، قال : ((الموت)) [178]. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤٤): ((قَوْله تعالى: ﴿ أوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدورِكُم ﴾ فِيه ثلاثة أقوال : أحدها أنَّه الموت ، قاله ابن عمر وابن عباس والحسن والأكثرون . والثاني أنَّه السماء والارض والجبال ، قاله مجاهد . والثالث أنَّه ما يَكْبُر في صُدوركم مِن كُلِّ ما استعظموه مِن خَلْقِ الله تعالى ، قاله قتادة)) اهـ .

وعن أبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((يُؤْتَى بالموتِ كَهَيئةِ كَبْشٍ أمْلَح ، فَيُنادي مُنادٍ : يا أهلَ الجنة ، فَيَشْرَئِبُّون ويَنظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ ، فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ ، فيقولون : نعم ، هذا الموت . وكلهم قد رآه . فَيُذبَح . ثم يقول : يا أهل

(١٧٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٩٤) برقم (٣٣٧٧) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

الجنة ، خلود فلا مَوت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت)). ثم قرأ : ﴿ وَأَنذِرهم يومَ الحسرة إذ قُضِيَ الأمر وهُم في غَفلة وهُم لا يؤمنون ﴾ [مريم : ٣٩][179].

مِن خلال هذا الحديث تتَّضح حَسرةُ الكافرين الخالدين في النار . فقد أضاعوا الفرصةَ الذهبية في الدنيا لكي ينالوا النعيمَ الأبديَّ في الآخرة ، فَخَسِروا الدَّارَيْن ، خُصوصاً الآخرة . وقد أحسنَ اللهُ إليهم في الدنيا ، فأعطاهم العقولَ والنِّعَمَ الجزيلة ، لكنهم أساؤوا إلى أنفسهم ، فلم يُنظِّفوا قلوبَهم لاستقبال الهداية الربانية، فَرَكنوا إلى الحياة الدنيا، واطمأنوا بها، ولَم ينظروا إلى ما وراءها . وفي زاد المسير (٥/ ٢٣٤) : ((قال المفسِّرون : فهذه هي الحسرة ، إذا ذُبح الموت ، فلو مات أحد فرحاً مات أهل الجنة ، ولو مات أحد حزناً مات أهل النار)) اهـ .

والموتُ مخلوقٌ مثل الإنسان، له أجلٌ محدَّد . وبعد أن يدخل المؤمنون الجنةَ ، والكافرون النارَ، يُذبَح الموتُ بأمر الله تعالى ، لأنَّ الموت حينئذ يَفقد معناه . ففي الآخرة (الدار الباقية) لا يوجد موتٌ. إمَّا نعيم أبديٌّ أو جحيم أبدي. كما أن الموت هو لحظة فاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة،حيث يُنقَل المرء من العمل إلى الحساب،ومِنَ الزَّرْع إلى الحصاد، ومِنَ الامتحان إلى النتيجة. وبالتالي تظهرُ النتائج في الدار الآخرة ويفقد الموتُ جدوى وجوده ، وتنتهي مُهمته ، فيُذبَح .

﴿ فَسَيَقولونَ مَن يُعيدُنا ﴾ . سيقول المشركون الْمُنكِرون للبَعْث : مَن يُعيدنا إلى الحياة إذا كُنَّا عِظاماً ورُفاتاً أو حِجارةً أو حديداً أو كُنَّا الموْتَ نَفْسَه ؟ . ﴿ قُلِ الذي فَطَرَكُم أوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . الذي خَلَقَكم مِنَ العَدَم مِن غَير مثالٍ سابقٍ . والقادرُ على الإنشاءِ قادرٌ على الإعادةِ ، بَل هِيَ أهْوَن .

وقال أبو السُّعود في تفسيره (٥/ ١٧٧) : ((قُل لَهم تحقيقاً للحق ، وإزاحةً للاستبعاد ، وإرشاداً لهم إلى طريقة الاستدلال : ... يُعيدكم القادر العظيم الذي فَطَرَكم اخترعكم أوَّل مرة مِن غَير مِثال يَحتذيه ، ولا أسلوب ينتحيه ، وكُنتم تراباً ما شَمَّ رائحةَ الحياة . ألَيْسَ الذي يَقْدِر على ذلك بقادر على أن يُعيد العِظامَ الباليةَ إلى حالتها المعهودة ؟، بَلى، إنه على كل شيء قدير)).

﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إلَيْكَ رُؤوسَهُم ويَقولونَ متى هُوَ ﴾ . فَسَيُحَرِّكون رُؤوسَهم تَعَجُّباً واستهزاءً إذا قُلْتَ لهم ذلك [180]. وقال الواحدي في الوجيز (١/ ٦٣٧) : ((يُحَرِّكونها تكذيباً لهذا القَول)).

---

(١٧٩)متفق عليه.واللفظ للبخاري(٤/ ١٧٦٠)برقم(٤٤٥٣).ومسلم(٤/ ٢١٨٨)برقم(٢٨٤٩).

ويَقولون: متى هذا البَعْثُ ؟. استبعاداً له وَنَفياً لِوُقوعه. ﴿ قُلْ عسى أن يَكونَ قَريباً ﴾ . هُوَ قريبٌ ، فاحذروا ذلك، واستعِدُّوا له.وكلُّ ما هُوَ آتٍ قريبٌ، وكلُّ ما هُوَ آتٍ آت، لا يَتأخَّر عن موعده ، ولا شَكَّ فيه . و " عسى " مِنَ اللهِ حقٌّ وصِدْقٌ ، وواقعٌ لا مَحالة . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٩٨) : ((لأنَّ " عَسى " مِنَ اللهِ واجبٌ)) اه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَقولُ الإنسانُ أإذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيَّاً ﴾ [مريم : ٦٦] (181).

يَقول الكافرُ الذي لا يُصَدِّق بالبَعْثِ : أإذا مِتُّ وصِرْتُ تراباً لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيَّاً مِن قَبري بعد مَوتي ؟ . وهذا الاستفهام إنكاري ، يَحمل معنى السُّخرية ، والتكذيب بالبَعْث ، واستبعاد الحياة بعد الموت . وبعبارة أخرى ، إنَّ هذا الاستفهام بمعنى النَّفْي : لا أحيا بعد الموت .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦) : ((﴿ ويَقولُ الإنسانُ ﴾ المراد بِه الجِنس بِأَسْرِه ، فإنَّ الْمَقول مَقول فِيما بَيْنَهم ، وإنْ لَم يَقُلْه كُلُّهم ، كَقَولك : بَنو فُلان قَتلوا فلاناً ، والقاتل واحد منهم. أو بعضهم المعهود وهُم الكَفَرة)) اه.واللام في" لَسَوْفَ " للمُبالَغة في الإنكار والاستبعاد.

إنَّ سببَ إنكارِ البَعْثِ نسيانُ الإنسانِ لأصْلِه، وعدم التفكرِ في مساره التكوينيِّ ومصيره الحتميِّ ، وغياب الأسئلة المركزية عن ذِهنه : مِن أيْنَ جاء ؟ . كيفَ جاءَ ؟ . أيْنَ نهايته ؟ .

---

(١٨٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٥) : ((قال قتادة : يُحَرِّكُونها تكذيباً واستهزاءً . قال الفرَّاء : يقال : أَنْغَضَ رَأْسَه ، إذا حَرَّكه إلى فوق وإلى أسفل . وقال ابنُ قُتَيبة : المعنى يُحَرِّكُونها كما يُحرِّك الآيِسُ مِنَ الشيء والْمُسْتَبْعِد له رأسَه)) اه .

(١٨١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٥٢): ((سبب نزولها أنَّ أُبَيَّ بن خلف أخذ عَظْماً بالياً فَجَعَلَ يَفُتُّه بيده، ويُذَرِّيه في الريح ، ويقول: زعم لكم محمد أنَّ الله يَبعثنا بعد أن نكون مِثْلَ هذا العظم البالي، فَنَزلت هذه الآية،رواه أبو صالح عن ابن عباس. وروى عطاء عن ابن عباس أنَّه الوليد بن المغيرة.
قَوْلُه تعالى : ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيَّاً ﴾ إنْ قِيل : ظاهره ظاهر سؤال ، فأين جوابه ؟ . فَعَنه ثلاثة أجوبة ذكرها ابن الأنباري . أحدها أنَّ ظاهر الكلام استفهام ، ومعناه معنى جَحْد وإنكار ، تلخيصه : لَسْتُ مَبعوثاً بعد الموت . والثاني أنَّه لَمَّا استفهمَ بهذا الكلام عَن البعث ، أجابه اللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ بِقَوْله : ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسانُ ﴾ ، فهو مشتمل على معنى نعم ، وأنتَ مبعوث . والثالث أنَّ جواب سؤال هذا الكافر في [يس : ٧٨] عِندَ قَوْلِه تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لنا مَثَلاً ﴾ ، ولا يُنْكَر بُعْد الجواب ، لأنَّ القرآنَ كُلَّه بِمَنْزلة الرسالة الواحدة ، والسُّورتان مكيتان)) اه .

ويُقدِّم القرآنُ البُرهانَ الساطع على حَقيقة البَعْث. فالإنسان الذي يتساءل مُسْتَنْكِراً ومُسْتَبْعِداً أن يُبعَث بَعْدَ مَوته ، جاءته الْحُجَّةُ الباهرة بأنَّ الذي أوجدَ الإنسانَ مِنَ العَدَمِ قادرٌ على إعادته .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإنسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : ٦٧] (182).

الهمزة للإنكار التَّوبيخي . أَوَلا يتذكر الكافرُ الذي يُنكِر البَعْثَ ، ويَجحد قُدرةَ اللهِ على إحيائه بَعد مَوته ، أنَّ اللهَ خَلَقَه مِنَ العَدَم ، وجَعَلَه بشراً في أحسن صورة ، فيستدلَّ بِبَدْءِ خَلْقِه على الإعادة . وبَدْءُ الْخَلْق أعظمُ لأنَّه إيجاد مِنَ اللاشيء بِلا مِثال سابق، أمَّا إعادةُ فهي إحياء إنسان كان مَوجوداً وله كيان وصُورة. والقادرُ على إيجاد الإنسان مِنَ العَدَمِ قادرٌ على إحيائه بَعد مَوته ، وإعادة تَكوينه بعد فَنائه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٤٩٠) : ((أي : ألا يتفكر هذا الجاحدُ في أول خَلْقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجبُ وأغربُ مِنَ الإعادة ، لأن النشأة الأولى هي إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعاً واختراعاً ، وَلَم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأمَّا النشأة الآخِرة فقد تقدَّم عليها النشأة الأُولى ، فكانت كالمثال لها)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٩٠٣) : عن أبي هريرة ــ رضي اللهُ عنه ــ عن النبيِّ ﷺ قال : ((قال اللهُ : كَذَّبَني ابنُ آدم، وَلم يكن له ذلك، وشَتَمني ولم يكن له ذلك. فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فَقَوله :
لَن يُعيدني كَما بَدأني ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ من إعادته ...)) (183).

---

(١٨٢)((قال بعض العلماء: لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حُجَّة في البَعْث على هذا الاختصار لَمَا قَدِروا عليها ، إذ لا شَكَّ أنَّ الإعادة ثانياً أَهْوَن مِنَ الإيجاد أولاً)) [التفسير الكبير للفخر الرازي (٢١/ ٢٤١)].

(١٨٣) في فَيض القدير (٤/ ٤٧٢): ((قال القاضي: إشارة إلى بُرهان تحقُّق الْمَعاد، وإمكان الإعادة. وهو أنَّ ما يتوقف عليه تحقق البدن مِن مواده وأجزائه وصورته ، لَو لَم يَكُنْ وجوده ممكناً لَمَا وُجِدَ أولاً ، وقد وُجد . وإذا أمكنَ لَم تمتنع لِذَاته وجودُه ثانياً ، وإلا لزم انقلاب الْمُمكِن لذاته مُمتنِعاً لذاته وهو مُحال. وتنبيه على تمثيل يُرشد العاميَّ ، وهو ما يُرى في الشاهد أنَّ مَن عَمِدَ إلى اختراع صَنعة لَم يَرى مِثْلَها صَعُبَ عليه ذلك وتعب ، وافتقرَ إلى مُكابَدة أفعال ، ومُعاوَنة أعوان ، ومرور أزمان ، ومعَ ذلك كثيراً لا يتمُّ له الأمر، وَمَن أراد إصلاحَ مُنكسِر وإعادة مُنْهَدِم هانَ عليه،فيا معشر الغُواة أتُحيلون إعادة أبدانكم

فالبعثُ ثابتٌ نقلاً وعقلاً . وقد خاطب اللهُ الناسَ بما يَعْقِلون ، فَذَكَرَ _ سُبحانه _ أنَّ البعث أهْوَن وأيْسَر مِن بَدْء الْخَلْق _ وَفْقَ التفكير الإنساني _ . أمَّا اللهُ فَكُلُّ شيء عِندَه هَيِّنٌ فلا يُعجِزه شيء ، ولا تتفوَّق على قُدرته _ سُبحانه _ أيَّةُ قُدرة . فالبَداءةُ والبَعْثُ أمران خاضعان لقضاء الله ومشيئته . ﴿ وإذا قَضى أَمراً فإنما يقول له كُن فَيَكون ﴾ .

وَلَوْ قُلنا لشخصٍ عادي : أيُّهما أسهل : أن تبنيَ بَيتاً على أرضٍ خالية أم تَقوم بعملية ترميم لِبَيْتٍ مبنيٍّ مُسبقاً ؟ . لا شَكَّ أنَّ كُلَّ عاقل يعرف الإجابة التي لا تَحتاج إلى ذكاء .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وقالوا لَوْلا يَأتِينا بآيةٍ مِن رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأتِهِم بَيِّنةُ ما في الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ [طه : ١٣٣][184].

يَخترع المشركون الوسائل للتهرب من استحقاقات الإيمان ، وها هُم يَقترحون أن يَأتِيَ محمد بِمُعْجِزةٍ مِثْلَ عصا موسى ، أو ناقة صالح ، أو يُحيي الموتى كعيسى . إنَّهم يُريدون علامةً دالةً على صِدْق محمد ، وهُم يُحدِّدون طَبيعةَ هذه العلامة . وهذا يُشير إلى غُرورهم وتكبُّرهم وعِنادهم ، إذْ إنهم لَم يَقتنعوا بالآيات الكثيرة التي جاء بها النبيُّ ﷺ ، بَل يُريدون آيةً حَسَبَ اقتراحهم وطَلَبهم .

وكيفَ يَطلبون آيةً ، وقد جاءهم القُرآنُ ، وهو الآيةُ الباهرةُ ، والْحُجَّةُ الدامغةُ ، والْمُعجِزةُ العُظمى. والقُرآنُ هو الحاكمُ على الكُتب السماوية ، وبَيانُ ما في التَّوراة والإنجيل والزَّبور . وقد أخبرَ اللهُ في كُتبه بأحوال الأمم السابقة التي طَلَبت آياتٍ ثُمَّ كَفروا بها، فحلَّ عليهم العذابُ

؟، وإنكم مُعترِفون بجواز ما هو أصعب منها بالنِّسبة لِقَدْرِكم ، وأمَّا بالنِّسبة للهِ فَيَستوي عِندَه نُكوسُ بَعوضٍ طَيَّار ، وتخليقُ فَلَكٍ دَوَّار)) اهـ .

(١٨٤) ((تَعَنُّتاً وعِناداً، فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أُم الْمُعجِزات وأعظمها وأبقاها ، لأن حقيقة الْمُعجِزة اختصاص مُدَّعي النُّبُوَّة بنوعٍ مِنَ العِلْم ، أو العمل على وجه خارق للعادة. ولا شك أنَّ العِلْم تَأَصُّلُ العمل، وأعلى مِنه قَدْراً وأبقى أثراً ، فكذا ما كان من هذا القبيل ، ونبَّههم أيضاً على وجه أبْيَن مِن وُجوه إعجازه المختصة بهذا الباب فقال : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية ، فإن اشتمالها (أي البَيِّنة) على زُبدة ما فيها من العقائد والأحكام الكُلِّية معَ أن الآتي بها أُمِّيٌّ لَم يرها ولَم يتعلم مِمَّن عَلِمها إعجازٌ بَيِّن . وفيه إشعار بأنه كما يدل على نُبُوَّته ، بُرهان لِمَا تَقَدَّمه من الكتب مِن حيث إنَّه مُعجِز ، وتلك ليست كذلك ، بل هي مُفتقِرة إلى ما يَشهد على صِحَّتها)) [تفسير البيضاوي (١/ ٧٩)] .

الأليمُ. وعلى مُشرِكي العرب أن يَأخذوا العِبرة مِن تلك الأحداث ، ولا يَسيروا في طريق الأمم الكافرة ، لئلا يَتعرَّضوا للعذاب . والقُرآنُ نَزَلَ على رَجُلٍ أُمِّيٍّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، ولَم يُعرَف عنه أنَّه كان طالباً للعِلْم . واشتمل القُرآنُ على أخبار الأمم السابقة ، ووافقَ الكتبَ السابقة في مواضع كثيرة ، وخالَفَها في مواضع أُخرى، وكشفَ أباطيلَ أهل الكتاب. وهذا لَيس غريباً ، فالقُرآنُ هو الْمُهَيْمِن على الكُتب السابقة ، فما وافقه كانَ حقًّا ، وما خَالَفَه كان باطلاً .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ٢٣٤) : ((يُريد كفار مكة : أي لَوْلا يأتينا محمد بآية تُوجِب العِلْم الضروري ، أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا ، أو هَلا يَأتينا بالآيات التي نقترحها نحن كما أتى الأنبياء مِن قَبْلِه. قَوْله تعالى : ﴿ أوَلَمْ تَأتِهِم بَيِّنةُ ما في الصُّحُفِ الأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدِّمة ، وذلك أعظم آية ، إذْ أَخبرَ بما فيها ... وقِيل : أوَلَم تأتهم الآية الدالة على نُبُوَّته بِما وجدوه في الكتب المتقدِّمة مِنَ البِشارة . وقِيل: أوَلَم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترَحوا الآياتِ ، فما يُؤَمِّنهم إن أتَتْهُم الآياتُ أن يكون حالهم حال أولئك ؟)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء : ٢٢] .

لَوْ كانَ في السماوات والأرض آلهةٌ غَيْرُ اللهِ لَفَسَدَ نظامُ الكَوْن ، واختلَّ الوجودُ ، وذلك لِمَا يَحدث بينها مِن تنازُع وتضاد ومُنافَسة . فالشُّركاءُ يَتنافسون بأهوائهم وإراداتهم . وَلَوْ كانَ هناك إلَهان لانهار النظام ، وسَقَطَ التَّدبير . فإذا أرادَ الأوَّلُ أمراً ما ، وأرادَ الثاني أمراً غَيْرَه ، لكانَ أحدهما عاجزاً . والعاجزُ لا يَكون إلهاً . ولا يوجد مَلِكان في دولة واحدة ، ولا يوجد جسدٌ برأسَيْن [185]. واللهُ وَحْدَه له الأُلوهية والرُّبوبية . والآيةُ تُبطِل عقيدةَ تعدُّد الآلهة بالدليل الواضح

---

(١٨٥) قال الصابوني في صفوة التفاسير (٩/ ٧) : ((قال المفسرون : في الآية دليلٌ على التمانع الذي أورده الأصوليون ، وذلك أنَّا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخرُ نقيضَه ، فإمَّا أن تُنفَّذ إرادة كُلٍّ منهما، وذلك مُحال لاستحالة اجتماع النقيضَيْن، وإمَّا أن تُنفَّذ إرادة واحد منهما دون الآخر، فيكون الأولُ الذي تُنفَّذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجزٌ فلا يصلح أن يكون إلهاً)) اهـ. وقال القنوجي في أبجد العلوم (٢/ ١٩٣) : ((واعتنى الأصوليون بما فيه (أي القُرآن) من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مِثْل قَوْله تعالى : ﴿ لَوْ كانَ فِيهما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ، ووجوده ، وبقائه ، وقِدَمِه ، وقُدرته ، وعِلْمه ، وتَنْزيهه عمَّا لا يَليق بِه ، وسَمَّوْا هذا العِلْم بـ : أصول الدِّين)) .

الْمُوجَز ، فلا فلسفة فِيه ولا تَعقيد . وبما أنَّ السماوات والأرض لَم تَفْسَدَا ، فهذا دليلٌ على عدم وُجود آلهةٍ مُتعدِّدة ، بَل هُوَ إلهٌ واحد.

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣١٤) : ((لَخَرَبَتا وهلك مَن فيهما بوجود التمانع مِن الآلهة ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر ، لَم يَجْرِ على النظام)) .

والكَوْنُ مبنيٌّ وَفْقَ نظامٍ واحدٍ مُتناسِق لا خَلَل فِيه . والنظامُ الواحدُ يُشير إلى وَحْدانية الصانع سُبحانه وتعالى .

وقال المناوي في فَيض القدير (١/ ٥٠٦) : ((وَلَوْلا الوَحدانيةُ لَمَا تكوَّنت السماواتُ والأرضُ على هذا الوجه الْمُحْكَم الْمُتقَن ، وَلَكَانت فاسدةً كبناء بغير أساس)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١١/ ٢٤٦) : ((قال الكِسَائِيُّ وسِيبَوَيْه : ﴿ إلا ﴾ بمعنى " غَيْرُ " ، فلمَّا جُعلت " إلا " في موضع " غَيْرُ " أُعْرِبَ الاسم الذي بَعْدَها بإعراب " غَيْرُ " ، كما قال :

وَكُلُّ أخٍ مُفَارِقُهُ أَخُوه   لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفَرْقَدان)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحقُّ أهواءَهُم لَفَسَدَتِ السماواتُ والأرضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] (186).

لَوْ فَعَلَ اللهُ كما يَشتهي المشركون ، وأجرَى الأحكامَ حَسَبَ أهوائهم وأفكارهم ، لانهارَ نظامُ الكَون ، وسَقَطَ معنى الوجود ، وانتشرَ الفسادُ في السماوات والأرض ، وفَقَدَ كُلُّ شيء معناه . وذلك لفساد أهوائهم ، وتضارُب آرائهم . وأهواءُ الناسِ مُختلفة ومُتضارِبة ومُتعدِّدة ، أمَّا طريقُ الحق فهو طريقٌ مستقيمٌ واحدٌ ، لا اعوجاج فِيه ولا تضاد . والسماواتُ والأرضُ خُلقتْ دلالةً على وَحدانية اللهِ تعالى . وَلَوْ رَضِيَ اللهُ بِشِرْكِ الكافرين ، لصارت السماوات والأرض خراباً .

وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣٣) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَلَوْ عَمِلَ الرَّبُّ تعالى ذِكْرُه بما يَهوى هؤلاء المشركون، وأجرى التدبير على مشيئتهم وإرادتهم، وترك الحق الذي هُم له كارهون،

(١٨٦) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٨٤): ((في المراد بالحق قَولان: أحدهما أنَّه اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قاله مجاهد وابن جُرَيج والسُّدي . والثاني أنَّه القُرآن ، ذَكَرَه الفَرَّاء والزَّجاج . فعلى القَول الأول يكون المعنى: لَوْ جَعل اللهُ لنفْسه شريكاً كما يُحِبُّون.وعلى الثاني: لَوْ نَزَلَ القرآنُ بِما يُحِبُّون مِن جَعْلِ شريك للهِ لَفَسدت السمواتُ والأرضُ وَمَن فِيهنَّ)) اهـ .

لَفَسَدَت السماواتُ والأرضُ ومَن فِيهنَّ ، وذلك أنهم لا يَعرفون عواقب الأمور ، والصحيح من التدبير والفاسد ، فَلَوْ كانت الأمورُ جارية على مشيئتهم وأهوائهم معَ إيثار أكثرهم الباطل على الحق ، لَم تَقِرَّ السماواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ مِن خَلْقِ الله ، لأنَّ ذلك قام بالحق)) اهـ .

﴿ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ . يعني : ملائكة السماء ، والإنس والجِن (الثَّقلان) في الأرض .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وما كانَ مَعَهُ مِن إلَهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُم على بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

يُنَـزِّهُ اللهُ نَفْسَهُ عن الولد والشَّريك. فهو سُبحانه لَيس له ولد . فالولدُ يَحمل صِفاتِ أبيه وخصائصه. واللهُ لا يُماثِلُه أحد ، ولا يُشْبِهه شيء . ولا يُعقَل أن يَتشابه الخالقُ معَ المخلوق . ولا يمكن أن يتساوى الصانعُ معَ المصنوع . وهذا يَدحض عقيدةَ اليهود الذين يَزعمون أنَّ عُزَيراً ابْنُ اللهِ ، ويَدحض عقيدةَ النصارى القائمة على ادِّعاء وجود ولد لله ، وأنَّ المسيحَ هُوَ ابنُ اللهِ . كما يَدحض عقيدة المشركين الذين يَزعمون أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ تعالى. وقال النسفي في تفسيره (٣/ ١٢٩): ((﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لأنَّه مُنَزَّهٌ عَن النَّوعِ والجِنس ، وولدُ الرَّجل مِن جِنسه)) .

وفي الحديث المتعلِّق بيوم القِيامة [187]: ((فَيُدْعَى اليهودُ ، فَيُقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ ، قالوا : كُنَّا نَعبد عُزَيراً ابْنَ اللهِ، فَيُقال لهم : كَذَبْتُم ، مَا اتَّخذ اللهُ مِن صَاحبةٍ ولا وَلَدٍ)). والأمر لَم يتوقف عند اليهود، بَل إن النصارى سائرون في نفْس الطريق. وفي نفْس الحديث : ((ثُمَّ يُدْعَى النصارى ، فَيُقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ ، قالوا : كُنَّا نَعبد المسيحَ ابْنَ اللهِ ، فَيُقال لهم : كَذَبْتُم ، ما اتَّخذ اللهُ مِن صَاحبةٍ ولا وَلَدٍ)) .

﴿ وما كانَ مَعَهُ مِن إلَهٍ ﴾ . لا إلهَ إلا اللهُ . وَحْدَهُ _ سُبحانه وتعالى _ الْمُتصرِّف في هذا الكَون، لا شَريك له في مُلْكِه وخَلْقِه ، ولا تُصْرَف العبادةُ إلا لَهُ ، ولا أحد يُشاركه في الأُلوهية والرُّبوبية. لَيس لَهُ نَظير . لا نِدٌّ له ولا ضِدٌّ . تَنَزَّهَ عن الشُّركاء والأضداد .

﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ . لَوْ كانَ مَعَ اللهِ إلهٌ لانفردَ كُلُّ إلهٍ بالمخلوقاتِ التي خَلَقَها ، فَتَمَيَّزَ مُلْكُ كُلِّ واحدٍ مِنهم عَن الآخَر ، وحَمَى كُلُّ إلهٍ مَخلوقاتِه ، وَمَنَعَ الإلَهَ الآخَرَ مِن السيطرة عليها. وهذا يعني أنَّ تَعَدُّدَ الآلهةِ تَدميرٌ لنظام الكون ، وإفسادٌ للحياة ، ونَشْرٌ للفوضى في الوجود. وبما أنَّ الكَوْنَ يَسير وَفْقَ نظامٍ متناسق ومتكامل ، لا خَلَل فِيه ولا اضطراب ، فهذا يُشير

---

(١٨٧) انظر هذا الحديث المتفق عليه بِطُوله . البخاري (٤/١٦٧١) ، ومسلم (١/ ١٦٧) .

إلى أنَّ الصانعَ واحدٌ . إذْ إنَّ وَحدة النظام الكَونِيِّ تدل _ بلا شَك _ على وَحدانية الخالق . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٤٨٨) : ((... ﴿ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي : لانفردَ بِخَلْقِه ، وَلَم يَرْضَ أن يُضاف خَلْقُه وإنعامُه إلى غَيره ، وَلَمَنَعَ الإلهَ الآخَرَ عن الاستيلاء على ما خَلَق)) .

﴿ وَلَعَلا بَعْضُهُم على بَعْضٍ ﴾ . لَوْ تَعَدَّدت الآلهةُ ، لَحَدَثَ التنافس والْمُغالَبة بينهم ، وعلا القويُّ على الضعيف وغَلَبَه، كعادة ملوك الدنيا في النِّزاعات، وسَعْيهم إلى الهيمنة والسيطرة وبَسْط النفوذ . فالقويُّ لا يَقبل أن يَرتفع شأن الضعيف ، والضعيف لا يَصلح أن يَكون إلهاً . وهذه حُجَّةٌ قُرآنيةٌ باهرة ومُوجَزة في دَحْض خرافة تعدُّد الآلهة. وهذه الْحُجَّةُ واضحة ومَقبولة للعقل البشري ، بعيداً عن اصطلاحات الفلاسفة ، ونظرياتِ العلماء ، وتَعقيد الأفكار . وبما أنَّ الكَوْنَ متناسق ومُنظَّم ، ولا أثرَ فِيه للنِّزاعات والْمُغالَبة واستقلال الممالك، فهذا دليلٌ على أنَّ الإلهَ واحدٌ مُسيطِر على كُلِّ شيء ، ولا شَريك له . فمثلاً ، لا نرى الكواكب تصطدم ببعضها البعض ، ولا تُوجَد مشكلات في طريقة عمل الشمس والقمر ، أو تناقض في تَوقيت ظُهورهما ، ولا نرى مُنافَسةً للسيطرة على المجرَّات والسماوات ... إلخ .

والجديرُ بالذِّكر أنَّ نَفْيَ تَعدُّد الآلهةِ هو نَفْيٌ للوَلَد ، لأنَّ الولدَ يُنازِع الأبَ في الْمُلْك مُنازَعة الشريك . وهذا كُلُّه يدل على أنَّ الإلهَ واحدٌ لا شَريك له ، وأنَّ هذا الإلهَ هُوَ اللهُ ، فاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الذي أرسلَ الرُّسُلَ إلى الناس، وأنزلَ عَلَيهم كُتُبَه السماوية. وَلَوْ كانَ الإلهُ غَيْرَ اللهِ، فلماذا لَم يُرشِد الناسَ إلى معرفته وَيُعَرِّفْهم بكلامه وصِفاته وأنبيائه وملائكته ؟ . وهذا يدل على أنَّ الإلهَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريك له.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٤٠) : ((ثُمَّ لَكَانَ كُلٌّ منهم يَطلب قَهْرَ الآخَر وخِلافَه ، فَيَعلو بعضُهم على بعض . والمتكلِّمون ذَكَروا هذا المعنى ، وعَبَّروا عنه بدليل التَّمانع ، وَهُوَ أنَّه لَوْ فُرِضَ صانعان فصاعداً ، فأراد واحدٌ تحريكَ جسم ، والآخرُ أراد سُكونه ، فإن لَم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزَيْن ، والواجب لا يكون عاجزاً، ويُمتنَع اجتماع مُرادَيْهما للتَّضاد. وما جاءَ هذا الْمُحال إلا مِن فَرْض التَّعدد ، فَيَكون مُحالاً . فأمَّا إنْ حَصل مُرادُ أحدهما دون الآخَر ، كان الغالبُ هُوَ الواجبَ ، والآخَرُ المغلوبُ مُمكِناً ، لأنه لا يَليق بِصِفة الواجب أن يكون مقهوراً)) .

﴿ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ . تَنَزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عَن الولد والصاحبة والشريك ، فهو سُبحانه الغنيُّ لا يَحتاج إلى شيء ، وكلُّ شيء يَحتاج إلَيه . وهذا التَّنْزيه لَيس شعاراً مُفرَغاً مِنَ

المعنى. فاللهُ قَدَّمَ الدليلَ على ذلك قَبْلَ أن يُنَزِّهَ نَفْسَه. وهذا الدليلُ يُخاطب العقلَ بلا شتائم ولا جَعجعة ولا أُطروحات فلسفية . وقال الطبري في تفسيره (٩/ ٢٣٩) : ((وقَوْله : ﴿ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُون ﴾ يَقول تعالى ذِكْرُه تَنْزيهاً للهِ عمَّا يَصِفه به هؤلاء المشركون مِن أنَّ له وَلداً، وعمَّا قالوه مِن أنَّ له شريكاً، أو أنَّ مَعَه في القِدَم إلهاً يُعبَد _ تبارك وتعالى _)) اهـ .

وقال ابن القَيِّم في الصواعق الْمُرسَلة (٢/ ٤٦٣و٤٦٤) : ((فإنَّ الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً يُوصِل إلى عابده النَّفْعَ ، ويَدفع عنه الضَّر ، فلوْ كان معه سُبحانه إله لكان له خَلْق وفِعْل، وحينئذٍ فلا يرضى بِشِركة الإله الآخَر معه، بل إن قَدِرَ على قَهره وتفرُّده بالإلهية دُونَه فَعَل، وإن لَم يَقْدِر على ذلك انفرد بِخَلْقِه،وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بممالكهم، إذا لَم يَقْدِر الْمُنفرِد على قَهْر الآخر والعُلُوِّ عليه . فلا بد من أحد أمور ثلاثة : إمَّا أن يَذهب كل إله بِخَلْقه وسُلطانه ، وإمَّا أن يَعلوَ بعضُهم على بعض ، وإمَّا أن يكون كُلُّهم تحت قَهر إلهٍ واحد وملك واحد ، يتصرف فيهم ، ولا يتصرفون فيه ، ويَمتنع مِن حُكْمهم عليه ، ولا يمتنعون من حُكمه عليهم ، فيكون وَحْدَهُ هو الإله الحق ، وهُم العبيد المربوبون المقهورون . وانتظام أمر العالَم العُلوي والسُّفلي ، وارتباط بعضه ببعض ، وجَرَيانه على نظام مُحْكَم ، لا يَختلف ، ولا يَفْسُد ، مِن أدل دليل على أنَّ مُدَبِّرَه واحدٌ ، لا إلهَ غَيْرُه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَوَلَم يَكُن لَهُم آيةً أن يَعْلَمَهُ عُلماءُ بني إسرائيل ﴾ [الشُّعراء : ١٩٧] .

الهمزة للإنكار . والمعنى : ألَمْ يَكُنْ للمُشركين علامةٌ واضحةٌ تُشير إلى صِدْقِ القُرآنِ أن يَعلمه علماءُ بني إسرائيل [188]، والمقصود هُم العُدول مِنهم الذين يَعترفون بذلك ولا يَكتمونه، كعبد اللهِ ابن سلام وأصحابه ، وهؤلاء كانوا يَقولون إنَّ محمداً ﷺ مَوجود في كُتبهم .

إنَّ وَصْفَ القُرآنِ ووَصْفَ محمد ﷺ مَذكوران في كُتب اليهود التي كان يَدرسها عُلماءُ بني إسرائيل . ومعرفةُ هؤلاء العلماء بحقيقة القُرآنِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ دليلٌ واضحٌ وعلامةٌ صادقةٌ على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ ، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ . وقد صارَ عِلْمُ أهلِ الكتابِ وشهادتُهم دليلاً ، وحُجَّةً على المشركين . وذلك لأنَّ العرب الوثنيين كانوا يَنظرون إلى اليهود نظرةَ تعظيم ، ويَعتبرونهم في مرتبة عُليا بِوَصْفهم أهلَ كتابٍ . فالعربُ عُبَّادُ الأصنامِ كانوا مُصابين بِعُقدة النَّقْصِ ، ويَشعرون

---

(١٨٨) في تفسير البغوي (١/ ١٢٩) : ((قال عطية : كانوا خمسة : عبد الله بن سلام ، وابن يامين، وثعلبة ، وأسد ، وأُسَيد)) .

بِدُونِيَّتِهم أمامَ أهل الكتاب ، لأنَّ العربَ أُمَّةً جاهلةً تَعبد الأصنام ، وَدِينها وَضْعِيٌّ وَثنيٌّ ، أمَّا أهل الكتاب فَيَعبدون اللهَ ولَدَيهم كتابٌ سماويٌّ _ معَ كُلِّ انحرافاتهم _، ويُمارسون القراءةَ والكِتابةَ ، ويَدرسون الكُتبَ الدِّينية . وقد كان العربُ يَسألون أهلَ الكتاب عن كثيرٍ مِنَ القضايا باعتبارهم القُدوة العِلْمية والمرجعية الفكرية ، لذلك صارت شهادةُ أهل الكتاب حُجَّةً على المشركين .

وفي فتح القدير (٤/ ١٦٨) : ((قال الزَّجاج : ﴿ أن يَعْلَمَهُ ﴾ اسمُ ﴿ يَكُن ﴾ ، و﴿ آيةً ﴾ خَبَرُه . والمعنى : أوَلَم يكن لهم عِلْمُ عُلماءِ بني إسرائيل أنَّ محمداً نبيٌّ حقٌّ علامةً ودلالةً على نُبُوَّته ، لأنَّ العلماء الذين آمنوا مِن بَني إسرائيل ، كانوا يُخبِرون بوجود ذِكْرِه في كُتبهم)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١٣/ ١٢٥) : ((وقال ابن عباس : " بَعث أهلُ مكة إلى اليهود ، وهُم بالمدينة يسألونهم عن محمد _ عليه السلام _ فقالوا : إنَّ هذا لَزَمانُه ، وإنَّا لَنَجِدُ في التَّوراة نَعْتَه ، وصِفَتَه " . فيرجع لفظ العلماء إلى كُلِّ مَن كان له عِلْمٌ بِكُتبهم ، أسلمَ أو لَم يُسْلِمْ ، على هذا القول . وإنما صارت شهادةُ أهل الكتاب ، لأنهم مَظنون بهم عِلْم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وما كُنتَ بِجَانبِ الغَرْبِيِّ إذْ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأمرَ وما كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِين﴾ [القَصَص: ٤٤][189].

وما كُنتَ يا مُحمَّد بجانبِ الجبل الغربِيِّ (وهو المكان الذي ناجى فِيه مُوسى ﷺ رَبَّهُ) ، حِينَ أوحى اللهُ إلى موسى بالنُّبُوَّة، واختاره رَسُولاً إلى فِرْعَوْن وقَوْمه، وما كُنتَ شاهداً على ذلك الأمر، وما كُنتَ مِنَ الحاضرين . وهذا دليلٌ على صِدْقِ النبيِّ محمد ﷺ ، وصِحَّةِ نُبُوَّته . فمحمدٌ ﷺ أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب ، وَلَم يُعرَف عنه أنَّه كان طالباً للعِلْم . ولم يكن حاضراً معَ مُوسى ﷺ في ذلك الموقف . فَكَيْفَ عَلِمَ بالأمر الذي تَمَّ في الماضي البعيد ؟ . إنَّهُ الوَحْيُ الإلهيُّ ولا شَيْءَ غَيْرُه . لقد أخبرَ اللهُ محمداً ﷺ بهذا الأمر لِيَكون دليلاً على صِحَّة نُبُوَّته . والأمورُ الغَيْبِيَّةُ لا تُعْرَف إلا بالوَحْي .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٢٥٨) : ((﴿ إذْ قَضَيْنا إلى مُوسَى الأمرَ ﴾ ، إذْ كَلَّفْناه أمْرَنا وَنَهْيَنا ، وألزمناه عَهْدَنا . وقِيل : أي إذْ قضينا إلى موسى أمْرَك وذَكَرْناك بِخَير ذِكْر ، وقال ابن عباس : ﴿ إذْ قَضَيْنا ﴾ أي : أخْبَرْنا أنَّ أُمَّةَ محمدٍ خَيْرُ الأمم)) اهـ .

---

(١٨٩) ((يقول تعالى مُنَبِّهاً على بُرهان نُبُوَّة محمد ﷺ، حيث أُخْبِرَ بالغُيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراءِ لِمَا تقدَّم،وهو رَجل أُمِّيٌّ لا يقرأ شيئاً من الكتب، نشأ بين قوم لا يَعرفون شيئاً من ذلك)).

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلَوْلا أن تُصيبَهُم مُصيبةٌ بِما قَدَّمَتْ أيديهِم فَيَقولوا رَبَّنا لَوْلا أرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ ونَكونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القَصَص : ٤٧] .

لقد أرسلَ اللهُ الرُّسُلَ لإقامة الْحُجَّة على الناس ، وقَطْعِ أعذارهم . وَلَوْ لَم يُرْسِل اللهُ الرُّسُلَ لاحتجَّ الناسُ بِعَدم وصول الدَّعوة إلَيهم، وقالوا : رَبَّنا لَم تَصِلْنا رسالتُك ، وَلَوْ وَصَلَتْنا لآمَنَّا بها. ومعنى الآية : لَولا قَوْلُهم إذا أصابتهم عقوبةٌ بسبب كُفرهم وذُنوبهم : رَبَّنا هَلا أرسلتَ إلينا رَسولاً يُبَلِّغُنا آياتِك فَنَتَّبعها ونَكون من المؤمنين ، ما أرسلناكَ . وهذا يَعني أنَّ إرسالَ الرُّسُل إنَّما هُوَ لِقَطْعِ أعذار الناس ، فلا تَكون لهم حُجَّةٌ على اللهِ . واللهُ _ بإرساله الرُّسُل _ قد أقامَ الْحُجَّة على الناس، ولا أحد يَستطيع أن يُقيم الْحُجَّةَ على اللهِ تعالى .

وقال الطبري في تفسيره (١٠/ ٧٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وَلَوْلا أن يقول هؤلاء الذين أرْسَلْتُكَ يا محمد إلَيهم لَوْ حَلَّ بهم بأسُنا ، أو أتاهم عذابُنا ، مِن قَبْلِ أن نُرْسِلك إلَيهم، على كفرهم بربهم ، واكتسابهم الآثام ، واجترامهم المعاصي : رَبَّنا هَلا أرسلتَ إلَينا رسولاً مِن قبل أن يَحِلَّ بنا سَخَطُك ، ويَنْزِل بنا عذابُك ، فَنَتَّبع أدِلَّتك ، وآيِ كتابك الذي تُنَزِّله على رسولك ، ونكون من المؤمنين بألوهيتك الْمُصَدِّقين رسولَك فِيما أمرتنا ونَهَيْتنا ، لَعَاجَلْناهم العقوبةَ على شِرْكِهم مِن قَبْل ما أرسلناك إلَيهم ، ولكنَّا بعثناكَ إلَيهم نذيراً بأسَنا على كُفرهم ، لِئلا يَكون للناس على اللهِ حُجَّةٌ بَعد الرُّسُل . و " المصيبة " في هذا الموضع : العذاب والنِّقمة. ويعني بِقَوْله : ﴿ بِما قَدَّمَتْ أيديهِم ﴾
بما اكْتَسَبوا)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جاءَهُمُ الحقُّ مِنْ عِندِنا قالوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى أوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِن قَبْلُ قالوا سِحْرانِ تَظَاهَرا وقالوا إنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ [القَصَص : ٤٨] .

لَمَّا أرسلَ اللهُ محمداً ﷺ إلى كفار مكة لهدايتهم وإرشادهم إلى طريق الحق ، قالوا _ تَعَنُّتاً وعِناداً _: هَلا أُوتِيَ مِنَ الآياتِ والْمُعْجِزات مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسَى كالعصا واليد البَيضاء ، وأُنزِلَ عَلَيه القُرآنُ جُملةً واحدةً كالتَّوراة . إنهم يَقترحون الآياتِ مِن عِندِهم تَعَنُّتاً ، وإضاعةً للوقت ، وجِدالاً بالباطل ، ولَيس بَحثاً عن الحق والحقيقة .

وفي زاد المسير (٦/ ٢٢٧) : ((قال المفسِّرون : أَمَرَت اليهودُ قُرَيشاً أن تسأل محمداً مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى . فقال اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَكْفُروا بِما أُوتِيَ مُوسى ﴾ أي : فَقد كفروا بآيات موسى. وقالوا في المشار إليهم قَولان : أحدهما اليهود ، والثاني قُرَيش)) اهـ .

إنَّ اليهودَ أهلُ المكر والغدر والخِيانة أمَروا قُرَيشاً أن تَسأل النبيَّ ﷺ آياتٍ كآياتِ مُوسى ﷺ ، وذلك مِن باب التَّحدي والعِناد ، ومحاولة إقامة الْحُجَّة على النبيِّ ﷺ وإفحامِه . وهذا يُشير إلى أيدي اليهود الخفية في تحريك المؤامرات الفِعْلية والقَوْلية. فالعربُ أُمَّةٌ وثنيةٌ جاهلةٌ كانت أُلعوبةً في أيدي اليهود الذين لَدَيهم عِلْمٌ بالأنبياءِ والْمُعْجِزاتِ ، والعربُ يُرَدِّدون ما يُمْلَى عليهم كالحمقى.

واليهودُ لَم يَستفيدوا مِن كُتُبهم وعُلومهم الدِّينية ، فقد كفروا بما أُوتِيَ موسى ﷺ ، ومعَ هذا يَظهرون بمظهر الحريص على مُعْجِزات الأنبياء _عليهم الصلاة والسلام _. وهذا التناقض الصارخ يُشير إلى طُغيان اليهود وتمرُّدهم وتلاعبهم بالحقائق ، وفَصْلهم العمل عن العِلْم ، فَهُم لا يَعْمَلون بِعُلومهم الدِّينية . وهذه الصفات السَّيئة حاولوا نَقْلَها إلى العرب الوثنيين الْمُنقطعين تماماً عن السماء. وقد يكون الضمير في قَوْله تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَكْفُروا ﴾ يَعود إلى كفار مكة ، إذْ إنَّ كُفْرَهم بمحمد ﷺ هو كُفْرٌ بموسى ﷺ ، لأنَّ طريقَ الأنبياء واحد ، وَوَحْيَهم مَصْدَرُه واحد ، وهو السماء . فَمَن كَذَّبَ نَبِيَّاً ، فقد كَذَّبَ جميعَ الأنبياء ، وكَذَّبَ الذي أرْسَلَهم ، وهو اللهُ سُبحانه وتعالى .

﴿ قالوا سِحْرانِ تَظَاهَرا ﴾ . هذا تقريرٌ لِكُفرهم وتَسجيلٌ عَلَيهم . وهُم يَقصدون التَّوراةَ والقُرآن أنهما سِحْران يُقَوِّي كُلٌّ منهما الآخَر . وهذا يعني أنَّ مُوسى ومحمداً ساحران تعاوَنا على السِّحْر . وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٢) : ((قرأ أهل الكوفة : " سِحْران " ، أي : التوراة والقرآن ، " تظاهَرا " يعني : كُلُّ سِحْرٍ يُقَوِّي الآخَرَ . نَسَبَ التظاهرَ إلى السِّحْرَين على الاتساع . قال الكلبي : كانت مقالتهم تلك حِين بَعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة ، فسألوهم عن محمد ، فأخبروهم أنَّ نَعْتَه في كتابهم التَّوراة ، فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا : سِحْران تظاهرا . وقرأ الآخرون : ساحران ، يَعْنُون محمداً وموسى _ عليهما السلام _)) .

والجديرُ بالذِّكْر أنَّ اليهود لا يَصفون مُوسى ﷺ بالسِّحْر . إذن،فالراجحُ أنَّ الضمير يَعود إلى كفار مكة.ويمكن أن يَكون الضمير عائداً إلى الكافرين بموسى ﷺ حيث وَصَفوه بالسِّحْر ، وإلى الكافرين بمحمد ﷺ ، حيث وصفوه بالسِّحْر أيضاً .

﴿ وقالوا إنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ .وقد كفروا بالتَّوراة والقُرآن، أو مُوسى ومحمد_ عليهما الصلاة والسلام _ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٦) : ((أي : بِكُلٍّ مِنهما ، أو بِكُلِّ الأنبياء)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بكتابٍ مِنْ عِندِ اللهِ هُوَ أهْدَى مِنْهُما أتَّبِعْهُ إن كُنتم صادِقِين ﴾ [القَصَص : ٤٩] .

هذا الأمرُ للتَّعجيز . قُل يا مُحمَّد للكافرين الذي قالوا إنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحْرانِ تظاهرا : فَأْتوا بكتابٍ سماويٍّ هو أفضلُ مِن التَّوراة والقُرآن وأهدى مِنهما لطريق الإيمان والحقِّ أتَّبِعْه ، وَلِيَكون ذلك عُذراً لكم في الكُفر ، إن كُنتم صادقين في وَصْفكم التَّوراة والقُرآن بأنهما سِحْران . وبالتأكيد ، إنَّ وصف التوراة والقُرآن بأنهما سِحْران يعني بالضرورة أنَّ موسى ومحمد ساحران ، لأنَّ السِّحْرَ لا يَأتي بِه إلا الساحر .وقد بَيَّنَ اللهُ بُطلانَ قَوْلهم.وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٢٩٦): ((﴿ أَتَّبِعْهُ إن كُنتم صادِقِين ﴾ ... وهذا من الشروط التي يُراد بها الإلزام والتَّبكيت، ولعل مجيء حرف الشَّك (﴿ إن ﴾) للتَّهكم بهم))اهـ. وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٠): ((وقد عُلم بالضرورة لِذَوي الألباب أنَّ الله تعالى لَم يُنْزِلْ كتاباً من السماء فيما أُنزِل مِنَ الكُتب المتعدِّدة على أنبيائه، أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف، مِنَ الكتاب الذي أُنزِل على محمد ﷺ وهو القرآن . وبَعْدَه في الشرف والعَظَمة ، الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه: ﴿ إنَّا أَنزَلْنا التَّوْراةَ فيها هُدىً ونور ﴾ [المائدة : ٤٤] . والإنجيل إنما أُنزِل مُتَمِّماً للتوراة ، وَمُحِلاً لِبَعض ما حُرِّم على بني إسرائيل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَستجيبوا لَكَ فاعْلَمْ أنَّما يَتَّبِعُونَ أهواءَهُم وَمَنْ أضلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ لا يَهدي القَوْمَ الظالِمين ﴾ [القَصَص : ٥٠] .

فَإِنْ لَم يأتوا بكتابٍ مِن عِندِ الله كما أَمَرْتَهم _ وهُم بالتأكيد لا يَقدرون على الإتيان بِه _ ، فاعْلَمْ أنَّما يتَّبعون أهواءهم بلا دليلٍ نَقليٍّ ولا دَليلٍ عَقليٍّ . إنهم يُؤْثِرون هواهم على الدِّين ، ويتَّبعون آراءهم الشخصية ، وأفكارَهم القاصرة، وما يُزيِّنه لهم الشيطانُ بلا دليلٍ ولا حُجَّةٍ . وَلَوْ كانوا يَملكون حُجَّةً لأَتَوْا بها . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٢٨) : ((أي : فَإن لَم يَأتوا بِمِثْلِ التَّوراة والقرآن ، فاعلمْ أنما يَتَّبعون أهواءهم ، أي أنَّ ما ركبوه من الكفر ، لَم يَحْمِلْهم عليه حُجَّة ، وإنما آثَروا فيه الهوى)) اهـ .

ولا يوجد أضلُّ مِمَّن اتَّبعَ هواه بِدُون دليلٍ ولا حُجَّةٍ مِن كتابِ اللهِ . إنَّهُ الشخص الكامل في الضلال . واللهُ لا يَهدي الظالمين الذين يَتَّبعون أهواءَهم ، ويَرفضون الوَحْيَ السماويَّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٩٧) : ((﴿ وَمَنْ أضلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ ﴾ استفهام بمعنى النَّفْي ﴿ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ ﴾ في مَوْضِع الحال للتأكيد أو التَّقييد ، فإن هَوى النَّفْس قد يُوافق الحقَّ.

﴿ إنَّ اللهَ لا يَهدي القَوْمَ الظالِمين ﴾ الذين ظَلموا أنفسَهم بالانهماك في اتِّباع الهوى)) .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وما كُنتَ تَتلو مِن قَبْلِهِ مِن كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لارتابَ الْمُبْطِلون ﴾ [العَنْكبوت : ٤٨].

إنَّ محمداً أُمِّيٌّ لا يَقرأ ولا يَكتب . وهذا الأمرُ ثابتٌ ومشهورٌ . وكفارُ قُرَيش الذين كانوا أشدَّ أعدائه ، ويُريدون التَّشكيك فيه بأيَّةِ وسيلة ، لَم يُشَكِّكوا في هذه القضية ، مِمَّا يَعني أنها مَحسومةٌ عِندهم ، ومُسَلَّمةٌ لا تَقبل النقاشَ . والحقُّ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعداءُ .

وما كُنتَ يا محمد تَقرأ قَبْلَ القُرآنِ كتاباً ، ولا تَستطيع ذلك ، لأنَّكَ أُمِّيٌّ لا تَقرأ ولا تَكتب. و﴿ مِن قَبْلِهِ مِن كتابٍ ﴾ لتأكيد النَّفْي. ولَم تكن تَكتب بيدك اليُمنى لأنَّكَ أُمِّيٌّ . وذِكْرُ اليمين ، لأنَّ العادة هي الكتابة باليد اليُمنى . وأيضاً ، زيادة تَصوير لِنَفْيِ القُدرة على الكتابة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٥٢) : ((أي : قَد لَبِثْتَ في قَومك يا محمد مِن قَبْل أن تأتِيَ بهذا القرآن عُمُراً ، لا تقرأ كتاباً ، ولا تُحسِن الكتابة ، بل كُل أحد مِن قَومك وغَيرهم ، يَعرف أنَّك رَجل أُمِّيٌّ ، لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صِفته في الكتب الْمُتقدِّمة ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يَتَّبعون الرسولَ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ [الأعراف : ١٥٧] الآية . وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدِّين لا يُحسِن الكتابة ، ولا يَخُطُّ سَطراً ولا حَرفاً بِيَده ، بَل كان له كُتَّاب يَكتبون بين يَدَيه الوَحْيَ ، والرسائلَ إلى الأقاليم)) [190].

---

(١٩٠) ذهب بعضُ المتأخرين ــ كالقاضي الباجي ــ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ كَتب يَوْمَ الْحُدَيبية ، وَهُوَ يَقصد أنَّ هذا الأمر على وَجه الْمُعجِزة، وليس أنَّهُ ﷺ كان يَكتب . ففي صحيح البخاري (٢/ ٩٦٠) : ((فأخذَ رسولُ الله ﷺ الكتابَ فَكَتَبَ)) . لقد تمسَّكوا بظاهر النَّص . والمعنى أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ عَلِيّاً فَكَتَبَ. فكلُّ مَن أمرَ بشيء يَجوز نِسْبة الفِعْل إلَيه مِثْل: ضَرَبَ الأميرُ فُلاناً ، إذا أمرَ بِضَرْبه . ونقول : غَزَاهم الملِكُ ، وهو جالسٌ بمكانه لم يتحرَّك ، إذا أرسلَ إلَيهم جَيشاً ... إلخ . وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٥٠٣) : ((فادَّعى (الباجي) أنَّ النبيَّ ﷺ كتب بيده بعد أن لَم يكن يُحسِن يَكتب، فَشَنَّع عليه علماء الأندلس في زمانه ، ورَمَوْه بالزَّندقة ، وأنَّ الذي قاله مُخالِف للقرآن ، حتى قال قائلهم : بَرِئْتُ مِمَّن شَرى دُنيا بآخِرة ، وقال إنَّ رسولَ الله قَد كَتبا ، فَجَمَعهم الأميرُ ، فاستظهرَ الباجي عليهم بِما لَدَيه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا يُنافِي القرآن، بَل يُؤخَذ مِن مفهوم القرآن ، لأنه قَيَّدَ النَّفْيَ بما قَبْل ورود القرآن ، فقال : ﴿ وما كُنتَ تَتلو مِن قَبْلِهِ مِن كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ ﴾ . وبَعْدَ أن تحقَّقت أُمِّيته ، وتقرَّرت

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٢٩٥) : ((قال مجاهد : كان أهل الكتاب يَجدون في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ لا يَخُطُّ ولا يَقرأ ، فَنَزلت هذه الآية . قال النَّحاس : وذلك دليل على نُبُوَّته لأنه لا يَكتب ولا يُخالِط أهل الكتاب،ولم يكن بمكة أهل كتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم)).

وَلَوْ كان محمد ﷺ يُحْسِن القراءةَ والكتابةَ لَشَكَّ الْجُهَّالُ في أمره، وقالوا إنَّهُ أتى بالقُرآن مِن كُتب اليهود والنصارى، أو مِن الكُتب المشتملة على أخبار الأمم الغابرة ، أو مِن الكَهَنة والشُّعراء والعلماء ، ونَسَبَه إلى اللهِ زُوراً وبُهتاناً . فكانت أُمِّيَّةُ محمد ﷺ دليلاً على صِدْقِه ، نافياً للشَّك والرِّيبة . فمحمد رَجلٌ أُمِّيٌّ ، لَم يُعرَف عنه مُخالطته للعلماء، أو أنَّه كان طالباً للعِلْم . وقد جاءَ بالقُرآن الْمُعْجِز الذي أفحمَ فُصحاءَ العربِ ، والذي يشتمل على الغَيبيات ، وأخبار الأمم ، وأنواع العلوم العظيمة ، مِمَّا يدل على أنَّ القُرآنَ ليس مِن عند محمد ، وإِنَّما مِن عِندِ اللهِ الذي أرسلَ محمداً ﷺ. وهذا يَعني أنَّ التَّشكيك بمحمد ﷺ هو عِناد ومُكابَرة بلا دليل.

وَلَو افْتَرَضْنا أنَّ النبيَّ ﷺ يَقرأ ويَكتب، فلا يَحِقُّ لأحدٍ أن يتَّهمه بتأليف القُرآن ، بسبب أمانته وصِدْقِه ، وتأييده بالْمُعجِزات الباهرة . وفي هذه الحالة يَكون الارتيابُ ظُلْماً مِنهم ، لذلك سَمَّاهم بالْمُبْطِلِين . وقد يكون الْمُبْطِلون هُم أهل الكتاب ، إذْ إنهم يَجدون محمداً ﷺ في كُتبهم مَوصوفاً بالأُمِّية . وَلَوْ كان يَقرأ ويَكتب ، لَشَكُّوا في الأمر ، وسَيْطَرَت عليهم الرِّيبة والهواجس ، وقالوا : لَيست هذه صِفته في كُتبنا ، وأنكَروا نُبُوَّتَه . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٢٧٧) : ((وَالْمُبْطِلون الذين يَأتون بالباطل. وفِيهم هاهنا قَولان: أحدهما كفار قُرَيش ، قاله مجاهد. والثاني: كُفار اليهود ، قاله مقاتل)) اهـ . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣١٩) : ((وإنَّما سَمَّاهم مُبْطِلين لِكُفرهم أو لارتيابهم بانتفاء وجه واحد مِن وُجوه الإعجاز الْمُتكاثِرة. وقِيل : لارتابَ أهلُ الكتاب لِوجْدناهم نَعْتَكَ على خِلاف ما في كُتبهم)) اهـ .

بذلك مُعجِزته ، وأمِنَ الارتياب في ذلك ، لا مانع مِن أن يَعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم، فتكون مُعجِزة أخرى . وذَكَرَ ابن دِحية أنَّ جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك منهم، شيخه أبو ذَر الهروي ، وأبو الفتح النَّيسابوري ، وآخرون مِن علماء إفريقية)) اهـ. والصحيح الثابت أنَّ النبيَّ ﷺ لا يَقرأ ولا يَكتب. وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣١٢) : ((هذا ، وهو الصحيح في الباب ، أنَّه ما كَتب ولا حَرفاً واحداً ، وإنما أمَرَ مَن يَكتب ، وكذلك ما قَرأ ولا تَهَجَّى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ [العَنْكبوت : ٦١] (191).

وَلَئِن سألتَ يا محمد المشركين : مَن خلق السماوات (العالَم العُلوي) والأرض (العالَم السُّفلي) في أحسن هيئة ، وذَلَّلَ الشمسَ والقمرَ، وجعلهما يَسيران وَفق نظام متناسق ومتكامل لا اضطراب فيه ، وذلك من أجل تحقيق مصالح الناس ، وجَلْب المنافع لهم ، وتسهيلِ الحياة على الأرض، لَيَقُولُنَّ: خالق ذلك هُوَ الله. وقد قامت عليهم الْحُجَّةُ باعترافهم . والاعترافُ سَيِّدُ الأدلة. وبالتأكيد ، لا يَستطيعون إنكارَ ذلك ولا جَحْدَه ، لِوُضوح الأمر . ﴿ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ فكيفَ يُصْرَفون عن الحق . إنهم يَعترفون بأنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو خالق هذه الأشياء العظيمة ، ويُقِرُّون بِتَفَرُّده سُبحانه بالْخَلْق والتَّسخير ، ثُمَّ يَرفضون تَوحيدَه بعد إقرارهم بذلك، ويُشْرِكون بعبادته ، ويَعبدون مَعَهُ غَيْرَهُ من المخلوقات التي لا تَملك نَفعاً ولا ضَرَّاً . والاستفهام للإنكار والاستبعاد .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٢) : ((﴿ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ لِمَا تقرَّر في العقول مِن وُجوب انتهاء الْمُمْكِنات إلى واحدٍ واجبِ الوجود . ﴿ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ يُصْرَفون عَن تَوحيده بعد إقرارهم بذلك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتَّبعوا أحسنَ ما أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم مِن قَبْلِ أن يَأتِيَكُمُ العذابُ بَغتةً وأنتم لا تَشعرون ﴾ [الزُّمَر : ٥٥] .

واتَّبعوا أيها الناسُ القُرآنَ، والتزموا أوامرَه ، واجتنبوا نَواهيه . أحِلُّوا حَلالَه ، وَحَرِّموا حَرامَه. مِن قَبْلَ أن يأتِيَ العذابُ الإلهيُّ فَجأةً ، فَيُباغِتَكم وأنتم غافلون ، دون أن تُمْنَحوا أيَّة فُرصة للتَّدارُك وتعديلِ مساركم وتَصحيحِ أموركم (192).

---

(١٩١) قال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٢٢) : ((لَمَّا عَيَّرَ المشركون المسلمين بالفقر ، وقالوا : لَوْ كُنتم على حق لَمْ تكونوا فقراء ، وكان هذا تمويهاً ، وكان في الكفار فقراء أيضاً ، أزالَ اللهُ هذه الشُّبهة، وكذا قَول مَن قال: إنْ هاجَرْنا لَمْ نجد ما نُنْفِق. أي : فإذا اعترفتُم بأنَّ اللهَ خالقُ هذه الأشياء، فكيفَ تَشُكُّون في الرِّزْق ، فَمَن بيده تكوينُ الكائنات لا يَعْجَز عَن رِزْق العَبد)) اهـ .

(١٩٢) قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٣٦) : ((﴿ أحسنَ ما أُنزِلَ ﴾ هو القرآن . وَكُلُّه حَسَن . والمعنى ما قال الحسن: التزموا طاعته واجتنبوا معصيته. وقال السُّدي:الأحسن ما أمر اللهُ به في كتابه. وقال ابن زيد : يَعني الْمُحْكَمات ، وَكِلُوا عِلْمَ الْمُتشابِه إلى عالِمه . وقال : أنزلَ اللهُ التوراةَ والإنجيلَ

والقُرآنُ كُلُّه حَسَنٌ ، وهو أعظمُ الكتب السماوية وأحسنُها ، لا تفاوُت فِيه ولا اضطراب . والإيمانُ بالقُرآنِ مبنيٌّ على اتِّباع ما فِيه مِنَ الأمر والنَّهْي والأخبار والأمثال والقَصَص والوعد والوعيد.وهذا هو الأفضل والأحسن والأكمل. فالقُرآنُ ذَكَرَ العقائدَ الصافية،والصِّفاتِ الطيبة ، والأخلاق الحميدة ، والعبادات النَّقية ، وذلك من أجل التزامها ، والتمسك بها ، والترغيب فيها . وأيضاً ، ذَكَرَ العقائدَ الباطلة ، والآثامَ الشَّنيعة ، والأخلاق الدَّنيئة ، والصفاتِ السَّيئة ، من أجل الابتعاد عنها ، ورفضها ، وعدم الوقوع فيها . وعلى المرء أن يَتَّبع الأحسنَ والأفضلَ ، ولَيس المعنى أنَّ في القُرآن حَسَن وغَير حَسَن،فالقُرآنُ كُلُّه في ذِرْوة المجد والعَظَمة والْحُسْن. وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٦١) : ((فالأحسن للمرء أن يَسلك طريقَ الطاعة والانتهاء عن المعصية والعفو في الأمور ونحو ذلك، مِن أن يَسلك طريقَ الغفلة والمعصية، فَيَجِد أو يَقع تحت الوعيد، فهذا المعنى هو المقصود بأحسن ، وليس المعنى أنَّ بَعْضَ القرآنِ أحسنُ مِن بَعْضٍ)) اهـ .

وقَوْلُه تعالى : ﴿ واتَّبعوا أحسنَ ما أُنزِلَ إلَيْكُم مِن رَبِّكُم ﴾ ، يَحمل نفْسَ معنى قَوْلِه تعالى : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يأخذوا بأحسنِها ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٣/٢٥٩) : ((إنْ قِيل : كأنَّ فيها ما ليس بِحَسَن ، فعنه جوابان أحدهما أن المعنى يأخذوا بِحُسْنها ، وكُلُّها حَسَن، قاله قُطْرُب . وقال ابن الانباري : ناب أحسن عن حَسَن ، كما قال الفرزدق : إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بَنى لنا ... بَيتاً دَعائِمُه أعزُّ وأطْوَلُ. أي عزيزة طويلة ...والثاني أن بعض ما فيها أحسن من بعض ثم في ذلك خمسة أقوال : أحدها أنهم أُمروا فيها بالخير ، ونُهوا عن الشر ، فَفِعْلُ الخير هو الأحسن . والثاني أنها اشتملت على أشياء حسنة ، بعضها أحسن مِن بعض ، كالقِصاص والعَفْو والانتصار والصبر ، فأُمروا أن يَأخذوا بالأحسن ، ذَكَرَ القَوْلين الزَّجاج ، فعلى هذا القَول يكون المعنى أنهم يَتَّبعون العزائمَ والفضائلَ ، وعلى الذي قَبْلَه يكون المعنى أنهم يَتَّبعون الموصوف بالْحُسْن وهو الطاعة ، ويجتنبون الموصوف بالقُبح، وهو المعصية. والثالث : أحسنها الفرائض والنوافل وأَدْوَنُها في الْحُسْن الْمُباح . والرابع أن

والزَّبُور ، ثُمَّ أنزلَ القرآنَ ، وأمرَ باتِّباعه ، فهو الأحسن . وَهُوَ الْمُعْجِز . وقِيل: هذا أحسن لأنه ناسخ قاضٍ على جميع الكُتب ، وجميعُ الكتب مَنسوخة. وقِيل: يعني العَفْوَ ، لأنَّ اللهَ تعالى خَيَّرَ نَبِيَّه عليه السلام بين العَفْوِ والقِصاص . وقِيل : ما عَلَّمَ اللهُ النبيَّ ــ عليه السلام ــ وليس بِقُرآن ، فهو حسن ، وما أَوْحَى إليه مِنَ القرآن ، فهو الأحسن. وقِيل : أحسن ما أُنزِل إليكم مِن أخبار الأمم الماضية)) .

يكون للكلمة مَعنيان أو ثلاثة ، فَتُصْرَف إلى الأشبه بالحق، والخامس أنَّ أحسنَها الْجَمْعُ بين الفرائض والنوافل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أن تَقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَى على ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللهِ وإنْ كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرين ﴾ [الزُّمَر : ٥٦] (193).

على المرء أن يَعتنق الإسلامَ قَوْلاً وفِعْلاً لِئَلا يأتيَ يَوم القيامة نادماً مُتحسِّراً . وعندئذٍ لا يَنفع الندم. ومعنى الآية: لِئلا تَقولَ نَفْسٌ يَوْمَ القِيامة: يا نَدامتي على ما ضَيَّعْتُ مِن حُقوق اللهِ في الدُّنيا ، وأسرفتُ في المعاصي، وقَصَّرْتُ في الطاعات. وإنْ كُنتُ لَمِنَ الْمُستهزئين بالقُرآنِ والسُّنة والمؤمنين.

كأنَّه قال : فَرَّطْتُ في حال سُخريتي .

وهذا المجرمُ العاصي لَم يَكْتَفِ بِعِصيان اللهِ وعَدم طاعته، بَل أيضاً، سَخِرَ من المؤمنين الطائعين ، وجَعَلَهم مَوضوعاً للسُّخرية والاستهزاء . لَم يَكتفِ بفساده ، بَل كان فاسداً ومُفْسِداً في آنٍ معاً . ولَم يَرْضَ بضلاله ، بَل أرادَ أيضاً أن يَكون داعياً إلى الضلال .

ويَوْم القيامة _ بالنسبة للعاصي _ هو يوم الحسرة والندامة ، حيث يَوَدُّ لَوْ أنَّهُ تابَ في الدنيا ورجعَ إلى اللهِ ، وكان مُؤمناً صالحاً . لقد نَدِمَ بعد فوات الأوان ، وتحسَّرَ يَوْمَ لا تَنفع الحسرةُ ولا التَّوبة . وتَنكيرُ ﴿ نَفْسٌ ﴾ لأنَّ القائلَ بَعْضُ الأنفس ، أو لِتَكثير عدد القائلين . وقال الزمخشري في الكشَّاف (١/ ١١١٤) : ((فَإنْ قُلتَ : لِمَ نُكِّرَت ؟ قلتُ : لأنَّ المرادَ بها بَعْضُ الأنفس ، وهي نفْس الكافر ، ويجوز أن يُراد : نفْس مُتميِّزة مِنَ الأنفس: إمَّا بِلَجَاج (خُصومة) في الكفر شديد ، أوْ بعذابٍ عظيم . ويجوز أن يُراد التكثير)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ١٩٢): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ أن تَقولَ نَفْسٌ ﴾ . قال الْمُبَرِّد: المعنى: بَادِروا قَبل أن تقول نفْسٌ وحَذَراً مِن أن تَقول نفْسٌ . وقال الزَّجاج: خَوْفَ أن تصيروا إلى حال تقولون فيها هذا القول . ومعنى يا حَسْرتا يا نَدَامتا ويا حَزَنا. والتَّحَسُّر الاغتمام على ما فات ... . قَوْلُه تعالى : ﴿ في جَنبِ اللهِ ﴾ فيه خمسة أقوال : أحدها في طاعة الله تعالى، قاله الحسن. والثاني في حق الله، قاله سعيد

(١٩٣) في تفسير الطبري (١١/ ١٨) : ((عن السُّدي في قَوْله : ﴿ يا حَسْرَتَى ﴾ هِيَ كِناية الْمُتكلِّم وإنما أُريد : يا حَسْرتي . ولكنَّ العرب تُحوِّل الياءَ في كِناية اسم الْمُتكلِّم في الاستغاثة ألِفاً فتقول : يا ويلتا ويا ندما ، فَيُخْرِجون ذلك على لَفْظ الدعاء ، وربما قِيل : يا حَسْرَةً على العِباد)) اهـ .

بن جُبَير . والثالث في أمر الله، قاله مجاهد والزَّجاج. والرابع في ذِكْر الله، قاله عِكرمة والضَّحاك. والخامس في قُرْبِ الله رُوِيَ عن الفَرَّاء أنَّه قال الْجَنْب القُرْب، أي في قُرْب الله وجِواره. يقال: فُلان يعيش في جَنْب فُلان أي في قُربه وجِواره. فعلى هذا يكون المعنى على ما فَرَّطْتُ في طَلَبِ قُرْبِ الله تعالى، وهو الجنة)) .

وعن أبي هريرة _ رَضِيَ اللهُ عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((كُلُّ أهلِ النارِ يَرى مَقْعَدَه مِنَ الجنة ، فيقول : لَوْ أنَّ اللهَ هَدَاني ، فَتَكون عَلَيه حسرةٌ ، وكُلُّ أهلِ الجنةِ يَرى مَقْعَدَهُ مِنَ النار، فَيَقول : لَوْلا أنَّ اللهَ هَدَاني ، فَيَكون له شُكْرٌ)) ، ثُمَّ تلا رسولُ الله ﷺ : ((﴿ أن تَقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَى على ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللهِ ﴾)) (194).

إنَّ الأشياءَ تُعرَف بأضدادها . فالمؤمنُ المستحق للجنَّة نظير إيمانه وعمله للصالحات ، لن يَعرف قيمةَ الجنة إلا إذا رأى النارَ ، فعندئذٍ يَعرف حَجْمَ النِّعمة الإلهية التي هُوَ فيها ، ويُدْرِك مقدارَ النعيمَ الذي يعيش فيه . والكافرُ عندما يرى الجنَّةَ يزداد حَسْرةً وحُزناً على ما فَاته ، فقد كان مَقْعَدُه مِن الجنَّة في متناول اليد ، لكنه أضاعه بكُفره وتفريطه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أوْ تَقولَ لَوْ أنَّ اللهَ هَداني لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِين ﴾ [الزُّمَر : ٥٧] .

أوْ تَقولَ نَفْسٌ لَوْ أنَّ اللهَ أنقذني من الضلالة ، وأرشدَني إلى طريق الحق ، لَكُنتُ مِنَ المؤمنين الصالحين الذين يتَّقون الشِّرْكَ والمعاصي، ويَقومون بالطاعات. وهذه مِنَ الْحُجَج الواهية، والأعذار الوهمية التي يُعَوِّل عليها أهلُ الكفر والمعاصي لتبرير ذُنوبهم وفُجورهم ، والتَّنصلِ مِن تَحَمُّل المسؤولية . وهِيَ كلمةُ حق يُراد بها باطل .

وهذه الْحُجَّةُ الواهيةُ كانت مسيطرة على تفكير المشركين ، وكانوا يَستخدمونها للسُّخرية والاستهزاء ، ومحاولة إفحام النبيِّ ﷺ ، مُتذرِّعين بالقَضاء والقَدَر والهدايةِ الرَّبانية . وإيمانُهم بهذه القضايا مُشَوَّش لا يَقوم على أساس صحيح . ومن الواضح أنَّ حُجَجَ المشركين الواهية مُسيطِرة على عقولهم في الدُّنيا والآخِرة . وهُم يَعتقدون أنَّ بإمكانهم الهروبَ في الآخرة كما هَرَبوا في الدُّنيا.

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١٩) : ((يقول تعالى ذِكْرُه : وأنيبوا إلى ربكم أيها الناس ، وأسْلِموا له ، أن لا تقولَ نَفْسٌ يوم القيامة: يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ الله ، في أمر الله ،

---

(١٩٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٧٣) برقم (٣٦٢٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وأن لا تقولَ نَفْسٌ أخرى : لَوْ أنَّ اللهَ هَداني للحق ، فَوَفَّقني للرَّشاد ، لَكُنْتُ مِمَّن اتَّقاه بطاعته واتِّباع رِضاه)) اهـ . وفي تفسير النَّسفي (٤/ ٦٠) : ((قال الشيخ الإمام أبو منصور _ رحمه اللهُ تعالى _ هذا الكافر أعرفُ بهداية الله مِن المعتزِلة ، وكذا أولئك الكفرة الذين قالوا لأتْباعهم : لَوْ هَدانا اللهُ لَهَدَيْناكم ، يقولون : لَوْ وَفَّقَنا اللهُ للهدايةِ ، وأعطانا الهدى لَدَعَوْناكم إلَيه ، ولكنْ عَلِمَ مِنَّا اختيارَ الضَّلالة والغَوَاية ، فَخَذَلَنا وَلَم يُوَفِّقْنا . والمعتزلةُ يقولون : بَل هَداهم وأعطاهم التوفيق ، لكنهم لَم يَهتدوا . والحاصلُ أنَّ عِندَ اللهِ لُطفاً ، مَن أُعْطِيَ ذلك اهتدى ، وهو التوفيق والعِصْمة ، وَمَن لَم يُعْطَهُ ضَلَّ وغَوَى)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ أوْ تَقولَ حِينَ ترى العذابَ لَوْ أنَّ لِي كَرَّةً فأكونَ مِنَ الْمُحْسِنين ﴾ [الزُّمَر : ٥٨] .

أوْ تَقولَ هذه النَّفْسُ الفاسدةُ الآثِمةُ حِينَ ترى العذابَ الإلهيَّ بالعَيْنِ الْمُجَرَّدة : لَوْ أنَّ لي رَجعةً إلى الدُّنيا ، فأكون مِنَ المؤمنين الذين يَفعلون الطاعاتِ ، ويَجتنبون المعاصي. وهذه أُمْنِيَّةٌ بلا معنى ، وإقرارٌ واعترافٌ مِن هذه النَّفْس بأنها كانت فاجرةً ، وغارقةً في الذنوب ، وتستحق العذابَ ، لذلك تَمَنَّت العودةَ إلى الدُّنيا لتحسين العمل . وهذا مُحال .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧٤): ((و﴿ أوْ ﴾ للدلالة على أنها لا تَخلو من هذه الأقوال تَحَيُّراً وتَعَلُّلاً بما لا طائل تَحْتَه)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٧٥) : ((أي : تَوَدُّ لَوْ أُعيدت إلى الدنيا لِتُحْسِن العملَ. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس_رضي اللهُ تعالى عنهما _ : أخبرَ اللهُ _ سُبحانه وتعالى _ ما العباد قائلون قبل أن يَقولوه ، وعَمَلَهم قبل أن يَعملوه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِها واسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكافِرين ﴾ [الزُّمَر : ٥٩] [195].

لقد كَذَّبَ اللهُ القائلَ : ﴿ لَوْ أنَّ اللهَ هَداني لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِين ﴾ و﴿ لَوْ أنَّ لِي كَرَّةً فأكونَ مِنَ الْمُحْسِنين ﴾ . قد جاءَتْكَ آياتُ اللهِ (القُرآن) أيها الفاجرُ النادمُ يَوْمَ لا يَنفع الندمُ. فقد أرسلَ اللهُ أنبياءَهُ يَحملون رسالةَ السماء إلى الناس لإنقاذهم، فقامت الْحُجَّةُ على الناس، ولا عُذْرَ لهم في

---

(١٩٥) قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٣٩) : ((وقال : (استكبرتَ وَكُنتَ)، وهو خِطاب الذَّكَر لأنَّ النَّفْسَ تَقع على الذَّكَر والأنثى)) اهـ .

الكُفر أو التكذيب. فما كانَ مِنكَ إلا أن كَذَّبْتَ بآياتِ اللهِ ، ونَفَيْتَ مَصْدَرَها السماويَّ ، وقُلْتَ إنها لَيست مِن عِند اللهِ ، واستكبرتَ عن اتِّباعها، وتَكَبَّرْتَ عن الإيمان بها ، وكُنتَ مِنَ الكافرين .

و﴿ بَلى ﴾ هي رَدٌّ إلهيٌّ بَليغٌ وصاعقٌ على القائل : ﴿ لَوْ أنَّ اللهَ هَداني ﴾ الحاملة لمعنى النَّفْي . وفي اللغة ، " بلى " جَواب للنَّفْي . والمعنى : بلى ، قد أرسلتُ إلَيْكَ الرُّسُلَ بآياتي . وهذا تَكذيبٌ مِنَ اللهِ لهذا الفاجرِ الآثِم. وفي زاد المسير (٧/ ١٩٣): ((قال الزَّجاج : و﴿ بَلى ﴾ جَواب النَّفْي ، وليس في الكلام لفظُ النَّفْي غَيْرَ أنَّ معنى : ﴿ لَوْ أنَّ اللهَ هَداني ﴾ ، مَا هُدِيتُ . فَقِيل : ﴿ بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي ﴾)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٢٠) : ((﴿ بَلى قَدْ جاءَتْكَ ﴾ أيها الْمُتَمَنِّي على اللهِ الرَّد إلى الدنيا لِتَكون فيها من المحسنين ﴿ آياتي ﴾ يقول : قد جاءتك حُجَجي مِن رسول أرْسَلْتُه إلَيك ، وكتابٍ أنْزَلْتُه يُتلَى عَلَيك ، فِيه مِنَ الوعد والوعيد والتذكير ، ﴿ فَكَذَّبْتَ ﴾ بآياتي ﴿ واسْتَكْبَرْتَ ﴾ عن قبولها واتِّباعها ﴿ وكُنتَ مِنَ الكافِرين ﴾ . يقول : وَكُنتَ مِمَّن يَعمل عملَ الكافرين ، ويَسْتَنُّ بِسُنَّتهم ، ويَتَّبع مِنهاجهم)) اهـ .

وعن أُم سَلَمة ــ رَضِيَ اللهُ عنها ــ قالت : سَمعتُ النبيَّ ﷺ يَقرأ : ((﴿ بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِها واسْتَكْبَرْتَ وكُنتَ مِنَ الكافِرين ﴾))[196].

مِنَ الآياتِ السابقة ، نُلاحِظ الترتيبَ الإلهيَّ للأحداث . وهذا الترتيبُ الدقيقُ في القُرآنِ دليلٌ على إعجازه الباهر . والمواقفُ مُرَتَّبة بشكل منطقي متسلسل مُتوافِق مع الواقع ، ومُترابط أشد الترابط ، ولَيس كلاماً افتراضياً خيالياً مُبَعْثَراً :

١ــ الابتداء بالتَّحسُّر على تَقصير النَّفْس في حَقِّ اللهِ بارتكابها الذنوب والمعاصي (الاغتمام على ما فاتَ):﴿أن تَقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَى على ما فَرَّطتُ في جَنبِ اللهِ وإنْ كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرين﴾.

٢ــ الاعتذار واختراع الْحُجَج الواهية ، ومحاولة التَّنصل من تَحَمُّل المسؤولية ، والتَّعويل على الفهم المغلوط للقَدَر السابق وغيابِ الهداية الرَّبانية على أمل النَّجاة: ﴿ أوْ تَقولَ لَوْ أنَّ اللهَ هَداني لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِين ﴾ .

٣ــ تَمَنِّي الرجوع إلى الدُّنيا لعمل الصالحات:﴿ أوْ تَقولَ حِينَ ترى العذابَ لَوْ أنَّ لِي كَرَّةً فأكونَ مِنَ الْمُحْسِنين ﴾ .

---

(١٩٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٥٩) برقم (٢٩٣١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

٤ـ لَوْ رَجَعَ إلى الدُّنيا لعادَ إلى سِيرته السابقة في ارتكاب الذنوب ، والغرق في المعاصي . قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادوا لِمَا نُهُوا عَنهُ وإنهم لَكَاذبون ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

٥ـ تَكذيبُ العَبْدِ، وإفحامُه ، وصَعْقُه بالدليل والبُرهان ، وإقامةُ الْحُجَّة عَلَيه مَرَّةً ثانيةً: ﴿ بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتي فَكَذَّبْتَ بِها واسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الكافِرين ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنَّى يُؤفَكون ﴾ [الزُّخرُف : ٨٧] .

وَلَئِن سألتَ يا محمد كفارَ مكة الذين يَعبدون الأصنامَ : مَن خَلقهم ؟ ، فإنهم سَيُجيبون بلا تردد ، إنَّ اللهَ هُوَ الذي خَلَقَنا . وبسبب وضوح الأمر ، لا يَقدرون على الإنكار أو الْمُرَاوَغة أو التَّحايُل أو الالتفاف على الجواب . فكيفَ يُصْرَفون عن الحق بعد هذا الاعتراف الواضح ؟! . كَيْفَ يَنحرفون عن عبادة اللهِ وَحْدَه ، ويُشْرِكون مَعَهُ غَيْرَه من أجل شَفاعتهم ؟!.

لقد أقَرُّوا بِوَحدانيةِ اللهِ الخالق الرازق ، ثُمَّ أشْرَكوا بِهِ ، وجَعلوا المخلوقاتِ العاجزةَ التي لا تَضُرُّ ولا تَنفع شَريكةً للهِ الذي بِيَده النَّفْع والضَّر ، ولا يُعْجِزه شيء. وقد قامت عليهم الْحُجَّةُ باعترافهم دون ضَغْط ولا إكراه .

والمشركون يَعبدون معَ اللهِ آلهةً أُخرى ، وهُم يَعلمون أنَّ اللهَ هو الْمُتفرِّد بالْخَلْق . والعقلُ يَقول إنَّ الْمُسْتَحِقَّ للعبادة وَحْدَهُ هُوَ الإلهُ الْمُتفرِّد بالْخَلْقِ والرِّزق . وكلُّ الناس يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هُوَ الخالق ، وهذا الأمر الواضح لا يُمكن الهروب منه ، أو الالتفاف حَوْلَه .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧٣) : ((أي : وَلَئِن سَألتَ هؤلاء المشركين باللهِ العابدين مَعَهُ غَيْرَه ﴿ مَن خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾، أي: هُم يَعترفون أنَّه الخالق للأشياء جميعها وَحْدَه ، لا شريك له في ذلك ، ومعَ هذا يَعبدون مَعَهُ غَيْرَه مِمَّن لا يَملك شيئاً ، ولا يَقْدِر على شيء ، فَهُم في ذلك في غاية الجهل ، والسَّفاهةِ ، وسَخافةِ العقل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم تَأمُرُهُم أحلامُهُم بهذا أَم هُمْ قَوْمٌ طَاغُون ﴾ [الطُّور : ٣٢] (197).

(١٩٧) قال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٥): ((وقِيل لِعَمرو بن العاص : ما بَالُ قَوْمِكَ لَم يُؤمنوا وَقَد وصفهم اللهُ بالعقل ؟، فقال: تِلْكَ عقول كادها اللهُ، أي لَم يَصْحَبْها بالتوفيق. وقِيل : ﴿ أحلامُهُم ﴾ ، أي : أذهانهم، لأنَّ العقل لا يُعطَى للكافر ، وَلَوْ كان له عقل لآمَنَ ، وإنما يُعطَى الكافر الذِّهن ، فصار عليه حُجَّةً، والذِّهنُ يَقبل العِلْم جُملةً ، والعقلُ يُمَيِّز العِلْمَ ، ويُقَدِّر المقادير لحدود الأمر والنَّهْي)) .

أتأمرُ هؤلاء المشركين عقولُهم بأنْ يَرفضوا الحقَّ الذي جاء بِه محمد ﷺ صاحب الْمُعْجِزة ، ويَكذبوا ، ويَأتوا بالأقاويل الباطلة المتناقضة ، فيَقولوا إنَّ محمداً كاهنٌ ، ومرَّةً يَقولون إِنَّهُ مَجنون، ومرَّةً يَقولون إِنَّهُ شاعر، والقُرآنَ شِعْرٌ. ما تأمرُهم عقولُهم بهذا، بَل هُم قَوْمٌ مُعانِدون مُسْتَكْبِرون، طَغَوا وتجبَّروا، وتَجاوَزوا الحدَّ في الكُفر والضلال والعِناد والْمُكابَرة . لقد كفروا طُغياناً بعد ظهور الحق لهم. وطُغيانُهم هو الذي حَمَلَهم على الكذبِ على اللهِ ورسولِه ﷺ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٨) : ((﴿ أَم تَأمُرُهُم أحلامُهُم ﴾ عقولُهم ﴿ بهذا ﴾ بهذا التناقض في القول ، فإنَّ الكاهنَ يَكون ذا فِطنة ودِقَّة نَظَر ، والمجنونَ مُغطَّى عَقْلُه ، والشاعرَ يَكون ذا كلام مَوزون مُتَّسِق مُخَيَّل، ولا يَتأتَّى ذلك مِنَ المجنون. وأمرُ الأحلام بِه مَجاز عن أدائها إليه)).

وفي زاد المسير (٨/ ٥٤) : ((قال المفسِّرون : كانت عُظَماءُ قُرَيش تُوصَف بالأحلام ، وهي العقول ، فأزرى اللهُ بِحُلُومهم ، إذ لَم تُثْمِرْ لهم معرفة الحق من الباطل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم يَقولونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤمِنون ﴾ [الطُّور : ٣٣] .

يَقول المشركون إنَّ محمداً اختلقَ القُرآنَ ، وجاءَ بِه مِن عِند نفْسِه . وليس الأمر كما زعموا . إنهم يَكفرون بالقُرآن استكباراً وعِناداً ، ويتَّهِمون النبيَّ ﷺ بهذه التُّهمة الباطلة لِكُفرهم بالوَحْي والنُّبُوَّةِ . لقد حَمَلَهم كُفْرُهم وعِنادُهم وغُرورُهم على هذه المقولة الشنيعة . ولوْ كانوا صادقين في زَعْمهم ، فَلْيُقَدِّموا دليلاً على صِحَّة كلامهم . لقد ألْقَوْا التُّهمَ والأكاذيبَ لِعَجْزهم عن تقديم الدليل. وهذا هو أسلوب العاجز في كل زمان ومكان. وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٥) : ((وَالتَّقَوُّل تَكَلُّف القَوْل ، وإنما يُسْتَعْمَل في الكذب في غالب الأمر، ويُقال: قَوَّلْتَني ما لَم أقُلْ !، ... أي ادَّعَيْتَهُ عَلَيَّ. وتَقَوَّل عَلَيه، أي كَذَبَ عَلَيه)) .وقال أبو السُّعود في تفسيره (٨/ ١٥٠) : ((فَلِكُفْرِهم وعِنادِهم ، يَرْمُون بهذه الأباطيل التي لا يَخفى على أحد بُطلانها كيف لا ، وما رسول الله ﷺ إلا واحد من العرب ، فكيف أتى بما عَجِزَ عنه كافة الأمم مِنَ العَرب والعَجَم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلْيَأتوا بِحَديثٍ مِثْلِهِ إن كانوا صَادِقين ﴾ [الطُّور : ٣٤] .

لقد ألزمَ اللهُ المشركين الْحُجَّةَ ، وأظهرَ عَجْزَهم ، وفَضح باطلَهم . ويَبرز في الآيةِ الأسلوبُ القُرآنيُّ الراقي في الْمُحَاجَجة ، وتقديم البُرهان والدليل ، وإقامةِ الْحُجَّةِ ، بِدُون جَعْجعة ولا زَخرفة كلامية ولا شتائم .

إنْ كانَ المشركون صادقين في زَعْمِهم أنَّ محمداً قد ألَّفَ القُرآنَ ، فليأتوا بِقُرآن يُشْبِهُ قُرآنَ محمد في حُسْنِ نَظْمِه، وَرُقِيِّ لُغته ، وفصاحته العالية ، وبَلاغته السَّامية ، وبيانه الواضح ، وأسلوبه البديع . معَ العِلْم أنَّهم أهلُ الفصاحة والبلاغة والخطابة والأشعار . وهذا تَعجيزٌ لهم وتَوبيخٌ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٥) : ((يقول : جل ثناؤه : فَلْيَأْتِ قائلو ذلك له مِن المشركين بِقُرآن مِثْلِه ، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ، وَلَن يَتَعَذَّرَ عليهم أن يَأتوا مِن ذلك بِمِثْلِ الذي أتى به محمد ﷺ ، إن كانوا صادقين في أنَّ محمداً ﷺ تَقَوَّله وتَخَلَّقه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَم هُمُ الخالِقُون ﴾ [الطُّور : ٣٥] [198].

أَخُلِقَ هؤلاء المشركون على هذه الأشكال الجميلة البديعة مِن غَير خالقٍ ، أَم هُمُ الذين خَلَقوا أنفسَهم ، فلا يَخضعون لأمرِ اللهِ ، لأنَّ الخالقَ لا يُؤْمَر ولا يُنْهَى .

والحالتان باطلتان نَقْلاً وعَقلاً ، فالمخلوقُ يَحتاج إلى خالقٍ ، والمصنوعُ لا بُدَّ له مِن صَانع . ولا يُعقَل أن يُوجَد مخلوق بلا خالقٍ ، لأنَّ كُلَّ فِعْلٍ لا يَحدث إلا بفاعلٍ . ومِنَ الْمُحال أن يَخلقوا أنفسَهم، لأنَّ فاقدَ الشيء لا يُعطيه، والمخلوقُ (المحكوم عَلَيه بالموت) لا يُمكن أن يَكون خالقاً ، لأنَّ المفعولَ بِه لا يُمكن أن يَكون فاعلاً . وهذا هو أسلوبُ القُرآن الباهر والْمُوجَز في الرد على المشركين والملاحدة الذين يُنكِرون وُجودَ اللهِ . وكلُّ شخصٍ _ مهما كانت عقيدته _ يَعرف أنَّه مَخلوق ، والمخلوقُ لا بُدَّ له مِن خَالق . وأيضاً، لا يُمكن أن يَكون المخلوقُ خالقاً ، لأنَّ كلمة " المخلوق " تُشير بِوُضوح إلى وجود خالقٍ قامَ بصناعة هذا المخلوق .

لقد خَلَقَهم اللهُ وصَوَّرهم في أحسن تقويم ، ولكنهم رَفضوا تَوحيدَه وإفرادَه بالعبودية عِناداً وتكبُّراً . والمشركون يَعترفون بأنَّ اللهَ خَالقُهم ، والاعترافُ سَيِّد الأدلة . وباعترافهم وإقرارهم أقاموا الْحُجَّةَ على أنفسهم . فلماذا يَعبدونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ؟ . لماذا لا يَعبدونه وَحْدَهُ ما داموا يَعترفون بأنَّ اللهَ

---

(١٩٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَم خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ فيه أربعة أقوال. أحدها : أَم خُلقوا مِن غَير رَبٍّ خالقٍ . والثاني : أَم خُلقوا مِن غَير آباء ولا أمهات ، فَهُم كالجماد لا يَعْقِلون. والثالث: أَم خُلقوا مِن غَير شيء كالسماوات والأرض، أي إنهم لَيسوا بأشد خَلْقاً مِنَ السماوات والأرض ، لأنها خُلقت مِن غَير شيء ، وَهُم خُلقوا مِن آدم، وآدم مِن تراب. والرابع : أَم خُلقوا لِغَير شيء، فتكون"مِنْ " بمعنى اللام. والمعنى: مَا خُلقوا عَبَثاً فلا يُؤْمَرون ولا يُنْهَوْنَ)) اهـ .

وَحْدَهُ هو الذي خَلَقَهم ؟ . ولماذا لا يُؤمنون بِقُدرته على البَعْث والنُّشور ما داموا مُؤمنين بِقُدرته على الْخَلْق والإيجاد ؟ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٦) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أَم خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أَم صِلة زائدة ، والتقدير أَخُلقوا مِن غَير شيء. قال ابن عباس : مِن غَير رَبٍّ خَلَقَهم وقَدَّرهم. وقِيل : مِن غَير أُم ولا أب ، فَهُم كالجماد لا يَعْقِلون ، ولا تَقوم للهِ عَلَيهم حُجَّة . لَيسوا كذلك . أليسَ قد خُلقوا مِن نُطفة وعَلَقة ومُضغة، قاله ابن عطاء. وقال ابن كَيسان: أَم خُلقوا عَبَثاً وتُركوا سُدىً)).

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٣) : ((وقِيل : المعنى أَم خُلقوا مِن غَير خالق، وذلك لا يجوز فلا بد لهم مِن خالق. وإذا أنكَروا الخالقَ فَهُم الخالقون لأنفسهم ، وذلك في الفساد والبطلان أشدُّ، لأنَّ ما لا وجود له ، كَيْفَ يَخْلُق ؟! . وإذا بَطُلَ الوَجهان قامت الْحُجَّةُ عَلَيهم بأنَّ لهم خَالقاً)) .

وبما أنَّ الْحُجَّةَ قد قامت عليهم بأنَّ لهم خالقاً ، فَلْيُؤمنوا بِه ، وَلْيَعبدوه وَحْدَه ، وَلْيُوقِنوا أنَّه خالقُهم ورازقُهم ، أحياهم ، ثُمَّ يُميتهم ، ثُمَّ يَبعثهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم خَلقوا السَّماواتِ والأرضَ بَل لا يُوقِنُون ﴾ [الطُّور : ٣٦].

أَخَلَقوا السماواتِ والأرضَ . وهذا إنكارٌ عَلَيهم ، وتَوبيخٌ لهم بسبب شِرْكِهم ، إِذْ إِنهم يَعلمون أنَّ اللهَ وَحْدَهُ هو الخالق ، ثُمَّ يُشْرِكون به . والمعنى : لَم يَخلقوا السماواتِ والأرضَ ، وهُم لا يَقولون بذلك ، فقامت عَلَيهم الْحُجَّةُ . ولا أحدَ يَقْدِر على خَلْق السماوات والأرض إلا الله ، فلماذا لا يَعبدونه وَحْدَهُ لا شَريك له ؟ . إنهم لا يُوقنون بالحق ، وهو تَوْحيدُ اللهِ والبَعْثُ . إنهم ضائعون في متاهة الوهم ، ولَيسوا على يقين ، لذلك يَشُكُّون في وَعْدِ اللهِ ووعيدِه .

وقد خُصَّ " السماوات والأرض " بالذِّكْر لِعِظَمِ خَلْقِها ، ومكانتها الشريفة . لذلك ذُكِرت السماواتُ والأرضُ دُون سائر المخلوقات .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٠٣) : ((ثُمَّ قالَ : ﴿ أَم خَلقوا السَّماواتِ والأرضَ ﴾ أي: إنْ جَازَ لهم أن يَدَّعُوا خَلْقَ أنفسهم ، فَلْيَدَّعوا خَلْقَ السماوات والأرض ، وذلك لا يمكنهم ، فقامت الْحُجَّةُ ، ثُمَّ قال : ﴿ بَل لا يُوقِنُون ﴾ ، فَذَكَرَ العِلَّةَ التي عاقتهم عن الإيمان ، وهو عدم اليقين الذي هو مَوهبة مِنَ اللهِ ، ولا يَحصل إلا بتوفيقه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم عِندَهُم خزائنُ رَبِّكَ أَم هُمُ الْمُصَيْطِرُون ﴾ [الطُّور : ٣٧] .

أعِندَ هؤلاء الكافرين خَزائنُ رَبِّكَ يا محمد ، فَاسْتَغْنَوْا عن اللهِ ، وصاروا فوق أوامره ونَواهيه ، ولا يَحتاجون إلى الوَحْيِ والنُّبُوَّةِ . يَتصرَّفون في الْمُلْكِ كَيفما شاؤوا ، ويَخُصُّون مَن شاؤوا بالنُّبوَّة والرِّزق . أَم هُم الْمُتسلِّطون الجبَّارون الغالبون على أمور الكَوْن ، يُدبِّرونها وَفْقَ عِلْمِهم وإرادتهم ، ويُحاسبون الخلائقَ . ليس الأمر كذلك . فاللهُ وَحْدَهُ هو مَالِكُ العالَمِ ، والْمُتصرِّفُ فِيه ، يَفعل ما يشاء ، ولا أحدَ يَسأله عمَّا يَفعل .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٦) : ((﴿ أَم عِندَهُم خَزائنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك ، فيستغنوا عن اللهِ ، ويُعْرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس : خزائن رَبِّك المطر والرِّزق. وقِيل: مفاتيح الرَّحمة. وقال عِكرمة: النُّبُوَّة، أي : أفبأيديهم مفاتيحُ رَبِّك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا . وضَرَبَ الْمَثَلَ بالخزائن التي فِيها مِن كُل الأجناس فلا نهاية لها ﴿ أَم هُمُ الْمُصَيْطِرُون ﴾ قال ابن عباس : الْمُسلَّطون الجبَّارون. وعنه أيضاً الْمُبْطِلون، وقاله الضَّحاك.وعن ابن عباس أيضاً : أَمْ هُم الْمُتَوَلَّوْنَ عَطاءً ، أَم هُم أربابٌ قاهرون)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨٣٩) : عن جُبَير بن مُطْعِم ـ رضي اللهُ عنه ـ قال : سَمعتُ النبيَّ ﷺ يَقرأ في المغرب بالطُّور، فلمَّا بَلَغَ هذه الآيةَ: ((﴿ أَم خُلِقوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَم هُمُ الخالِقُون. أَم خَلقوا السَّماواتِ والأرضَ بَل لا يُوقِنُون. أَم عِندَهُم خَزائنُ رَبِّكَ أَم هُمُ الْمُصَيْطِرُون ﴾)) . كَادَ قَلبي أن يَطير .

لقد استمعَ جُبَير بن مُطْعِم إلى هذه الآياتِ وهو مُشْرِك ، وأثَّرت فيه بقوةٍ لِمَا فِيها مِنَ الْحُجَج البليغة ، والأدلة الباهرة ، والبراهين الساطعة . وكان سماعُه لهذه الآياتِ أحدَ أسباب إسلامه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لَهُم سُلَّمٌ يَستمعونَ فِيهِ فَلْيَأتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلطانٍ مُبِين ﴾ [الطُّور : ٣٨] .

أَم لهؤلاء الكافرين مُرْتَقى إلى السماء ، يستمعون الوَحْيَ ، ويَعلمون أنَّ الذي هُم عَلَيه هُوَ الحق ، لذلك يتمسَّكون به . فَإن كانوا يَدَّعون ذلك ، فَلْيَأْتِ الذي يَزعم أنَّه استمعَ بِحُجَّةٍ واضحةٍ تُؤيِّد كلامَه، وتُصَدِّق استماعَه، كما أتى محمد ﷺ بِحُجَّةٍ واضحةٍ على قَوْلِه ، وأيَّد كلامَه بالبُرهان.

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٦) : ((أي أيَدَّعون أنَّ لهم مُرْتَقى إلى السماء ومَصعداً وسبباً ﴿ يَستمعونَ فِيهِ ﴾ أي: عَلَيه الأخبار ، ويَصِلون بِه إلى عِلْم الغَيْب، كما يَصِل إلَيه محمد ﷺ بطريق الوَحْي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لَهُ البَناتُ ولَكُمُ البَنُون ﴾ [الطُّور : ٣٩] .

إنَّ المشركين كانوا يُضيفون البناتِ إلى اللهِ تعالى ، ويَستأثرون بالبنين . إنهم يَكرهون البناتِ فأضافوهنَّ إلى اللهِ ، ويُحِبُّون الذكورَ فأضافوهم إلى أنفسهم . وهذا مُنتهَى الضلال والسَّفاهة . وقد أنكرَ اللهُ عَلَيهم هذه القِسْمة الباطلة ، حيث جَعلوا للهِ ما يَكرهون . والآيةُ تَحمل تَوبيخاً شديداً لهم، وتَهديداً قوياً، وَكَشْفاً لعقولهم السخيفة. والالتفاتُ في الخطاب﴿ أَم لَهُ ﴾ لِتَوبيخهم الشديد. وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٧) : ((سَفَّهَ أحلامَهم تَوبيخاً لهم وتَقريعاً ، أي أتُضيفون إلى الله البناتِ معَ أَنَفَتِكم مِنهُنَّ. وَمَن كان عقلُه هكذا ، فلا يُسْتَبْعَدُ مِنهُ إنكار البَعْث)).

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٤٩) : ((فِيه تَسفيه لهم وإشعار بأنَّ مَن هذا رَأْيُه لا يُعَدُّ مِنَ العُقلاء فَضلاً أن يترقَّى بِرُوحه إلى عالَم الملكوت فيتطلع على الغيوب)) اهـ.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم تَسأَلُهُم أَجْراً فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُون ﴾ [الطُّور : ٤٠] .

أتسألُ يا محمد هؤلاء المشركين أجراً على تَبليغ الرسالة ، فَهُم مُتْعَبُون ومُجْهَدُون بسبب الأجر الثقيل ، لذلك لا يَستجيبون لك ، ولا يُؤمنون بما جِئْتَ بِه. وهذا تَوبيخٌ لهم وسُخريةٌ بهم . ومعروفٌ أنَّ الأنبياء لا يَأخذون أجراً من الناس على تَبليغ رسالاتِ رَبِّهم. وقال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٩٧):((أتسألُ هؤلاء المشركين الذين أرسلناك إليهم يا محمد على ما تَدعوهم إلَيه مِن تَوحيد الله وطاعته ثواباً ، وَعِوَضاً مِن أموالهم ، فَهُم مِن ثِقْل ما حَمَّلْتَهم مِنَ الغُرْم ، لا يَقدرون على إجابتك إلى ما تَدعوهم إليه)) اهـ . والعادةُ أنَّ الإنسانَ يَتثاقل ويَتهرَّب إذا فُرِضَت عليه أُجْرة ، أو أُلْزِم بِدَفْع مالٍ مُقابل شيء ما. فهل سَألتَ يا محمد هؤلاء المشركين أجْراً على الدَّعوة ، فأثقلتَ عَلَيهم ، فلا يَقْدِرون أن يُسْلِموا بسبب التكاليف المادية المرتفعة ؟ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم عِندَهُمُ الغَيْبُ فَهُم يَكْتُبُون ﴾ [الطُّور : ٤١] .

أَعِندَهم عِلْمُ الغيب ، فَيَكتبون ذلك للناس ، ويُخبرونهم بالأمور الغَيْبِيَّة . أوْ : أَعِندَهم عِلْمُ الغَيب حتى عَلِموا أنَّ أمرَ القيامةِ والبَعْثِ باطلٌ. وبالتالي ، يُمكنهم مُنازَعةُ النبيِّ ﷺ ومُجادَلَتُه بالْحُجَّة والبُرهان . ولَيس الأمر كذلك ، فإنَّ اللهَ وَحْدَهُ يَعلم الغَيْبَ ، ولا أحدَ يُنازِعه في عِلْمِه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٥٧) : ((والمعنى: أعِندَهم الغَيْبُ. وفِيه قَولان : أحدهما أنَّه اللوحُ المحفوظُ ، فَهُم يَكتبون ما فِيه ، ويُخبرون الناسَ . قاله ابن عباس. والثاني أعِندَهم عِلْمُ الغَيب، فَيَعلمون أنَّ محمداً يَموت قبلهم، فهم يَكتبون، أي يَحْكُمون، فَيَقولون: سَنَقْهَرُك. والكتاب الْحُكْم ... وإلى هذا المعنى ذهب ابن قُتَيبة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى :﴿ أَم يُريدونَ كَيْداً فالذينَ كَفروا هُمُ الْمَكِيدون ﴾ [الطُّور : ٤٢] .

أيريدُ هؤلاء المشركون مَكْراً بِكَ يا محمد ، فإنَّهم هُمُ المقهورون والْمَمكور بِهِم. وَكَيْدُهم عائدٌ إلَيهم.وهُم الذين سيدفعون ثمنَ مؤامراتهم عَلَيْكَ. وخُطَطُهم للتخلص مِنكَ ومِن الدَّعوة الإسلامية سَتَكون وَبالاً عليهم ، فَثِقْ باللهِ الذي يَحميك ، وواصلْ دَعوتك ، فإنَّك على الحق . وقال البَغوي في تفسيره (١/ ٣٩٣) : ((وذلك أنهم مَكروا بِه في دار النَّدوة فَقُتِلوا بِبَدْر)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٠) : ((﴿ فالذينَ كَفروا ﴾ يُحتمَل العُموم والخصوص ، فيكون وَضْعُه مَوضع الضمير للتسجيل على كفرهم،والدلالة على أنه الموجب للحُكم المذكور)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَم لَهُم إلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ [الطُّور : ٤٣] .

أَم لهم إلهٌ يَستحق العبادةَ يَخلق ويَرزق ويَنفع ويَضُرُّ غَيْرُ اللهِ . وهذا إنكارٌ شديدٌ على المشركين بسبب عبادة الأصنام . والمعنى : إنَّ الأصنامَ آلهة باطلة مَعبودة بِغَير حق ، لا تَنفع ولا تَضُرُّ ، ولا تَستطيع حماية المؤمنين بها مِن عذاب اللهِ . ولا مَعبود بحق إلا الله النافع الضَّار . وقد نَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن شِرْكِهم وأصنامِهم (آلهتهم المزعومة) .

وفي تفسير الجلالَيْن (١/ ٦٩٩): ((والاستفهام بِأَم في مواضعها للتَّقبيح والتَّوبيخ)).

وقالَ اللهُ تعالى:﴿ وإن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السماءِ سَاقِطاً يَقولوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ [الطُّور:٤٤] .

لَوْ أسقطَ اللهُ على المشركين قِطَعاً مِنَ السماء عقوبةً لهم وعذاباً عليهم ، لَمَا تَرَاجَعوا عن كُفرهم، وإنما سَيَقولون _ عِناداً ومُكابَرةً _ : إنَّهُ سحابٌ تراكمَ بَعْضُه فوق بعض ، مُمْطِرنا ، ولَيس عذاباً . وقال القرطبي في تفسيره(١٧/ ٦٨) : ((وهذا فِعْلُ الْمُعانِد ، أو فِعْل مَن استولى عليه التقليد، وكان من المشركين القِسْمان. والكِسْفُ جَمع كِسْفَة ، وهي القِطْعة مِنَ الشيء)) .

وهذا يُشير إلى شِدَّة طُغيان المشركين وعِنادهم ، وقَسوةِ قلوبهم ، واستكبارهم الشديد . ومِن شِدَّة عُتُوِّهم ، يُكذِّبون أعينَهم ، ويُغالِطون أنفسَهم فِيما يُشاهدونه ويَحُسُّونه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَذَرْهُم حتى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُون ﴾ [الطُّور : ٤٥].

دَعْ هؤلاء المشركين يا محمد في أمانيهم وآثامهم وضَلالهم ، واتْرُكْهم حتى يُلاقُوا يَوْمَ القِيامة ، الذي يَأتيهم فِيه العذابُ الذي يُزيل عقولَهم مِن شِدَّته . وكلمةُ " الصَّعق " ذات وَقْع قوي في النُّفوس ، وهي تَحمل معنى الشِّدة ، وتَشتمل على عنصر المفاجأة المرعب .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ٦٨) : ((قال قتادة: يَوْمَ يَموتون. وقِيل: هُوَ يَوْم بَدْر . وقِيل : يَوْم النَّفخة الأُولَى . وقِيل : يَوْم القيامة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الْجُمُعة : ٦] .

أمرَ اللهُ نَبِيَّه محمداً ﷺ أن يَقول لليهود إظهاراً لِكَذبهم : إنْ كُنتم أولياءَ اللهِ وأحبابَه ، وصَفْوَتَه مِن خَلْقِه _ كما تَزعمون _، فَتَمَنَّوُا الموتَ إنْ كُنتم صادقين في زَعْمكم. أي : ادْعُوا على أنفسكم بالموت كَي تَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا وأوساخِها ، وتَدخلوا الجنةَ وتَستمتعوا بنعيمها . واللهُ يُكْرِم أولياءَه ولا يُعَذِّبهم. ومَن عَلِمَ أنَّه مِن أهل الجنة، أحبَّ لقاءَ اللهِ، والفَوْزَ بِجَنَّته، والتخلصَ مِن الدُّنيا المعجونة بالهموم والمصائب . والوَلِيُّ يُفَضِّلُ الآخِرةَ عَلى الدنيا ، وأوَّلُ الآخرةِ هو الموت ، فَتَمَنَّوْهُ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٨) : ((﴿ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِن دُونِ النَّاسِ ﴾ إِذْ كانوا يَقولون : نَحْنُ أبناءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه .﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ فتَمَنَّوا مِن اللهِ أن يُميتكم ويَنقلكم مِن دار البَلِيَّة إلى مَحَل الكرامة)) اهـ .

لقد فَضَحَ اللهُ اليهودَ ، وكشفَ عن دواخلهم الممتلئة بحب الدنيا وكراهية الموت . فإن كان جزاءُ اليهود الجنةَ في الآخرة فليتمنَّوُا الموتَ ، ومُلاقاةَ الله كَي يُكافِئَهم بالنعيم الأبديِّ ، فيرتاحوا مِن عَناء الدنيا.لكنهم يَعلمون أنَّ مصيرهم إلى جهنم،فَيَهْربون من الموت_حَسَبَ نظرتهم القاصرة_ ويتشبَّثون بالدنيا بأسنانهم وأظافرهم لِعِلْمِهم بِما يَنتظرهم بعد الموت مِن العقوبة الشديدة والعذابِ الأليم . وإنْ كان اليهودُ صادقين في دعواهم بأنهم أولياء للهِ ، فَلْيَتَمَنَّوا الموتَ كي يَستريحوا من تعب الحياة الدنيا ، ويَنتقلوا إلى نعيم الجِنان الأبديِّ . والْمُتَيَقِّنُ أنَّه مِن أهل الجنة سَيَشتاق إليها ، وَسَيَفِرُّ مِنَ الدنيا بِكُلِّ قُوَّته .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((لَوْ أنَّ اليهودَ تَمَنَّوُا الموتَ لَماتوا ، وَرَأَوا مَقاعِدَهم في النار))[199].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدَاً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الْجُمُعة : ٧].

---

(١٩٩) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٤٨) برقم (٢٢٢٥)، وأبو يعلى (٤/ ٤٧١) برقم (٢٦٠٤)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٤١٨): ((رجال أبي يعلى رجال الصحيح))، ورواه الطبري في تفسيره (١/ ٤٦٨) ، وصحَّحه ابن حجر في العُجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٨٧) .

ولا يتمنَّى اليهودُ الموتَ أبداً، وذلك بسبب كُفرهم وذُنوبهم وتَحريفهم للتَّوراة وتَكذيبهم بِنُبُوَّة محمدﷺ ، وَلَوْ تَمَنَّوا الموتَ لماتوا فَوراً. وعدمُ تَمَنِّيهم للموت يُبْطِل زَعْمَهم أنهم أولياءُ للهِ تعالى ويَكشف كَذِبَهم . وفي الآية إخبارٌ بالغَيب المستقبليِّ ، ومُعْجِزةٌ للنبيِّ ﷺ . واللهُ يَعلم الظالمين مِن عِباده ، فَيُجازيهم على أعمالهم ، والآيةُ تَحمل وَعيداً لهم .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٢٩٩) : ((ثُمَّ أخبرَ تعالى أنهم لا يَتَمَنَّوْنَهُ أبداً لِعِلْمِهم بِسُوء حالهم . وروى كثير مِن المفسِّرين أنَّ اللهَ جَلَّت قُدْرَتُه جَعل هذه الآية مُعجزةً لمحمدٍ نَبِيِّه فيهم ، فهي آية باهرة ، وأعلمَه أنه إنْ تمنَّى أحدٌ منهم الموتَ في أيام مَعدودات مات ، وفارق الدنيا، فقال رسولُ الله ﷺ : تَمَنَّوا الموتَ ، على جِهة التَّعجيز وإظهار الآية ، فما تمنَّاه أحدٌ مِنهم خَوفاً مِن الموت ، وثِقَةً بِصِدْقِ نَبِيِّنا محمد ﷺ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ المَوْتَ الذي تَفِرُّونَ مِنهُ فإِنَّهُ مُلاقِيكُم ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ فَيُنَبِّئُكُم بما كُنتم تَعْمَلُون ﴾ [الْجُمُعة : ٨] .

قُل يا محمد لليهودِ : إنَّ الموتَ الذي تَكرهونه ، وتَهْرُبون مِنهُ ، وتَرفضون أن تَتَمَنَّوْهُ حتى بألسنتكم. فإنَّهُ نازلٌ بِكُم بلا شَكٍّ في الموعد المحدَّد بلا تقديم ولا تأخير، ولا يمكن الهروب منه . فالموتُ قَدَرٌ مَحتوم ، وواقعٌ لا مَهْرَبَ مِنهُ . ولا يُغني حَذَر مِنْ قَدَر . ثُمَّ تَرْجِعون بعد الموت إلى اللهِ الذي يَعلم السِّرَّ والعلانيةَ، ولا يَخفَى عليه شيء، فَيُجازيكم بأعمالكم ، وهذا وَعيدٌ وتهديد .

لقد عَلِمُوا أنَّ مصيرَهم إلى النار ، بسبب تكذيبهم للنبيِّ ﷺ ، فَكَرِهوا الموتَ ، وهَربوا مِنهُ ، ولكنْ ، كَيْفَ الهروب مِنَ الموت ؟ . لا مَهْرَب مِنَ الموت . أمَّا محاولةُ البعض الهروب من الموت _ حَسَبَ تفكيرهم القاصر _ فهي حركات عبثية ، لأن الموتَ قادمٌ ، وسيُلاقي الناسَ وجهاً لوجه فلا يَترك لهم فرصةً للهرب أو الإفلات.والقَدَرُ المحتوم نازلٌ بالناس لا مَحالة، ولا تنفع معه وسائل الحراسة أو الاختباء .

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٨٥) : ((قال الزَّجاج : لا يُقال : إنَّ زَيداً فَمُنطلِق. وها هنا قال : ﴿ فإنَّهُ مُلاقِيكُم ﴾ لِمَا في معنى ﴿ الذي ﴾ مِن الشَّرْط والجزاء ، أي : إنْ فَرَرْتُم مِنهُ ، فإنه مُلاقيكم ، ويَكون مُبالَغةً في الدلالة على إنَّه لا يَنفع الفِرارُ مِنهُ)) اهـ .

وفي لطائف المعارف (١/ ٣٢١) : ((قال أبو بكر الصديق لِعُمر _ رضي الله عنهما _ في وَصِيَّته له عند الموت : إنْ حَفظتَ وَصِيَّتي لَم يكن غائبٌ أحبُّ إلَيك من الموت ، ولا بُدَّ لكَ مِنه ، وإنْ ضَيَّعْتَها لَم يكن غائب أكره إليك من الموت ، ولن تُعْجِزَه . قال أبو حازم : كُلُّ عمل تكره

الموت مِن أجْلِه فاتركه ، ثُمَّ لا يَضُرُّكَ متى مِتَّ . العاصي يَفِرُّ من الموت لكراهية لقاء الله ، وأينَ يَفِرُّ مَن هُوَ في قَبضة مَن يَطْلُبُه : أيْنَ الْمَفَرُّ والإلهُ الطالبُ... والمجرمُ المغلوبُ لَيس الغالب)) .

وعَن سَمُرة بن جُندب قال : قال رسول الله ﷺ : ((مَثَلُ الذي يَفِرُّ مِنَ الموت كَمَثَلِ الثعلب ، تَطْلُبُه الأرضُ بِدَيْنٍ ، فَجَعل يَسعى حتى إذا أعيا وانبهرَ ، دَخَلَ جُحْرَهُ ، فقالت له الأرض: يا ثعلب دَيْني ، فَخَرَجَ وله حُصَاص _ شِدَّة عَدْوِه _ ، فَلَم يَزَلْ كذلك حتى تَقَطَّعت عُنُقُه ، فمات))(200) .

كما أنَّ الثعلبَ مُلتصق بالأرض ، ولا يَقْدِر على الإفلات من الجاذبية ، مهما رَكَضَ وابتعدَ ، فكذلك الإنسان مرتبط بالموت ، وهذه الرابطة لا يُمكن فَصْلُها . وخُصَّ الثعلب بالذِّكْر ، بسبب مَكْرِه الشديد ، وقُدرته الفائقة على الْمُرَاوَغة والرَّوَغان. والعربُ تَضرب الْمَثَلَ بالثعلب في شِدَّة الرَّوَغان ، فتقول : أرْوَغ مِن ثعلب . ومعَ هذا لَم يُفْلِتْ مِن الموت .

وقال الرامهرمزي في أمثال الحديث (١/ ١٠٧) : ((خُصَّت الأرض بهذا الْمَثَل لأنَّ أحداً لا مَهْرَب له مِنها ، وخُصَّ الثعلب بهذا التمثيل لِرَوَغانه ، واعتياصه على الصائد ، وشِدَّةِ عَدْوه)) .

وقال زُهَير بن أبي سُلمى :

وَمَن هَابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ   وإنْ يَرْقَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

وقال طَرَفة بن العبد :

والْمَنايا حَوْلَهُ تَرْصُدُهُ   لَيْسَ يُنجيه مِنَ الموتِ الحذَرُ

---

(٢٠٠) رواه الطبرانيُّ في الكبير (٧/ ٢٢٢) برقم (٦٩٢٢) . وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٩) : ((وفيه مُعاذ بن محمد الْهُذَلي . قال العُقَيلي : لا يُتابَع على رَفْع حديثه)) اهـ . وقال ابن الجوزي في العِلَل المتناهية (٢/ ٨٨٨) : ((هذا حديث لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ . ومعاذ في حديثه وهم ، ولا يُتابَع على رَفْعه ، وإنما هو موقوف على سَمُرة)) اهـ .

٥

تَنْزِيهُ القُرآن عَن الشِّعْر

إنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ، لا يُشْبِه كلامَ البشر، ولا يُشْبِهُه أيُّ كلام. ولَيس القُرآنُ نَثْراً ولا شِعْراً.
وما طعنُ المشركين في القرآن ورَمْيه بالشِّعر إلا دليل عَجْز . فقد فشلوا في مُحاكاة القرآن أو التفوق عليه ، مِمَّا جعلهم يختبئون خلف التشكيك في القرآن ، وإلقاءِ التُّهم التي لا يَسندها أيُّ دليل . لذلك فقد وَصفوا القرآن بالشِّعر معَ إيمانهم بأنه مُخالف للشِّعر في طريقة نَظْمه ، وأنه فوق مستوى البشر ، فقد اشتمل على الغَيبيات ، وأحكامِ الحلال والحرام ، والفصاحةِ الساطعة ، والقوةِ البيانية الباهرة ، والنُّظُم الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . فهو متفوق على كلام العرب ، يلهثون وراء أسلوبه دون أن يُدركوه معَ أنهم أهل الفصاحة والبيان ، ومنبع الشعراء العباقرة. وإذا كان العرب _ أهل الفصاحة والبلاغة _ قد عَجزوا عن محاكاة القرآن أو التفوق عليه ، فَغَيْرُهم سيكون أكثر عَجْزاً ، وَهُم الأعاجم .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وما عَلَّمْناهُ الشِّعرَ وما ينبغي لَهُ إنْ هُوَ إلا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِين ﴾[يس : ٦٩].

اللهُ لَم يُعَلِّم النبيَّ ﷺ الشِّعرَ ، وما ينبغي له أن يكون شاعراً . فالشِّعرُ لَيس في طَبْعه ﷺ ، ولا يُتْقِنُه ولا يُحِبُّه. والقرآنُ ليس شِعراً، وإنما عِظَةٌ وتذكيرٌ للإنس والجن ، لكي يَخرجوا مِنَ الظلمات إلى النُّور، فَيَفوزوا بالدَّارَيْن . والقُرآنُ خَاتَمُ الكتب السماوية يشتمل على أحكامِ الدُّنيا والآخرة ، ولَيس قصائد شِعرية ممزوجة بالخيالات والعواطف. واللهُ عَلَّمَ محمداً ﷺ القُرآنَ ، ولَم يُعَلِّمْهُ الشِّعْرَ. وفي هذا تكذيبٌ لكفار قُرَيش الذين قالوا إنَّ محمداً شاعر ، وما يَقوله شِعْر .

والنبيُّ ﷺ لا يَعرف أوزانَ الشِّعْر . وكثيراً ما ذَكَرَ أبياتاً لشعراء ، فكسرَ وَزْنَها . وهذا دليلٌ على عدم إتقانه الشِّعْر . وأحياناً ، قد يُصيب النبيُّ ﷺ الوزنَ في كلامه بلا قَصْد، ولا معرفة بأوزان الشِّعْر ، كَقَوله ﷺ : ((هَل أنتِ إلا إصبعٌ دَمِيتِ . وفي سَبيلِ اللهِ مَا لَقيتِ))[201].

وهذا الكلامُ لَيس شِعراً ، لأنَّه يَجري على اللسان بِحُكْم الكلام ، ولَيس بِحُكْم الشِّعْر الكلام الْمُقفَّى الموزون ، الذي يَنطلق مِن القَصْدِ والتصميمِ والنِّية الْمُبَيَّتة . وكَثيرٌ مِنَ العوام يَنطقون بكلام مَوزون ، وَهُم لا يَعرفون الوزنَ . ومعَ هذا لا يمكن تسميتهم شُعراء .

---

(٢٠١) متفق عليه . البخاري (٥/ ٢٢٧٦) برقم (٥٧٩٤) ، ومسلم (١٤٢١/٣) برقم(١٧٩٦).

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٤٨) : ((رُوِيَ أنَّ المأمون قال لأبي علي المنقري : بَلَغني أنك أُمِّيٌّ ، وأنك لا تُقيم الشِّعْرَ ، وأنك تَلْحَن ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أمَّا اللحنُ فربما سبق لساني منه بشيء، وأمَّا الأُمِّية وَكَسْر الشِّعْر، فقد كان رسول الله ﷺ لا يَكتب ولا يُقيم الشِّعْر. فقال له : سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً ، وهو الجهل . يا جاهل ! ، إنَّ ذلك كان للنبيِّ ﷺ فضيلة ، وهو فيك وفي أمثالك نقيصة . وإنما مُنع النبيُّ ذلك لِنَفْي الظِّنَّة عَنه ، لا لِعَيْبٍ في الشِّعْر والكتابة)) اهـ .

إنَّ النبيَّ ﷺ كانَ أُمِّياً لا يُحْسِن الشِّعْرَ ، وذلك لإبعاد الشُّبهة عنه، وتَنْزِيه القُرآن عن الشُّكوك والظنون . فَلَوْ كانَ النبيُّ ﷺ قارئاً وكاتباً ، أو شاعراً ، لَشَكَّ فيه كثيرٌ مِنَ الجهَّال، وقالوا : لقد أَلَّفَ القُرآنَ كما يُؤلِّف قصائدَه ، وَلَقَالوا : لقد جاءَ بالقُرآنِ مِن عِندِه ، فهو القادرُ على القراءة والكتابة وقَوْل الشِّعْر ، ونَظَمَ آياتِ القُرآن كما يَنْظِم أبياتَ قصائده . وقد أغلقَ اللهُ هذا البابَ ، وجَعَلَ محمداً ﷺ أُمِّياً لا يَقْدِر على قَوْل الشِّعر، إظهاراً لدليل صِدْقِه، ودَحْضاً للشُّبهات والشُّكوك.

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٧٦٣) : ((وقال أبو زُرعة الرازي : حَدَّثَنا إسماعيل بن مُجالِد عن أبيه عن الشَّعبي أنَّه قال : ما وَلد عبد المطلب ذَكَراً ولا أُنثى إلا يَقول الشِّعْرَ إلا رسولَ الله ﷺ . ذَكَرَه ابن عساكر في ترجمة عُتبة بن أبي لهب الذي أكله الأسد بالزرقاء)) اهـ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٤٠) : ((﴿ وما عَلَّمْناه الشِّعرَ ﴾ رَد لِقَولهم إنَّ محمداً شاعر، أي: ما عَلَّمْناه الشِّعْرَ بتعليم القرآن ، فإنه لا يُماثله لَفْظاً ولا معنى ، لأنه غَير مُقفَّى ، ولا مَوزون، وليس معناه ما يَتَوَخَّاه الشعراء من التَّخيلات الْمُرغِّبة والْمُنفِّرة ونحوها. ﴿ وما ينبغي له ﴾ وما يَصِحُّ له الشِّعْر،ولا يتأتَّى له إن أراد قَرْضَه،على ما خَبَرْتُم طَبْعَه نَحْواً مِن أربعين سنة)) اهـ .

واختلافُ القرآن عن الشِّعر واضحٌ للجميع . فَلَسْنا بحاجة إلى عالِم باللغة لكي يكتشف الموضوع. وهذه الحقيقة كانت معروفة لدى الذين يستمعون القرآن . لكنَّ الأهواء الشخصية تُعتبَر أكبر تشويش على الحق والحقيقة . كما أنَّ محمداً ﷺ لَم يُعرَف طيلة حياته بأنَّه شاعر أو يُجالِس الشُّعراء . وحياتُه مَكشوفة لكل الناس ، لا تُوجد فيها أسرار وخفايا . حيث إنهم يَعرفون نَسَبَه وعشيرته ومِهنته وتفاصيلَ حياته .

وفي صحيح مسلم(٤/ ١٩١٩): قال أُنَيس ــوهو أخو أبي ذَر الغِفاري وكان أحدَ الشعراءــ حينما سَمِعَ القرآنَ : ((لقد سَمعتُ قَوْلَ الكَهَنةِ فَمَا هُوَ بِقَوْلِهم ، ولقد وَضعتُ قَوْلَه على أَقْرَاءِ الشِّعر ــ قَوافيه ــ، فما يلتئم على لسان أحد بَعدي أنه شِعْر، واللهِ إنَّهُ لَصَادقٌ وإنهم لَكَاذبون)).

هَا هُوَ أُنَيس الشَّاعر في رحلة بحثه عن الحقيقة ، وبعد سماعه للقرآن الكريم ، يدرك أنه ليس بكلام الكَهَنة ، وليس بالشِّعر ، ويختلف عن أساليب الشعراء ، وقد شهد بصدق النبيِّ ﷺ وأن الذين يَرْمُونه بالكِهانة والشِّعر كاذبون . وهذا كلامُ مَن يَطرح التعصبَ جانباً ، ويسعى إلى معرفة الحق والحقيقة بقلبٍ صادقٍ خالٍ من الأهواء ، والأفكارِ السيئة المسبقة ، والنَّزواتِ الشخصية ، والمنافعِ الدنيوية البحتة. وفي الحديث أنَّ الوليد بن المغيرة(رأس الكُفْر) قال بعد أن سَمِعَ القرآنَ : ((فواللهِ ما فِيكُم مِن رَجُلٍ أعلمَ بالأشعار مِنِّي، ولا أعلمَ بِرَجَزٍ ولا بقصيدةٍ مِنِّي، ولا بأشعارِ الجن، واللهِ ما يُشْبِهُ الذي يَقولُ شيئاً مِن هذا، وواللهِ إنَّ لِقَوْلِهِ الذي يَقول حَلاوةً، وإنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوة، وإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أعلاه، مُغْدِقٌ أسْفَلَه ، وإِنَّهُ لَيَعْلُو وما يُعلَى ، وإنَّهُ لَيَحْطِمُ ما تَحْتَه)) (202).

وهذا الاعترافُ الصريح من الوليد بن المغيرة يشير إلى تَمَيُّز القرآن عن الشِّعر . والحق ما شَهِدَت بِهِ الأعداءُ . وهذا الاعتراف لَم يَجِئْ مِن شخص جاهلٍ لا يَعرف اللغةَ العربية، بل جاء من خبير بها ، مُتبحِّر فيها . فالوليد كان عَالِماً بالأشعار ، والرَّجَز ، والقصيدة ، وأشعار الجن . وقد عَقَدَ في ذهنه مقارنةً بين القرآن وهذه الأشياء ، فلم يجد أدنى تشابه . مِمَّا يدل على أنَّ مَصْدَرَ القرآنِ سَماويٌّ عُلْوِيٌّ ، ومَصْدَرَ الشِّعْرِ بَشريٌّ أرضيٌّ .

وقد سُئلت السيدة عائشة_ رضي الله عنها _ : هل كان النبيُّ ﷺ يَتمثَّلُ بشيء مِنَ الشِّعر ؟ ، قالت : ((كان يَتمثَّلُ بِشِعْرِ ابْنِ رَواحة ، ويتمثل ويقول : ويَأتيكَ بالأخبار مَن لَم تُزَوِّدِ))(203).

وهذا دليلٌ على جَواز تَمَثُّل النبيِّ ﷺ بشيء مِنَ الشِّعر . ولا تعارض بين الآية النافية لِكَوْنِ النبيِّ ﷺ تَعَلَّمَ الشِّعرَ ، وبين هذا الحديث الذي يُوضِّح أنَّه ﷺ كان يتمثل بشيء من الشِّعر. فالتمثُّل بالشِّعر يستند إلى التقاط الشِّعر من البيئة المحيطة ، وترداده في حادثة مناسبة ، وهذا الأمرُ يختلف عن تعلُّم أوزان الشِّعر وتأليف القصائد كما يَفعل الشعراء . فالشاعرُ يَقصد أن يَأتِيَ بكلامِه مَوْزوناً مُقَفَّىً مُشتملاً على الخيالات . أمَّا مَن تَمَثَّلَ بِشِعْرِ الآخرين فَليس بشاعر .

وقال الحافظ في فتح الباري (١٠/ ٥٤١) : ((وقد اخْتُلِف في جواز تَمَثُّل النبيِّ ﷺ بشيء من الشِّعر وإنشاده حاكياً عن غَيْرِه ، فالصحيح جَوازُه)) اهـ .

---

(٢٠٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٥٠) برقم (٣٨٧٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

[الرَّجَز: بَحْرٌ مِن بُحور الشِّعْر. الطلاوة: الرَّوْنق والحُسْن. الْمُغْدِق: الكثير المطر . يَحْطِم : يَكْسِر] .

(٢٠٣) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ١٣٩) برقم (٢٨٤٨) وصحَّحه .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ويَقولونَ أئِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشَاعِرٍ مَجنون ﴾ [الصَّافَّات : ٣٦] .

يَقول مُشركو قُرَيش إذا دُعُوا إلى تَوحيدِ اللهِ : أنترِكُ عبادةَ آلهتنا ودِينَ آبائنا لِقَوْلِ شاعرٍ مجنون. وهُم يَقصدون النبيَّ ﷺ . وقد كَذَّبهم اللهُ تعالى، فقالَ: ﴿ بَلْ جاءَ بالحقِّ وصَدَّقَ الْمُرْسَلِين ﴾ [الصَّافَّات : ٣٧] .

القُرآنُ كلامُ اللهِ ، ولَيس شِعْراً . ومحمد ﷺ لَيس شاعراً . إنَّهُ رَسولُ اللهِ ، جاءَ بالحق الواضح (القُرآن) مِن عِندِ اللهِ ، وصَدَّقَ الْمُرْسَلين الذين جاؤوا قَبْلَهُ برسالة التَّوحيد ، وَلَم يَأْتِ بشيء غريب . وكلامُ المشركين متناقض ، لأنَّ الشاعرَ شَخْصٌ مُفَكِّرٌ قادرٌ على ابتكار الخيالات واختيار الألفاظ الجميلة والمعاني الْمُدْهِشة ، والمجنونَ شَخْصٌ فاقدٌ لِقُواه العقلية لا يَقْدِر على قَوْلِ الشِّعْرِ .

فكيفَ يَكون الشاعرُ الْمُبْدِعُ مَجنوناً عاجزاً ؟! . إنَّها تُهمة باطلة ومتناقضة في ذاتها ، وهي تدل على التَّشويش الهائل في أذهان المشركين الناتج عن الأهواءِ والعِناد والْمُكابَرة [204].

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٥٥٧) : ((﴿ بَلْ جاءَ بالحقِّ ﴾ يعني القرآن المشتمِل على التَّوحيد والوَعْد والوعيد. ﴿ وصَدَّقَ الْمُرْسَلِين ﴾ أي: صَدَّقَهم فيما جاؤوا به من التوحيد والوعيد وإثبات الدار الآخِرة ، وَلَم يُخالِفْهم ، ولا جاء بشيء لَم تَأْتِ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كَريم (٤٠) وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون (٤١) ولا بِقَوْلِ كَاهنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون (٤٢) ﴾ [الحاقَّة] .

القُرآنُ كلامُ اللهِ يَتلوه عَلَيكم رَسولٌ كريم مُنَزَّهٌ عن الكذب ، وهو محمد ﷺ . وقد أُضيفَ القَولُ إلى النبيِّ ﷺ لأنَّهُ هُوَ مُبَلِّغُ كلامِ اللهِ إلى الناس [205] .

---

(٢٠٤) قال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٧/ ٣٥٧) : ((جمع المشركون بين إنكار الوَحدانية ، وإنكار الرسالة ، ثُمَّ خَلَطوا في كلامهم بِقولهم " شاعر مجنون " فإنَّ الشاعرَ عِندَه مِنَ الفَهْمِ والحِذْقِ ما يَنْظِم به المعاني الغريبة ، ويَصُوغها في قالب الألفاظ البديعة ، ومَن كان مجنوناً لا يَصِل إلى شيء من ذلك ، فكلامُهم تَخليط وهَذَيان)) اهـ .

(٢٠٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٨/ ٣٥٤): ((﴿ إنَّهُ ﴾ يعني القرآن. ﴿ لَقَوْلُ رَسولٍ كَريم ﴾

وقال القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٣٩): ((ولَيس القُرآنُ قَوْلَ الرسول ﷺ ، إنما هُوَ مِن قَوْلِ اللهِ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ ، ونُسِبَ القَوْلُ إلى الرسول ، لأنَّه تَالِيه ومُبَلِّغُه)) اهـ .

﴿ وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون ﴾ . لَيْسَ القُرآنُ شِعْراً ، لأنَّهُ مُخالِف لأوزان الشِّعْر وأنواعِه، ولَيس محمد شاعراً، لأنَّهُ لا يُحْسِن نَظْمَ الشِّعْر ، ولا يُتْقِن كتابةَ القصائد . وأهلُ الجاهلية كانوا يَعرفون هذه الحقيقة الواضحة . والقُرآنُ لَيس شِعْراً ولا نثراً .

وقال الثعالبي في تفسيره (٤/ ٣٣٦) : ((نَفى سُبحانه أن يَكون القُرآنُ مِن قَوْلِ شَاعرٍ ، كما زَعمتْ قُرَيشٌ . و﴿ قليلاً ﴾ نُصِبَ بِفِعْلٍ مُضْمَر ، يدل عليه ﴿ تؤمنون ﴾ ، و﴿ ما ﴾ يُحتمَل أن تكون نافيةً ، فينتفي إيمانُهم البَتَّة. ويُحتمَل أن تكون مصدرية ، فَيَتَّصف إيمانُهم بالقِلَّة، ويكون إيماناً لُغوياً ، لأنهم قَد صَدَّقوا بأشياء يسيرة ، لا تُغني عنهم شيئاً)) اهـ .

﴿ ولا بِقَوْلِ كَاهنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾ . لَيْسَ القُرآنُ بِقَوْلِ كاهن يَدَّعي مَعرفة الغَيب ، لأنَّ محمداً ليس كاهناً ، ولَم يُعْرَف عنه أنَّه كان يتردَّد عليهم، كما أنَّ أسلوب القُرآن يَختلف بشكل واضح عن سَجْعِ الكُهَّان . وأيضاً صِفات محمد الطاهرة تختلف عن صفات الكُهَّان الدنيئة . فأخلاقُ الكَهَنة مَعجونة بالْخُبْث والكذب والاستغلال والابتزاز من أجل أخذ أموال الناس . وهذه الأخلاقُ الدنيئةُ بعيدة كُلَّ البُعْد عن محمد ﷺ المعروف في الجاهلية والإسلام بالصادق الأمين .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٢١٤) : ((وأراد بالقليل نَفْيَ إيمانهم أصْلاً ، كَقَوْلِك لِمَن لا يَزُورك : قَلَّما تأتينا ، وأنتَ تريد : لا تأتينا أصْلاً)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكْر أن نَفْيَ الشِّعْر ارتبطَ بِ ﴿ قليلاً ما تُؤمنون ﴾ ، أمَّا نَفْيُ الكِهانةِ فارتبطَ بِ ﴿ قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾ ، لأنَّ مُخالَفة القُرآنِ للشِّعْرِ أمرٌ واضحٌ لا يَحتاج إلى دراسة وتَمحيص ، أمَّا مُخالَفة القُرآن للكِهانة فتتطلب دراسة ألفاظ القُرآن ومَعانيه ، لمعرفة الفَرْق بينهما وبين سَجْع الكُهَّان ، كما تتطلب معرفة أحوال النبيِّ ﷺ للتَّمييز بَيْنَه وبين الكاهن . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٨٤) : ((وذِكْرُ الإيمانِ معَ نَفْي الشَّاعرية ، والتذكر معَ نفي الكاهنية، لأنَّ عَدَمَ مُشابَهة

فِيه قَولان : أحدهما: محمد ﷺ ، قاله الأكثرون. والثاني: جبريل ، قاله ابن السَّائب ومقاتل . قال ابن قُتَيبة : لَم يُرِدْ أنَّه قَوْلُ الرسول ، وإنما أراد أنَّه قَوْل الرسول عن الله تعالى . وفي الرسول ما يَدَلُّ على ذلك ، فاكتفى بِه مِن أن يَقول : عَن اللهِ)) اهـ .

القرآن للشِّعْر أمرٌ بَيِّن، لا يُنكِره إلا مُعانِد ، بِخِلاف مُباينته للكِهانة ، فإنها تتوقف على تذكُّر أحوال الرسول ، ومعاني القرآن الْمُنافية لطريقة الكَهَنة ومعاني أقوالهم)) اهـ .

إنَّ القُرآنَ هُوَ الْمُدافِع القويُّ عن النبيِّ ﷺ في وَجْه خُصومه الذين يَتَربَّصون بالدَّعوة . وقد ثبَّت اللهُ محمداً ﷺ في طريق نشر الرسالة السماوية، ونَفى تُهَمَ الكافرين التي تُلْقَى جُزافاً دون أدِلَّة.

والدعاوى إنْ لم تُقيموا عليها بيِّناتٍ أبناؤُها أدعيـاءُ

وقد أكَّد الخطابُ القرآنِيُّ على كَوْنِ النبيِّ ﷺ رَسولاً كريماً ، لا شاعراً ولا كاهناً . فالشاعر الذي يَرمي إلى تَنميق كلامه وجَعْله مَوزوناً، فيصنع القصائد في المناسبات المختلفة ، ويَخلط الحق بالباطل، والواقع بالخيال ، طريقه مختلف عن طريق النبيِّ ﷺ الذي يُبَلِّغ كلامَ الله بلا زيادة أو نقصان . والكاهنُ يحاول استغلال جَهْل الناس وابتزازهم للحصول على المنافع المادية بواسطة الخديعة ، حيث يُقدِّم نفْسَه كعالِم بالغَيب ، وما سَيَحْدث في المستقبل . لذا فإنَّ هَمَّه هو تحقيق مكاسب شخصية دون التفكير في إنقاذ البشرية ، أو صناعة مجتمع السعادة، والعدالة الاجتماعية، وإعمار الإنسان والبيئة . وفي اللغة : ((كَهُنَ _ كِهانةً : صار كَاهِناً. وتكهَّن له : أخبره بالغَيب. وتكهَّن بالأمر أخبرَ به على وجه التَّوقع. والكاهن : مَن يَتَنَبَّأ بالغَيب)) [206].

وهكذا يَظهر لنا أنَّ الكِهانة مُضادة للمنهجية النبوية في الحياة . فالنبيُّ ﷺ لَم يزعم الألوهية أو ادِّعاء الغَيب. وَلَم يَقُلْ للناس: اعبدوني من دون الله . وَلَم يخترع مُعجِزات وهمية لابتزاز أموال الآخرين، وتثبيت زعامة سياسية انتهازية. بل كان المسارُ النبويُّ واضحاً للغاية في الوسيلة والغاية .

عن شُرَيح بن عُبَيد قال:قال عُمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه قال: خَرجتُ أتعرَّضُ رسولَ الله ﷺ قبل أن أُسْلِمَ فَوجدتُه قد سَبَقني إلى المسجد، فَقُمْتُ خَلْفَه ، فاستفتحَ سُورةَ الحاقة ، فجعلتُ أَعْجَبُ مِن تأليف القرآن ، قال : فقلتُ : هذا واللهِ شاعر كما قالت قُرَيش. قال : فقرأ : ((﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسولٍ كَريم . وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعرٍ قليلاً ما تُؤمنون ﴾)). قال: قلتُ: كاهن. قال : ((﴿ ولا بِقَوْلِ كَاهنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون ﴾)). إلى آخر السُّورة. قال: فَوَقَعَ الإسلامُ في قلبي كُلَّ مَوْقِع [207].

---

(٢٠٦) المعجم الوجيز ، ص ٥٤٤ ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٢٠٧) رواه أحمد في مسنده (١/ ١٧) برقم (١٠٧) . والحديثُ ضَعيف لانقطاع السَّند . قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٥٦) : ((رجاله ثقات ، إلا أن شُرَيح بن عُبَيد لَمْ يُدْرِكْ عُمر)) .

٦

تَأَوُّلُ المُتَأَوِّلِين وتحريفاتُهم

إنَّ كثيراً مِن الْمُنحرِفين عَقَدياً لا يَستطيعون مُواجَهةَ النصوصَ الدِّينية والصِّدامَ معها بشكل واضح،وذلك لأنَّ انحرافَهم سَيَظْهر للناس، وتتساقط أقنعتُهم. وبالتالي يَفضحون أنفسَهم بأنفسهم. لذلك ، يَلجأون إلى لَوْيِ أعناق النُّصوصِ ، وتأويلها بشكل شاذ ، وإخراجها عن سياقها اللغوي والدِّيني والتاريخي ، في محاولة مِنهم لهدم الدِّين مِن الداخل . إنهم يَستخدمون الدِّينَ لهدم الدِّين. وذلك لإبعاد الشُّبهات عنهم، وإخفاء خِياناتهم وحِقْدهم وكراهيتهم للحق، وتقديم أنفسهم كَعُلماء وباحثين حريصين على تفسير النُّصوص. وهذه اللعبةُ المكشوفة لا تَنطلي إلا على السُّذَّج والجهَّال.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥] (208).

أفيطمعُ المؤمنون أن يُصدِّقهم اليهودُ ويُؤمنوا بالدَّعوة الإسلامية . وقد كانت طائفة من اليهود يَسمعون الكلامَ الإلهيَّ (التوراة) ثم يُحرِّفونه عَن عَمْدٍ وإصرار، كَوَصْفِ محمد ﷺ وآيةِ الرَّجْم ، ويُغيِّرون ما في التَّوراة مِنَ الأحكام.والمعنى: لا تَطمعوا أيها المؤمنون بإسلامهم، فلهم سابقة بالكفر.

(٢٠٨) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٠٣): ((في المخاطَبين بهذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها أنَّه النبيُّ ﷺ خاصةً، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني أنَّه المؤمنون، تقديره أفتطمعون أن يُصَدِّقوا نَبِيَّكم، قاله أبو العالية وقتادة.والثالث أنهم الأنصار، فإنهم لَمَّا أسلموا أحَبُّوا إسلامَ اليهود للرَّضاعة التي كانت بَيْنَهم ذَكَرَه النَّقاش. قال الزَّجاج: وألِفُ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ ألِف استخبار، كأنَّه آيَسَهم مِنَ الطمع في إيمانهم . وفي سماعهم لكلام اللهِ قَولان: أحدهما أنهم قَرؤوا التَّوراةَ فَحَرَّفوها، هذا قَول مجاهد والسُّدي، فيكون سماعُهم لكلام الله بِتَبليغ نَبِيِّهم، وتحريفُهم تغييرُ ما فيها . والثاني أنهم السَّبعون الذين اختارهم موسى فَسَمِعوا كلامَ اللهِ كِفاحاً (مُوَاجَهةً)عند الجبل،فلمَّا جاؤوا إلى قومهم،قالوا:قال لنا كذا وكذا، وقال في آخر قَوْله:إنْ لَم تستطيعوا ترك ما أنهاكم عنه،فافعلوا ما تستطيعون، هذا قَول مُقاتِل.والأول أصح)).

لقد فَهِموا الخِطابَ التَّوراتِيَّ، وأدْرَكوا الْمُرادَ الإلهِيَّ، ثُمَّ عَارَضوا النصوصَ وخَالَفوها عَن عِلْمٍ ومَعرفةٍ وسُوءِ نِيَّة ، ولَيس بسبب النِّسيان أو الخطأ. وهُم يَعلمون أنَّ كلامَ اللهِ حَق، وأنهم كاذبون، ويُدْرِكون حَجْمَ خِيانتهم التي تتجلى في تحريف النصوص ، ويُدْرِكون _ كذلك _ العقوبةَ الإلهية التي تَنتظرهم بسبب تغيير كلام اللهِ. وهكذا ، يَكونون قد أقاموا الْحُجَّةَ على أنفسهم . ولا تَحزنوا أيها المؤمنون بسبب كُفرهم وتكذيبهم للحق، فَهُم أهلُ الضلال والعِناد والجحود ، ولهم باع طويل في تحريف كلام اللهِ تعالى . وعلى الإنسان أن يَأخذ العِبرةَ ، ويَبتعد عَن طريقة أهل الزَّيْغ والضلال.

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٥) : ((هذا استفهام فيه معنى الإنكار ، كأنه أَيْأَسَهم من إيمان هذه الفِرقة من اليهود ، أي إنْ كفروا فلهم سابقة في ذلك . والخطاب لأصحاب النبيِّ ﷺ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحِلْف والجِوار الذي كان بَيْنَهم)) اهـ .

وهؤلاء الذين كانوا يَسمعون كلامَ الله ثم يُحرِّفونه ، أي : يَتأوَّلونه على غَير تأويله ، هُم بالتأكيد مِن علماء الشَّريعة الذين ضَلُّوا وأضلُّوا ، لأن العلماء كانوا يحتكرون المنظومة الدينية ويتلاعبون بها كَي يُحافظوا على سُلطتهم ، ونفوذهم ، ومكاسبهم المادية ، ويُعمِّقوا وجودَهم الاحتكاري الطاغوتي على رقاب الشعب، الأمر الذي يُثبِّت مواقعَهم في السُّلطة الحاكمة ، ويَحفظ مكانتهم بين عامة الشَّعب. وبالطبع فالشَّعب يتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية لأنه استمرأ الذل والهوان والخضوع للباطل . وإذا كان العلماءُ يَتصرَّفون بهذا الشكل الْمُخزي ، فما بَالُكَ بالعوام والجهلة ؟!.وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٤٧) : ((ومعنى الآية أنَّ أحبارَ هؤلاء ومُقَدَّميهم كانوا على هذه الحالة،فما ظَنُّكَ بِسَفَلَتِهم وجُهَّالهم،وأنهم إنْ كَفروا وحَرَّفوا فلهم سابقة في ذلك)).

والكذبُ على اللهِ الخالقِ لَيس كالكذب على المخلوق . وتحريفُ كلامِ اللهِ هو نتيجة لانكسار الرُّوح الإنسانية ، وانتكاسةِ الفرد في قاع الضلال، وتمردِ المخلوق على الخالق . فالإنسان يلجأ إلى اختراع الافتراءات وإسنادها إلى الله من أجل تحقيق منفعة شخصية وإشباع غروره ، وذلك باتِّباع الهوى بالباطل ، وتضليلِ الآخرين عبر نقلهم من الحق إلى الباطل ، وتثبيت سُلطة رجال الدِّين الضالين المتحالفين مع الزُّعماء السياسيين من أجل استعباد الناس ، وإخضاعهم عبر التلاعب بالنصوص الدينية ، وتوجيهها لخدمة أغراض مادية مصلحية .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ بأيديهِم ثُمَّ يَقولونَ هذا مِن عِندِ اللهِ لِيَشْتروا بِهِ ثمناً قَليلاً ﴾ [البقرة : ٧٩] .

هؤلاء صنفٌ من اليهود حرَّفوا التوراةَ (وهُم أحبار اليهود) ، وغيَّروا كلامَ الله تعالى ، حيث أضافوا وحذفوا وفق أهوائهم ومصالحهم الشخصية ، ونسبوا هذه التحريفات إلى الله من أجل الحصول على بعض المكاسب الدُّنيوية الوضيعة . وقد توعَّدهم اللهُ بالعذاب الشديد جَزاءَ كَذِبهم على خالقهم تعالى، وتحريفهم للكلام الإلهيِّ المقدَّس، ولن يَنفعهم ما كَسبوه من متاع الدنيا الزائل. فَوَيْلٌ لهم مِمَّا كَتبوا بأيديهم من الأكاذيب والخرافات ، والعذابُ عليهم بما كَسَبت أيديهم من الذنوب والآثام . والوَيْلُ الهلاك والدمار وشِدَّة الشَّر . وقد ذَمَّهم اللهُ مِن ثلاثة وجوه : الأول ـ تَحريفهم للتَّوراة . الثاني ـ نِسبة هذا التَّحريف الباطل إلى اللهِ تعالى . الثالث ـ أخْذ عَرَضٍ دُنيويٍّ مالاً أو رِياسة نَظير ذلك التَّحريف .

لقد خافَ أحبارُ اليهود على نفوذهم ومناصبهم وزعامتهم، وخافوا مِن تفرُّقِ الأتباع والعوام عنهم،لذلك غيَّروا التَّوراةَ، وبَدَّلوا صِفَةَ محمد ﷺ، مِن أجل تصوير النبيِّ محمدﷺ كشخص كاذب. وبالتالي يَمنعون الناس من الإيمان بِه، وهكذا يُحافظون على رياستهم وأموالهم وسُلطتهم وأتباعهم.

وفي الدُّر المنثور (١/ ٢٠٢) : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قَوْلِه : ﴿ فَوَيْلٌ للذينَ يَكْتُبونَ الكِتابَ ﴾ الآية . قال : هُم أحبار اليهود ، وَجَدوا صِفَةَ النبيِّ ﷺ مكتوبة في التَّوراة : أكْحَل ، أعْيَن ، رَبْعَة ، جَعْد الشَّعْر ، حَسَن الوَجْه . فلمَّا وجدوه في التَّوراة مَحَوْهُ حَسَداً وبَغْياً ، فأتاهم نَفَرٌ مِن قُرَيش ، فقالوا : تَجدون في التوراة نَبِيَّاً أُمِّياً ؟ ، فقالوا : نعم ، نَجِدُه طويلاً ، أزرق، سَبْطَ الشَّعْر ، فأنكرتْ قُرَيشٌ ، وقالوا : ليس هذا مِنَّا)) [209].

إنهم أصحاب نظرة قاصرة ، فلم يَعرفوا المكانةَ الرفيعة للكلام الإلهيِّ ، لذلك تَاجَروا به ، واتَّخذوا من العقائد الدينية وسيلةً للثراء السريع ، والحصول على منافع شخصية . فكانت الدنيا هي الركيزة الأساسية في حياتهم ، فَضَحُّوا بالغالي والنفيس من أجلها دون النظر إلى ما وراء الزينة البراقة الخادعة . لقد ضَحُّوا بالخلود من أجل العَدَم والفناء . وَلَوْ حصلوا على كُلِّ الدنيا لكانَ ثَمناً قليلاً ، لأنَّ التلاعب بكلام اللهِ يَقُود الإنسانَ إلى الخلود في نار جهنم . وهذه أعظمُ مصيبة على الإطلاق. لذلك ـ مهما كان الثمن ـ فهو ثمن قليل. إذْ إنَّ الإنسانَ الذي يُضحِّي بالحياة الآخِرة

---

(٢٠٩) الأكحل : الذي يَعلو جُفونَ عينيه سوادٌ مِثْل الكُحْل مِن غَير اكتحال . الأعْيَن : الذي يَكون سَوادُ عَيْنِه عَظيماً في سَعَةٍ . الرَّبْعَة : مُتوسِّط الطُّول ليس بالطويل ولا بالقصير . جَعْد الشَّعْر : شَعْرُه مُجْتَمِع ومُنْقَبِض ، وهو صِفَةُ مَدْحٍ ، ضِدُّ السَّبْط ، لأنَّ السُّبُوطة أكثرُها في شُعور العَجَم .

الباقية من أجل الدُّنيا الفانية ، قد حصل على ثمن قليل ، وكانت صفقته خاسرة. وكُلُّ ثمنٍ _مهما كان_ لا يَدوم ، وإنما هُوَ عَرَضٌ فانٍ ، والحرامُ لا بركة فِيه ، فهو قليلٌ مهما كان كثيراً . والجديرُ بالذِّكر أنَّ الذين قاموا بِتَحريف كلامِ اللهِ هُم أحبارُ اليهود (عُلماؤهم) ، لأنهم يَملكون سُلطة احتكار النصوص الدينية وتفسيرها بما لَدَيهم مِن العِلْم والمعرفة والنفوذ والمكانة الاجتماعية الرفيعة . أمَّا الشخصُ العاميُّ الجاهلُ ، فهو لا يَعرف شَيئاً عن التوراة ، ولَيس مَعْنِيَّاً بأحكام التَّوراة وتعاليمها ، لأنَّه يأخذ هذه الأحكام من أفواه الأحبار ، ولَيس من النصوص ، لجهله وعدم قُدرته على الاستنباط . لذلك تُصبح التَّوراة في أيدي الأحبار وسيلةً للرِّبح وأداةً للتجارة . وقد كانَ زُعماء أهل الكتابِ يَرفضون الإسلامَ خَوفاً على مناصبهم ، وحِفاظاً على الرِّئاسة والزَّعامة .

وفي الآيةِ تَحذيرٌ شديدٌ مِنَ التلاعب بكلام اللهِ ، وتَرهيبٌ مِن تَغيير الأحكام الشرعية . وكُلُّ مَن زادَ في الشريعة ، أو أنقصَ مِنها ، أو جاءَ بِبِدْعةٍ مُخالِفة للدِّين ، فهو داخلٌ في هذا الوعيد الإلهيِّ ، ويتحمَّل إثْمَه وإثْمَ الذين أَضَلَّهم دون أن يَنقص مِن آثامهم شيء .

وعن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ _ رضي اللهُ عنه _ عن النبيِّ ﷺ قال : ((الوَيْلُ وَادٍ في جَهَنَّم ، يَهوي فيه الكافرُ أربعينَ خريفاً قَبْلَ أن يَبْلُغَ قَعْرَه))[210].

إنَّ الكافرَ ينتظره عذابٌ دائم لا يَزول بسبب رفضه الإيمان . وهذا الوادي في جهنم المسمَّى بالوَيْل تبلغ المسافةُ بين بدايته وقَعره أربعين سنة ، وتَمَّ التعبير عن السَّنة بالخريف من أجل إظهار النهايةِ المأساوية للكافر ، والعذابِ العظيم الذي يَنتظره ، والمصير الفظيع الذي قضى على آماله .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ١١) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ بأيدِيهِم ﴾ تأكيد . فإنَّه قد عُلم أنَّ الكتاب لا يكون إلا باليد ... وقِيل : فائدةُ ﴿ بأيدِيهِم ﴾ بيان لِجُرْمهم وإثبات لمُجاهَرتهم، فإنَّ مَن تَوَلَّى الفِعْلَ أشد مُواقَعة مِمَّن لَم يَتَوَلَّه ، وإن كان رأياً له . وقال ابن السَّراج : ﴿ بأيدِيهِم ﴾ كِناية عن أنهم مِن تلقائهم دون أن يَنْزِل عليهم)) اهـ .

والكتابةُ لا تَكون إلا باليد . وذِكْرُ ﴿ بأيدِيهِم ﴾ دليلٌ على أنهم بَاشَروا التحريفَ بأنفسهم . وفي هذا إشارةٌ إلى جريمتهم العظيمة ، وتَثبيتٌ لِفِعْلهم القَبيح ، وتَسجيلٌ عليهم .

---

(٢١٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٥١) برقم (٣٨٧٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وكلُّ مَن أمرَ بِفِعْلٍ ما، جازَ نِسبةُ ذلك الفِعْل إِلَيه. فإذا أمرَ فُلان بالكتابة، جازَ أن نَقول عنه : كَتَبَ فُلان ، حتى لَوْ لَم يُباشِر الكتابة بنفْسه . أو حَبَسَ الحاكمُ فُلاناً ، إذا أمرَ بِحَبْسه ... إلخ .

وفي صحيح البخاري (٦/ ٢٦٧٩) أنَّ ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ قال : ((كَيْفَ تسألون أهلَ الكتاب عن شيء وكتابُكم الذي أُنزل على رسول الله ﷺ أَحْدَث، تَقرؤونه مَحْضاً لَم يُشَبْ ، وقد حَدَّثكم أنَّ أهلَ الكتاب بدَّلوا كتابَ الله وغيَّروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هُوَ مِن عِندِ اللهِ ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ، ألا يَنهاكم ما جاءكم مِنَ العِلْم عن مسألتهم ؟ ، لا واللهِ ما رَأَيْنا مِنهم رَجلاً يَسألكم عن الذي أُنزل عليكم)) .

والمعنى : كيف تسألون اليهود والنصارى عن الأمور الدينية والقرآنُ الكريم هو خاتَم الكتب السماوية ، وهو مَحْضٌ، أي خالص لا تَشُوبه شائبة فلم يتم تغييره أو التلاعب به . ولم يُشَبْ ، أي لم يُخلَط. والقرآنُ أخبرَ أن أهل الكتاب حرَّفوا التوراةَ والإنجيلَ وتلاعبوا بهما ، وذلك لتحقيق مكاسب آنِيَّة زائلة . فيُفتَرَض بأهل الكتاب أن يأتوا لسؤال المسلمين عن القرآن ، لأنَّ القرآن كتابٌ محفوظ مِن كل تغيير بِخِلاف التوراة والإنجيل. لكنَّ أهلَ الكتاب محشورون في غُرور اللحظة الراهنة ، ولا يُعمِلون عقولَهم في نقد المعطيات التوراتية والإنجيلية التي تَمَّ التلاعبُ بها .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٩٩) : ((" جاءكم مِن العِلْم " إسناد المجيء إلى العِلْم كإسناد النَّهْي إِلَيه . قَوْلُه : " فلا واللهِ ما رأينا رَجلاً مِنهم يَسألكم " [رواية أخرى]، فيه تأكيد الْخَبَر بالقَسَم ، وكأنه يقول : لا يسألونكم عن شيء مَعَ عِلْمِهم بأنَّ كتابكم لا تحريف فيه . فكيفَ تسألونهم وقد عَلِمْتُم أنَّ كِتابَهم مُحَرَّف ؟!)) اهـ .

وقال اللهُ تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنهم لَفَريقاً يَلْوُونَ ألسِنَتَهُم بالكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتابِ وما هُوَ مِنَ الكِتابِ ويَقولونَ هُوَ مِن عِندِ اللهِ وما هُوَ مِن عِندِ اللهِ ويَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ [آل عِمران : ٧٨][211].

---

(٢١١)قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤١١): ((اختلفوا فِيمَن نزلت على قَوْلَين : أحدهما أنها نَزلت في اليهود،رواه عطية عن ابن عباس.والثاني:في اليهود والنصارى،رواه الضَّحاك عن ابن عباس)).

وقال ابن حجر في العُجاب (٢/ ٧٠٣) : ((نقل الثعلبي عن جُوَيْبِر عن الضَّحاك عن ابن عباس : نزلت في اليهود والنصارى ، حَرَّفوا التوراةَ والإنجيل ، وضَرَبوا كتابَ الله بَعْضَه ببعض ، وألحقوا به ما ليس

هناك فريقٌ من اليهود يتلاعبون بكلام اللهِ ، ويُحرِّفونه ، ويَخترعون تأويلاتٍ شاذة ، وذلك من أجل خِداع الجهَّال والعوام، والسيطرة عليهم ، وإقناعهم بأن تحريفاتهم هي من كلام الله تعالى. وهُم يَنسُبون أكاذيبهم إلى اللهِ ، وهُم يَعْلمون أنهم كاذبون . وهذا يدل على أن انحرافهم عن سَبْق الإصرار والتَّعمد . وقد فَضَحَهم اللهُ ، وَوَصَمَهُم بالخزي والعار . وحقيقةُ الليِّ (الفَتْل) إنما هي في الثِّياب والحِبَال ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ هذا التعبير في الجِدال والخصومات .

﴿ وَإِنَّ مِنهم لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلسِنَتَهُم بالكِتابِ ﴾. مِنَ اليهودِ فَرِيقٌ يُبَدِّلون كلامَ اللهِ، ويَتلاعبون بنصوص التَّوراة ، ويَفْتِلُون ألسنتهم بالقراءة ، ويُميلونها عَن الكلام الإلهيِّ الْمُنْزَل إلى الكلام البشري الْمُحَرَّف . وقد حَرَّفوا نَعْتَ النبيِّ ﷺ . وتحريفُهم قائمٌ على التلاعب بالألفاظ والمعاني ، والتأويلِ المصلحيِّ الْمُغْرِض غَيْرِ الْمُنضبِط بأحكام الشَّريعةِ وأحكامِ اللغة .

وقال النَّسفي في تفسيره (١/ ١٦٢) : ((﴿ وَإِنَّ مِنهم ﴾ مِن أهل الكتاب . ﴿ لَفَرِيقاً ﴾ هُم كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيف، وحُيَي بن أخْطَب، وغَيْرُهم. ﴿ يَلْوُونَ أَلسِنَتَهُم بالكتاب ﴾ يَفتلونها بقراءته عن الصحيح إلى الْمُحَرَّف . واللَّيُّ الفَتْل ، وهو الصَّرْف . والمراد تحريفهم ، كآية الرَّجْم ونعْت محمد ﷺ ونحو ذلك . والضمير في ﴿ لِتَحْسَبُوهُ ﴾ يَرجع إلى ما دَلَّ عليه ﴿ يَلْوُونَ أَلسِنَتَهُم بالكتاب ﴾ ، وهو الْمُحَرَّف. ويجوز أن يُراد يَعْطِفُون ألسنتهم بِشَبَهِ الكتاب لِتَحسبوا ذلك الشَّبَه من الكتاب ، أي التوراة)) اهـ .

﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتابِ وما هُوَ مِنَ الكِتابِ ﴾ . لِتَظُنُّوا أيها المؤمنون أنَّ الذي يُحَرِّفونه هو كلامُ اللهِ . وما حَرَّفوه هُوَ أكاذيب نَسَبُوها إلى اللهِ لِيَخدعوا الناسَ ويُوهموهم أنها كلامُ اللهِ .

﴿ويَقولونَ هُوَ مِن عِندِ اللهِ وما هُوَ مِن عِندِ اللهِ ﴾. يَنسبون كلامَهم البشريَّ وأكاذيبَهم إلى اللهِ، لِيُضْفُوا على كلامهم القداسة والشرعية ، وكلامُهم مِن أفكارهم الدَّنيئة ولَيس مِن عِندِ اللهِ . ولَم يَكتفوا بالتلميح والتَّعريض، وإنما يُصَرِّحون بملء أفواههم أنَّ تحريفاتِهم مِن عِندِ اللهِ . وهذا مُنتهى الوقاحة والكفر. وقال البيضاوي في تفسيره(١/ ٥٦): ((تأكيد في قَوْله: ﴿ وما هُوَ مِنَ الكِتابِ ﴾
وتَشنيع عليهم ، وبيان ، لأنهم يزعمون ذلك تَصريحاً لا تَعريضاً)) اهـ .

مِنه، وأسقَطوا مِنه الدِّينَ الحنيفَ.وأخرجَ الطبري مِن طريق قتادة: إنهم اليهود حَرَّفوا كِتابَ الله وابْتَدَعُوا)) اهـ .

﴿ ويَقولونَ على اللهِ الكَذِبَ وَهُم يَعْلَمُون ﴾ . إنهم يَتعمَّدون الكذبَ على اللهِ ، والتلاعب بالنصوص الدِّينية طَلَباً للزَّعامة والرِّياسة، وحِفاظاً على مناصبهم، وحِرْصاً على حُطام الدُّنيا الفانية. وهُم يَعلمون أنهم كاذبون . إذن ، فخيانتُهم عَن سَبْق الإصرار والتَّعمد ، ولَم تَجِئْ بسبب الخطأ أو النسيان . والآيةُ حُجَّةٌ عَلَيهم ، وتأكيد ، وتَسجيل عليهم بالكذبِ على اللهِ عَمْداً . وهذا هو العارُ في الدُّنيا والآخرة ، لا يَزول ولا يُمْحَى .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ١٤٧) : ((فأخبرَ تعالى أنهم يُفسِّرونها ويَتأوَّلونها ، ويضعونها على غَير مَواضعها . وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء ، وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويَحملونها على غَير الْمُراد ، كما بَدَّلوا حُكْمَ الرَّجْمِ بالْجَلْدِ والتَّحميم معَ بقاء لفظ الرَّجْم فيها. وكما أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ معَ أنهم مأمورون بإقامة الحد والقَطْع على الشريف والوضيع ، فأمَّا تبديلُ ألفاظها ، فقال قائلون بأنها جميعها بُدِّلَت ، وقال آخرون لَم تُبَدَّلْ)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ﴾ [النِّساء : ٤٦] .

مِنَ اليهودِ فئةٌ تُبدِّل كلامَ اللهِ تعالى ، فيحذفون منه ويزيدون فيه ، أو يَعْمَدون إلى تفسير الكلام الإلهيِّ ضِدَّ مُراد اللهِ عَمْداً ، وليس جَهلاً أو نِسياناً . وَهُم يقومون بهذا العمل القبيح لإقحام وجهة نظرهم الباطلة وأهدافِهم الخبيثة في النصوص الدينية من أجل صَبْغ باطلهم بالقداسة والعِصمة . وهكذا تنطلي هذه الحِيَل على العوام والأتباع ، فيحافظ رجالُ الدِّين على مناصبهم ونفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويستمرون في استغلال الدِّين لتحقيق مكاسب شخصية على حساب شعوبهم .

وقد حَذَفوا صِفَةَ النبيِّ ﷺ في التوراة ، وأزالوا حَدَّ الرَّجْم . وذلك من أجل المحافظة على ولاء الأتباع وعدم تفرُّقهم ، وهكذا يَضمن السادةُ أن يظل الشعب خاضعاً لهم ، وتحت رحمتهم واستغلالهم ، وعاجزاً عن التفكير ونقد الأوضاع ، وبذلك يستمر نفوذُ عِلْية القوم دون وجود تهديد من أية جهة. فالتحريفُ هو مشروع استثماري وضيع قائم على المتاجرة بالكلام الإلهيِّ المقدَّس من أجل الحصول على عَرَض دنيوي زائل .

وهؤلاء اليهود الذين يُحرِّفون كلامَ الله ليسوا من العامة بالتأكيد ، إنهم من القيادات والعلماء العالِمين بالشريعة ، لأن السُّلطة الدينية في أيديهم يتلاعبون بها كَيْفما شاؤوا ، وهم يحتكرون التوراةَ ، ويُوَجِّهون نصوصَها إلى حيث أرادوا ، لذلك وجدناهم يُحرِّفونها .

وعامةُ الشعب لا يملكون حصيلةً عِلميةً واطِّلاعاً كافياً على محتويات التوراة ، وهذا جعلهم يُغمضون أعينهم ، ويسيرون وراء العلماء الفاسقين والكهنة الضالين الذين نفَّذوا خُطتهم في التحريف والتلاعب بنصوص التوراة لغاية في أنفسهم المريضة .

وعلى الرغم من عِلْمهم بالكتاب ، إلا أنهم يأخذون ما يُوافق أهواءهم ويتركون ما يُخالفها ، فَهُمْ سَمِعوا وعَصَوا إمعاناً في العِناد والكفر والتمرد . وتحريفُ الكَلِم له عدة أشكال ، مثل إزالة كلام اللهِ ، أو وَضْع كلام بشري في التوراة ، أو تأويل النصوص الدينية بدافع الهوى والمصلحة الشخصية . ولَم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن اليهود قاموا بتحويل مسار كلامهم إلى شتائم كعادتهم في التدليس والْمُرَاوَغة .

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ ﴾ [212]. مِنَ اليهودِ قَوْمٌ يُغيِّرون الكلامَ الذي أنزله اللهُ في التَّوراة، فقد بَدَّلوا صِفَةَ محمد ﷺ كي يُبْطِلوا نُبُوَّتَه_ وَفْقَ نظرتهم القاصرة _ ، وحَذَفوا حَدَّ الرَّجْم . إنهم حَرَّفوا كلامَ اللهِ عَن أماكنِه ووُجوهِه . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٩٦) : ((مِنَ الذين هَادوا قَوْمٌ يُحرِّفون الكَلِمَ، أي يُميلونه عن مَواضعه التي وضعه اللهُ فيها، بإزالته عنها، وإثبات غَيره فيها ، أو يُؤَوِّلونه على ما يَشتهون ، فَيُميلونه عمَّا أَنزلَ اللهُ فيه)) اهـ .

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . ويَقولون للنبيِّ ﷺ : سَمِعْنا قَوْلَك ، وعَصَيْنا أَمْرَك . وهذا أشدُّ في العِناد والكُفر، لأن كُفْرَهم ناتجٌ عَن عِلْمٍ لا جَهْلٍ. لقد عَرَفُوا الحقَّ بشكل واضح ثُمَّ جَحَدوه .

(٢١٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٩٩) : ((قال مُقاتل : نزلت في رِفاعة بن زَيد ، ومالك ابن الصَّيف ، وكعب بن أُسَيد ، وكُلُّهم يهود... فأمَّا التحريف فهو التغيير . والكَلِمُ جمع كَلِمة، وقِيل إن الكلام مأخوذ مِنَ الكَلْم ، وهو الجُرْح الذي يَشُقُّ الجِلْدَ واللحمَ ، فَسُمِّيَ الكلام كلاماً لأنه يَشُقُّ الأسماعَ بوصوله إليها . وقِيل : بَل لتشقيقه المعاني المطلوبة في أنواع الخِطاب. وفي معنى تحريفهم الكَلِم قَولان : أحدهما أنهم كانوا يسألون النبيَّ ﷺ عن الشيء ، فإذا خَرجوا حَرَّفوا كلامَه ، قاله ابن عباس. والثاني أنَّه تبديلُهم التوراة ، قاله مجاهد)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٤) : ((أي : يَقولون : سَمِعْنا ما قُلْتَه يا محمد ولا نُطيعك فيه ، هكذا فسَّره مجاهد وابن زَيد ، وهو المراد . وهذا أبلغ في كُفرهم وعِنادهم، وأنهم يَتَوَلَّوْنَ عن كتاب اللهِ بعدما عَقَلوه ، وهُم يَعلمون ما عليهم في ذلك مِنَ الإثم والعقوبة)) اهـ .

﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ . يعني : اسْمَعْ ما نقول يا محمد لا سَمِعْتَ . وهذه الصيغة تُستخدَم للخَير في الأصل ، أي لا سَمِعْتَ مكروهاً ، ولكنَّ اليهودَ الْمُخادِعين كانوا يُريدون بها الدعاء على النبيِّ ﷺ بِفِقْدان السَّمْع أو بالموت.وهذا استهزاءٌ مِنهم بالنبيِّ ﷺ نابعٌ مِنَ الحِقد والحسد والاستهتار.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ١٠٠) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ فِيه قَولان : أحدهما أنَّ معناه : اسْمَعْ لا سَمِعْتَ ، قاله ابن عباس وابن زَيد وابن قُتَيبة. والثاني أنَّ معناه اسْمَعْ غَير مقبول ما تقول ، قاله الحسن ومجاهد)) اهـ .

﴿ وَرَاعِنَا ﴾ . كان خُبثاءُ اليهود يقولون للنبيِّ ﷺ : (رَاعِنا) ، وهي لفظة قريبة مِن معنى الرُّعونة. وفي العِبرية (راعي) معناها شرير، و (راعينو) تعني شريرنا. وهكذا يَلْوون ألسنتهم بكلام يحتمل المعنيَيْن الصالح والسَّيئ . وهُم يقصدون المعنى السَّيئ سُخريةً بالنبيِّ ﷺ واستهزاءً به.

وقال ابن عطية في البحر المحيط (٣/ ٢٦٤) : ((وهذا موجود حتى الآن في اليهود، وقد شاهدناهم يُرَبُّون أولادهم الصغار على ذلك ، ويُحفِّظونهم ما يُخاطبون به المسلمين مِمَّا ظاهره التَّوقير ، ويُريدون به التَّحقير)) اهـ . وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٦٧٤) : ((أي يُوهِمون أنهم يقولون : رَاعِنا سَمْعَكَ بِقَولهم : رَاعِنا ، وإنما يُريدون الرُّعونةَ بِسَبِّهم النبيَّ)) اهـ .

وفي الدُّر المنثور للسيوطي (١/ ٢٥٣) : ((وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن السُّدي قال : " كان رَجلان مِنَ اليهود مالك بن الصَّيف ورِفاعة بن زَيد إذا لَقِيَا النبيَّ ﷺ قالا له وهُما يُكلِّمانه : رَاعِنا سَمْعَك ، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَع ، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيء كان أهل الكتاب يُعظِّمون به أنبياءهم،فقالوا للنبيِّ ﷺ ذلك،فأنزلَ اللهُ:﴿يا أيها الذين آمَنُوا لا تقولوا رَاعِنا ﴾[البقرة: ١٠٤])).

إنَّ الآية تُرشد إلى حُسن السلوك ، وانتقاءِ الألفاظ الطَّيبة ، والابتعادِ عن المعاني القبيحة وتقليدِ الكافرين في كلامهم المليء بالنفاق والحقد والمعنى الباطل الخفيِّ . فإن اليهود كان

يلجأون إلى الكلام الْمُبَطَّن الذي فيه تَوْرِية ((لِمَا يَقصدونه مِنَ التنقيص _ عليهم لعائن الله _، فإذا أرادوا أن يقولوا : اسْمَعْ لنا ، يقولون : رَاعِنا ، ويُوَرُّون بالرُّعونة))[213].

﴿ لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ﴾ . أي مَيلاً مِنَ الحق إلى الباطل ، وقَدْحاً في الإسلام . وهُم يَصْرِفُون الكلامَ إلى معنى الشَّتيمة،حيث إنهم يَستخدمون العباراتِ التي ظاهرها الاحترام والتعظيم، وباطنها التَّحقير والإهانة والسَّب ، وهذا مرجعه إلى السُّخرية والاستهزاء والحِقد والحسد .

وقال القرطبي في تفسيره (٥/ ٢٣٣): ((أي يَلْوُون ألسنتَهم عن الحق، أي: يُميلونها إلى ما في قلوبهم ، وأصلُ الليِّ الفَتْلُ... ﴿وَطَعْناً﴾ أي يَطْعَنون في الدِّين أي يَقولون لأصحابهم : لَوْ كان نَبِيّاً لَدَرى أنَّنا نَسُبُّه،فأظهرَ اللهُ تعالى نَبِيَّه على ذلك، فكان مِن علامات نُبُوَّته، ونهاهم عَن هذا القَول)).

إنَّ التلاعب بالألفاظ والعبارات صفة لازمة لليهود عبر كل المراحل الزمنية . فهم يستعملون الكلامَ الباطِنِيَّ الفَضفاض الذي يَحتمل المعاني المتعددة ، ويقصدون المعنى القبيح . فَهُم بذلك يَكشفون عن حِقدهم الخفيِّ وسُخريتهم الدنيئة ، ويَسْعَوْن إلى تنفيذ مخططاتهم الشريرة ذات الطبيعة المستترة . وهُم يلجأون إلى هذه الطرق للتنفيس عن حِقدهم واحتراقِ صدورهم بالضغينة وكراهية الحق . وهُم يعتقدون أن هذه الأساليب تعكس ذكاءهم وانتصارهم ، لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ الذين جَعَلوا القرآنَ عِضِين ﴾[الحِجْر : ٩١] [214].

---

(٢١٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٦) .

(٢١٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤١٨و٤١٩) : ((في المراد بالقرآن قَولان : أحدهما أنه كتابُنا، وهو الأظهر، وعليه الجمهور. والثاني أن المراد به كُتب المتقدِّمين قَبْلَنا. وفي ﴿ عِضِين ﴾ قَولان: أحدهما أنه مأخوذ مِنَ الأعضاء . قال الكِسائيُّ وأبو عُبَيدة : اقْتَسَمُوا بالقرآن، وجعلوه أعضاء . ثُمَّ في ما فَعلوا فِيه قَولان : أحدهما أنهم عَضَّوْهُ أعضاء ، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه... وهذا المعنى في رواية سعيد بن جُبَير عن ابن عباس . والثاني أنهم عَضَّوا القَوْلَ فيه ، أي فَرَّقوا ، فقالوا : شِعر، وقالوا : سِحر وقالوا : كِهانة ، وقالوا : أساطير الأولين ، وهذا المعنى في رواية ابن جُرَيج عن مجاهد ، وبه قال قتادة وابن زيد . والثاني أنه مأخوذ مِنَ العِضَة ، والعِضَةُ بلسان قُرَيش السِّحْر)) اهـ .

هؤلاء قَسَموا القرآنَ_ حَسَبَ أهوائهم _ إلى حق وباطل، وجعلوه أجزاءً متفرقة (عِضِين)، فبعضُه شِعر ، وبعضُه سِحر ، وبعضُه كِهانة . فآمنوا بما وافق هواهم ، وكفروا بما يتعارض مع مصالحهم الدنيوية الدنيئة .

وقال أبو السعود في تفسيره (٥/ ٨٩): ((قَسَموه إلى حق وباطل، حيث قالوا عِناداً وعدواناً بَعْضُه حق موافق للتوراة والإنجيل ، وبعضُه باطل مُخالف لهما ، أو اقتسموه لأنفسهم استهزاءً ، حيث كان يقول بعضُهم : سُورة البقرة لي ، وبعضُهم سورة آل عمران لي ، وهكذا ، أو قَسَموا ما قرؤوا مِن كُتبهم وحَرَّفوه ، فأقَرُّوا ببعضه ، وكَذَّبوا ببعضه)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٤٣٥) أن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال في تفسير الآية: ((هُم أهلُ الكتاب ، جَزَّؤوه أجزاءً ، فآمَنوا ببعضه ، وكفروا ببعضه)) .

إنَّ الْمُنحرِفين عَقَدياً يُحاولون التلاعبَ بالنصوص الشرعية لتحقيق مصالح ذاتية ، وإبقاءِ السيطرة على الأتباع ، والمحافظةِ على المكانة الاجتماعية عَبر لَوْيِ أعناق النصوص ، أو توظيفها لتحقيق منافع دنيئة . وهذا الاعتداء على الكلام الإلهيِّ الْمُقدَّس نابعٌ من العِناد والجهل وتحكيم الأهواء دون وجود أي منهج عِلمي يتضمن مُقارعة الْحُجَّة بالحجة . كما أن غياب النفوس التَّواقة الباحثة عن الحق بإنصاف وتجرُّد ، أدَّى إلى الغرق في مستنقع الكفر عبر التلاعب بكلام الله _ عَزَّ وَجَلَّ _ دون الوقوف على معانيه الراقية وأحكامه النبيلة .

ولا شك أنَّ تقديم كلام المخلوقين على كلام الخالق يرمي بالأساس إلى تحقيق مكاسب سياسية واجتماعية واقتصادية، لأن الغرق في متاع الدنيا الزائل أدى إلى غياب الآخرة عن الأذهان.

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واتْلُ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِن كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ [الكَهْف : ٢٧].

اقْرَأ القُرآنَ يا محمد بخشوعٍ وتَدَبُّر ، واعْمَلْ بأحكامه كاملةً غَير منقوصة ، أَحِلَّ حلالَه ، وحَرِّمْ حَرامَه ، وبَلِّغْهُ إلى الناسِ كاملاً . والقُرآنُ هُوَ كلامُ اللهِ ، ولا يَقْدِرُ مَخلوقٌ على تَغييره أو التلاعب بِه، وقد تَكَفَّلَ اللهُ بِحِفْظه لأنَّه خاتَم الكُتب السماوية ، وهو الدُّستورُ الإلهيُّ للإنس والجن حتى يوم القيامة ، لذلك لا يمكن تغييره ولا تبديله ولا تحريفه . وهذا مِن رَحمة اللهِ بِعِباده . ولَن تَجِدَ يا محمد إنْ خَالفتَ القُرآنَ مَلجأً ، ولَن تَقْدِر على الهربِ مِنَ اللهِ تعالى .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١١): ((كانوا يَقولون له _ يَعني يَقول المشركون للنبيِّ ﷺ _:

ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أو بَدِّلْهُ . فَقِيل له : ﴿ واتْلُ ما أُوحِيَ إلَيْكَ مِن كِتابِ رَبِّكَ ﴾ أي: مِنَ القرآن ولا تسمع لِمَا يَهْذُون بِه مِن طلب التبديل ، فإنَّه لا مُبَدِّلَ لكلماته ، أي لا يَقْدِر أحد على تبديلها أو تغييرها ، إنما يَقْدِرُ على ذلك هُوَ وَحْدَه سُبحانه ، ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ملجأً تَعْدِلُ إلَيه إنْ هَمَمْتَ بذلك)) اهـ .

*

٧
تغييرُهم حُكْمَ القرآنِ

إنَّ القُرآنَ هو الْحَكَمُ الحاكِم . قد جاء بالأحكام الشرعية لِمَا فيه خير البشرية ، ولم يَجِئْ لِيُوضع على الرفوف ، أو يُصبح منظراً فلكلورياً للزِّينة . إنَّهُ الكلامُ الإلهِيُّ المقدَّس المشتمل على طريقِ السعادة في الدُّنيا والآخرة . لذلك ينبغي الالتزام بِحُكْم القرآن في كل الحالات، وإخضاع الهوى للشريعة الإلهية كي يتحرر المرءُ من الذنوب والقلق ، ويغدوَ فرداً صالحاً لإعمار مجتمعه الكَوْني بالفضائل والمحبة وفق المنظور الإسلامي المعصوم .

وقد نهى اللهُ تعالى عن تحريم الطيبات لِمَا في ذلك مِن تغيير حُكم الله ، والاعتداءِ على شريعته الكاملة التي جاءت لإصلاح الفرد والجماعة .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا ﴾[المائدة : ٨٧] (215).

هذا أمرٌ إلهيٌّ جليلٌ بعدم تحريم اللذائذ التي تشتهيها النَّفْس البشرية تقشُّفاً وتزهُّداً ، وعدم تجاوز الشريعة في تحريم الحلال (جَعْل الحلال حراماً) . ويجب امتثال حُكم اللهِ ، وعدم الاعتداء عليه بتجاوزه أو رفضه أو التحايل عليه .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤١٠و٤١١) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ﴾ . في سبب نزولها ثلاثة أقوال : أحدها أن رجالاً من أصحاب النبيِّ ﷺ، مِنهم عثمان بن مظعون ، حَرَّموا اللحمَ والنساءَ على أنفسهم ، وأرادوا جَبَّ أنفسهم (قَطْعَها) ليتفرغوا للعبادة ، فقال رسول الله : لَم أُؤْمَر بذلك . ونزلت هذه الآية ، رواه العَوفي عن

(٢١٥) قال الطبري في تفسيره (٥/ ٩) : ((يعني بِـ " الطيبات " اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل إليها القلوب ، فتمنعوها إيَّاها ، كالذي فعله القِسِّيسون والرُّهبان ، فَحَرَّموا على أنفسهم النساء والمطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ، وحَبَسَ في الصوامع بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضُهم . يقول تعالى ذِكْرُه : فلا تفعلوا أيها المؤمنون كما فعل أولئك ، ولا تعتدوا حَدَّ اللهِ الذي حَدَّ لكم فيما أحلَّ لكم ، وفيما حَرَّم عليكم ، فَتُجاوِزوا حَدَّه الذي حَدَّه فَتُخالِفوا بذلك طاعته ، فإن الله لا يُحِبُّ مَن اعتدى حَدَّه الذي حَدَّه لِخَلْقه فيما أحلَّ لهم ، وحرَّم عليهم)) اهـ .

ابن عباس . وروى أبو صالح عن ابن عباس : قال كانوا عشرة ، أبو بكر وعمر وعليٌّ وابن مسعود وعثمان بن مظعون والمقداد بن الأسود وسالم مَولى أبي حُذَيفة وسلمان الفارسي وأبو ذَر وعمَّار بن ياسر في دار عُثمان بن مظعون ، فَتَوَاثَقوا على ذلك ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، فقال : " مَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي " ونزلت هذه الآية. قال السُدي : كان سبب عَزْمهم على ذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فلم يَزِدْهُم على التخويف ، فَرَقَّ الناسُ وبَكَوا ، فَعَزَمَ هؤلاء على ذلك ، وحَلَفوا على ما عزموا عليه ، وقال عكرمة : إن عليَّ بن أبي طالب وابن مسعود وعثمان ابن مظعون والمقداد وسالماً مولى أبي حذيفة في أصحابه تَبَتَّلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا الْمُسوح ، وحَرَّموا طيبات الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهلُ السِّياحة من بني إسرائيل ، وَهَمُّوا بالاختصاءِ ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فَنَزلت هذه الآية . والثاني أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : إني إذا أكلتُ من هذا اللحم أقبلتُ على النساء ، وإني حَرَّمْتُه عليَّ فَنَزلت هذه الآية ، رواه عِكرمة عن ابن عباس . والثالث أن ضَيفاً نزل بعبد الله بن رَواحة ، وَلَم يكن حاضراً ، فلمَّا جاء قال لزوجته : هل أكل الضيفُ ؟ ، فقالت : انتظرتُك . فقال : حَبَسْتِ ضَيفي مِن أجلي ، طعامُك عليَّ حرام ، فقالت : وهو عليَّ حرام إن لَم تأكله ، فقال الضيف: وهو عليَّ حرام إن لَم تأكلوه ، فلمَّا رأى ذلك ابن رَواحة ، قال : قَرِّبي طعامَكِ ، كُلوا بسم الله . ثُمَّ غدا إلى النبيِّ ﷺ ، فأخبره بذلك ، فقال : أحسنتَ ، ونزلت هذه الآية)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: أن رَجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أَصبتُ اللحمَ انتشرتُ للنساء ، وأخَذَتْني شَهوتي ، فَحرَّمتُ عليَّ اللحمَ ، فأنزل اللهُ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (216).

إنَّ المنهجية الإسلامية في التعامل مع الشهواتِ البشرية ، والأشواقِ الإنسانية الساعية إلى اللذة والمتعة ، مبنيةٌ على الوسطية بلا إفراط ولا تفريط . فالإسلامُ لَم يجئْ لِيَستأصل الشهواتِ والغرائز ويحظر الاستمتاع بالحلال ، وإنما قام بتنظيم الشهوات وجعلها في نِصابها الصحيح ، بحيث يحصل الفردُ على متعته بالحلال ، وتكون هذه المتعةُ حافزاً له على استقبال أيامه بحيوية من أجل إعمار الأرض وإصلاحِ المجتمع . والشَّهوةُ موجودة في الإنسان ، لأنَّ لها وظيفةً شريفةً

(٢١٦) رواه الترمذي في سُننه (٥/ ٢٥٥) برقم (٣٠٥٤) وحسَّنه .

ومُحدَّدة . وهذه الغريزةُ راقيةٌ ، ولا تُصبح غريزةً حيوانية دُونِيَّة ، إلا إذا تَمَّ وَضْعُها في الطريق الشَّاذ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٢/ ٤١٢) : ((وفي قَوْله : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ خمسة أقوال :

أحدها لا تَجُبُّوا أنفسَكم (يعني لا تَقْطعوها) ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وإبراهيم . والثاني : لا تأتوا ما نهى اللهُ عنه ، قاله الحسن . والثالث : لا تَسيروا بِغَير سِيرة المسلمين مِن ترك النساء وإدامة الصيام والقِيام، قاله عِكرمة، والرابع: لا تُحرِّموا الحلالَ، قاله مقاتل. والخامس : لا تَغْصِبُوا الأموالَ المحرَّمة ، ذَكَره الماوردي)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٢/ ١٠٢٢) : عن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((كُنَّا نغزو معَ رسول الله ﷺ ، لَيْسَ لنا نساء ، فقلنا : ألا نَستخصي ؟، فنهانا عن ذلك ، ثم رخَّص لنا أن نَنْكِحَ المرأةَ بالثَّوْبِ إلى أجَلٍ))، ثم قرأ عبد الله:((﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾)) .

وهنا تتجلى رحمة الشريعة الإسلامية بالناس، ومنعهم من تعذيب أنفسهم، أو إيرادها المهالك . فقد نهى النبيُّ ﷺ عن الخِصَاء (قَطْع الذَّكَر أو نَزْع الْخُصْيَتَيْن) . وبالطبع ففي الحلال ما يُغني عن الحرام ، وقد جاءت الشريعةُ لرفع الحرَج لا إحراج الناس . وإن الأمر كلما ضاق اتَّسع . وقد جاءت الشريعةُ لتحقيق مصالح العباد ، وتنظيم حياتهم عبر توجيه الشهوات في طريقها الصحيح الذي لا يُفضي إلى مشكلات اجتماعية تقصم العمودَ الفِقري للجماعة الإنسانية .

وقال الحافظ في الفتح (٩/ ١١٩) : ((نَهْيُ تحريمٍ بلا خلاف في بني آدم .. وفيه أيضاً من المفاسد تعذيب النَّفْس ، والتَّشويه مع إدخال الضَّرر الذي قد يُفضي إلى الهلاك ، وفيه إبطال معنى الرجولية ، وتغيير خَلْق الله ، وكُفْر النِّعمة ، لأن خلق الشخص رَجلاً مِنَ النِّعَم العظيمة فإذا أزال ذلك فقد تشبَّه بالمرأة)) اهـ .

وقَوْله : " ألا نستخصي ؟ " دليلٌ على أن نِكاح المتعة كان محظوراً في الغَزْو ، فلو كان مباحاً لم يكن لهذا السؤال معنى . وقد حصل الترخيص بِنِكاح المرأة بالثوب أو أي شيء مِمَّا يحدث به التراضي إلى أجلٍ في نكاح المتعة .

وظاهر استشهاد ابن مسعود بالآية يُوحي بأنه يرى جواز نكاح المتعة . وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن نَسْخَ الْحُكْم لَم يَبْلُغْه في تلك الساعة، وحين عَلِمَ به رجع عنه . عِلماً بأن

مفهوم الطَّيبات يحدده الشارعُ. فنكاحُ المتعة حينما كان مباحاً كان طَيِّباً، وعندما تَمَّ تحريمه صار خبيثاً . فالنصوصُ الشرعية هي التي تكشف مستوى الشيء من حيث نَفْعه وضَرَره . وقد جاءت الشريعةُ تُراعي الحاجاتِ البشرية في الظروف المختلفة ، فترفع عن الناس الحرجَ ، ولا تحشرهم في الزاوية .

كما أن التَّدرج منهجيةٌ إسلامية. فمثلاً كان تحريم الخمر على دفعات ضمن سياق تدريجي، ونكاحُ المتعة صار محرَّماً بعدما كان مباحاً . وهذا كُلُّه مُراعاة للحاجات البشرية ، وعدم اضطرار الناس إلى الدرب الضيق، أو التضييق عليهم وتحميلهم فوق ما يحتملون. فاللهُ تعالى هو خالق النَّفْس البشرية ، ويعلم مُدْخَلاتِها ومُخْرَجَاتِها ، ويَعلم ما يُصْلِحُها وما يُفْسِدها .

وعن مسروق قال : أُتِيَ عبد الله [يعني ابن مسعود] _ رضي الله عنه _ بِضَرْعٍ فقال للقوم : ((ادْنُوا))، فأَخذوا يَطعمونه، وكان رَجلٌ منهم في ناحية ، فقال عبد الله : ((أُدْنُ)) ، فقال : إني لا أُريده،فقال:((لِمَ ؟))، قال: لأني حَرَّمْتُ الضَّرْعَ، فقال عبد الله:((هذا مِن خُطواتِ الشيطان))، فقال عبد الله : ((﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أُدْنُ فَكُلْ ، وكَفِّرْ عن يمينكَ ، فإن هذا من خطوات الشيطان))[217].

وهذا الانحرافُ في قضية التحليل والتحريم مرجعه إلى اجتهاد بشري قاصر يتلاعب به الشيطان، فيذهب إلى تزيين الأمر، وإلباسه لبوس التقوى والصلاح. وهو بعيدٌ كل البعد عن ذلك. ولا أحد يملك التحليل والتحريم إلا واضع الشريعة _ سبحانه وتعالى _ ، فهو أعلم بالإنسان من نَفْسه . كما أن قضية التحليل والتحريم جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان والمجتمع ، حتى لو غابت الحكمةُ عن الأذهان . فاللهُ تعالى لم يخلق الناسَ ليعذِّبهم ، أو يُضيِّق عليهم . وكلُّ مَن حرَّم على نَفْسه شيئاً فلا عِبرة بتحريمه ولا معنى له . فالإنسانُ لا يملك حقَّ التشريع (التحليل والتحريم) ، وعليه أن يُهمِل خطواتِ الشيطان، ولا يَتبعها. وقال الشاطبي في الاعتصام(١/ ٢٥١): ((وعلى ذلك جَرَت الفُتيا في الإسلام: إنَّ كُلَّ مَن حَرَّم على نفْسه شيئاً مِمَّا أحلَّ اللهُ له،فليس ذلك التحريم بشيء ، فليأكل إن كان مأكولاً ، وليشربْ إن كان مشروباً ، وليلبس إن كان ملبوساً ، وليملك إن كان مملوكاً . وكأنه إجماع منهم منقول عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم)) اهـ .

---

(٢١٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٣) برقم (٣٢٢٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

فالشيطانُ يحاول جاهداً أن يُوقع الإنسانَ في دائرة تحليل الحرام وتحريمِ الحلال ، كي يبتعد عن تعاليم الشريعة ، ويسقط في أحكامه العقلية القاصرة ، وأهوائه المتضاربة . مما يؤدي إلى غياب المرجعية الشرعية في أحكام الحلال والحرام عن قلب الإنسان ، فيغدو تائهاً خاضعاً لِنَزواته وقراراته الشخصية النابعة من فهمٍ قاصر بعيد عن التعاليم الإيمانية السمحة التي تُوسِّع على الناس ، لكنَّ البعض لا يرتاح إلا إذا ضَيَّق على نفْسه وحَشَرها في الزاوية ، واضْطَرَّها إلى أضْيَق السُّبُل .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] .

قَوْله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ ﴾، أي: ما حَرَّمَ اللهُ ، وحقيقةُ الْجَعْلِ غير مُرادة ، لأن كُلَّ شيء خَلَقَه اللهُ تعالى . والآيةُ تُوضِّح بِدْعةَ المشركين التي اخترعوها مِن بنات أفكارهم .

والعقلُ التشريعي الجاهلي لم يكتفِ بفرض نفوذه على البشر ، بل فرضه أيضاً على الأنعام (الحيوانات) . وهذا يدل على المنهجية الوثنية الساعية لفرض نفوذها على جميع عناصر الطبيعة ، وأن لا يُفلِت من تأثيرها شيء . لذلك تم اختراع شرائع خاصة متعلقة بالأنعام من أجل تكريس الجانب التشريعي في المنظومة الوثنية. فظهر لدينا مصطلحات متعلقة بالأنعام ذات مرجعية دِينية صنمية. وكأن أهل الجاهلية يريدون القول إن دِينهم عبارة عن نظام متكامل يشمل كلَّ مناحي الحياة .

قال الواحدي في الوجيز (ص ٣٣٨) : ((والبَحيرة : الناقة إذا نتجت خمسة أبطن شَقُّوا أُذنها وامتنعوا من ركوبها وذبحها . ﴿ وَلا سَائِبَةٍ ﴾ ، هو ما كانوا يُسَيِّبونه لآلهتهم في نَذْر يلزمهم إن شُفِيَ مريض ، أو قُضيت لهم حاجة . ﴿ وَلا وَصِيلَةٍ ﴾ ، كانت الشاةُ إذا وَلدت أنثى فهي لهم وإن وَلدت ذَكَراً جعلوه لآلهتهم ، وإن وَلدت ذكراً وأنثى قالوا : وَصَلت أخاها ، فلم يذبحوا الذَّكر لآلهتهم . ﴿ وَلا حَامٍ ﴾ ، إذا نتجت من صُلْب الفَحْل عشرة أبطن ، قالوا : قد حَمَى ظَهْرَه فلم يُركَب ، ولم يُنتفع بِه ، وَسُيِّب لأصنامهم فلا يُحمَل عليه)) اهـ .

وهذه التعابيرُ التي اخترعها أهلُ الجاهلية وجعلوها شريعةً إلهية يتوجب تطبيقها ، تعكس مَبْلغ كذبهم على الله تعالى، وأنهم سائرون على غير هدى ، يُشرِّعون اعتماداً على أهوائهم وآرائهم الشخصية . وحتى الأنعام لم تَسْلَم من تأثير طقوسهم الوثنية .

وقد كان رأسُ الضلال في هذا السياق رَجلاً من خُزاعة ، اسْمُه : عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ ، فهو الذي غَيَّر دِينَ إبراهيم ﷺ ، وكان أول من اخترع فكرةَ السائبة . وقد تبعته العربُ في كُفره بلا بصر ولا بصيرة . وهذا التقليدُ الأعمى مردُّه إلى الجهل .

وقد قال عنه النبيُّ ﷺ : ((كان أَوَّلَ مَن غَيَّرَ عَهْدَ إبراهيم))[218].

وهذا يَعني أنَّ العربَ قَبْلَه كانوا على دِين إبراهيم حُنفاء غير مُشركين ، وهو قام بإضلالهم .

وعن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال: ((رأيتُ عمرو بن عامر بن لُحَيٍّ الْخُزاعيَّ يَجُرُّ قُصْبَه في النار ، وكان أَوَّلَ مَن سَيَّب السَّوائب))[219].

فهذا الرَّجلُ هو الذي حَمَل العربَ على عبادة الأصنام ، واخترع المنظومةَ الجاهلية بكل هَلْوستها . وبالطبع ، فالعربُ الغارقون في التقليد الأعمى ، قد اتَّبعوه وحَرَسوا ميراثَه الوثني دون تفكير . فها هو في النار يَجُرُّ قُصْبه ــ أمعاءه ــ عقوبةً له .

وفي صحيح البخاري(٦/ ٢٤٨٢): عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال : ((إنَّ أهلَ الإسلام لا يُسَيِّبون ، وإن أهل الجاهلية كانوا يُسَيِّبون)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ١٣٦): ((كانوا في الجاهلية إذا نَذروا قال أحدُهم: ناقتي سائبة ، أي تُسَرَّح ولا تُمنَع مِن مَرْعى. والسائبة أن يقول لعبده : أنتَ سائبة ، أو أعْتَقْتُكَ سائبة)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ قد خَسِرَ الذين قَتلوا أولادَهم سَفَهاً بِغَيرِ عِلْمٍ وحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله ﴾[الأنعام : ١٤٠] .

((نَزلت في ربيعة ومُضَر ، وبعض العرب مِن غَيرهم ، كانوا يدفنون البناتِ أحياء مخافة السَّبي والفقر))[220].

---

(٢١٨) رواه ابن حبان في صحيحه (١٦/ ٥٣٥) برقم (٧٤٩٠) .

(٢١٩) متفق عليه . البخاري(٣/١٢٩٧) برقم (٣٣٣٣) ومسلم(٤/٢١٩١)برقم(٢٨٥٦). وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٤٦) : ((عمرو هذا هو ابن لُحَيِّ بن قَمَعة ، أحد رؤساء خُزاعة الذين وَلُوا البيت بعد جُرْهم ، وكان أول مَن غَيَّرَ دِين إبراهيم الخليل ، فأَدخل الأصنامَ إلى الحِجاز ، ودعا الرَّعاع من الناس إلى عبادتها ، والتقرب بها ، وشَرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام ، وغيرها)) اهـ .

(٢٢٠) تفسير البغوي (١/ ١٩٤) ، والكشاف للزمخشري (١/ ٣٨٠) .

أي إن هؤلاء الجهلة الذين قتلوا أولادَهم (وأدوا بناتِهم) بكل طَيش وسَفهٍ وقِلَّة عقل ، وحرَّموا طيباتِ ما أحل اللهُ لهم من الأنعام كالبَحيرة والسائبة كذباً على الله تعالى، واعتداءً على شريعته ، قد باؤوا بالْخُسران في الحياة الدنيا(قتلوا أولادهم وضيَّقوا على أنفسهم وحَرَموها من الاستمتاع بالحلال)، وخسروا الآخرةَ أيضاً حينما يُعذَّبون في الجحيم. فقد جعلوا عقولَهم الناقصة مصدرَ التشريع ، وراحوا يخترعون أحكاماً ما أنزل اللهُ بها من سلطان وألزموا أنفسهم بها جهلاً وعدواناً . وهذا الأمر يعكس جهلَ العرب الذين كانوا يئدون بناتِهم ، ويَحرمون أنفسهم من الأولاد زينةِ الحياة الدنيا ، ويُدمِّرون حياتهم بأيديهم .

والمضحك المبكي أن عرب الجاهلية كانوا يَئِدون بناتِهم ، في حين أنهم يَعتنون بأنعامهم ، ويُوفِّرون لها الحياة الهانئة. وهذا يدل على الرُّتبة المتدنية للإنسان وعدم احترام كيانه ووجوده . وقد كانت الحيواناتُ عِندَهم أعلى قِيمةً من البشر .

وفي زاد المسير لابن الجوزي (٣/ ١٣٤) : ((وقال قتادة : كان أهلُ الجاهلية يَقتل أحدُهم بِنْتَه مخافة السَّبي والفاقة ، ويغذو كلبَه)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (٣/ ١٢٩٧) : عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : إذا سَرَّكَ أن تعلم جهلَ العرب ، فاقرأْ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قَتلوا أولادَهم سفهاً بغير عِلْم ﴾ إلى قَوْله : ﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً من السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة : ٥٩] .

إنَّ اليهودَ يتلاعبون بالكلام خضوعاً لأهوائهم الشخصية ورغباتهم الدنيئة ، ويَسْعَوْنَ جاهدين لتغيير حُكْم اللهِ ، فهُم لا يحترمون الكلام الإلهيَّ، ولا يُقدِّسون إلا عقولَهم القاصرة التي تقودهم إلى هاوية الآثام، ومستنقع الذنوب . فلديهم قناعة ثابتة بأن الغاية تُبرِّر الوسيلة ، وأن عليهم اتخاذ كل الإجراءات الشرعية وغير الشرعية لتحقيق أحلامهم الآثمة ، وتجذير سُلطتهم على الناس بأي ثمن .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : ((إن أصحاب العِجْل قالوا : هطا سقماثا أزبه مزبا ، بالعربية : حِنطة حمراء قوية فيها شَعْرة سَوْداء ، فذلك قوله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾))(221).

قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ١٣٨) مُوضِّحاً معنى " رِجْزاً ": ((أي عذاباً ، وقيل : الرِّجْز القَذَر مثل الرِّجْس)) اهـ .

وقد أُرْسِل الطاعون على بني إسرائيل عقوبةً لهم على أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الشريرة ، لعلهم يرتدعون ، ويعودون إلى جادَّة الطريق . ففي صحيح مسلم (٤ / ١٧٣٧) : قال أسامة ـ رضي الله عنه ـ:قال رسول الله ﷺ:((الطاعونُ رِجْزٌ أو عذابٌ أُرْسِلَ على بني إسرائيل))(222).

أمَّا القَذَرُ فَيَعْتقد بعضُهم أنه دم الحيض ، مستدلين على ذلك بما أورده البخاري مُعَلَّقاً ودون تسمية قائله : ((كان أول ما أُرسل الحيض على بني إسرائيل))(223).

إلا أن البخاري الذي نقل هذه المقولة رَدَّها بالحديث الصحيح. فقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : خَرَجْنا لا نرى إلا الحجَّ ، فلمَّا كُنَّا بِسَرِف ـ اسم مَوْضع ـ حِضْتُ ، فَدَخَلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ وأنا أبكي، قال: ((ما لَكِ أَنَفِسْتِ ؟)) ، قلتُ : نعم ، قال : ((إنَّ هذا أمرٌ كتبه الله على بنات آدم))(224).

---

(٢٢١) رواه الحاكم في المستدرَك(٢/ ٣٥٢)برقم (٣٢٥٢) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي.

(٢٢٢) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١/ ١٠٥) : ((وأمَّا الطاعون ، فوباء معروف ، وهو بَثْر وورم مؤلم جداً يخرج مع لهب، ويَسْوَدُّ ما حَوْله أو يَخْضَرُّ أو يَحْمَرُّ حُمرة بنفسجية كَدِرة،= =ويحصل معه خفقان القلب والقَيء)) اهـ . وقال العَيني في عمدة القاري (١٤/ ١٢٩) : ((وإنما سُمِّيَ طاعوناً لعموم مُصابه وسُرعة قَتله)) اهـ .

(٢٢٣) أورد هذه المقولة البخاري في صحيحه (١ / ١١٣) . وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٥٦) : ((قائل ذلك هو ابن مسعود ، رواه ابن أبي شَيبة)) .

(٢٢٤) متفق عليه.واللفظ للبخاري(١ / ١١٣)برقم(٢٩٠).ومسلم(٢ / ٨٧٠) برقم (١٢١١). وقال الحافظ في الفتح (١/ ٤٠٣): ((قال الخطابي: أصل هذه الكلمة ـ يقصد أَنَفستِـ من النَّفْس وهو الدم ، إلا أنهم فرَّقوا بين بناء الفِعل من الحيض والنِّفاس ، فقالوا : في الحيض نَفست بفتح النون ، وفي الولادة بضمها)) .

والحديث الشريف يُبيِّن أن الحيض مكتوب على بنات آدم ﷺ كُلِّهِنَّ ، أي قبل مجيء بني إسرائيل . وبسبب أفعالهم تم التشديد عليهم ومعاقبتهم وتحميلهم تكاليف شاقة . قال القرطبي في تفسيره (١/ ٤٢٩) مُتحدِّثاً عن بني إسرائيل : ((فكان مَن أذنبَ ذَنْباً أصبح على بابه مكتوب : عَمِلْتَ كذا وكفارته قطع عُضْو من أعضائك يُسَمِّيه له ، ومن أصابه بَوْل لم يَطْهُر حتى يَقْرِضَه ويُزيل جِلْدته مِن بَدَنه)) اهـ .

وهذه كانت عقوبات بحقهم نظير قسوة قلوبهم ، وأفعالهم السيئة . وقارن هذه العقوبات الشديدة بمنهجية الاستغفار في الإسلام : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[النِّساء: ١١٠] .

إنهم يستحقون تلك العقوبات والإجراءات الحازمة لأنهم قَوم سَوْء فاسقون ، لم يَقْبلوا الشريعة كما هي ، بل سَعَوا إلى التحايل والتلاعب بالنصوص وتغيير الْحُكْم الإلهيِّ . فكانت النتيجة أن تضاعفت الأحمال الواجب حَمْلها بسبب سُوء النية ، وعدم احترام الأوامر الإلهية وتطبيقها على الوجه الأمثل. والمحاولات الحثيثة لِلَوْيِ أعناق النصوص والالتفاف حَوْلَها ، تدل على نية فاسدة مُبَيَّتة . وكلما شدَّد الفردُ على نفْسه بالمعاصي والانحرافات، فإنه سيدفع ثمن أخطائه بشكل باهظ من وقته وجهده ومصيره في الدنيا والآخرة .

وعن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قال : ((إنَّ بني إسرائيل كان إذا أصاب أحدَهم البَوْلُ قَرَضَه بالمِقْراض))[225] .

لقد ظلموا أنفسهم ، وتجبروا في الأرض بغير الحق ، فأُحيط بهم وضُيِّقَ عليهم، فصارت حياتهم عسيرة بما جَنَتْه أيديهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما النَّسِيءُ زِيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الذينَ كَفروا يُحِلُّونهُ عَاماً ويُحَرِّمُونَهُ عَاماً ﴾[التَّوبة : ٣٧] .

إن العرب كانوا يتلاعبون بالأشهر الْحُرُم (التي يَحْرُم فيها القتالُ) _ تقديماً وتأخيراً _ ، وهُم بذلك يعتدون على شرع الله من أجل تحقيق رغباتهم ومصالحهم الشخصية . فصارت ثنائية (التحليل / التحريم) وسيلةً لجني المنافع التي يحصلون عليها من قتال أعدائهم . فالغايةُ عندهم تبرِّر الوسيلةَ. وقد كانت الغايةُ والوسيلة فاسدتَيْن. والجديرُ بالذِّكر أن العرب في الجاهلية كانوا

(٢٢٥) رواه الحاكم في المستدرَك (٣/ ٥٢٨) برقم (٥٩٦٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يَنظرون إلى العقائد الدينية على أنها مشاريع تجارية تُدِرُّ عليهم أرباحاً طائلة . فإذا وَقفت العقائدُ سداً أمام طموحاتهم المادية ، فعندئذ سوف يتلاعبون بالعقائد ، ويُكيِّفونها لصالح نشاطاتهم المالية ، ومراكزهم الدنيوية . إنهم يُغيِّرون حُكْمَ اللهِ كَي يُحافِظوا على مصالحهم وسُلطتهم وزَعامتهم .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٦٩) : ((هذا مِمَّا ذَمَّ اللهُ تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حَرَّم اللهُ، وتحريمهم ما أحلَّ اللهُ ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والْحَمِيَّة ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أَحْدَثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرَّم ، فأَخَّروه إلى صَفَر ، فيُحِلُّون الشهرَ الحرام ، ويُحرِّمون الشهرَ الحلال)) اهـ .

إن الأشهر الْحُرُم عند الله تعالى أربعة : ذو القِعْدة ، ذو الْحِجَّة ، المحرَّم ، رجب . فَيَحْرُم فيها القتالُ ، وهذا الأمرُ ثابتٌ في الجاهلية والإسلام بلا اختلاف . فقد كان العربُ في الجاهلية يُحرِّمون القتالَ في الأشهر الحرم، لكنهم كانوا يعيشون على الغارات والغزو فيما بينهم. فالاقتصادُ الجاهلي قائمٌ على أساس الإغارة على الآخرين ونهب ما يمكن نهبه . فإن احتاجوا إلى القتال في شهر حرام قاموا بتحليله والقتال فيه ، ثم تحريم شهر آخر مكانه. وبما أن هناك ثلاثة أشهر حُرُم متوالية ، وهي ذو القعدة ، ذو الحجة ، المحرَّم . فإن هذه المدة الطويلة كانت تعيق مشاريعَ الغزو والنهب ، وهذا يعني انهيار عائداتهم المادية من الغارات ، لذلك لجأوا إلى التحايل باختراع النَّسيء (التلاعب بتحريم وتحليل الأشهر) . مِمَّا يشير إلى أن المنفعة المادية أدَّت إلى قيام العرب بتغيير أحكام الأشهر الحرم ، يعني إخضاع الشريعة المتعارف عليها لسُلطة المصلحة المادية الدنيوية .

وفي الحديث المتفق عليه. البخاري (٢/ ٥٦٧) ومسلم(٢/ ٩٠٩): عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال عن أهل الجاهلية : ((ويجعلون المحرَّم صَفَراً)) .

وقد كانوا يقومون بهذا الفعل القبيح لئلا تتوالى عليهم ثلاثة أشهر ، وهم ممنوعون من القتال . فاخترعوا هذه الحيلة لتحقيق مصالحهم الشخصية ، ولئلا يَخسروا أرباحَهم المادية التي يحصلون عليها من الغارات .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٣٢٥) : ((وكانوا في الجاهلية على أنحاء، مِنهم مَن يُسمِّي المحرَّم صَفَراً فَيُحِلُّ فيه القتالَ، ويُحرِّم القتالَ في صَفر ويُسَمِّيه المحرَّم . ومنهم مَن كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا ، ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا، ومنهم مَن يُؤخِّر صَفراً إلى ربيع الأول وربيعاً إلى ما يليه ، وهكذا إلى أن يصير شَوَّال ذا القِعْدة ، وذو القِعدة ذا الحِجَّة ، ثُمَّ يعود فَيُعيد العدد على الأصل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عَلَيْهِم آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الذينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكونُ لِي أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نفْسي إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إلَيَّ إنِّي أخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ ﴾[يُونُس : ١٥].

هذه الآيةُ تُشير إلى عِناد المشركين وتَعَنُّتهم ومحاولتهم تغيير حُكْم اللهِ . وفي الآيةِ التفات مِنَ الخطاب إلى الغَيبة إعراضاً عنهم ، وهذ يتَّضح في قَوْله تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عَلَيْهِم ﴾ . فاللهُ تعالى لَم يَقُلْ : وإذا تُتْلَى عليكم . فاللهُ تعالى لَم يُوَجِّهْ للمشركين الخِطابَ تَوبيخاً لهم وذَمَّاً لهم ، وهُم لا يَستحقون هذا الشَّرف .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٤):((قَوله تعالى:﴿وإذا تُتلى عَلَيْهِم آياتُنا﴾ اختلفوا فِيمن نزلت على قَولين: أحدهما أنها نزلت في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قاله أبو صالح عن ابن عباس. والثاني أنها نزلت في مُشركي مكة ، قاله مجاهد وقتادة . والمراد بالآيات القرآن)) .

وإذا قُرِئَ على المشركين آياتُ القُرآنِ الذي أنزله اللهُ على محمد ﷺ، واضحةَ الدلالة ، ظاهرةَ الْحُجَّة ، لا لَبْسَ فيها ولا إشكال . قال المشركون الذين لا يُؤمنون بالبَعْث ، ولا يَخافون عِقاباً ، ولا يَرْجُون ثَواباً : ﴿ ائْتِ بِقُرآنٍ غَيْرِ هذا أوْ بَدِّلْهُ ﴾ . لقد طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يَأتِيَ بُقرآنٍ غَير هذا القُرآن ، أو أن يُغيِّر القُرآنَ ، فيحذف الآياتِ التي يتضايق منها المشركون ، والتي فِيها ذَمُّ آلهتهم الأصنام، وإبطالُ عبادتها ، وتَخويفُهم بعذاب النار إن استمروا في عبادتها ، ويُضيف بعضَ الآياتِ التي تتوافق مع مُراد المشركين وإرادتهم ، وتتوافق معَ أهوائهم وأمزجتهم .

وقد طَلب المشركون من النبيِّ ﷺ الإتيانَ بِقُرآنٍ غَير القُرآن أو تبديلَه ، لأنهم لَمَّا سَمِعوا آياتِ القُرآن تَضايَقوا بشِدَّة ، وسيطرَ عليهم الغَيْظُ والعصبيةُ، وذلك لأن آياتِ القُرآن هَدَمَت عبادةَ الأصنام (عبادة الآباء والأجداد)، وذَمَّتْ عُبَّادَ الأصنامِ، وفَضحتْ جَهْلَهم، وأظهرتْ حماقاتهم، ونَسفتْ تاريخَهم ، وجَعلت العذابَ الأليم مصيرَهم في الدُّنيا والآخرة ، إن اختاروا

الكُفرَ على الإيمان . لذلك طلب المشركون كتاباً غَيْر القُرآن ، يَخلو من البَعْث والنُّشور والحساب والعِقاب والجنة والنار، ولا يُوجد فِيه ذَمُّ عبادة الأصنامِ، وتَسفيهُ أحلامِهم ، وهَدْمُ تراث آبائهم وأجدادهم.

وهُم قد طلبوا هذا الأمرَ ليس رَغبةً في الإيمان ، وإنما عِناداً وتَعَنُّتاً ، وسُخريةً واستهزاءً [226].

وقال القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٨٩) : ((والفرق بين تبديله والإتيان بِغَيره ، أن تبديله لا يجوز أن يكون معه ، والإتيان بغَيره قد يجوز أن يكون معه . وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه : أحدها _ أنهم سألوه أن يُحَوِّل الوعد وعيداً ، والوعيد وعداً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً، قاله ابن جرير الطبري. الثاني _ سألوه أن يُسْقِط ما في القرآن مِن عَيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، قاله ابن عيسى.

الثالث_ أنهم سألوه إسقاط ما فيه مِن ذِكْر البَعْث والنُّشور ، قاله الزَّجاج)) اهـ .

﴿ قُلْ ما يَكونُ لِي أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ نفْسي ﴾ . إنَّ النبيَّ ﷺ عَبْدٌ مأمورٌ مِنَ اللهِ . يُنفِّذ الأوامر الإلهيةَ بلا زيادة ولا نقصان ، ويُبلِّغ كلامَ اللهِ للناس، ولا يَقْدِر على تغيير حَرْف واحد في القُرآن مِن قِبَل نفْسه . والمعنى : إنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ وليس مِن عِندِ محمد ﷺ ، فلا يَقْدِر على تبديله . وقد ذَكَرَ التبديلَ فقط، لاستلزام امتناعه الإتيان بِقُرآن آخَر .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٦٢٣) : ((أي ما ينبغي لي ، ولا يَحِلُّ لي أن أُبَدِّله مِن تِلقاء نفْسي ، فنفى عن نفْسه أحد القِسْمَيْن ، وهو التبديل ، لأنه الذي يمكنه لو كان ذلك جائزاً ، بِخِلاف القِسْم الآخَر، وهو الإتيان بقرآن آخر ، فإن ذلك ليس في وُسْعه ، ولا يَقْدِرُ عليه . وقِيل: إنه ﷺ نفى عن نفْسه أسهلَ القِسْمَيْن ليكون دليلاً على نفْي أصعبهما بالطريق الأَوْلَى،وهذا منه ﷺ من باب مُجاراة السفهاء،إذ لا يَصدر مِثْلُ هذا الاقتراح عن العقلاء بعد أن أمره الله سُبحانه بذلك وهو أعلم بمصالح عباده، وبما يَدفع الكفارَ عن هذه الطلبات الساقطة والسؤالات الباردة)) اهـ.

---

(٢٢٦) قال النَّسفي في تفسيره (٢/ ١٢١) : ((وغرضهم في هذا الاقتراح الكَيْد، أمَّا اقتراح إبدال قرآن بقرآن، ففيه أنه مِن عِندِك، وأنك قادر على مِثْلِه، فأبدل مكانه آخر، وأمَّا اقتراح التبديل فلاختبار الحال، وأنه إن وُجد منه تبديل ، فإمَّا أن يُهلكه الله فينجو منه ، أو لا يُهلكه فيسخروا منه ، فيجعلوا التبديل حُجَّةً عليه ، وتصحيحاً لافترائه على الله)) اهـ .

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إِلَيَّ ﴾ . فالنبيُّ ﷺ لا يَتصرَّف مِن تِلقاء نفْسه، وإنما يَتَّبع الوَحْيَ الإلهيَّ، فهو عَبْدٌ مأمور يتلقى الأوامرَ من السماء ، ويُطبِّقها على الأرض كما هِيَ ، بلا تبديل ولا تحريف . والنبيُّ ﷺ يَتَّبِع الوَحْيَ فيما يَأمر به ويَنهى عنه ، ولا شيء غَير الوَحْي . والقُرآنُ كلامُ اللهِ لا كلامُ محمد ﷺ ، وبالتالي لا يَقْدِر محمد ﷺ على تبديله .

وهدفُ المشركين هو التَّشكيك بالنبيِّ ﷺ وتكذيبه. وكأنهم يَقولون: إن القُرآنَ مِن تأليفك يا محمد، فائْتِ بِقُرآن آخَر ، أو بَدِّلْهُ ليصير مُتوافقاً مع رغباتنا ، فإنك قادرٌ على ذلك لأنه تأليفُك .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٩) : ((تعليلٌ لِمَا يكون ، فإنَّ الْمُتَّبِعَ لِغَيره في أمر لا يستبدُّ بالتصرف فيه بوجهٍ ، وجوابٌ للنقض بنسخ بعض الآيات ببعض ، وردٌّ لِمَا عَرَضوا له بهذا السؤال من أن القرآنَ كلامُه واختراعُه ، ولذلك قَيَّدَ التبديلَ في الجواب ، وسَمَّاه عِصياناً ، فقال : ﴿ إِنِّي أخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي بالتبديل)) اهـ .

﴿ إِنِّي أخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ ﴾ . إني أخافُ مِنَ اللهِ إنْ عَصَيْتُه ، ورفضتُ أوامرَه ، وحَرَّفْتُ كتابَه ، عذابَ يوم القِيامة الذي تَشيب لأهواله الوِلْدان. ولا شَكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ مَعصومٌ، ولكنَّ هذا الكلام، يشتمل على معاني إقامة الْحُجَّة عَليهم ، وإبطال اقتراحهم ، وتخويفهم من العذاب العظيم . وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ١٨٩) : ((وفِيه إيماء بأنهم واسْتَوْجَبُوا العذابَ بهذا الاقتراح)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرَّعْد : ٤١] .

واللهُ يَحْكُم ، وحُكْمُه نافذٌ في كل شيء ، لا رَادَّ له . ولا أحد يَتعَقَّب حُكْمَ اللهِ بنقضٍ أو تغيير. لا راد لقضائه، ولا ناقض لِحُكْمه.والإنسانُ_مهما بَلَغَت قُوَّته وعلا كَعْبُه وعَظُمَت سُلطته_ لا يَستطيع إبطالَ حُكْمِ اللهِ ، ولا يَقْدِر على وَقْف مَشيئته . واللهُ يَحكم ، ولا يُحْكَم عليه .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٣٤) : ((﴿ واللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ لا رادَّ له . وحقيقته الذي يَعْقُبُ الشيءَ بالإبطال. ومِنه قِيل لصاحب الحق مُعَقِّب ، لأنه يَقفو غريمه بالاقتضاء. والمعنى أنه حَكَمَ للإسلام بالإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره)) اهـ .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٤/ ٦٦٧):((وأخرجَ ابنُ أبي حاتم عن ابن زَيد_رضي اللهُ عنه_:

﴿ واللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ ، ليس أحد يَتَعَقَّبُ حُكْمَه فَيَرُدُّه ، كما يَتعقَّب أهلُ الدنيا بعضُهم حُكْمَ بَعْضٍ فَيَرُدُّه)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً ﴾ [الأحزاب : ٦٢].

إنَّ سُنَّةَ اللهِ ثابتةٌ ، لا تتغيَّر ولا تَتبدَّل . ولا أحدَ يَقْدِر على تبديلها ، فلا قُدرة لمخلوق معَ قُدرة الخالق . وسُنَّةُ اللهِ قائمةٌ على أساس متين مِنَ الحِكمة التي هِيَ رُوح التشريع .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ٣١٦) : ((أي : لا يُبَدِّل اللهُ سُنَّته ، بل يُجريها مجرى واحداً في الأمم)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحويلاً ﴾ [فاطِر : ٤٣][227].

إنَّ سُنَّةَ اللهِ لا يمكن تبديلها ولا تَحويلها . فلا رادَّ لقضاء اللهِ . وكلُّ شيء بأمرِ اللهِ تعالى ، ولا مكان للصُّدفة . ولا يَقْدِر الإنسانُ أن يَدفع أمرَ اللهِ عن نفْسه ، أو أن يُحَوِّلَه إلى شخص آخَر .

وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٣١١) : ((أي : أجْرَى اللهُ العذابَ على الكفار ، ويجعل ذلك سُنَّةً فيهم ، فهو يُعَذِّب بِمِثْلِه مَن استحقَّه، لا يَقْدِر أحد أن يُبدِّل ذلك، ولا أن يُحَوِّل العذابَ عن نفْسه إلى غَيره . والسُّنةُ الطريقةُ ، والجمع سُنَن)) اهـ .

*

(٢٢٧) قال الشهرستاني في المِلَل والنِّحَل (٢/ ٨) : ((وللهِ تعالى سُنَّتان في خَلْقِه وأمْرِه . والسُّنةُ الأمرية أقدم وأسبق مِن السُّنة الخَلْقية . وقد أطلعَ خَواصَّ عباده من البشر على السُّنتين : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحويلاً ﴾ هذا مِن جهة الخَلْق ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً ﴾ هذا من جهة الأمر)) .

٨
الْمُحْكَم والْمُتشابِه

إنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ ، ولا يُمكن أن يكون متناقضاً. ولكنَّ بعض الناس يُحاولون وَضْع الآياتِ في حالة صِدام وتعارض وتناقض ، وذلك لتنفيذ مُخططاتهم المسبقة القائمة على فكرة التَّشكيك بالقُرآن ، وأنه كلام بشري مُتناقض . والشُّبهاتُ المسيطرة على قلوبهم المظلمة هي التي تَقودهم في هذا الطريق الملتوي . وهذه الشُّبهاتُ مَرَدُّها إلى رَفْض نور الإيمان ، والضَّعفِ في اللغة العربية . والناسُ أعداء ما يَجهلون، والْحُكْمُ على الشيء فَرع عن تصوُّره. والْمُحْكَمُ مِن آيِ القُرآن ما فُهِم مَعناه، أمَّا الْمُتشابِه فهو ما لا يَعلمه إلا اللهُ تعالى.وقال القرطبي في تفسيره(٤/١٢): ((اختلف العلماء في الْمُحْكَمَات والْمُتشابِهات على أقوال عديدة ، فقال جابر بن عبد الله _ وهو مُقتضَى قول الشَّعبي وسفيان الثوري وغيرهما _ : الْمُحْكَمات مِن آيِ القرآن ما عُرف تأويلُه وفُهِم معناه وتفسيره . الْمُتشابِه ما لَم يكن لأحد إلى عِلْمه سبيل مِمَّا استأثرَ اللهُ تعالى بِعِلْمِه دُون خَلْقه . قال بعضُهم : وذلك مِثْل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدَّجال ، وعيسى ، ونحو الحروف الْمُقَطَّعة في أوائل السُّوَر . قلتُ_ يعني القرطبي _ : هذا أحسن ما قِيل في الْمُتشابِه)) .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ هُوَ الذي أَنزلَ عَلَيْكَ الكتابَ مِنهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ فأمَّا الذينَ في قُلوبِهِم زَيْغٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ مِنهُ ابتغاءَ الفِتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولو الألبابِ ﴾ [آل عِمران : ٧] .

إنَّ اللهَ تعالى أنزلَ على محمدٍ ﷺ القُرآنَ ، مِنهُ آياتٌ واضحاتُ المعنى ، ظاهراتُ الدلالة . أُحْكِمْنَ بالتفصيل والتَّوضيح والبيان ، حُجَجُهُنَّ ساطعة ، وأحكامُهُنَّ واضحة ، لا لَبْسَ فِيها ولا خَفاء ، كآياتِ الحلال والحرام ، والوَعد والوعيد ، والثواب والعِقاب . وهذه الآياتُ الواضحة هُنَّ أساسُ القُرآنِ وأصْلُه (228).

---

(٢٢٨) قال الطبري في تفسيره (٣/ ١٧٠) : ((وإنما سَمَّاهُنَّ ﴿ أُمُّ الكتابِ ﴾ لأنهنَّ مُعظم الكتاب ، ومَوْضِع مَفْزَع (ملجأ) أهله عند الحاجة إليه ، وكذلك تفعل العرب تُسمِّي الجامع مُعظمَ الشيء أُمَّاً له فتُسَمِّي راية القَوم التي تجمعهم في العساكر : أُمُّهم ، والْمُدَبِّر مُعظمَ أمرِ القرية والبلدة : أُمُّها)) .

وسُمِّيت هذه الآياتُ مُحْكَمات (229)، مِنَ الإحكام ، فقد أحْكَمَها اللهُ، وليس للناس تصرُّفٌ فيها بسبب وضوح ألفاظها ، وظُهور مَعناها ، وهي مَحفوظة من الاحتمال والاشتباه . واللهُ تعالى قال : ﴿ أُمُّ الكتابِ ﴾ ولَم يَقُلْ: أُمَّهات الكتاب، لأنَّ الآياتِ كُلَّها وَحدة واحدة ، يُصَدِّق بَعْضُها بَعضاً ، وهي متكاملة لا متناقضة ، وكلامُ اللهِ واحدٌ ، لا تَفاوُت فِيه ولا تَضارُب .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٠) : ((يُخبِر تعالى أنَّ في القرآن آياتٍ مُحْكَمات ، هُنَّ أُم الكتاب ، أي بَيِّنات ، واضحات الدلالة ، لا التباس فيها على أحد . ومِنهُ آيات أُخَر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فَمَن رَدَّ ما اشتبهَ إلى الواضح مِنه ، وحَكَّمَ مُحْكَمَه على مُتشابِهِه عِندَه ، فقد اهتدى ، وَمَن عكس انعكس)) اهـ .

وعن عبد الله بن خليفة قال : سَمعتُ ابن عباس _ رضي الله عنهما _ يقول: ((إنَّ في الأنعام آياتٍ مُحْكَمَاتٍ هُنَّ أُمُّ الكتاب)) ثُمَّ قرأ:((﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكم عَلَيْكُم ﴾ الآية))(230).

﴿وأُخَرُ مُتشابِهاتٌ﴾ (231).في القُرآنِ آياتٌ أُخَر تَحتمل وُجوهاً متعددة بسبب اشتباه دلالتها.

---

(٢٢٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥٠و٣٥١) : ((قَوْلُه تعالى: ﴿ مِنهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ ﴾ الْمُحْكَم الْمُتقَن الْمُبَيَّن.وفي المراد به هاهنا ثمانية أقوال: أحدها أنه الناسخ ، قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسُّدي في آخرين. والثاني أنه الحلال والحرام ، رُوِيَ عن ابن عباس ومجاهد. والثالث أنه ما عَلِمَ العلماءُ تأويلَه ، رُوِيَ عن جابر بن عبد الله . والرابع أنه الذي لَم يُنْسَخْ ، قاله الضَّحاك. والخامس أنه ما لَم تتكرر ألفاظُه ، قاله ابن زَيد . والسادس أنه ما استقلَّ بنفسه ولَم يَحْتَجْ إلى بيان ، ذَكَره القاضي أبو يعلى عن الإمام أحمد. وقال الشافعي وابن الأنباري:هو ما لَم يَحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً . والسابع أنه جميع القرآن غير الحروف الْمُقَطَّعة . والثامن أنه الأمر والنَّهْي ، والوعد والوعيد ، والحلال والحرام ، ذكر هذا والذي قَبْلَه القاضي أبو يعلى)) اهـ .

(٢٣٠) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٧) برقم (٣٢٣٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٣١) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥١) : ((وفي الْمُتشابِه سبعة أقوال: أحدها أنه المنسوخ قاله ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسُّدي في آخرين. والثاني أنه ما لَم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة، رُوِيَ عن جابر بن عبد الله. والثالث أنه الحروف الْمُقَطَّعة كَقَوْلِه : ﴿ الم ﴾ ونحو ذلك، قاله ابن عباس. والرابع أنه ما اشتبهت معانيه، قاله مجاهد . والخامس أنه ما تكرَّرت ألفاظُه ، قاله ابن زيد.والسادس أنه ما احتمل من التأويل وجوهاً.وقال ابن الأنباري : الْمُحْكَم ما لا يحتمل التأويلات=

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٧) : ((مُحْتَمَلات لا يتَّضح مقصودها _ لإجمالٍ أو مُخالَفةِ الظاهر _ إلا بالفحص والنظر ، ليظهر فيها فضلُ العلماء ، ويزداد حِرْصُهم على أن يجتهدوا في تَدَبُّرها ، وتحصيل العلوم المتوقِّف عليها استنباط المراد بها، فينالوا بها_ وبإتعاب القرائح في استخراج معانيها والتوفيق لِمَا بَيْنَها وبين الْمُحْكَمات _ معالي الدرجات)) اهـ .

والسؤالُ الذي يَفرض نفْسَه : لماذا اشتملَ القُرآنُ على الْمُحْكَم والْمُتشابِه ؟ . وما فائدةُ الْمُتشابِه إذا عَلِمْنا أن القُرآن نَزَل للبيان والتَّوضيح ؟ . لقد أراد اللهُ اختبار عباده وتمييزهم ، فيتَّضح المؤمن من المنافق ، والعالِم من الجاهل . ويتَّضح معنى إعجاز القُرآن وتَحَدِّيه للكافرين .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥١_ ٣٥٣) : ((فعنه أربعة أجوبة : أحدها أنه لَمَّا كان كلام العرب على ضَرْبَيْن أحدهما الْمُوجَز الذي لا يَخفى على سامعه، ولا يَحتمل غير ظاهره، والثاني المجاز والكِنايات والإشارات والتلويحات ، وهذا الضَّرْب الثاني هو الْمُسْتَحْلَى عند العرب والبديع في كلامهم، أنزلَ اللهُ تعالى القرآنَ على هَذين الضَّرْبَيْن ، ليتحقق عَجْزُهم عن الإتيان بِمِثْلِه فكأنه قال : عَارِضوه بأيِّ الضَّرْبَيْن شِئْتُم ، وَلَوْ نَزَلَ كُلُّه مُحْكَماً واضحاً لقالوا: هلا نَزَلَ بالضَّرْب الْمُستحسَن عِندنا ، ومتى وقع في الكلام إشارة أو كِناية أو تعريض أو تشبيه كان أفصح وأغرب . ... والجواب الثاني أن الله تعالى أنزله مُختبِراً به عباده ، ليقف المؤمن عنده، ويَرُدَّه إلى عالِمه فَيَعْظُم بذلك ثوابُه ، ويرتاب به المنافق ، فَيُداخله الزَّيْغ فيستحق بذلك العقوبة كما ابتلاهم بنهر طالوت. والثالث أن الله تعالى أراد أن يُشْغِل أهلَ العِلْم بِرَدِّهم الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم فيطول بذلك فكرُهم ويتَّصل بالبحث عنه اهتمامُهم فَيُثابون على تعبهم كما يُثابون على سائر عباداتهم.ولوْ جَعل القرآنَ كُلَّه مُحْكَماً لاستوى فيه العالِم والجاهل ، ولَم يُفَضَّل العالِم على غَيْره ، وَلَمَاتت الخواطر ، وإنما تقع الفِكرة والحِيلة معَ الحاجة إلى الفهم. وقد قال الحكماء : عَيب الغِنى أنه يُورِث البلادةَ، وفضلُ الفقر أنه يَبعث على الحِيلة ، لأنه إذا احتاجَ احتالَ. والرابع أن أهل كل صناعة يجعلون في علومهم معاني غامضة ومسائل دقيقة لِيُحْرِجُوا بها مَن يُعَلِّمون ويُمَرِّنوهم على انتزاع الجواب ، لأنهم إذا قَدِروا على الغامض كانوا على الواضح أقْدَر ، فلمَّا كان ذلك حسناً عند العلماء جازَ أن

=ولا يخفى على مُمَيِّز، والْمُتشابِه الذي تعتوره تأويلات. والسابع أنه القَصَص والأمثال، ذَكَره القاضي أبو يعلى)) اهـ .

يكون ما أنزل الله تعالى مِن المتشابه على هذا النحو. وهذه الأجوبة معنى ما ذَكَره ابن قُتَيبة وابن الأنباري)).

﴿ فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابهَ مِنه ابتغاءَ الفِتنة وابتغاءَ تأويله ﴾ .

فالذين في قلوبهم مَيْلٌ عن الحق ، أو هوىً متجذر ، أو شكٌّ راسخ ، يَتَّبعون الآياتِ المتشابِهة فيُفسِّرونها حَسَبَ أهوائهم الباطلة وعقولهم المريضة . فَهُم يتعلقون بالظاهر أو يتمسَّكون بتأويل باطل، وذلك من أجل إشاعة الفِتنة في المجتمع ، وتشكيكِ الناس بدِينهم ، والتشويشِ على الشريعة الإسلامية .

وهذا هو منهج المنحرِفين في كل العصور، حيث يَتَسَتَّرون بالعِلْم وحريةِ التفكير والاجتهادِ، والجهلُ يَعْصِف بهم مِن كل الجهات ، وسُوء النِّية تسيطر على أفكارهم . وهؤلاء الْجُهَّال الذين يرتدون ثِيابَ العلماء ، يَنطبق عليهم المثَل المعروف : " تَزَبَّبَ قبل أن يَتَحَصْرَم " . والذينَ في قُلوبهم زَيْغٌ هُم الكفَّار والزنادقة وأصحاب البِدَع .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٣٥٣) : ((في هؤلاء القوم أربعة أقوال : أحدها أنهم الخوارج ، قاله الحسن. والثاني المنافقون ، قاله ابن جُرَيج . والثالث : وفد نجران من النصارى ، قاله الربيع. والرابع: اليهود، طلبوا معرفة بقاء هذه الأُمَّة من حساب الْجُمَّل، قاله ابن السائب)).

وعلى المرء _ قبل أن يقرأ القرآن _ أن يُنظِّف قلبَه من الأهواء والأفكار المنحرِفة المسبقة ، وذلك لكي يهبط النورُ القرآنيُّ في قلبه ، وسِوى ذلك فَسَوْفَ يكون القرآنُ عليه عَمى . فلا بد من قلبٍ نظيف طاهر لكي يَقْدِر على تلقِّي النَّفحات الإيمانية . والنُّورُ الإلهيُّ لا يَهبِط في قلبٍ قَذِر. والخطايا تُنسِي الإنسانَ العِلْمَ ، ومَن أرادَ العِلْمَ والحِفْظَ فلا بُدَّ أن يَبتعد عن الذنوب . والنجاةُ تكمن في رَدِّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم ، والتوفيقِ بين معاني الآيات ، وليس ضَرْب القرآن بالقرآن .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٦٠) : ((﴿ فيتَّبعون ما تشابه مِنه ﴾ ، أي إنما يأخذون منه بالْمُتَشَابِه الذي يُمكِّنهم أن يُحرِّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، ويُنْزِلوه عليها ، لاحتمال لَفْظه لِمَا يَصرفونه ، فأمَّا الْمُحْكَم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم ، وحُجَّة عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ابتغاءَ الفِتنة ﴾ ، أي الإضلال لأتْباعهم إيهاماً لهم أنهم يَحتجون على بِدعتهم بالقُرآن، وهو حُجَّة عليهم لا لهم ، كما لو احتجَّ النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ ألقاها إلى مريم ورُوحٌ مِنه، وتركوا الاحتجاجَ بِقَوْله : ﴿ إنْ هُوَ إلا عَبْدٌ أنعَمْنا عَلَيْهِ ﴾ [الزُّخرُف : ٥٩])).

وعن عائشة _ رضي الله عنها _ قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هو الذي أَنزل عَلَيْكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتاب وأُخَر مُتشابِهات فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبعون ما تشابه منه ابتغاءَ الفِتنة وابتغاءَ تأويله ﴾ ... . قالت : قال رسول الله ﷺ : ((فإذا رأيتَ الذين يَتَّبعون ما تشابه مِنه ، فأولئك الذين سَمَّى اللهُ فاحذروهم))[232].

وآياتُ القرآن تنقسم إلى مُحْكَمَاتٍ (وهي الآيات التي يُعرَف تفسيرها بدقة ودلالتها واضحة ولا تحتمل إلا وجهاً واحداً) ، ومُتشابِهاتٍ (وهي الآيات التي لا يُعرَف تفسيرها بدقة لأنها تحتمل أكثر من وجه ، ودلالتها غير قطعية) . والواجبُ الإيمانُ بالقرآن الكريم كُلِّه ، فلا حُجَّة فيه لِمُبتدِع أو ضال. فكلامُ الله لا يتناقض ، بل يُصدِّق بعضُه بعضاً ، ولا يَدحض بعضُه بعضاً . فينبغي رَدُّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم للتخلص من التعارض الظاهري غير الحقيقي الذي قد ينشأ في الأذهان بسبب قصور الفهم ، والضعفِ في معرفة دلالات اللغة .

وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٢١٠) : ((قَوْله : " فإذا رأيتَ الذين يَتَّبعون ما تشابه مِنه " . قال الطبري : قِيل : إن هذه الآية نزلت في الذين جَادَلوا رسول الله ﷺ في أمر عيسى، وقِيل : في أمر مُدَّة هذه الأُمَّة . والثاني أَوْلَى ، لأن أمر عيسى قَد بَيَّنه اللهُ لِنَبِيِّه فهو معلوم لأُمَّته بخلاف أمر هذه الأُمَّة، فإن عِلْمَه خَفِيَ عن العباد. وقال غَيْرُه: الْمُحْكَم من القرآن ما وَضَحَ معناه ، والْمُتشابِه نقيضه . وسُمِّيَ الْمُحْكَم بذلك ، لوضوح مفردات كلامه ، وإتقان تركيبه بِخِلاف الْمُتشابِه . وقِيل : الْمُحْكَم ما عُرِفَ المراد مِنه ، إمَّا بالظهور ، وإمَّا بالتأويل . والْمُتشابِه ما استأثر اللهُ بِعِلْمه كَقِيام الساعة ، وخروج الدَّجال ، والحروف الْمُقطَّعة في أوائل السُّوَر . وقِيل في تفسير الْمُحْكَم والْمُتشابِه أقوال أخرى غير هذه نحو العشرة ، ليس هذا مَوْضِع بَسْطها ، وما ذَكَرْتُه أشهرها وأقربها إلى الصواب)) اهـ .

وفي فتح القدير للشوكاني (١/ ١٧) : ((أخرجَ ابنُ سعد أن علياً قال لابن عباس : اذهبْ إليهم _ يعني الخوارج_ ولا تُخاصِمْهم بالقُرآن فإنه ذُو وجوه ، ولكنْ خَاصِمْهم بالسُّنة، فقال له : أنا أعْلَمُ بكتاب الله مِنهم ، فقال : صَدَقْتَ ، ولكنَّ القُرآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجوه)) اهـ .

وما قاله عليُّ بن أبي طالب حقيقةٌ واقعية ، فالقرآنُ يُحمَل عليه كل تأويل فَيَحْتَمِلُه ، وهو ذُو مَعانٍ مختلفة. لذلك من الصعب مناظرة الفِرَق الضَّالة كالخوارج والشيعة الروافض بالقرآن الكريم،

---

(٢٣٢) متفق عليه. البخاري(٤/ ١٦٥٥)برقم (٤٢٧٣)،ومسلم (٤/ ٢٠٥٣) برقم (٢٦٦٥).

بسبب وجود تفاسير خاصة بهم للآيات القرآنية، وبسبب قُدرتهم على لَوْي أعناق الآيات، وإخراجها من سياقها اللغوي والتاريخي ، وتجريدها من أسباب النُّزول ، ووضعها في غَير موضعها . أمَّا مُخاصمتهم بالسُّنة ، فَسَوْفَ تكشف باطلَهم لأنها لا تَحتمل التأويلات والوجوهَ . ولا شَكَّ أن السُّنة هي تطبيقٌ عملي للآياتِ القرآنية ، وترجمةٌ لها إلى واقع ملموس.

والإنسانُ إذا اختلطتْ عليه الأمور، فليرجعْ إلى العلماء الثِّقات، المعروفين بالتَّدين العميقِ، والعِلْم الواسع،فليسألهم عن القضايا التي تَشْغل بالَه . وَلْيَقْطَع الشكَّ باليقين كي يرتاح . ولْيَدَعْ ما يَشُكُّ فيه إلى ما لا يَشُكُّ فيه. كما قال رسول الله ﷺ:((دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى ما لا يُرِيبُكَ ، فإن الخير طُمأنينة ، وإن الشر رِيبة))(233).

وفي صحيح البخاري (٤/ ١٨١٤) : عن سعيد بن جُبَيْر قال : قال رَجل لابن عباس : إني أجدُ في القرآن أشياءَ تختلف عَلَيَّ. قال: ﴿ فلا أنسابَ بَيْنَهم يَوْمَئذٍ ولا يَتساءلون ﴾ [المؤمنون : ١٠١]. ﴿ وأقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتساءلون ﴾ [الصَّافات : ٢٧] . ﴿ ولا يَكْتُمونَ اللهَ حَديثاً ﴾ [النِّساء : ٤٢]. ﴿ واللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ [الأنعام : ٢٣]، فقد كَتَموا هذه الآية . وقال : ﴿ أَمِ السماءُ بناها (٢٧) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (٢٨) وأغطَشَ لَيْلَها وأخرَجَ ضُحاها (٢٩) والأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاها (٣٠) ﴾ [النَّازعات] . فَذَكَرَ خَلْقَ السماء قبل خلق الأرض، ثم قال : ﴿ أئِنَّكم لَتَكْفرونَ بالذي خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قَوْله : ﴿ طائعين ﴾ [فُصِّلَتْ : ٩_ ١١] .

فَذَكَرَ في هذه خَلْقَ الأرض قبل السماء . وقال : ﴿ وكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ [النِّساء : ٩٦] . ﴿ عَزيزاً حَكيماً ﴾ [النِّساء : ٥٦] . ﴿ سَميعاً بَصيراً ﴾ [النِّساء : ٥٨] . فكأنه كان ثُمَّ مضى . فقال _ يعني ابن عباس _ : ((﴿ فلا أنسابَ بَيْنَهم ﴾ في النفخة الأولى، ثم يُنفَخ في الصُّور﴿ فَصَعِقَ مَن في السماواتِ وَمَن في الأرضِ إلا مَن شاءَ اللهُ ﴾ [الزُّمَر : ٦٨]. فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثُمَّ في النفخة الآخِرة : ﴿ أقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يَتساءلون ﴾ . وأمَّا قَوْله : ﴿ ما كُنَّا مُشرِكين ﴾ ، ﴿ ولا يَكْتُمونَ اللهَ حَديثاً ﴾ ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تعالَوْا نقول : لم نكن مُشرِكين ، فَخُتِمَ على أفواههم فتنطق أيديهم ، فعند ذلك عُرِفَ أن الله لا يُكتَم حديثاً ، وعِندَه : ﴿ يَوَدُّ الذينَ كَفَروا ﴾ [النِّساء : ٤٢] . وخلقَ الأرضَ في

(٢٣٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ١٥) برقم (٢١٦٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

يومين ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهنَّ في يومين آخرَيْن ، ثم دحا الأرض ، ودَحْوُها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبالَ والجِمال والآكام وما بينهما في يومَيْن آخرَيْن، فذلك قَوْله : ﴿ دحاها ﴾. وقَوْلُه: ﴿ خَلَقَ الأرضَ في يَوْمَيْنِ ﴾ ، فَجُعِلَت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلِقَت السماوات في يَوْمَيْن .﴿ وكانَ اللهُ غَفوراً رَحيماً ﴾ ، سَمَّى نفْسَه بذلك ، وذلك قَوْله . أي : لم يَزَلْ كذلك ، فإن الله لم يُرِدْ شيئاً إلا أصابَ به الذي أراد ، فلا يختلف عليك القرآن ، فإن كُلاً مِن عند الله)) اهـ .

إن جواب العالِم الرَّبَّانِيِّ يُزيل الشُّبهات والشُّكوك ، ويُريح النُّفوس ، ويَغسل القلوب . وعلى المرء أن يُؤمن بمبدأ التَّوفيق بين آياتِ القُرآن ، لأن آياتِ القُرآن حَقٌّ وخَيْرٌ ، والحقُّ لا يُعارِض الحقَّ، والخيرُ لا يَتصادم مع الخير . وفي هذا السياق تبرز قضية شديدة الأهمية : كيف يمكن التَّوفيق بين هاتَيْن الآيتَيْن : ﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ﴾[هُود : ١]. فالآيةُ تَذكر أن القُرآنَ كتابٌ مُحْكَم . و﴿ اللهُ نَـزَّلَ أحسـنَ الحديثِ كِتاباً مُتشـابِهاً ﴾ [الزُّمَر : ٢٣] . وهـذه الآيـة تَـذكر أن القُرآنَ كتابٌ مُتشابِه . وفي الحقيقة لا تعارض بين الآيتَيْن ، لأن كل آية لها معنى خاص بها ، ولها سِياق مُحدَّد .

﴿كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ﴾ . يَعني أنَّه كاملٌ لا نَقْص فِيه ولا عَيْب. ألفاظُه قوية، ومعانيه راقية. أمَّا قَوْلُه تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كِتاباً مُتشابِهاً ﴾ . فالمعنى : اللهُ نَزَّلَ القُرآنَ (أحسنَ الكلام) ، يُشبِه بَعضُه بَعضاً في الْحُسْن والفصاحة والبلاغة والبيان والتأثير .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقولونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنا وما يَذَّكَّرُ إلا أُولو الألبابِ ﴾ .

وما يَعلم تفسيرَ الْمُتشابِه إلا اللهُ وَحْدَه . والعُلماءُ الْمُخْلِصون الأثبات الْمُتمكِّنون يَقولون : آمَنَّا بالْمُتشابِه لأنه حقٌّ وصدق مِن عِند اللهِ ، وهو وَحْدَه يَعلم معناه. وَكُلٌّ مِنَ الْمُتشابِه والْمُحْكَم مِن عِند اللهِ تعالى ، وكلامُ اللهِ كُلُّه حق ، ليس فيه تعارض ولا تناقض . وما يَذَّكَّرُ إلا أصحابُ العقول النَّيرة ، والأذهان الصافية . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٧) : ((﴿ وما يَذَّكَّرُ إلا أُولو الألبابِ ﴾ . مَدْحٌ للراسخين بِجَودة الذِّهن ، وحُسن النظر . وإشارة إلى ما استعدوا به للاهتداء إلى تأويله ، وهو تجرُّد العقل مِن غَواشي الحس)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكْر أن الْمُتشابِه في الآيةِ إذا كان وقت القِيامة ، فاللهُ وَحْدَه يَعلمه . أمَّا إذا كان المقصودُ بالْمُتشابِه أموراً لَيْسَتْ غَيْبِيَّةً . فاللهُ يَعلمها ، والعلماءُ الذين ثَبتوا وتمكَّنوا يَعلمونها ، ولا تخفَى عليهم . فَمِنَ الْمُحال أن يُخاطب اللهُ عبادَه بما لا يَعرفه أحدٌ مِنَ الْخَلْق .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ٢١٨) : ((واختلف العلماء في الراسخين في العِلْم، هل يَعلمون تأويل المتشابه وتكون الواو في ﴿ والراسخون ﴾ عاطفة ، أم لا ويكون الوقف على ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ، ثم يبدأ قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به ﴾ ؟ . وكل واحد مِنَ القَولين مُحتمَل واختاره طوائف. والأصح الأول، وإن الراسخين يَعلمونه لأنه يَبْعُد أن يُخاطب اللهُ عبادَه بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته. وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يُفيد ، والله أعلم)) اهـ .

وعن طاوس قال : قرأ ابن عباس : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ والرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فقال : ((كُنَّا نحفظ الحديث، والحديث يُحفَظ عن رسول الله ﷺ ، حتى ركبتم الصَّعْبَ والذَّلُولَ)) (234).

والمعنى : كُنَّا نأخذ الحديثَ النبويَّ من الناس لِعِلْمنا بِصِدْقهم، ونحفظه، ونعتني به أشدَّ العناية ، والحديثُ جديرٌ أن يُعْتَنَى بِهِ لِسُمُوِّ مكانته، وعظيمِ شأنه ، حتى نقلتُم الحديثَ بلا إدراك ولا تحقيق.

و" ركبتم الصعب والذلول " كِناية عن الإفراط والتفريط في النقل ، بحيث لم يَعُدْ هناك معنى للاعتماد على نقلهم .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هُود : ١](235).

إنَّ القُرآنَ كتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه بالأمر والنَّهْي والحلال والحرام، ثُمَّ فُصِّلت بالثواب والعقاب والوعد والوعيد. ألفاظُه واضحة ومعانيه قوية ، وهُو مُعْجِزٌ في ألفاظه ومَعانيه . وقد عَصَمَه اللهُ من

---

(٢٣٤) رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ١٩٦) برقم (٣٨٣) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٣٥) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٧٣) : ((وفي قَوْله : ﴿ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ﴾ أربعة أقوال : أحدها : أُحْكِمَتْ ، فما تُنسَخ بكتاب كما نُسخت الكُتب والشرائع ، قاله ابن عباس واختاره ابن قُتَيبة. والثاني : أُحْكِمَتْ بالأمر والنَّهْي ، قاله الحسن وأبو العالية . والثالث : أُحْكِمَتْ عن الباطل ، أي مُنعت ، قاله قتادة ومقاتل . والرابع : أُحْكِمَتْ بمعنى جُمعت ، قاله ابن زَيد)) اهـ .

الباطل، فكلُّ آياته مُحْكَمَة ، بمعنى أنها كاملةٌ لا نقص فِيها ولا تناقض . وإحكامُ الآياتِ ثم تفصيلها من أجل إرشاد الناس إلى الطريق المستقيم ، وهدايتهم إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

واللهُ تعالى لَم يَترك الناسَ تائهين بلا إرشاد ، ولَم يَجعل الطريقَ أمامهم غامضاً ، وإنما وضَّح لهم كل ما يحتاجون إليه للنجاة في الدَّارَيْن . وآياتُ القُرآن أُحْكِمَتْ ثُمَّ فُصِّلت بجميع ما يَحتاج إليه الناس من العقائد كتوحيد اللهِ والنُّبُوَّات والبعث والحساب والجنة والنار ، والأحكام الشرعية، والآداب الخاصة والعامة .

وآياتُ القُرآنِ مَحفوظةٌ من الركاكة والنقص والخطأ ، تشتمل على الْحُجَج الباهرة ، والأدلة الساطعة ، والبراهين الجليَّة ، والحِكَم البليغة ، والأخبار الصادقة ، والتعاليم الراقية . وآياتُ القُرآنِ الْمُعْجِز هي قمة النَّظْم والفصاحة والبلاغة . وهذا الكلامُ ليس شعاراتٍ فارغة من المعنى . بل هو الحقيقة الساطعة ، فالقرآنُ تحدَّى العربَ أهل الفصاحة والبلاغة والخطابة ، وتحدَّى فحول الشعراء، ووقفوا أمامَه عاجزين مقهورين معَ أنه بِلُغتهم، وإذا كان العربُ عاجزين، فَغَيْرُهم أعجز .

وآياتُ القُرآنِ أحكمَها حكيمٌ ، وهو الله تعالى ، وعَصَمَها مِنَ الخلل ، وفصَّلها خَبيرٌ ، وهو الله تعالى . يَعلم ظواهرَ الأمورِ وبواطنها، وهو أعْلَمُ بالإنسانِ مِن نفْسه، لأنه سُبحانه هو الخالق. وهذا يدل على عَظَمة القرآن ، وجلالةِ قَدْره ، ورِفعة شأنه ، وسُمُوِّ مكانته .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/ ٩١) : ((فَأُحْكِمَتْ ألفاظُه ، وفُصِّلتْ مَعانيه ، أو بالعكس على الخلاف . فكلٌّ مِن لَفظه ومَعناه فصيح، لا يُحاذَى ولا يُدانَى، فقد أخبرَ عن مُغَيَّبات ماضية كانت ، ووقعتْ طِبق ما أخبرَ سواء بسواء ، وأمرَ بكل خَير ، ونهى عن كل شر)) اهـ .

وَمِنَ المواضيع الهامة في دراسات القرآن والسُّنة ، موضوع المتشابِه . وقد خاضَ علماء السَّلف والخلَف في هذه القضية الحسَّاسة . وللأسف ، فقد ضَلَّ الكثيرون في هذا الموضوع ، وظَهرت فِرَقٌ عديدة أضاعت نفْسَها لأنها لم تستوعب هذه القضية بشكل متوازن . ونحن نريدُ في هذا البحث الموجَز أن نُبيِّن القضيةَ بأسلوب واضح بلا تعقيد ولا تطرُّف .

وقبل الخوْضِ في تفاصيل هذا الموضوع المهم ، ينبغي ذِكرُ بعض القواعد الأساسية :

[١] القاعدةُ السَّاميةُ في هذا الموضوع هي قَوْلُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شَيء﴾[الشُّورى: ١١]. فاللهُ لا يُشْبِه شيئاً مِن مخلوقاته، ولا يُشْبِهُه شيء. وكلُّ ما في بالِك ، فاللهُ بِخِلافِ ذلك .

[٢] لا نُثبِت صِفَةً للهِ إلا بِنَص قَطعي الورود(القرآن والحديث المتواتر) وقَطعي الدلالة.

[٣] اللهُ مُنَزَّه عن الجوارحِ والحواس . فالمخلوقُ العاجزُ هو الذي يَحتاج إلى الجوارح كاليد والقَدَم وحاسة السمع وحاسة البصر. وهذه الجوارحُ مُرَكَّبة من الأعصاب واللحم والخلايا . أمَّا اللهُ فهو الغنيُّ عن كُل شيء ، ولا يَحتاج شيئاً ، وكلُّ شيء مُفْتَقِر إليه _ سُبحانه _ .

[٤] كان اللهُ ولا شيء . وهو الآن حيثُ كان، وهو الآن كما كان . مُنَزَّهٌ سُبحانه عن المكان والزمان ، لأنه خالق الزمان والمكان ، وقد كان اللهُ ولا مكان ولا زمان ولا سماء ولا عَرْش . يُغيِّر سُبحانه ولا يَتغيَّر . لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياء فيه .

[٥] النصوصُ الدينية (نصوص القرآن والسُّنة) تُحمَل على ظاهرها ، إلا إذا وَردت قرينةٌ تُحيل المعنى إلى المجاز أو عدم إرادة الظاهر .

[٦] السلفُ الصالحُ هُم أعلم هذه الأُمَّة بلا مُنازِع ، والخلَفُ (الأشاعرة) أفضلُ مَن شَرَحَ مُرادَ السلف الصالح . ولا صراع بين السلف والخلَف إلا في أذهان الجهَّال . ولا داعي للحِدَّة بين أهل التفويض وأهل التأويل . فالعِصمةُ للنَّص ، وليس لأقوال العُلماء . فالرِّجالُ يُعرَفون بالحق ، والحقُّ لا يُعرَف بالرجال . واعْرِف الحقَّ تعرفْ أَهْلَه .

[٧] لقد ثَبَتَ التأويلُ عن طائفة من الصحابة وعُلماء السَّلف . لكنَّ الأصل المعتمَد هو اتِّباع منهج السلف الصالح، وهو الإيمان بالآيات المتشابِهة ، والأحاديث المتشابِهة ، وأن قراءتها تفسيرها، ولا يتم تأويلها .

[٨] لا يُصار إلى التأويل إلا في حالتين فقط لا غَيْر. الأُولى: إذا خِفنا من انهيار عقيدة العَوام ، فعندئذ يتم اللجوء إلى التأويل حمايةً لعقائدهم ، ولِئلا يَعْتقدوا في ذات الله ما لا يَليق به . معَ أن الأصل هو عدم طَرح هذا الموضوع على العَوام . والثانية : هو مناظرة الطوائف الضالة (المعتزلة ، الروافض ، ...) ، وأتباع الأديان الوَضْعية (اليهودية، النصرانية ، البوذية ،... إلخ) . فالتأويلُ فيه الإيضاح والقُدرة على إفحام الخصوم ، ودحضِ باطلهم .

وذَكَرَ ابنُ جَمَاعة في إيضاح الدليل (١/ ٢٤) أن العِز بن عبد السلام قال في موضوع تأويل المتشابِه:((وليس الكلام في هذا بدعة قبيحة، وإنما الكلام فيه بِدعة حسنة واجبة لَمَّا ظَهرت الشُّبهة وإنما سكت السلفُ عن الكلام فيه ، إذ لم يكن في عصرهم مَن يَحمل كلام الله وكلام رسوله على ما لا يجوز حَمله، ولو ظَهرت في عصرهم شُبهة لكذَّبوهم وأَنكروا عليهم غاية الإنكار فقد رَدَّ الصحابةُ والسلفُ على القَدَرية لَمَّا أَظهروا بِدعتهم ولم يكونوا قبل ظهورهم يتكلمون في

ذلك ، ولا يَرُدُّون على قائله ، ولا نُقل عن أحد من الصحابة شيء من ذلك ، إذ لا تدعو الحاجة إليه)) .

وقال الزركشي في البرهان (٢/ ٨٠) : ((وإنما حَملهم على التأويل وجوب حمل الكلام على خِلاف المفهوم من حقيقته، لقيام الأدلة على استحالة المتشابِه والجِسمية في حق البارئ تعالى ، والخوض في مثل هذه الأمور خطره عظيم ، وليس بين المعقول والمنقول تغاير في الأصول ، بل التغاير إنما يكون في الألفاظ واستعمال المجاز لغة العرب)) اهـ .

[٩] " وَكُلُّ نَصٍّ أَوْهَمَ التَّشْبيها أَوِّلْهُ أَو فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيها ".

[١٠] الأشخاصُ الذين يُسَمُّون أنفسهم في هذا العصر بالسلفيين لَيْسوا سَلفيين، فهُم لا يَتَّبعون السلفَ الصالح . إنهم تَيْمِيُّون يَتَّبعون ابن تيمية ، وابنُ تيمية ليس سلفياً . كما سيمرُّ معنا .

[١١] غالبيةُ الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين هم حنابلة . ولا شَكَّ أن أضعف المذاهب الأربعة هو المذهب الحنبلي، لأنه الأقل قُدرة على الاستنباط والاجتهاد والغوص في المعاني. وبسبب الوقوف على ظواهر الآيات والأحاديث ، ضَرَبَ التجسيمُ متأخِّري هذا المذهب . وكما قِيل :

وإن حنبلياً قلتُ قالوا بأنني ثَقيلٌ حُلُوليٌّ بغيضٌ مُجَسِّمُ

قال الإمامُ ابن الجوزي الحنبلي في دَفع شُبه التشبيه (ص ٩٥) : ((فلم يُصنِّف _ أي الإمام أحمد _ إلا المنقول ، فرأيتُ مذهبه خالياً من التصانيف التي كَثُرَ جِنسها عند الخصوم ... إلا أن القاضي أبا يعلى قال : كنتُ أقول ما لأهل المذاهب يَذكرون الخِلافَ مع خصومهم ولا يَذكرون أحمد ؟ ثم عَذرتُهم ، إذ ليس لنا تعليقة في الفِقه)) اهـ .

وهذا يدل _ بكل وضوح _ على ضَعف المذهب الحنبلي ، فأتباعُ هذا المذهب يَقفون عند ظواهر النصوص الدينية لا يَتحركون ، ولا يَستنبطون المعاني ، ولا يَغوصون في فهم النصوص ، ولا يَستخرجون منها القواعدَ الشرعية . لذلك خَلا المذهب الحنبلي من التصانيف الكثيرة التي تُوجَد عند باقي المذاهب ، لأن الأحناف والمالكية والشافعية أسَّسوا قواعد أُصولية وفقهية كثيرة ، ورتَّبوا عليها فُروعاً عديدة ، وهذا غير موجود _ للأسف _ عند الحنابلة .

وقال أبو زهرة في تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ٥٢٣) : ((اتفق العلماءُ على أن أحمد _ رضي الله عنه _ كان مُحدِّثاً ، وأنكرَ بعضُهم أن يكون فقيهاً ، ويحق لنا أن نقول : إن أحمد إمام في الحديث بلا رَيْب ، ومن طريق الإمامة كانت إمامته في الفقه ، وإن فقهه سُنن وآثار في منطقه وضوابطه ، ومقاييسه ولونه ومظهره . ولذلك أنكرَ ابنُ جرير الطبري أن يكون فقيهاً ، وعدَّه ابن قُتَيبة من المحدِّثين ، ولم يَذْكره في الفقهاء ، وغَيره قال هذه المقالة أو قريباً منها)) اهـ .

وفي هذا إشارةٌ واضحة على ضعف الإمام أحمد في الفِقه مقارنةً مع أئمة الفِقه . وما وجودُ طائفة من العُلماء تجرِّد الإمامَ أحمد من لقب " فَقيه " إلا مؤشر على وقوفه عند النصوص الدينية دون الغَوص فيها . ولا يخفَى أن الفِقه هو الاستنباط ، واستخراج الأحكام من النصوص الشرعية. وكلُّ واحدٍ يَقْدر على الوقوف عند ظاهر النَّص ، لكنَّ العِبرة تكمن في فهم النَّص بكل أبعاده الظاهرة وغير الظاهرة .

وقال ابن الصلاح في أدب المفتي والمستفتي (١/ ٤٧): ((وردَ عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: إنما العِلْم عندنا الرُّخصة مِن ثقة، فأمَّا التشديد فَيُحْسِنه كلُّ أحد)).

وقال السُّبكي في الإبهاج (١/ ٢٨): ((والفِقهُ العِلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية . في معنى الفِقه بِحَسَب اللغة ثلاثة أقوال : أحدها مُطْلَق الفهم، والثاني فهم الأشياء الدقيقة ، والثالث فهم غرض المتكلِّم مِن كلامه)) اهـ .

ويُتابع ابن الجوزي الحنبلي كلامه في دَفع شُبه التشبيه (ص ٩٧) : ((ورأيتُ مِن أصحابنا _ يعني الحنابلة _ مَن تكلم في الأصول بما لا يَصْلُح ، وانتدب للتصنيف ثلاثة : أبو عبد الله ابن حامد ، وصاحبه القاضي ، وابن الزاغوني ، فصنَّفوا كتباً شانوا بها المذهب ، ورأيتُهم قد نَزلوا إلى مرتبة العوام ، فَحَمَلوا الصِّفاتِ على مُقتضَى الحِس)) اهـ .

وهذا يُؤيِّد ما ذَهبنا إليه من أن التجسيم قد شَوَّه سُمعةَ المذهب الحنبلي ، وهذه نتيجة طبيعية لحمل النصوص الدينية على ظاهرها ، وإبعاد العقل عن النَّص . والإسلامُ هو نَقْلٌ وعَقْلٌ ، لا يُقبَل أحدهما بدون الآخَر. وقال الترمذي في سُننه (٤/ ٦٩١) : ((والمذهب في هذا عند أهل العِلم من الأئمة مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عُيَيْنَة ووكيع وغيرهم أنهم رَوَوْا هذه الأشياء ثم قالوا : تُروَى هذه الأحاديث ونُؤْمِن بها ، ولا يُقال كَيْف . وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تُروَى هذه الأشياء كما جاءت، ويُؤْمَن بها ، ولا تُفَسَّر ، ولا تُتَوَهَّم ، ولا يُقال كَيْف ، وهذا أَمْر أهل العِلم الذي اختاروه وذهبوا إليه)) اهـ .

والحقُّ هو الإيمان بهذه الأشياء على مُراد الله مع اعتقاد تَنْزِيه الله عن كُلِّ ما لا يَليق به . نؤمن بها كما ذَكَرَ اللهُ لا كما يَخطر للبشر . وعلى المسْلم أن يؤمن بها بلا تشبيه ، ويُصدِّق بلا تمثيل ، ويُمسِك عن الخوض فيما لا عِلم له به . ومِيزةُ التفويض أنه لا يَحتمل الخطأ ، أي إن الْمُفوِّض محقٌّ دائماً على يقين تام . أمَّا المعتمِدُ على التأويل ، فإن تأويله عُرضةٌ للخطأ وعدم اليقين .

ومن غرائب ابن تيمية أنه قال في دَرْء التعارض (١/ ١١٥): ((فتبيَّن أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم مُتَّبعون للسُّنة والسلف مِن شر أقوال أهل البِدَع والإلحاد)) اهـ .

وهذا الكلامُ المتهوِّر يُمثِّل طعناً في أئمة المسلمين في كل العصور . فالتفويض منهج مُعتمَد عند السلف والخلَف . وكلامُ ابن تيمية منطلق من الهوى والتعصب بلا دليل شَرعي .

قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٨٣) : ((والصواب : الإمساك عن أمثال هذه المباحث والتفويض إلى الله، والاكتفاء بالإيمان بكل ما أوجبَ اللهُ في كتابه أو على لسان نَبِيِّه إثباتَه له ، أو تَنْزيهه عنه على طريق الإجمال ، وبالله التوفيق . ولو لم يمكن في ترجيح التفويض على التأويل إلا أن صاحب التأويل ليس جازماً بتأويله ، بِخِلاف صاحب التفويض)) اهـ .

لقد أغلقَ السلفُ الصالحُ بابَ التأويل لئلا تُصبِح النصوصُ الشرعية أُلعوبةً بيد المتأوِّلين من أصحاب الأهواء والأغراض الخبيثة . كما أن الخطأ في التأويل واردٌ ، أمَّا التفويضُ فلا يمكن أن يَعتريَه الخطأ .

ونقل الحافظ في الفتح(١٣/ ٣٨٣) عن ابن دقيق العيد قوله: ((في العقيدة نقول في الصفات الْمُشْكِلَة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله ، ومَن تأوَّلها نَظَرْنا ، فإن كان تأويله قريباً على مُقتضَى لسان العرب لم نُنكِر عليه ، وإن كان بعيداً ، توقفنا عنه ، ورجعنا إلى التصديق مع التَّنْزيه)) اهـ .

وهذا الكلامُ صحيحٌ، ودقيقٌ إلى أبعد حَد، ولا يَصْدر إلا مِن عالِم كبير . فالعِصمةُ هي للنَّص لا أقوال السَّلف أو الخَلَف . والصراعُ بين أهل التفويض وأهل التأويل صراعٌ وهمي لا قيمة له . وطريقةُ السلفِ الصالحِ هي أَسْلم وأَحْكم وأَعْلم . ومع هذا ، فطريقةُ الخلَفِ في التأويل طريقةٌ مُعْتَمَدَةٌ شَرْعاً وعَقْلاً . ومن الأهمية بمكان إبعاد العَوام عن المتشابِه في القرآن والسُّنة ، وعدم تحديثهم بالمتشابِهات، لأن عقولَهم لا تَرقى إلى ذلك المستوى، وقد تَضطرب عقائدُهم ، ويَحملون تصوراتٍ منحرفة عن الذات الإلهية . وبالتأكيد ، ليس كُلُّ ما يُعرَف يُقال .

وفي صحيح البخاري (١/ ٥٩) عن عليٍّ بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ قال : ((حَدِّثوا الناسَ بما يَعرفون ، أتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه ؟!)) .

قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((والمراد بقَوله " بما يعرفون " أي يفهمون. وزاد آدم ابن أبي إياس في كتاب العِلم له عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره : ودَعُوا ما يُنكِرون ، أي يَشتبه عليهم فَهْمُه ، وكذا رواه أبو نُعَيم في المستخرَج . وفيه دليل على أن الْمُتشابِه لا ينبغي أن يُذكَر عند العامة)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ١١) : أن عبد الله بن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((ما أنتَ بِمُحدِّثٍ قَوماً حديثاً لا تَبْلُغُه عقولُهم إلا كان لبعضهم فِتنة)) .

وهذان الحديثان دليلان على أن المتشابِه يَجب ألا يُذكَر عند العوام ، لِمَا في ذلك من خَطر على عقائدهم ، إذ إنهم لا يَمْلكون المستوى العِلْمي لفهم هذه القضايا . وقال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٥) : ((ومِمَّن كَرِه التحديثَ ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان ، ومالك في أحاديث الصفات ، وأبو يوسف في الغرائب ، ومِن قَبْلهم أبو هريرة ... في الجِرابَيْن ، وأن المراد ما يقع مِن الفِتن . ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجَّاج بقِصَّة العُرَنِيِّين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يَعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي ، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يُقوِّي البِدعةَ وظاهره في الأصل غير مُراد ، فالإمساك عنه عند مَن يُخشَى عليه الأخذ بظاهره مطلوب ، والله أعْلم)) اهـ .

وقد قال بعض العارفين : ((إمامان ابتلاهما اللهُ بأصحابهما ، وهما بريئان منهم ، أحمد بن حنبل ابْتُلِيَ بالْمُجَسِّمة ، وجعفر الصادق ابْتُلِيَ بالرافضة)) اهـ . وهذا كلام صحيحٌ ودقيق ، بغضِّ النظر عن قائله .

وقال الحِصني في دَفْع شُبه مَن شَبَّهَ وتمرَّد (١/ ١٧و١٨) : ((قال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي ، واسمه عبد الرحمن بن عليٍّ : لَمَّا رأى الْحُسَّاد للإمام أحمد ما حصل له من الرِّفعة ونفاسة مذهبه لتشييده بالكتاب والسُّنة ، انتموا إلى مذهبه لِيُدْخِلوا عليه النقص والخلَل ، وصَرْف الناس عنه حَسَداً من أنفسهم ، فصرَّحوا بالتَّشبيه والتجسيم ، ولَم يستحيوا من الخبير العليم . ونسَبوه إليه افتراءً عليه . ومِن نَظْمه في ذلك :

ولَمَّا نظرتُ في المذاهب كُلِّها طلبت الأسَدَّ في الصواب وما أغلو

فألفيتُ عند السَّير قَوْلَ ابن حنبل　　يزيد على كل المذاهب بل يعلو
وكل الذي قد قاله فَمُشَيَّدٌ　　بنقل صحيح والحديث هو الأصل
وكان بنقل العِلْم أعْرَف مَن رَوى　　بِقَوْمٍ من الساداتِ ما شأنهم عُظْم
ومذهبه أن لا يُشَبِّـه رَبَّه　　ويتبع في التسليم مَن قد مضى قَبْلُ

(يشير إلى صاحبه الإمام الشافعي وغيره من علماء السلف)

فقام له الحسَّادُ من كل جانب　　فقام على رِجْل الثبات وهُم زَلُّوا
وكان له أتباع صِدْق تتابَعوا　　فكَم أرشدوا نحو الهدى وَلَكَم دَلُّوا
وجاءكَ قَوْمٌ يدَّعون تَمَذْهُباً　　بمذهبه ما كُلُّ زَرْعٍ له أُكْلُ
ومالوا إلى التشبيه أخذاً بصورةٍ　　لِمَا نقلوه في الصِّفات وهُم غُفْلُ
وقالوا الذي قُلناه مذهب أحمد　　فمال إلى تصديقهم مَن بِهِ جَهْلُ
فصار الأعادي قائلين لِكُلِّنا　　مُشَبِّهةٌ قد ضَرَّنا الصَّحْبُ والخِلُّ
فقد فضحوا ذاك الإمام لجهلهم　　ومذهبه التَّنْزيه لكن هُم اختلفوا
لَعَمْري لقد أدركتُ منهم مشايخاً　　وأكثرُ ما أدْرَكْتُه ما له عَقْلُ)) اهـ .

والقصيدة مُثْبَتة في نهاية كتاب دفع شُبه التشبيه بأكف التَّنْزيه للإمام ابن الجوزي الحنبلي ، الذي رَدَّ فِيه على مُجَسِّمة الحنابلة .

ولندرس الآياتِ القرآنية في موضوع الْمُتشابِه :

[١] قال اللهُ تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ [القلم : ٤٢] .

لفظةُ " الساق " في اللغة العربية تدل على شدة الأمر . والمقصود بكلمة " ساق " في الآية هو شِدَّة الأمر وصعوبة الْخَطْب يوم القيامة للحساب والجزاء . كما قال الشاعر :

فتى الحربِ إن عَضَّت به الحربُ عَضَّها　　وإن شَمَّرت عَن سَاقِها الحربُ شَمَّرا

وكما قال الشاعرُ :

كَشَفَتْ لهم عَن سَاقها　　وبدا مِنَ الشَّر الصُّراحِ

قال الطبري في تفسيره (١٢/ ١٩٧) : ((قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل يبدو عن أمر شديد)) اهـ . ونقل الطبري تأويل الساق بالشِّدة عن مجاهد وقتادة اللذين هما من علماء السلف ، انظر تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧) .

وهذا يدل على أن التأويل كان عند السلف الصالح . فالذي يَرمي الذين يتأولون بالجهل والضلال فهو يتهجم ضمنياً على جماعة من علماء الصحابة والتابعين. والتأويل ثابت عنهم ومنتشر في كتب الحديث والتفسير ومبسوط باستفاضة مُدَعَّماً بالأسانيد الثابتة، ونحن هنا لن نستعرض كل ما ورد ، لكن يهمنا إيصال الفكرة بأن التأويل كان عند السلف الصالح ، ولم يأتِ به الخلَف من بنات أفكارهم ، لذا مَنْ أَوَّلَ ضمن الضوابط الشرعية واللغوية ، هو على خير كثير ومأجور على عمله المتوافق مع الكتاب والسُّنة الصحيحة ، وهو أبعد ما يكون عن الضلال والزَّيْغ .

وعن ابن عباس ــرضي الله عنهما ــ أنه سُئل عن قَوْله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ [القلم: ٤٢]. قال : ((إذا خَفِيَ عليكم شيء من القرآن فابتغوه في الشِّعر ، فإنه ديوان العرب ، أمَا سمعتم قول الشاعر : اصْبِرْ عَناق ، إنَّه شَرٌّ بَاق ، قد سَنَّ قَوْمُكَ ضَرْبَ الأعناق، وقامت الحربُ بِنا عَن سَاق)) . قال ابن عباس : ((هذا يَوْمُ كَرْبٍ وشِدَّة)) (236).

ومعروفٌ أن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ حَبْر الأُمَّة وتُرجمان القرآن ، وواحد مِن أكبر عُلماء الصحابة . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢٨) : ((وقال الخطابي : تَهَيَّب كثير من الشيوخ الخوض في معنى الساق، ومعنى قول ابن عباس : إن الله يكشف عن قُدرته التي تَظهر بها الشِّدة ، وأسند البيهقي الأثر المذكور عن ابن عباس بسندين كل منهما حسن)) اهـ .

وفي تاج العروس (١/ ٦٣٨٦) : ((قالَ ابنُ سِيدَه : وقد يَكُونُ يُكْشَفُ عن ساقٍ لأنَّ الإنْسانَ إذا دَهَمَتْهُ شِدَّةٌ شَمَّرَ لَها عن ساقَيْهِ ، ثُمَّ قِيلَ للأمْرِ الشَّدِيدِ : ساقٌ ، ومنه قَوْلُ دُرَيْدٍ : "كَمِيشُ الإِزارِ خارِجٌ نِصْفُ ساقِهِ ، أَرادَ : أَنه مُشَمِّرٌ جاد ، ولم يُرِدْ خُرُوج السَّاقِ بعَيْنِها)) اهـ.

وَبَعْدَ كُلِّ هذا يأتي ابن تيمية فيقول في الرد على البكري [تلخيص كتاب الاستغاثة] (٢/ ٥٤٢ و٥٤٣): ((ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكشَف عَن سَاقٍ ﴾ لم يقل يوم يُكْشَف الساق ، وهذا يُبيِّن خطأ من قال المراد بهذه كشف الشِّدة ، وأن الشِّدة تُسمَّى ساقاً ، وأنه لو أُريد ذلك لَقِيل: يَوْمَ يُكْشَف عن الشدة أو يُكْشَف الشِّدة، وأيضاً فيوم القيامة لا يُكْشَف الشِّدة عن الكفار، والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد)) اهـ .

---

(٢٣٦) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٤٢) برقم (٣٨٤٥) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

هذا الكلامُ المتطرفُ يَعكسُ سيطرةَ الهوى على ابن تيمية . فهو يتكلم بدوى دليل شَرعي ولا لغوي.فقد خالفَ أهلَ اللغة،وراحَ يَهْرِف بما لا يَعرف. وكما قِيل: مَن يَعْلم حُجَّةٌ على مَن لا يَعْلم.

وَإِلَيْكَ الردُّ على ابن تيمية :

أ) لم تُقدِّمْ دليلاً لغوياً على ضرورة أن تكون كلمة " ساق " مسبوقة بأل التعريف .

ب) قَدَّمْنا الأدلةَ على أن الشِّدة تُسمَّى ساقاً ، أمَّا أنتَ فلم تُقدِّم دليلاً على كلامك . والعِبرةُ بالأدلة ، وليس بإلقاء الكلام على عواهنه .

ج) قَوْلُك " فيوم القيامة لا يُكْشَف الشدة عن الكفار "، نتَّفق معه تماماً . ولكنْ ما علاقته بموضوعنا ؟! . لم يَقُلْ أحد من المسلمين إن اللهَ تعالى يَكشف يَوْمَ القيامةِ الشِّدةَ عن الكفار . ففي يوم القيامة تَظهر الشِّدةُ، وتتَّضح صعوبةُ الموقف العظيم، ويَبْرز الْخَطْبُ الجليلُ . وهذا تأويلُ الآية.

د) قَوْلُك " والرواية في ذلك عن ابن عباس ساقطة الإسناد " كلام لا وَزْنَ له . فلم تُحدِّد بالضبط أيةَ رواية ، ولم تَذْكر السَّندَ ، ولم تَذْكر أيَّ طعنٍ مُعْتَبَر في رِجال السَّند . والروايةُ عن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ أوردها الحاكمُ في مستدركه وصحَّحها، ووافقه الذهبي . كما أن البيهقي أوردَ أثراً بنفْس المعنى عن ابن عباس بسندَيْن ، وقد حسَّنهما الحافظُ في الفتح . وإذا أردتَ أن تُسقِط الإسنادَ فلا بد أن تُقدِّم أدلةً مُعْتَبَرة ، وقد عَجزتَ عن فِعل ذلك . فلا أهمية لكلامكَ .

وكما قال ابن حَزم في الفِصَل في المِلَل (٢/ ١٢٩) : ((ولكنْ مَن ضَاقَ عِلْمُه أنكرَ ما لا عِلم له به . وقد عَابَ اللهُ هذا ، فقال : ﴿ بَل كَذَّبوا بما لَم يُحيطوا بِعِلْمه وَلَمَّا يأتهم تأويلُه ﴾ [يُونُس : ٣٩])) اهـ .

[٢] قال اللهُ تعالى : ﴿ والسماءَ بَنيناها بأيْدٍ ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

يُخبِر اللهُ تعالى عن جَبروته وعَظَمته . فالسماءُ العظيمةُ قد بناها اللهُ تعالى بِقُوَّةٍ .

قال الطبري في تفسيره (١١/ ٤٧٢): ((يقول تعالى ذِكْرُه: والسماء رفعناها سَقْفاً بقوة)) .

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٠٣) : ((﴿ بأيْدٍ ﴾ ، أي : بقوة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثوري وغير واحد)) اهـ .

ولا يخفَى أن الذين ذَكَرَهم ابن كثير هُم أئمة السلف ، وقد تأوَّلوا الآية . مما يشيرُ إلى وجود التأويل عند السلف الصالح ، واعتماده منهجاً للتفسير .

حتى إن ابن تيمية شخصياً قد تأوَّل ﴿ بأيْدٍ ﴾ بمعنى: بِقُوَّة. [مجموع الفتاوى (٥/ ١٩٥)]
.

ونحن نقول للذين يَحْملون النصوصَ على ظواهرها حقيقةً . ما هو تفسيركم للآيات القرآنية التالية : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم ﴾ [الفَتْح : ١٠] (إفراد يَد). ﴿ لِمَا خَلقتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥]. (تثنية يَد) . ﴿ والسماءَ بَنيناها بأيْدٍ ﴾ [الذاريات : ٤٧] (جَمع يَد) ؟ . هل تؤمنون بأن لله تعالى يَداً واحدة أَمْ يَدَيْن أَمْ أكثر مِن يَدَيْن ؟. وماذا تقولون في قَوْله تعالى عن القرآن : ﴿ لا يأتيه الباطلُ مِن بَيْن يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه ﴾ [فُصِّلَت : ٤٢]؟. هل تُثْبِتون للقرآن الكريم يَدَيْن لَيْستا كأيدينا ؟!.

[٣] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر : ٢٢] .

والمعنى : جَاءَ أمرُ ربِّك وآياتُه العظيمة. فاللهُ تعالى مُنَزَّه عن الحركة والانتقال . فهاتان الصفتان من صفات الأجسام المخلوقة.واللهُ تعالى هو الخالق وليس مخلوقاً،وليس جِسماً تَطرأ عليه التَّغيُّرات. فسُبْحان الذي يُغيِّر ولا يَتغيَّر . ونحن عندما نقول عن فلان: جاءه الموتُ أو جاءه المرضُ ، فلا نَعني أن الموت والمرض يتحركان ويمشيان . وإنما نَقصد معنىً مجازياً يَفهمه كلُّ عربي .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٤٨٩) : ((أي : ظَهرت آياتُ قُدرته وقَهره ، مِثل ذلك بما يَظهر عند حضور السُّلطان مِن آثار هَيْبته وسياسته)) اهـ .

واللهُ تعالى جَعَلَ مجيءَ الآيات مجيئاً له سبحانه تعظيماً لِتلك الآيات ، ورَفْعاً لشأنها . كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٠) : عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إن اللهَ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ يَقولُ يَوْمَ القيامة : يا ابْنَ آدم مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني)).

ومن المعلوم أن اللهَ تعالى مُنَزَّه عن المرض . ومَن أَثْبتَ المرضَ لله تعالى اعتماداً على ظاهر الحديث فقد كَفَرَ . والمقصود بالحديث هو تشريف العبد ، ورفع مكانته .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٢٥) : ((قال العلماء : إنما أضاف المرض إليه ــ سبحانه وتعالى ــ والمراد العبد ، تشريفاً للعبد ، وتقريباً له)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٣٢٧) : ((روى البيهقي عن الحاكم عن أبي عمر ابن السَّماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأوَّلَ قولَ الله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ [الفجر: ٢٢] أنه: جاء ثوابُه ، ثم قال البيهقي : وهذا إسناد لا غبار عليه)) اهـ .

وها هُوَ الإمام أحمد بن حنبل مؤسس المذهب الحنبلي الذي يَنْسُب " السلفيون " أنفسهم إليه، يُؤَوِّل الآيةَ. وله تأويلات كثيرة جداً خصوصاً في فِتنة خَلق القرآن ، وتصدِّيه للمعتزلة الذين احتجوا ببعض الآيات القرآنية ، فما كان منه إلا أن تأوَّلها .

أمَّا ابنُ تيمية فغارقٌ في أوهامه، حيث يقول في بيان تلبيس الجهمية (١/ ٢٧) : ((إذا صُرِّح بنفي الجسمية وَجب التصريح بنفي الحركة ، فإذا صُرِّح بنفي هذا عَسُرَ ما جاء في صفة الحشر من أن الباري يَطَّلع على أهل المحشر ، وأنه الذي يلي حسابهم كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّاً صَفًّاً ﴾ ... فيجب أن لا يُصرَّح للجمهور بما يؤول عندهم إلى إبطال هذه الظواهر ، فإن تأثيرها في نفوس الجمهور إنما هُو إذا حُملت على ظاهرها)) اهـ .

هذا الكلامُ شديد الخطورة ، ولنا معه وقفات :

أ) يجب التصريحُ بنفي الجسمية ونفي الحركة عن الله تعالى . فكلُّ جِسمٍ مُرَكَّبٌ من أعضاء وبحاجة إلى مكان يحتويه ، ولا بد للجسم من حَيِّز يَشغله . والحركةُ تعني الانتقال من مكان إلى مكان ، وتتضمن معاني الزوال والغياب والتغيُّر . وهذه الصفات مختصة بالحوادث المخلوقة . فاللهُ تعالى كان موجوداً ولا شيء معه ، وهو موجود قبل المكان والزمان ، فليس سبحانه جِسماً متحيِّزاً ومحصوراً في مكان . واللهُ تعالى مُنَزَّه عن الحركة ، لأن الحركة تغيُّر . واللهُ تعالى لا يَتغيَّر ، ولو كان اللهُ تعالى متغيِّراً لكانَ مخلوقاً يَطرأ عليه العَدَمُ والزوالُ والحضورُ . وهذا مُحال في حقِّه سُبحانه .

ب) إذا تَمَّ نفي الجسمية والحركة، فلن يَصْعب فهم قَوْله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّاً صَفًّاً ﴾ . فالمجيءُ المقصود في الآية ليس حركةً ولا انتقالاً ولا زوالاً . وقد وضَّحنا تأويلَ الآية .

ج) أمَّا قَوْلُك " فيجب أن لا يُصرَّح للجمهور بما يَؤول عندهم إلى إبطال هذه الظواهر " . فنقول إننا نُبطِل الشُّبهاتِ التي قد تَعلق في أذهان العوام الذين قد يَفهمون الآية على أن الله تعالى يتحرك وينتقل من مكان إلى مكان . فنحنُ نُبطِل الحركةَ والانتقال ، وننفيهما عن الله تعالى ، ولا نُبطِل الآيةَ القرآنية .

د) أمَّا قَوْلُك " فإن تأثيرها في نفوس الجمهور إنما هُو إذا حُملت على ظاهرها ".

فنقول إن ظَاهِرَ الآية ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ هو الحركة . والحركةُ مَنْفيةٌ عن الله تعالى ، لأنها تغيُّر . والجميعُ يَعْرفون أن اللهَ تعالى يُغيِّر ولا يَتغيَّر. كما أن قَوْلَك مُخالِفٌ للسلف والخلَف معاً ، فلم يَقُلْ أحدٌ من علماء المسلمين إن الآيات المتشابِهات تُحمَل على ظاهرها، وإن تأثيرها في نفوس الناس إذا حُملت على ظاهرها . بل قال الذين لا يُريدون التأويلَ إن قراءة الآية تفسيرها ، نُؤْمِنُ بها ، ولا تُفَسَّر ، ولا تُتَوَهَّم ، ولا يُقال كَيْف .

هـ) إن ابن تيمية يُجوِّز الحركةَ على الله تعالى ، لأنه يُؤْمِن بحمل النَّص على ظاهره . ومعلومٌ أن الحركة لم تَرِدْ في القرآن ولا السُّنة ولا أقوال السلف ولا أقوال الخلَف. فمن أين جاءَ ابن تيمية بهذه العقيدة وهو الذي يَزْعم أنه مُتَّبِع للكتاب والسُّنة ؟!.وهذا مؤشرٌ واضح على انحرافه العَقَدي.

[٤] قال اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى إلى السماء ﴾ [البقرة : ٢٩] .

الاستواءُ هنا بمعنى القَصْد ، ويَعود إلى صفة الإرادة . أي : قَصَدَ إلى خَلْقها .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٧١) : ((قصد إليها بإرادته)) اهـ .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٩١) : ((وقال البيهقي أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين : قَوْلُه ﴿ استوى ﴾ بمعنى أقبل صحيح ، لأن الإقبال هو القَصْد إلى خلق السماء ، والقَصْدُ هو الإرادة ، وذلك جائز في صفات الله تعالى ، ولفظةُ ﴿ ثُمَّ ﴾ تتعلق بالخلق لا بالإرادة)) اهـ .

[٥] قال اللهُ تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ [طه : ٥] .

المعنى : الرحمنُ على عَرْشه عَلا ، وهذا العُلُوُّ عُلُوُّ المكانة لا المكان . فاللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن المكان.

قال الطبري في تفسيره(٨/ ٣٩١): ((يقول تعالى ذِكْره: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا)) .

ولا يَخفَى أن طريقة السلف أو غالبية السلف هي إمرار الآية مِن غَير تكييف ، ولا تحريف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل .

والاستواءُ لا يُمكن حَمْله على معنى الاستقرار والتمكن ، لأن الاستقرار والتمكن من صفات الأجسام . فالْمُستقِرُّ لا يكون إلا جِسماً ، إمَّا مِثْل العَرش أو أكبر منه أو أصغر. وهذا مُحال في حَقِّ الله تعالى الْمُنَزَّه عن المكان والزمان ، فهو سبحانه لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياءُ فيه . وما أدَّى إلى مُحال فهو مُحال .

وفي فَيض القدير للمناوي(٤/ ٥٤٨): ((قال التونسي: في قَوْله: ﴿ وكانَ عَرْشُهُ على الماء ﴾ [هود : ٧]. بيان استحالة الجهة في حَقِّه تعالى ، لأن استقرار العرش على الماء ، فَعُلم بأنه لَمَّا خُرقت العادة باستقرار هذا الجِرْم العظيم الذي هو أعظم الأجرام على الماء الذي ليس من عادة مِثْلِه ، بل ولا عادة أقل منه من الأجرام الراتبة أن يستقر على الماء ، عُلم أن الاستواء عليه ليس استواء استقرار وتمكُّن)) اهـ .

وقال الرفاعي الحسيني في البرهان المؤيد (ص ١٨): ((وسُئل الإمام أحمد ــ رضي الله عنه ــ عن الاستواء فقال : استوى كما أَخْبَرَ ، لا كما يَخطر للبشر)) اهـ .

وهذا يعني الإيمانَ بكلام الله تعالى دون زيادة أو نقصان ، وإهمال الوساوس السَّيئة ، وترك الخواطر البشرية المعجونة بالخيال والنقص والوهم . وكلُّ ما في بَالِك ، فاللهُ بِخِلاف ذلك .

والجدير بالذِّكر ، أنه لا يَجوز القول : يا مُسْتوي ، ولا يَجوز أيضاً التَّسمِّي بعبد المستوي .

وقال الحِصني في دفع شُبه مَن شَبَّه وتمرَّد (ص ١٨): ((وسُئل الإمام الشافعي ــ قَدَّس الله رُوحه ــ عن الاستواء فقال : آمنتُ بلا تشبيه ، وصَدَّقْتُ بلا تمثيل ، واتهمتُ نفْسي في الإدراك ، وأمسكتُ عن الخوض فيه كُلَّ الإمساك)) اهـ .

وهذه القاعدةُ الشافعية الجليلة لها أربعة أركان :

أ) الإيمان بلا تَشبيه : الإيمانُ بالآية على مُراد الله تعالى ، دون تشبيه الخالق بالمخلوق ، أو تشبيه المخلوق بالخالق . فاللهُ قديمٌ لا يَطرأ عليه العَدَمُ ، والمخلوقاتُ حوادث وُجدت بعد العَدَم .

ب) التصديق بلا تمثيل : التصديقُ بالآية ، وطَرد الخيالاتِ والأوهام التي قد تَسْبح في ذِهن الإنسان . فصفاتُ الله تعالى لا تُشبِه صِفاتِ المخلوقين . فالتمثيلُ وهمٌ لا يجوز الخوضُ فيه .

ج) اتهام النَّفْس في الإدراك : إن الإنسانَ كائنٌ ضعيف ، عقلُه محدود ، وهو يَجهل حقيقةَ نَفْسه المخلوقة التي بَين جَنْبَيْه ، فكيف سَيُدرِك حقيقة الخالق العظيم ؟ . وكما قيل :

حقيقةُ المرءِ لَيْسَ المرءُ يُدرِكها فَكَيْفَ يُدرِكُ كُنهَ الخالقِ الأزلي

ولا يَعْرِفُ اللهَ إلا اللهُ. أَمَّا المخلوقات فهي ضعيفة وعاجزة أمام عَظَمةِ الله . والطريقُ الوحيدُ لمعرفة اللهِ هو النظر في مخلوقاته . والحمدُ للهِ الذي جعل الطريقَ إلى معرفته العجزَ عن معرفته .

د) الإمساكُ عن الخوض فيه : إن الإنسانَ لا يَمْلك العِلمَ والقُدرةَ على البحث في ذات الله تعالى . وعلى المرءِ أن يتفكَّر في مخلوقات الله ، ولا يتفكَّر في ذات الله ، لأن عقلَ الإنسانِ القاصرَ لا يَستطيع الوصولَ إلى حقيقة الذات الإلهية . فلا يَعْرف اللهَ إلا اللهُ .

وقد اختلف المتأوِّلون في تفسير الاستواء . فذهبت المجسِّمةُ إلى أن الاستواء هو الاستقرار . وقال بعضُ العلماء : معناه الارتفاع والعُلُوُّ ، وقال آخرون : معناه الْمُلْك والقُدرة . وذَهبت المعتزلةُ إلى أن الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر معتمِدين على قول الشاعر :

قد استوى بِشْر على العراق مِن غَير سَيْفٍ ودَم مُهراق

وقد تَمَّ تخصيصُ العَرش لأنه أعظم المخلوقات ، فإذا اسْتَوْلَى اللهُ تعالى على العرش وقَهَره ، وهو أعظم المخلوقات ، فَمِن باب أَوْلى أن يكون مُسْتَولياً على باقي المخلوقات ، وقاهراً لها ، وهي _ بالتأكيد _ أقل شأناً من العَرش .

قال العَيْني في عمدة القاري (٢٥/ ١١١) : ((وأُنكِر عليهم بأنه لا يُقال استولى إلا إذا لم يكن مُسْتولياً ثم استولى ، واللهُ _ عَزَّ وَجَلَّ _ لم يزل مُسْتولياً قاهراً غالباً)) اهـ .

وفي الحقيقة ، إن تأويل المعتزلة مُتوافق مع الشرع واللغة . وهذا لا يتعارض مع سيطرة الله المطْلقة على مخلوقاته . فاللهُ قاهرٌ لمخلوقاته على الدوام بلا انقطاع . كان سُبْحانه مُستولياً على الخلائق ، وما زالَ مُسْتولياً . والاستيلاءُ هو القُدرةُ التامة الخالية مِن مُعارِض .

أمَّا الشُّبهة التي أُثيرت حول تأويل المعتزلة فيمكن الردُّ عليها بقول الله تعالى : ﴿ لِمَن الْمُلْكُ اليَوْمَ ﴾ [غافر : ١٦] . فهل كان الْمُلْكُ لغير الله تعالى قَبْل هذا اليوم ثم صارَ له سُبحانه ؟ . الجواب : لا .

وعَلَيْه ، فإن تفسير الاستواء بالاستيلاء لا يَعني أن اللهَ تعالى لم يَكن مُسْتولياً على العَرش ثم صارَ مُسْتولياً عليه . فهو سبحانه مُسَيْطِر على كُل شيء . كانَ وما زالَ .

وقال الإمام الغزالي في قواعد العقائد في التوحيد (ص ٩) : ((وأنه مُسْتَوٍ على العرش على الوجه الذي قاله ، وبالمعنى الذي أراده ، استواءً مُنَزَّهاً عن الْمُمَاسَّة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال . لا يَحْمله العرش، بل العرش وحَمَلته محمولون بِلُطف قُدرته ، ومقهورون في قبضته . وهو فَوْقَ العرش والسماء ، وفَوْقَ كُل شيء ... فَوْقِيَّةً لا تزيده قُرباً إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بُعداً عن الأرض والثرى)) اهـ .

وهذا الكلامُ النَّفيس لا بد أن نتوقف عنده ، فنقول :

أ) اللهُ تعالى مُسْتَوٍ على العَرش كما ذَكَرَ في كتابه المجيد لا كما يَخْطر للبشر . نُؤمِن بهذا الاستواء على مُراد الله تعالى .

ب) المماسةُ والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال من صفات الأجسام المخلوقة ، والمحصورة مكانياً وزمانياً . واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن المكان والزمان .

ج) العَرشُ لا يَحمل اللهَ تعالى ، لأنه سبحانه غنيٌّ عن كُل شيء ، وليس بحاجة إلى أَي شيء .

ولو كان العَرشُ يَحمل اللهَ تعالى ، لكانَ اللهُ عاجزاً مُفْتَقِراً إلى غَيْره ، وهذا مُحال . فاللهُ تعالى قائمٌ بذاته ، ومُسَيْطِر على كُل شيء .

د) العرشُ وحَمَلته خاضعون للهِ تعالى ، ومَحْمولون بلُطف قُدرته ، مُفْتَقِرون إليه سبحانه ، وهو الغنيُّ عنهم. وقد قال اللهُ تعالى : ﴿ ويَحْمِل عَرْشَ ربِّكَ فَوْقهم يومئذ ثمانيةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧].

هـ) اللهُ فَوْقَ كُل شيء ، ولَيْس فَوْقَه شيء . هو العَلِيُّ الأعلى . وفَوْقِيَّةُ اللهِ تعالى لا تُقاس بالمسافات والزمن ، فهي فَوْقِيَّةُ المجدِ والعَظَمةِ والقَهرِ والجبروتِ ، وعُلُوُّ المكانة .

وقال الحِصني في دَفع شُبه مَن شَبَّه وتمرَّد (ص ٤١ و٤٢) : ((فَمِن ذلك ما أخبر به أبو الحسن علي الدمشقي في صحن الجامع الأموي عن أبيه قال : كُنا جلوساً في مجلس ابن تيمية ، فَذَكَرَ وَوَعظَ وتعرَّض لآيات الاستواء ، ثم قال : واستوى اللهُ على عَرشه كاستوائي هذا . قال : فوثب الناسُ عليه وثبة واحدة، وأنزلوه من الكرسي ، وبادروا إليه ضرباً للكم والنعال وغير ذلك، حتى أوصلوه إلى بعض الحكام ، واجتمع في ذلك المجلس العلماء فشرع يناظرهم ، فقالوا : ما الدليل على ما صَدر مِنك ، فقال : قَوْله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ ، فضحكوا منه وعرفوا أنه جاهل ، لا يَجري على قواعد العِلم ، ثم نقلوه ليتحققوا أمره ... وكان قَد غَرَّه بنفْسه ثناء العوام عليه ، وكذا الجامدين من الفقهاء العارين عن العلوم التي بها يجتمع شمل الأدلة على الوجه الْمَرْضي . وقد رأيتُ في فتاويه ما يتعلق بمسألة الاستواء ، وقد أطنب فيها وذَكَرَ أموراً كلها تلبيسات ، وتجريات خارجة عن قواعد أهل الحق ، والناظر فيها إذا لم يكن ذا علوم وفِطنة وحُسن رؤية ظَنَّ أنها على مِنوال مَرْضي،ومِن جُملة ذلك بعد تقريره وتطويله، إن الله معنا حقيقة ، وهو فوق العرش حقيقة)) اهـ .

لقد وَصَفَ اللهُ ذاتَه العَلِيَّةَ ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء ﴾ [الشُّورى:١١] .
واللهُ تعالى استوى على العَرش كما ذَكَرَ لا كما يَخطر للبشر . ولا يمكن تشبيه الخالق بالمخلوق ، ولا المخلوق بالخالق.والذين يُصِرُّون على إثبات مكان لله تعالى، ويؤمنون بالنصوص على ظواهرها، نقول لهم إن اللهَ تعالى يقول : ﴿ وَهُوَ اللهُ في السَّماواتِ وفي الأرضِ ﴾ [الأنعام : ٣] .

وظاهرُ الآيةِ أن اللهَ تعالى موجود في السماوات وفي الأرض . وكما هو معلومٌ فإن الموجود لا يَكون في مَكانَيْن . إذن ، فظاهرُ الآيةِ غير مُراد . وأنتم مُلْزَمون بالتأويل . والمعنى : إن اللهَ تعالى هو المعبود في السماوات وفي الأرض .

وقال الزركشي في البرهان (٢/ ٨٣) : ((واستدلت الجهميةُ بهذه الآية على أنه تعالى في كل مكان ، وظاهر ما فهموه من الآية من أسخف الأقوال)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٧/ ١٩٥) : ((وقد كان السلف الأول _ رضي الله عنهم _ لا يقولون بنفي الجهة ، ولا ينطقون بذلك ، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرتْ رُسُلُه ، ولم يُنكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة ، وخُصَّ العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته ، وإنما جهلوا كيفية الاستواء فإنه لا تُعلَم حقيقته)) اهـ .

لنا وقفات مع هذا الكلام :

_ السلفُ الصالحُ كانوا يَداً واحدةً ، وفق منهج واحد . يَعتمدون على التسليم الكامل بالنصوص الشرعية وفق مُراد اللهِ ورسولِه ﷺ ، ويستندون إلى السليقة العربية بلا شوائب ، ويبتعدون _ كلَّ البُعد _ عن الجِدال . ولكنْ عندما جاءت الفِرَقُ الضالةُ بشُبهاتها ، وأثارَ بعضُ الناس قضايا دِينية حسَّاسة لم تكن مطروحة في عصر السلف ،كان لِزاماً الخوض في هذه القضايا للدفاع عن الإسلام، والرد على الخصوم بأسلحتهم العقلية والجدلية، ودفعِ الشُّبه والأباطيل. وهذا أدَّى إلى نشأة عِلم الكلام ، وهو العِلمُ الذي يستخدم الْحُجَج العقلية والبراهين المنطقية لإثبات العقائد الإسلامية . وهذا العِلمُ لم يَخُضْ فيه السلفُ الصالحُ بسبب اجتماع الناس على أمر واحد ، ولكنْ حين كَثُرت الشُّبهاتُ الْمُثارة ، اضطرَّ علماءُ الإسلام إلى استخدام عِلم الكلام لحماية الإسلام ، وحراسةِ عقائد الناس .

وتعبيرُ " الجهة " لم يكن معروفاً عند السلف الصالح لأنه لم يَرِدْ في القرآن والسُّنة، وإنما ظَهر في فترة لاحقة . وهُم لم يَخوضوا في هذا المصْطَلَح .

والسلفُ الصالحُ لم يُثبِتوا جهةً لله تعالى ، فهو سُبحانه مُنَزَّه عن المكان والزمان . وإذا اعتقدوا أن اللهَ تعالى في السماء ، أو أن الله تعالى فوق عَرْشه ، فالمقصودُ بهذا هو عُلُوُّ المكانة لا المكان ، ورِفعةُ القهر والسُّلطان والجبروت . والسلفُ الصالحُ أعلم الناس بأن الله تعالى لا يَحُلُّ في شيء مِن خَلْقه ، والسماوات مخلوقة . واللهُ تعالى فوق عَرْشه ، وهذه هي فَوْقِيَّةُ القهر والعَظَمة . وبالقَطْع ، فالسلفُ الصالحُ لا يَقصدون أن الله تعالى جالس على عرشه ، أو أن العَرش مكانٌ له سبحانه . فاللهُ تعالى كان موجوداً ولا عرش ولا سماوات . فأين كان اللهُ قبل خلق العرش والسماوات ؟! . لقد كان اللهُ ولا مكان ولا زمان ، لأن المكان والزمان مخلوقان. وهو سبحانه كما كان (لَم يَتغيَّرْ ولا يتغيَّر) ، وهو الآن حيث كان (بلا مكان) .

ولا تعارض بين تَنْزيه الله عن المكان ، وبين فَوْقِيَّة القهر والمجد . أمَّا السماءُ فهي جهة العُلُو المعنوي ، أي إنها جهة العَظَمة والمجد والقوة ، لا أنها جهة الله تعالى المحصور فيها . ولو كان اللهُ في السماء حقيقةً، لكانت السماء أكبر من الله تعالى، وعندئذ لا معنى لكلمة " اللهُ أكبر " . وهذا لا يقول به عاقل .

واللهُ تعالى يقول : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ . وهذه الآيةُ حقٌّ لا باطل ، وحقيقة لا مِراء فيها، لأن كلامَ اللهِ حقيقة وليس كذباً. وبالتالي ، فاستواءُ اللهِ حقيقة كما هو مَذْكور في الآية على مُراد الله تعالى مع تَنْزيه الله تعالى عن مُشابَهة مخلوقاته . هذا هو معنى أن الاستواء حقيقة .

إن الحقيقةَ كما ذَكَرَ اللهُ تعالى لا كما يَتصوَّر البعضُ في خيالهم المريض ، وأذهانهم القاصرة . وليس معنى الحقيقة أن اللهَ تعالى جالس على العَرش، أو أن العَرش يَحْمله سُبحانه، أو أن العَرش مكانه . فهذه الأمورُ مَنْفِيَّةٌ عن الخالق العظيم ، لأنها من خصائص الأجسام المخلوقة . ولا يُعقَل إضفاء خصائص المخلوقات على الخالق . فالخالقُ خالقٌ ، والمخلوقُ مخلوق .

أمَّا قَوْلُ القرطبي : " وإنما جهلوا كيفية الاستواء " . فهذه العِبارةُ خاطئةٌ تماماً ، لأن اللهَ تعالى لا كَيْفَ له ، وصفاته مُنَزَّهة عن التَّكَيُّف والتَّكييف . وما قاله القرطبي مخالفٌ لمنهج السلف الصالح الذين كانوا يقولون في الْمُتشابِهات : يُؤْمَن بها ، ولا تُفَسَّر ، ولا تُتَوَهَّم ، ولا يُقال كَيْف . فمِن أين جاء القرطبي بالكيفية ؟ . فاللهُ مُنَزَّه عن الكَيْفية ، وصفاته تعالى لا يُسْأل عنها بِكَيْف .

وقد روى مسلم في صحيحه (١/ ٣٥٠) : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((أقرب ما يكون العبد مِن رَبِّه وهو ساجد)) .

وهذا يشيرُ بوضوح إلى نفي المكان والجهة عن الله تعالى ، فالعبدُ في أكثر حالاته انخفاضاً يكون أقرب ما يكون لخالقه تعالى . وفي شرح السيوطي لسُنن النَّسائي (٢/ ٢٢٦) : ((وقال البدر ابن الصاحب في تذكرته : في الحديث إشارة إلى نفي الجهة عن الله تعالى ، وأن العبد في انخفاضه غاية الانخفاض يكون أقرب ما يكون إلى الله تعالى)) اهـ .

وقال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٤٣) : ((وأمَّا قولهم : الذي نطلب منه أن يعتقده أن يَنفيَ الجهة عن الله والتَّحيُّز ، فالجواب مِن وجوه : أحدهما : إن هذا اللفظ ومعناه الذي أرادوه ليس هو في شيء من كُتب الله الْمُنْزَلة مِن عِنده،ولا هو مأثوراً عن أحد من أنبياء الله ورُسله ، لا خاتَم المرسَلين ولا غَيره ، ولا هو أيضاً محفوظاً عن أحد من سلف الأُمَّة وأئمتها أصلاً)) اهـ .

إن اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن الجهةِ والتَّحيُّزِ . وهذا المعنى موجود في القرآن والسُّنة رغم أن الجهة والتَّحيز لم يُذكَرا كمفهومَيْن. وهذا ليس أمراً غريباً، فهذان التعبيران جديدان . وكثيرٌ من التعابير لم تُذكَر حَرفياً . ومع هذا فلا يُوجَد تعبير خارج عن هيمنة القرآن والسُّنة بسبب اشتمالهما على القواعد الكُلية التي ينضوي تحتها التفاصيل الجزئية مهما اختلف الزمانُ والمكانُ .

ولو كان اللهُ في جهة أو في حيِّز، لكانَ محصوراً في مكان ، ومقهوراً في حيِّز ، وخاضعاً لصفات الحوادث . واللهُ أكبر من كُل شيء . وهو سبحانه قديمٌ كان قَبْل الجهاتِ وقبل كُل حيِّز . فهو موجود سُبحانه بلا مكان ، لأنه غنيٌّ عن كُل شيء، لا يَحتاجُ مكاناً يَحُلُّ فيه، ولا جهةً يتواجد فيها. واللهُ تعالى مُنَزَّه عن الحلول في الأشياء، فلا مكان يحتويه ولا زمان يَحُدُّه، لأنه سبحانه خالق الزمان والمكان . وكان الله موجوداً قبل العرشِ والزمانِ والمكانِ والجهاتِ وكلِّ المخلوقات ، ولا شيء معه . ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء ﴾ [الشُّورى:١١] .

وفي تفسير القرطبي (١/ ٢٩١) : ((رُوِيَ عن مالك _ رحمه الله _ أن رَجلاً سأله عن قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ ، قال مالك: الاستواءُ غير مجهول، والكَيْف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رَجل سَوء ! ، أخْرِجُوه)) اهـ .

إن الاستواءَ مَعلومٌ لأنه مذكور في القرآن ، والكيف غير مَعقول. ولا نقول إن الكَيْف مجهول، فلا يُقال كَيْف ، لأن اللهَ لا كَيْف له ، والإقرار بالاستواء إيمان لأنه تصديق بالقرآن ، وإنكاره كُفر لأنه تكذيب لكلام الله تعالى . وعلى اللهِ الرسالة ، وعلى رسوله البلاغ ، وعَلَيْنا التسليم . وهذه هي عقيدة المسلم الصافية .

وفي فتح الباري (١٣/ ٤٠٦) : ((وأخرج البَيهقي بسند جيِّد عن عبد الله بن وَهْب ، قال : كُنَّا عند مالك ، فَدَخَلَ رَجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ ، كيف استوى ؟ . فأطرقَ مالك ، فأخذته الرُّحَضاء (العَرَق الكثير) ، ثم رَفع رأسه ، فقال : الرحمن على العرش استوى كما وصف به نَفْسَه ، ولا يُقال كَيْف ، وَكَيْف عنه مرفوع ، وما أراك إلا صاحب بِدعة ، أَخْرِجوه)) اهـ .

وفي مجمع الحِكَم والأمثال : ((رُوِيَ أن الزمخشري سَأل الإمام الغزالي عن قول الله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ ، فأجاب :

قُلْ لمن يفهمُ عني ما أقــولُ
اتْرُك البَحْثَ فذا شرحٌ يطـولْ
ثَمَّ سِرٌ غامضٌ من دُونِــه
ضُرِبَتْ بالسيفِ أعناقُ الفحولْ
أنتَ لا تعرفُ إياكَ ولا تـدري
مَن أنتَ ولا كيفَ الوصـولْ
لا ولا تدري صفاتٍ رُكِّبَــتْ
فيكَ حارَتْ في خفاياها العقولْ
أينَ مِنكَ الروحُ في جوهرِهـا
هل تراها أو ترى كيفَ تجـولْ ؟
أنتَ أكْل الخبزِ لا تعرفُــه
كيفَ يجري فيكَ أم كيفَ يَحولْ
فإذا كانتْ طواياكَ الــتي
بَيْن جَنبيْكَ بها أنت جهـولْ
كيفَ تدري مَن على العرشِ استوى
لا تقلْ كيفَ استوى كيفَ الوصولْ
فهو لا كَيْفَ ولا أيْنَ لــهُ
هوَ ربُّ الكَيْفِ والكَيْفُ يجـولْ
وهو فَوْقَ الفَوْقِ لا فَوْقَ لـه

وهوَ في كلِّ النواحي لا يزولْ
جَلَّ ذاتاً وصفاتٍ وعَـلا
وتعالى رَبُّنا عمَّا تقـولْ

[٦] قال اللهُ تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى على العَرْش ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

استوى اللهُ على العَرْش كما ذَكَرَ في القرآن، لا كما يَدور في خيالاتِ الناس .

وفي فتح الباري (١٣/ ٤٠٦) : ((وأخرج الثعلبي مِن وَجه آخر عن الأوزاعي ، أنه سُئل عَن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ استوى على العَرْش ﴾ ، فقال : هو كما وَصَفَ نَفْسَه)) اهـ .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٩٤) : ((فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس هذا موضع بسطها ، وإنما نَسْلُك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، وهو إمرارها كما جاءت مِن غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهرُ الْمُتبادِر إلى أذهان الْمُشبِّهين مَنفيٌّ عن الله ، لا يُشْبِهُهُ شيء مِن خَلْقه)) اهـ .

وبالتأكيد ، نحن نَصِفُ اللهَ تعالى بما وَصَفَ به ذاتَه العَلِيَّة ، وبما وَصَفه به رسوله محمد ﷺ . ومَن شَبَّه اللهَ بِخَلْقه ، أو شَبَّه خَلْقَه به سُبحانه ، فقد كفرَ . ومَن جَحد ما وَصفَ اللهُ به نَفْسَه ، فقد كفرَ .

ولا بد من إثبات ما أَثْبته اللهُ لنفسه على الوجه الذي يَليق بجلال الله تعالى ، ونَفْي النقائص عنه _ سُبحانه وتعالى _. فهو الكاملُ ، وصفاته كاملة ، لا يَطرأ عليها النقصُ ولا العَدَم . وكلُّ ما في بالِك ، فاللهُ بِخِلاف ذلك . وكلُّ ما في بالك فهو هالك .

وهناك أشخاص يقولون إن اللهَ استوى على العَرْش بذاته . وهذه اللفظة " بذاته " لم تَرِد في القرآن والسُّنة ، فيجب رَفْضها . وكما هو معلوم ، فالسلفُ الصالح لم يقولوا: استوى على العرش بذاته . بل آمَنوا بما وَرد ، ورَفضوا ما لَم يَثْبُت بالدليل ، مِمَّا لا يَجوز عليه سُبحانه .

ورَوى البخاري في صحيحه (١/ ١٥٩) : عن أنس _ رضي الله عنه _ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ أحَدَكُم إذا قام في صلاته فإنه يُناجي رَبَّه _ أو إن رَبَّه بَيْنَه وبين القِبلة _ فلا يَبْزُقَنَّ أحَدُكم قِبَلَ قِبْلته ، ولكن عن يساره أو تحت قَدَمَيْه)) .

وهذا الحديثُ ينفي الجهةَ والمكانَ عن الله تعالى. فَقَوْلُ النبيِّ ﷺ:((إن رَبَّه بَيْنَه وبين القِبلة))، يعني أن العبدَ عندما يتوجَّه للقِبلة ، فإنما يَقصد اللهَ تعالى الذي يَسمع كلامَ عبده ، ويَرى

مكانَه ، ويَستجيب دُعاءه . وقد شَرَّفَ اللهُ القِبلةَ ، فصارت مكاناً شريفاً عظيماً ينبغي احترامه وتقديسه .

وبالتأكيد ، لا يُوجد عاقلٌ يَعتقد أن اللهَ تعالى محصور بين العبد والقِبلة ، أو أن هذا المكان هو مكان لله تعالى . فالحديثُ يجب أن يُفهَم ضمن سياقات اللغة العربية ، والقواعدِ الشرعية . ونصوصُ القُرآن والسُّنة قائمة على اللغة العربية ، ولا يُمكن فَهْمُ الدِّين إلا بِفَهْم دلالات اللغة .

وقال الحافظ في الفتح (١/ ٥٠٨) : ((وقد نزع به _ أي بالحديث _ بعض المعتزلة القائلين بأن الله في كل مكان ، وهو جهل واضح ، لأن في الحديث أنه يَبزق تحت قَدَمه ، وفيه نقض ما أصَّلوه . وفيه الرَّد على مَن زَعم أنه على العَرش بذاته)) اهـ .

يعتقد البعضُ أن اللهَ تعالى في كُل مكان . وهذه العقيدة تُفهَم وفق معنيَيْن . المعنى الأول : أن اللهَ تعالى مُحيط بكل شيء ، يَعلم كُلَّ شيء ، ولا شيء يَغيب عنه . وهذا معنى مقبول . أمَّا المعنى الآخر ، فاللهُ تعالى في كل مكان بذاته ، وهذه عُقيدة كُفرية مرفوضة ، لأنها تعني أن اللهَ تعالى موجود في أماكن القذارة والنجاسة ، وهذا لا يقول به مُسْلم .

وبعضُ الناس يعتقد أن اللهَ على العرش بذاته، وهذه العقيدة الكُفرية يَعتنقها بعض الذين يَنسبون أنفسهم إلى المذهب الحنبلي. والحديثُ النبويُّ " إنَّ رَبَّه بَيْنَه وبين القِبلة " يَهدم عقيدتهم الفاسدة . فلو كان اللهُ على العرش بذاته ، فكيفَ يكون سُبحانه بين العبد وبين القِبلة ؟! .

أضف إلى هذا أن لفظة " بذاته " لم تَرِدْ في القرآن والسُّنة وَلَم يَتفوَّه بها السلفُ الصالِحُ . وهذه لفظة تعني أن اللهَ محصور في مكان ، وموجود في حيِّز على العرش . وهذا مرفوضٌ نَقلاً وعقلاً .

ومن العقائد الجنونية ، اعتقاد أن اللهَ يُقعِد رسولَه مُحمَّداً ﷺ على العَرْش . وهذه الهلْوسة السخيفة لا تستحق أن نُضيِّع الوقتَ في تفنيدها ، فهي عقيدة ساقطة. وقد ذَكَرَ ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ٨٤١) أبياتاً جنونية بهذ المعنى :

((حديث الشفاعة عن أحمد   إلى أحمد المصطفى مسنده
وجاء حديث بإقعاده   على العرش أيضا فلا نجحده
أَمِرُّوا الحديث على وجهه   ولا تدخلوا فيه ما يُفسده
ولا تُنكِروا أنه قاعد   ولا تُنكروا أنه يُقعده)) !

[٧] قال اللهُ تعالى : ﴿ كُلُّ شَيء هالِكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ [القَصَص : ٨٨] .

هذه الآيةُ تردُّ على المجسِّمة الذين يَعتقدون أن لله تعالى جوارِح وأعضاء ، لأنها تقول إن كُل شيء هالك إلا وجه الله . ولو كان اللهُ مُركَّباً من أعضاء وجوارح ، فسوفَ تَهْلِك كُلُّها ما عدا الوجه . وهذا لا يقول به عاقل . والمعنى المعتمَد : أن كُلَّ شيء هالك إلا الله تعالى ، فهو الحَيُّ الذي لا يَموت ، كَتبَ الموتَ على الخلائق ، وتفرَّد بالبقاء .

قال الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٩): ((فقال بعضهم: معناه : كل شيء هالك إلا هُوَ))

.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٣٣) : ((فعبَّر بالوجه عن الذات)) اهـ .

وقال التميمي في اعتقاد الإمام ابن حنبل (١/ ٢٩٤) : ((ومذهب أبي عبدالله أحمد بن حنبل ــ رضي الله عنه ــ أن لله عَزَّ وَجَلَّ وَجهاً لا كالصُّوَر المصوَّرة ، والأعيان المخطَّطة ، بل وجه وَصَفَه بقوله : ﴿ كُلُّ شَيء هالِكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ ، ومَن غَيَّر معناه فقد ألحدَ عنه ، وذلك عنده وجه في الحقيقة دون المجاز ، ووجهُ الله باقٍ لا يَبْلى ، وصفةٌ له لا تفنى ، ومَن ادَّعى أن وجهه نفْسه فقد ألحدَ)) اهـ .

ولنا وقفات مع هذا الكلام :

أ) قَوْلُك " لله عَزَّ وَجَلَّ وَجهاً لا كالصُّوَر المصوَّرة والأعيان المخطَّطة " . هذا الكلامُ مخالفٌ لمنهج السلف والخلَف معاً ، ومخالفٌ لمنهج الإمام أحمد الذي كان يقول عبارته المشهورة " كما ذَكَرَ لا كما يَخطر كالبشر " . أي إنه يُؤمن بكلام الله على مُراد الله تعالى كما ذَكَرَ في القرآن ، لا كما يَخطر في خيالات الناس وأذهانهم . ومعروفٌ أن منهج السلف الصالح هو إمرار الآية كما جاءت مِن غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل . فمن أينَ أَتيتَ بعبارتك " لله عَز وجَل وجهاً ... " ونَسبتها للإمام أحمد ؟! .

ب) أمَّا قَوْلُك " وذلك عنده وجه في الحقيقة دون المجاز " ، فهذه العِبارة مخالفة لمنهج السلف والخلَف معاً ، وضد منهج الإمام أحمد . فالوجهُ على الحقيقة يعني العُضو المعروف . ولَيْتكَ قرأتَ الآيةَ، وآمنتَ بكلام الله تعالى دون زيادة أو نقصان ، كما كان يَفعل الإمام أحمد الذي يَنسُب مُجسِّمةُ الحنابلة أنفسَهم إليه ، وهو مِنهم بَريء . وقد شَوَّهوا سُمعته ، وأهانوا المذهبَ الحنبلي .

ج) قَوْلُك " ومَن ادَّعى أن وَجْهَه نفْسُه فقد ألحدَ ". فهذه هرطقة تُثير الضحكَ . ووفق هذه العِبارة سيكون نسبة كبيرة من علماء المسلمين عبارة عن ملاحدة . وكلُّ ذَنبهم أنهم ملتزمون بالكتاب والسُّنة ودلالات اللغة العربية . فأيُّ مُسْلم يَعرف اللغةَ العربية يُدرِك أن معنى الآية : ﴿ كُلُّ شَيء هالِكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ ، أن كلَّ شيء هالك إلا الله تعالى. يَفهم الآيةَ على السليقة العربية، حتى وهو لا يَعرف شيئاً عن العلوم الشرعية . وبشكل عام ، فنحن نُنَزِّه الإمام أحمد عن هَرْطقات مُجسِّمة الحنابلة الذين يَنْسُبون أنفسَهم إليه زُوراً .

[٨] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْني ﴾ [طه : ٣٩] .

تتضمن الآيةُ معنى العناية والإحسان . أي : إن اللهَ تعالى مُحسِن إليكَ ، ومُحيطكَ بعنايته .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٢٨٤) : ((قال قتادة : لِتُغَذَّى على محبتي وإرادتي . قال أبو عُبَيدة : على ما أُريد وأُحِب . قال ابن الأنباري : هو من قول العرب غُذِّيَ فُلان على عَيني ،
أي على المحبة مِنِّي)) اهـ .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ٢٤١) : ((قال قتادة وغير واحد من السلف : أي تُطعَم وتُرَفَّه وتُغذَّى بأطيب المآكل، وتلبس أحسن الملابس بمرأى مِنِّي وذلك كُلُّه بِحِفظي)) اهـ .

وهذا هو المعنى المقبول لغوياً . فالقرآنُ نزلَ بلسان العرب . ومن غير المعقول أن يُخاطِب اللهُ تعالى الناسَ بما لا يَفهمونه .

ولا يخفَى أن قتادة من أئمة السلف الصالح . وانظرْ إلى قَوْل ابن كثير " قال قتادة وغير واحد من السلف " ، فهذا يدل على أن التأويل كان معروفاً ومعتمَداً عند السلف الصالح، ولم يكن بدعةً اخترعها الأشاعرة أو الخَلَف _ كما يظن بعضُ الجهَّال _ .

وعلى الجهة الأُخرى ، انظرْ ماذا يَقول ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٨) : ((قال السُّهَيلي: إذا علمتَ هذا، فاعلم أن العَيْن أُضيفت إلى الباري تعالى كقوله: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْني ﴾
حقيقةً لا مَجازاً كما توهَّم أكثر الناس ، لأنها صِفة في معنى الرؤية والإدراك)) اهـ .

وإليكَ الرد على هذا الكلام :

أ) عبارة " حقيقة لا مجازاً " تعني أن العَيْن جارحة ، واللهُ تعالى مُنَزَّه عن الجوارح ، فلو كان اللهُ مُركَّباً من الأعضاء والجوارح لكانَ فقيراً إليها ، ومحتاجاً لها ، ولصارَ مُشابِهاً لمخلوقاته العاجزة. واللهُ تعالى غنيٌّ عن كُل شيء . وكلُّ شيء بحاجة إليه . وهو سُبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء ﴾ [الشُّورى: ١١].

ب) قَوْلُك أن العَيْن أُضيفت إلى الباري حقيقةً لا مجازاً، لا دليل عليه. وهو مخالفٌ تماماً لمنهج السلف والخَلَف معاً . فمن أينَ اخترعتَ هذه العِبارة ؟! .

ج) قَوْلُك " لا مَجازاً كما توهَّم أكثر الناس " . فيه تشنيع على علماء المسلمين من السلف والخَلَف الذين فهموا الآيةَ بمعنى العناية والرعاية . وهؤلاء العلماء لَيْسوا من الناس . إنهم سادة الناس ، وفوق الناس ، وقادة الناس في مجال العِلم .

د) قَوْلُك " لأنها صفة في معنى الرؤية والإدراك". كلامٌ ساقطٌ فيه تشبيه الله بمخلوقاته ، فاللهُ تعالى لا يَحتاج عَيْناً لكي يَرى بها ، ولا يَحتاج أُذناً لكي يَسمع بها . فهو سبحانه غنيٌّ عن كل شيء ، مُنَزَّه عن الجوارح والأعضاء التي هي من خصائص المخلوقات العاجزة . فالإنسانُ العاجز لا يَقدر على الرؤية والإدراك بدون عَيْن لأنه مخلوق ناقص عاجز مُركَّب ، ومفتقر إلى الأعضاء والجوارح . أمَّا اللهُ تعالى فهو الخالق العظيم الْمُنَزَّه عن النقص والحاجة . والخالقُ الكاملُ لا يُشبِه المخلوقَ الناقص . ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء وهو السميع البصير ﴾ [الشُّورى: ١١].

هـ) إذا كُنتَ تعتقد أن " العَيْن " في الآية على الحقيقة لا المجاز ، وتقوم بإثباتها كما تتوهَّم . فماذا تقول في قول الله تعالى : ﴿ وَاصْنَع الفُلْكَ بأعْيُنِنا ﴾ [هُود : ٣٧]. هل لله تعالى أعين كثيرة كما في الآية ، أَم له عَيْن واحدة كما في الآية : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْني ﴾ [طه : ٣٩] ؟! . تعالى اللهُ عمَّا يقول الجاهلون والمجسِّمة عُلُوَّاً كبيراً .

[٩] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَاصْنَع الفُلْكَ بأعْيُنِنا ﴾ [هُود : ٣٧].

والآيةُ تتضمن معنى الحفظ والعناية والرعاية . كما في الآية ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْني ﴾ .

قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٨) : ((أي بمرأى مِنَّا وحيث نراك.وقال الربيع بن أنس : بحفظنا إيَّاك حفظ مَن يَراك . وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : بحراستنا . والمعنى واحد فعبَّر عن الرؤية بالأعين ، لأن الرؤية تكون بها ، ويكون جمع الأعين للعَظَمة لا للتكثير)) اهـ .

وقالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بأعْيُنِنَا ﴾ [الطُّور : ٤٨] .

واصْبِرْ يا محمد على قَضاءِ اللهِ وحُكْمِه عَلَيْكَ بتبليغ رسالته ، والتزمْ بأمْرِه ونَهْيِه ، وبَلِّغ الوَحْيَ الإلهيَّ ، ولا تَعبأ بأعداء الدَّعوة الإسلامية ، فإنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أحوالك ، يَراكَ ويَسمعك ويَحفظك، ويُحيطك بالعِناية والرِّعاية ، ويَعْصِمك مِن أذى المشركين ، فلا يَستطيعون أن يُؤذوكَ .

وقال البغوي في تفسيره (١/ ٣٩٤) : ((﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى أن يَقع بهم العذاب الذي حَكَمْنا عَلَيهم . ﴿ فإنَّكَ بأعْيُنِنا ﴾ [17]، أي: بِمَرأى مِنَّا. قال ابن عباس: نَرى ما يُعمَل بِكَ . وقال الزَّجاج : إنَّك بحيث نَراك ونَحفظك ، فلا يَصِلُون إلى مَكروهك)) اهـ .

ولا شَكَّ أنَّ الآية ﴿ فإنَّكَ بأعْيُنِنا ﴾ تُزيل هُمومَ المؤمنين، وتَرفع معنوياتهم. فَعَلَيهم أن يُردِّدوها دائمًا لاستحضار مَعِيَّة اللهِ تعالى ، وأنَّه مَعَهم ، يَراهم ، ويَسمعهم ، ويَحفظهم مِن كُل سُوء .

والنُّونُ الثانية في ﴿ بأعْيُنِنا ﴾ تُفيد الجمع ، وذلك لتعظيم اللهِ تعالى .

[١٠] قال اللهُ تعالى : ﴿ لِمَا خَلقتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥].

هذه الآيةُ تُخبرنا أن الله تعالى قد خَلَقَ آدم ﷺ بِيَدَيْه ، وفضَّله على إبليس اللعين . وبالتأكيد ، إن اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن الجوارح . فلا يمكن حَمْل اليَد على الجارحة . وأيضاً لا يمكن حَمْلُها على القوة والقُدرة ، فحينئذ يَبطل تفضيل آدم ﷺ على إبليس ، ولا يُصبح هناك أفضلية لآدم ﷺ ، بسبب وقوع الاشتراك بين آدم وإبليس ، فكلاهما مخلوق بقُدرة الله تعالى . ولقالَ إبليس اللعين : وأنا أيضاً خَلقتني بيديكَ كما خَلقتَ آدم ، فلا فضلَ له عليَّ .

وأيضاً، لا يجوز حَمل اليَد على معنى النِّعمة ، فالنِّعمُ مخلوقة . ومِنَ الْمُحال خَلقُ المخلوق بمخلوق ، ففاقدُ الشيء لا يُعطيه .

---

(١٧) في فتح الباري (١٣/ ٣٩٠) أنَّ ابن الْمُنيِّر قال : ((ولأهل الكلام في هذه الصفات كالعَين والوَجْه واليد ثلاثة أقوال : أحدها أنها صِفاتٌ ذَات أثبتها السمع ولا يهتدي إليها العقل . والثاني أنَّ العَين كِناية عن صِفة البصر ، واليد كناية عن صفة القُدرة ، والوجه كِناية عن صفة الوجود . والثالث إمرارها على ما جاءت مُفَوَّضًا معناها إلى الله تعالى . وقال الشيخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدي في كتاب العقيدة له : أخبرَ اللهُ في كتابه وثَبَت عن رسوله الاستواء والنُّزول والنَّفْس واليد والعَين ، فلا يُتصرَّف فيها بتشبيه ولا تعطيل ، إذْ لَوْلا إخبار الله ورسوله ما تَجاسرَ عقل أن يَحوم حَول ذلك الحِمى . قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد، وبه يقول السلف الصالح. وقال غَيْرُه : لَم يُنقَل عن النبيِّ ﷺ ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع مِن ذِكْره)) .

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٢٢٤): ((فلم يَبْقَ إلا أن تُحمَل على صفتين تَعَلَّقتا بخلق آدم ، تشريفاً له دون خلق إبليس)) اهـ .

لقد أضافَ اللهُ تعالى إلى نَفْسه خلقَ آدم تكريماً له ، وتشريفاً لقَدْره . ومَعَ أن اللهَ خالق كُل شيء ، فقد أضاف إلى نَفْسه بعضَ المخلوقات تشريفاً مِثل : بيت الله ، مساجد الله ، ناقة الله .

[١١] قال اللهُ تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ يَدُ اللهِ مَغْلولة ﴾ [المائدة : ٦٤].

وبالطبع ، لم يكن اليهودُ يَقْصدون بهذه العِبارة أن لله تعالى يَداً (جارحة) في حالة الانقباض . وإنما كانوا يَقْصدون أن اللهَ تعالى بخيل لا يُنفِق عليهم .

أمَّا سبب نزول الآية ، فعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((قال رَجل من اليهود يقال له النَّبَّاش بن قيس : إن رَبَّك بخيل لا يُنفِق))[237]. فأنزل الله تعالى : ﴿ وقالت اليهودُ يدُ الله مغلولة ﴾ الآية .

وقال الطبري في تفسيره (٤/ ٦٣٩) : ((يعني بذلك : أنهم قالوا : إن الله يَبْخل علينا ويمنعنا فَضْلَه ، فلا يَفْضُل كالمغلولة يده الذي لا يَقْدر أن يَبسطها بعطاء ، ولا بذل معروف ، تعالى الله عمَّا قالوا)) اهـ .

وفي تفسير سفيان الثوري (ص ١٠٤) : ((﴿ قالت اليهودُ يَدُ اللهِ مَغْلولة ﴾ . قالوا : لا يُنفِق شيئاً)) اهـ. ولا يخفَى أن هذا تأويل مِن قِبَل أحد أئمة السلف، وهو الإمام سفيان الثوري .

وقد رَدَّ اللهُ تعالى على اليهود فقال سبحانه : ﴿ بَل يداه مَبْسوطتان ﴾ [المائدة : ٦٤] .

والمعنى الذي يَفْهمه العاقلُ هو أن الله كريم ، وليس بخيلاً . وليس هذا الفَهْم بحاجة إلى تبحُّر في العِلم ، ولا يحتاج إلى معارك مُتخيَّلة بين السلف والخَلَف .

وقال البيضاوي في تفسيره (ص ٣٤٥) : ((ثنَّى اليد مُبالَغةً في الرَّد ، ونَفْي البُخل عنه تعالى وإثباتاً لغاية الْجُود ، فإن غاية ما يبذله السَّخي مِن ماله أن يُعْطِيَه بِيَدَيْه)) اهـ .

وقال ابن تيمية في الجواب الصحيح (٤/ ٤١٣) : ((واليهود أرادوا بقولهم : ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أنه بخيل ، فكذَّبهم اللهُ في ذلك ، وبَيَّن أنه جواد لا يَبْخل ، فأخبر أن يَدَيْه مبسوطتان كما قال)) اهـ .

وهذا تأويل واضح لليد ، يأتي مِن ابن تيمية إمام الذين يُسَمُّون أنفسهم بالسلفيين .

---

(٢٣٧) رواه الطبراني (١٢/ ٦٧) ، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٨١) : ((ورجاله ثقات)) .

وفي كتاب فتاوي مهمة لعموم الأُمة لابن باز وابن عثيمين (ص ١١) : ((فأثبتَ لنفْسه يدين موصوفتين بالبسط وهو العطاء الواسع فيجب علينا أن نؤمن بأن الله تعالى يدين ثنتين مبسوطتين بالعطاء والنِّعَم ، ولكن يجب علينا أن لا نحاول بقلوبنا تصوُّراً ، ولا بألسنتنا نُطقاً أن نُكيِّف تلك اليدين ، ولا أن نُمثِّلهما بأيدي المخلوقين)) اهـ .

مِن أينَ جاء ابن باز وابن عثيمين بهذا الكلام ؟! . والعجيبُ أنهما يَزعمان أنهما سائران على خُطى السلف الصالح . لقد خالفوا السلفَ والخَلَف معاً ، وخالفوا إمامَهم ابن تيمية . فلا هُم اعتمدوا منهجَ السلف الذي يُقرِّر إمرارَ الآية كما جاءت مِن غير تكييف، ولا تَشبيه، ولا تعطيل ، وأن قراءتها تفسيرها. ولا هُم اعتمدوا منهج الخَلَف الذي يُؤمِن بالتأويل . فَزَعَما بوجوب الإيمان " بأن الله تعالى يَدَيْن ثنتين مبسوطتين بالعطاء والنِّعَم ".فما الدليلُ على قَوْلكم من القرآن والسُّنة ؟. ومَن قال بهذا من السلف الصالح ؟ . إنه كلامٌ بدون دليل شَرعي ، ولا يَصْمد تحت شمس الحق .

[١٢] قال اللهُ تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيديهم ﴾ [الفَتْح : ١٠] .

والمقصودُ : قوةُ اللهِ ونُصرته فوق قوة المؤمنين ونُصرتهم ، أو نِعمة الله عليهم فوق ما قاموا به مِنَ البَيْعة .

قال الطبري في تفسيره (١١/ ٣٣٨) : ((وَجْهان من التأويل: أحدهما : يد الله فوق أيديهم عند البَيعة لأنهم كانوا يُبايعون اللهَ بِبَيْعتهم نَبِيَّه ﷺ. والآخر : قوةُ الله فوق قوتهم في نُصرة رسوله ﷺ لأنهم إنما بايعوا رسولَ الله ﷺ على نُصرته على العدو)) اهـ .

وقد اقتبس أحدُ الشعراء معنى الآية ، فقال :

وَمَا مِن يَدٍ إلا يَدُ اللهِ فَوْقَها   ولا ظَالِمٍ إلا سَيُبْلَى بظالِمِ

[١٣] قال اللهُ تعالى : ﴿ أوَلَمْ يَرَوْا أنَّا خَلَقْنا لهم مِمَّا عَمِلت أيدينا أنعاماً ﴾ [يس : ٧١] .

يُوجِّه اللهُ عبادَه إلى النظر في مخلوقات اللهِ لمعرفة عَظَمة الله تعالى . فيجب التفكرُ في خَلْق الله ، وعدم التفكر في الله ، لأن العقلَ البشري ناقص وعاجز ، ولا يَقْدر على الوصول إلى حقيقة الله سُبحانه، ولا يَعْرفُ اللهَ إلا الله. وكما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] . فاللهُ تعالى خلقَ للإنسان أنعاماً، وسخَّرها له ، كي يَنتفع بها ، وتُعينه على قضاء حوائجه ،

وتسهيل أمور معيشته . واللهُ خلقَ هذه الأنعام ، وعَمِلَها دون واسطة ، وبدون مساعدة أحد ، لأنه سُبحانه لا شريك له .

قال البيضاوي في تفسيره (ص ٤٤١) : ((مِمَّا تَوَلَّيْنا إحداثه ولم يَقْدر على إحداثه غَيْرُنا . وذِكْرُ الأيدي وإسناد العمل إليها، استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرُّد بالإحداث)) اهـ .

وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٣٩٤) : ((وقال ابن فورك : قيل : اليد بمعنى الذات ، وهذا يستقيم في مِثل قوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلت أيدينا ﴾ بخلاف قَوْله:﴿ لِمَا خَلقتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، فإنه سِيق للرد على إبليس ، فلو حُمل على الذات لَمَا اتَّجه الرَّدُّ . وقال غَيْرُه : هذا يُساق مساق التمثيل للتقريب ، لأنه عُهِدَ أنَّ مَن اعتنى بشيء واهتمَّ به باشره بيدَيْه ، فيُستفاد من ذلك أن العناية بخلق آدم كانت أتم من العناية بخلق غَيْره)) اهـ .

[١٤] قال اللهُ تعالى على لسان المسيح : ﴿ وَلا أَعْلمُ ما في نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

ويمكن تفسير الآية : لا أَعْلمُ ذاتَكَ ، أو لا أَعْلمُ ما في غَيْبِكَ ، أو لا أَعْلمُ ما عِندَكَ .

قال القرطبي في تفسيره (٦/ ٣٤٦) : ((ولا أَعْلمُ لِمَا في غَيْبِكَ)) اهـ .

قال التميمي في اعتقاد الإمام ابن حنبل (ص ٢٩٨) عن ابن عباس : ((ولا أَعْلمُ ما في نفْسِكَ الملكوتية)) اهـ .

نَسَبَ المؤلفُ هذا الكلام إلى ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ بدون إسناد . ومعروفٌ أن الإسنادَ من الدِّين ، ولَوْلا الإسناد لقالَ مَن شَاءَ ما شَاءَ . وبالتالي ، فلا دليل على أن هذه العِبارة لابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ . وبالإضافة إلى هذا ، فالعِبارةُ مُخالِفة للكتاب والسُّنة ، فلم يَرِدْ فيهما " النَّفْس الملكوتية " ، ومعلومٌ أننا لا نَصِفُ اللهَ إلا بما وَصَفَ به ذاتَه العَلِيَّة ، أو بما وَصَفَه به رسولُه محمد ﷺ .

وما ذَكَرَه التميمي ، وزَعم أنه عقيدة الإمام أحمد بن حنبل ، مُخالِفٌ للسلف والخَلَف معاً . فعِبارة " نَفْسك الملكوتية " مرفوضة لأنه لا دليل عليها . وهي مُخالِفةٌ لمنهج الإمام أحمد الذي كان يقول : ((كما ذَكَرَ لا كما يَخْطُر للبشر)). وللأسف، فإن المؤلف لَم يَقْبل بالتفويض ولا بالتأويل، وهذا ما قاده إلى عقيدة لا أساس لها من الصِّحة .

وقَوْلُ الله تعالى على لسان المسيح : ﴿ تَعْلمُ ما في نَفْسي وَلا أَعْلمُ ما في نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] . يُشير إلى مفهوم الْمُشاكَلة اللغوية (الْمُقابَلة في الألفاظ) ، وهذا المفهوم مُعْتَمَد عند عُلماء اللغة .

والمعروفُ : تَعْلمُ ما في نفْسي ولا أَعْلم ما عندكَ . فإن الله تعالى لا يُسْتَعْمَل في حقِّه لفظ النَّفْس ، إلا أنها جاءت في هذا السياق القرآنِيِّ مُشَاكَلةً لِمَا تقدَّم مِن لفظ النَّفْس .

قال ابن حِجَّة الحموي في خزانة الأدب (٢/ ٢٥٢) : ((الْمُشَاكَلةُ في اللغة هي الْمُماثَلة . والذي تحرَّر في المصطلَح عند علماء هذا الفن أن المشاكَلة هي ذِكْرُ الشيء بغَيْر لفظه ، لوقوعه في صُحبته)) اهـ .

كما في قَوْل الله تعالى : ﴿ وَمَكَروا وَمَكَرَ اللهُ ﴾ [آل عِمران : ٥٤] .

ولا يَجوز القول إن اللهَ ماكرٌ يَمْكر بعباده، ويُريد إضلالهم. فالمكرُ مِن الله هو استدراجُ العبد، وأخذُه بَغتةً مِن حَيْثُ لا يَدري . وفي تفسير القرطبي (٤/ ٩٩) : ((وقال الزَّجاج : مَكْرُ الله مُجازاته على مَكْرهم ، فَسَمَّى الجزاءَ باسم الابتداء)) اهـ .

وكما في قَوْل الشاعر :

ألا لا يَجْهَلَنَّ أحدٌ عَلَيْنا   فَنَجهلَ فَوْقَ جَهلِ الجاهلينا

وهنا تَبرز الْمُشَاكَلةُ اللفظيةُ. فالمعروفُ أن التصدي للجهل ليس جَهلاً ، وإنما هو عَيْن الحَزم . كما أن العاقل لا يَفتخر بالجهل . وما وجودُ هذه الألفاظ في كلام الشاعر إلا من باب المشاكَلة .

قال القرطبي في تفسيره (١/ ٢٥٣) : ((فَسَمَّى انتصاره جَهلاً ، والجهلُ لا يَفتخر به ذو عقل ، وإنما قاله ليزدوِج الكلامُ فيكون أخف على اللسان من المخالَفة بينهما . وكانت العربُ إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاءً ، ذَكَروه بِمِثل لفظه وإن كان مُخالِفاً له في معناه)) اهـ .

[١٥] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهِرُ فَوْقَ عِباده ﴾ [الأنعام : ١٨] .

إن اللهَ تعالى هو القاهرُ المسيطِر على كُل شيء . وهو تعالى فَوْقَ كُلِّ شيء فَوْقِيَّة القَهْر والجبروت والهيْمنة ، ولا شيء فَوْقَه . أي إن عباده تحت قُدرته ، وخاضعون لعَظَمته ، لا فَوْقِيَّة المكان ، لأن اللهَ تعالى مُنَزَّه عن المكان . كما نقول : إن الحاكم فَوْق الشَّعب ، أي فَوْقِيَّة السُّلطة والقوة والنفوذ .

قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٧٢): ((أي وهو الذي خَضعت له الرِّقاب ، وذَلَّت له الجبابرة ، وَعَنَت له الوجوه ، وقَهَرَ كُلَّ شيء، وَدَانت له الخلائق ، وتواضعت لِعَظَمة جلاله

وكبريائه وعَظَمته وعُلُوِّه وقُدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يَدَيه ، وتحت قَهْره وحُكمه)) اهـ .

قال ابن شيخ الحزاميين في صفات الرَّب (١/ ٣٠) : ((لأن فَوْقِيَّته _ سبحانه وتعالى _ وعُلُوَّه على كل شيء ذاتِيٌّ له ، فهو العَلِيُّ بالذات)) اهـ .

كلمة " بالذات " لم تَرِد في القرآن والسُّنة ولا كلام السلف ولا كلام الخَلَف . وهي زيادة مرفوضة لأنها تُثبِت مكاناً لله سبحانه . وإذا كان اللهُ عَلِيّاً بالذات ، فهذا يَعني أنه سبحانه محصور في مكانٍ مُحدَّد ، ومحصور في جهة مُعيَّنة (حيِّز مُعيَّن) ، وهذه من صفات الأجسام . واللهُ تعالى لَيْس جِسماً ، وهو سبحانه موجود قبل المكان وقبل الزمان .

[١٦] قال اللهُ تعالى : ﴿ إِلَيْه يَصْعد الكَلِمُ الطَّيِّب ﴾ [فاطر : ١٠] .

إلى اللهِ يَصعد الكَلِمُ الطَّيب الذي هو ذِكْر العبد لربِّه سبحانه . وصعودُ الذِّكر يدل على القَبول . وهذه الآيةُ لا تعني أن اللهَ حَالٌّ في السماء ، أو أن العَرشَ مكانٌ له سبحانه .

قال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٢٨٦) : ((ضَرب صُعوده مَثلاً لقبوله ، لأن موضع الثواب فوق ، وموضع العذاب أسفل . وقال الزَّجاج : يُقال : ارتفع الأمرُ إلى القاضي ، أي عَلِمه فهو بمعنى العِلم ، وخُصَّ الكلام الطَّيب بالذِّكر لبيان الثواب عليه . وقوله : ﴿ إِلَيْه ﴾ ، أي إلى الله يَصعد ، وقيل : يَصعد إلى سمائه ، والمحل الذي لا يَجري فيه لأحدٍ غَيْرِه حُكم)) اهـ .

وقد أخطأ مَن قال إن قَوْله تعالى : ﴿ إِلَيْه يَصْعد الكَلِمُ الطَّيِّب ﴾ دليلٌ على إثبات الجهة . فالغايةُ هنا لَيْست غاية المكان ، بل هي غاية انتهاء الأمور إليه سبحانه . كما قال الله تعالى : ﴿ ألا إلى اللهِ تَصيرُ الأمورُ ﴾ [الشُّورى : ٥٣] . وكما قال النبيُّ إبراهيم ﷺ : ﴿ إني ذاهب إلى ربِّي ﴾ [الصافات : ٩٩] .

وعن ابن مسعود _ رضي الله عنه _ قال : ((إذا حَدَّثْناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله: إن العبد إذا قال : سُبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله ، قَبَضَ عليهنَّ مَلَكٌ فَضَمَّهُنَّ تحت جَناحه ، وصَعد بهنَّ لا يمرُّ بهنَّ على جَمْع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهنَّ ، حتى يجيء بهنَّ وَجْهَ الرحمن)) ، ثم تلا عبد الله: ﴿ إِلَيْه يَصْعد الكَلِمُ الطَّيِّب﴾ (238) .

(٢٣٨) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٤٦١) برقم (٣٥٨٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

وقال ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٥٧و١٥٨) : ((باب الحد والعرش . وادَّعى المعارِض أنه ليس لله حَد ، ولا غاية ، ولا نهاية ، قال : وهذا هو الأصل الذي بَنى عليه جَهْم جميع ضلالاته ، واشتق منها أغلوطاته ، وهي كلمة لم يَبْلغنا أنه سَبق جَهْماً إليها أحد من العالَمين ، فقال له قائل مِمَّن يحاوره: قد علمتُ مُرادك أيها الأعجمي،تعني أن الله لا شيء، لأن الخلقَ كلهم عَلِموا أنه ليس شيء يقع عليه اسم الشيء إلا وله حَد وغاية وصفة ، وأن لا شيء لَيْس له حَد ولا غاية

ولا صفة . فالشيء أبداً مَوصوف لا محالة ، ولا شيء يُوصَف بلا حَد ولا غاية . وقَوْلُك : لا حَد له تعني أنه لا شيء . قال أبو سعيد: والله تعالى له حَد لا يَعْلمه غَيْرُه ، ولا يجوز لأحد أن يتوهَّم لِحَدِّه غاية في نفْسه ، ولكن نؤمن بالْحَد ، ونَكِل عِلْمَ ذلك إلى الله ، ولمكانه أيضاً حَد ، وهو على عرشه فوق سماواته . فهذان حَدَّان اثنان . قال : وسُئل ابن المبارك : بِمَ نَعرف رَبَّنا ، قال بأنه على عرشه بائن مِن خَلقه . قيل : بِحَد . قال : بِحَد . حَدَّثناه الحسن بن الصباح البَزَّار عن علي ابن الحسن بن شقيق عن ابن المبارك قال : فَمَن ادَّعى أن لَيْس لله حَد فقد رَدَّ القرآنَ ، وادعى أنه لا شيء ، لأن الله تعالى وَصَفَ حَدَّ مكانه في مواضع كثيرة مِن كتابه ، فقال : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ . ﴿ أَأَمِنتم مَن في السماء ﴾ ... فهذا كُلُّه وما أشبهه شواهد ودلائل على الْحَد ، وَمَن لَم يعترف به فقد كَفر بِتَنْزيل الله ، وجَحَدَ آياتِ الله)) اهـ .

هذا الكلامُ الخطيرُ لنا معه وقفات :

أ) إن اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن الحَد والغاية والنهاية . فاللهُ أكبرُ من كُل شيء . ولو كان سبحانه له حَد أو غاية أو نهاية لكانَ جِسماً مقهوراً ومحصوراً في حَيِّز الزمان والمكانِ . واللهُ تعالى يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْله شَيء ﴾ [الشُّورى :١١] . واللهُ هو الأوَّل فليسَ قَبْلَه شيء ، وهو الآخِر فليسَ بَعْدَه شيء ، لا بداية له ولا نهاية. ولو كان للهِ بداية أو نهاية لكانَ محصوراً في نطاق زمني ، ولكانَ خاضعاً لحركة الزمن . واللهُ أكبر مِن كُل شيء ، وهو خالق الزمان والمكان ، فلا يُعقَل أن يَخضع الخالقُ لمخلوقاته. وابنُ تيمية يَزعم أنه ملتزم بالكتاب والسُّنة وأقوال السلف، فمِن أينَ جاء بهذه الألفاظ: الحَد ، الغاية ، النهاية ؟! . هل وَردت في القرآن والسُّنة ؟! . ومعلومٌ أننا لا نَصِفُ اللهَ تعالى إلا بما وَصَفَ به ذاتَه العَلِيَّة ، أو وَصَفه به رسولُه ﷺ . كما أننا لا نُثبِت صِفةً للهِ إلا بِنَص

قَطعي الوُرود (القرآن والسُّنة المتواترة) وقَطعي الدلالة . فهذه عقيدةٌ ، وينبغي أن تُبنَى على قَطعيات لا يتسلل إليه الوَهم أو الاحتمال أو الشَّك .

ب) لا يجوز وصفُ اللهِ تعالى بأنه شيء . فاللهُ تعالى لَيْسَ شيئاً بدليل قَوْله تعالى : ﴿ قُل اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيء ﴾ [الرعد : ١٦] . إذن ، كُل شيء مخلوق ، وبما أن اللهَ تعالى هو الخالق وليس مخلوقاً، فهو سبحانه ليس شيئاً. فلوْ كان شيئاً لكانَ مخلوقاً، وهذ مُحال. وبالتالي ، فصفاتُ الأشياء المخلوقة كالحَد والغاية والنهاية لا يَجوز إطلاقها على الله تعالى ، لأن اللهَ سبحانه ليس جِسماً ولا

شَيئاً ، ولا يَعْرف اللهَ إلا الله . وكُلُّ ما في بالِك ، فاللهُ بِخِلاف ذلك .

ج) اللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن المكان . ولو كان له سبحانه مكان لكانَ محصوراً في هذا المكان ، ولكانَ المكانُ محتوياً على الله وأكبر من الله . وَلَكانَ اللهُ تعالى يَحُلُّ في خَلْقه (المكان) . وهذا لا يقول به مُسْلم . فاللهُ أكبر مِن كُل شيء . واللهُ سبحانه كان موجوداً ولا شيء ، فلم يكن عرش ولا سماوات ولا مكان ولا زمان . وفي صحيح البخاري (٣/ ١١٦٦) أن النبيَّ ﷺ قال : ((كان اللهُ ولم يَكن شَيْءٌ غَيْرُه)). فأينَ كان اللهُ قبل خلق العرش ؟، وأينَ كان الله قبل خلق السماوات؟. وأينَ كان اللهُ قبل خلق المكان والزمان ؟. كانَ اللهُ ولا شيء، وهو الآن كما كانَ (يُغيِّر ولا يَتغيَّر، لأن التغيُّر من صفات الحوادث المخلوقة) ، وهو سُبحانه الآن حَيث كان (بلا مكان) .

د) ونحن نقول : مَن قال إن لله حَدَّاً أو مكاناً فقد كفرَ ، وسبقَ أن شَرَحْنا هذه القضية . أمَّا قَوْلُ الله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ ، وقَوْله سبحانه : ﴿ أَأَمِنتم مَن في السماء ﴾ فلا يعني إثبات مكان لله تعالى . ومَن أثبتَ مكاناً لله تعالى أخْذاً بظواهر الآيات فقد خالفَ السلفَ والخَلَف معاً ، واعتمد على هواه .

هـ) نحن لا نأخذ عقيدتنا من أقوال الرجال سَواءٌ ثَبَتَ النقلُ عنهم أَم لم يَثْبُت . وإنما نأخذها من القرآن والسُّنة المتواترة . وكُلُّ إنسان يُؤخَذ مِنه ويُرَدُّ عليه إلا النبيَّ ﷺ . والعِصمةُ للحق لا أقوال الرجال . اعرف الحقَّ تعرفْ أهلَه . وقد قال ابن الجوزي عن إحدى المسائل في كتابه تلبيس إبليس (ص ١٧١) : ((وقد قِيل لأحمد بن حنبل ـــ رحمة الله عليه ـــ إن ابن المبارك يقول كذا وكذا ، فقال : إن ابنَ المبارَك لم يَنْزل مِن السماء)) اهـ .

هذا هو الفهمُ الدقيق للإمام أحمد الذي يُدرِك أن الرجال يُعرَفون بالحق ، والحقُّ لا يُعرَف بالرجال ، والعِصمةُ للأنبياء وَحْدَهم. هذا هو فهم الإمام أحمد الذي لَوَّثَ مُجسِّمةُ الحنابلة سُمعته، وأهانوا مذهبَه بعد أن أَدْخلوا فيه عقائد التجسيم التي اخترعوها من بنات أفكارهم .

[١٧]قال اللهُ تعالى:﴿ إذ قالَ اللهُ يا عِيسى إنِّي مُتَوَفِّيكَ ورافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥].

بَعضُ الجهَّال يَفهم مِن هذه الآية أن اللهَ رَفَعَ عيسى ﷺ إلى السماء التي يَحُلُّ فيها اللهُ تعالى . وهذا الفهمُ المنحرف جاءَ من إيمانهم بأن السماء هي مكان لله تعالى ، وقد رَفع اللهُ سبحانه رسولَه عيسى ﷺ إلى مكانه تعالى . وهذا انحرافٌ واضح . وقد سبقَ أن شَرحنا قضية تَنْزيه الله عن المكان. ولو كانَ اللهُ موجوداً بذاته في السماء ، أو موجوداً بذاته على العَرش ، لكانَ محصوراً في مكانٍ وَجِهةٍ،وخاضعاً لظروف المكان ومقهوراً في حَيِّز مُحدَّد. وهذا يتعارض بالكُلِّية مع عَظَمة الله تعالى، فهو أكبرُ مِن كُل شيء ، وفوقَ كُل شيء ، فَوْقِيَّة القهر والجبروت والْهَيْمنة . ولوْ كان اللهُ يَحُلُّ في السماء لَكَانت السماء أكبر من اللهِ ، وبالتالي لا معنى لِقَوْلنا : اللهُ أكبر . وهذا باطل .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٥٤) : ((إلى مَحَل كرامتي ومَقر ملائكتي)) اهـ .

[١٨] قال اللهُ تعالى : ﴿ أَأَمِنتم مَن في السماء ﴾ [الْمُلْك : ١٦].

إن اللهَ تعالى في السماء، بمعنى أنه العَلِيُّ الكبيرُ الذي قَهر المخلوقاتِ ، وعَلا فَوْقَها فَوْقِيَّة المكانة لا المكان . أمَّا اعتقاد أن اللهَ حالٌّ في السماء، فهذه عقيدة كُفرية ، لأنها تعني أن السماء أكبر من الله تعالى ، وأنها محتوية عليه سُبحانه . واللهُ أكبر مِن كُل شيء ، وقاهرٌ لكل شيء . واعتقادُ أن الله تعالى في جهة العُلُو بذاته عقيدةٌ كُفرية لأنها تعني أن الله محصور في نطاق ضيِّق . واللهُ أكبر من الأمكنة والأزمنة . واللهُ تعالى كان موجوداً ولا شيء معه . فالخالقُ قديم ، والمخلوقات حوادث وُجِدَتْ بعد إذ لَم تَكُنْ .

قال السُّيوطي في تنوير الحوالك (١/ ١٤٠) : ((وقال الباجي : ... يُقال : مكان فلان في السَّماء : يعني عُلُو حاله ورِفعته وشَرفه)) اهـ .

أمَّا الذين يَأخذون بظواهر النصوص ، فنسألهم : ماذا تقولون في قَوْله تعالى : ﴿ أَأَمِنتم مَن في السماء ﴾ [الْمُلْك : ١٦]. وقَوْله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللهُ في السَّماواتِ وفي الأرضِ ﴾ [الأنعام : ٣]. فهل اللهُ تعالى في السماء حقيقة أَم في السماوات أَم في الأرض ؟! . وإذا أردتُم إثبات مكان لله تعالى ، فلماذا لا تُثبِتون مكان الله سبحانه بين العبد والقِبلة أخْذاً بظاهر الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٥٩): عن أنس ــ رضي الله عنه ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إنَّ أحَدَكم

إذا قام في صلاته فإنه يُناجي رَبَّه _ أو إن رَبَّه بَيْنَه وبين القِبلة_ فلا يَبْزُقَنَّ أحَدُكم قِبَل قِبلته ولكن عن يساره أو تحت قَدَمَيْه)) ؟! .

قال الحِصني في دفع شُبه مَن شبَّه وتمرد (١/ ٨) : ((ومن التناقض الواضح في دعواهم في قَوْله تعالى : ﴿ الرَّحْمنُ عَلى العَرْش استوى ﴾ [طه : ٥] أنه مُسْتَقِر على العرش مع قَوْلهم في قَوْله تعالى : ﴿ أَأَمِنتم مَن في السماء ﴾ [الْمُلْك : ١٦] ، إنَّ مَن قال إنه ليس في السماء فهو كافر ، ومِنَ الْمُحال أن يكون الشيء الواحد في حَيِّزَيْن في آنٍ واحد)) اهـ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ٢٤ و٢٥) : ((قال القاضي عِياض : لا خِلاف بين المسلمين قاطبة ، فقيههم ومُحدِّثهم ومُتكلِّمهم ونَظَّارهم ومُقلِّدهم أن الظواهر الواردة بِذِكْر الله تعالى في السماء ... ليست على ظاهرها ، بل مُتأوَّلة عند جميعهم . فمن قال بإثبات جِهة فَوْق مِن غَير تحديد، ولا تكييف مِن المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين تأوَّل في السماء، أي على السماء. ومَن قال مِن دهماء النُّظار والمتكلِّمين وأصحاب التَّنْزيه بنفي الحد واستحالة الجهة في حَقِّه سُبحانه وتعالى تأوَّلوها تأويلات بِحَسَب مُقتضاها)) اهـ .

إن العقيدة القائلة بأن الله موجود وحالٌّ في السماء عقيدة وثنية جاهلية متخلفة ، وللأسف فإن بعض المجسِّمة الذين يُسَمُّون أنفسهم مسلمين يقولون بها ، ويُنافحون عنها بكل ما أُوتوا من قوة وجدل . قال اللهُ تعالى مُبَيِّناً هذه العقيدة الباطلة ورادّاً عليها : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٦و ٣٧]. فها هو فرعون يعتقد أن الله تعالى حالٌّ في السماء ، لذا حاول _ بزعمه _ أن يصعد إليه ، والله تعالى سَمَّى هذا العمل المستنِد إلى عقيدة باطلة سيئاً، وقال إن هذا العمل السَّيئ زُيِّنَ لفرعون ، وصُد عن السبيل.

[١٩] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَاللهُ مَعَكم ﴾ [مُحمَّد : ٣٥].

لا يُوجد عاقلٌ يعتقد أن الله معنا بذاته _سبحانه وتعالى_ . ومعنى الآية : أن الله مع المؤمنين بالنصر والتأييد . قال القرطبي في تفسيره (١٦/ ٢١٧) : ((أي بالنصر والمعونة)) اهـ .

وقال ابن تيمية في دَرء التعارض (٣/ ١٧٨) : ((كلام آخر للإمام أحمد عن الْمَعِيَّة ... في النصر لكم على عدوكم)) اهـ .

ولا يخفَى أن هذا تأويلٌ للآية ، وصَرْفٌ لها إلى غَير ظاهرها . وهو تأويلٌ مُعْتَمَد شَرْعاً ولُغةً .

[٢٠] قال اللهُ تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكم أينما كُنتم ﴾ [الحديد : ٤].

والْمَعِيَّةُ هنا هي مَعِيَّةُ العِلْم والقُدرة والإحاطة لا المكان . فاللهُ تعالى معنا بعِلْمه لا بذاته . فالْمَعِيَّةُ بالذات تَعني أن اللهَ موجود معنا بذاته عندما نَدخل الأماكن القذرة كالخلاء وغَيْره . وهذا لا يَقول به مُسْلم . وإضافةُ مَعِيَّة القُرب بالمسافة إلى اللهِ مُحالٌ ، لأن اللهَ مُنَزَّه عن المكان والزمان . وهكذا ، وَجب تأويلُ الآية ، وصَرْفُها عن ظاهرها .

قال أبو السعود في تفسيره (٨/ ٢٠٤) : ((تمثيل لإحاطة عِلْمه تعالى بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما داروا)) اهـ . وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٥/ ١٩١) : ((وقال يحيى بن عثمان في رسالته : لا نقول كما قالت الجهمية : إنه بداخل الأمكنة ومُمَازِج كل شيء ، ولا نعلم أين هُوَ ، بل نقول : هو بذاته على عَرْشه ، وعِلْمُه مُحيط بكل شيء وسَمْعُه وبَصَرُه ، وقُدرتُه مُدرِكة لكل شيء ، وهو معنى قَوْله : ﴿ وَهُوَ مَعَكم أينما كُنتم ﴾)) اهـ .

وهذا الكلام لنا مع وقفات :

أ) يحيى بن عثمان لم يَنْزل من السماء ، وهو غير معصوم .

ب) اللهُ مُنَزَّه عن المكان والزمان . كان اللهُ قبل خلق المكان والزمانِ . وهو الآن حيثُ كان . اللهُ موجود بلا مكان ، ولا يقال أين ، فالذي خَلَقَ الأينَ ، لا يُعقَل أن يُحصَر بالأين . فالخالقُ لا يَخضع للمخلوق . بل المخلوق يخضع للخالق سُبحانه .

ج) العِبارة " بل نقول : هو بذاته على عَرْشه " ، عبارة مرفوضة لأنها مُخالِفة للقرآن والسُّنة وأقوال علماء المسلمين سَلَفاً وخَلَفاً . فكلمة " بذاته " لم تَرِدْ في القرآن والسُّنة . ولا يَجوز وَصْفُ اللهِ تعالى إلا بِنَص شَرْعِيٍّ (قَطْعي الورود وقَطْعي الدلالة) .

ولندرس الأحاديث النبوية في موضوع الْمُتشابِه :

[١] روى مسلم في صحيحه(٢/ ٦١٥): قال أنس: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطرٌ . قال : فَحَسَرَ رسولُ الله ﷺ ثَوْبَه حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسولَ الله لِمَ صَنعتَ هذا ؟، قال : ((لأنَّه حَديثُ عَهْدٍ بربِّه تعالى)) .

بعضُ الناس يَعتقد أن المطرَ كان موجوداً عند الله تعالى الموجود في السماء ، ثم نزلَ . وبذلك يكون حديثَ عَهْدٍ بربِّه . أي : فارقَ ربَّه سُبحانه منذ مدة بسيطة . وهذا المعنى باطل . والمعنى : أن المطرَ قريبُ العهد بتكوين ربِّه ـ سُبحانه وتعالى ـ .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ١٩٥) : ((ومعنى " حديث عهد بربِّه"، أي : بتكوين رَبِّه إيَّاه . ومعناه : أن المطر رحمة وهي قريبة العهد بِخَلْق الله تعالى لها، فَيُتَبَرَّك بها)) اهـ .

[٢] روى البخاري في صحيحه (٦/ ٢٦٩٩): أن السيدة زينب بنت جحش _ رضي الله عنها _ كانت تَفْخر على أزواج النبيِّ ﷺ تقول : ((زَوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ ، وزوَّجني اللهُ تعالى مِن فَوْق سَبْع سماوات)) .

البعضُ يَحرص على إثبات مكان لله تعالى ، وهُم يَستدلون بهذا الحديث على أن الله تعالى مَوْجود فوق السماوات السبع . ونحن نقول إن اللهَ تعالى مُنَزَّه عن المكان ، وهو سبحانه فَوْق كُل شيء ، وهذه الفَوْقِيَّة فَوْقِيَّة القهر والعَظَمة وعُلُو المكانة لا المكان. ولَيْست فَوْقِيَّة التحديد في جهة ، أو الحلول في المكان ، لأن المكان مخلوق ، واللهُ تعالى لا يَحُلُّ في شيء مِن خَلْقه. ليس في مخلوقاته شيء مِن ذاته ، ولا في ذاته شيء مِن مخلوقاته . إنهُ سبحانه فوق كُل شيء ، وليس فَوْقَه شيء .

ونحن نسأل: ما هي الميِّزة للسيدة زينب بنت جحش _ رضي الله عنها _ ؟. الميِّزةُ أن تزويجها مذكور في القرآن الكريم ، وأن قضيَّتها نَزل بها وَحْيٌ يُتلَى . وبالتالي ، فقد نَزَلَ تزويجها مِن فَوْق .

وقال الحافظ في الفتح (٧/ ٤١٣) أن السُّهَيلي قال : ((ولا يستحيل وَصْفه تعالى بالفَوْق على المعنى الذي يليق بجلاله ، لا على المعنى الذي يَسبق إلى الوهم من التحديد الذي يُفضي إلى التشبيه)) اهـ .

[٣] روى البخاري في صحيحه (٦/ ٢٧٠٦) أن اللهَ تعالى يومَ القيامة يَكشف عن سَاقه .

إن اللهَ تعالى مُنَزَّه عن الجوارح والأعضاء والأجزاء ، ومُنَزَّه عن أن يَكشف ويَتغطى. والجوارح والأعضاء مُكوَّنة من أجزاء تَحتاج بعضُها بَعضاً ، كما أن الجوارح والأعضاء من خصائص المخلوقين العاجزين الذي يَحتاجون إلى وسائل لتسهيل حياتهم . واللهُ غنيٌّ عن كُل شيء ، وكلُّ شيء فقير إليه . فلا يحتاج يداً لكي يَبطش بها ، ولا يحتاج ساقاً أو رِجْلاً لكي يقوم بأعماله . فالخالقُ العظيم لا يحتاج شيئاً .

والمعنى أن اللهَ تعالى يَكشف عن العظيم مِن أمره أو شِدَّته . وقد أُضيفت الساق إليه ، لأن الكُلَّ له وفِعْلُه. وفي تفسير القرطبي (١٨/ ٢١٦): ((وقال أبو عُبَيدة: إذا اشتدَّ الحربُ والأمر

، قيل : كَشَفَ الأمرُ عن ساقه ، والأصل فيه أن مَن وَقَعَ في شيء يحتاج فيه إلى الجِد، شَمَّر عن سَاقه فاسْتُعير الساق والكشف عنها في موضع الشِّدة)) اهـ .

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (٢/ ١٠٣٦) : ((في حديث القيامة [يَكْشِفُ عن سَاقه] الساقُ في اللغة الأمرُ الشديدُ . وكشْفُ الساق مَثَلٌ في شِدَّة الأمْر كما يقال للأقْطَع الشَّحيح : يَدُه مغْلولة ... وإنما هو مَثَلٌ في شِدَّة البُخْل . وكذلك هذا، لا سَاق هُناكَ ولا كَشْف . وأصلُه أنَّ الإنسان إذا وقَع في أمْرٍ شديد يقال: شَمَّر عن ساعِده وكشَف عن سَاقِه للاهْتمام بذلك الأمْر العظيم)) اهـ .

[٤] عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسولَ الله ﷺ قال : ((يَضحك اللهُ إلى رَجُلَيْنِ يَقتل أحَدُهُما الآخَرَ يَدخلان الجنة))(239).

الضحكُ المعروفُ (كما يقوم به البشر) لا يَجوز في حَقِّ الله تعالى ، فهذا الضحكُ من خصائص الأجسام ، ويَشتمل على تغيُّرات . واللهُ مُنَزَّه عن ذلك ، وهو سبحانه يُغيِّر ولا يَتغيَّر .

والمرادُ بالضحك هنا الرِّضا بفِعْلهما ، ومَنْحهما الأَجْر ، وكناية عن القبول والثواب العظيم المتمثِّل بالجنة .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠) : ((قال الخطابي : الضحك الذي يَعتري البشر عندما يستخفهم الفرح أو الطرب غير جائز على الله تعالى ، وإنما هذا مَثَل ضُرب لهذا الصنيع الذي يَحُلُّ محل الإعجاب عند البشر ، فإذا رَأَوْه أضحكهم ، ومعناه : الإخبار عن رضا الله بفعل أحدهما ، وقبوله للآخر ، ومجازاتهما على صنيعهما بالجنة ، مع اختلاف حالَيْهما . قال : وقد تأوَّل البخاري الضحك في موضع آخر على معنى الرحمة ، وهو قريب . وتأويله على معنى الرضا أقرب ، فإن الضحك يدل على الرضا والقبول ، قال : والكرام يُوصَفون عندما يسألهم السائل بالبِشْر وحُسن اللقاء فيكون المعنى في قوله : ((يَضحك الله)) أي يُجْزِل العطاءَ ، قال : وقد يكون معنى ذلك أن يُعجِب اللهُ ملائكته ويُضحكهم مِن صنيعهما ، وهذا يتخرج على المجاز ، ومِثْله في الكلام يَكثر . وقال ابن الجوزي : أكثر السلف يمتنعون من تأويل مِثْل هذا ويُمِرُّونه كما

---

(٢٣٩) متفق عليه. البخاري (٣/ ١٠٤٠)برقم (٢٦٧١) ، ومسلم (٣/ ١٥٠٤) برقم (١٨٩٠). وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٣٦) : ((يُقاتِل هذا في سبيل الله ، فَيَسْتَشْهِد ، ثم يتوب اللهُ على القاتل فَيُسْلِم ، فَيُقاتِل في سبيل الله فَيَسْتشهد)) اهـ .

جاء ، وينبغي أن يُراعى في مثل هذا الإمرار اعتقاد أنه لا تُشبِه صفاتُ الله صفاتِ الخلق . ومعنى الإمرار عدم العِلم بالمراد منه معَ اعتقاد التَّنْزيه . قلتُ : ويدل على أن المراد بالضحك الإقبال بالرِّضا تعديته بإلى . تقول : ضحك فلان إلى فلان ، إذا توجَّه إليه طَلْق الوجه مُظهِراً للرِّضا عنه)) اهـ .

[٥] حديث الجارية . روى مسلم في صحيحه (١/ ٣٨١) أن النبيَّ ﷺ قال لجارية معاوية ابن الْحَكَم السُّلَمِيِّ : ((أيْنَ الله ؟)) ، قالت : في السماء . قال : ((مَن أنا ؟)) ، قالت : أنتَ رسول الله ، قال : ((أَعْتِقْها فإنها مؤمنة)) .

هذا الحديثُ حالةٌ خاصة لا يجوز تعميمها ، لعِدَّة أسباب :

أ) لم يُعرَف عن النبيِّ ﷺ وأصحابه استخدام عِبارة " أينَ الله ؟ ". ولو كانت هذه العِبارة ذات وجود في الدِّين الإسلامي لانتشرتْ بصورة كبيرة، وفشا استخدامها بين الناس، ولَذَكَرها النبيُّ ﷺ في شتى الحالاتِ والمواقف ، خصوصاً أمام الذين يُريدون الإسلام . وهذا لم يُعهَد عنه ﷺ .

ب) من المعلوم لكل مُسْلم سَواءٌ كان عالِماً أَم جاهلاً ، أن دخول الإسلام إنما يكون بنُطق الشَّهادتَيْن لا باعتقاد أن الله في السماء . ومن المعلوم أن الشخص لا يُحكَم بإسلامه بمجرَّد اعتقاد أن الله في السماء . وهذه حقيقة بَدَهية يَعرفها الصغير والكبير .

ج) سؤالُ النبيِّ ﷺ وإقرار جوابها يُشعِران بالجِهة . لكننا نقول إنها ظواهر ظَنِّية لا تتعارض مع القَطْعِيَّات . ومهما تعارضَ دليلان ظاهرياً ، وَجَبَ الجمعُ بينهما ، ورَدُّ الْمُتشابِه إلى الْمُحْكَم ، والظَنِّي إلى اليقيني .

د) لا بد من استحضار القواعد العَقَدية الأساسية ، وهي : كان اللهُ ولا شيء معه . كان اللهُ ولا أيْن ، وهو الآن حيث كان ، وهو الآن كما كان . كان اللهُ ولا سماء ولا عَرْش . وقد تقرَّر أن الله تعالى ليس جِسماً ، فلا يَحتاج إلى مكان يَستقر فيه . فقد كان اللهُ ولا مكان .

هـ) قَوْلُها " في السماء " تعبير عن الجلال والعَظَمة وعُلُوِّ المكانة لا المكان . فاللهُ في السماء ، يعني أن اللهَ هو العَلِيُّ الأعلى الذي له المجد والرِّفعة ، ولا يعني أن اللهَ حالٌّ في السماء . ونحن عندما نَرفع أيدينا إلى السماء ، فلأنها قِبْلة الدعاء ، وليس لأنها مكان لله تعالى .

والسؤالُ الذي يَطرح نفْسه : كيفَ حَكم النبيُّ ﷺ بإيمانها بمجرَّد اعتقادها أن الله في السماء مع أنها لم تَنطق الشهادَتَيْن (مفتاح الدخول إلى الإسلام) ؟ .

نحن نَجْزم أن النبيَّ ﷺ رأى من الجارية أمارةَ الإسلام ، وأدركَ أنها من المسلمين . وكان السؤالُ ((أيْنَ الله ؟)) من أجل اختبارها ، والاطمئنان على صحة عقيدتها وتوحيدها ، وأنها تَعبد اللهَ العَلِيَّ الأعلى ، ولا تُشرِك به شيئاً من الأصنام الحجريةِ ، والأوثانِ الأرضية .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٥/ ٢٤) : ((هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيها مذهبان تقدَّم ذِكْرهما مَرَّات في كتاب الإيمان . أحدهما : الإيمان به مِن غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالى ليس كَمِثْله شيء ، وتَنْزيهه عن سِمات المخلوقات . والثاني : تأويله بما يليق به . فمن قال بهذا قال : كان المراد امتحانها هل هي مُوحِّدة تُقِرُّ بأن الخالق الْمُدبِّر الفعَّال هو الله وَحْدَه ، وهو الذي إذا دعاه الدَّاعي استقبل السماءَ ، كما إذا صلى المصلِّي استقبلَ الكعبةَ، وليس ذلك لأنه منحصر في السماء كما أنه ليس منحصراً في جهة الكعبة ، بل ذلك لأن السماء قِبلة الداعين كما أن الكعبة قِبلة المصلِّين ، أو هي مِن عبدة الأوثان العابدين للأوثان التي بين أيديهم ، فلما قالت : (في السماء) عَلِم أنها مُوحِّدة ، ولَيستْ عابدةً للأوثان)) اهـ .

[٦] روى البخاري في صحيحه(٣/ ١٠٩٦) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: ((عَجِبَ اللهُ مِن قَوْم يَدخلون الجنةَ في السلاسل)) .

المرادُ بالعَجَب من الله تعالى رِضاه . أي : رَضِيَ مِنهم ، وعَظُمَ شأنُهم عِندَه سُبحانه .

قال الحافظ في الفتح (٦/ ١٤٥) : ((وأن معناه الرضا)) اهـ .

وفي دفع شُبه مَن شَبَّه وتمرَّد (١/ ١٣) : ((قال الأئمة : لأن العَجَب إنما يكون مِن شيء يَدهم الإنسانَ فيستعظمه مما لا يَعلمه، وذلك إنما يكون في المخلوق ، وأمَّا الخالق فلا يليق به ذلك، فمعناه عَظُمَ قَدْرُ ذلك الشيء عنده ، لأن المتعجِّب من الشيء يَعْظُم قَدْرُه عِندَه)) اهـ .

[٧] روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٩٩) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((للهُ أشدُّ فَرَحاً بتوبة أحدكم مِن أحدكم بِضَالَّته إذا وجدها)) .

والفرحُ المعروف المنبثق من انفعال المشاعر ، والتأثر بالأجواء المحيطة ، وحدوث تغيُّرات في الحالة ، لا يَجوز إطلاقُه في حَقِّ الله تعالى . فيكون معنى الفرح في الحديث : القُبول والرِّضا.

قال الحافظ في الفتح (١١/ ١٠٦): ((وإطلاق الفرح في حق الله مجاز عن رِضاه ...)) .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٦٠) : ((قال العلماء : فَرَحُ الله تعالى هو رضاه . وقال المازري : الفرحُ ينقسم على وجوه ، مِنها السرور ، والسرور يقاربه الرضا بالمسرور

به . قال : فالمراد هنا أن الله تعالى يَرضى توبة عبده أشد مما يرضى واجدُ ضالته بالفلاة ، فعبَّر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا في نفْس السامع ، ومُبالَغةً في تقريره)) اهـ .

[٨] روى مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٥٨) أن النبيَّ ﷺ قال : ((إن الْمُقسِطين عند الله على منابر مِن نور عن يمين الرحمن _ عَزَّ وجَل _ ، وكِلتا يَدَيْه يمين)) .

إن اللهَ تعالى مُتَّصف بصفات الكمال ، فهو سبحانه لا يَطرأ عليه العَجز ،ولا يُصيبه النَّقص . والشِّمالُ دائماً تَرمز إلى الضعف والعجز والمعاني السَّيئة.لذلك قال النبيُّ ﷺ: ((وكِلتا يَدَيْه يمين)) لإثبات الكمال الإلهيِّ ، ونَفْي النَّقص عن الله تعالى ، فلا يَتوهَّم أحدٌ وجودَ نقص في صفته سبحانه. كما أن قَوْل النبيِّ ﷺ يشير إلى نَفْي الجارحة (العُضْو) عن الله تعالى .

ولو كان اللهُ تعالى له يَدان (جارحتان) ، لكانَ من غير المعقول أن كِلْتَي يَدَيه يمين . إذن، فالمعنى : أن اللهَ تعالى مُتَّصف بالكمال المطْلق ، وبما أن الشِّمال رمزٌ للنقص كان اللهُ تعالى مُنَزَّهاً عنها .

قال القرطبي في التذكرة (١/ ١٩٤) : ((وأمَّا قوله: كِلتا يديه يمين ، فإنه أراد بذلك التمام والكمال ، وكانت العربُ تحبُّ التَّيامُن ، وتَكره التَّيَاسُر لِمَا في التياسر من النقصان ، وفي التيامن من التَّمام)) اهـ .

[٩]عن السيدة عائشة_رضي الله عنها_أن النبيَّ ﷺ قال:((فإن اللهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا))[240].

إنَّ الْمَلَلَ مُحالٌ في حَقِّ الله تعالى . فالْمَلَلُ ثِقْل الشيء على الإنسان ، والسآمة منه . وهذا المعنى يتضمن النقص والضعف ، واللهُ مُنَزَّه عن كُل صفات النقص والضعف .

ومعنى الحديث: أن اللهَ تعالى لا يَترك الأجرَ والثوابَ حتى تتركوا العملَ. فعبَّر عن الترك بالملل. ويمكن القول : إن اللهَ تعالى لا يَمَلُّ وإن مَلُّوا . فالخالقُ له صفات الكمال ، أمَّا المخلوق فناقص .

وورودُ هذه الألفاظ في الحديث يمكن اعتبارها من باب الْمُقابَلة اللفظية (الْمُشاكَلة) ، وهي من أبواب الفصاحة . وقد سبقَ أن وضَّحنا المراد بها في مَوْضع سابق ، فانظرْه هناك .

---

(٢٤٠) متفق عليه . البخاري (٢/ ٦٩٥) برقم (١٨٦٩) ، ومسلم (١/ ٥٤٠) برقم (٧٨٢) .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٦/ ٧١) : ((قال العلماء : الملل والسآمة بالمعنى المتعارف في حَقِّنا مُحال في حق الله تعالى ، فيجب تأويل الحديث . قال المحقِّقون : معناه لا يعاملكم معاملة المالِّ فيقطع عنكم ثوابه وجزاءه وبسط فضله ورحمته حتى تقطعوا عملكم . وقيل : معناه لا يَمَلُّ إذا مَللتُم . وقاله ابن قُتَيبة وغيره وحكاه الخطابي وغيره . وأنشدوا فيه شِعراً ، قالوا : ومِثاله قَوْلهم في البليغ : فلان لا يَنقطع حتى يَقطع خُصومَه ، معناه : لا ينقطع إذا انقطع خصومه ، ولو كان معناه ينقطع إذا انقطع خصومه لم يكن له فضل على غَيْره)) اهـ .

[١٠] عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال : قال النبيُّ ﷺ : ((يقول اللهُ تعالى : أنا عِندَ ظَنِّ عَبدي بي ، وأنا معه إذا ذَكَرني ، فإن ذَكَرني في نَفْسه ذكرتُه في نَفْسي ، وإن ذَكَرني في ملأ ذَكَرته في مَلأ خَير منهم ، وإن تقرَّب إِلَيَّ شِبراً ، تقرَّبتُ إليه ذِراعاً ، وإن تقرَّب إِلَيَّ ذِراعاً ، تقرَّبتُ إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيتُه هَرْولة))(241) .

هذا الحديثُ يدل على أن الله تعالى هو الكريم الأكرم، الْمُتفضِّل على عباده ، والذي لا يُوجد أكرمُ مِنه . وفي فتح الباري (١٣/ ٣٨٦) : ((والتقدير : إن ذَكَرني في نفْسه ذكرتُه بثواب لا أُطلِع عليه أحداً)) اهـ . وقال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٩٠) : ((مَن ذَكَرني في ملأ ، أي من الناس بالدعاء والتضرع ذكرتُه في ملأ ، أي من الملائكة بالرحمة والمغفرة)) اهـ .

والهرْولةُ بين المشي والعَدْو . ولا شَك ، أن اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عنها ، لأنها مشتملة على تغيرات وحركة ، وهذه من صفات الأجسام المخلوقة . واللهُ ليس جِسماً ، ولا تَطرأ عليه التغيُّرات . فتكون الهَرْولة كناية عن سُرعة إجابة الله تعالى ، وقبولِ توْبة عبده ، ورحمته به .

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ٣) : ((هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره . وقد سبق الكلام في أحاديث الصفات مرات . ومعناه : مَن تقرَّب إِلَيَّ بطاعتي تقرَّبتُ إليه برحمتي والتوفيق والإعانة . وإن زادَ زِدْتُ ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيتُه هَرْولة ، أي صَببتُ عليه الرحمةَ ، وَسَبَقْتُه بها، ولم أُحْوِجْه إلى المشي الكثير في الوصول إِلَيَّ)).

---

(٢٤١) متفق عليه. البخاري(٦/ ٢٦٩٤) برقم (٦٩٧٠) ، ومسلم (٤/ ٢٠٦١) برقم (٢٦٧٥).

[١١] روى البخاري في صحيحه (٥/ ٢٣٨٤) عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الله قال : مَن عَادَى لي وَلِيّاً فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرَّب إِلَيَّ عبدي بشيء أحبَّ إِلَيَّ مِمَّا افترضتُ عليه ، وما يزال عبدي يتقرَّب إِلَيَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه ، فإذا أحببتُه كُنتُ سَمْعَه الذي يَسمع به، وبَصَرَه الذي يُبصِر به، ويَدَهُ التي يَبطش بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها)).

لا يُوجد عاقلٌ يعتقد أن اللهَ تعالى يُصبح سَمْعاً للإنسان ، وبَصراً ، ويداً ، ورِجْلاً .

والمعنى : إن الله تعالى يَتولاه بشكل كامل ، ويُدافِع عنه ، فيُصبِح الإنسانُ عائشاً مع الله تعالى، يقوم بأوامره ، ويَجتنب نواهيه .

قال ابن دقيق العيد في شرح الأربعين النووية (١/ ١٠٠) : ((فهذه علامة وِلاية الله لمن يكون الله قد أحبَّه ، ومعنى ذلك أنه لا يَسمع ما لم يأذن الشرعُ له بسماعه، ولا يُبصِر ما لم يأذن الشرع له في إبصاره ، ولا يمد يده إلى شيء ما لم يأذن الشرع له في مَدِّها إليه ، ولا يَسعى بِرِجْلِه إلا فيما أذن الشرعُ في السَّعْي إليه)) اهـ .

[١٢] عن أبي هريرة_رضي الله عنه_عن النبيِّ ﷺ قال : ((خلق اللهُ آدمَ على صُورته))[242].

قلتُ : ووجه الإشكال لفظة " صورته " ، فمن العقائد الأساسية في الإسلام أن الله تعالى مُنَزَّه عن الصورة ، لأن الصورة تتألف مِن مُكوِّنات مُفتقِرة إلى مُصوِّر .

وهذا الحديثُ يمكن فَهْمُه كالآتي :

أ) الهاء تعود على بعض بني آدم . فعن أبي هُريرة _ رضي الله عنه_ عن النبيِّ ﷺ قال : ((لا يَقُولَنَّ أحدُكم: قَبَّح اللهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَن أَشْبَهَ وَجْهَكَ ، فإن اللهَ خَلَقَ آدم على صُورته))[243].

ب) إن الهاء تعود إلى الله تعالى، والمعنى التشريف بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿ أن طَهِّرا بَيْتِيَ للطائفين ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

---

(٢٤٢) متفق عليه. البخاري(٥/ ٢٢٩٩) برقم (٥٨٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٨٣)برقم (٢٨٤١).

(٢٤٣) رواه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ١٨) برقم (٥٧١٠) . وقال : [يُريد به على صورة الذي قِيل له : قَبَّح اللهُ وَجْهَكَ مِن ولده . والدليل على أن الخطاب لبني آدم دون غَيْرِهم. قوله ﷺ : ((ووجه مَن أشبه وجهك)) ، لأن آدم في الصورة تُشبه صورة ولده] اهـ .

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٣) : ((واخْتُلف إلى ماذا يعود الضمير ، فقيل إلى آدم، أي خَلَقَه على صورته التي استمر عليها إلى أن أُهْبِط وإلى أن مات، دفعاً لتوهُّم مَن يظن أنه لَمَّا كان في الجنة كان على صفة أخرى . أو : ابتدأ خَلْقه كما وُجد ، لم ينتقل في النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة.وقيل : للرد على الدَّهْرية أنه لم يكن إنسان إلا من نُطفة، ولا تكون نطفة إنسان إلا من إنسان ، لا أوَّل لذلك ، فبيَّن أنه خُلق من أوَّل الأمر على هذه الصورة . وقِيل : للرد على الطبائعيين الزاعمين أن الإنسان قد يكون من فعل الطبع وتأثيره،وقيل للرد على القَدَرية الزاعمين أن الإنسان يخلق فعلَ نفْسِه ، وقِيل إن لهذا الحديث سبباً حُذِفَ من هذه الرواية ، وأن أوَّله قصة الذي ضَرب عبدَه فنهاه النبيُّ ﷺ عن ذلك ، وقال له : إن الله خلق آدم على صورته ... وقِيل : الضمير لله، وتمسَّك قائل ذلك بما ورد في بعض طُرقه على صورة الرحمن، والمراد بالصُّورة الصفة ، والمعنى أن الله خلقه على صفته من العِلم والحياة والسمع والبصر وغير ذلك ، وإن كانت صفات الله تعالى لا يُشبهها شيء)) اهـ.

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦/ ١٦٦): ((وأن مِن العلماء مَن يُمسك عن تأويلها ، ويقول نؤمن بأنها حق ، وأن ظاهرها غير مُراد ، ولها معنى يليق بها ، وهذا مذهب جمهور السلف، وهو أحْوَط وأسْلَم . والثاني أنها تتأوَّل على حَسَب ما يليق بِتَنْزيه الله تعالى ، وأنه ليس كَمِثْله شيء . قال المازري : هذا الحديث بهذا اللفظ ثابت ، ورواه بعضُهم إن الله خلق آدم على صورة الرحمن (244). وليس بثابت عند أهل الحديث ، وكأن مَن نقله رواه بالمعنى الذي وقع له

(٢٤٤) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٣٠) بلفظ " لا تُقبِّحوا الوجهَ فإن ابنَ آدم خُلِقَ على صورة الرحمن تعالى " . قال الحافظ في الفتح (٥/ ١٨٣) : ((وقال حرب الكرماني في كتاب السُّنة: سمعتُ إسحاق بن راهويه يقول : صَحَّ أن الله خلق آدم على صورة الرحمن . وقال إسحاق الكَوْسَج : سمعتُ أحمد يقول : هو حديث صحيح)) اهـ . وقال العَيْني في عمدة القاري (١٣/ ١١٦) عن زيادة عبارة " صورة الرحمن" : ((أخرجها ابن أبي عاصم في السُّنة ، والطبراني من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات)) اهـ . وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٤٦) : ((هذا الحديث فيه ثلاث عِلَل ، أحدها : أن الثوري والأعمش اختلفا فيه، فأرسله الثوري، ورفعه الأعمش. والثانية : أن الأعمش كان يُدلِّس فلم يَذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت . والثالثة : أن حبيباً كان يُدلِّس فلم يُعْلَم أنه سمعه من عطاء. قلتُ : وهذه أدلة توجب وهناً في الحديث ، ثم هو محمول على إضافة الصورة إليه مُلْكاً)) اهـ . وقال

وغلط في ذلك. قال المازري : وقد غلط ابن قُتَيبة في هذا الحديث فأجراه على ظاهره وقال : لله تعالى صُورة لا كالصُّوَر، وهذا الذي قاله ظاهر الفساد، لأن الصورة تفيد التركيب ، وكل مُرَكَّب مُحْدَث ، والله تعالى ليس بِمُحْدَث ، فليس هو مُرَكَّباً ، فليس مُصَوَّراً)) اهـ .

[١٣] عن أبي هريرة : أنَّ الناس قالوا : يا رسول الله ، هل نرى رَبَّنا يوم القيامة ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : ((هَل تُضَارُّونَ في القمر لَيْلَةَ البدر ؟)) . قالوا : لا ، يا رسول الله. قال: ((فهل تُضَارُّونَ في الشمس ليس دُونَها سحاب ؟)) . قالوا : لا ، يا رسول الله ، قال : ((فإنكم تَرَوْنَهُ ، كذلك يَجمع اللهُ الناسَ يوم القيامة ، فيقول : مَن كان يعبد شيئاً فَلْيَتَّبِعْهُ ، فَيَتَّبِعُ مَن كان يَعبد الشَّمسَ الشمسَ ، ويَتَّبع مَن كان يَعبد القمرَ القمرَ ، ويَتَّبع مَن كان يَعبد الطواغيتَ الطواغيتَ ، وتبقى هذه الأُمَّة ، فيها شافعوها أو مُنافقوها ـ شَكَّ إبراهيم (أحد الرواة) ـ فيأتيهم الله ، فيقول : أنا رَبُّكم ، فيقولون : هذا مَكانُنا حتى يَأتِيَنا رَبُّنا ، فإذا جاءنا رَبُّنا عَرَفْناه ، فيأتيهم اللهُ في صُورته التي يَعرفون ، فيقول : أنا رَبُّكم ، فيقولون : أنتَ رَبُّنا ، فَيَتَّبِعُونه)) [245].

قال الحافظ في الفتح (١١/ ٤٥٠و٤٥١): ((وأمَّا نِسبة الإتيان إلى الله تعالى فقيل هو عبارة عن رؤيتهم إيَّاه ، لأن العادة أن كل مَن غاب عن غَيره لا يمكن رؤيته إلا بالمجيء إليه ، فعبَّر عن الرؤية بالإتيان مجازاً . وقِيل : الإتيان فِعل من أفعال الله تعالى يجب الإيمان به مع تنْزيهه سُبحانه وتعالى عن سِمات الحدوث. وقِيل : فيه حذف تقديره يأتيهم بعض ملائكة الله ، ورجَّحه عِياض .

قال ـ القاضي عياض ـ: ولعل هذا الْمَلَك جاءهم في صورة أنكروها لِمَا رَأَوْا فيها من سِمة الحدوث الظاهرة على الْمَلَك لأنه مخلوق. قال : ... وهو أن المعنى يأتيهم الله بصورة أي بِصِفة تظهر لهم من الصور المخلوقة التي لا تُشبه صفة الإله ليختبرهم بذلك، فإذا قال لهم هذا الْمَلَك: أنا رَبُّكم، ورَأَوا عليه من علامة المخلوقين ما يعلمون به أنه ليس رَبَّهم استعاذوا منه لذلك ، انتهى. وأمَّا قوله بعد ذلك : ((فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون)) ، فالمراد بذلك الصِّفة، والمعنى فيتجلى الله لهم بالصفة التي يعلمونه بها، وإنما عرفوه بالصفة وإن لم تكن تقدَّمت لهم رؤيته ... وقد عَلِموا أنه

الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٨) : ((رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن إسماعيل الطالقاني وهو ثقة ، وفيه ضعف)) اهـ .

(٢٤٥) متفق عليه. البخاري (٦/ ٢٧٠٤) برقم (٧٠٠٠) ، ومسلم (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) .

لا يُشْبِه شيئاً من مخلوقاته، فيعلمون أنه رَبُّهم، فيقولون: أنتَ رَبُّنا، وعبَّر عن الصفة بالصورة لِمُجانَسة الكلام لِتَقَدُّم ذِكْر الصورة .

وقال ابن العربي : إنما استعاذوا منه أولاً لأنهم اعتقدوا أن ذلك الكلام استدراج ، لأن الله لا يأمر بالفحشاء، ومن الفحشاء اتِّباع الباطل وأهله ، ولهذا وقع في الصحيح : فيأتيهم الله في صورة، أي بصورة لا يعرفونها ، وهي الأمر باتِّباع أهل الباطل ، فلذلك يقولون : إذا جاء رَبُّنا عَرَفْناه ، أي إذا جاءنا بما عَهِدْناه مِنه مِن قَول الحق .

وقال ابن الجوزي : معنى الخبر يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة، ومن صور الملائكة بما لم يَعْهَدوا مِثْلَه في الدنيا، فيستعيذون من تلك الحال ، ويقولون: إذا جاء رَبُّنا عرفناه، أي إذا أتانا بما نعرفه مِن لُطفه ، وهي الصورة التي عبَّر عنها بقوله : يكشف عن ساق ، أي عن شِدَّة .

وقال القرطبي : هو مقام هائل يمتحن اللهُ به عبادَه ، لِيَميز الخبيث من الطيب ، وذلك أنه لَمَّا بَقِيَ المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنهم منهم ، ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت ، كما جاز في الدنيا ، امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع : أنا ربكم ، فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك لِمَا سبق لهم من معرفته سُبحانه ، وأنه مُنَزَّه عن صفات هذه الصورة ، فلهذا قالوا : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً ، حتى إن بعضهم لَيَكاد ينقلب ، أي يَزِل فيوافق المنافقين . قال : وهؤلاء طائفة لم يكن لهم رسوخ بين العلماء، ولعلهم الذين اعتقدوا الحق ، وحوَّموا عليه من غير بصيرة)) اهـ .

وقال الكوثري في تعليقه على كتاب الأسماء والصفات(ص ٢٩٢) : ((اضطربت الروايات في ذكر الصورة والإتيان ، كما يظهر من استعراض طرق هذا الحديث ومتونه في الصحيحين وجامع الترمذي ، وتوحيد ابن خزيمة ، وسُنن الدارمي وغيرها. ولم يسبق أن عرفوه على صورة ، فعُلِمَ أنه قد فعلت الرواية بالمعنى في الحديث ما فعلت ، على أن المنافقين محجوبون عن ربهم يوم القيامة ، فيكون هذا الحديث مخالفاً لنص القرآن ، إلا عند مَن يُؤوِّله تأويلاً بعيداً ، فالقول الفصل هنا هو الإعراض عن ألفاظ انفرد بها هذا الراوي، أو ذاك الراوي، باختلافهم فيها،والأخذ بالقَدْر المشترك من المعنى الذي اتَّفقوا عليه، فلعلك لا تجد في ذلك ما يُوقعك في رِيبة أو شُبهة .. ويقول ابن العربي في عارضة الأحوذي : إن الناس في هذه الحال لا يَرَوْنَه سُبحانه في قول العلماء ، وإنما محل الرؤية الجنة .. بإجماع العلماء)) اهـ .

[١٤] عن أبي هريرة _ رضي الله عنه _ قال:قال النبيُّ ﷺ:((فأمَّا النار فلا تمتلئ حتى يضع اللهُ_تبارك وتعالى_رِجْلَه،تقول: قَط قَط قَط، فهنالك تمتلئ ، ويُزْوَى بعضُها إلى بعض)) [246].

قلتُ : إن الله تعالى مُنَزَّه عن الجوارح ، وذلك أن الجوارح مُركَّبة من أجزاء ، وبالتالي فلا بد أن يكون هناك جزء قبل جزء ، وهذا يُفيد الْحُدُوث _ وجود الشيء بعد إذ لم يكن _ ، وكل الحوادث تفتقر إلى مُحْدِث ، والله تعالى قديم لا يُوصَف بالحدوث . كما أن الجوارح دليل نقص في الكائن الحي ، لأنه لا يقدر على القيام بأعماله إلا باللجوء إلى جوارحه من يد ورِجْل وفم ، وغير ذلك . والله تعالى غنيٌّ عن كل شيء . وكُلُّ شيء فقير إليه . وقد وردت لفظة " قَدَمَه " بدلاً من " رِجْلَه " في روايات صحيحة ثابتة ، ولهما نفْس التأويل .

وقد أحاط الإمام النووي بكافة الاحتمالات الممكنة لفهم هذا الحديث الشريف بشكل موجز غير مُخِل .

فقال في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٨٢و١٨٣) : ((اختلاف العلماء فيها على مذهبين : أحدهما وهو قول جمهور السلف وطائفة من المتكلمين ، أنه لا يُتكلم في تأويلها ، بل نؤمن أنها حق على ما أراد الله ، ولها معنى يليق بها ، وظاهرها غير مراد . والثاني : وهو قول جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسَب ما يليق بها ، فعلى هذا اختلفوا في تأويل هذا الحديث ، فقيل : المراد بالقَدَم هنا المتقدِّم ، وهو شائع في اللغة ، ومعناه حتى يضع الله تعالى فيها مَن قدَّمه لها من أهل العذاب. قال المازري والقاضي : هذا تأويل النَّضْر بن شُمَيل ونحوه عن ابن الأعرابي . الثاني : أن المراد قَدَم بعض المخلوقين فيعود الضمير في قَدَمه إلى ذلك المخلوق المعلوم، الثالث : أنه يُحتمَل أن في المخلوقات ما يُسمَّى بهذه التسمية. وأمَّا الرواية التي فيها يضع اللهُ فيها رِجْلَه فقد زعم الإمام أبو بكر بن فورك أنها غير ثابتة عند أهل النقل، ولكن قد رواها مسلم وغيره، فهي صحيحة ، وتأويلها كما سبق في القَدَم، ويجوز أيضاً أن يُراد بالرِّجْل الجماعة من الناس، كما يقال رِجْل من جراد ، أي قطعة منه. قال القاضي : أظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخُلِقوا لها. قالوا : ولا بُدَّ مِن صَرْفه عن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى)) اهـ .

---

(٢٤٦) متفق عليه.البخاري(٤/ ١٨٣٦) برقم (٤٥٦٩)، ومسلم(٤/ ٢١٨٦) برقم (٢٨٤٦).

وقال الإمام ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٧٠): ((الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا تَتَبَعَّض ، ولا يحويها مكان ، ولا تُوصف بالتغير ولا بالانتقال)) اهـ .

[١٥] عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : ((يَنْزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيْلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخِر ، يقول : مَن يدعوني فأستجيب له ؟ ، مَن يَسألني فأُعطيه ؟ ، مَن يَستغفرني فأغفر له ؟))[247].

قلتُ: إن الله تعالى مُنَزَّه عن الحركة ، لأن الحركة انتقال من مكان إلى مكان ، ومن كان هكذا شأنه ، فهو حادث ، والله تعالى قديم . كما أنه تعالى مُنَزَّه عن المكان والزمان ، فكان الله ولا أين ، وهو الآن حيث كان ، وهو الآن كما كان . وأيضاً فإن الله تعالى لا يَحُلُّ في الأشياء ، ولا تَحُلُّ الأشياء فيه ، فما كان مَحَل الحوادث فهو حادث ، وما خالطته الحوادث فهو حادث ، وكل الحوادث مُفتقِرة إلى مُوجِد ، والله تعالى غنيٌّ عن كل شيء ، وهذا يَنفي صفة الحدوث عن ذاته العَلِيَّة .

قال الحافظ في الفتح (٣/ ٣٠و٣١) : ((قوله : يَنْزل رَبُّنا إلى السماء الدنيا . استدل به من أثبت الجهة ، وقال : هي جهة العُلُو . وأنكر ذلك الجمهور ، لأن القول بذلك يُفضي إلى التحيز ـ تعالى الله عن ذلك ـ. وقد اخْتُلِف في معنى النُّزول على أقوال : فَمِنهم مَن حمله على ظاهره وحقيقته ، وهم الْمُشبِّهة ـتعالى الله عن قولهم ـ . ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جُملة،وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مُكابَرة. والعجب أنهم أوَّلوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث، إمَّا جهلاً وإمَّا عناداً . ومنهم مَن أجراه على ما ورد ، مؤمناً به على طريق الإجمال مُنَزِّهاً الله تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف.ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسفيانين والحمَّادَيْن والأوزاعي والليث وغيرهم. ومنهم مَن أوَّله على وجه يليق مُستعمَل في كلام العرب ، ومنهم مَن أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف ، ومنهم من فصَّل بين ما يكون تأويلُه قريباً مُستعمَلاً في كلام العرب ، وبين ما يكون بعيداً مهجوراً ، فأوَّل في بعض وفوَّض في بعض، وهو منقول عن مالك ، وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد ...والحاصل أن تأوُّلَه بوجهَيْن : إمَّا بأن المعنى يَنْزِل أمرُه ، أو الْمَلَكُ بأمره ، وإمَّا بأنه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والإجابة لهم ونحوه . وقد حكى أبو بكر بن فورك أن بعض المشايخ

(٢٤٧) متفق عليه . البخاري (١/ ٣٨٤) برقم (١٠٩٤) ، ومسلم (١/ ٥٢١) برقم (٧٥٨) .

ضبطه بِضَم أوَّله على حذف المفعول ، أي يُنْزِل مَلَكاً [248]... وقال البيضاوي : ولَمَّا ثبت بالقواطع أنه سُبحانه مُنَزَّه عن الجسمية والتَّحيُّز ، امتنع عليه النُّزول على معنى الانتقال من موضع إلى موضع أخفض منه، فالمراد نور رحمته، أي ينتقل من مُقتضى صفة الجلال التي تقتضي الغضب والانتقام ، إلى مقتضى صفة الإكرام التي تقتضي الرأفة والرحمة)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في دفع شُبه التشبيه (ص ١٩٤و١٩٦) : ((وقد روى حديث النُّزول عشرون صحابياً ، وقد سبق القول أنه يستحيل على الله ــ عز وجل ــ الحركة والنُّقْلة والتغير ... والواجب على الخلق اعتقاد التَّنْزيه ، وامتناع تجويز النُّقْلة ، وأن النَّزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتقر إلى ثلاثة أجسام: جسم عالٍ، وهو مكان الساكن، وجسم سافل، وجسم ينتقل من عُلُو إلى أسفل ، وهذا لا يجوز على الله تعالى قطعاً . فإن قال العامي : فما الذي أراد بالنُّزول ؟، قيل: أراد به معنى يليق بجلاله لا يلزمك التفتيش عنه ، فإن قال : كيف حدَّث بما لا أفهمه ؟ ،قلنا: قد عَلمتَ أن النازل إليك قريب منك ، فاقتنع بالقُرب ، ولا تَظُنَّه كَقُرب الأجسام)) اهـ .

والجديرُ بالذِّكر أن في موضوع الْمُتشابِه صراعاً كبيراً على الألفاظ والمعاني والمصْطَلَحَات . فاللفظةُ الواحدةُ قد تَحمل عِدَّة معانٍ بحسَب الجماعة التي تتبنَّاها . فاللفظةُ الواحدةُ قد تكون عند المعتزلة بمعنى مُعيَّن، وعند الأشاعرة بمعنى آخر، وعند " السَّلفيين " بمعنى ثالث ، وعند الفلاسفة بمعنى رابع . وهذه النقطة غاية في الخطورة . قال ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (١/ ١١٧) : ((إنه من المعلوم أن طوائف كثيرة من المسلمين وسائر أهل المِلَل لا يقولون بحدوث كل جسم ، إذ الجسم عندهم هو القائم بنفْسه ، أو الموجود ، أو الموصوف)) اهـ .

وهذا الكلامُ إن صَحَّ ، فهو يُشير إلى المسألة التي عَرَضْناها. فقد يُطلِق أحدُهم لفظ " الجِسم " على الله تعالى ، وهو يَقصد به الموجود . وقد يتم تكفيره مِن قِبَل علماء آخرين ، لأنهم يَعتقدون أن كُلَّ جِسْمٍ حادثٌ ومُكوَّنٌ من أجزاء مُفتقِرة إلى بعضها البعض ، واللهُ تعالى مُنَزَّه عن الجِسمية والتبعيض والتركيب والأجزاء . وهناك مسألة مُهمَّة ، وهي ضرورة التفريق بين الاشتراك

---

(٢٤٨) يُؤَيِّد هذا الرأيَ ما رواه النَّسائي في سُننه الكبرى (٦/ ١٢٤) : عن أبي هريرة وأبي سعيد ــ رضي الله عنهما ــ أن النبيَّ ﷺ قال : ((إن الله ــ عز وجل ــ يُمهل حتى يمضيَ شَطرُ الليل الأول ، ثم يأمر منادياً ينادي، يقول : هل مِن داعٍ يُستجاب له ؟ ، هل مِن مُستغفرٍ يُغفَر له ؟ ، هل مِن سائل يُعطَى ؟)) . قال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٣٤) : ((صحَّحه أبو محمد عبد الحق)) اهـ .

في اللفظ والاشتراك في المعنى . فالمخلوقُ سميعٌ بصير ، والخالقُ سميعٌ بصير . فهناك اشتراك في اللفظ ، ولكنْ لا يوجد اشتراك في المعنى ، لأن صفات الله صفات قديمة لا تُشبِه شيئاً ولا يُشبِهها شيء . أمَّا صفات المخلوق فهي صفات مخلوقة ومحدودة وناقصة . فاللفظُ واحد ، لكنَّ المعنى مختلف .

*

٩
النَّسْخ

إنَّ النَّسْخَ في القرآن ثابتٌ بلا نكير . وهو يعني إثبات آية معَ تغيير حُكمها . فالأحكامُ تتغير بتغيُّر الظروف ، ولا يخفى أن الشريعة جاءت لتحقيق مصالح الناس . ولا أحد يملك حَقَّ النَّسخ إلا الله وَحْدَه . وبموتِ النبيِّ ﷺ أُغلِق باب النَّسخ إلى الأبد .

والنَّسْخُ في اللغة يعني الإزالة والْمَحْو . يُقال نَسخت الشمسُ ظِلَّها ، يعني أزالَتْهُ وَمَحَتْهُ ، وأحَلَّت الضَّوْءَ مَحَلَّه . وقد أشارَ الشاعرُ إلى هذا المعنى عندما قال :

نَسَخْتُ بِحُبِّي آيةَ العِشقِ مِن قَبْلي
فأهلُ الهوى جُنْدي وحُكمي على الكُلِّ

أمَّا النَّسْخُ _ اصطلاحاً _ فهو وَقْفُ العمل بِحُكْمٍ أفاده نَصٌّ شرعيٌّ سابقٌ من القرآن أو من السُّنة، وإحلال حُكم آخر مَحَلَّه أفاده نَصٌّ شرعيٌّ آخَر لاحق من الكتاب أو السُّنةِ لحكمة قصدها الشَّرعُ ، معَ صِحَّة العملِ بِحُكم النَّصِّ السَّابقِ قبل وُرود النص اللاحق (249).

وذهبَ البعضُ إلى نفْي وقوع النَّسْخ في القرآن (250). ورأيهم لا تقوم له قائمة ، ولا يُعْتَدُّ به بالمرَّة لِمُخالفته نصوص الشريعةِ . كما أن جمهور الفقهاء وعلماء الأصول يُقِرُّون النَّسخَ بلا أدنى حَرَج .

(٢٤٩) هذا التعريف اختاره علماءُ الأزهر الشَّريفِ ، وفيه جَمْع ما تفرَّق من تعريفات الأصوليين معَ مراعاة الدقائقِ والوضوح . وهناك تعابير مختلفة تصبُّ في نفْس الخانة ، ولكنها في أحيان كثيرة تحتاج إلى مستوى عالٍ من العِلْم حتى تُفهَم ، وإليكَ إحداها : ((النَّسْخ في اصطلاح الأصوليين هو إبطالُ العمل بالْحُكْمِ الشرعي بدليلٍ مُتراخٍ عنه، يدل على إبطاله صراحةً أو ضمناً ، إبطالاً كلياً أو إبطالاً جزئياً لمصلحة اقتضته ، أو هو إظهار دليل لاحق نَسخ ضمناً العملَ بدليل سابقٍ))[انظر علم أصول الفقه ، عبد الوَهَّاب خلاف ، ص ٢٢٢] .

(٢٥٠) منهم الدكتور عبد الْمُتَعال الجبري وله فيه كتاب خاص نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ، والدكتور محمد البهي ، ومنهم الشيخ محمد الغزالي .

وقد حاول بعض المستشرقين اتخاذ النَّسخ وسيلةً للطعن في القرآن ، وقد أوردوا شُبهتهم كالتالي : [القرآن يتميز بوجود الناسخ والمنسوخ فيه، معَ أن كلامَ اللهِ الحقيقيَّ لا يجوز فيه الناسخ والمنسوخ، لأن الناسخ والمنسوخ في كلام الله هو ضد حِكمته وصِدْقه وعِلْمه، فالإنسان القصير النظر هو الذي يضع قوانين ويُغيِّرها ويُبدِّلها بحسَب ما يبدو له من أحوال وظروف. لكن الله يعلم بكل شيء قبل حدوثه. فكيف يُقال إن الله يُغيِّر كلامه ويُبدِّله ويَنسخه ويُزيله، فليس الله إنساناً فيكذب] اهـ .

إن النسخَ لا يَقدح في حِكمة اللهِ تعالى، بل هو مِن حِكمته. فتطوُّر الأحكام التشريعية والتَّدَرُّج بما يُزيل الحرَج عن الناس مِن صميم المنهجِ الإسلاميِّ. والشريعة جاءت لرفع الحرج لا لتعقيد حياة الناس . ولأن الناس تختلف قدراتُهم وإمكانياتهم خاصةً وأنهم خارجون للتوِّ من جاهلية عمياء جاءت الشَّريعة تنتشلهم رُوَيداً رويداً . فمهما بلغت القوةُ الإيمانية للفرد ، فهو _ أولاً وأخيراً _ إنسان تتنازعه الشهوات والغرائز ، وله قدرة تحمُّل محدودة .

فمثلاً ، إن الجاهليَّ الذي قضى عُمره في شرب الخمر وتعوَّد عليه إلى حد الإدمان، ويعيش في مجتمع غارق _ إلى شحمة أُذنيه _ في الخمور والحانات ، من الصعب عليه في يوم وليلة أن تأمره بترك الخمر قطعياً ، فكان التدرج في تحريم الخمر حتى الوصول إلى التحريم الكلي النهائي . وهذا المنهج يأخذ بعين الاعتبار قدرات البشرِ، ويُخفِّف عنهم، ويَبنيهم لَبِنةً لبنةً ، ولا يحشرهم في الزاوية الضيقة .

((وهذا النَّسخُ وقع في التشريع الإلهيِّ، ويقع في كل تشريع وضعي، لأن المقصودَ من كل تشريع سواء أكان إلهياً أم وضعياً تحقيق مصالح الناس. ومصالح الناس قد تتغير بتغير أحوالهم . والحُكم قد يُشْرَع لتحقيق مصالح اقتضتها أسباب _ قد تظهر لنا وقد لا تظهر _ فإذا زالت هذه الأسباب فلا مصلحة في بقاء الحُكم))[251].

وفي القُرآن، وَقَعَ النَّسخُ على نطاق ضَيِّقٍ. وإليك المثال التالي المتعلق بنسخٍ داخلي حصل داخل القرآن، فالآية القرآنية الكريمة: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النُّور:٢] نَسخت الآيةَ: ﴿ وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً منكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴾[النِّساء:١٥].

---

(٢٥١) علم أصول الفقه ، عبد الوَهَّاب خلاف ، ص ٢٢٢ .

وإليكَ مثالٌ على نسخٍ داخلي حصل في السُّنةِ النبوية ، ووقع في أكثر من مسألة .ففي صحيح مسلم (٢/ ٦٧٢) : عن بُرَيْدة عن أبيه قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((نَهَيْتُكم عن زيارة القبورِ فزوروها، ونهيتكم عن لحومِ الأضاحي فوقَ ثلاث فأمسِكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ _ أي نقيع التمر والزبيب ونحوهما _ إلا في سِقاء فاشربوا في الأسقية كُلِّها ، ولا تَشربوا مُسْكِراً)) .

قالَ اللهُ تعالى: ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ أو نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنها أو مِثْلِها ﴾[البقرة: ١٠٦] (252).

إنَّ اللهَ تعالى لا يُبَدِّلُ حُكْمَ آيةٍ إلا ويَأتي بِحُكْمٍ خَيرٍ مِنه (بالنِّسبة إلى مصلحة الناس) . وكُلُّ آيةٍ يَنسخها اللهُ (يُبْطِل حُكْمَها) أو يَمحوها من القلوب، يأتي بآيةٍ أكثر نَفعاً للعباد، وأكثر ثواباً ، أو مِثْل الآية المنسوخة في الثواب . أي : أصْلَح لِمَن تعبَّد بها ، وأسْهَل ، وأكثر فائدةً ونفعاً .

وقد وَرَدَ أن الآية نَزلت في حادثة تحويل القِبْلة ، حيث قال اليهود إن محمداً يُحِلُّ لأصحابه إذا شاءَ ، ويُحرِّم عليهم إذا شاءَ . وهُم يُريدون الطعن بالنبيِّ ﷺ ، وتصوير الأحكام الشرعية كإجراءات خاضعة لِمزاج النبيِّ ﷺ ورأْيه الشخصيِّ .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٣٧٧) : ((﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ أو نُنسِها ﴾ نزلت لَمَّا قال المشركون أو اليهود: ألا تَرَوْنَ إلى محمد، يأمر أصحابَه بأمرٍ، ثُمَّ يَنهاهم عنه،ويأمر بِخِلافه)) اهـ.

والجديرُ بالذِّكر أن النَّسْخ مُتعلِّق بالأوامر والنَّواهي ، وذلك من أجل تحقيق مصلحة الناس ، ورفع الحرَج عنهم ، أمَّا الأحداث التاريخية فلا يُوجد فِيها ناسخ ومنسوخ ، لأنَّ النَّسْخ (التبديل) في الأحداث التاريخية يعني تَكذيب القُرآن ، وهذا مُحال .

وقال ابن كثير في تفسيره (١/٢٠٧) : ((قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس _ رضي الله عنهما_ ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾: ما نُبدِّل مِن آية، وقال ابن جُرَيج عن مجاهد ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾:

(٢٥٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٢٧و١٢٨) : ((قَوْله تعالى : ﴿ أو نُنسِها ﴾ ... والمعنى نُؤخِّرها... وفي معنى نؤخرها ثلاثة أقوال: أحدها نُؤخِّرها عن النَّسْخ فلا نَنسخها، قاله الفرَّاء. والثاني: نُؤخِّر إنزالَها فلا نُنْزِلها البَتَّة،والثالث نُؤخِّرها عن العمل بها بِنَسْخِنا إيَّاها، حكاهما أبو علي الفارسي)).

أي ما نمحو مِن آية، وقال ابن أبي نَجيح عن مجاهد ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ ﴾ قال : نُثبِت خَطَّها ونُبدِّل حُكْمَها)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٦١) : ((قَوْله تعالى : ﴿ نَأْتِ بخير منها ﴾ لفظة " بِخَيْرٍ " هنا صفة تفضيل ، والمعنى بأنفع لكم أيها الناس في عاجلٍ إن كانت الناسخة أخف، وفي آجِلٍ إن كانت أثقل ، وبِمِثْلِها إن كانت مُستوية ... وقِيل : ليس المراد بأخْيَر التفضيل ، لأن كلام الله لا يتفاضل وإنما هو مِثْل قوله : ﴿ مَن جاءَ بالحسنةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنها ﴾ [النَّمْل : ٨٩]. أي فلهُ مِنها خَير ، أي نفع وأجر ، لا الخير الذي هو بمعنى الأفضل . ويدل على القول الأول قَوْله : ﴿ أو مِثْلِها ﴾)) .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا بَدَّلْنا آيةً مَكانَ آيةٍ واللهُ أعلمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إنَّما أنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أكثرُهُم لا يَعْلَمُون ﴾ [النَّحْل : ١٠١] [253].

إذا نَسَخَ اللهُ حُكْمَ آيةٍ ، وغيَّره إلى حُكْمٍ آخَر ، واللهُ أعلمُ بما هو أصْلَح لِعِباده ، قال كفار قُرَيش للنبيِّ ﷺ إنك كاذب تختلق القُرآنَ وتَنْسُبه إلى اللهِ ، وذلك لَمَّا رَأَوا تبديلَ الأحكامِ ، وهذا يُشير إلى صِغَر عقولهم ، وانهيار عقيدتهم ، وضَعف يَقينهم ، وعدم ثباتهم ، وغرقهم في مستنقع الجهل والوهم. ومَن كان سائراً في هذه المتاهة، لا يَقْدِر على اعتناقِ الحق،والسَّيْرِ في طريق الإيمان.

واللهُ يَفعل ما يُريد ، وهو سُبحانه يُريد جَلْبَ المنافع للناسِ وتحقيق مصالحهم بتغيير الأحكام ، فهو خالقُهم وأعلمُ بِهم مِن أنفسهم ، يُريد مُساعَدَتَهم وهو غنيٌّ عنهم .

والمشركون اعتبَروا تغييرَ الأحكام دليلاً على التناقض والسُّخرية ، حيث اعتقَدوا _ بكل جهلٍ _ أن النبيَّ ﷺ يَسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمرٍ ، ثُمَّ يَنهاهم عنه غداً . وهذا دليلٌ _ وفق نظرتهم القاصرة _ على أن القُرآن كلام محمد ، وليس كلام اللهِ ، وأن محمداً يَأتي بالقُرآن مِن عِند نفْسه . وأكثرُ المشركين لا يَعرفون حقيقةَ القُرآنِ ، ولا يَفقهون قَضيةَ تبديل الأحكام ، والناسُ أعداء ما يَجهلون ، والْحُكم على الشيء فَرع عَن تصوُّره .

---

(٢٥٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٩١) : ((سبب نزولها أن الله تعالى كان يُنَزِّل الآيةَ فَيُعْمَل بها مُدَّة ثم يَنسخها ، فقال كفار قُرَيش : واللهِ ما محمد إلا يَسخر من أصحابه ، يَأمرهم اليوم بأمرٍ ، ويأتيهم غداً بما هُوَ أهْوَن عليهم مِنه ، فَنَزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس)) اهـ.

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤١٩) : ((﴿ واللهُ أعلمُ بِمَا يُنَـزِّلُ ﴾ مِنَ المصالح ، فلعلَّ ما يكون مَصلحة في وقت ، يَصير مفسدةً بَعْدَه فيَنسخه ، وما لا يكون مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآنَ فَيُثْبِتُه مكانَه ... ﴿ قالوا ﴾ أي الكفرة ﴿ إنَّما أنتَ مُفْتَرٍ ﴾ مُتَقَوِّل على الله ، تأمر بشيء ، ثم يبدو لك فَتَنهى عنه ... ﴿ واللهُ أعلمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض لتوبيخ الكفار على قولهم ، والتنبيه على فساد سندهم ، ويجوز أن يكون حالاً ، ﴿ بَلْ أكثرُهُم لا يَعْلَمُون ﴾ حِكمةَ الأحكام ، ولا يُمَيِّزون الخطأ من الصواب)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ : في قَوْله: ﴿ ما نَنسَخْ مِن آيةٍ أو نُنسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنها أو مِثْلِها ﴾ . وقال : ﴿ وإذا بَدَّلْنا آيةً مَكانَ آيةٍ واللهُ أعلمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ الآية . وقال : ﴿ يَمحو اللهُ ما يشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتابِ ﴾ [الرَّعْد : ٣٩] . فأوَّل ما نُسخ من القرآن القِبْلة . وقال : ﴿ والمطلَّقاتُ يَتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثَلاثةَ قُروء ولا يَحِلُّ لهنَّ أن يَكتمنَ ما خَلَقَ اللهُ في أرحامهنَّ ﴾ إلى قَوْله : ﴿ إن أرادوا إصلاحاً ﴾ [البقرة : ٢٢٨] . وذلك بأن الرَّجل كان إذا طَلَّق امرأتَه ، فهو أحقُّ بِرَجْعتها وإن طَلَّقها ثلاثاً ، فَنَسَخَ ذلك، وقال : ﴿ الطلاقُ مَرَّتانِ فإمساكٌ بِمَعروفٍ أوْ تسريحٌ بإحسان ﴾ [البقرة : ٢٢٩] [254].

*

(٢٥٤) رواه النَّسائي في سُننه (٦/ ٢١٢) برقم (٣٥٥٤) .

١٠
الأمثال

لقد ضربَ اللهُ الأمثالَ للناسِ من أجل تنوير عقولهم، وإرشادهم إلى الطريق المستقيم. والأمثالُ القُرآنيةُ هي المنارة التي تُرشد الحيارى ، وتَفتح أمامَهم آفاقاً جديدة للألفاظ والمعاني والسلوك الاجتماعي . والعاقلُ مَن يتَّعظ بهذه الأمثال ، ويَعرف المرادَ مِنها ، ولا يُكرِّر أخطاءَ الآخرين وخطاياهم. فالعاقلُ مَن اتَّعظَ بِغَيره ، والجاهلُ مَن اتَّعظَ بنفْسه .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للناسِ لعلهم يتذكرون ﴾ [إبراهيم : ٢٥] .

يُبيِّن اللهُ الأمثالَ للناس ، ويُوضِّح لهم الأشباهَ ، كَي يتَّعظوا ويَعتبِروا ، ويتفكَّروا في خَلْقِ اللهِ ، وأحوالِ الدُّنيا والآخرة ، فيَبتعدوا عن المعاصي، ويَتمسَّكوا بالطاعاتِ . واللهُ يُقرِّب المعاني لأذهان الناس كَي يَفهموا ويتذكَّروا ، ويُسهِّل عليهم إدراكَ الأمورِ والإلمامَ بها ، ويُوضِّح الأشياءَ لهم كَي تَقْدِر عقولُهم على استيعابها بدون تعقيد ولا عوائق ، ويُصوِّر لهم المعاني كي يَشعروا بها ، ويَعرفوا المقصود منها . ولا شَكَّ أن القضايا المعنوية عندما تتجلى في أشكال المحسوسات يَسْهُل فَهْمُها .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ١٥١) : ((وفي ضَرْب الأمثال زيادةُ تذكيرٍ ، وتفهيم ، وتصوير للمعاني)) اهـ . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٥) : ((وَيُبَيِّن اللهُ الأشباهَ للناس تقريباً إلى الأفهام وتسهيلاً لِسُبل الإدراك)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ ولقدْ صَرَّفْنا للناسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فأبى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٨٩] .

لقد وضَّح اللهُ للناسِ الأمثالَ التي يجب الاعتبارُ بها ، وبيَّن لهم جَميعَ وُجوه المواعظ، والعِبَر، وأحكام الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب ، وأخبار الأمم الغابرة ، وأحوال الدُّنيا والآخرة ، وذلك من أجل إرشاد الناس إلى طريق الخير ، والفوزِ في الدَّارَيْن ، فأبى أهلُ مكة إلا جُحوداً للحق وإنكاراً له .

وهنا تتجلى رحمة الله بعباده ، حيث إنَّه سُبحانه لَم يَتركهم ضائعين في متاهة الشكوك، وتائهين في الطرق الملتوية.لقد وضَّح لهم الصراطَ المستقيم، وحذَّرهم مِن طُرق الضلال. أرشدَهم

إلى النُّور، وكشفَ لهم الباطلَ كَي يَبتعدوا عنه . والإنسانُ إمَّا أن يختار النُّورَ أو الظلماتِ ، وهو يَتحمَّل مسؤوليةَ اختياره .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٨٦) : ((أي بَيَّنا لهم الْحُجَجَ والبراهينَ القاطعة ، ووَضَّحْنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه ، ومعَ هذا فأبى أكثرُ الناس إلا كُفوراً ، أي جُحوداً للحق ، ورَدَّاً للصواب)) اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٨٥) : ((قال المهدوي : ولا حُجَّة للقَدَريِّ في قَوْلِهم : لا يُقال أبى إلا لِمَن أبى فِعْلَ ما هُوَ قادر عليه ، لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمان بِحُكم الله عليه بالإعراض عنه ، وطَبْعه على قلبه ، فقد كان قادراً وقت الفُسحة والْمُهْلَة على طلب الحق وتمييزه من الباطل)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾ [الفُرْقان : ٣٣] .

إنَّ المشركين يُحاوِلون جاهدين الاصطيادَ في ماء أفكارهم العَكِر ، فَهُم يَطعنون في القُرآنِ والنُّبُوَّة بالباطل، ويَبحثون_ بكل ما أُوتوا مِن قُوَّة_عن عَيب في القرآن أو نقيصة في النبيِّ ﷺ ، وكُلما بَحثوا عادوا بالخزي والعار والفشل.فالقُرآنُ كاملٌ لا عَيب فِيه،والنبيُّ ﷺ مَعصوم لا نقيصة فيه. والمشركون كُلما جاؤوا بِمَثَلٍ يَضربونه لإبطال نُبُوَّة محمد ﷺ، أبطلَ اللهُ مَثَلَهم بالحق ، ورَدَّهم على أعقابهم خائبين . فالقُرآنُ هو الكلامُ الأسْمَى والأجلُّ يَدحض أمثالَ المشركين ، ويَكشف باطلَهم ، ويجيء بالأمثال الباهرة والبراهين الساطعة والْحُجَج الدامغة.والقُرآنُ يجيء بأحسن مِن مَثَل المشركين بياناً وتفسيراً. ولا قُدرة لمخلوق معَ قُدرة الخالق . وكلامُ المخلوقين لا يَصمد أمامَ كلامِ الخالق تعالى [255]. وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ١٠٧) : ((فالمراد بالْمَثَل هُنا : السؤال والاقتراح، وبالحق : جوابه الذي يَقطع ذريعته ، ويُبطِل شُبهته ، ويَحْسِم مَادَّته)) اهـ .

---

(٢٥٥) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٤) : ((قال سعيد بن جُبَير عن ابن عباس : ﴿ ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أي بما يلتمسون به عَيب القرآن والرسول ﴿ إلا جِئناكَ بالحقِّ ﴾ الآية. أي إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوَحْي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساء،وليلاً ونهاراً، سَفَراً وحَضَراً. وكل مرة كان يأتيه الملَكُ بالقرآن لا كإنزال كتاب مِمَّا قَبْلَه من الكتب المتقدِّمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالقرآنُ أشرف كتاب أنزله الله،ومحمد ﷺ أعظم نبيٍّ أرسله الله تعالى. وقد جمع

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٨٨) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ ولا يَأتُونَكَ ﴾ يعني المشركين

﴿ بِمَثَلٍ ﴾ يَضربونه لك في مُخاصمتك وإبطالِ أمرك ، ﴿ إلا جِئناكَ بالحقِّ ﴾ أي بالذي هو الحق لِتَرُدَّ به كَيْدَهم ﴿ وأحسنَ تفسيراً ﴾ مِن مَثَلِهم . والتفسيرُ البيان والكشف)) اهـ .

إنَّ كُلَّ شُبهة يَطرحها المشركون ، يأتي الرَّدُّ الإلهيُّ عليها في القُرآن ، وكُلَّ سُؤال يَطرحه المشركون يأتي الجوابُ الإلهيُّ عنه في القُرآن . وبالتالي يَرجع المشركون بالخزي والْخُسران بعدما أفحَمَهُم القُرآنُ ، وأقامَ عليهم الْحُجَّة . وهذا دليلٌ على صِدْق النبيِّ ﷺ وصِحَّة نُبُوَّته ، إذ إنه مُؤيَّد بالوَحْي السماويِّ ، فكلُّ سُؤال يَطرحه المشركون ــ سواءٌ كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ــ يأتيهم الجواب عليه ، وهذا الأمر لا يَكون إلا مِن نبيٍّ مُرْسَل . وهنا تَظهر الحِكمةُ الإلهية في إنزال القُرآن مُفَرَّقاً حَسَبَ الأحداث والوقائع ، فلوْ أُنزِل القُرآن مرَّةً واحدةً ، لَم يَكن لدى النبيِّ ﷺ جواب عَن أسئلة المشركين . وأيضاً ، لَثَقُلَ على المؤمنين تطبيق أحكامه بسبب كثرتها وقُوَّتها . لقد كانَ إنزالُ القُرآن مُفَرَّقاً تثبيتاً لقلب النبيِّ ﷺ وقلوبِ المؤمنين .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٠) : ((وعَلِمَ اللهُ عز وجلَّ أن الصلاح في إنزاله مُتَفَرِّقاً لأنهم يُنَبَّهون به مرَّة بعد مرَّة ، ولوْ نَزَلَ جُملةً واحدة لزالَ معنى التنبيه ، وفيه ناسخ ومنسوخ ، فكانوا يَتعبَّدون بالشيء إلى وقت بِعَيْنِه قد عَلِمَ اللهُ عز وجلَّ فيه الصلاح ، ثُمَّ يَنْزِل النَّسخُ بعد ذلك ، فَمُحال أن يَنْزِل جُملةً واحدةً)) اهـ .

وعن ابن عباس ــ رضي اللهُ عنهما ــ قال: ((نَزَلَ القُرآنُ جُملةً إلى السَّماء الدنيا ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذلك في عِشرين سنة . وقال ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ: ﴿ ولا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إلا جِئناكَ بالحقِّ وأحسنَ تفسيراً ﴾ [الفُرْقان : ٣٣] . قال : ﴿ وقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأهُ على الناسِ على مُكْثٍ ونَزَّلْناهُ تَنْزيلاً ﴾))[سبق تخريجه] .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ ولقدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لعلهم يتذكرون ﴾[الزُّمَر : ٢٧] .

اللهُ للقرآن الصِّفَتَيْن معاً: ففي الملأ الأعلى أُنزِل جُملةً واحدةً من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العِزَّة في السماء الدنيا ، ثم أُنزِل بعد ذلك إلى الأرض مُنَجَّماً (مُفَرَّقاً) بحسَب الوقائع والحوادث)).

اللهُ يَضْرِبُ الأمثالَ النافعة، ويُبيِّن الصراطَ المستقيم للناس من أجل أن يتفكروا ويتذكروا . وهذه الأمثلة تُقوِّي إيمانَ المرء، وتزيد من التزامه بالمنهج الإلهيِّ ، وتجعل منه خليةَ نحل دؤوب لإصلاح نفْسه ومحيطه ، وإعمار مجتمعه ، وبثِّ الخير في المعمورة . والقرآنُ وضَّح طريقَ الحق للخلائق ، وضَرَبَ لهم الأمثالَ ليكونوا على بَيِّنة من أمرهم . واللهُ تعالى لا يريد من عباده أن يكونوا عُمياناً يسيرون على غَير هُدى، ولا يريد منهم أن يُردِّدوا آياتِ القرآن كالببغاء دون فهم.

لذلك أنار لهم السبيلَ ، وقرَّب القضايا المصيرية إلى عقولهم ، وأعطاهم أمثالاً عظيمة قريبة من أذهانهم ليتفكروا فيها فتكون خيرَ مُعين في حياتهم ، كي يحصلوا على الراحة الدُّنيوية ، والسعادةِ الأبدية بعد الموت .

وفي فَيض القدير (٤/ ٣٤٥) : ((﴿ ولقدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ قال المرزوقي : الْمَثَلُ جُملة من القول مُقْتَضَبَة من أصلها ، أو مُرْسَلة بذاتها ، تَتَّسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول فتنتقل عمَّا وَردت فيه إلى كُلِّ ما يَصِحُّ قَصْدُه بها مِن غَير تغيير يلحقها في لفظها))اهـ .

لقد وضَّح اللهُ للناسِ الأمثالَ من أجل تقريب المعاني إلى عقولهم ، وتقريب الأفكار إلى أحاسيسهم . ولعلهم يتَّعظون . وكُلُّ مَثَلٍ له هدف ، وهو إرشاد الناس إلى طريق التَّوحيد ، وإبراز دَور الأنبياء في قيادة الحضارة الإنسانية. واللهُ تعالى لَم يترك الناسَ تائهين حَسَبَ أهوائهم ، بل بَيَّنَ لهم كُلَّ ما يَحتاجون إليه في أمر دِينهم ودُنياهم للاتِّعاظ به . والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ تعالى ضَرَبَ للناسِ في القُرآن كُلَّ الأمثالِ إلا الشِّعْر، لأنَّ اللهَ نَزَّهَ الشريعة عَن الشِّعر،ونفاه عن محمد ﷺ

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ٢٢١) : ((وقِيل : أي مَا ذَكَرْناه مِن إهلاك الأمم السالفة مَثَل لهؤلاء ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يَتَّعظون)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٧٩) : ((﴿ ولقدْ ضَرَبْنا للناسِ في هذا القُرآنِ ﴾ أي: وَصَفْنا لهم مِن كُلِّ مَثَل ، أي : مِن كُلِّ شَبَه يُشْبِه أحوالَهم)) اهـ .

واللهُ تعالى لا يَستحيي مِن ضَرْبِ الأمثال النافعة للخلائق ، وإِن بَدَت _ للوهلة الأولى _ أنها بسيطة . وقد أنكرَ الكافرون أن يَضرب اللهُ الأمثالَ ، مُعتبِرين أنَّ الأمثال أدنى مِن كلامِ اللهِ .

قالَ اللهُ تعالى:﴿ إنَّ الله لا يَستحيي أن يَضرب مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾[البقرة:٢٦] .

وَلَيْسَت البعوضةُ مقصودةً لذاتها في الآية . لكن القرآن يُعلِّم الناسَ أن يأخذوا العِبَرَ من كل شيء ، سواءٌ كان صغيراً أم كبيراً ، ولا يتوقفوا عند ظواهر الأشياء . بل يُعْمِلوا عقولَهم في فهم الآيات القرآنية المشتملة على الأمثال النافعة ، كي يَستفيدوا منها في حياتهم الفكرية والعملية .

قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٤): ((فإن التمثيل إنما يُصار إليه لكشف المعنى الْمُمَثَّل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة الْمُشاهَد المحسوس ، ليساعد فيه الوهمُ العقلَ ويُصالحه عليه، فإن المعنى الصِّرْف إنما يُدركه العقل معَ مُنازَعة من الوهم ، لأن مِن طَبْعه الميل إلى الحِس وحُب الْمُحاكَاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية ، وفَشَت في عِبارات البُلَغاء وإشارات الحكماء فَيُمَثَّل الحقير ، كما يُمَثَّل العظيم بالعظيم ، وإن كان الْمَثَلُ أعظمَ من كل عظيم ، كما مُثِّلَ في الإنجيل غِل الصدور بالنُّخالة ، والقلوب القاسية بالْحَصاة ، ومخاطبة السُّفهاء بإثارة الزنابير . وجاء في كلام العرب : أسمعُ مِن قُرَاد ، وأطْيَشُ مِن فراشة ، وأعزُّ مِن مُخ البَعوض ، لا ما قالت الجهلة من الكفار _ لَمَّا مَثَّلَ اللهُ حالَ المنافقين بحال الْمُسْتَوْقِدِين وأصحاب الصَّيِّب ، وعبادة الأصنام في الوَهْن والضَّعْف ببيت العنكبوت ، وجَعْلها أقل من الذباب وأخس قَدْراً منه _: الله سبحانه وتعالى أعلى وأجلُّ مِن أن يَضْرِبَ الأمثالَ ويَذكر الذبابَ والعنكبوت)) اهـ .

واللوثةُ العقليةُ التي سيطرت على المشركين تتجلى في نظرتهم إلى عناصر الْمَثَل ، وعدم نظرتهم إلى حِكمة الْمَثَل والمعنى الماورائي . فَتَوَقَّفُوا عِندَ الذباب والعنكبوت والبَعوض ، واعتبروا هذه الأشياء حقيرةً تافهةً ، ولأنها كذلك لا يَصِحُّ أن يَذكرها اللهُ تعالى . وهذا يعني أنَّ محمداً افتراها مِن تِلقاء نفْسه ، وجعلها كلاماً للهِ . والمشركون ضائعون في متاهة الشُّكوك وظواهر الأشياء . فاللهُ تعالى ضَرَبَ الأمثال بهذه الكائنات لأخذ العِبْرة والموعظة ، والوقوف على الحِكمة الإلهية الجليلة ، والمعنى المقصود ، ومَغْزَى هذه التَّمثيلات . ولَيْسَ القُرآنُ بَحثاً عِلْمياً عن الحشرات والحيوانات . لكنَّ المشركين _ بسبب انحرافهم العَقَدي وقلوبهم المظلمة _ يُحاولون جاهدين الاصطياد في ماء أفكارهم العَكِر ، وهذا جعل نظرتهم للأمور سطحية وساذجة . وهذا ليس غريباً ، لأنَّ اللهَ أعمى بصائرَهم ، فلا يَقفون على حقائق الأشياء ، ولا يَغوصون في المعاني العميقة .

وقد رَدَّ اللهُ على الكافرين ، وأزالَ باطلَهم ، وأفحمَهم ، وألزمَهم الْحُجَّة . وأعْلَمَهم أنَّهُ سُبحانه لا يَستحيي أن يَذكر البَعوضةَ في الأمثال ، وما فَوْقَها في الصِّغر (يعني ما دُونَها) . فالعِبْرةُ بالمعاني التي وراء الظواهر ، والحِكَم العميقة التي يَنبغي البحث عنها . وأصلُ الاستحياء الانقباض عن الشيء خَوْفاً مِنَ التَّلوُّث بالأشياء السَّيئة . وهذا مُحالٌ على اللهِ تعالى [256].

(٢٥٦) قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٥٤): ((...فقال تعالى: ﴿ إنَّ الله لا يَستحيي ﴾ أي: لا يترك ضَرْب الْمَثَل بالبعوضة تَرْك مَن يَستحي أن يُمَثِّل بها لحقارتها.والحياء : انقباض النَّفْس عن القبيح مخافة

وفي فتح القدير للشَّوكاني (١/ ٨٩) : ((وقال الرازي : إنَّه تعالى لَمَّا بَيَّنَ الدليلَ كَوْن القرآن مُعْجِزاً أوردَ هاهُنا شُبهة أوردها الكفار قَدْحاً في ذلك ، وأجاب عنها ، وتقرير الشُّبهة أنه جاء في القرآن ذِكْر النَّحْل والعنكبوت والنَّمْل ، وهذه الأشياء لا يَليق ذِكْرُها بكلام الفصحاء ، فاشتمال القرآن عليها يَقْدَح في فصاحته فَضْلاً عَن كَوْنه مُعْجِزاً ، وأجاب الله عنها بأن صِغَرَ هذه الأشياء لا تَقْدَح في الفصاحة ، إذا كان ذِكْرُها مُشتمِلاً على حِكمة بالغة)) اهـ .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (١/ ١٠٣) : [وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُمَيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ((لَمَّا ذَكَرَ اللهُ العنكبوتَ والذباب ، قال المشركون : ما بالُ العنكبوت والذباب يُذكَران ؟ ، فأنزل الله : ﴿ إنَّ الله لا يَستحيي أن يَضرب مثلاً ما بعوضةً فما فَوْقها ﴾))] .

فالكفارُ المعانِدون يتوقفون عند ظواهر الأشياء الواردة في القرآن مثل العنكبوت ، والذباب ، والنمل. ولا ينظرون إلى ما وراء هذه الأشياء مِن العِبَر الباهرة، ولا يُدرِكون أبعادَ الآياتِ القُرآنية. وبما أن الجاهل عدو نفْسه ، فإنه يُعرِض عن القرآن بسبب جهله فيطعن فيه. فهناك عُميان يعتقدون أن المشكلة في نور الشمس لا في عيونهم .

وصدقَ الشاعرُ إذ يقول :

لا تَحْقِرَنَّ صَغيراً لِصِغَرِهِ إنَّ البَعوضةَ تُدمِي مُقْلةَ الأسدِ

وفي تهذيب الكمال للمِزِّي (٥/ ٩٢) أن أحمد بن عمرو بن المقدام الرازي قال : ((وَقَعَ الذبابُ على المنصور فَذَبَّه عنه ، فعادَ ، فَذَبَّه حتى أضجرَه ، فدخل جعفر بن محمد ، فقال له المنصور : يا أبا عبد الله ، لِمَ خَلَقَ اللهُ الذبابَ ، قال : لِيُذِلَّ به الجبابرةَ)) [257].

الذم وهو الوسط بين الوقاحة: التي هي الجراءة على القبائح وعدم المبالاة بها والخجل: الذي هو انحصار النَّفْس عن الفعل مُطْلَقاً. واشتقاقه من الحياة، فإنه انكسار يَعتري القوةَ الحيوانية فَيَرُدُّها عن أفعالها)) .

(٢٥٧) هذا الرد الصاعق من الإمام جعفر الصادق يَكشف كذبَ الشيعة الروافض الذين رَوَوْا عنه أنَّه قال : ((التَّقيةُ دِيني ودِين آبائي)) . لقد كانَ الإمام جعفر صريحاً وصادقاً ، وأجابَ الخليفةَ بجوابٍ صاعق لا يَحتمل التأويل . وهذا يَنسف أكذوبةَ التَّقية (النفاق) التي نَسَبَها الشيعة الروافض إلى أئمة آل البَيت المعروفين بالصِّدق والشجاعة والجرأة في قَول الحق .

ويجيء النَّهْيُ عَن ضَرْب الأمثال لله تعالى ، لأنه _ سُبحانه _ لا يُشْبِهُ شَيئاً ، ولا يُشْبِهُهُ شيء . لا مِثْلٌ له ولا شَبَهٌ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فَلا تَضْرِبوا للهِ الأمثالَ إنَّ الله يَعْلَمُ وأنتم لا تَعلمون ﴾[النَّحْل : ٧٤] .

أي : لا تجعلوا للهِ أشباهاً وأمثالاً وأنداداً . لا تُشَبِّهوه بِخَلْقِه وتَجعلوا له شَريكاً، فاللهُ واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صِفاته ، لا شَريك له ولا نِد . وأنتم لا تَعْلَمُون خطأ ما تَضْرِبُون مِنَ الأمثال.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٧١) : ((وفي قَوْله: ﴿ إنَّ الله يَعْلَمُ وأنتم لا تَعلمون ﴾ أربعة أقوال : أحدها يَعلم ضَرْبَ الْمَثَل ، وأنتم لا تَعلمون ذلك ، قاله ابن السائب . والثاني : يَعلم أنه ليس له شريك ، وأنتم لا تَعلمون أنه ليس له شريك ، قاله مقاتل . والثالث : يَعلم خطأ ما تَضْرِبُون مِنَ الأمثال ، وأنتم لا تَعلمون صَوابَ ذلك مِن خَطئه . والرابع : يَعلم ما كان ويكون وأنتم لا تَعلمون قَدْرَ عَظَمته حين أشركتُم بِه ونسبتموه إلى العَجْز عن بَعْث خَلْقِه)) اهـ .

واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن الأضداد والأنداد والنظائر. فليس كَمِثْله شيءٌ . فالخالق خالقٌ ، والمخلوقُ مخلوقٌ . وهذه النظائرُ التي اخترعها الوثنيون عبر الأزمنة المختلفة من بنات أفكارهم ، كالأوثان والحجارة المعبودة من دون الله تعالى ، إنما هي انحرافٌ عن التوحيد ، والعقيدةِ الصحيحة . وكلُّ مَثَلٍ يقتضي تشبيهَ الخالق بالمخلوق أو المخلوق بالخالق ، إنما هو مَثَلٌ باطل . وضَرْبُ الْمَثَل إنما هو تَشبيه ذات بذات ، أو وَصْف بِوَصْف ، واللهُ أعلى مِن ذلك وأجلُّ . واللهُ تعالى ضَرَبَ الأمثالَ للناسِ لأنهم بحاجة إلى ذلك ، كي تَقترب المعاني من أذهانهم ، وتتَّضح الأفكارُ في عقولهم ، وتتجلى في أحاسيسهم . فكثيرٌ من الأشياء غَير ظاهرة لهم . واللهُ تعالى لا يَحتاج إلى ضَرْبِ الأمثال له ، لأنه يَعلم كُلَّ شيء ، ولا يَخفَى عليه شيء . ولا يَحتاج أحداً يُوضِّح له الفكرة أو المعنى [258].

(٢٥٨) قال الحكيم الترمذي في الأمثال من الكتاب والسُّنة (١/ ١٣و١٤) : ((اعْلَمْ بأن ضَرْبَ الأمثال لِمَن غاب عن الأشياء وخَفِيَت عليه الأشياءُ ، فالعباد يحتاجون إلى ضَرْب الأمثال لِمَا خَفِيَت عليهم الأشياء ، فضربَ اللهُ لهم مَثَلاً مِن عند أنفسهم ، لا مِن عِند نفْسه ، لِيُدْرِكوا ما غابَ عنهم ، فأمَّا مَن لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فلا يحتاج إلى الأمثال، تعالى الله عن ذلك عُلُوَّاً كبيراً . فَلا جَرَمَ ما ضَرَبَ الأمثالَ مِن نفْسه لنفْسه ، وكيف ، ولا مِثْل له ولا شبيه له، فلذلك قال جَلَّ ذِكْرُه : ﴿ فَلا تَضْرِبوا للهِ الأمثالَ ﴾ . فالأمثال نموذجات الحِكمة لِمَا غاب عن الأسماع والأبصار لِتَهديَ النفوسَ

وكما قال الشاعر : ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خلا اللهَ باطلُ .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٢٥٧) : ((فإنَّ ضَارِبَ الْمَثَلِ يُشبِّه حالاً بِحَال ، وقصة بقصة. قال الزَّجاج : لا تجعلوا لله مِثْلاً ، لأنه واحد لا مِثْلَ له ، وكانوا يقولون : إنَّ إلهَ العالَم أجَلُّ مِن أن يَعبده الواحد مِنَّا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملِك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملِك ، فَنُهوا عن ذلك ، وعُلِّلَ النَّهْيُ بِقَوله : ﴿ إنَّ الله ﴾ عليم ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ما عليكم من العبادة ﴿ وأنتم لا تَعلمون ﴾ ما في عبادتها مِن سُوء العاقبة والتعرض لعذاب الله سُبحانه ، أو أنتم لا تعلمون بشيء مِن ذلك ، وفِعْلُكم هذا هو عن تَوَهُّمٍ فاسد، وخاطرٍ باطل، وخيالٍ مُخْتَل ، ويجوز أن يُراد : فلا تَضْرِبُوا للهِ الأمثالَ ، إن الله يَعلم كيف تُضْرَبُ الأمثالُ ، وأنتم لا تَعلمون ذلك)) اهـ .

*

بما أدركت عِياناً. فَمِن تدبير الله لعباده أنْ ضَرَبَ لهم الأمثالَ من أنفسهم لحاجتهم إليها لِيَعْقِلوا بها فَيُدْرِكوا ما غابَ عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، فَمَن عَقِلَ الأمثالَ سَمَّاه الله تعالى في كتابه عالِماً، لِقَوله تعالى:﴿ وَتِلْكَ الأمثالُ نَضْرِبُها للناسِ وما يَعْقِلُها إلا العالِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

١١

إنزال القرآن

لقد أنزلَ اللهُ القُرآنَ على محمد ﷺ ، من أجل إخراج الناس من الظلمات إلى النُّور . واللهُ قادرٌ على ترك الناس تائهين في ظُلمات الشَّك والجهل والكفر . ولكنَّه خالقُ العبادِ ، وأرحمُ بهم من أمهاتهم. أرادَ إرشادَهم إلى طريق الحق ، وهو غنيٌّ عنهم . لا تَضُرُّه المعصية ، ولا تَنفعه الطاعة.

وقد اختارَ اللهُ تعالى أعظمَ الشهور من أجل إنزال القُرآن فيه ، وهو شَهر رمضان . والقُرآنُ الذي هُوَ أشرفُ الكلام ، لا يَنبغي أن يَنْزِل إلا في أشرف الشُّهور . فالشَّرَفُ واحدٌ لا يَتجزَّأ .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمضانَ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدىً للناسِ ﴾[البقرة : ١٨٥].

لقد شَرَّفَ اللهُ شَهرَ رمضان، وذلك بأن أنزلَ فيه القرآنَ أعظمَ الكتب السماوية لهداية الناس بما فيه مِن الإعجاز الباهر ، والْحُجَج الساطعة ، والأخبار الصادقة ، والأحكام الجليلة التي تَدحض الباطل ، وتُبْرِز الحقَّ . وقد نَزَلَ القُرآنُ جُملةً واحدةً إلى بيت العِزَّة في السماء الدُّنيا ، ثُمَّ نزل مُفَرَّقاً حَسَبَ الأحداث والوقائع على النبيِّ ﷺ . والشَّهْرُ مُشتقٌّ مِنَ الإشهار ، فهو مُشْتَهِرٌ يَعلمه كُلُّ الناس ، ولا يَخفَى على أحد . أمَّا رمضان فمأخوذ مِنَ الرَّمضاء (الحجارة الْمُحَمَّاة) ، وقد كانوا يَصومونه في الْحَرِّ الشديد . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((ويُقال : شهر رمضان مِن شِدَّة الْحَرِّ ، لأنهم لَمَّا نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سَمَّوْها بالأزمنة التي وَقَعَتْ فِيها ، فوافقَ هذا الشهرُ أيامَ رَمَضِ الْحَرِّ (شِدَّته)، وَيُجْمَع على رَمَضَانات وأرْمِضاء وأرْمِضة)) .

وسُمِّيَ القُرآنُ قُرآناً لأنه يَجمع السُّوَرَ والآياتِ وما فِيها من الثواب والعِقاب ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، وأخبار الأمم الغابرة ، وأحوال الدنيا والآخرةِ .

وعن وَاثِلة بن الأسْقَع أن رسول الله ﷺ قال : ((أُنزِلَتْ صُحُفُ إبراهيم عليه السلام في أوَّل لَيْلةٍ مِن رمضان ، وأُنزلت التوراةُ لِستٍّ مَضَيْنَ مِن رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خَلَتْ من

رمضان ، وأُنزِلَ الفُرقانُ لأربع وعشرين خَلَتْ مِن رمضان))[259].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ١٨٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ الذي أُنزِلَ فِيهِ القُرآنُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال:أحدها أنَّه أُنزِلَ القرآنُ فيه جُملةً واحدةً،وذلك في لَيْلة القَدْر إلى بَيْت العِزَّة مِنَ السماء الدُّنيا ، قاله ابن عباس . والثاني أن معناه أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ بِفَرْضِ صِيامه ، رُوِيَ عن مجاهد والضَّحاك ، والثالث أن معناه إن القرآن ابْتُدِئَ بِنُزوله فيه على النبيِّ ﷺ ، قاله ابن إسحاق وأبو سليمان الدمشقي)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقالَ الذينَ كفروا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلةً واحدةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً ﴾ [الفُرقان : ٣٢] .

يُحاول الكافرون الطعنَ بالقُرآنِ ونُبُوَّةِ محمد ﷺ لِيَهدموا الإسلامَ بِضَربة واحدة _ حَسَبَ تفكيرهم القاصر_. وقد أثاروا شُبهة مُفادها أن القُرآن يَنْزِل مُفَرَّقاً . فلماذا لم يَنْزِل مَرَّةً واحدةً ؟. وهذا يدل على تَعَنُّتهم وعِنادهم ، وكثرة اعتراضهم ، وجِدالهم بالباطل ، وتحكيم أهوائهم في حِكمة اللهِ تعالى. وهُم _ بالتأكيد _ لَيسوا حريصين على الإيمان ، ولا يَبحثون عن الحق والحقيقة ، وإنما يُثيرون الشُّبهاتِ للطعن في المقدَّساتِ الإسلامية . إذ إن رَفْضَهم للإيمان مَوْقف مسبق ومبدأ ثابت ، سواءٌ نَزَلَ القُرآنُ مُفَرَّقاً أم مَرَّةً واحدةً . واعتراضُ الكافرين لا أهمية له ، لأنَّ نُزول القُرآن مُفَرَّقاً أو مَرَّةً واحدةً ، لا يُؤثِّر في إعجازه . وهؤلاء الكافرون عَجِزوا عن مُواجَهة فصاحة القُرآن وبلاغته ، فأرادوا أن يَطعنوا في كيفية نُزوله ، وهذا يُشير إلى تلاعبهم ، وهُروبهم من الحق الباهر عبر انتهاج طُرق التفافية . وهذه هي حُجَّة العاجز على الدوام .

قال الكافرون : هَلا نُزِّلَ القُرآنُ على محمد مَرَّةً واحدةً كما أُنزِلَت التَّوراةُ على موسى مَرَّةً واحدةً . وقد جاءَ الرَّدُّ الإلهيُّ واضحاً وحاسماً ، وذلك بإظهار حِكمة تَنْزِيل القُرآنِ مُفَرَّقاً .

والمقصود بالذين كفروا في الآية ، إمَّا أن يكونوا كُفار قُرَيش ، أو اليهود والنصارى . ومهما يكن مِن أمرٍ ، فإن كُفارَ قُرَيش _ باعتبارهم وثنيين لا كِتاب لهم _ تابعون لليهود والنصارى ، يُقَلِّدونهم بشكل أعمى ، لأن العرب كانت تَنظر إلى أهل الكتاب (اليهود والنصارى) باعتبارهم

---

(٢٥٩) رواه أحمد في مسنده (٤/ ١٠٧) برقم (١٧٠٢٥) . وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤٦٥) : ((رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه عمران بن داود القطان ضعَّفه يحيى ، ووَثَّقه ابن حبان ، وقال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث . وبقية رجاله ثقات)) اهـ .

أصحاب مكانة عُليا ، لأن لَدَيْهم التوراة والإنجيل ، أمَّا العربُ فَلَدَيْهم الأصنام الحجرية . لذلك كان عربُ الجاهلية مُصابين بِعُقدة الشعور بالنَّقْص ، ويَنظرون إلى أنفسهم كأصحاب مَنْزلة دُونية .

لقد نَزَلَ القُرآنُ مُفَرَّقاً في عشرين سنة بِحَسَبِ الوقائع ، وما يَحتاج إلَيه الناسُ مِنَ الأحكام والشَّرائع ، من أجل تثبيت قلب النبيِّ ﷺ ، ورَفع معنوياته في مُواجَهة الهجمة الشرسة التي يَشُنُّها المشركون وأهل الكتاب ، وأيضاً تثبيت الإيمان في قلوب أصحابه . إذ إن ثَبَاتَ النبيِّ الْمُعلِّم هو ثباتٌ لأصحابه وتلاميذه . ونُزولُ القُرآنِ آيةً بعد آية ، يُساعد على الفهم والحِفظ ، ويُقوِّي القلبَ ، ويَزيد قُوَّةَ البصيرة ونُورَها ، ويُعزِّز الأُنسَ باللهِ والقُربَ مِنه .

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١٦٨) : ((أوْ لِنُثَبِّتَ به فؤادَك عن الضَّجر بتواتر الوصول وتتابع الرسول ، لأن قلب الْمُحِب يَسكن بتواصل كُتب المحبوب)) اهـ .

وأيضاً ، لَوْ نَزَلَ القُرآنُ مرَّةً واحدةً لَمَا استطاع الناسُ حَمْلَه وتطبيق أحكامه لِكَثرتها وعَظَمَتها. وكلامُ اللهِ عَظيمٌ لا تَقْدِر الجبالُ على حَمْلِه . وحِكمةُ اللهِ واحدةٌ لا تتجزَّأ ولا تتعارض. وكما أنَّه سُبحانه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في سِتَّة أيَّام ، وكان قادراً على خَلْقها في لحظة واحدة، أنزلَ القُرآنَ في عشرين سنة، وكان قادراً على إنزاله في لحظة واحدة.

واللهُ قادرٌ على إنزال القُرآن مَرَّةً واحدةً ، وتثبيته في قلب النبيِّ ﷺ في طَرْفة عَيْن ، لكنَّ حِكمة الله بالغة ، وهو أعْلَم بِخَلْقِه وما يُصْلِحهم ، وهو أرحم بهم مِن أُمَّهاتهم .

وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٣٠) : ((﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي فَعَلْنا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ نُقَوِّي به قَلْبَكَ، فَتَعِيه وتَحمله، لأن الكتب الْمُتقدِّمة أُنزِلَت على أنبياء يَكتبون ويَقرؤون ، والقرآنُ أُنزِل على نبيٍّ أُمِّيٍّ ، ولأن مِن القرآن الناسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لِمَن سأل عن أمور، فَفَرَّقْناه لِيَكون أوْعَى للنبيِّ ﷺ ، وأيسر على العامل به ، فكان كُلما نَزَلَ وَحْيٌ جديد زَادَه قُوَّةَ قَلْبٍ)) .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦) : ((﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي : كذلك أنزلناه مُفَرَّقاً لِنُقَوِّيَ بتفريقه فؤادَك على حِفظه وفهمه ، لأن حاله يُخالف حال موسى وداود وعيسى ، حيث كان _ عليه الصلاة والسلام _ أُمِّياً، وكانوا يكتبون. فلوْ أُلْقِيَ عليه جُملةً لَعِيل بحفظه ولعله لم يستتب له ، فإن التَّلَقُّف يتأتى شيئاً فشيئاً ، ولأنَّ نُزوله بِحَسَبِ الوقائع يُوجِب مَزيدَ بصيرة وغَوْص في المعنى ، ولأنَّه إذا نَزَلَ مُنَجَّماً وهو يتحدى بكل نَجْم فَيَعجزون عن مُعارضته ، زادَ ذلك قُوَّة قلبه ، ولأن إذا نَزَلَ به جبريل حالاً بعد حال يُثَبِّت به فؤادَه ، ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ ، ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ، فإنَّه يُعين على البلاغة)) اهـ .

وقال ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ : ((أُنزِلَ القُرآنُ جُملةً واحدةً في لَيْلةِ القَدْر إلى السماء الدنيا ، وكان بِمَوْقِعِ النجوم ، وكانَ اللهُ يُنَزِّلُه على رسول الله ﷺ بَعْضَه في أثَرِ بَعْض)) . قال : ((وقالوا: ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلةً واحدةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً ﴾))[260].

﴿ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً ﴾ . التَّرتيل في القراءة هو التَّرَسُّل والتَّثَبُّت. لقد بَيَّنَ اللهُ القُرآنَ ، ووضَّحه ، فلا مَوضع فيه للغُموض أو اللبس . إنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ القُرآنَ تَبييناً ، وفصَّله تفصيلاً ، وأنزلَه آيةً بعد آية بِتَمَهُّلٍ ، كَي يَسْهُل فَهْمُه وحِفْظُه . وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢١٦): ((﴿ وَرَتَّلْناهُ تَرْتيلاً ﴾ وقرأناه عَلَيْكَ شَيئاً بعد شيء، على تَؤُدة وتمهُّل في عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين . وأصلُ التَّرتيل في الأسنان وهو تَفليجها)) اهـ . وقال أبو السعود في تفسيره (٦/ ٢١٦) : ((وتنكير ﴿ تَرْتيلاً ﴾ للتفخيم ، أي كذلك نَزَّلْناه ورَتَّلْناه ترتيلاً بديعاً ، لا يُقادَر قَدْرُه . معنى ترتيله : تفريقه آية بعد آية ، قاله النَّخَعي والحسن وقتادة . وقال ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ بَيَّنْناه بياناً فيه ترتيل وتثبيت.وقال السُّدي:فَصَّلْناه تفصيلاً،وقال مجاهد: جعلنا بَعْضَه في إثْر بَعْض)).

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أنزَلْناهُ في لَيْلةٍ مُباركَةٍ ﴾ [الدُّخَان : ٣] .

أقسمَ اللهُ تعالى بالقُرآنِ أنَّه أنزلَه في لَيلةٍ شريفةٍ عظيمةٍ ، وهي لَيْلة القَدْر من شهر رمضان . وهذه الليلةُ المقدَّسةُ أنزلَ اللهُ فِيها القُرآنَ مِن اللوح المحفوظ إلى السماء الدُّنيا ، ثُمَّ نَزَلَ بِه أمينُ الوَحْي جِبريل ـ عليه السلام ـ على النبيِّ ﷺ مُفَرَّقاً في عشرين سنة .

وقال البيضاوي في تفسيره (١/ ١٥٧) : ((ابْتُدِئَ فيها إنزالُه ، أو أُنزِل فيها جُملةً إلى سماء الدُّنيا من اللوح المحفوظ ، ثُمَّ أُنزِل على الرسول ﷺ نُجُوماً (مُفَرَّقاً) ، وبركتها لذلك ، فإن نزول القرآن سبب للمنافع الدينية والدنيوية ، أو لِمَا فيها من نزول الملائكة ، والرحمة ، وإجابة الدعوة ، وقَسْم النِّعمة ، وفَصْل الأقضية)) اهـ .

وعن ابن عباس ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال : إنَّكَ لَتَرى الرَّجلَ يمشي في الأسواق ، وقد وَقَعَ اسْمُه في الموتى ، ثُمَّ قرأ : ﴿ إِنَّا أنزَلْناهُ في لَيْلةٍ مُباركَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرينَ (٣) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أمرٍ حكيمٍ (٤) ﴾ . يعني لَيْلة القَدْر ، ففي تلك الليلة يُفْرَق أمرُ الدنيا إلى مِثْلِها مِن قَابِلٍ [261].

---

(٢٦٠) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٤٢) برقم (٢٨٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٧) برقم (٣٦٧٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

والمعنى : يَتِمُّ في لَيلة القَدْر تفصيل أمور الموت والحياة والرِّزق ، التي تتعلق بالإنسان .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناهُ في لَيْلةِ القَدْر ﴾[القَدْر : ١] .

للقُرآنِ نزولان : _ النُّزول الأول : تَمَّ في لَيلة القَدْر في شهر رمضان ، حيث إنزال القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وفي هذا دلالةٌ عظيمة على أفضلية لَيلة القَدْر وتقدمها على باقي الليالي ، وعَظَمة شهر رمضان وتفوُّقه على باقي الشهور . والنُّزول الثاني : نزل به جبريل _ عليه السلام_ إلى الأرض مُفَرَّقاً في عشرين سنة، مع العِلْم أن المشهور هو ثلاث وعشرون سنة. وهذا الاختلافُ يَعود إلى الاختلاف في تحديد مُدَّة إقامة النبيِّ ﷺ في مكة . وقال الزركشي في البرهان(١/ ٢٢٨): ((ثم نزل بعد ذلك مُنَجَّماً_مُفَرَّقاً_ في عشرين سنة، أو في ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، على حَسَب الاختلاف في مدة إقامته بمكة بعد النُّبُوَّة)) اهـ .

وفي تاج العروس (١/ ٧٥٤٦) : ((إنما خُصَّ لَفْظُ الإنزالِ دونَ التَّنْزيلِ لِمَا رُوِيَ أنَّ القرآنَ أُنْزِلَ دَفْعَةً واحدةً إلى السماءِ الدنيا ، ثُمَّ نُزِّلَ مُنَجَّماً بِحَسَبِ المصالح)) اهـ .

وعن ابن عباس _ رضي الله عنهما _ قال : ((أُنزِل القرآنُ جُملةً واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القَدْر ، ثم أُنزِل بعد ذلك بعشرين سنة))[262].

وسُمِّيت لَيلة القَدْر بهذا الاسم لِشَرفِ قَدْرها ، أو لأنَّ اللهَ تعالى يُقدِّر فيها مَا يَشاء مِن السنة القادمة مِن أمر الموت والحياة والرِّزق .

والجديرُ بالذِّكر أن اللهَ تعالى لَم يَذْكُر القُرآنَ في الآيةِ تعظيماً له ، لأنَّ الْمُعَرَّفَ لا يُعرَّف ، فالقُرآنُ حاضرٌ في العقول والقلوب لا يَغيب . وفي قَوْله تعالى : ﴿ أنزلناهُ ﴾ نُون العَظَمَة ، وهذا يدل على عَظَمَة اللهِ وعنايته بالقُرآن الذي هُوَ أعظم كلام على الإطلاق . كما أنَّ اللهَ تعالى عَظَّمَ الوقتَ الذي أُنزِلَ فِيه القُرآن ، فالعظيمُ لا يَقترِن إلا بالعظيم .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٥١٣) : ((الضمير للقرآن فَخَّمه بإضمار مِن غَير ذِكْر ، شهادةً له بالنَّباهة (الشَّرَف والشُّهرة) الْمُغنية عن التصريح، كما عَظَّمه بأن أسندَ نزولَه إلَيه)) .

*

(٢٦٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٢٤٢) برقم (٢٨٧٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

١٣
هَجْرُ القرآن

إنَّ هَجْرَ القرآن جريمةٌ شنيعة ، لأنها إهمالٌ لكلامِ اللهِ ، وإعراضٌ عن رسالة السماء . ولوْ جاءَ الإنسانَ رسالةٌ مِن مَلِكٍ أو وزيرٍ ، لاعتنى بهذه الرسالة على أكْمل وَجْه ، واحتفظَ بها في أحسن مكان . فما بَالُكَ بالقُرآنِ العظيم الذي هُوَ رسالةُ اللهِ للإنس والجن ؟! . لا بُدَّ مِن تقديسه ، والاعتناء به قراءةً وحِفظاً وفَهماً وبَحثاً .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وقال الرسولُ يا رَبِّ إنَّ قَوْمي اتَّخَذوا هذا القُرآنَ مَهْجوراً ﴾[الفُرقان : ٣٠] .

والمعنى العام : إنَّ قَومي رَفضوا الإيمانَ بالقرآن الذي جِئْتُهم به وَحْياً مِن عند الله تعالى ، فلم يعرفوا قَدْرَه ، واتخذوه مهجوراً متروكاً . وهَجْرُ القرآن يأخذ أشكالاً متعددة فأشدُّها الكفر به . كما أن ترك قراءته أو عدم تطبيق أحكامه يُعتبَر مِن هَجْره .

لقد أعرضتْ قُرَيش عن القُرآن ، فلم يُؤمنوا بِه ، ولَم يَعملوا بأحكامه وتعاليمه ، واتَّهموه _ بلا دليل _ بأنه سِحْرٌ وكِهانة وشِعْر .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٦/ ٨٧): ((قَوْلُه تعالى: ﴿ وقال الرسولُ ﴾ يَعني مُحَمَّدا ﷺ وهذا عِند كثير من العلماء أنَّه يَقوله يوم القيامة ، فالمعنى : ويقول الرسول يَومئذٍ . وذهبَ آخرون منهم مُقاتِل إلى أن الرسول قال ذلك شاكياً مِن قَومه إلى الله تعالى حِين كَذَّبوه)) اه .

قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٢٣) : ((وذلك أن المشركين كانوا لا يُصْغُون للقرآن ، ولا يستمعونه ...فكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآن أكثروا اللغطَ والكلامَ في غَيره حتى لا يسمعوه ، فهذا مِن هِجرانه . وترك الإيمان به وترك تصديقه مِن هِجرانه . وترك تدبُّره وتفهُّمه مِن هِجرانه . وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره مِن هِجرانه . والعُدولُ عنه إلى غَيره من شِعْر أو قَول أو غِناء أو لَهْو أو كلام أو طريقة مأخوذة مِن غَيره مِن هِجرانه)) اه .

إذن ، ينبغي الحذرُ مِن هَجْر القرآن لِمَا في ذلك من تدمير للهوية الإنسانية الإيمانية ، وتفتيت للقيم الاجتماعية، وتحطيم للفرد والجماعة، وتحويل الإنسان إلى آلة صمَّاء مفرغة من المعنى البشري الراقي. والقرآنُ هو الدستور الشامل للإنس والجن ، جاء لإخراج الخلائق من الظلمات إلى النُّور. يصلح لكل زمان ومكان ، ومشتمل على الحلول الناجعة لكل المشكلات المصيرية

التي تهدد وجودَ الإنسان. كما أنه يجيب عن الأسئلة المصيرية الكبرى التي تجول في ذهن الإنسان (من أنا ؟ ، من أين جئتُ ؟، إلى أين أنا ذاهب ؟ ، ما الهدفُ من هذه الحياة ؟ ، ما حقيقة الموت وما بَعْد الموت ؟). وهكذا يتخلص المرءُ من القلق الشرس ، والخوفِ من المستقبل المجهول ، فيغدو فرداً صالحاً في مجتمعه الصغير ومجتمعه الكَوْني الواسع ، ومُتصالِحاً معَ ذاته والناسِ وعناصرِ الطبيعة ، وتصبح علاقاتُ الإنسانِ متينةً : علاقة الإنسان معَ نفْسه ، وعلاقته معَ الناس ، وعلاقته معَ الله تعالى .

*

١٣
وجوب الحكم بالقرآن

إِنَّ القُرآنَ هُوَ الْحَكَمُ الحاكِمُ . ويجب الحكمُ به وعدم الميل عنه . لأن الله تعالى مُنْزِل القرآن هو خالق الإنسان، ويَعلم _ سُبحانه _ ما يُصْلِح الإنسان ، وما يُفْسِده .

والقرآنُ هو الدستور الجامع للأحكام الإلهية التي تنقل الفرد والجماعة من الظلمات إلى النُّور ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الوهم إلى الحقيقة ، ومن الفوضى إلى النظام، ومن الفشل إلى النجاح، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الكسل إلى العمل، ومن الحزن إلى السعادة ، ومن الاكتئاب والمللِ إلى متعة العمل في الدنيا وحُسنِ الجزاء في الآخرة .

والأحكامُ القرآنية لَم تَجِئْ لتقضيَ على مستقبل البشرية، وتفتِّت المجتمعَ، وتُدمِّر حياةَ الفرد . إنها نظامٌ متكامل لصلاح الفرد وإصلاحِ الجماعة .

وفي ضوء هذه المعلومات يصبح عدمُ الحكم بما أَنزل اللهُ جنوناً شاملاً ، وهَلوسةً اجتماعية ، يُؤدِّيان إلى تعميم الفوضى في المجتمع ، وتحويل الإنسان إلى وحش بدائي كاسر ، وتحويل المجتمع إلى مشروع استثماري استهلاكي يَقضي القويُّ فيه على الضعيف ، ويسرق الغنيُّ الفقيرَ ، ... إلخ. فتنكسرُ منظومةُ الولاء والانتماء في المجتمع ، وتنهار هَيبةُ الدولة في النفوس ، وتصبح الفوضى هي النظام الحاكم في المجتمع عبر كل طبقات الهرَم الوظيفي التَّسلسلي .

قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هُم الكافرون ﴾ [المائدة : ٤٤] .

مَن جحد ما أنزل اللهُ أو استهانَ بِهِ فهو كافرٌ، أمَّا مَن أقرَّ بما أنزل اللهُ ولَم يحكم به فهو فاسقٌ. وأمرُه إلى اللهِ ، إن شاءَ عَذَّبه ، وإن شاءَ غفر له. والمسلمُ لا يَكْفر بارتكاب الكبيرة إلا إذا اعتقد أنها حلال (اسْتَحَلَّها) . والآيةُ عامة شاملة للمسلمين وغَيرهم معَ أن سياق الآية خاص باليهود . لكنَّ العِبرة بِعُموم اللفظ لا بِخُصوص السبب . وكلُّ آيةٍ تتحدَّث عن الكافرين ، فإِنَّها تحذيرٌ لِعُصاة المسلمين .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الظالمون ﴾ [المائدة : ٤٥] .

غيابُ الْحُكم الإلهيِّ يؤدي إلى انتشار الظلم ، فَمَن لَم يحكم بما أنزلَ اللهُ فهو ظالِمٌ لنفْسه ، لأنه ارتكبَ كبيرةً خطيرةً ، وأوقعَ نفْسَه في الهلاك ، وظالِمٌ لِغَيره لأنه لم يُطَبِّق الشرعَ الإلهيَّ ، مِمَّا أدَّى إلى تغييبِ العَدل ، ونشرِ الظلم والفساد الاجتماعي .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الفاسقون ﴾[المائدة : ٤٧] .

أي إنهم خارجون عن الشريعة ، مُخالِفون للأوامر الإلهية . قد انحرَفوا عن الصراط المستقيم بعدم تحكيمهم للشريعة الإلهية المعصومة .

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٧) : ((﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ ﴾ مُستهيناً به ، مُنكِراً له ﴿ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ لاستهانتهم بِه وتمرُّدِهم بأن حَكَموا بِغَيره ، ولذلك وصفهم بِقَوله : ﴿ الكافرون ﴾ و﴿ الظالمون ﴾ و ﴿ الفاسقون ﴾ ، فَكُفرهم لإنكاره ، وظُلمهم بالْحُكم على خِلافه ، وفِسقهم بالخروج عنه . ويجوز أن يكون كل واحدة من الصفات الثلاث باعتبار حال انضمَّت إلى الامتناع عن الْحُكم به مُلائِمة لها ، أو لطائفة ، كما قِيل : هذه في المسلمين لاتصالهم بخطابهم ، والظالمون في اليهود ، والفاسقون في النصارى)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب_ رضي الله عنه _ أن اليهود قالوا : ائتوا محمداً ﷺ فإنْ أمَرَكم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرَّجْم فاحذروا ، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الظالمون ﴾ ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الفاسقون ﴾ ، في الكفار كُلُّها] .

لقد اعترفَ اليهودُ أن الرَّجْم هو حَد الزنا في التوراة ، لكنه انتشر في أشراف اليهود، فصاروا يُطَبِّقون الحد على الوضيع دون الشريف ، فاتَّفقوا على اختراع عقوبة للزنا تشمل الشريف والوضيع دون تمييز ، فاختاروا التَّحميم (أي تَسويد الوَجْه) والجلد بدلاً من الرَّجْم .

وفي صحيح مسلم (٣/ ١٣٢٧) : عن البراء بن عازب _ رضي الله عنه _ قال : مُرَّ على النبيِّ ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّماً _ أي مُسْوَدَّ الوَجْه _ مَجلوداً ، فدعاهم ﷺ فقال : ((هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قالوا : نعم . فدعا رَجلاً من علمائهم فقال : ((أَنشُدُكَ باللهِ الذي أَنزل التوراةَ على موسى ، أهكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم ؟)) ، قال : لا، وَلَوْلا أنكَ نَشدتني بهذا لم أُخْبِرْكَ . نجده الرَّجْمَ ، ولكنه كَثُرَ في أشرافنا ، فَكُنَّا إذا أخذنا الشريفَ تركناه ، وإذا أخذنا الضعيفَ أَقمنا عليه الحدَّ . قُلنا : تعالَوْا فلنجتمع على شيء نُقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميمَ والْجَلْدَ مكان الرَّجْم .

وروى أبو داود في سُننه (٢/ ٣٢٣) : عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ إلى قوله : ﴿ الفاسقون ﴾، هؤلاء الآيات الثلاث نزلت في اليهود ، خاصة في قُرَيظة والنَّضير .

وعن هَمَّام قال: كُنَّا عِندَ حُذَيفة فذكروا ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ فقال رَجل مِنَ القوم : إنَّ هذا في بَني إسرائيل . فقال حُذَيفة : ((نِعْمَ الأُخوةُ بنو إسرائيل إن كان لكم الْحُلْو ولهم الْمُر ، كلا والذي نفْسي بيده حتى تحذو السُّنَّة بالسُّنَّة حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة))[263] .

والمعنى : أنكم سَتَتَّبِعون آثارَ بني إسرائيل ومنهجهم في عدم تحكيم الشرع الإلهيِّ . وهذا حاصلٌ الآن في بلاد المسلمين التي تحتكم إلى القوانين الوضعية ، ولا تأخذ بالشريعة الإسلامية إلا بشكل جزئي .

لكنَّ عدم الْحُكم بما أنزل اللهُ لا يُخرِج من المِلَّة ، إلا إذا كان المرءُ جاحداً للحُكم الإلهيِّ المذكور في القرآن أو السُّنة المتواترة ، أو مُستهزئاً به مُستخِفَّاً بمكانته ، أو إذا اعتقدَ أن الْحُكم البشري الوَضْعي أفضل مِن حُكْم الله تعالى . أمَّا إذا لَم يحكم بالشرع الإلهيِّ تحت ضغوطات مُعيَّنة أو اتِّباعاً للهوى ، فهو حينئذ ظالم فاسق ، ولا يخرج من الملة .

وعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : ((إنه ليس بالكُفر الذي يذهبون إليه ، إنه ليس كُفراً يَنقل عن الملة ﴿ وَمَن لم يَحْكم بما أَنزل اللهُ فأُولئكَ هم الكافرون ﴾ ، كُفْرٌ دُونَ كُفر))[264] .

وهذا الكُفرُ الذي لا يَنقل عن الملة أُورِد بمعناه اللغوي لا الاصطلاحي . فالكُفر (لغةً) يَعود إلى كلمة " الكَفْر " (بالفتحة) بمعنى السَّتْر والتغطية [265] . فمن لَم يحكم بشرع الله فقد كَفَرَ الْحُكْمَ الشرعيَّ أي سَتَرَه وغطَّاه وتجاوزه ، ولَم يخضع له ، لا بمعنى الجحود والإنكار .

---

(٢٦٣) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢١٨) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢١٩) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

(٢٦٥) في لسان العرب لابن منظور (٥/ ١٤٤) : ((والكَفْرُ بالفتح التغطية ، وكَفَرْتُ الشيء أَكْفِرُه بالكسر أَي سَتَرْتُه . والكافِر الليل ، وفي الصِّحاح الليل المظلم ، لأَنه يستر بظلمته كُلَّ شيء . وكَفَرَ

والْحُكم بالشريعة قضيةٌ أساسية لا يمكن التساهل فيها أو أخذها بشكل اجتزائي . فينبغي أن تكون دساتير الدول مستمدةً من الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد للتشريع ، وفي هذا ضمانة لاستقرار الفرد روحياً ومادياً ، وازدهار المجتمع بكل أطيافه ، وبكل أبنائه من المسلمين وغَيرهم ، مِمَّا يؤدي إلى صناعة نهضة حقيقية مُتَّصلة بالسماء .

وتطبيقُ الشريعة لا يُشكِّل خطراً على أحد . فالشرعُ الإلهيُّ هو الضمانة الأكيدة لنهضة المجتمعات ، وصَوْنها من أعداء الداخل والخارج ، وحماية المكتسبات الحضارية للفرد والجماعة ، حيث يعيش الجميع ضمن حالة مزدهرة من السِّلم الأهلي ، والسلامِ الاجتماعي الذي يحضن كلَّ أبناء المجتمع على اختلاف أديانهم وأعراقهم .

وفي ظل مجتمع الإخاء سوف تتعزز قيم التسامح والنماء والانتماء على أرض الواقع ، وليس بصورة شعاراتية جوفاء.وعندئذ يكون الإنسانُ المناسب في المكان المناسب داخل مجتمع يُقدِّر أبناءه ويُطوِّر إمكانياتهم ويضعهم في مكانهم اللائق بهم لكي تدور عجلة التنمية واقعاً ملموساً لا حِبراً على ورق .

إن تحكيم الشريعة في حياة المجتمعات سيُلغي الشططَ الطبقي ، ويقضي على الفوارق الطبقية

_ بمعناها التمييزي السلبي _ . فعندئذ يقدرُ الضعيفُ على أخذ حقه من القوي ، كما أن القوي تُوجَّه قوته في سُبل الخير فلا يُنقَص من مكانته أو حقوقه . ولن يشعر الفقراء بأنهم منبوذون في مجتمع يحتقرهم ويقهرهم ، ولن يشعر الأغنياء أنهم محل الحسد والتربص بثروتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم . ولن تشعر المرأة بأن حقوقها مهضومة ، وأن المجتمع ينظر إليها نظرةً دونية محصورة في إطار نيل المتعة الشهوانية . ولن يشعر الرَّجل بأن السُّلطة السياسية تضغط عليه وتزدريه ... إلخ . وهذه نماذج اجتماعية على سبيل الذِّكر لا الحصر .

وبعبارة أخرى ، إن تحكيم الشريعة سوف يُعطي لكل ذي حق حَقَّه ، فيتكرس المنهجُ المتماسك الذي يجعل السُّلطات في المجتمع متوازنة لها حقوق وعليها واجبات ، دون تطرف ولا اضطراب .

الليلُ الشيءَ وكَفَرَ عليه غَطَّاه ، وَكَفَرَ الليلُ على أَثَرِ صاحبي غَطَّاه بسواده وظُلمته ، وَكَفَرَ الجهلُ على عِلْم فُلان غَطَّاه ، والكافر البَحْر لسَتْرِه ما فيه ، ويُجْمَعُ الكافِرُ كِفَاراً)) اهـ .

لكنَّ بعض الجهات المغرِضة المرتبطة بأجندات خارجية تُخوِّف من تطبيق الشريعة.وحُجَّتها الواهيةُ المكرَّرة تتمثل في أن تطبيق الشريعة تخلف ورجعية ، وتطبيق الحدود (قطع اليد ، الرَّجم ، الجلد ، ...) يُعتبَر معادياً لحقوق الإنسان وعودةً إلى العصور البدائية ! ، وأن الأقليات الدينية سوف يتم اضطهادها وتخسر حقوقها . وهذه الأسطوانةُ المشروخة عبارة عن سيناريو متكرر ومحفوظ سلفاً ، وقد صار مكشوفاً ومفضوحاً في آنٍ معاً .

فتطبيقُ الشريعة هو قمة الحضارة والمدنية المتَّصلة بالسماء ، وعندما كان المسلمون يُطبِّقون الحدودَ الشرعية كانت الحضارة العربية الإسلامية تسيطر على كوكب الأرض ، وتنشر القيم الحضارية والازدهار في كل مكان ، فلماذا لم تُصَب بالتخلف أو الانكسار ؟ . وإن واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة يخلو من تطبيق الحدود فلماذا لَم تزدهر هذه المجتمعات ؟ .

والحدودُ الشرعية هي إجراءات ردع وتخويف، ولها شروط صعبة للغاية من أجل تطبيقها . وعندما كان المسلمون يُطبِّقون الحدود في عصور الازدهار لم يتحول المجتمع إلى مجموعة مشلولين ومعاقين وتوقفت عملية الإنتاج . وعددُ الذين طُبِّقت عليهم الحدود عبر تاريخ الحضارة الإسلامية قليلٌ جداً ، بحيث لا يُذْكَر .

أمَّا ورقةُ الأقليات التي يُلعَب بها فهي ورقة محروقة . فقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم في كنف الدولة الإسلامية المحكومة بالشريعة كل هذه القرون، ولم نسمع عن إجبارهم على اعتناق الإسلام أو هدم أماكن عبادتهم أو الاعتداء على أعراضهم أو سرقة أموالهم. وما وجودهم بيننا حتى هذه اللحظة إلا مؤشر على حُسن معاملتهم . مع أنه كان سهلاً استئصالهم عِندما كان المسلمون يُسيطرون على العالَم معنوياً ومادياً .

وقالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم بِما أنزلَ اللهُ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

فاحْكُم يا محمد بين الناس بالأحكامِ السماوية التي أنزلها اللهُ في القُرآن الكامل المعصوم ، لإنقاذ الناس من الشُّرور، وتكريس قيم العَدْل والإخاء، وبناء المجتمع على قاعدة صلبة ، والفوز بالنَّعيم في الدَّارَيْن. واللهُ لَم يَضَع الحدودَ الشرعيةَ لِيُضَيِّقَ على الناس، بَل وضعها لحماية الناس وإسعادهم. وإذا خَفِيَت الحِكمةُ على الناس ، فهذا لا يَعني عدم وجودها . فالحِكمةُ الإلهيةُ موجودةٌ عَرَفَها مَن عَرَفَها، وجَهِلَها مَن جَهِلَها. واللهُ خالقُ الإنسان ، وهو أعْلَمُ بِهِ مِنه ، ويَعلم ما يُصْلِحُه وما يُفْسِده.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٢/ ٧٠) : ((قَوْلُه : ﴿ فاحْكُم بَيْـنَهُم بِما أنزلَ اللهُ ﴾ أي بما أنزله إليكَ في القرآن ، لاشتماله على جميع ما شَرَعه اللهُ لعباده في جميع الكتب السابقة عليه)) .

وفي سُنن أبي داود (٢/ ٣٢٦) : عن ابن عباس قال : ((﴿ فإن جاؤوكَ فاحْكُم بَيْـنَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ [المائدة : ٤٢] فَنُسِخَتْ . قال : ﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم بِما أنزلَ اللهُ ﴾)) .

وهذا يعني أن النبيَّ ﷺ كان مُخَيَّراً بين الْحُكْم بَيْـنَهم أو تَرْكِهم لِمَن يَحكم بَيْـنَهم ، وهُم إنما يَتحاكمون إلى النبيِّ ﷺ طَلَباً لِمَا يُوافق أهواءهم لا طَلَباً للحق. وقد نُسِخَتْ هذه الآية بِقَوله تعالى: ﴿ فاحْكُم بَيْنَهُم بِما أنزلَ اللهُ ﴾ ، وهذا يَعني وُجوب الْحُكْم بما أنزلَ اللهُ ولا شيءَ غَيْرُه .

وقال القرطبي في تفسيره (٦/ ١٧٤): ((قَوْلُه تعالى : ﴿ فإن جاؤوكَ فاحْكُم بَيْـنَهُم أوْ أعْرِضْ عَنهُم ﴾ هذا تخيير مِنَ الله تعالى، ذَكَرَه القشيري ، وتقدَّم معناه أنهم كانوا أهل مُوادَعة لا أهل ذِمَّة، فإن النبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ وادعَ اليهودَ ، ولا يجب علينا الْحُكم بين الكفار إذا لم يكونوا أهل ذِمَّة ، بل يجوز الْحُكم إن أردنا ، فأمَّا أهل الذِّمة فهل يجب علينا الْحُكم بينهم إذا تَرَافَعوا إلينا ؟. قَولان للشافعي . وإن ارتبطت الخصومة بمسلم يجب الْحُكم . قال المهدوي : أجمع العلماء على أن على الحاكم أن يَحكم بين المسلم والذِّمي ، واختلفوا في الذِّميين ، فذهبَ بعضُهم إلى أن الآية مُحْكَمَة ، وأن الحاكم مُخَيَّر ، رُوِيَ ذلك عن النَّخعي والشَّعبي وغيرهما ، وهو مذهب مالك والشافعي وغَيرهما)) اهـ .

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ [المائدة : ٥٠][266].

(٢٦٦) قال الشهيد سَيِّد قطب في الظِّلال (٦ / ١٨٣) : ((إنَّ الجاهلية في ضوء هذا النص القرآنيِّ البليغ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ هي حُكم البشر للبشر،وعبودية البشر للبشر،ورفض أُلوهية الله ، والخروج من عبوديته إلى عبودية غَير الله ، إنه مفرق الطريق ، فإمَّا حُكم الله ، وإمَّا حُكم الجاهلية ، ولا وسط ولا بديل ، إمَّا أن تُنَفَّذ شريعة الله في حياة الناس ، أو يُنَفَّذ حُكم الجاهلية وشريعة الهوى ومنهج العبودية لغَير الله ، والجاهلية لَيست فترة من الزمان، ولكنها وَضْع من الأوضاع، يُوجَد بالأمس واليوم وغداً،والناس إمَّا أنهم يَحكمون بشريعة الله، ويَقبلونها، ويُسَلِّمون بها تسليماً، فَهُم إذاً مسلمون ، وإمَّا أنهم يَحكمون بشريعة مِن صُنع البشر ، فهُم في جاهلية ، وهُم خارجون عن شريعة اللهِ)) .

نعى اللهُ على أولئك الذي يريدون استلهام الحاكمية الجاهلية وإعادتها ، فجاء الخطاب القرآنيُّ مُوَبِّخاً ومُستنكِراً لفِعلهم : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ . والاستفهامُ للإنكار والتَّوبيخ . ومعنى الآية : أيَرفضونَ الْحُكْمَ الإلهيَّ الحقَّ الذي يُطبِّقه محمد ﷺ بكل أمانة ونزاهة ، ويَطلبون حُكْمَ الجاهلية ، حيث التَّمييز بين الشريف والوضيع ، والغني والفقير ، والرَّجل والمرأة ، وانتشار الْمُدَاهَنة والرِّشى .

إن الله تعالى يُنكر على الرافضين للحُكم الإلهيِّ العادل، ويريدون حُكم الجاهلية الغارق في الفوضى والظلم . فالْحُكم الإلهيُّ معصومٌ وكاملٌ ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتسلل إليه الظلم والرِّشوة والمجامَلة والخطأ... إلخ. أمَّا حُكم الجاهلية فهو قرارٌ بشري قاصر يعتريه النقصُ والأهواء والظلم . ولا يمكن لعاقل أن يُساويَ بين حُكمٍ سماويٍّ مُقدَّس وبين حُكمٍ وَضعيٍّ مُدنَّس . كما أن الْحُكمَ الإلهيَّ يسري على الجميع بلا تمييز، أمَّا حُكم الجاهلية فيعتمد على التفرقة بين الشريف والوضيع . تماماً كما كان يفعل اليهود حيث يُطبِّقون الحدود على الفقراء والضعفاء، ولا يُطبِّقونها على السادة والأقوياء .

وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٩٠) : ((يُنكِر تعالى على مَن خرج عن حُكم الله الْمُحْكَم المشتمِل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعَدَلَ إلى ما سِواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مُستنَد من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مِمَّا يضعونها بآرائهم وأهوائهم)) اهـ .

أمَّا عن سبب النُّزول ، فقد قال ابن عباس _ رضي الله عنهما _ : ((كانت قُرَيْظة والنَّضير، وكان النَّضيرُ أشرفَ مِن قُرَيظة، فكان إذا قَتل رَجلٌ مِن قُرَيظة رَجلاً من النضير قُتل به ، وإذا قَتل رَجلٌ من النضير رَجلاً من قريظة قالوا : ادفعوه إلينا نقتله . فقالوا : بَيْنَنا وبينكم النبيُّ ﷺ فأَتَوْه، فَنَزلت: ﴿ وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسط إن الله يحب المقسطين ﴾ [المائدة: ٤٢]...ثم نزلت : ﴿ أفحُكم الجاهلية يبغون ﴾))[267].

إنَّ حُكم الجاهلية يستمد وجوده من التمييز بين الناس ، والتفرقةِ العنصرية ، وتفصيل العدالة على مقاس المكانة الاجتماعية . والأحكامُ الجاهلية قائمة على أساس انعدام المساواة بين الناس وتكريسِ الفروقات الطبقية . فهناك أحكام خاصة بالأشراف والأغنياء ، وأحكام أخرى خاصة

---

(٢٦٧) رواه الحاكم في المستدرَك (٤/ ٤٠٧) برقم (٨٠٩٤) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي .

بأصحاب المرتبة الدونية في المجتمع كالفقراء والضعفاء . وهذا الشَّططُ الطبقي يُغذِّي الحقدَ الاجتماعي ويُنشئ مجتمعَ الكراهية ، ويُوغر صدور الناس ، ويجعلهم أعداء متنافرين في مجتمع ممزَّق وغير متجانس. وهذا المجتمع لا يمكنه بناء حضارة ، أو نشر قيم الحرية والتنمية والرفاهية.

﴿ وَمَنْ أحسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ . هذا استفهام إنكاري . والمعنى : لا أحد أحسن مِنَ اللهِ حُكماً عِندَ أهل اليقين والإيمان لا أهل الشَّك والجهل . وحُكْمُ اللهِ هو قِمَّة العَدْل ، وبيانُه ذِرْوةُ الصِّدق ، وشريعته في غاية الإحكام . والْمُوقِنُونَ باللهِ وقُرآنِه يَعلمون عَدْلَ اللهِ في أحكامه ، لذلك خَصَّهم اللهُ بالذِّكر، لأنهم القادرون على تمييز الحق من الباطل ، وبالتالي هُم ـ وَحْدَهم ـ المنتفعون بكلامِ اللهِ ، والقادرون على رؤية حِكمة اللهِ في الشرائعِ ببصائرهم . أمَّا الجهَّالُ أصحابُ الأهواء ، فلا يَقْدِرُون على إدراكِ حِكمة اللهِ وعَدْلِه لأنهم عُميان أصحاب قلوب نجسة .

وقال ابن كثير في تفسيره(٢/ ٩٠):((أي: ومَن أعدلُ مِن الله في حُكمه لِمَن عَقِلَ عن الله شَرْعَه، وآمنَ به وأيقنَ ، وعَلِمَ أن اللهَ أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ بِخَلْقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالِم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء)) اهـ .

١٤
سجدات التلاوة

مَن قرأ آيةَ سجدة أو سمعها ، يُستحَب له أن يُكبِّر ويَسجد سَجدةً ، ثُمَّ يُكبِّر للرَّفع من السُّجود . وهذا هو سُجود التِّلاوة ، لا تَشَهُّد فيه ولا تسليم . وحُكْمُه سُنَّة للقارئ والمستمِع .

والجديرُ بالذِّكر أن عدد سَجَدات التِّلاوة في القُرآنِ خمس عشرة سجدة .

١ _ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ويُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُون ﴾ [الأعراف : ٢٠٦].

إنَّ الملائكةَ الأطهارَ خاضعون للهِ لا يَترفَّعون عن عبادته، ويُعظِّمونَه ويُنَزِّهونه عَن كُلِّ النقائصِ، ولا يَسْجُدُون إلا لَه . والسُّجودُ أشرفُ العبادات . إنهم في غاية الخضوع والتَّذَلُّل للهِ تعالى ، يُوحِّدون اللهَ ، ولا يُشرِكون بِه شيئاً .

وقد ذُكر الملائكة الأطهار في هذا السياق القُرآنِيِّ ، من أجل الاقتداء بهم في كثرة الطاعة والعبادة ، واتِّخاذِهم قُدوةً عُليا . فالملائكةُ الذين هُم أعظم مِنَ البَشَر ، يَخضعون للهِ ، فحريٌّ بالإنسانِ الأدنى أن يَقتديَ بالملائكة أصحاب المنْزلة العُليا .

قال الشَّوكاني في فتح القدير(٢/ ٤٠٩):((﴿ إِنَّ الذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ ﴾ المراد بهم الملائكة ، قال القرطبي : بالإجماع . قال الزَّجَّاج : وقال : ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ واللهُ عَزَّ وَجَلَّ بكل مكان ، لأنهم قَريبون من رحمته ، وكُل قريب من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ فهو عِندَه ، وقال غَيْرُه : لأنهم في مَوْضِع لا يُنَفَّذ فيه إلا حُكم اللهِ ، وقِيل : إنهم رُسُلُ اللهِ ، كما يُقال : عِندَ الخليفة جَيْشٌ كثير ، وقِيل : هذا على جِهة التشريف والتكريم لهم)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٨٧) : عن أبي هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : ((إذا قَرَأَ ابْنُ آدمَ السَّجدةَ فَسَجَدَ، اعتزلَ الشَّيطانُ يبكي ، يَقول : يا وَيْلَه _ يعني يا وَيْلَ الشَّيطان _ ، أُمِرَ ابنُ آدم بالسُّجود فسجدَ فَلَهُ الجنة، وأُمِرْتُ بالسجود فَأَبَيْتُ فَلِيَ النار)) .

والمقصودُ بالسَّجدةِ آيةُ السَّجدة . قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٢/ ٧١) : ((وَقَوْلُه : " يا وَيْلَه " هو من آداب الكلام ، وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغَير ما فيه سُوء ، واقتضت الحكاية رُجوع الضمير إلى المتكلِّم ، صَرف الحاكي الضميرَ عن نفْسه تصاوُناً عن صورة إضافة السُّوء إلى نفْسه)) اهـ .

٢ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وللهِ يَسْجُدُ مَن في السماواتِ والأرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغُدُوِّ والآصَالِ ﴾ [الرَّعْد : ١٥].

للهِ وَحْدَهُ يَسجدُ ويَخضعُ أهلُ السماوت (الملائكة) وأهلُ الأرض (المؤمنون والكافرون) . والمؤمنُ يَسجد للهِ طَائعاً ، أمَّا الكافرُ فيسجد مُكْرَهَاً في حال الشِّدة والضرورة والخوف .

والآيةُ تُشير إلى عَظَمة اللهِ ومَجْدِه وقُدرته المطْلقة، وخُضوعِ المخلوقاتِ له بإرادتها ورَغْمَ أنفها، وتَوبيخ الكافرين الرَّافضين للسجود للهِ تعالى . إن قُوَّةَ اللهِ قَهَرَتْ كُلَّ شيء ، وحُكْمَه خضع له كلُّ شيء . والجديرُ بالذِّكر أن السُّجود له معنيان : الأول ـ وَضْع الجبهة على الأرض ، وهذا الوَضْع يقوم به الكافرُ خَوفاً مِنَ السَّيف ، والثاني ـ الخضوع والتَّذَلُّل ، والكافرُ خاضعٌ للهِ سَواءٌ وضع جبهته على الأرض أم لَم يَضَعْها . وحَقُّ اللهِ على الإنس والجن ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أن يَسجدوا له [268].

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٣٢٤) : ((يُحْتَمَل أن يكون السُّجود على حقيقته ، فإنه يَسجد له الملائكةُ والمؤمنون مِنَ الثَّقَلَيْن طَوعاً حَالَتَي الشِّدة والرَّخاء ، والكَفَرة كَرْهاً حال الشِّدة والضرورة)) اهـ .

﴿ وَظِلالُهُم بالغُدُوِّ والآصَالِ ﴾ . ظِلالُ الساجدين تَسجد ـ هي الأخرى ـ للهِ تعالى، وذلك بأن تَميل من جهة إلى جهة . فاللهُ يُصرِّفها كيف يشاء. وتخصيصُ هَذَين الوَقتَيْن (الغُدُوِّ " أوَّل النهار"، والآصال " أواخره ") لأن الظلال تَكْثُر فيهما وتَعْظُم. وسُجودُ الظلالِ تمايُلُها وانقيادُها بالطُّول والقِصَر. وهذا يُشير إلى عَظَمَة اللهِ وسُلطانه ، فالمخلوقاتُ لا تَسجد له فَحَسْب، بل أيضاً

---

(٢٦٨) قال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٥٧) : ((قال الحسن وقتادة وغيرهما : المؤمن يَسجد طَوعاً ، والكافر يَسجد كَرْهاً بالسَّيف. وعن قتادة أيضاً : يَسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان ... وقال ابن زيد: (طَوعاً) مَن دخل في الإسلام رَغبةً و(كَرْهاً) مَن دخل فيه رَهبةً بالسَّيف. وقِيل: (طَوعاً) مَن طالت مُدَّةُ إسلامه فَأَلِفَ السجود، و(كَرْهاً) مَن يُكْرِهِ نفْسَه للهِ تعالى، فالآية في المؤمنين)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٨) : ((وفي معنى سجود الساجدين كَرْهاً ثلاثة أقوال : أحدها أنه سجود مَن دَخَلَ في الإسلام بالسَّيف ، قاله ابن زَيد . والثاني أنه سجود ظِل الكافر ، قاله مقاتل ، والثالث أنه سجود الكاره تَذَلُّلَه وانقيادَه لِمَا يريده اللهُ منه مِن عافية ومرض وغِنى وفقر)) .

ظلالُها تَسجد للهِ تعالى. وهذا مُنتهى الخضوعِ للهِ ، والانقياد لأمْره ، والتَّذلُّل أمامَ جبروته وسُلطانه .

وقال القرطبي في تفسيره (٩/ ٢٥٧) : ((وقال مجاهد : ظِل المؤمن يَسجد طَوعاً وهو طائع ، وظِل الكافر يَسجد كَرْهاً وهو كاره . وقال ابن الأنباري : يَجعل للظلال عقولاً تسجد بها وتخشع بها كما جعل للجبال أفهاماً حتى خَاطَبَت وخُوطِبَت. قال القُشَيري : في هذا نظَر ، لأن الجبل عَيْن، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة ، وأمَّا الظلال فآثار وأعراض ، ولا يُتَصَوَّر تقدير الحياة لها . والسجود بمعنى الْمَيْل ، فسجود الظلال مَيْلُها من جانب إلى جانب ، يُقال : سَجَدَت النخلةُ ، أي مَالَتْ)) [269].

٣ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وللهِ يَسْجُدُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ مِن دابَّةٍ والملائكةُ وَهُم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ [النَّحْل : ٤٩] [270] .

للهِ يَخضع لأمْرِه ويَستسلم لِحُكْمِه ما في السماواتِ، وما في الأرض مِن دابَّة تَدِبُّ عليها، أي: كل ما يَتحرَّك على الأرض، والملائكةُ الذين هُم في الأرض ، وقد خَصَّهم بالذِّكْر لِشَرف مَنْزلتهم ، ورِفْعة قَدْرهم ، وعظيمِ شأنهم ، وهُم لا يَستكبرون عن عبادةِ اللهِ ، والخضوعِ له ، والاستسلامِ لأمْرِه . إنَّ كُلَّ ما في السماوات وما في الأرض خاضعٌ للهِ وَحْدَه لا شريك له ، يَستسلم للهِ ، ولا يَستسلم لِغَيْره ، وكلُّ شيء ذَليلٌ للهِ الخالقِ العظيم .

---

(٢٦٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٣١٩) : ((قال ابن الأنباري : قال اللغويون : الظِّل ما كان بالغَدَوات قبل انبساط الشمس ، والفَيْء ما كان بعد انصراف الشمس ، وإنما سُمِّيَ فَيْئاً ، لأنه فاءَ ، أي رجع إلى الحال التي كان عليها قبل أن تنبسط الشمس ، وما كان سوى ذلك فهو ظِل ، نَحْو : ظِل الإنسان ، وظِل الجدار ، وظِل الثَّوب ، وظِل الشجرة)) اهـ .

(٢٧٠) قال النَّسفي في تفسيره (٢/ ٢٥٨): ((﴿ مِن ﴾ بيان لِمَا في السماوات وما في الأرض جميعاً، على أنَّ في السموات خَلْقاً يَدِبُّون فيها كما تَدِبُّ الأناسِيُّ في الأرض ، أو بيان لِمَا في الأرض وَحْدَه والمراد بما في السماوات ملائكتهنَّ، وبِقَوله: ﴿ والملائكة ﴾ ملائكة الأرض مِنَ الْحَفَظَة وغَيْرِهم . قِيل: المراد بِسُجود الْمُكَلَّفين طاعتُهم وعبادَتُهم ، وبسجود غَيْرِهم انقيادُهم لإرادة اللهِ ، ومعنى الانقياد يجمعهما ، فلم يختلفا ، فلذا أجاز أن يُعَبَّر عنهما بلفظ واحد ، وجِيءَ (بما) إذ هو صالح للعقلاء وغَيْرِهم ، وَلَوْ جِيءَ (بِمَن) لتناول العقلاء خاصةً)) .

والجديرُ بالذِّكر أن سُجودَ مَن يَعْقِل عبادةٌ ، أمَّا سُجود مَن لا يَعْقِل فمعناه الخضوع للهِ ، والاستسلام لأمْرِه .

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٠١) : ((فَمَيَّزَهم _ أي الملائكة _ مِن صِفة الدَّبيب بالذِّكْر وإن دخلوا فيها ... وقيل : لخروجهم مِن جُملة ما يَدِبُّ لِمَا جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا في الجملة ، فلذلك ذُكروا. وقِيل : أراد ﴿ ولله يَسْجُدُ ما في السماواتِ ﴾ من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب ﴿ وما في الأرضِ مِن دابَّةٍ ﴾ وتسجد ملائكة الأرض

﴿ وَهُم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ عن عبادة ربهم.وهذا رد على قُرَيش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله)).

وسُجودُ الشمس والقمر والنجوم سجودٌ حقيقيٌّ ، وهُم ضِمْن دائرة مَن يَعْقِل . فعن أبي ذَر _ رضي الله عنه _ قال : قال النبيُّ ﷺ لأبي ذَر حِينَ غَرَبَت الشمسُ : ((تدري أيْنَ تذهب ؟)) ، قلتُ : اللهُ ورسوله أعْلَم ، قال : ((فإنها تذهب حتى تَسْجُدَ تحت العرش)) (271).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٤٥٣) : ((وأمَّا النبات والشجر ، فلا يخلو سجوده من أربعة أشياء : أحدها أن يكون سُجوداً لا نَعْلَمُه ، وهذا إذا قُلنا إنَّ الله يُودِعه فَهماً ، والثاني أنه تفيُّؤ ظلاله ، والثالث بيان الصَّنعة فيه ، والرابع الانقياد لِمَا سُخِّر له)) اهـ .

وفي صحيح البخاري (١/ ٣٦٦) أنَّ عمر بن الخطاب _ رضي اللهُ عنه _ قَرَأَ يَوْمَ الْجُمُعة على المِنبر بِسُورة النَّحْل ، حتى إذا جاء السَّجدةَ نَزَلَ فسجدَ وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها ، حتى إذا جاء السجدةَ ، قال : يا أيها الناس ، إنَّا نَمُرُّ بالسُّجود ، فَمَن سَجَدَ فقد أصابَ ، وَمَن لَم يسجد فلا إثم عليه . ولَم يسجد عُمر _ رضي الله عنه _ .

وهذا دليلٌ واضح على أنَّ سُجود التِّلاوة ليس فَرْضاً ، وإنَّما هُوَ سُنَّة . يُؤْجَر فاعلُه ، ولا يُعاقَب تاركُه .

٤_ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أوْ لا تُؤمنوا إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إذا يُتلَى عَلَيْهِم يَخِرُّونَ للأذْقانِ سُجَّداً ﴾ [الإسراء : ١٠٧] .

قُل يا محمد للكافرين بالقُرآن العظيم : سواءٌ آمنتُم بالقُرآن أم كفرتُم به ، فهو حقٌّ وصِدْقٌ ، وهو كلامُ اللهِ الذي لا يَأتيه الباطلُ مِن بَيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفه . والقُرآنُ العظيمُ هو الحاكمُ على

(٢٧١) متفق عليه.واللفظ للبخاري(٣/ ١١٧٠)برقم(٣٠٢٧)،ومسلم (١/ ١٣٨) برقم (١٥٩).

الناس والشاهد عَلَيهم ، ولا يَحتاج إلى شهادة أحدٍ ، ولا أحد يَحكم عَلَيه . والإيمانُ بالقُرآنِ لا يَنفع القُرآنَ ، وإنما يَنفع المؤمنَ . والكفرُ بالقُرآن لا يَضُرُّ القُرآنَ ، وإنما يَضُرُّ الكافرَ . فالإيمانُ بالقُرآن لا يَزيده كَمالاً وَجَمَالاً ، والكُفرُ بالقُرآن لا يَجعله ناقصاً . فالقُرآنُ حقٌّ وصِدْق ، سَواءٌ آمنَ الناس بِه أم كَفروا بِه. والعاجزُ عن رُؤية نُور الشمس في النهار ، فالمشكلة في عَينيه ، ولَيْسَت المشكلة في الشمس . وصدقَ الشاعرُ إذ يَقول :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضَوءَ الشمسِ مِن رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

والجديرُ بالذِّكر أنَّ الآية : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أوْ لا تُؤمنوا ﴾ تَحْمِل معنى تَوبيخ الكافرين وتهديدهم والوعيد الشديد ، ولا تَحْمِل معنى التَّخيير .

إنَّ مُؤمنو أهل الكتاب (وهُم العُلماء الذين أسْلَمُوا مِنَ اليهود والنصارى ، وهُم الذينَ أُوتُوا العِلْمَ قَبْلَ نُزول القُرآن، وقبل نُبُوَّة محمد ﷺ) ، كانوا إذا سَمِعوا القُرآنَ يَسْجُدون للهِ تَعظيماً له ، وشُكراً له، واعترافاً بِنِعَمِهِ الجزيلة . فقد أنجزَ اللهُ وَعْدَه الموجود في التَّوراة والإنجيل بإرسال النبيِّ الخاتَمِ محمد ﷺ ، وإنزال القُرآن عَلَيه ، وهذه أعظمُ نِعمة ، ويجب شُكْرُ اللهِ عليهم بالسُّجود له ، والوصول إلى غاية الخضوع والتَّواضع. والآيةُ ﴿ يَخِرُّونَ للأذْقانِ سُجَّداً ﴾ تُشير بوضوح إلى خضوعهم التام للهِ،وأنهم وَصَلوا إلى غاية الاستسلام لأمْرِ اللهِ،والتسليمِ بِحُكْمِه، والتواضعِ لِعَظَمَتِه. والمعنى: يَسْقُطون إلى الأرض يَسْجُدون على وجوههم، والذَّقَنُ أسفلُ الوَجْه، وتَمَّ التعبير بالذقن عن الوَجْه مَجازاً ، مِن إطلاق الجزء على الكُلِّ ، لأنَّ الذَّقن جُزء من الوَجْه .

وهذا الخِطابُ القُرآنِيُّ دَعْمٌ للنبيِّ ﷺ ، ورَفْعٌ لمعنوياته . فإن كَفَرَ مُشركو العرب بالقُرآنِ ، وهُم الجهَّال المنقطِعون عن السماء ، يَعبدون الأصنامَ ، ولَيْسَ لَدَيهم كتابٌ سماويٌّ ، فقد آمَنَ بالقُرآنِ العُلماءُ الذينَ قَرَؤوا الكُتبَ السماوية وفَهِمُوها ، وأدْرَكوا مَعانيها وألفاظَها ، وهؤلاء يُعظِّمون اللهَ ، ويُقدِّسون كلامَه . وهُم إذا سَمِعوا القُرآنَ يَسْجُدون للهِ بِكُلِّ خُضوعٍ وذُل [272].

---

(٢٧٢) قال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٧١) : ((وَقَوْلُه : ﴿ إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ ﴾ تَعليلٌ له(للنَّبيِّ) أي إن لَم تؤمنوا به فقد آمنَ بِه مَن هو خَيْر مِنكم ، وهُم العلماء الذين قَرَؤُوا الكتب السابقة وعَرَفوا حقيقةَ الوَحْي ، وأماراتِ النُّبُوَّة ، وتمكَّنوا من التمييز بين الْمُحِق والْمُبطِل ، أو رَأَوْا نَعْتَكَ وصِفة ما أُنزِل إلَيْك في تلك الكُتب ، ويَجوز أن يكون تعليلاً لِ﴿ قُلْ ﴾ على سبيل التَّسلية، كأنه قِيل: تَسَلَّ بإيمان

وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ٢٩٦) : ((هذه مُبالَغة في صِفتهم ، ومَدْح لهم ، وحُقَّ لِكُلِّ مَن توسَّم بالعِلْم ، وحصَّل مِنه شيئاً أين يجري إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ، ويتواضع ويَذِل)) اهـ .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٩٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤمنوا ﴾ هذا تهديد لكفار أهل مكة ، والهاء كِناية عن القُرآن . ﴿ إِنَّ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ ﴾ وفِيهم ثلاثة أقوال : أحدها أنهم ناس مِن أهل الكتاب ، قاله مجاهد. والثاني أنهم الأنبياء عليهم السلام ، قاله ابن زَيد، والثالث : طُلاب الدِّين كأبي ذَر وسَلْمان ووَرَقة بن نَوْفَل وزَيْد بن عَمْرو، قاله الواحدي. وفي هاء الكِناية في قَوْلِه: ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ قَوْلان: أحدهما أنها ترجع إلى القرآن، والمعنى مِن قَبْلِ نزوله. والثاني ترجع إلى رسول الله ﷺ ، قاله ابن زَيْد . فعلى الأول : إذا يُتْلَى عليهم القرآن ، وعلى قَوْل ابن زَيْد : إذا يُتْلَى عليهم ما أُنزِل إِلَيْهِم مِن عِند الله . قَوْلُه تعالى : ﴿ يَخِرُّونَ للأذْقانِ ﴾ اللام هاهُنا بمعنى (على) . قال ابن عباس : قَوْلُه : ﴿ للأذْقانِ ﴾ أي للوجوه . قال الزَّجَّاج : الذي يَخِرُّ وهو قائم إنما يَخِرُّ لِوَجْهِه ، والذَّقن مُجتمَع اللحْيَيْن ، وهو عُضْو من أعضاء الوَجْه ، فإذا ابتدأ يَخِرُّ فأقرب الأشياء مِن وجهه إلى الأرض الذَّقن . وقال ابن الأنباري : أوَّل ما يَلْقَى الأرضَ مِن الذي يَخِرُّ قَبْلَ أن يُصَوِّبَ جَبته ذَقْنُه ، فلذلك قال : ﴿ للأذْقانِ ﴾ ، ويجوز أن يكون المعنى : يَخِرُّون للوُجوه ، فاكتفى بالذَّقن مِنَ الوَجْه ، كما يُكْتَفَى بالبعض مِنَ الكُلِّ ، وبالنَّوع مِنَ الجِنس)) .

والوَجْهُ أجملُ شيء في الإنسان ، وهو مَجْمَعُ المحاسنِ ، ومُجْتَمَعُ الحواس ، ومَنْبَع الفِتنة . والوَجْهُ أَوَّلُ ما يُبْتَدَأ به . وسُجودُ الإنسانِ على وَجْهه للهِ العظيم دليلٌ واضح على غاية الذل والخضوع والاستسلام والعبادة .

وفي الدُّر المنثور للسُّيوطي (٥/ ٣٤٧) : ((وأخرج ابن المبارك وابن أبي شَيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الأعلى التَّيمي قال: إنَّ مَن أُوتِيَ مِنَ العِلْمِ ما لا يُبكيه ، لخليقٌ

العلماء عن إيمان الجهَلة ، ولا تكترِثْ بإيمانهم وإعراضهم)) اهـ . وقال الشَّوكاني في فتح القدير(٣/ ٣٧٧) : ((وفي هذا تَسلية لرسول الله ﷺ، وحاصلها أنه إن لَم يُؤمِن به هؤلاء الجهَّال الذين لا عِلْمَ عِندهم ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائه،فلا تُبالِ بذلك، فقد آمَنَ به أهلُ العِلْم، وخَشَعوا له ، وخَضَعوا عند تلاوته عليهم خُضوعاً ظهر أثرُه البالغ بِكَوْنِهم يَخِرُّون على أذقانهم سُجَّداً للهِ)) .

أنْ قَد أُوتيَ مِنَ العِلْمِ ما لا يَنفعه ، لأن اللهَ نَعَتَ أهْلَ العِلْم فقال : ﴿ وَيَخِرُّونَ للأذقانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء : ١٠٩])) .

وهذا رَبْطٌ مَنطقيٌّ بَيْنَ العِلْم النافع والبُكاء مِن خَشية اللهِ. فالإنسانُ إذا عَلِمَ معاني صِفات اللهِ، والتزمَ بأوامره ونَواهيه ، صارَ عالِماً بِعَظَمَةِ اللهِ ، ومُوقِناً بِوَعْدِه ووعيده ، وعارفاً بأدلة الأحكام . وهذه الأمور تَزرع في قَلبه حُبَّ اللهِ وخَشْيَته، فيرجو اللهَ، ويَخاف ذُنوبه.فهو بَيْنَ الرَّجاء والخوْف ، وهذا يَقوده إلى البُكاء حُبّاً للهِ ، وشَوْقاً إلى لقائه ، وخَوْفاً مِن مَكْرِهِ .

٥_ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أُولئكَ الذينَ أنعمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ومِمَّنْ حَمَلْنا معَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا إذا تُتلَى عَلَيْهِم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً ﴾[مريم : ٥٨] .

لقد أنعمَ اللهُ على النَّبِيِّين بأنواع النِّعَم الدينية والدُّنيوية ، وهذا لَيس غريباً ، فَهُم عبادُه الْمُخْلَصُون ، أنعمَ عليهم ، وهَدَاهم إلى معرفته ، وأرشدهم إلى طريق الحق ، وشَرَّفهم بالنُّبُوَّة والصِّيت العَطِر ، وجعلهم سادةَ البشرية ، وقادة الحضارة الإنسانية ، وأعلى ذِكْرَهم في الدنيا والآخرة . ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ أي : مِن نَسْل آدم ﷺ، والمقصود به إدريس ﷺ. ﴿ ومِمَّنْ حَمَلْنا معَ نُوحٍ ﴾ في السفينة، والمقصود بِه إبراهيم ﷺ، فإنَّه مِن ذُرِّية سام بن نوح. ﴿ وَمِن ذُرِّيةِ إبراهيمَ ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب_عليهم الصلاة والسلام _ . ﴿ وإسرائيلَ ﴾ أي : ومِن ذُرِّية إسرائيل (يعقوب) ﷺ ، والمقصود بِهِم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى_عليهم الصلاة والسلام_ .

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٥٣) : ((ولذلك فَرَّقَ تعالى ذِكْرُه أنسابَهم ، وإن كان يجمع جميعَهم آدمُ ، لأن فيهم مَن ليس مِن وَلَدِ مَن كان معَ نوح في السفينة ، وهو إدريس ، وإدريس جَدُّ نوح)) اهـ .

﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنا واجْتَبَيْنا ﴾.وَممَّن أرْشَدْنا إلى الإسلام(طريق الحق)،واصْطَفَيْنا للنُّبُوَّة والكرامة.

وقال الطبري في تفسيره (٨/ ٣٥٣) : ((﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنا ﴾ للإيمان بالله ، والعمل بطاعته ، ﴿ واجْتَبَيْنا ﴾ يقول : ومِمَّن اصْطَفَيْنا وَاخْتَرْنا لرسالتنا ووَحْينا)) اهـ .

﴿ إذا تُتلَى عَلَيْهِم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً ﴾ . إذا تُتْلَى على هؤلاء الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم مِنَ النَّبيين ، آياتُ اللهِ المشتملة على الحِكَم والأحكام والمواعظ والبراهين والْحُجَج ، سَجَدوا للهِ تَعظيماً له ، واعترافاً بِفَضْله . وهذا يدل على خضوعهم التام للهِ ، وخُشوعهم له ، وخَشيتهم مِنه . وقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سَمِعوا آياتِ الله سَجَدوا تَعظيماً له ، وبَكَوْا

خَوْفاً مِنه ، معَ مكانتهم الشريفة ، ونَسَبِهم الطاهر ، ونُفوسهم الكاملة ، وقُلوبهم المؤمنة ، وقُرْبهم مِنَ اللهِ تعالى . وعلى الناس الاقتداءُ بِهم ، واتِّخاذهم مَثَلاً أعلى . والآيةُ دليلٌ على مشروعية سُجود التِّلاوة .

وقال القرطبي في تفسيره (١١/ ١١١) : ((في هذه الآية دلالةٌ على أنَّ لآياتِ الرحمن تأثيراً في القلوب . قال الحسن : ﴿ إذا تُتلَى عَلَيْهِم آياتُ الرحمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيَّاً ﴾ في الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكُتب المتضمِّنة لِتَوحيده وحُجَجه، وأنهم كانوا يَسجدون عند تِلاوتها ويبكون عند ذِكْرها. والمرويُّ عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصةً ، وأنهم كانوا يسجدون ، ويَبكون عند تلاوته)) اهـ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٢٤٤و٢٤٥) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ قال الزَّجَّاج : ﴿ سُجَّداً ﴾ حال مُقَدَّرة . المعنى : خَرُّوا مُقَدِّرين السُّجود ، لأن الإنسان في حال خُروره لا يكون ساجداً. فَـ﴿ سُجَّداً ﴾ منصوب على الحال ، وهو جمع ساجد . ﴿ وبُكِيَّاً ﴾ معطوف عليه ، وهو جَمْع باكٍ ، فقد بَيَّنَ اللهُ تعالى أن الأنبياء كانوا إذا سَمِعوا آياتِ الله سَجَدوا وبَكَوْا مِن خَشية الله)) اهـ .

٦ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن في السماواتِ وَمَن في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ وكثيرٌ مِنَ الناسِ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذابُ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يشاءُ ﴾[الْحَج : ١٨][273].

إنَّ كلَّ شيء عَبْدٌ للهِ ، ساجدٌ له طَوْعاً وكَرْهاً ، مُسْتَسْلِمٌ لأمْرِه ، خاضعٌ لِحُكْمِه ، مُسَخَّرٌ لِقُدرته، لا يَخرج عن سَيطرته وتَدبيره. وخُضوعُ الأشياء للهِ يدل على عَظَمَته وجَبروته وهَيْمنته على كُل شيء. واللهُ وَحْدَهُ هو المستحق للعبادة، لا شَريك له ولا نِد. وكلُّ شيء يَسْجُد للهِ ، وقد نَعْلَم

(٢٧٣) قال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٣٤) : ((الرؤية هنا هي القَلْبية لا البَصَرية : أي أَلَمْ تَعْلَمْ والخطاب لكل مَن يَصْلُح له ، وهو مَن تتأتَّى مِنه الرؤية . والمراد بالسُّجود هنا هو الانقياد الكامل لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء ، سواءٌ جُعلت كلمة (مَن) خاصةً بالعقلاء أو عامةً لهم ولِغَيرهم ، ولهذا عَطَفَ ﴿ والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ والجِبالُ والشَّجرُ والدَّوابُّ ﴾ على (مَن)، فإنَّ ذلك يُفيد أنَّ السُّجود هو الانقياد لا الطاعة الخاصة بالعُقلاء ، وإنما أُفرِد هذه الأمور بالذِّكْر معَ كَوْنها داخلة تحت (مَن) على تقدير جَعْلها عامةً ، لِكَوْنِ قيام السُّجود بها مُسْتَبْعَدَاً في العادة)) .

طبيعة سُجوده، وقد لا نَعْلَمُها. والرؤيةُ المقصودةُ في الآية هي رؤية القلب لا رؤية العَيْن ، والمعنى : ألَم تَرَ بِقَلْبِكَ وعَقْلِك .

والملائكةُ الذينَ هُم في السماوات يَسْجُدون للهِ ، والإنسُ والجِنُّ وكافة المخلوقات في الأرض يَسْجُدون للهِ . وهذه الأجرام العظيمة الهائلة (الشمس والقمر والنجوم) والجبال والشجر والحيوانات كُلُّها سَاجدة للهِ تعالى.وقد أُفْرِدَتْ بالذِّكْر لِشُهرتها، ولأنَّ الناس لا يَتصوَّرون سُجودَها.

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٢٨٣) : ((وقَوْلُه : ﴿ والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ ﴾ إنَّما ذَكَرَ هذه على التَّنصيص لأنها قد عُبِدَتْ مِن دُون الله، فَبَيَّنَ أنها تسجد لخالقها وأنها مَرْبُوبة مُسخَّرة))

.

والآيةُ تدل على عَظَمَة اللهِ تعالى،وخُضوعِ المخلوقات له بلا استثناء سواءٌ كانت في السماوات أَم في الأرض . كما تدل على أنَّ اللهَ وَحْدَه هو المستحق للعبادة ، ولا إلهَ إلا هُوَ . كلُّ الأجرامِ والأفلاك تسير وَفْقَ أمْرِه وحُكْمه ، وكُلُّ ما سِوى اللهِ عِبْدٌ ذليلٌ للهِ ، خاضعٌ لمشيئة اللهِ وإرادته .

وعن النُّعمان بن بشير ــ رضي اللهُ عنه ــ أنَّ الشمس انكسفتْ ، فصلَّى النبيُّ ﷺ ركعتين حتى انجلتْ، ثُمَّ قال:((إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد،ولكنهما خَلْقان مِن خَلْقه ، ويُحْدِث اللهُ في خَلْقه ما شاء ، ثُمَّ إنَّ اللهَ ــ تبارك وتعالى ــ إذا تجلَّى لشيء مِن خَلْقه خَشَعَ له))[274].

هذان المخلوقان العظيمان (الشمس والقمر) خاضعان للهِ تعالى ، وخَاشعان له . ومَن عَرَفَ اللهَ عَبَدَه ، ومَن لَم يَعْرِفْه لَم يَعْبُدْه. والشمسُ والقمر يُدْرِكان عَظَمَةَ الخالق تعالى ، لذلك يَخضعان له ، ويَخشعان له ، وهُما في غاية الاستسلام والذل والعبودية للهِ الخالقِ العظيمِ .

وفي فَيض القدير (٥/ ١٣٦) : ((قال ابن عربي : ... فإنَّه يتجلى على الدوام، لأن التغيرات مشهودة على الدوام في الظواهر والبواطن ، والغَيب والشَّهادة ، والمحسوس والمعقول ، فشأنه التَّجلي ، وشأنُ الموجودات التغير بالانتقال من حال إلى حال)) اهـ .

﴿ وكثيرٌ مِنَ الناسِ ﴾ . يَسجد للهِ كثيرٌ مِنَ الناس مُختارِين طائعين مُتعبِّدين ، وهُم المسلمون الذين هَدَاهُم اللهُ إلى الطريق المستقيم .

---

(٢٧٤)رواه الحاكم في المستدرَك (١/ ٤٨١) برقم (١٢٣٥) وصحَّحه . وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٣٧) : ((... أخرجه أحمد والنَّسائي وابن ماجة ، وصحَّحه ابن خُزَيمة والحاكم)) اهـ .

﴿ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذابُ ﴾ . كثيرٌ مِنَ الناسِ رَفَضَ السُّجودَ للهِ ، وكفر به ، وتكبَّرَ على أوامره ، فاستحقَّ العذابَ بِكُفره وعِصيانه ، وصارت النارُ واجبةً له .

وقال ابن الجوزي في زاد المسير(٥/ ٤١٥): ((وفي قَوْله تعالى: ﴿ وكثيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذابُ ﴾ قَوْلان : أحدهما أنهم الكفار ، وهُم يسجدون ، وسُجودهم سُجود ظِلِّهم ، قاله مقاتل . والثاني أنهم لا يَسجدون ، والمعنى : وكثير من الناس أبى السُّجودَ ، فَحَقَّ عليه العذابُ لِتَرْكِه السجود ، هذا قَوْل الفَرَّاء)) اهـ .

﴿ وَمَن يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ ﴾ . مَن أهانَه اللهُ بالشقاء والكفر ، فلا يُمكن لأحدٍ أن يَمنحه العِزَّةَ، أو يَدفع عنه الهوانَ . ومَن أخزاه اللهُ ، لا يُمكن لمخلوقٍ أن يُخْرِجه من دائرة الخزْي. ومَن أذَلَّه اللهُ ، لا يُمكن لمخلوق أن يُكْرِمَه . ومَن أشقاه اللهُ ، لا يُمكن لمخلوق أن يُسْعِدَه .

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٣/ ٦٣٤) : ((أي : مَن أهانه اللهُ ، بأنْ جَعَلَه كافراً شَقِيَّاً ، فما له مِن مُكْرِمٍ يُكْرِمُه ، فيصير سعيداً عزيزاً)) اهـ .

﴿ إنَّ اللهَ يَفْعَلُ ما يشاءُ ﴾ . واللهُ تعالى يَفعل ما يَشاء ، يُكْرِمُ مَن يشاء بالإيمان، ويُهين مَن يشاء بالكفر . والسعادةُ والشقاوة والإكرام والإهانة تحت إرادته ومَشيئته . ولا اعتراض لأحدٍ عليه .

وفي تفسير ابن كثير (٣/ ٢٨٣) : ((قِيل لعليٍّ : إنَّ هَهُنا رَجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له عليٌّ : يا عَبْدَ اللهِ ، خَلَقَكَ اللهُ كما يشاء أو كما شِئت ؟ ، قال : بل كما شاء ، قال : فَيُمْرِضُك إذا شاء أو إذا شِئت ؟ ، قال : بل إذا شاء ، قال : فَيَشْفِيك إذا شاء أو إذا شِئت ؟ ، قال : بل إذا شاء ، قال : فَيُدْخِلُك حيث شِئت أو حيث شاء ؟ ، قال : بل حيث يشاء ، قال : واللهِ لَوْ قُلْتَ غَيْرَ ذلك ، لَضَرَبْتُ الذي فيه عَيناك بالسَّيف)) اهـ .

إنَّ اللهَ مُسَيْطِرٌ على كُل شيء ، يَفعل ما يَشاء ، لا أحد يَستدرِك على حُكْمِه ، أو يَنْقُضُه ، أو يَعترض عليه . فاللهُ سُبحانه يَرحم ويُعذِّب ، يُعِزُّ ويُذِلُّ ، يُغني ويُفقِر ، يُحيي ويُميت . وكُلُّ ما سِوى اللهِ مُلْكٌ للهِ ، واللهُ يَتصرَّف في مُلْكِه كَيْفَ يشاء .

٧_ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا ارْكَعوا واسْجُدوا واعْبُدوا رَبَّكُم وافْعَلوا الْخَيْرَ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ [الْحَج : ٧٧].

صَلُّوا للهِ بكل إخلاص وخُشوع وطُمأنينة ، وتَمَّ تَخصيص الرُّكوع والسُّجود بالذِّكْر لأنهما أعظم أركان الصلاة وأشرفها ، والصلاةُ هي عمودُ الدِّين ، وأشرفُ العبادات . وقال القرطبي في تفسيره (١٢/ ٩١): ((وخُصَّ الرُّكوع والسُّجود تشريفاً للصلاة)) اهـ .

واعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ ، ولا تُشرِكوا بِه شَيئاً ، وامْتَثِلُوا أمْرَه ، وقُوموا بأداء كل العبادات التي فَرَضَها اللهُ عليكم . وافْعَلوا الخيرَ الذي هو سبب لرضا اللهِ عنكم ، كَصِلَةِ الأرحام ، ومكارم الأخلاق ، وقِيام الليل ... إلخ . لكي تَفوزوا بالسَّعادةِ الدُّنيوية ، والنعيمِ في الآخرة .

وعن عُقبة بن عامر : قلتُ يا رسول الله : فُضِّلَتْ سُورة الحج بأنَّ فيها سَجْدَتَيْن ؟ ، قال : ((نعم ، ومَن لَم يَسْجُدْهُما فلا يَقْرَأْهُما)) [275].

وقال النَّسفي في تفسيره (٣/ ١١٤) : ((وكان أوَّل ما أسْلَموا يُصَلُّون بلا ركوع وسجود، فأُمروا أن تكون صلاتُهم بركوع وسجود . وفيه دليل على أن الأعمال لَيست من الإيمان ، وأن هذه السَّجدة للصلاة لا للتِّلاوة ، ﴿ واعْبُدوا رَبَّكُم ﴾ واقْصِدوا بركوعكم وسُجودكم وَجْهَ الله لا الصنم ، ﴿ وافْعَلوا الْخَيْرَ ﴾ . قِيل : لَمَّا كان للذِّكْر مَزِيَّة على غَيره من الطاعات ، دعا المؤمنين أولاً إلى الصلاة التي هي ذِكْرٌ خالص لِقَوْله تعالى : ﴿ وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْري ﴾ [طه : ١٤]. ثُمَّ إلى العبادة بِغَير الصلاة كالصَّوم والحج وغيرهما، ثُمَّ عَمَّ الحثُّ على سائر الخيرات، وقِيل: أُريد به صِلَة الأرحام ومكارم الأخلاق . ﴿ لعلكم تُفْلِحُون ﴾ أي : كي تَفوزوا ، وافعلوا هذا كُلَّه وأنتم رَاجُونَ للفلاح ، غَير مُسْتَيْقِنين ، ولا تَتَّكِلوا على أعمالكم)) اهـ .

٨ ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدوا للرَّحمنِ قَالوا وما الرَّحمنُ أنسْجُدُ لِمَا تَأمُرُنا وزَادَهُم نُفوراً ﴾ [الفُرقان : ٦٠] .

---

(٢٧٥) رواه الترمذي في سُننه (٢/ ٤٧٠) برقم (٥٧٨) . وقال : ((هذا حديث ليس إسناده بذاك القويِّ. واختلف أهل العِلْم في هذا ، فَرُوِيَ عن ابن عمر أنهما قالا : " فُضِّلَت سُورة الحج بأنَّ فيها سَجْدَتَيْن"، وبه يقول ابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحق))اهـ. وقال ابن حجر في تلخيص الحبير= =(٢/ ٩) : ((وفيه ابن لَهيعة ، وهو ضعيف ، وقد ذَكَرَ الحاكم أنه تفرَّد به ، وأكَّده الحاكم بأن الرواية صَحَّت فيه مِن قَول عمر ، وابنه ، وابن مسعود ، وابن عباس وأبي الدرداء ، وأبي موسى ، وعمار ثم ساقها مَوقوفة عنهم، وأكَّده البَيهقي بما رواه في المعرفة من طريق خالد بن مَعْدان مُرْسَلاً)).

لقد أنكرَ اللهُ على المشركين الذينَ يَسْجُدون للأصنام . وهؤلاء المشركون إذا قِيل لهم : اسْجُدوا للهِ الرحمن وَحْدَهُ ، ولا تَسْجُدوا للأصنام ، أنْكَرُوا معرفةَ الرحمن . وكانوا يَرْفُضون أن يُسمَّى اللهُ باسْمِه الرحمن . والعربُ في الجاهلية لَم يَكونوا يُطْلِقُون اسْمَ الرحمن على اللهِ _ على حَدِّ زَعْمِهم _ .

إنهم لا يُؤمنون بالرحمن، ولا يَعرفونه ، ولا يُقِرُّون به . والاستفهامُ ﴿ وما الرَّحمنُ ﴾ للإنكار . وأيضاً الاستفهام ﴿ أنسْجُدُ لِمَا تَأمُرُنا ﴾ للإنكار . والمعنى : لا نَسْجُد للرحمن الذي تأمرُنا يا محمد بالسُّجود له . وزادهم الأمرُ النبويُّ بالسُّجود عِناداً وكُفراً ورَفْضاً للسُّجود . لقد زَادَهم ذِكْرُ الرحمن بُعْداً عن الدِّينِ والإيمان . وقال القرطبي في تفسيره (١٣/ ٦٤) : ((وكان سفيان الثوري يَقول في هذه الآية : إلهي زادني لكَ خُضوعاً ، ما زادَ أعداكَ نُفوراً)) اهـ .

إنَّ الجهلَ والعِنادَ هُما أساس الكُفر في كُل زمان ومكان . والجهَّالُ في كُلِّ العصور يَزيدهم النُّورُ عِناداً وظَلاماً وطُغياناً . تماماً كالمريض الذي يَزيده الأكلُ اللذيذ مَرَضاً ، ويُفاقِم مشكلاتِه الصحية .

لقد رفضوا السجود للرحمن . وهذا الطغيان نابع من قسوة قلوبهم ، وعنادهم العبثي ، وجحودهم المركَّب . وهذا التكبرُ على الحق وعدم الرضوخ له من شأنه تدمير النَّفْس البشرية ، وحَشْرها في دائرة التمرد والعصيان، مِمَّا سيعود عليها بالخسارة والحرمان وفقدان القيمة الإنسانية المؤمنة .

ومَن يَعْرِف اللهَ يَعْبُدْه ، ويُعَظِّمْ أسماءَه وصَفاتِه ، والذي يجهلها ينأى بجانبه ، ويُعرِض عن خالقه تعالى. والجهل المخلوط بالعِناد _ الذي كان أحد أهم سِمات الفرد الجاهليِّ _ تسبَّب في تمركزِ انعدام المعرفة في الفكر ، ونفورِ الإنسان من الله تعالى . والناسُ أعداءُ ما يَجهلون .

وفي الدُّر المنثور (٦/ ٢٦٨) : ((وأخرجَ ابن أبي حاتم عن عطاء في قَوْله :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ ، قال : قالوا : ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة)) اهـ .

وهُم يَقصدون مُسَيْلمة الكذاب .

قال ابن كثير في تفسيره (١/ ٢٢): ((والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنُّت في كُفرهم ، فإنه قد وُجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن)) اهـ .

فعلى سبيل المثال ، يقول الشاعر :

عَجِلْتُم عَلَيْنا إذا عَجِلْنا عَلَيْكُم   وما يَشَأ الرحمنُ يَعْقِد وَيُطْلِق

فاسمُ الرَّحمن مذكور في بعض أشعار الجاهلية ، مِمَّا يُشير إلى أن هذا الاسم معروفٌ لديهم وليس غريباً عنهم . ولكنَّ العِناد يُسبِّب غِشاوةً على البصر والبصيرة ، فيَحُول دون تقبُّل الحق واتِّباعه . وكما قال الشاعر :

قد تُنْكِرُ العَينُ ضوءَ الشمس مِن رَمَدٍ   ويُنْكِرُ الفمُ طَعْمَ الماء مِن سَقَـمِ

وفي تفسير القرطبي (١ / ١٢٧) : ((قال ابن العربي : إنما جهلوا الصِّفةَ دون الموصوف ، واستدل على ذلك بقولهم : وما الرحمن ؟ ، ولم يقولوا : ومَن الرحمن ؟ . قال ابن الحصار : وكأنه
ــ رحمه الله ــ لم يقرأ الآية الأخرى : ﴿ وَهُم يَكفرون بالرَّحمن ﴾ [الرَّعد : ٣٠]))[276].

وفي قصة صُلح الْحُدَيبية ، يَتَّضح عِنادُ المشركين وجهلُهم بأسماء الله وصفاته . فهم يُنكرون تسمية الله تعالى بالرحمن . ففي صحيح البخاري (٢/ ٩٧٤): قال الزُّهري في حديثه : فجاءَ سُهَيل بن عمرو ، فقال : هاتِ اكتب بَيْنَنا وبَيْنَكم كتاباً، فدعا النبيُّ ﷺ الكاتبَ ، فقال النبيُّ ﷺ : ((بسم الله الرحمن الرحيم)) . قال سُهَيل : أمَّا الرحمن ، فَوَاللهِ ما أدري ما هُوَ ، ولكن اكتب : باسمك اللهمَّ ، كما كُنتَ تكتب .

فجهلهم مقصود وعن سابق إصرار. وهذا جعلهم يبتعدون عن طريق الله بالكُلِّية ، لأن الجهل يَحول دون تلقِّي النفحات الربانية . فخلوُّ العقل من المعرفة الضرورية يصنع نتائج كارثية وواقعاً مشلولاً يفتقد إلى المعاني الأساسية والتشكيلات الضرورية لاستمرار الحياة بصورة إبداعية .

---

(٢٧٦) قال القرطبي في تفسيره(١/ ١٢٧): ((وذهب الجمهور مِنَ الناس إلى أن الرحمن مُشْتَق من الرحمة ، مبني على الْمُبالَغة . ومعناه : ذو الرحمة الذي لا نظير له فيها ، فلذلك لا يُثَنَّى " الرحمن" = =ولا يُجْمَع)) اهـ . قلتُ : وفي مستدرك الحاكم (٤/ ١٧٤) وصحَّحه الذهبي : أن النبيَّ ﷺ قال : ((قال اللهُ ــ عَزَّ وَجَلَّ ــ : أنا الله ، وأنا الرحمن ، خَلقتُ الرَّحِم ، وشَقَقتُ لها من اسمي ، فَمَن وَصَلها وَصَلْتُه ، وَمَن قَطَعَها قَطعتُه)) . وفي تفسير القرطبي (١/ ١٢٧) أن ابن الحصار قال : ((وهذا نص في الاشتقاق ، فلا معنى للمُخالَفة والشِّقاق ، وإنكار العرب له لجهلهم بالله ، وبما وَجب له)) اهـ .

ورفض اسم الرَّحمن محاولةٌ يائسة للتمويه والتلبيس ، وإطلاق أحكام مُسْتَعْجَلَة لا تستند إلى عقلانية أو منهجية تفكير . كما أن أهل الجاهلية لم يعترفوا بجهلهم، ولم يطلبوا العِلم ، لذلك كانت معارفهم المتوارَثة عن آبائهم ، وشرائعِ قبائلهم ، هي أقصى ما يمكن تحصيله من العلوم والمعارف بالنسبة إليهم ، خصوصاً أنهم كانوا غير مستعدين لاكتشاف العلوم الجديدة ، فاختاروا العزلة الشاملة التي تمنعهم من النظر إلى مدى أبعد وأوسع .

وفي صحيح البخاري (٢/ ٨٠٧) : عن عبد الرحمن بن عَوْف _ رضي الله عنه_ قال : ((كاتبتُ أُمَيَّةَ بن خلف كتاباً ، بأن يَحفظني في صَاغِيَتِي بمكة ، وأحفظه في صاغيته بالمدينة ، فلمَّا

ذكرتُ الرحمنَ ، قال : لا أعرف الرحمن . كاتِبْني باسْمِك الذي كان في الجاهلية)) [277].

إن عبد الرحمن بن عوف_ رضي الله عنه_ قد عاهدَ أُمَيَّة بن خلف(أحد سادات المشركين في الجاهلية) أن يَحفظ صاغيته في مكة. والصاغيةُ خاصةُ الرَّجل ، وتُطلَق على الأهل والمال ، مقابل أن يحفظ عبدُ الرحمن بن عوف _ رضي الله عنه _ ما يخص أمية بن خلف في المدينة . لكن صفاتِ التكبر والعناد والغطرسة تأبى أن تفارق أمية بن خلف الذي يُصِرُّ على الجحود والإنكار ، فقد أخذته العِزَّةُ بالإثم ، وأبى الخضوعَ للحق والإذعان له. وهذا هو طبعُ الجاهلية القاسي، حيث رفضُ الحقيقة خُضوعاً لسُلطة الهوى ، وتقليدِ الآباء ، والالتزامِ بنهج القبيلة سواءٌ كان صالحاً أم فاسداً .

وقال الحافظ في الفتح(٤/ ٤٨٠):((قَوْله: لا أَعْرِف الرحمن، أي لا أعترف بتوحيده)) اهـ.

وقد كان التوحيدُ ثقيلاً جداً على قلوب المشركين ، لأنه يَنسف تاريخهم الوثني ، ويُزلزل عروشَهم القائمة على جماجم العبيد والمسحوقين ، ويُلغي قداسةَ آبائهم الوهمية ، ويُفقدهم نفوذَهم بين القبائل . فمشركو الجاهلية ينظرون إلى التوحيد على أنه أكبر خطر على مكانتهم الاجتماعية ، لأنه جاء بالحق والمساواة والعدالة الاجتماعية .

---

(٢٧٧) اسم عبد الرحمن بن عَوْف _ رضي الله عنه _ في الجاهلية هو : عبد عمرو . وفي تفسير القرطبي (١٠/ ٣٢٦) : ((قال الأصمعي : صاغية الرَّجل ، الذين يميلون إليه ويأتونه ... وكل مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى)) اهـ .

٩ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ ألا يَسْجُدوا للهِ الذي يُخْرِجُ الْخَبْءَ في السماواتِ والأرضِ ويَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُون ﴾ [النَّمْل : ٢٥] [278].

الآيةُ تتحدَّث عن قَوْم بلقيس الذين كانوا يَسْجُدون للشمس ، ولا يَسْجُدون للهِ الذي خَلَقَ الشمسَ . إنَّ اللهَ هو الخالقُ العظيمُ الذي يَعْلَمُ الأسرارَ ، والأمورَ المخفِيَّة ، والأشياءَ الْمُسْتَتِرَة ، ويَعْلَم كُلَّ مَخبوء في السماواتِ(العالَم العُلوي)والأرضِ(العالَم السُّفلي).وخَبْءُ السماواتِ المطرُ ، وَخَبْءُ الأرضِ النباتُ [279].

ومعنى الآية : إنَّ اللهَ يَعْلَمُ الغيبَ في السماوات والأرض ، ويَعْلَم السِّرَّ (الباطن) والعلانيةَ (الظاهر) . فهو سُبحانه مُطَّلِعٌ على ما يُخيفه الناسُ وما يُعلِنونه من الأقوال والأفعال. وهذا يدل على قُدرته العظيمة ، وعِلْمِه المطْلق ، واستحقاقه وَحْدَهُ للعبادة .

وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٧٩) : ((قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : يَعْلَم كُلَّ خَبيئة في السماء والأرض، وكذا قال عِكرمة ومجاهد وسعيد بن جُبَير وقتادة وغير واحد. وقال سعيد بن المسيِّب : الخبء الماء ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : خبء السماوات والأرض ما جُعل فيهما من الأرزاق ، المطر من السماء ، والنبات من الأرض ، وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذَكَرَه ابن عباس وغَيْرُه مِن أنه يرى الماء يجري في تُخوم الأرض وداخلها)) اهـ .

١٠ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ إنَّما يُؤمِنُ بآياتِنا الذينَ إذا ذُكِّروا بِها خَرُّوا سُجَّداً وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِم وهُم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾[السَّجْدة : ١٥] .

---

(٢٧٨) قال البيضاوي في تفسيره (١/ ٢٦٤) : ((وَصْفٌ له تعالى بما يُوجِب اختصاصَه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القُدرة والعِلْم حَثّاً على سُجوده، ورَدّاً على مَن يَسْجُد لِغَيْره. و﴿ الْخَبْءَ ﴾ ما خُفِيَ في غَيره ، وإخراجه إظهار ، وهو يَعُمُّ إشراقَ الكواكب ، وإنزال الأمطار ، وإنبات النبات ، بل الإنشاء ، فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفِعْل والإبداع ، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود)) اهـ .

(٢٧٩) قال ابن منظور في لسان العرب (١/ ٦٢) : ((الْخَبْءُ كُلُّ شَيْءٍ غائِبٍ مَستورٍ . يُقال : خَبَأْتُ الشيءَ خَبْأً إذا أَخْفَيْتُه ، والْخَبْءُ والخَبِيءُ والخَبِيئةُ الشيءُ الْمَخْبُوءُ)) .

إنما يُصدِّق بآياتِ القُرآنِ وينتفع بها المؤمنون الأتقياء الذين يَقرؤون القُرآنَ ويَتَدَبَّرُونه . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/ ٩٠): ((هذه تَسلية للنبيِّ ﷺ، أي أنهم لإِلْفهم الكفر، لا يؤمنون بك ، إنما يؤمن بك وبالقرآن الْمُتدبِّرون له ، والْمُتَّعظون به)) اهـ . وهؤلاء إذا قُرِئَ عليهم القُرآن وَوُعِظُوا بآياته، سَقَطوا على وجوههم ساجدينَ تَعظيماً للهِ وآياتِه، وتَواضعاً له، وخُشوعاً، وشُكراً ، وخَوفاً مِن عذابه ، وسَبَّحوا اللهَ على نِعَمِه الجليلة ، وعلى رأسها الإسلام ، ونَزَّهُوا اللهَ عَن كُلِّ ما لا يَليق بِه ، حامدينَ لَهُ على هَدايتهم إلى الإيمان والهدى [280]. وهُم لا يَستكبرون عن عبادته والسُّجود له ، كما يَفعل أهلُ الكفر الجهَلة الْمُعانِدُون. إنهم لا يَستكبرون كما استكبرَ أهلُ مكة عن السُّجود للهِ تعالى . والاستكبارُ شديد الخطورة ، لأنَّه رَفْضٌ لأمْرِ اللهِ ، ومُنَازَعَةٌ للهِ في صِفَة التَّكَبُّر التي تفرَّدَ بها سُبحانه . والاستكبارُ عن السُّجود كان سبب طرد إبليس من الجنة ، وأغلقَ اللهُ أمامَه بابَ التَّوبة ، وحَرَمَه من الرُّجوع ، لأنه اعتمدَ التَّكَبُّر والاستكبار مَنهجاً له ، أمَّا آدم ﷺ فقد عصى اللهَ بدافع الشَّهوة المغروسة في الإنسان ، ولَم يَتكبَّر على أمرِ اللهِ ، ففتحَ اللهُ لَهُ طَريقَ العَودة ، ورَجَعَ إلى اللهِ نادماً تائباً ، وقد قَبِلَ اللهُ تَوْبَتَه .

وفي زاد المسير (٥/ ١٥٤) : ((قال بعض أهل العِلْم : إذا كانت خطيئة الإنسان في كِبْر ، فلا تَرْجُه، وإن كانت في شهوة فارْجُه، فإن معصية إبليس كانت بالكِبْر، ومعصية آدم بالشَّهوة)).

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٣٦٠) : ((﴿ وسَبَّحوا بِحَمْدِ رَبِّهِم ﴾ أي : نَزَّهُوه عن كُل ما لا يَليق بِه ، مُلتبسين بحمده على نِعَمِه التي أجَلُّها وأكملها الهداية إلى الإيمان. والمعنى : قالوا في سجودهم : سُبحان الله وبحمده ، أو سُبحان ربي الأعلى وبحمده ، وقال سفيان : المعنى صَلُّوا حَمْداً لربهم . وجُملة ﴿ وهُم لا يَسْتَكْبِرُون ﴾ في محل نصب على الحال : أي حال كَوْنهم خاضعين للهِ ، مُتَذَلِّلين له ، غَير مُستكبرين عليه)) اهـ .

١١_ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ قالَ لقدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ وإنَّ كثيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغي بَعْضُهُم على بَعْضٍ إلا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُم وظَنَّ داودُ أنَّما فَتَنَّاهُ فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وأنابَ ﴾[ص : ٢٤].

---

(٢٨٠) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٣٣٧) : ((قَوْلُه تعالى : ﴿ إِنَّما يُؤمِنُ بآياتِنا الذينَ إذا ذُكِّروا بِها ﴾ أي : وُعِظُوا بها . ﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾ أي : سَقَطوا على وجوههم ساجدين. وقِيل : المعنى إنما يُؤمن بفرائضنا مِنَ الصلوات الخمس ﴿ الذينَ إذا ذُكِّروا بِها ﴾بالأذان والإقامة﴿ خَرُّوا سُجَّداً ﴾)).

قال النبيُّ داود ﷺ للخصم المتظلِّم من صاحبه : لقد ظلمك صاحبُك حِين أرادَ أن يأخذ نعجتك ، ويَضُمَّها إلى نعاجه لِيُكْمِلَ المئة _ إن كان الأمر كما تقول _ ، وإن كثيراً مِنَ الشُّركاء لَيَتَعَدَّى بعضُهم على بعض إلا الذينَ آمَنوا باللهِ تعالى ، والتزموا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وهؤلاء لا يَظْلِمُون الآخرين ، ولا يَعْتَدُون على حقوقهم ، وهُم فئة قليلة . ودائماً يَكون الصالحون أقل عدداً مِنَ الفاسدين ، لأنَّ الصالحين هُم نُخبة المجتمع وصَفوته ، وغالبيةُ المجتمع _ أي مجتمع _ تتكون من العوام والرَّعاع ، أمَّا الصالحون الأنقياء فَهُم الأقل عدداً ، لأنَّ النُّخبة دائماً أقل عدداً .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٥٤) : ((وسمع عمر _ رضي الله عنه _ رَجلاً يقول في دعائه : اللهمَّ اجعلني مِن عبادك القليل ، فقال له عمر : ما هذا الدعاء ؟ ، فقال : أردتُ قَوْلَ الله _عَزَّ وَجَلَّ _ : ﴿ إلا الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُم ﴾ ، فقال عمر : كُل الناس أفقه مِنكَ يا عمر !)) اهـ .

والخلطاءُ جَميع خَليط ، وهو الْمُخَالِط في المال ، وقد ظَنَّ النبيُّ داود ﷺ أنهما شَريكان ، فأطلقَ لَفظة " الخلطاء ".

والجديرُ بالذِّكر أن الآية دليل واضح على جواز القضاء في المسجد . وَلَوْ كانَ ذلك غير جائز لَمَا أقرَّهم النبيُّ داود ﷺ على ذلك.ومعلومٌ أنَّ الأنبياء لا يُقِرُّون على باطل.كما أنَّ النبيَّ محمداً ﷺ وقُضاة الصحابة ،كانوا يَقضون في المسجد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٥٤) : ((قال مالك رحمه الله : وكان الخلفاء يَقْضُون بأنفسهم ، وأوَّل مَن استقضى معاوية . قال مالك : وينبغي للقُضاة مشاورة العلماء ، وقال عمر ابن عبد العزيز : لا يستقضي حتى يكون عالِماً بآثار مَن مضى ، مُستشيراً لذوي الرأي ، حليماً نَزِهَاً . قال : ويكون وَرِعاً . قال مالك : وينبغي أن يكون مُتَيَقِّظاً كثير التَّحذر من الحِيَل ، وأن يكون عالِماً بالشروط ، عارفاً بما لا بُد له منه من العربية ، فإن الأحكام تختلف باختلاف العبارات والدعاوى والإقرارات والشهادات ، والشروط التي تتضمن حقوق المحكوم له، وينبغي له أن يقول قَبْل إنجاز الْحُكْم للمطلوب : أبَقِيَتْ لكَ حُجَّة ؟ ، فإن قال : لا ، حَكَمَ عليه ، ولا يَقبل منه حُجَّة بعد إنفاذ حُكمه ، إلا أن يأتِيَ بما له وَجْه أو بَيِّنة)) اهـ .

وقد يَقول أحدُهم : كيف قال النبيُّ داود ﷺ : لقد ظَلمك وَلَم يَسمع قَوْلَ صاحبه (الطرف الثاني في القضية)؟. والمعنى : لقد ظلمك إن كان الأمر كما تَقول ، أو أن النبيَّ داود ﷺ قال

ذلك بعد اعتراف صاحبه بما يقول وإقراره، فَحَكَمَ بعد اعتراف الرَّجل ، والاعترافُ سَيِّد الأدلة (281).

وقال البَيضاوي في تفسيره (١/ ٤٢) : ((﴿ قالَ لقدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إلى نِعاجِهِ ﴾ جواب قَسَم محذوف، قُصد به الْمُبالَغة في إنكار فِعْل خليطه ، وتَهجين طَمَعِه ، ولَعَلَّه قال ذلك بعد اعترافه ، أو على تقدير صِدْق الْمُدَّعي)) اهـ .

﴿ وظَنَّ داودُ أنَّما فَتَنَّاهُ ﴾ . أيقنَ النبيُّ داود ﷺ أنَّ اللهَ ابتلاه واختبرَه بحادثة التحكيم . والظنُّ في الآية هو العِلْم واليقين.وفي أحيانٍ كثيرة تأتي لفظة "الظن" في سياق الإخبار بمعنى العِلْم الذي لا علاقة له بالعِيان . كما أن الظن الغالب (غَلَبة الظن) قريبٌ مِنَ العِلْم ، فَحَمَلَتْ لفظةُ " الظن " معنى العِلْم . وقال أبو السُّعود في تفسيره (٧/ ٢٢١) : ((الظن مُستعار للعِلْم الاستدلالي لِمَا بَيْنَهما مِن الْمُشَابَهَة الظاهرة)) اهـ .

وبعد أن أيقنَ النبيُّ داود ﷺ أن اللهَ تعالى اختبرَه بحادثة التحكيم ، طَلَبَ المغفرةَ مِن رَبِّه تعالى ، وأن يَتجاوزَ عَن ذَنْبه ، وسجد للهِ تعالى . وسُمِّيَ السُّجود رُكوعاً ، لأنه بدايته . والمعنى العام : خَرَّ بعد أن كان راكعاً ، أي سَجَدَ ، ورجعَ إلى اللهِ تائباً مِن ذَنْبه (وهذه هي الإنابة) .

والقِصَّةُ هِيَ أنَّ مَلَكَيْن جاءا داود ﷺ في هَيئة رَجُلَيْن كَي يَقضيَ بَيْنَهما ، لكنهما دَخَلا عليه مِن غَير باب المحراب، فَظَنَّ أنهما جاءا لاغتياله . ثُمَّ أدركَ أنهما جاءا للتَّحَاكُم ، فاعتبرَ هذا الظنَّ ذَنْباً، واستغفرَ اللهَ مِنهُ.ولا شَكَّ أن حسنات الأبرار سَيِّئات المقرَّبين.ولكنْ كَيْفَ عَلِمَ النبيُّ داود ﷺ أن حادثة التَّحكيم كانت امتحاناً مِنَ اللهِ تعالى ؟ .

قال ابن الجوزي في زاد المسير (٧/ ١٢٢) : ((وفي سبب عِلْمه وتنبيهه على ذلك ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ الْمَلَكَيْن أفصحا له بذلك ، على ما ذكرناه عن السُّدي . والثاني أنهما عَرَجَا وهُما يقولان : قضى الرَّجلُ على نفْسه ، فَعَلِمَ أنه عُنِيَ بذلك ، قاله وَهْب . والثالث أنه لَمَّا حَكَمَ

---

(٢٨١) قال ابن الجوزي في زاد المسير(٧/ ١٢١): ((فإن قِيل: كيف حَكَمَ داود قبل أن يسمع كلام الآخر. فالجواب أن الخصم الآخر اعترفَ فَحَكَمَ عليه باعترافه، وحُذف ذِكْر الاعتراف اكتفاءً بِفَهم السامع.والعرب تقول:أَمَرْتُك بالتجارة فكسبتَ الأموال أي فاتَّجرت فكسبتَ.ويدل عليه قول السُّدي إن داود قال للخصم الآخر: ما تقول؟، قال:نعم، أريد أن آخذها منه فأُكْمِل بها نعاجي وهو كاره)).

بَيْنَهما ، نظرَ أحدُهما إلى صاحبه وضحك ، ثُمَّ صَعِدا إلى السماء ، وهو يَنظر ، فَعَلِمَ أن الله تعالى ابتلاه بذلك ، قاله مقاتل)) اهـ .

وقال أبو حَيَّان في البحر المحيط (٧/ ٣٩٣) : ((وذكر المفسِّرون في هذه القصة أشياء لا تناسب مناصب الأنبياء ضَرَبْنا عن ذِكْرها صَفْحاً ، والذي يدل عليه ظاهر الآية مِن أن الْمُتَسَوِّرين المحرابَ كانوا من الإنس ، دخلوا عليه مِن غَير المدخل ، وفي غير وقت جُلوسه للحُكم ، وأنه فَزِعَ منهم ظنَّاً مِنه أنهم يغتالونه ، إذ كان مُنفرداً في محرابه لعبادة ربِّه ، فلمَّا اتَّضح له أنهم جاؤوا في حكومة ، وبرز منهم اثنان للتحاكم كما قَصَّ اللهُ تعالى ، فاستغفرَ مِن ذلك الظن ، وخَرَّ ساجداً لله عَزَّ وجلَّ ، ونحن نَعْلَم قطعاً أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، إذ لَوْ جَوَّزْنا عليهم شيئاً من ذلك لَبَطُلَت الشرائع ، ولَم نَثِقْ بشيء مِمَّا يذكرون ، فما حكى اللهُ في كتابه يَمُرُّ على ما أراده اللهُ، وما حكى القُصَّاص مِمَّا فيه غَض مِن مَنصِب النُّبوة طَرَحْناه)) اهـ. أمَّا ما يُشاع عَن أنَّ داود ﷺ كان يُحِبُّ زَوْجَةَ أُوريَّا (أحد قادته العسكريين)، فأرسلَه إلى المعركة كي يَموت، ثُمَّ يَتزوَّج أرْمَلَتَه مِن بَعْده ، فَكَذِبٌ ، وافتراء، وطعنٌ بِمَقام النُّبُوَّة، وتطاولٌ وَقِحٌ على النبيِّ داود ﷺ المعصوم . والأنبياء سادةُ الناس ، وفَوْقَ كُلِّ الشُّبهات ، وهُم نَقَلة الوَحْيِ الإلهيِّ إلى الناس . والطعنُ في الأنبياء هَدْمٌ للإسلام والشرائع . لذلك فالأنبياء مَعصومون ، ومُنَزَّهون عَن كُلِّ العيوب والنقائص (282).

---

(٢٨٢) قال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٥٤) : ((وحكى السُّدي عن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لَوْ سَمعتُ رَجلاً يَذكر أن داود عليه السلام قارفَ مِن تلك المرأة مُحَرَّماً لَجَلَدْتُه سِتِّين ومائة لأن حَدَّ قاذف الناس ثمانون، وحَدُّ قاذف الأنبياء سِتون ومائة . ذَكَرَه الماوردي و الثعلبي أيضاً. قال الثعلبي: وقال الحارث الأعور عن عليٍّ: مَن حَدَّثَ بحديث داود ما ترويه القُصَّاص مُعتقِداً جَلَدْتُه حَدَّيْن لِعِظَمِ ما ارْتَكَبَ بِرَمْيِ مَن قد رَفَعَ اللهُ مَحَلَّه، وارتضاه مِن خَلْقه رحمةً للعالَمين ، وحُجَّة للمُجتهدين . قال ابن العربي : وهذا مِمَّا لا يَصِحُّ عن عليٍّ ، فإن قِيل : فما حُكْمُه عِندكم ؟ ، قلنا : أمَّا مَن قال = =إن نبيَّاً زنى فإنه يُقْتَل ، وأمَّا مَن نَسَبَ إليه ما دُون ذلك من النظر والملامَسة ، فقد اختلف نقل الناس في ذلك، فإن صَمَّمَ أحدٌ على ذلك فِيه ونسَبه إليه قَتَلْتُه...فأمَّا قَوْلُهم : أنه وقع بصره على امرأة تغتسل عُريانة فلمَّا رَأَتْهُ أسْبَلَتْ شَعْرَها ، فَسَتَرَتْ جَسَدَها ، فهذا لا حرج عليه فيه بإجماع مِن الأمَّة ، لأن النظرة الأولى تكشف المنظور إليه ، ولا يأثم الناظر بها ، فأمَّا النظرة الثانية فلا أصل لها ، وأمَّا قولهم : إنه نوى إن مات

والسَّجدة الموجودة في هذه الآية مِن سُورة (ص) ، لَيْسَتْ مِن عزائم السُّجود ، وإنما هي سَجدة شُكْر [283]. ففي صحيح البخاري (١/ ٣٦٣): عن ابن عباس ــرضي اللهُ عنهما ــ قال : ((ص)) ليس مِن عزائم السجود ، وقد رأيتُ النبيَّ ﷺ يَسجد فيها)) .

والمعنى : إن هذه السَّجدة الموجودة في سُورة (ص) لَيْسَتْ مِن عزائم السُّجود ، والعزائم جمع عزيمة ، وهي ما أكَّد الشارع على فِعْلِه . وقال القرطبي في تفسيره (١٥/ ١٥٤) : ((ومعنى السجود أنَّ داود سَجَدَ خاضعاً لِرَبِّه مُعترفاً بِذَنْبه ، تائباً مِن خطيئته ، فإذا سَجَدَ أحدٌ فيها ، فليسجدْ بهذه النِّية ، فلعلَّ اللهَ أن يَغفر له بِحُرْمة داود الذي اتَّبَعَه ، وسواءٌ قُلنا إنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا أم لا ؟ ، فإن هذا أمر مشروع في كل أُمَّة لكل أحد ، والله أعلم)) اهـ .

وعن عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ قال : ((عزائم السجود في القرآن : ﴿ الم . تَنْزيل ﴾ و ﴿ حم . تَنْزيل ﴾ ، السجدة ، ﴿ والنَّجْم ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾)) [284]. وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٥٢): ((والمراد بالعزائم ما وردت العزيمة على فِعْله كصيغة الأمر مَثَلاً ، بناءً على أن بَعْض المندوبات آكَد مِن بَعْض عِند مَن لا يقول بالوُجوب، وقد روى ابنُ المنذر وغَيْرُه عن عليِّ بن أبي طالب بإسناد حسن أن العزائم: حم والنجم واقرأ والم تنْزيل...وقع في تفسير (ص) عند المصنِّف من طريق مجاهد قال: سألتُ ابنَ عباس، مِن أيْنَ سَجَدْتَ في (ص) ولابن خُزَيمة مِن هذا الوجه: مِن أين أخذتَ سَجْدة (ص) ثُمَّ اتَّفقا ، فقال : ﴿ ومِن ذُرِّيته داودَ وسُلَيمانَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] إلى قَوْله: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]ففي هذا أنه استنبط مشروعية السجود فيها)).

١٢ــ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وَمِنْ آياتِهِ الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ لا تَسْجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ واسْجُدوا للهِ الذي خَلَقَهُنَّ إن كُنتم إيَّاهُ تَعْبُدون ﴾[فُصِّلَتْ : ٣٧].

زَوْجُها تزوَّجها ، فلا شيء فيه ، إذ لَم يُعَرِّضْه للموت ، وأمَّا قَوْلُهم: إنه خطب على خِطبة أوريَّا ، فباطل يَرُدُّه القرآنُ والآثارُ التفسيرية كُلُّها)) .

(٢٨٣) قال الترمذي في سُننه (٢/ ٤٦٩) : ((فرأى أهل العِلْم أن يَسْجُد فيها . وهو قول سُفيان وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحق . وقال بعضُهم : إنها تَوبة نبيٍّ ، ولَم يَرَوا السجودَ فيها)) .

(٢٨٤) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٥٧٧) برقم (٣٩٥٧) . وقال الذهبي : ((صحيح)) .

إنَّ اللهَ تعالى يَعْرِض أمامَ الناس البراهين الواضحة والْحُجَج الجلِيَّة على وُجوده ، ووحدانيته ، وعَظَمَته ، وسُلطانه ، وقُدرته ، وسَيطرته على الأجرام والأفلاك ، وقُوةِ تصرفه في المخلوقات ، فهو الْمُهَيْمِن على كُل شيء ، لا أحد يُشاركه في مُلْكِه ، ولا أحد يُنازِعه في حُكْمِه . لا شَريك له، ولا نَظير له ، ولا نِد له . واللهُ تعالى يُقَدِّمُ للناس دلائلَ وَحدانيته كي يُفْرِدُوه بالعبادة .

ومِنَ الآياتِ الباهرة الدالة على وجود اللهِ ووَحدانيته وقُدرته : تَعاقُب الليل والنهار . لقد خَلَقَ اللهُ الليلَ مُظْلِماً لراحة الناس ونَوْمِهم ، وخَلَقَ النهارَ مُضيئاً لنشاط الناس وعملهم . والليلُ والنهارُ يَتعاقبان ولا يَفترقان ، وكل هذا يتم وفق منظومة متكاملة ، لا اضطراب فِيها ولا لَبْس .

واللهُ سَخَّرَ الشمسَ والقمرَ لتحقيق مصالح الناس ، وتهيئة الظروف المناسبة للعيش على هذه الأرض بلا مُنَغِّصات ولا مُشكلات . وبالشمس والقمرِ يُعْرَف الليل والنهار والأيام والشُّهور والأعوام ، وأوقات العبادات والمعامَلات .

لا تَسْجُدوا أيُّها الناس للمخلوق [285] ، واسجدوا للخالق الذي صَنَعَ هذه المخلوقات الباهرة (الليل والنهار والشمس والقمر) . والسُّجودُ أخصُّ العبادات . وهذه المخلوقات تُشير إلى عَظَمَة اللهِ الخالق. وقُدرةُ الصانعِ تُعْرَف بِدِقَّة المصنوع . وقد سَخَّرَ اللهُ الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ لصالح الناس ، وجَلْب المنافع لهم . ونفعُ هذه الآيات المخلوقة الباهرة إنما يتمُّ بتسخير اللهِ إيَّاها ، ولا تَمْلِك نَفْعاً استقلالياً . واللهُ يُسيطر عليها ويتحكَّم فيها كيف يشاء ، وهذه المخلوقات لا تُسيطر على أنفسها . وهي لا تَنفع ولا تَضُرُّ إلا بإذن اللهِ تعالى. وَلَوْ شاءَ اللهُ لجعلَ الليلَ مُضيئاً ، والنهار مُظلِماً ، وسَلَبَ مِنَ الشمس والقمرِ ضَوْءَهُما ، وجَعَلَهما كُرَتَيْن مُظْلِمَتَيْن ، وجَعَلَ حياةَ الناسِ تَعيسةً بائسةً ، وأغرقَهم في الظلمات والعَمَى والاضطراب والبُؤس . لكنَّ اللهَ هُوَ أرحمُ بعباده مِن أُمَّهاتهم ، لَم يَخلقهم لِيُدَمِّرَ حياتهم ، بل خَلَقَهم لِيُنقذهم من النار ، ويَمنحهم الجنة .

لقد بَيَّنَ اللهُ للناس أن الشمس والقَمر مخلوقان ذليلان لخالقهما سُبحانه ، لأنهما أعظمُ الأجرام السماوية ، كما أنَّ طوائف كثيرة عَبَدَت الشمسَ والقمرَ على مدار التاريخ. فجاءَ التَّنبيه

---

(٢٨٥) قال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٣٢) : ((وفي الكسوف إشارة إلى تقبيح رأي مَن يَعبد الشمس أو القمر ، وحَمَلَ بعضُهم الأمرَ في قَوله تعالى : ﴿ لا تَسْجُدوا للشمسِ ولا للقمرِ واسْجُدوا للهِ الذي خَلَقَهُنَّ ﴾ على صلاة الكسوف ، لأنه الوقت الذي يُناسب الإعراض عن عبادتهما، لِمَا يظهر فيهما مِن التغيير والنقص الْمُنَزَّه عنه المعبود جَلَّ وعلا ، سُبحانه وتعالى)) اهـ .

الإلهيُّ للناس بعبادة اللهِ وَحْدَه ، فهو الخالق العظيم الذي خَلَق الشمسَ والقمرَ . ولا معنى لعبادة المخلوق (المصنوع) مِن دُون الخالق (الصانع) . والعاقلُ يَبحث عن آثارِ قُدرة اللهِ من أجل عبادة اللهِ وَحْدَه ، ولَيس من أجل عبادة تِلْك الآثار والمصنوعات . فالمصنوعُ يدل على الصانع . والمؤمنُ يَعبد الصانعَ لا المصنوعَ.

وقال الشَّوكاني في فتح القدير (٤/ ٧٣٧) عن الشمس والقمر : ((لأنهما مخلوقان من مخلوقاته ، فلا يَصِحُّ أن يكونا شريكَيْن له في رُبوبيته)) اهـ .

وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٢) : ((لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر، فإنهما وإنْ جَرَيَا في الفُلْك بمنافعكم ، فإنما يَجْرِيَان بها لكم بإجراء الله إيَّاهما لكم ، طائعين له في جَرْيِهما ومسيرهما ، لا بأنهما يَقْدِران بأنفسهما على سَيْرٍ وجَرْيٍ ، دون إجراء الله إيَّاهما وتَسييرهما ، أو يستطيعان لكم نفعاً أو ضَرَّاً ، وإنما اللهُ مُسَخِّرُهما لكم لمنافعكم ومصالحكم ، فله فاسجدوا ، وإيَّاه فاعبدوا دُونَهما ، فإنه إن شاء طَمَسَ ضَوْءَهما ، فترككم حيارى في ظُلمة ، لا تهتدون سبيلاً ، ولا تُبْصِرون شَيئاً)) اهـ .

و﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ الضَّمير للمخلوقات الأربعة (الليل والنهار والشمس والقمر)، لأنَّ حُكْمَ جماعة ما لا يَعْقِل حُكْم الإناث (جَمْع ما لا يَعْقِل يُؤَنَّث) ، أو لأنها آيات خلقها اللهُ للدلالة على وجوده وَوَحدانيته . وقال البَغوي في تفسيره (١/ ١٧٥) : ((﴿ خَلَقَهُنَّ ﴾ بالتأنيث ، لأنه أجراها على طريق جمع التكسير ، وَلَم يُجْرِها على طريق التَّغليب للمُذكَّر على الْمُؤنَّث)) اهـ .

وإن كُنتم تُفْرِدُون اللهَ بالعبادة ، فلا تَسْجُدوا لِغَيْرِه . اعْبُدوا اللهَ وَحْدَه ، واسْجُدوا له وَحْدَه ، فهو الخالقُ، وكُلُّ شيء سِواه مَخلوق . وطاعةُ اللهِ تتجلى في إفراده بالعبادة ، وإخلاصِ العبادة لَه، والعبادةُ لا معنى لها إذا وُجِّهَت لِغَيْرِ اللهِ تعالى . وقال الطبري في تفسيره (١١/ ١١٢) : ((فإنَّ العبادة لا تَصْلُح لِغَيْرِه ، ولا تنبغي لِشَيْءٍ سِواه)) اهـ .

١٣_ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ فاسْجُدوا للهِ واعْبُدوا ﴾[النَّجْم : ٦٢] .

اسجدوا أيُّها الناسِ للهِ وَحْدَه، ولا تَسْجُدوا للأصنام البشرية ولا الأصنام الحجرية ، وأخْلِصُوا للهِ العبادةَ ، ولا تَجعلوا في عبادةِ اللهِ نَصيباً لأيِّ مخلوق . فاللهُ وَحْدَهُ هو المستحق للعبادة ، لا شَريك له ولا نِد .

وقال القرطبي في تفسيره (١٧/ ١٠٩) : ((قِيل : المراد به سُجود تِلاوة القُرآن ، وهو قول ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي)) اهـ .

والرأي الآخَر أنه سُجود الفَرْض في الصلاة .

وفي صحيح البخاري (١/ ٣٦٤) : عن ابن عباس _ رضي اللهُ عنهما _ أنَّ النبيَّ ﷺ سَجَدَ بالنَّجْم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجِن والإنس .

عِندَما قرأ النبيُّ ﷺ آيةَ السَّجدة في سُورة النَّجْم ، سَجَدَ . ولم يَسْجُد لِوَحْدِه ، بل سَجَدَ معه المسلمون اقتداءً بإمامهم النبيِّ ﷺ،وسجد المشركون، وسجد الجنُّ والإنس، وهذا ليس غريباً ، فالجنُّ والإنس مُكَلَّفون شَرْعاً، وسجودُ التلاوة لا يَختصُّ بالإنس، بل هو شامل للجن والإنس معاً. وقد عَلِمَ الراوي بسجود الجِن بإخبار النبيِّ ﷺ ، لأنه أمرٌ غَيبيٌّ .

وقَد ذُكرت تفسيرات لسجود المشركين : الأوَّل _ إن المشركين أرادوا مُعارَضة المسلمين ، وذلك بالسُّجود لأصنامهم عِناداً وتَحَدِّياً ورَفْضاً للإسلام . الثاني _ إن سُجود المشركين كان بلا قصد . الثالث _ إن المشركين خافوا من مُخالَفة المسلمين في ذلك المجلس (286).

ويمكن القَول إنَّ سُجود المشركين بسبب سَماع ذِكْر أصنامهم (آلهتهم) في السُّورة ، أو بسبب الخوف الذي أصابهم عِندَ سَماع السُّورة ، والدهشةِ التي سيطرت عليهم بسبب عَظَمَة آياتِ القُرآن وقوة تأثيرها .

لقد اعتبرَ ابنُ عباس أن الجميع قد سجدوا ، وسَوَّى بَيْنَهم في السُّجود . ولا شَكَّ أن فيهم مَن هو على غَير وضوء ، وهذا يُشير إلى أن السجود صحيح بوضوء وبِغَير وضوء .

وقال الحافظ في الفتح (٢/ ٥٥٤) : ((فائدة : لَم يوافق ابنَ عمر أحدٌ على جواز السجود بلا وضوء إلا الشَّعبي ، أخرجه ابن أبي شَيبة عنه بسند صحيح ، وأخرجه أيضاً بسند حسن عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ أنه كان يقرأ السَّجدة ، ثُمَّ يُسَلِّم ، وهو على غَير وضوء إلى غَير القِبلة)) .

---

(٢٨٦) قال الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٤) : ((والاحتمالات الثلاثة فيها نظر . والأول منها لِعِياض. والثاني يُخالفه سياق ابن مسعود ، حيث زاد فيه أن الذي استثناه مِنهم أخذَ كَفَّاً مِن حصى فَوَضَعَ جبهته عليه ، فإن ذلك ظاهر في القَصْد ، والثالث أبعد ، إذ المسلمون حينئذ هم الذين كانوا خائفين من المشركين لا العكس،قال: وما قِيل من أن ذلك بسبب إلقاء الشيطان في أثناء قراءة رسول الله ﷺ لا صحة له عَقْلاً ولا نقلاً)) اهـ .

وفي مسند أحمد (٤/ ٢١٥) : عن جعفر بن الْمُطَّلب بن أبي وَدَاعة عن أبيه ، قال : ((قرأ رسولُ الله ﷺ بمكة سُورةَ النَّجْم ، فَسَجَدَ، وسَجَدَ مَن عِندَه، فرفعتُ رأسي، وأبَيْتُ أن أسجدَ)). ـ وَلَم يكن أسلم يومئذ الْمُطَّلب ـ ، وكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرأ بها إلا سجد معه .

إنَّ سُجودَ العبدِ للهِ اعترافٌ بعبوديته لخالقه ، واستسلامٌ له ، وإقرارٌ بأنه عبد ضعيف ذليل أمام خالقه العظيم . والسُّجودُ للهِ هو خُضوعٌ له ، يُورِث الإنسانَ عِزّاً ومَجْداً في الدُّنيا والآخرة . والذينَ يتكبَّرون على السُّجود للهِ تعالى ، إنما يُنازِعون اللهَ في صِفة التَّكَبُّر ، ولا يَعترفون بالْمُتكبِّر الذي هو اسمٌ مِن أسماء اللهِ الْحُسْنَى . وهُم بهذا الفِعْل الشَّنيع يَكفرون بخالقهم ، ويَمشون إلى النار بأرجلهم .

وروى البخاري في صحيحه (١/ ٣٦٤) : عن زيد بن ثابت قال : قَرأتُ على النبيِّ ﷺ : ﴿ والنَّجْم ﴾ ، فلم يسجد فيها .

وهذا دليلٌ على أنَّ السُّجودَ سُنَّةٌ لا واجبٌ . فَمَن سَجَدَ يُؤْجَر ، ومَن لَم يَسجُد لا إثم عليه . وهذا الحديثُ حُجَّةٌ على مَن جعل السجود واجباً . وتركُ السجود لبيان الجواز ، وأن السجود ليس بواجب . وَلَوْ كان واجباً لأمرَه النبيُّ ﷺ .

وقال ابن عبد البَر في الاستذكار (٢/ ٥٠٥) : ((ومَن شاء سجد ، ومَن شاء ترك ، على أن زيداً كان القارئ وَلَم يسجد ، فلذلك لَم يسجد رسولُ الله ﷺ)) اهـ .

١٤ـ قالَ اللهُ تعالى : ﴿ وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ لا يَسْجُدُون ﴾[الانشقاق : ٢١] .

إذا سَمِعوا آياتِ القُرآنِ ، لا يَخضعون لها ، ولا يَسجدون للهِ تعالى إنكاراً وعِناداً وتَكَبُّراً . والمعنى: أيُّ مانعٍ جعلهم لا يَخضعون للقُرآنِ ، ولا يَسْجُدون عِندَ سَماعه ، وهو الكتاب الإلهيُّ الْمُعْجِز ؟! (287) .

(٢٨٧) قال الكاساني الحنفي في بدائع الصنائع (١/ ٤٢٨) : ((... ولأنَّ الله تعالى ذَمَّ أقواماً بترك السجود فقال : ﴿ وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ لا يَسْجُدُون ﴾ ، وإنما يستحق الذم بترك الواجب ، ولأن مواضع السجود في القرآن منقسمة، مِنها : ما هو أمر بالسجود وإلزام للوجوب ، كما في آخر سورة القلم ، ومنها: ما هو إخبار عن استكبار الكَفَرة عن السُّجود، فيجب علينا مخالفتهم بتحصيله ، ومنها: ما هو إخبار عن خشوع المطيعين، فيجب علينا متابعتهم لِقَوله تعالى: ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾)) اهـ . وقال ابن قُدامة الحنبلي في الْمُغني (١/ ٦٨٧): ((حُكم سجود التلاوة . مسألة : قال : ومَن سَجَدَ=

وقال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٣٠) : ((أي : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخِر ، وما لهم إذا قُرِئَت عليهم آيات الله وكلامه، وهو هذا القرآن ، لا يَسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ؟)) اهـ .

وعن أبي رافع قال : صَلَّيْتُ مَعَ أبي هريرة العَتَمَةَ ، فقرأ : ﴿ إذا السماءُ انشَقَّت ﴾ فسجدَ ، فقلتُ:ما هذه ؟، قال: ((سَجَدْتُ بها خَلْفَ أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه)).[288]

والمقصودُ بالعَتَمَة صلاة العِشاء . وقد سَجَدَ أبو هُرَيرة _ رضي اللهُ عنه _ السَّجدة التي في سُورة الانشقاق ، وذَكَرَ أنَّ النبيَّ ﷺ سَجَدَها ، وسيظل أبو هريرة يسجدها حتى يَلْقَى النبيَّ ﷺ ، يعني : حتى الموت .

وقال القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢٤٦) : ((وقد قال مالك : إنها ليست من عزائم السُّجود، لأن المعنى لا يُذْعِنون ولا يُطيعون في العمل بواجباته ... قال ابن العربي : لَمَّا أَمَمْتُ بالناس تركتُ قراءتها، لأني إن سَجَدْتُ أنكروه، وإن تركتُها كان تقصيراً مِنِّي فاجتنبتُها إلا إذا صَلَّيْتُ وَحْدي)).

١٥_ ﴿ كلا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقترِب ﴾[العَلَق : ١٩].

هذه الآيةُ رَدٌّ على أبي جهل ، وتَقويةٌ للنبيِّ ﷺ في مُواجَهة أعدائه . والمعنى : لَيس الأمر كما يقول أبو جهل إذْ يَنهى النبيَّ ﷺ عن عبادةِ اللهِ والصلاةِ له . لا تُطِعْهُ يا محمد في دَعوته لك لترك الصلاة ، ولا تَلتفِتْ لكلامه التافه . دَاوِمْ على العبادة ، وَوَاصِل الصلاة ، واللهُ حافظُكَ ومُؤيِّدُكَ وناصرُكَ ، ولَن يَقْدِر أبو جهل ولا غَيْرُه على الإضرار بِك .

﴿ واسْجُدْ واقترِب ﴾ [289]. صَلِّ للهِ تعالى يا محمد ، وتَقَرَّبْ إلَيه بالعبادة والصلاة والذِّكْر . وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١١٨): ((وقيل: المعنى: إذا سَجَدْتَ فاقترِبْ مِنَ اللهِ بالدُّعاء)) .

=فَحَسَن، ومَن ترك فلا شيء عليه . وجُملة ذلك أن سجود التلاوة سُنَّة مُؤَكَّدة ، وليس بواجب عند إمامنا ومالك والأوزاعي والليث والشافعي ، وهو مذهب عمر وابنه عبد الله . وأوجبه أبو حنيفة وأصحابه لِقَوْلِ الله _ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فما لهم لا يُؤمنون . وإذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ القُرآنُ لا يَسْجُدُون ﴾ ، ولا يُذَمُّ إلا على ترك واجب ، ولأنه سجود يُفعَل في الصلاة ، فكان واجباً كسجود الصلاة)) اهـ .

(٢٨٨) متفق عليه. البخاري (١/ ٣٦٦) برقم (١٠٢٨)، ومسلم (١/ ٤٠٦) برقم (٥٧٨).

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٥٠) : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ((أقربُ ما يكون العَبْدُ مِن رَبِّهِ وَهُوَ ساجد ، فأكْثِرُوا الدعاء)) .

فالعبدُ يَكون أقرب ما يُمكِن مِن رحمة اللهِ ، وهو في حال السُّجود . كما تبرز أهميةُ الدعاء بإخلاص وخشوع وتركيز . وهذا الحديث دليلٌ على أن السجود أفضل مِن القِيام ، وجميعِ أركان الصلاة (290). وهذا ليس غريباً ، فالسجودُ هو مُنتهى الذل والخضوع للهِ تعالى ، وهذا اعترافٌ بِعَظَمَة اللهِ ، والعبودية .

وقال القرطبي في تفسيره (٢٠/ ١١٨) : ((قال عُلماؤنا : وإنما كان ذلك لأنها نهاية العبودية والذِّلة . وللهِ غاية العِزَّة ، وله العِزَّة التي لا مقدار لها، فَكُلما بَعُدْتَ مِن صِفته، قَرُبْتَ مِن جَنته ودَنَوْتَ مِن جِواره في داره)) اهـ .

وفي صحيح مسلم (١/ ٣٤٨) أنَّ النبيَّ ﷺ قال : ((ألا وإنِّي نُهيتُ أن أقرأ القرآن راكعاً ، أو ساجداً ، فأمَّا الرُّكوع فَعَظِّموا فيه الرَّبَّ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وأمَّا السُّجود فاجْتَهِدوا في الدعاء ، فَقِمِنٌ أن يُستجاب لكم)) .

---

(٢٨٩) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ١٧٩و١٨٠) : ((قَوْله تعالى : ﴿ واقترب ﴾ خطاب للنبيِّ ﷺ . وقد قِيل : إنه خطاب لأبي جهل ، ثُمَّ فِيه قَولان : أحدهما أن المعنى اسْجُد أنتَ يا محمد = =واقترِبْ أنتَ يا أبا جهل من النار ، قاله زيد بن أسْلَم ، والثاني : واقترِبْ يا أبا جهل تهدُّداً له ، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القدماء)) اهـ .

(٢٩٠) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠) : ((وفي هذه المسألة ثلاثة مذاهب. أحدها أن تطويل السجود وتكثير الركوع والسجود أفضل،حكاه الترمذي والبغوي عن جماعة، ومِمَّن قال بتفضيل تطويل السجود ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. والمذهب الثاني : مذهب الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وجماعة أن تطويل القيام أفضل لحديث جابر في صحيح مسلم أن النبيَّ ﷺ قال : " أفضل الصلاة طُول القُنوت " والمراد بالقُنوت القِيام ، ولأنَّ ذِكْر القِيام القراءة ، وذِكْر السُّجود التسبيح ، والقراءة أفضل ، لأن المنقول عن النبيِّ ﷺ أنه كان يُطَوِّل القِيامَ أكثر مِن تَطويل السجود . والمذهب الثالث أنهما سَواء . وتوقف أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ في المسألة ، وَلَم يَقْضِ فيها بشيء ، وقال إسحاق بن راهويه : أمَّا في النهار فتكثير الركوع والسُّجود أفضل ، وأمَّا في الليل فَتَطويل القِيام، إلا أن يكون للرَّجل جُزء بالليل يأتي عليه ، فتكثير الركوع والسُّجود)) اهـ .

إنَّ القُرآن لا يُقرَأ إلا في حالة القِيَام تَعظيماً لكلامِ اللهِ تعالى، ولا يُقرَأ في الركوع ولا السُّجود بسبب الانحناء والاقتراب من الأرض ، كما أن الركوع والسُّجود وَضْعِيَّتان تشتملان على معنى الذل والانكسار والاستسلامِ ، وهذا لا يُناسب قراءة القُرآن . وفي الحديث نَهْيٌ واضح عن قراءة القُرآن في الرُّكوع والسُّجود . ومعنى " فَقِمِنٌ " حقيقٌ وجديرٌ . وفي الرُّكوع يكون التَّسبيح، وهو تَنْزيه اللهِ وتَعظيمه وتَمجيده . وفي شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ١٩٧) : ((واستحبَّ الشافعيُّ _ رحمه الله تعالى _ وغَيْرُه من العلماء أن يقول في رُكوعه : سُبحان رَبِّيَ العظيم ، وفي سُجوده سُبحان رَبِّيَ الأعلى ، ويُكرِّر كُلَّ وَاحدة منهما ثلاث مرات)) اه .

وفي السُّجود يَكون التَّسبيح والدعاء ، معَ استحضار معاني الإخلاص والخشوع [291] .

والجديرُ بالذِّكْر أن سبب نزول الآية : ﴿ كلا لا تُطِعْهُ واسْجُدْ واقترِب ﴾ ، هو ما رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٥٤)عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هَل يُعَفِّرُ محمدٌ وَجْهَه بين أظْهُرِكم؟ ، قال : فَقِيل : نعم ، فقال : واللاتِ والعُزَّى لَئِن رَأيْتُه يفعل ذلك لأطأنَّ على رَقبته ، أو لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَه في التراب، قال : فأتى رسولَ الله ﷺ ، وَهُوَ يُصَلِّي ، زَعَمَ لَيَطَأَ على رقبته ، قال: فما فَجِئَهم مِنهُ إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ ، ويَتَّقي بِيَدَيْهِ ، قال : فَقِيل له : ما لَكَ ؟ ، فقال : إنَّ بَيْني وبَيْنَه لَخَندقاً مِن نار، وهَوْلاً، وأجنحة ، فقال رسولُ الله ﷺ : ((لَوْ دَنا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ الملائكةُ عُضواً عُضواً)) .

يُريد أبو جهل أن يَقول : هل يَسْجُد محمد على التراب ؟ . وتَعفيرُ الوَجْه هو إلصاقُه بالتراب. وقد أقسمَ أبو جهل بآلهته الأصنام عِناداً وتَكَبُّراً وَرَفْضاً للحق . وأرادَ _ لَعَنَه اللهُ تعالى _ إذلالَ النبيِّ ﷺ ، وذلك بأن يَدُوسَ على رَقَبته الشريفة ، أو يُلْصِق وَجْهَه بالتراب . وقد جاءَ النبيَّ ﷺ من أجل تنفيذ مُخَطَّطه الشَّيطاني ، ولكنه بَغَتَهم بِرُجوعه ، وفُوجِئوا به يَمشي إلى الخلْف . لقد رأى بأُمِّ عَيْنَيْهِ أن النبيَّ ﷺ محروسٌ ومَحميٌّ،ولا يُمكن الوصول إلَيه.واللهُ يَحْفِظ رسولَه ويَحميه مِن كل شر. وتَعجيلُ العقوبة لأبي جهل ،كانت بسبب حجم كُفره وعِناده واستكباره ، فقد أرادَ أن يَدُوس على

(٢٩١) قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (٤/ ١٩٧) : ((فَلَوْ قرأ في رُكوع أو سجود غيرَ الفاتحة كُرِهَ ولَم تَبْطُل صلاتُه ، وإن قرأ الفاتحةَ فَفِيه وَجهان لأصحابنا _ يعني الشافعية _ : أصَحُّهما أنه كَغَير الفاتحة فَيُكْرَه ولا تَبْطُل صلاتُه ، والثاني يَحْرُم وتَبْطُل صلاتُه هذا إذا كان عَمْداً ، فإن قرأ سَهْواً لَم يُكْرَهْ . وسواءٌ قرأ عمداً أو سهواً يَسجد للسَّهْوِ عند الشافعي _ رحمه الله تعالى _)) .

رقبة النبيِّ الشريفة، ويُلْصِق وَجْهَه الشريف بالتراب.واللهُ لا يَسْمَح بهذا. وَلَوْ اقتربَ أبو جهل مِنَ النبيِّ ﷺ لَقَتَلَتْهُ الملائكةُ .

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٧/ ١٤٠) : ((ولهذا الحديث أمثله كثيرة في عِصْمته ﷺ مِن أبي جهل وغَيْرِه مِمَّن أراد به ضَرراً . قال اللهُ تعالى : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : ٦٧])) اهـ .

وعن عائشة _ رضي اللهُ عنها _ قالت : كان النبيُّ ﷺ يُحْرَسُ حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ، فأخرجَ النبيُّ ﷺ رأسَه مِنَ القُبَّة ، فقال لهم : ((أيُّها الناس ، انصَرِفوا ، فقد عَصَمَني اللهُ))[292].

وهذا الحديثُ يدل على صِدْق النبيِّ ﷺ وصِحَّةِ نُبُوَّته. فَلَوْ كان كاذباً لَمَا استغنى عن الحرَّاس، وجازَفَ بحياته . وما استغناؤه عن الحراس إلا دليلٌ واضحٌ على أنَّه نبيٌّ مَعصومٌ مُؤيَّد بالوَحْيِ مِنَ اللهِ الذي يَحفظه ويَحميه . إنَّ النبيَّ ﷺ واثقٌ باللهِ الذي أرْسَلَه ، وواثقٌ بأنَّ خالقَ الأسباب يَحميه ، لذلك استغنَى عن أسباب الحماية والحراسة . ولَم يَعُدْ يَحتاج إلى حماية المخلوق ، لأن الخالق قد تَكَفَّل بحمايته وحراسته وعِصْمته .

---

(٢٩٢) رواه الحاكم في المستدرَك (٢/ ٣٤٢) برقم (٣٢٢١) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي . ورواه التِّرمذي في سُننه (٥/ ٢٥١) برقم (٣٠٤٦) بسند حسَّنه الحافظ في الفتح (٦/ ٨٢) .

فِهْرِس

مقدمة.......... 5
١_ تلاوة القُرآن.......... 7
٢_ وَصْف القرآن ووجوب الإيمان به.......... 31
٣_ حقيقة القرآن وتصديقه للكتب السابقة.......... 106
٤_ مُحاجَجة الْمُنكِرِين الجاحدين.......... 177
٥_ تنْزيه القرآن عن الشِّعْر.......... 265
٦_ تأوُّل المتأوِّلين وتحريفاتهم.......... 271
٧_ تغييرهم حُكم القرآن.......... 283
٨_ الْمُحْكَم والْمُتشابِه.......... 297
٩_ النَّسْخ.......... 354
١٠_ الأمثال.......... 359
١١_ إنزال القرآن.......... 367
١٢_ هَجْر القرآن.......... 372
١٣_ وجوب الْحُكم بالقرآن.......... 374
١٤_ سَجَدات التِّلاوة.......... 382
فِهْرِس.......... 410

تَمَّ الكِتَابُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالى